التَّوضِيحُ الـمُفِيدُ
لِـمِئَةِ مَسْأَلَةٍ فِي التَّوْحِيْدِ

أعَدَّهُ وَأَلَّفَهُ
أَبُو مُسْلِمٍ مَجْدِي بْنُ عَبْدِ الوَهَّابِ الأَحْمَد
غَفَرَ الله له، وعَفَا عَنْه

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله عز وجل، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلال، وكل ضلالة في النار.

وبعد؛ فإن توحيد الله العظيم هو الذي من أجله خلق الله الخلق؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ومن أجله بعث الله تعالى الرسل عليهم الصلاة والسلام؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

ثم سخَّر الله تعالى العلماء ورثة الأنبياء والرُّسل لتبليغ هذا الأمر للناس جميعاً، فاجتهدوا وشمّروا عن سواعدهم في نشره وإيضاحه، بكل السبل المتاحة لديهم.

ومن هذه السبل كتابة الرسائل والكتب، ليسهل نشرها في جميع بقاع الأرض.

وكان ممن سلك هذا السبيل الإمام البخاري[1] - رَحِمَهُ اللَّهُ -؛ فقد ضمَّن كتابه «الجامع المسند الصحيح» المعروف بـ«صحيح البخاري» كتاباً سماه: «التوحيد»،

---

(١) هو الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري؛ وُلِدَ سنة (١٩٤هـ)، وتوفي سنة (٢٥٦هـ).

شمل جُل مسائل التوحيد بأسلوب فائق؛ بحيث يأتي بالأحاديث المسندة، ويجعل لها عنوانًا وبابًا، يدل على سعة علمه وفقهه، وكانت أبرز مسائله حول توحيد الأسماء والصفات.

وأيضًا: كان ممن سلك هذا السبيل الإمام التميمي [1]-رَحِمَهُ اللَّهُ-، فألَّف كتابًا سماه: «التوحيد الذي هو حق الله على العبيد».

والناظر فيه وفي كتاب التوحيد للبخاري، يعرف أن التميمي سلك مسلكًا مشابهًا لأسلوب البخاري في تأليفه، لكنه حذف الأسانيد، وأتبع كل باب مسائل تتضمن فوائد وفقهًا مأخوذاً من الآيات والأحاديث والآثار الواردة في الباب.

وكانت أبرز مسائله حول توحيد الإلهية، ولعل اهتمام كل واحد منهما بنوع من أنواع التوحيد أكثر من غيره، راجع إلى ما كان في عصرهما من انحراف وتخبط وخوض في هذه المسائل التي تطرقوا إليها.

ونحن في هذا الزمان ابتلينا في انحراف وتخبط وخوض في كل أنواع التوحيد، فكان علينا أن نتصدى لهذا الأمر كُلٌ بحسب قدرته واجتهاده.

ومن هذا المنطلق، رأيت أن أجمع بين الكتابين - أي: كتاب «التوحيد» للبخاري، وكتاب «التوحيد» للتميمي- في كتاب واحد، على صورة واحدة.

وكان عملي في هذا الكتاب؛ كما يلي:

١- حذف الأسانيد من كتاب التوحيد للبخاري.

٢- حذف الأحاديث الضعيفة من كتاب التوحيد للتميمي؛ وهي قليلة جداً.

٣- حذف المسائل وبعض التعليقات المدخلة في المتن من كتاب التوحيد للتميمي.

٤- حذف الآثار الموقوفة على الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وأقوال التابعين رحمهم الله تعالى، والإبقاء على ما كان مِن الكتاب والسنة.

---

(١) هو الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي ولد في سنة (١١١٥هـ)، وتوفي سنة (١٢٠٦هـ).

٥- حذف الأحاديث المكررة من كلا الكتابين، بعد أن جُمع بينهما.

٦- حذف الأحاديث الطويلة التي في غيرها ما يغني عنها، من كتاب التوحيد للبخاري.

٧- نقل بعض الأحاديث أو الأبواب من مكانها إلى مكان آخر أراه مناسباً في هذا الكتاب.

٨- تخريج وعزو الأحاديث إلى مصادرها، وذكر أحكام الشيخ الألباني- رَحِمَهُ اللَّهُ - عليها غالباً، إن لم تكن في البخاري ومسلم - رحمهما الله تعالى -.

هذا جُل ما صنعته في إنجاز هذا المتن، ثم أضفت إليه بعض المسائل أخذتها من كتاب العقيدة الواسطية لابن تيمية[1] - رَحِمَهُ اللَّهُ -، ولم أتوسع بذكر الأدلة أكثر مما جمعه العلماء الذين جمعت كتبهم إلا نادراً ليكون بين يدي القراء شاملاً لأكثر المسائل، وبصورة حسنةٍ سهلةِ القراءةِ والفهم والحفظِ، فجاء في مئة مسألة، فأسميته: «مئة مسألة في التوحيد».

ثم أطلعت عليه أحد مشايخي الفضلاء، فاقترح عليَّ شرحه لتتم الفائدة، ويكون هذا العمل بصورة كاملة.

فاستجبت لطلبه، وقمت بتدريسه لمجموعة من طلبة العلم وشرحه لهم، معتمداً على كثير من تفاسير القرآن الكريم وشروح صحيح البخاري وأهمها كتاب «فتح الباري» للحافظ ابن حجر العسقلاني، وشرح شيخي عبد الله الغنيمان لكتاب التوحيد للإمام البخاري، وكتاب «فتح المجيد شرح كتاب التوحيد» للشيخ عبد الرحمن آل الشيخ، وشرح شيخي محمد بن صالح العثيمين لكتاب التوحيد للتميمي المسمى: «القول المفيد» وشرحه «للعقيدة الواسطية»، وغير هذه الشروح[2]،

---

(١) هو شيخ الإسلام العلامة أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، ويكنى بـ«أبي العباس»، ولد في سنة (٦٦١هـ)، وتوفي سنة (٧٢٨هـ).

(٢) ولم أعزُ ما نقلته من شروحهم في الغالب، لما كان مني مِن تصرف بها وتغيير واختصار؛ مكتفياً بهذه الإشارة هنا، ومن أراد التوسع، فليرجع للشروح التي ذكرتها.

ودونت شرحي لهم، وحين أتممت تدريسه وشرحه واكتمل التدوين، قمت بتجهيزه ومراجعته ليحسن نشره بصورة تناسب جميع القراء والمبتدئين من طلبة العلم.

تنبيه: قد يتكرر شرح بعض الألفاظ أو العبارات أو المواضيع أحيانـًا؛ إما بصورة مختصـرة أو بشـيء من التفصـيل في عدة مسـائل؛ وهذا لاشـتراكها في بعض الأدلة والمواضيع.

والله الموفق، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبها

أبو مسلم مجدي بن عبد الوهاب الأحمد

يوم الأربعاء ١١ شعبان ١٤٤٠هـ

١٧/ ٤/ ٢٠١٩م، في الأردن

ثم قمت بمراجعته عدة مرات،

كان آخرها يوم الجمعة ١٢ ذي الحجة

١٤٤٤هـ ٣٠/ ٦/ ٢٠٢٣م

متن الكتاب

المسألة (الأولى): فِي التَّوْحِيْدِ الَّذِي هُوَ حَقُّ الله عَلَى العَبِيْدِ [٦١](١)

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [٦٢].

وَقَالَ الله تَعَالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [٦٣].

وَقَالَ الله تَعَالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۞ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [٦٤].

وَقَالَ الله تَعَالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [٦٦].

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۞ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۞ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [٦٦].

وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ رَدِيْفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ فَقَالَ لِي: «يَا مُعَاذُ، أَتَدْرِي مَا حَقُّ الله عَلَى العِبَادِ، وَمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى الله؟» فَقُلْتُ: الله وَرَسُوْلُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «حَقُّ الله عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوْهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ العِبَادِ عَلَى الله أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» فَقُلْتُ: يَا رَسُوْلَ الله أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟، قَالَ: «لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا» [٧٤].

---

(١) هذا الرقم الذي بين المعكوفتين، هو رقم الصفحة التي يوجد فيها شرح عنوان المسألة أو الآية أو الحديث.

المسألة (الثانية): فِي فَضْلِ التَّوْحِيْدِ وَمَا يُكَفِّرُ مِنَ الذُّنُوْبِ [٧٧]

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [٧٧].

وقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَحْدَهُ لَا شَرِيْكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدَاً عَبْدُهُ وَرَسُوْلُهُ، وَأَنَّ عِيْسَى عَبْدُ الله وَرَسُوْلُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوْحٌ مِنْهُ، وَالجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ الله الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ» [٧٨].

وقال رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ الله حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ الله» [٨٣].

وَقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «قَالَ الله تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ؛ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيْتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً» [٨٤].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه، أَنَّ رَجُلاً سَمِعَ رَجُلاً يَقْرَأُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، يُرَدِّدُهَا فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَذَكَرَ لَهُ ذَلِكَ، وَكَأَنَّ الرَّجُلَ يَتَقَالُّهَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ» [٨٦].

وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ رَجُلاً عَلَى سَرِيَّةٍ، وَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ، فَيَخْتِمُ بِـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فَلَمَّا رَجَعُوا، ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «سَلُوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟»، فَسَأَلُوهُ؟فَقَالَ: لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَخْبِرُوهُ أَنَّ الله يُحِبُّهُ» [٩٠].

المسألة (الثالثة): فِيْمَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيْدَ دَخَلَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ [٩٢]

قَالَ الله سبحانه وتَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [٩٢].

وقال الله تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ

رَٰجِعُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ [٩٤].

وَعَنْ حُصَيْنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ سَعِيْدِ بْنِ جُبَيْرٍ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ رَأَى الكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَّ البَارِحَةَ؟، فَقُلْتُ: أَنَا، ثُمَّ قُلْتُ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ، وَلَكِنِّي لُدِغْتُ، قَالَ: فَمَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: ارْتَقَيْتُ، قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟ قُلْتُ: حَدِيْثٌ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ، قَالَ: وَمَا حَدَّثَكُمْ؟، قُلْتُ: حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ الحُصَيْبِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ»، قَالَ: قَدْ أَحْسَنَ مَن انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ.

وَلَكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَهْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيْمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيْلَ لِي: هَذَا مُوْسَى وَقَوْمُهُ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيْمٌ، فَقِيْلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُمْ سَبْعُوْنَ أَلْفًا يَدْخُلُوْنَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ».

ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُوْلَئِكَ؛ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلْهُمُ الَّذِيْنَ صَحِبُوا رَسُوْلَ الله ﷺ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِيْنَ وَلِدُوا فِي الإِسْلَامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بِالله شَيْئًا، وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُوْلُ الله ﷺ فَأَخْبَرُوْهُ، فَقَالَ ﷺ: «هُمُ الَّذِيْنَ لَا يَسْتَرْقُوْنَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُوْنَ، وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُوْنَ».

فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ: ادْعُ الله أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ ﷺ: «أَنْتَ مِنْهُمْ»، ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: ادْعُ الله أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ ﷺ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ» [٩٥].

المسألة (الرابعة): فِي الخَوْفِ مِنَ الشِّرْكِ [١٠٤]

قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [١٠٤].

وَقَالَ الخَلِيْلُ إِبرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴾ [١٠٦].

وَعَنْ مَحْمُوْدِ بْنِ لَبِيْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ»، فَسُئِلَ عَنْهُ؟ فَقَالَ: «الرِّيَاءُ» [١٠٨].

وَقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُوْنِ الله نِدّاً دَخَلَ النَّارَ» [١٠٩].

وَقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «مَنْ لَقِيَ الله لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ» [١١٠].

المسألة (الخامسة): فِي الدَّعْوَةِ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَه إِلَّا الله [١١٢]

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [١١٢].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُوْلَ الله ﷺ، لَمَّا بَعَثَ مُعَاذاً إِلَى اليَمَنِ، قَالَ لَهُ: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوْهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله - وَفِي رِوَايَةٍ: إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا الله -، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوْكَ لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ الله افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوْكَ لِذَلِكَ: فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ الله افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوْكَ لِذَلِكَ فَإِيَاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُوْمِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الله حِجَابٌ» [١١٤].

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُوْلَ الله ﷺ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: «لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَداً رَجُلاً يُحِبُّ الله وَرَسُوْلَهُ، وَيُحِبُّهُ الله وَرَسُوْلُهُ، يَفْتَحُ الله عَلَى يَدَيْهِ»، فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوْكُوْنَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحُوا؛ غَدَوا عَلَى رَسُوْلِ الله ﷺ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا، فَقَالَ: «أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟» فَقِيْلَ: هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ، فَأُتِيَ بِهِ، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ، وَدَعَا لَهُ، فَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، فَقَالَ: «انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ الله تَعَالَى فِيْهِ، فَوَالله لَأَنْ يَهْدِيَ الله بِكَ رَجُلاً وَاحِداً، خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ» [١١٨].

المسألة (السادسة): فِي تَفْسِيْرِ التَّوحِيْدِ وَشَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا الله [١٢٢]

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ [١٢٢].

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ۞ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي ﴾ [١٢٣].

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [١٢٤].

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [١٢٥].

وَعَنِ النَّبِي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُوْنِ الله، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى الله عز وجل» [١٢٧].

المسألة (السابعة): أَنَّ مِنَ الشِّرْكِ لُبْسُ الحَلَقَةِ وَالخَيْطِ وَنَحْوِهِمَا لِرَفْعِ البَلَاءِ أَوْ دَفْعِهِ [١٢٩]

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [١٣٠].

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الجُهَنِيِّ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُوْلَ الله ﷺ أَقْبَلَ إِلِيْهِ رَهْطٌ، فَبَايَعَ تِسْعَةً، وَأَمْسَكَ عَنْ وَاحِدٍ؛ فَقَالُوا: يَا رَسُوْلَ الله، بَايَعْتَ تِسْعَةً وَتَرَكْتَ هَذَا؟ قَالَ ﷺ: «إِنَّ عَلَيْهِ تَمِيْمَةً »،فَأَدْخَلَ يَدَهُ فَقَطَعَهَا، فَبَايَعَهُ، وَقَالَ ﷺ: «مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَةً؛ فَقَدْ أَشْرَكَ» [١٣١].

وَعَنْ عِيْسَى بْنِ عَبدِ الرحمن، قَالَ:دَخَلْتُ عَلَى عَبْدِالله بْنِ عُكَيْمٍ أَعُوْدُهُ، وَبِهِ حُمْرَةٌ،فَقُلْتُ:أَلَا تُعَلِّقُ شَيْئًا؟، قَالَ: المَوْتُ أَقْرَبُ مِنْ ذَلِكَ؛ قَالَ النَبِيُّ ﷺ: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ» [١٣٢].

المسألة (الثامنة): فِي الرُّقَى وَالتَمَائِم [١٣٤]

عَنْ أَبِي بَشِيرٍ الأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه، أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُوْلِ الله ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ،

فَأَرْسَلَ رَسُوْلاً: «أَنْ لاَ يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيْرٍ قِلَادَةٌ مِنْ وَتَرٍ - أَوْ قِلَادَةٌ- إِلاَّ قُطِعَتْ» [١٣٥].

وقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ» [١٣٦].

وَعَنْ رُوَيْفِعٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ لِي رَسُوْلُ الله ﷺ: «يَا رُوَيْفِعُ! لَعَلَّ الحَيَاةَ سَتَطُوْلُ بِكَ بَعْدِي، فَأَخْبِرِ النَّاسَ أَنَّ مَنْ عَقَدَ لِحْيَتَهُ، أَوْ تَقَلَّدَ وَتَرَاً، أَوِ اسْتَنْجَى بِرَجِيْعِ دَابَّةٍ أَوْ عَظْمٍ، فَإِنَّ مُحَمَّدَاً مِنْهُ بَرِيْءٌ» [١٣٧].

المسألة (التاسعة): فِيْمَنْ تَبَرَّكَ بِشَجَرَةٍ أَوْ حَجَرٍ وَنَحْوِهِمَا [١٣٩]

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ * أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ * تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ * إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ [١٤١].

وَعَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُوْلِ الله ﷺ إِلَى حُنَيْنٍ وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَلِلمُشْرِكِيْنَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُوْنَ عِنْدَهَا، وَيَنُوْطُوْنَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ، فَقُلْنَا: يَا رَسُوْلَ الله، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتَ أَنْوَاطٍ، فَقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «الله أَكْبَرُ! إِنَّهَا السُّنَنُ، قُلْتُمْ - وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ - كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيْلَ لِمُوْسَى: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾، لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» [١٤٤].

المسألة (العاشرة): فِي أَنَّ مِنَ الشِّرْكِ الذَّبْحُ لِغَيْرِ الله تعالى [١٤٧]

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [١٤٧].

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾ [١٤٨].

وقال رسول الله ﷺ: «لَعَنَ الله مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ الله، لَعَنَ الله مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، لَعَنَ الله مَنْ آوَى مُحْدِثَاً، لَعَنَ الله مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الأَرْضِ» [١٤٨].

المسألة (الحادية عشرة): فِي أَنَّهُ لَا يُذْبَحُ لله بِمَكَانٍ يُذْبَحُ فِيْهِ لِغَيْرِ الله [١٥١]

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [١٥١].

وَعَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: نَذَرَ رَجُلٌ أَنْ يَنْحَرَ إِبِلاً بِبُوَانَةَ، فَسَأَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ»؟، قَالُوا: لَا، قَالَ ﷺ: «فَهَلْ كَانَ فِيْهَا عِيْدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ»؟، قَالُوا: لَا، فَقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «أَوْفِ بِنَذْرِكَ؛ فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ الله، وَلَا فِيْمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ» [١٥٤].

المسألة (الثانية عشرة): فِي أَنَّ مِنَ الشِّرْكِ النَّذْرُ لِغَيْرِ الله تعالى [١٥٧]

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ [١٥٨].

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ ﴾ [١٥٨].

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [١٥٩].

وَقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيْعَ الله فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِي الله فَلَا يَعْصِهِ» [١٥٩].

المسألة (الثالثة عشرة): فِي أَنَّ مِنَ الشِّرْكِ الاسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ الله [١٦٢]

قَالَ الله سبحانه وتَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [١٦٣].

وَقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً، فَقَالَ: أَعُوْذُ بِكَلِمَاتِ الله التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرُّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْحَلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ» [١٦٤].

المسألة (الرابعة عشرة): فِي أَنَّ مِنَ الشِّرْكِ أَنْ يَسْتَغِيْثَ بِغَيْرِ الله أَوْ يَدْعُو غَيْرَهُ [١٦٦]

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ

ٱلظَّٰلِمِينَ * وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [١٦٦].

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [١٦٩].

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [١٧١].

وَقَالَ الله تَعَالَى ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ [١٧٢].

المسألة (الخامسة عشرة): فِي أَنَّ الأَمْر كُلَّه بِيَدِ الله، وَهُوَ المُسْتَحِقُّ للعِبَادَةِ [١٧٣]

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ [١٧٣].

وقَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ * إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [١٧٥].

وَعَنْ أَنَسٍ ﵁، قَالَ: «شُجَّ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَّتُهُ؛ فَقَالَ ﷺ: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ؟»»، فَنَزَلَتْ: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ [١٧٦].

وفي رواية عَن ابْنِ عُمَرَ ﵄، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُوْلَ الله ﷺ يَقُوْلُ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوْعِ فِي الرَّكْعَةِ الأَخِيْرَةِ مِنَ الفَجْرِ: «اللهمَّ الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا» بَعْدَمَا يَقُوْلُ: «سَمِعَ الله لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ»، فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾، وَفِي رِوَايَةٍ أخرى: يَدْعُو عَلَى صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ، وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو وَالحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، فَنَزَلَتْ: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ [١٧٨].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَامَ رَسُوْلُ الله ﷺ حِيْنَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾؛ قَالَ: «يَا مَعْشَـرَ قُرَيْشٍ - أَوِ كَلِمَةً نَحْوَهَا - اشْـتَرُوا أَنْفَسَـكُمْ، لَا أُغْنِي عَنْكُم مِنَ الله شَـيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ الله شَـيْئًا، يَا صَـفِيَّةُ عَمْةَ رَسُوْلِ الله ﷺ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ الله شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِيْنِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ الله شَيْئًا» [١٨٠].

المسألة (السادسة عشرة): فِي أَنَّ المَلَائِكَةَ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ وَيَفْعَلُوْنَ مَا يُؤْمَرُون [١٨٣]

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [١٨٣]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَضَـى الله الأَمْرَ فِي السَّـمَاءِ، ضَرَبَتِ المَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾، فَيَسْـمَعُهَا مُسْـتَرِقُ السَّـمْعِ، وَمُسْـتَرِقُ السَّـمْعِ هَكَذَا بَعْضُـهُ فَوْقَ بَعْضٍ - وَصَـفَهُ سُـفْيَانُ بِكَفِّهِ فَحَرَّفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ - فَيَسْمَعُ الكَلِمَةَ، فَيُلْقِيْهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيْهَا الآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَـانِ السَّـاحِرِ أَوِ الكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّـهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَـا، وَرُبَّمَـا أَلْقَـاهَـا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِئَةَ كِذْبَةٍ، فَيُقَالُ: أَلَيْس قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؟، فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ» [١٨٤].

وَقَالَ رَسُـوْلُ الله ﷺ: «إِذَا تَكَلَّمَ الله تَعَالَى بالوَحْيِ، سَـمِعَ أَهْلُ السَّـمَاءِ لِلسَّـمَاءِ صَـلْصَـلَةً كَجَرِّ السِّـلْسِـلَةِ عَلَى الصَّـفَا، فَيُصْـعَقُوْنَ،فَلَا يَزَالُوْنَ كَذَلِكَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ جِبْرِيْلُ،حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ جِبْرِيْلُ فُزِّعَ عَنْ قُلُوْبِهِمْ، فَيَقُوْلُوْنَ: يَا جِبْرِيْلُ مَاذَا قَالَ رَبُّكَ؟، فَيَقُوْلُ: الحَقَّ، فَيَقُوْلُوْنَ: الحَقَّ الحَقَّ» [١٨٧].

المسألة (السابعة عشرة): فِي إِثْبَاتِ الشَّفَاعَةِ لله وَأَنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا بِإِذْنِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى [١٨٨]

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ [١٨٨].

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [١٨٩].

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [١٩١].

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [١٩٢].

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ * وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [١٩٣].

المسألة (الثامنة عشرة) فِي أَنَّ اللهَ وَحْدَهُ يَمْلِكُ الهِدَايَةَ [١٩٥]

قال الله تَعَالَى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [١٩٥].

وعَنِ ابْنِ المُسَيِّبِ عَنْ أَبِيْهِ قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُوْلُ الله ﷺ وَعِنْدَهُ عَبْدُ الله بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ وَأَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ لَهُ: «يَا عَمُّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَا الله، كَلِمَةً أَحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ الله»، فَقَالَا لَهُ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ؟ فَأَعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَعَادَا، فَكَانَ آخِرُ مَا قَالَ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُوْلَ: لَا إِلَهَ إِلَا الله، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ»، فَأَنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾، وَأَنْزَلَ الله فِي أَبِي طَالِبٍ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [١٩٧].

المسألة (التاسعة عشرة): فِي أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِمْ دِيْنَهُمْ هُوَ الغُلُوُّ فِي الصَّالِحِيْنَ [٢٠٠]

قَالَ الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ [٢٠١].

وقال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ [٢٠٣]

وَقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «لَا تَطْرُوْنِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُوْلُوا: عَبْدُ الله وَرَسُوْلُهُ» [٢٠٤].

وَقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالغُلُوَّ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الغُلُوُّ» [٢٠٥].

وَقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «هَلَكَ المُتَنَطِّعُوْنَ» - قَالَهَا ثَلَاثًا - [٢٠٦].

المسألة (العشرون): فِي التَّغْلِيْظِ عَلَى مَنْ عَبَدَ الله عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ فَكَيْفَ إِذَا عبدَهُ؟ [٢٠٧]

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتْ لِرَسُوْلِ الله ﷺ كَنِيْسَةً رَأَتْهَا فِي أَرْضِ الحَبَشَةِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الصُّوَرِ، فَقَالَ ﷺ: «أُوْلَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيْهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَوِ العَبْدُ الصَّالِحُ بَنُوا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِداً، وَصَوَّرُوا فِيْهِ تِلْكَ الصُّوَرَ،أُوْلَئِكَ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ الله» [٢٠٨].

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: لَمَّا نُزِلَ بِرَسُوْلِ الله ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيْصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا، فقَالَ ـ وَهُوَ كَذَلِكَ ـ: «لَعْنَةُ الله عَلَى اليَهُوْدِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُوْرَ أَنْبِيَائِهِم مَسَاجِدَ»؛ يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا، وَلَوْلَا ذَلِكَ أُبرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِداً [٢٠٨].

وَعَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوْتَ بِخَمْسٍ، وَهُوَ يَقُوْلُ: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى الله أَنْ يَكُوْنَ لِي مِنْكُمْ خَلِيْلٌ، فَإِنَّ الله قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيْلاً، كَمَا

اتَّخَذَ إِبْرَاهِيْمَ خَلِيْلاً، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أُمَّتِي خَلِيْلاً، لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيْلاً، أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُوْنَ قُبُوْرَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا القُبُوْرَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ» [٢١١].

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالَّذِيْنَ يَتَّخِذُوْنَ القُبُوْرَ مَسَاجِدَ» [٢١٢].

المسألة (الحادية والعشرون): أَنَّ الغُلُوَّ فِي قُبُوْرِ الصَّالحِيْنَ يُصَيِّرُهَا أَوْثَاناً تُعْبَدُ مِنْ دُوْنِ الله عَزَّ وَجَلَّ [٢١٤]

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾ [٢١٤].

وَقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «اللهمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنَاً،لَعَنَ الله قَوْمَاً اتَّخَذُوا قُبُوْرَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» [٢١٦].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: «لَعَنَ رَسُوْلُ الله ﷺ زَوَّارَاتِ القُبُوْرِ»، وفي رواية: «وَالمُتَّخِذِيْنَ عَلَيْهَا المَسَاجِدَ» [٢١٤].

المسألة (الثانية والعشرون): فِي سَدِّ كُلِّ طَرِيْقٍ يُوْصِلُ إِلَى الشِّرْكِ [٢٢٠]

قَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوْتَكُمْ قُبُوْرَاً، وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيْدَاً، وَصَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ» [٢٢٠].

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ الحُسَيْنِ: أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً يَجِيْءُ إِلَى فُرْجَةٍ كَانَتْ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ، فَيَدْخُلُ فِيْهَا فَيَدْعُو، فَنَهَاهُ، وَقَالَ: أَلَا أُحَدِّثُكُمْ حَدِيْثَاً سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي عَنْ جَدِّي عَنْ رَسُوْلِ الله ﷺ قَالَ: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيْدَاً، وَلَا بُيُوْتَكُمْ قُبُوْرَاً، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ تَسْلِيْمَكُمْ يَبْلُغُنِي أَيْنَ كُنْتُمْ» [٢٢٢].

المسألة (الثالثة والعشرون): أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الأُمَّةِ يَعْبُدُ الأَوْثَانَ [٢٢٤]

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾ [٢٢٤].

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [٢٢٦].

وَقَالَ الله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [٢٢٧].

وَعَنْ أَبِي سَعِيْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُوْلَ الله ﷺ قَالَ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا شِبْرًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ»، قَالُوا: يَا رَسُوْلَ الله، اليَهُوْدَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «فَمَنْ»؟ [٢٢٨].

وَقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «إِنَّ الله زَوَى لِي الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلغُ مُلكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيْتُ الكَنْزَيْنِ: الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ، وَإِنِّي سأَلْتُ رَبِّي لأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَأَنْ لا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيْحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي، قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ: أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنَ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيْحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُوْنَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا» [٢٣٠].

وَفِي رِوَايَةٍ زَادَ: «وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئِمَّةَ المُضِلِّيْنَ، وَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمُ السَّيْفُ لَمْ يُرْفَعْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَلَا تَقُوْمُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالمُشْرِكِيْنَ، وَحَتَّى تَعْبُدَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي الأَوْثَانَ، وَإِنَّهُ سَيَكُوْنُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُوْنَ ثَلَاثُوْنَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّيْنَ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الحَقِّ ظَاهِرِيْنَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى» [٢٣٤].

المسألة (الرابعة والعشرون): فِي السِّحْرِ [٢٣٧]

قال الله سبحانه: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [٢٣٨].

وقال الله جل وعلا: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ

بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [٢٤٠].

وقال الله جل جلاله: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّـٰحِرُونَ ﴾ [٢٤٢].

وقال الله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [٢٤٢].

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ ﴾ [٢٤٤].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُوْلَ الله ﷺ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوْبِقَاتِ» قَالُوا: يَا رَسُـوْلَ الله: وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّـرْكُ بِالله، وَالسِّـحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ الله إِلَّا بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيْمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ المُحْصَـنَاتِ الغَافِلَاتِ المُؤْمِنَاتِ» [٢٤٥].

المسألة (الخامسة والعشرون): فِي بَيَان شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْرِ [٢٥٣]

قَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ:«مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُوْمِ، فَقَدِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ، زادَ مَا زَادَ» [٢٥٣].

وَقَالَ رَسُـوْلُ الله ﷺ: «أَلَا هَلْ أُنَبِّئُكُمْ مَا العَضْـهُ؟؛ هِيَ النَّمِيْمَةُ، القَالَـةُ بَيْنَ النَّاسِ» [٢٥٥].

وَقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرَاً» [٢٥٧].

المسألة (السادسة والعشرون): فِي الكُهَّانِ وَنَحْوِهِمْ [٢٥٩]

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ أَتَى عَرَّافَـاً فَسَـأَلَـهُ عَنْ شَـيْءٍ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَـلَاةٌ أَرْبَعِيْنَ يَوْمَـاً» [٢٦٠].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ أَتَى كَاهِنَـاً فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُوْلُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ».

وفي رواية: «مَنْ أَتَى عَرَّافَـاً أَوْ كَاهِنَـاً فَصَـدَّقَهُ بِمَا يَقُوْلُ، فَقَدَ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ» [٢٦٢].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطُيِّرَ لَهُ أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ، وَمَنْ عَقَدَ عُقْدَةً -أَوْ قَالَ: عَقَدَ عُقْدَةً- وَمَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُوْلُ، فَقَدَ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ» [٢٦٣].

المسألة (السابعة والعشرون): فِي النُّشْرَةِ [٢٦٥]

عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُوْلَ الله ﷺ سُئِلَ عَنِ النُّشْرَةِ؟ فَقَالَ ﷺ: «هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ» [٢٦٥].

المسألة (الثامنة والعشرون): فِي التَّطَيُّرِ [٢٦٨]

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٢٦٨].

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ [٢٦٩].

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ «لَا عَدْوَى، وَلَا طِيَرَةَ، وَلَا هَامَةَ، وَلَا صَفَرَ».

وفي رواية زاد: «وَلَا نَوْءَ»، وفي رواية أخرى زاد: «وَلَا غُوْلَ» [٢٧٠].

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الفَأْلُ»، قَالُوا: وَمَا الفَأْلُ؟، قَالَ: «الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ» [٢٧٢].

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُوْدٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، وَمَا مِنَّا إِلَّا...، وَلَكِنَّ الله يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ» [٢٧٣].

وَعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ عَنْ حَاجَةٍ فَقَدْ أَشْرَكَ»، قَالُوا: فَمَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ؟، قَالَ: «أَنْ تَقُوْلَ: اللهمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ» [٢٧٤].

المسألة (التاسعة والعشرون): فِي التَّنْجِيْمِ [٢٧٦]

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۞ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [٢٧٩].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ فَقَدِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ، زَادَ مَا زَادَ» [٢٨٠].

وقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُوْنَ الجَنَّةَ: مُدْمِنُ الخَمْرِ، وَقَاطِعُ الرَّحِمِ، وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ» [٢٨١].

المسألة (الثلاثون): فِي الاسْتِسْقَاءِ بِالأَنْوَاءِ [٢٨٤]

قال الله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ * وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ * فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ * وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾ [٢٨٥].

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُوْنَهُنَّ: الفَخْرُ بِالأَحْسَابِ، والطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ، وَالاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُوْمِ، وَالنِّيَاحَةُ» [٢٨٩].

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ رضي الله عنه قَالَ: صَلَّى لَنَا رَسُوْلُ الله ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالحُدَيْبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُوْنَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟»، قَالُوا: الله وَرَسُوْلُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «أَصبحَ مِنْ عبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ الله وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالكَوْكِبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالكَوْكِبِ» [٢٩١].

المسألة (الحادية والثلاثون): فِي تَعْظِيمِ الله تَعَالَى [٢٩٣]

قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [٢٩٣].

وعَن ابْنِ مَسْعُوْدٍ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الأَحْبَارِ إِلَى رَسُوْلِ الله ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّا نَجِدُ أَنَّ الله يَجْعَلَ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالأَرْضِيْنَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلَائِقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُوْلُ: أَنَا المَلِكُ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، تَصْدِيقاً لِقَوْلِ الحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾».

وَفِي رِوَايَة: «وَالجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، والماءَ وَالثَّرَى عَلَى إصبعٍ، وَسَائِرَ الخلقِ عَلَى إِصْبعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ فَيَقُوْلُ: أنا الملك، أنا الملك» [٢٩٤].

وقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَطْوِي الله السَّماوَاتِ يَوْمَ القِيَامَة، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ اليُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟، أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ؟، ثُمَّ يَطْوِي الأَرْضِيْنَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُوْلُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ الجَبَّارُوْنَ؟، أَيْنَ المُتَكَبِّرُوْنَ» [٢٩٦].

المسألة (الثانية والثلاثون): فِي الرِّيَاءِ [٢٩٨]

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [٢٩٨].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قَالَ الله تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ مَعِي فِيْهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ» [٢٩٩].

وَعَنْ أَبِي سَعِيْدٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ النَّبِي ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ المَسِيْحِ الدَّجَّالِ؟»، قَالَوا: بَلَى يَا رَسُوْلَ الله، قَالَ: «الشِّرْكُ الخَفِيُّ؛ يَقُوْمُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي، فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ، لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ» [٣٠٠].

المسألة (الثالثة والثلاثون): مِنَ الشِّرْكِ إِرَادَةُ الإِنْسَانِ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا [٣٠٢]

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [٣٠٢].

وَقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّيْنَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيْصَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيْلَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيْكَ فَلَا انْتَقَشَ، طُوْبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيْلِ الله، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ» [٣٠٤].

المسألة (الرابعة والثلاثون): مِنَ الخَوْفِ ما يكون شِرْكًا [٣٠٨]

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [٣٠٩].

وقَالَ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [٣١٠].

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [٣١١].

وَقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «مَنِ الْتَمَسَ رِضَى الله بِسَخَطِ النَّاسِ رضي الله عنه وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَى النَّاسِ بِسَخَطِ الله سَخِطَ الله عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ» [٣١٢].

المسألة (الخامسة والثلاثون): في التَّوَكُّلِ [٣١٤]

قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [٣١٥].

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [٣١٦].

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [٣١٧].

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [٣١٨].

وقال الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [٣١٨].

وقال رسول الله ﷺ: «لَوْ أَنَّكُمْ تتوكَّلُونَ عَلَى الله حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصاً وَتَرُوحُ بِطَاناً» [٣١٩].

وقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وعَلَيْك تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بعزَّتِكَ؛ لا إِلهَ إلا أَنْتَ أَنْ تُضلَّني، أَنْتَ الحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالجِنُّ والإِنْسُ يَمُوتُونَ» [٣٢٠].

المسألة (السادسة والثلاثون): مِن الحُبِّ مَا يَكُونُ شِرْكًا [٣٢٣]

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [٣٢٣].

وَقَالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾ [٣٢٤].

وقَالَ الله تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [٣٢٥].

وَقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُوْنَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِيْنَ» [٣٢٦].

وَقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيْهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الإِيْمَانِ: أَنْ يَكُوْنَ اللهُ وَرَسُوْلُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لله، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُوْدَ فِي الكُفْرِ بَعْدِ إِذْ أَنْقَذَهُ الله مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ» [٣٢٧].

المسألة (السابعة والثلاثون): فِيْمَنْ أَطَاعَ العُلَمَاءَ وَالأُمَرَاءَ فِي تَحْرِيْمِ مَا أَحَلَّ الله أَوْ تَحلِيْلِ مَا حَرَّمَ الله فَقَدِ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُوْنِ الله [٣٢٩]

قال الله تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا * فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾ [٣٣٠].

وَقَالَ الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [٣٣٣].

وقَالَ الله تَعَالَى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [٣٣٤].

وقَالَ الله تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ [٣٣٥].

وقَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [٣٣٦].

وعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ؟!، قَالَ ﷺ: «أَلَيْسَ يُحَرِّمُوْنَ مَا أَحَلَّ الله فَتُحَرِّمُوْنَهُ، وَيُحِلُّوْنَ مَا حَرَّمَ الله، فَتُحِلُّوْنَهُ؟»، فَقُلْتُ: بَلَى، قَالَ ﷺ: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ» [٣٣٧].

المسألة (الثامنة والثلاثون): مِنَ الشِّرْكِ إِثْبَاتُ نِعْمَةِ الله تَعَالَى إِلَى غَيْرِهِ [٣٤٠]

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [٣٤٠].

وقَال الله تَعَالَى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۞ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [٣٤٢].

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: قَالَ الله تعالى: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ الله وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤمِنٌ بِالكَوْكَبِ» [٣٤٤].

المسألة (التاسعة والثلاثون): فِي وُجُوْبِ تَعْظِيْمِ الله جَلَّ وَعَلَا فِي الأَلْفَاظِ وَأَنَّ النِّعَمَ يَجِبُ أَنْ تُنْسَبَ إِلَيْهِ، وَأَنْ يُشْكَرَ عَلَيْهَا [٣٤٦]

قال الله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [٣٤٦].

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ ثَلَاثَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائيل: أَبْرَص، وأَقْرَع، وأَعْمَى؛ فأَرَادَ

الله أنْ يَبْتَلِيَهُمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا، فَأَتَى الأبْرَصَ، فَقَالَ أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟، قَالَ: لَوْنٌ حَسَنٌ وَجِلْدٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ، قَالَ: فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ، وَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا، وَجِلْدًا حَسَنًا، فَقَالَ: أَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟، قَالَ: الْإِبِلُ، فأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ، وقَالَ: بَارَكَ الله لَكَ فِيهَا، فَأَتَى الْأَقْرَعَ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟، قَالَ: شَعَرٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا، قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ، قَالَ: فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عنه، وَأُعْطِيَ شَعَرًا حَسَنًا، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟، قَالَ: الْبَقَرُ، قَالَ: فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلاً، وَقَالَ: بَارَكَ الله لَكَ فِيهَا، قَالَ: فَأَتَى الْأَعْمَى، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟، قَالَ: أَنْ يَرُدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي، فَأُبْصِرُ بِهِ النَّاسَ، قَالَ: فَمَسَحَهُ، فَرَدَّ اللهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟، قَالَ: الْغَنَمُ، فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِدًا؛ فأنْتج هذان، وولَّد هَذَا، فكان لهذا وَادٍ مِنَ الإِبِلِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ البَقَرِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الغَنَمِ، قال: ثُم إِنَّهُ أَتَى الأبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ، قَدِ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَاغَ لِيَ الْيَوْمَ إِلَّا بِالله ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ وَالْمَالَ، بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ عَلَيْهِ فِي سَفَرِي، فَقَالَ لَهُ: إِنَّ الحُقُوقَ كَثِيرَةٌ، فَقَالَ لَهُ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ، أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ، فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللهُ، فَقَالَ: لَقَدْ وَرِثْتُ هَذَا المالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ، وَأَتَى الْأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ لَهُ: مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا، قَالَ لَهُ: هَذَا المَالُ وَرِثْتُهُ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ، وَلَا أَذْكُر أَنَّنِي كُنْتُ كَذَلِكَ، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ، وَأَتَى الْأَعْمَى فِي صُورَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ، وَابْنُ سَبِيلٍ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَاغَ لِيَ الْيَوْمَ إِلَّا بِالله ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي، فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى، فَرَدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي، فَخُذْ مَا شِئْتَ وَدَعْ مَا شِئْتَ، فَوَالله لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ لله، فَقَالَ: أَمْسِكْ مَالَكَ، فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ، فَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْكَ وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ» [٣٤٧].

وقال النبي ﷺ: «مَنْ أُعْطِيَ عطَاءً فَوَجَدَ فَلْيَجْزِ بِهِ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَلْيُثْنِ بِهِ؛ فَمَنْ أَثْنَى بِهِ، فَقَدْ شَكَرَهُ، ومَنْ كَتَمَهُ فَقَدْ كَفَرَهُ، وَمَنْ تَحَلَّى بِبَاطِلٍ فَهُوَ كَلَابس ثَوْبَيْ زُورٍ» [٣٥١].

المسألة (الأربعون): فِي كَثْرَةِ الحَلِفِ [٣٥٤]

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟

بَيْنَ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [٣٥٤].

وقَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ [٣٥٥].

وقَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ [٣٥٦].

وَقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «الحَلِفُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مُمْحِقَةٌ لِلكَسْبِ» [٣٥٧].

وَقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ الله وَلَا يُزَكِّيْهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيْم: أُشَيْمِطٌ زَانٍ، وَعَائِلٌ مُسْتِكْبِرٌ، وَرَجُلٌ جَعَلَ الله بِضَاعَتَهُ، لَا يَشْتَرِي إِلا بِيَمِيْنِهِ، وَلَا يَبِيْعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ» [٣٥٨].

وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُوْنَهُمْ، ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُوْنَهُمْ - قَالَ عِمْرَانُ: فَلَا أَدْرِي أَذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ مَرَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا؟ -، ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُوْنَ وَلَا يَسْتَشْهِدُوْنَ، وَيَخُوْنُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُوْنَ، وَيَنْذِرُوْنَ وَلَا يُوْفُوْنَ، وَيَظْهَرُ فِيْهِمُ السِّمَنُ» [٣٦٠].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُوْنَهُمْ، ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُوْنَهُمْ، ثُمَّ يَجِيْءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِيْنَهُ، وَيَمِيْنَهُ شَهَادَتَهُ» [٣٦٣].

المسألة (الحادية والأربعون): فِيْمَنْ لَمْ يَقْنَعْ بِالحَلِفِ بِالله تَعَالَى [٣٦٤]

قَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ الله فَقَدْ كَفَرَ أَو أَشْرَكَ» [٣٦٤].

وَقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ حَلَفَ بِالله فَلْيَصْدُقْ، وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِالله فَلْيَرْضَ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ فَلَيْسَ مِنَ الله» [٣٦٥].

المسألة (الثانية والأربعون): فِيْمَنْ يَقُول: اللهمّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ [٣٦٧]

قَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «لَا يَقُلْ أَحَدُكمُ: اللهمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللهمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، لِيَعْزِمِ المَسْأَلَةَ، فَإِنَّ الله لَا مُكْرِهَ لَهُ».

وَفِي رِوَايَة: «وَلِيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ، فَإِنَّ الله لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْء أَعْطَاهُ» [٣٦٧].

المسألة (الثالثة والأربعون): فِي قَوْل: مَا شَاءَ الله وَشِئْتَ [٣٦٩]

عَنْ قُتَيْلَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أَنَّ يَهُوْدِيًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُشْرِكُوْنَ؛ تَقُوْلُونَ: مَا شَاءَ

الله وَشِـئْتَ، وَتَقُوْلُونَ: وَالكَعْبَةِ، فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُوْلُوا: «وَرَبِّ الكَعْبَةِ، وَأَنْ يَقُوْلُوا: مَا شَاءَ الله ثُمَّ شِئْتَ» [٣٦٩].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا شَـاءَ الله وَشِـئْتَ، فَقَالَ ﷺ: «أَجَعَلْتَنِي لله نِدَاً؟، بَلْ مَا شَاءَ الله وَحْدَهُ» [٣٧٠].

وَعَنِ الطُّفَيْلِ أَخِي عَائِشَـةَ لِأُمِّهَا قَالَ: رَأَيْتُ كَأَنِي أَتَيْتُ عَلَى نَفَرٍ مِنَ اليَهُودِ، فَقُلْتُ: إِنكُمْ لَأَنْتُمُ القَوْمُ، لَوْلَا أَنَّكُم تَقُوْلُونَ: عُزَيْرٌ ابْنُ الله، قَالُوا: وَإِنَّكُم لَأَنْتُمُ القَوْمُ، لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَـاءَ الله وَشَـاءَ مُحَمَّدٌ، ثُمَّ مَرَرْتُ بِنَفَرٍ مِنَ النَّصَـارَى، فَقُلْتُ: إِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ القَوْمُ، لَوْلَا أَنَّكُم تَقُولُونَ: المَسِيْحُ ابْنُ الله، قَالُوا: وَإِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ القَوْمُ، لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَـاءَ الله وَشَـاءَ مُحَمَّدٌ، فَلَمَّا أَصْـبَحْتُ أَخْبَرْتُ بِهَا مَنْ أَخْبَرْتُ، ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخبَرْتُهُ، قَالَ ﷺ: «هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أَحَدَاً؟»، قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَحَمَدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْه، ثُمَّ قَالَ ﷺ: «أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ طُفَيْلاً رَأَى رُؤْيَا، أَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبرَ مِنْكُمْ، وَإِنَّكُمْ قُلْتُمْ كَلِمَةً كَانَ يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا، فَلَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ الله وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ الله وَحْدَهُ» [٣٧١].

المسألة (الرابعة والأربعون): فِي الإِقْسَام عَلَى الله تعالى [٣٧٤]

قَالَ رَسُـوْلُ الله ﷺ: «قَالَ رَجُلٌ: والله لَا يَغْفِرُ الله لِفُلَانٍ، فَقَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَليَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؟، إِنِي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبِطتُ عَمَلَكَ» [٣٧٥].

المسألة (الخامسة والأربعون): لا يُرَدُّ مَنْ سَـأَلَ بِالله تَعَالَى [٣٧٧]

قَالَ رَسُـولُ الله ﷺ: «مَنْ سَـأَلَ بالله؛ فَأَعْطُوهُ، وَمَنِ اسْـتَعَاذَ بِالله؛ فَأَعِيْذُوهُ، وَمَنْ دَعَـاكُم؛ فَأَجِيْبُوهُ، وَمَنْ صَـنَعَ إِلَيْكُم مَعْرُوفَـاً؛ فَكَـافِئُوهُ، فَإِنْ لَم تَجِدُوا مَـا تُكَافِؤُنَهُ، فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَونَ أَنَّكُم قَدْ كَافَأْتُمُوه» [٣٧٨].

المسألة (السادسة والأربعون): فِي الوَفَاءِ بِذِمَّةِ الله وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ [٣٨٢]

قَـالَ الله تَـعَـالَـى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [٣٨٢].

وعَنْ بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُوْلَ الله ﷺ كَانَ إِذَا أَمَّرَ أَمِيْرَاً عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ بِتَقْوَى الله وَمَنْ مَعَهُ مِنِ المُسْلِمِيْنَ خَيْرَاً، فَقَالَ: «اغْزُوا بِسْمَ الله، فِي سَبِيْلِ الله، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِالله، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَمْثُلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيْدَاً، وَإِذَا لَقِيْتَ عَدُوَّكَ مِنِ المُشْرِكِيْنَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ - أَوْ خِلَالٍ - فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوْكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ فَإِنْ هُمْ أَجَابُوْكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُوْهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ المُهَاجِرِيْنَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلمُهَاجِرِيْنَ، وَعَلَيْهِم مَا عَلَى المُهَاجِرِيْنَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُوْنونَ كَأَعْرَابِ المُسْلِمِيْنَ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ الله تَعَالَى، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الغَنِيْمَةِ وَالفَيْءِ شَيْءٌ إِلَا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ المُسْلِمِيْنَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوا فَاسْأَلْهُمُ الجِزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوْكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوا فَاسْتَعِنْ بِالله وَقَاتِلْهُمْ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوْكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ الله وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، فَلَا تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ الله وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكن اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ إِنْ تَخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تَخْفِرُوا ذِمَّةَ الله وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ الله، فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ الله، وَلَكِنْ أَنْزِلهُمْ عَلَى حُكْمِكَ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي، أَتُصِيْبُ حُكْمَ الله فِيْهِمْ أَمْ لا» [٣٨٣].

المسألة (السابعة والأربعون): فِي اللَّوِّ [٣٨٨]

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [٣٩٠].

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [٣٩١].

وَقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «المُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى الله مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيْفِ، وفَي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِالله وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا؛ وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ الله وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ» [٣٩٢].

المسألة (الثامنة والأربعون): فِي المُصَوِّرِيْنَ [٣٩٦]

قَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «قَالَ الله تَعَالَى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيْرَةً» [٣٩٧].

وَقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ الَّذِيْنَ يُضَاهُوْنَ بِخَلْقِ الله» [٣٩٨].

وَقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ، يَجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُوْرَةٍ صَوَّرَهَا نَفْسًا فَتُعَذِّبُهُ فِي جَهَنَّمَ» [٣٩٩].

وقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «مَنْ صَوَّرَ صُوْرَةً فِي الدُّنْيَا كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيْها الرُّوْحَ، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ فِيها أَبَدًا» [٤٠٠].

وَعَنْ أَبِي الهَيَّاجِ قَالَ: قَالَ لِي عَلِيُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُوْلُ الله ﷺ؟؛ أَنْ لَا تَدَعَ صُوْرَةً إِلَا طَمَسْتَهَا، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَيْتَهُ» [٤٠١].

المسألة (التاسعة والأربعون): فِي الظَّنِّ باللهِ غَيْرَ الحَقِّ [٤٠٤]

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [٤٠٤].

وقَالَ الله تَعَالَى: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا﴾ [٤٠٧].

المسألة (الخمسون): فِي الأَمْنِ مِنْ مَكْرِ اللهِ تَعَالَى، وَالقُنُوْطِ مِنْ رَحْمَةِ الله عَزَّ وَجَلّ [٤٠٩]

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [٤٠٩].

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [٤١١].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ الكَبَائِرِ؟، فَقَالَ: «الشِّرْكُ بِاللهِ، وَاليَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ، وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ» [٤١١].

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى شَابٍ وَهُوَ فِي المَوْتِ، فَقَالَ: «كَيْفَ تَجِدُكَ؟»، قالَ: وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أَرْجُو اللهَ وَإِنِّي أَخَافُ ذُنُوبِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا المَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ مَا يَرْجُو وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ» [٤١٣].

المسألة (الحادية والخمسون): مِنَ الإِيْمَانِ بِالله الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ الله تعالى [٤١٦]

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ * وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتُۢۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ * وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [٤١٧]

وقَالَ الله تَعَالَى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [٤٢٢].

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى المَيِّتِ» [٤٢٣].

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الخُدُوْدَ، وَشَقَّ الجُيُوْبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ» [٤٢٤].

وَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ العُقُوْبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافَى بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ» [٤٢٥].

وقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَى، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ» [٤٢٦].

المسألة (الثانية والخمسون): فِي مُنْكِرِي القَدَرِ [٤٢٨]

قَالَ ابْنُ عُمَرَ ﵁: وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ عُمَرَ بِيَدِهِ، لَوْ كَانَ لِأَحَدِهِمْ مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا، ثُمَّ أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ الله مَا قَبِلَهُ الله مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالقَدَرِ، ثُمَّ قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الإِيْمَانُ: أَنْ تُؤْمِنَ بِالله، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِهِ» [٤٣٣].

وَعَنْ عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ ﵁ أَنَّهُ قَالَ لِابْنِهِ: «يَا بُنَيّ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ الإِيْمَانِ، حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيْبَكَ»، سَمِعْتُ رَسُوْلَ الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ الله القَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَقَالَ: رَبّ، وَمَاذَا أَكْتُبُ؟، قَالَ: أَكْتُبْ مَقَادِيرَ كُل شَيْءٍ حَتى تَقُومَ السَّاعَةُ»، يَا بُنِيّ سَمِعْتُ رَسُوْلَ الله ﷺ يَقُوْلُ: «مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي».

وَفي رِوَايَة: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ الله تَعَالَى القَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ».

وَفِي رِوَايَة: «القَدَر عَلَى هَذَا، مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا أَدْخَلَهَ الله تَعَالَى النَّار» [٤٤٠].

وَعَن ابْنِ الدَّيْلَمِي قَالَ: أَتَيْتُ أُبَيّ بن كَعْبٍ ﵁، فَقُلْتُ: فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ القَدَرِ، فَحَدِّثْنِي بِشَيْءٍ لَعَلَّ الله أَنْ يُذْهِبَهُ مِنْ قَلْبِي، فَقَالَ: «لَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا قَبِلَهُ الله مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلَوْ مِتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَكُنْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»، قَالَ: فَأَتَيْتُ عَبْدَ الله بْنَ مَسْعُوْدٍ، وَحُذَيْفَةَ بْنَ اليَمَانِ، وَزَيدَ بْنَ ثَابِتٍ، فَكُلُّهُمْ حَدَّثَنِي بِمِثْلِ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ [٤٤٢].

المسألة (الثالثة والخمسون): لا يَقُولُ: عَبْدِي وَأَمَتِي [٤٤٤]

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: أَطْعِمْ رَبَّكَ، وَضِّئ رَبَّكَ، وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي وَمَوْلَايَ، وَلَا يَقُلْ: عَبْدِي وَأَمَتِي، وَلْيَقُلْ: فَتَايَ وَفَتَاتِي، وَغُلَامِي» [٤٤٤].

المسألة (الرابعة والخمسون): لا يُقَال: السَّلَامُ عَلَى الله [٤٤٦]

عَن ابْنِ مَسْعُوْدٍ ﵁ قَالَ: كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ في الصَّلَاةِ قُلْنَا: السَّلَامُ عَلَى

الله مِنْ عِبَادِهِ، السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَقُوْلُوا السَّلَامُ عَلَى الله، فَإِنَّ الله هُوَ السَّلَامُ» [٤٤٧].

المسألة (الخامسة والخمسون): فِيْمَنْ سَبَّ الدَّهْرَ فَقَدْ آذَى الله تَعَالَى [٤٤٨]

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [٤٤٩].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قَالَ الله تَعَالَى: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ».

وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ، فَإِنَّ الله هُوَ الدَّهْرُ» [٤٥٠].

المسألة (السادسة والخمسون): فِي النَّهْيِ عَنْ سَبِّ الرِّيْحِ [٤٥٢]

قَالَ رَسُوْلُ ﷺ: «لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ فَقُوْلُوا: اللهمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيْحِ، وَخَيْرِ مَا فِيها، وَخَيْرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ، وَنَعُوْذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيْحِ، وَشَرِّ مَا فِيْهَا، وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ» [٤٥٢].

المسألة (السابعة والخمسون): فِي التَّسَمِّي بِقَاضِي القُضَاةِ وَنَحْوِهِ [٤٥٤]

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ الله: رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الأَمْلَاكِ، لَا مَالِكَ إِلَّا الله».

وَفِي رِوَايَةٍ: «أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى الله يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَخْبَثُهُ» [٤٥٥].

المسألة (الثامنة والخمسون): فِيْمَنْ هَزَءَ بِشَيْءٍ فِيهِ ذِكْرُ الله أَوْ القُرْآنِ أَوِ الرَّسُوْلِ [٤٥٧]

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۞ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [٤٥٨].

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ، وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ، وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وَقَتَادَةَ – دَخَلَ حَدِيْثُ بَعْضِهِمْ

فِي بَعْضٍ -: أَنَّهُ قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوْكَ: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤُلَاءِ، أَرْغَبَ بُطُوْنًا، وَلَا أَكْذَبَ أَلْسُنًا، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ - يَعْنِي رَسُوْلَ الله ﷺ وَأَصْحَابَهُ القُرَّاءَ -، فَقَالَ لَهُ عَوْفُ بنُ مَالِكٍ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ، لَأُخْبِرَنَّ رَسُولَ الله ﷺ، فَذَهَبَ عَوْفٌ إِلَى رَسُوْلِ الله ﷺ لِيُخْبِرَهُ فَوَجَدَ القُرْآنَ قَدْ سَبَقَهُ، فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُوْلِ الله ﷺ وَقَدِ ارْتَحَلَ وَرَكِبَ نَاقَتَهُ، فَقَالَ: يَا رَسُوْلَ الله، إِنَّمَا كُنَّا نَخُوْضُ، وَنَتَحَدَّثُ حَدِيْثَ الرَّكْبِ، نَقْطَعُ بِهِ عَنَاءَ الطَّرِيْقِ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ مُتَعَلِقًا بِنِسْعَةِ نَاقَةِ رَسُوْلِ الله ﷺ، وَإِنَّ الحِجَارَةَ تَنْكُبُ رِجْلَيْهِ - وَهُوَ يَقُوْلُ: إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ - فَيَقُوْلُ لَهُ رَسُوْلُ الله ﷺ: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، مَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ وَمَا يَزِيدُهُ عَلَيْهِ [٤٦٠].

المسألة (التاسعة والخمسون): فِي احْتِرامِ أَسْمَاءِ الله، وَتَغْيِيْرِ الاسمِ لِأَجْلِ ذَلِكَ [٤٦٣]

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ [٤٦٦].

عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّهُ كَانَ يُكَنَّى أَبَا الحَكَمِ؛ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ الله هُوَ الحَكَمُ، وَإِلَيْهِ الحُكْمُ»، فَقَالَ: إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي، فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ، فَرَضِيَ كِلَا الفَرِيْقَيْنِ، فَقَالَ: «مَا أَحْسَنَ هَذَا، فَمَالَكَ مِنَ الوَلَدِ؟»، قُلْتُ: شُرَيْحٌ، وَمُسْلِمٌ، وَعَبْدُ الله، قَالَ: «فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟»، قُلْتُ: شُرَيْحٌ، قَالَ: «فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ» [٤٦٩].

المسألة (الستون): فِي السُّؤَالِ بِأَسْمَاءِ الله تَعَالَى وَالِاسْتِعَاذَةِ بِهَا [٤٧١]

قال الله تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [٤٧٢].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ فِرَاشَهُ فَلْيَنْفُضْهُ بِصَنِفَةِ ثَوْبِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَلْيَقُلْ بِاسْمِكَ رَبِّي، وَضَعْتُ جَنْبِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَاغْفِرْ لَهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ» [٤٧٤].

وعَن حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ، قَالَ: «اللهمَّ بِاسْمِكَ

أَحْيَا وَأَمُوتُ، وَإِذَا أَصْبَحَ قَالَ: «الْحَمْدُ لله الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ» [٤٧٥].

وقَالَ رَسُولُ ﷺ: «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ، فَقَالَ: بِاسْمِ الله، اللهمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا؛ فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرْ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ، لَمْ يَضُرُّهُ شَيْطَانٌ أَبَداً» [٤٧٦].

وعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رضي الله عنه، قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ قُلْتُ: أُرْسِلُ كِلَابِي المُعَلَّمَةَ؟، قَالَ: «إِذَا أَرْسَلْتَ كِلَابَكَ المُعَلَّمَةَ، وَذَكَرْتَ اسْمَ الله، فَأَمْسَكْنَ فَكُلْ، وَإِذَا رَمَيْتَ بِالْمِعْرَاضِ، فَخَزَقَ فَكُلْ» [٤٧٧].

وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ هَا هُنَا أَقْوَاماً حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ بِشِرْكٍ، يَأْتُونَا بِلُحْمَانٍ، لَا نَدْرِي يَذْكُرُونَ اسْمَ الله عَلَيْهَا أَمْ لَا؟، قَالَ: «اذْكُرُوا أَنْتُمُ اسْمَ الله وكُلُوا» [٤٧٨].

وعَنْ جُنْدَبٍ رضي الله عنه، أَنَّهُ شَهِدَ النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ النَّحْرِ صَلَّى ثُمَّ خَطَبَ، فَقَالَ: «مَنْ ذَبَحَ قَبْلَ أَنْ يُصَلِّيَ فَلْيَذْبَحْ مَكَانَهَا أُخْرَى، وَمَنْ لَمْ يَذْبَحْ فَلْيَذْبَحْ بِاسْمِ الله» [٤٧٩].

المسألة (الحادية والستون): فِي صِفَةِ الرَّحْمَةِ لله تَعَالَى [٤٨٠]

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [٤٨١]

وقال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [٤٨١].

وقال الله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [٤٨٢].

وقال الله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [٤٨٣].

وقال الله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [٤٨٤].

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَا يَرْحَمُ الله مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ» [٤٨٥].

وعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، إِذْ جَاءَهُ رَسُولُ إِحْدَى بَنَاتِهِ، يَدْعُوهُ إِلَى ابْنِهَا فِي الْمَوْتِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «ارْجِعْ إِلَيْهَا فَأَخْبِرْهَا: أَنَّ لله مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى، فَمُرْهَا فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ»، فَأَعَادَتِ

الرَّسُولَ: أَنَّهَا قَدْ أَقْسَمَتْ لَتَأْتِيَنَّهَا فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ، وَقَامَ مَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، فَدُفِعَ الصَّبِيُّ إِلَيْهِ، وَنَفْسُهُ تَقَعْقَعُ؛ كَأَنَّهَا فِي شَنٍّ، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ: يَا رَسُولَ الله مَا هَذَا؟، قَالَ ﷺ: «هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا الله فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ الله مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ» [٤٨٥].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اخْتَصَمَتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ إِلَى رَبِّهِمَا، فَقَالَتِ الْجَنَّةُ: يَا رَبِّ مَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ، وَقَالَتِ النَّارُ: يَعْنِي أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ، فَقَالَ الله تَعَالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: أَنْتِ عَذَابِي، أُصِيبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا، قَالَ: فَأَمَّا الْجَنَّةُ، فَإِنَّ الله لَا يَظْلِمُ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَإِنَّهُ يُنْشِئُ لِلنَّارِ مَنْ يَشَاءُ، فَيُلْقَوْنَ فِيهَا، فَـ ﴿تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ ثَلَاثًا، حَتَّى يَضَعَ فِيهَا قَدَمَهُ، فَتَمْتَلِئُ، وَيُرَدُّ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَتَقُولُ: قَطْ قَطْ قَطْ» [٤٨٧].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَيُصِيبَنَّ أَقْوَامًا سَفْعٌ مِنَ النَّارِ بِذُنُوبٍ أَصَابُوهَا، عُقُوبَةً، ثُمَّ يُدْخِلُهُم الله الْجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ، يُقَالُ لَهُم: الْجَهَنَّمِيُّونَ» [٤٩٠].

المسألة (الثانية والستون): فِيما يُذْكَرُ فِي النَّفْسِ والذَّاتِ لله تَبَارَكَ وتَعَالَى [٤٩٢]

قَال الله تَعَالَى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [٤٩٢].

وَقَال الله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [٤٩٢].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ، وَهُوَ يَكْتُبُ عَلَى نَفْسِهِ، وَهُوَ وَضْعٌ عِنْدَهُ عَلَى الْعَرْشِ، إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي» [٤٩٤].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي؛ فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً» [٤٩٥].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلاَّ ثَلاَثَ كَذَبَاتٍ؛ ثِنْتَيْنِ مِنْهُنَّ فِي ذَاتِ الله عَزَّ وَجَلَّ؛ قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ

﴿فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وَقَالَ: بَيْنَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ وَسَارَةُ، إِذْ أَتَى عَلَى جَبَّارٍ مِنَ الْجَبَابِرَةِ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ هَا هُنَا رَجُلاً مَعَهُ امْرَأَةٌ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ، فَسَأَلَهُ عَنْهَا، فَقَالَ: مَنْ هَذِهِ؟ قَالَ: أُخْتِي، فَأَتَى سَارَةَ، قَالَ: يَا سَارَةُ، لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرَكِ، وَإِنَّ هَذَا سَأَلَنِي فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّكِ أُخْتِي فَلاَ تُكَذِّبِينِي، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا، فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ، ذَهَبَ يَتَنَاوَلُهَا بِيَدِهِ، فَأُخِذَ، فَقَالَ: ادْعِي اللهَ لِي وَلاَ أَضُرُّكِ، فَدَعَتِ اللهَ، فَأُطْلِقَ، ثُمَّ تَنَاوَلَهَا الثَّانِيَةَ، فَأُخِذَ مِثْلَهَا أَوْ أَشَدَّ، فَقَالَ: ادْعِي اللهَ لِي وَلاَ أَضُرُّكِ، فَدَعَتْ: فَأُطْلِقَ، فَدَعَا بَعْضَ حَجَبَتِهِ، فَقَالَ: إِنَّكُمْ لَمْ تَأْتُونِي بِإِنْسَانٍ إِنَّمَا أَتَيْتُمُونِي بِشَيْطَانٍ، فَأَخْدَمَهَا هَاجَرَ، فَأَتَتْهُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ مَهْيَا، قَالَتْ: رَدَّ اللهُ كَيْدَ الْكَافِرِ أَوِ الْفَاجِرِ فِي نَحْرِهِ وَأَخْدَمَ هَاجَرَ»، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تِلْكَ أُمُّكُمْ يَا بَنِي مَاءِ السَّمَاءِ [٥٠٠].

المسألة (الثالثة والستون): في أَنَّ اللهَ تَعَالَى سَمَّى نَفْسَهُ شَيْئًا [٥٠٦]

قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [٥٠٦].

وقال الله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [٥٠٧].

وقال الله عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [٥٠٧].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِرَجُلٍ: «أَمَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْءٌ؟»، قَالَ: نَعَمْ، سُورَةُ كَذَا، وَسُورَةُ كَذَا، لِسُوَرٍ سَمَّاهَا [٥٠٩].

المسألة (الرابعة والستون): فِي أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الرَّزَّاقُ [٥١٠]

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [٥١١].

وقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا أَحَدٌ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللهِ يَدَّعُونَ لَهُ الْوَلَدَ ثُمَّ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ» [٥١٢].

المسألة (الخامسة والستون): فِي أَنَّ اللهَ تَعَالَى عَالِمُ الغَيْبِ [٥١٥]

قال الله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [٥١٥].

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ

عِلْمًا ﴾ [٥١٦].

وقال الله سبحانه: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ [٥١٦].

وقال الله جل جلاله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [٥١٧].

وقال الله جل وعلا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ [٥١٧].

وقال الله تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ﴾ [٥٢١].

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [٥٢٢].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا الله؛ لَا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ إِلَّا الله، وَلَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا الله، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا الله، وَلَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِلَّا الله، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا الله» [٥٢٣].

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: «مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّداً ﷺ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ، وَهُوَ يَقُولُ: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾، وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ يَعْلَمُ الْغَيْبَ فَقَدْ كَذَبَ، وَهُوَ يَقُولُ: « لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا الله»» [٥٢٥].

المسألة (السادسة والستون): فِي أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ السَّلَامُ [٥٢٧]

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [٥٢٧].

وعن عَبْد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كُنَّا نُصَلِّي خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَقُولُ السَّلَامُ

عَلَى الله، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ الله هُوَ السَّلَامُ، وَلَكِنْ قُولُوا: التَّحِيَّاتُ لله وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ الله الصَّالِحِينَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ» [٥٢٩].

المسألة (السابعة والستون): فِي أَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وتَعَالَى هُوَ المَلِكُ [٥٣٢]

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾ [٥٣٢].

وقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَقْبِضُ الله الْأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ» [٥٣٣].

المسألة (الثامنة والستون): فِي أَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ والظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ [٥٣٤]

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ [٥٣٤].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّماوَاتِ السَّبْعِ وَالأَرْضِ وَرَبَّ العَرْشِ العَظِيْمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الحَبِّ والنَّوَى، مُنْزِلَ التَّوْرَاةِ والإِنْجِيْلِ والقُرآن، أَعُوْذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِها، أَنْتَ الأَوَّلُ؛ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ؛ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ؛ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ البَاطِنُ؛ فَلَيْسَ دُوْنَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ، وَاغْنِنِي مِنَ الفَقْرِ» [٥٣٥].

المسألة (التاسعة والستون): فِي عِزَّةِ الله جَلَّ وَعَلَا [٥٣٨]

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [٥٣٨].

وقال الله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [٥٣٩].

وقال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٥٤٠].

وقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ» [٥٤٠].

المسألة (السبعون): في المَحَبَّةِ والرِّضَى لله عَزَّ وجَلّ [٥٤٢]

قال الله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [٥٤٣].

وقال الله جل وعلا: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [٥٤٤].

وقال الله عز وجل: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [٥٤٥].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [٥٤٦].

وقال الله جل وعلا: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [٥٤٧].

وقال الله جل جلاله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [٥٤٨].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [٥٤٩].

وقال الله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [٥٥٠].

وقال الله عز وجل: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [٥٥١].

وقال الله عز وجل: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [٥٥٢].

المسألة (الحادية والسبعون): فِي صِفَةِ الضَّحِك والفَرَح لله جَلَّ جَلَالُهُ [٥٥٤]

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَضْحَكُ اللهُ إِلَى رَجُلَيْنِ؛ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ؛ كِلَاهُمَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ» [٥٥٤].

وقال النَّبيُّ ﷺ: «للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ إِذَا اسْتَيْقَظَ عَلَى بَعِيرِهِ قَدْ أَضَلَّهُ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ» [٥٥٥].

المسألة (الثانية والسبعون): فِي الصِّفَاتِ المَنْفِيَّة فِي تَنْزِيْهِ الله تَعَالَى ونَفْي المِثْل عَنْهُ [٥٥٧]

قال الله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [٥٦١].

وقال الله جل ذكره: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [٥٦٢].

وقال الله عز وجل: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [٥٦٣].

وقال الله جل جلاله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [٥٦٣].

وقال الله سبحانه: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ [٥٦٤].

وقال الله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [٥٦٦].

وقال الله تعالى: ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [٥٦٧].

وقال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [٥٦٨].

المسألة (الثالثة والسبعون): فِي صِفَاتِ الغَضَبِ والسُّخْطِ وَالكَرَاهِيَةِ والبُغْضِ لله سُبْحَانَهُ وَتَعالَى [٥٧]

قال الله جل ذكره: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [٥٧١].

وقال الله جل جلاله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ ﴾ [٥٧٢].

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [٥٧٢].

وقال الله جل ذكره: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [٥٧٣].

وقال الله عز وجل: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ [٥٧٤].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ الله كَرِهَ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَال، وَإِضَاعَةَ المَالِ» [٥٧٤].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ الله تَعَالَى إِذَا أَبْغَضَ عَبْدَاً، نَادَى جِبْرِيْل إِنِّي أُبْغِض فُلَانَاً،

فَأَبْغِضْـهُ، فَيُبْغِضُـهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّـمَاءِ، إِنَّ الله يُبْغِض فُلاَنـًا فَأَبْغِضُـوهُ، فَيُبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوْضَع لَهُ البَغْضَاءُ فِي الأَرْضِ» [٥٧٥].

المسألة (الرابعة والسبعون): فِي صِفَةِ شَدِيْدِ الـمِحَالِ والـمَكْرِ والكَيْد والاسْتِهْزَاءِ والخِدَاعِ لله تَعَالَى [٥٧٧]

قال الله سبحانه: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ [٥٧٨].

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [٥٧٩].

وقال الله جل وعلا: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۞ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [٥٨٠].

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۞ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [٥٨١].

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [٥٨٢].

المسألة (الخامسة والسبعون): فِي غَيْرةِ الله تَعَالَى [٥٨٣]

قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ رضي الله عنه: لَوْ رَأَيْتُ رَجُلاً مَعَ امْرَأَتِي لَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ غَيْرَ مُصْفَحٍ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُـولَ الله ﷺ فَقَالَ: «أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَـعْدٍ، وَالله لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَالله أَغْيَرُ مِنِّي، وَمِنْ أَجْلِ غَيْرَةِ الله حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِن الله، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ الْـمُبَشِّرِينَ وَالْـمُنْذِرِينَ، وَلَا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمِدْحَةُ مِن الله، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ وَعَدَ الله الْجَنَّةَ».

وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا شَخْصَ أَغْيَرُ مِنَ الله» [٥٨٤].

المسألة (السادسة والسبعون): فِي أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ السَّمِيْعُ البَصِيْرُ [٥٨٦]

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [٥٨٧].

وقـال الله تـعـالـى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [٥٨٨].

وقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [٥٨٨].

وقال الله سبحانه: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [٥٨٩].

وقال الله تعالى: ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [٥٨٩].

وقال الله سبحانه: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [٥٩٠].

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتِ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَى النَّبِيِّ ﷺ: «﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾» [٥٩١].

وعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَكُنَّا إِذَا عَلَوْنَا كَبَّرْنَا، فَقَالَ ﷺ: «ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا قَرِيبًا» [٥٩٢].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَادَانِي، قَالَ: إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ» [٥٩٣].

المسألة (السابعة والسبعون): فِي صِفَةِ الوَجْهِ لله تَبَارَكَ وتَعَالَى [٥٩٥]

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [٥٩٥].

وقال الله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [٥٩٦].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، فَقَالَ: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، قَالَ: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَذَا أَيْسَرُ» [٥٩٧].

المسألة (الثامنة والسبعون): فِي صِفَةِ العَيْنَيْنِ لله جَلَّ جَلَالُهُ [٥٩٩]

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [٥٩٩].

وَقَالَ اللهُ عز وجل: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [٥٩٩].

وَقَالَ اللهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [٥٩٩].

وعَنْ عَبْدِ الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: ذُكِرَ الدَّجَّالُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «إِنَّ الله لَا يَخْفَى عَلَيْكُمْ؛ إِنَّ الله لَيْسَ بِأَعْوَرَ- وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى عَيْنِهِ-، وَإِنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى، كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ» [٦٠٢].

المسألة (التاسعة والسبعون): فِي رُؤْيَةِ الْمُؤْمِنِيْنَ للهِ تَعَالَى فِي الآخِرَةِ [٦٠٥]

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [٦٠٨].

وعَنْ جَرِيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، قَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِن اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، فَافْعَلُوا».

وفي رواية: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا» [٦٠٩].

المسألة (الثمانون): فِي صِفَةِ الرِّجْلِ أَوِ القَدَمِ للهِ رَبِّ العَالَمِين [٦١٢]

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَزَالُ جَهَنَّم يُلْقَى فِيْهَا، وَهِيَ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيْدٍ؛ حَتَّى يَضَعُ رَبُّ العِزَّةِ فِيْهَا رِجْلَهُ - وفي رواية: عَلَيْهَا قَدَمَهُ - فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، فَتَقُولُ: قَطٍ قَطٍ» [٦١٣].

المسألة (الحادية والثمانون): فِي صِفَةِ الـمَجِيءِ والإِتْيَانِ للهِ تَبَارَكَ وتَعَالَى [٦١٥]

قال الله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [٦١٦].

وقال الله جل وعلا: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [٦١٦].

وقال الله عز وجل: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾

[٦١٧].

المسألة (الثانية والثمانون): فِي مَعِيَّةِ الله جَلَّ جَلَالُهُ [٦١٩]

قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [٦٢٠].

وقال الله عز وجل: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [٦٢١].

وقال الله جل وعلا: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [٦٢٢].

وقال الله عز وجل: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [٦٢٣].

المسألة (الثالثة والثمانون): فِي عُلُوِّ الله تَعَالَى [٦٢٤]

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [٦٢٦].

وَقَالَ اللهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [٦٢٦].

وقال الله تعالى: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [٦٢٧].

وقال الله جل جلاله: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [٦٢٨].

وقال الله عز وجل: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۞ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [٦٢٩].

وقال الله جل وعلا: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ۞ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [٦٢٩].

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ» [٦٣٢].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلجَارِيَةِ: «أَيْنَ اللهُ؟»، قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «مَنْ أَنَا؟»، قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «اعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ» [٦٣٢].

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْعَصْرِ وَصَلَاةِ الْفَجْرِ،ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ، فَيَقُولُ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟، فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ» [٦٣٥].

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلَا يَصْعَدُ إِلَى اللهِ إِلَّا الطَّيِّبُ، فَإِنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهَا، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فُلُوَّهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ» [٦٣٦].

وَعنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ يَشْكُو، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «اتَّقِ اللهَ،وَأَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ»، قَالَ أَنَسٌ: لَوْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَاتِمًا شَيْئًا لَكَتَمَ هَذِهِ، قَالَ: فَكَانَتْ زَيْنَبُ تَفْخَرُ عَلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ تَقُولُ: زَوَّجَكُنَّ أَهَالِيكُنَّ، وَزَوَّجَنِي اللهُ تَعَالَى مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ [٦٣٧].

المسألة (الرابعة والثمانون): فِي العَرْشِ واسْتِوَاءِ اللهِ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِ [٦٤٠]

قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [٦٤٣].

وقال اللهُ سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [٦٤٥].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [٦٤٦].

وعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنه، قَالَ: إِنِّي عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، إِذْ جَاءَهُ قَوْمٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، فَقَالَ: «اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا بَنِي تَمِيمٍ»، قَالُوا: بَشَّرْتَنَا، فَأَعْطِنَا، فَدَخَلَ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ، فَقَالَ: «اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا أَهْلَ الْيَمَنِ، إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ»، قَالُوا: قَبِلْنَا، جِئْنَاكَ لِنَتَفَقَّهَ فِي الدِّينِ، وَلِنَسْأَلَكَ عَنْ أَوَّلِ هَذَا الْأَمْرِ، مَا كَانَ؟، قَالَ: «كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ»، ثُمَّ أَتَانِي رَجُلٌ فَقَالَ: يَا عِمْرَانُ، أَدْرِكْ نَاقَتَكَ، فَقَدْ ذَهَبَتْ، فَانْطَلَقْتُ أَطْلُبُهَا، فَإِذَا السَّرَابُ يَنْقَطِعُ دُونَهَا، وَايْمُ اللهِ لَوَدِدْتُ أَنَّهَا قَدْ ذَهَبَتْ وَلَمْ أَقُمْ [٦٤٧].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ آمَنَ بِالله وَرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ، كَانَ حَقًّا عَلَى الله أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، هَاجَرَ فِي سَبِيلِ الله أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا»، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، أَفَلَا نُنَبِّئُ النَّاسَ بِذَلِكَ؟، قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِئَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا الله لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ الله فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ» [٦٥١].

وعَن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ عِنْدَ الْكَرْبِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا الله الْعَلِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا الله رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا الله رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ» [٦٥٤].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «النَّاسُ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ» [٦٥٥].

المسألة (الخامسة والثمانون): فِي نُزُولِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ فِي الثُّلُثِ الأَخِيرِ مِنَ اللَّيْلِ [٦٥٧]

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيلِ الآخر، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟» [٦٥٩].

المسألة (السادسة والثمانون): فِي تَخْلِيقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْخَلَائِقِ [٦٦١]

عَن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: بِتُّ فِي بَيْتِ مَيْمُونَةَ لَيْلَةً، وَالنَّبِيُّ ﷺ عِنْدَهَا، لِأَنْظُرَ كَيْفَ صَلَاةُ رَسُولِ الله ﷺ بِاللَّيْلِ، فَتَحَدَّثَ رَسُولُ الله ﷺ مَعَ أَهْلِهِ سَاعَةً، ثُمَّ رَقَدَ، فَلَمَّا كَانَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ أَوْ بَعْضُهُ، قَعَدَ فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَرَأَ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، ثُمَّ قَامَ فَتَوَضَّأَ، وَاسْتَنَّ، ثُمَّ صَلَّى إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً، ثُمَّ أَذَّنَ بِلَالٌ بِالصَّلَاةِ، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجَ فَصَلَّى لِلنَّاسِ الصُّبْحَ [٦٦١].

المسألة (السابعة والثمانون): فِي أَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ [٦٦٦]

قَالَ الله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ [٦٦٧].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي غَزْوَةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ، أَنَّهُمْ أَصَابُوا سَبَايَا، فَأَرَادُوا أَنْ يَسْتَمْتِعُوا بِهِنَّ، وَلَا يَحْمِلْنَ، فَسَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الْعَزْلِ؟ فَقَالَ: «مَا عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تَفْعَلُوا، فَإِنَّ الله قَدْ كَتَبَ مَنْ هُوَ خَالِقٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» [٦٦٨].

وقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَيْسَتْ نَفْسٌ مَخْلُوقَةٌ إِلَّا الله خَالِقُهَا» [٦٦٨].

المسألة (الثامنة والثمانون): فِي يَدَيِّ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنَّهُ يَقْبِضُ وَيَمْسِكُ [٦٧٢]

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [٦٧٢].

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [٦٧٣].

وقَالَ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [٦٧٧].

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَدُ الله مَلْأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ، وَقَالَ: عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَبِيَدِهِ الْأُخْرَى الْمِيزَانُ، يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ» [٦٧٨].

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ الله يَقْبِضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَرْضَ، وَتَكُونُ السَّمَاوَاتُ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ» [٦٨٠].

وَعَنْ عَبْدِ الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ يَهُودِيًّا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ الله يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْجِبَالَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْخَلَائِقَ عَلَى إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، فَضَحِكَ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [٦٨٠].

المسألة (التاسعة والثمانون): فِي أَنَّ اللهَ جَلَّ جَلَالُهُ هُوَ القَادِرُ [٦٨٤]

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ﴾ [٦٨٤].

وَعَنْ جابِرِ بْنِ عَبْدِ الله السَّلَمِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُعَلِّمُ أَصْحَابَهُ الِاسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا، كَمَا يُعَلِّمُهُمُ السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ، يَقُولُ: «إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ، فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللهمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، اللهمَّ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ هَذَا الْأَمْرَ، ثُمَّ يُسَمِّيهِ بِعَيْنِهِ، خَيْرًا لِي فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ، قَالَ: أَوْ فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي، فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، اللهمَّ وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي، أَوْ قَالَ: فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ، فَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدُرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ» [٦٨٥].

المسألة (التسعون): فِي مُقَلِّبِ الْقُلُوبِ [٦٨٨]

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾ [٦٨٨].

وَعَنْ عَبْدِ الله بن عُمَر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «أَكْثَرُ مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَحْلِفُ: لَا وَمُقَلِّبِ الْقُلُوبِ» [٦٨٨].

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ، مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ كَيْفَ يَشَاءُ»، ثُمَّ قَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ، صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ» [٦٨٩].

المسألة (الحادية والتسعون): فِي مَشِيئَةِ الله تَعَالَى وَإِرادَتِهِ [٦٩١]

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [٦٩٤].

وقال الله سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [٦٩٥].

وقال الله عز وجل: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [٦٩٦].

وقال الله جل جلاله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [٦٩٧].

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [٦٩٧].

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [٦٩٨].

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [٦٩٩].

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِذَا دَعَوْتُمُ الله فَاعْزِمُوا فِي الدُّعَاءِ، وَلَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: إِنْ شِئْتَ فَأَعْطِنِي، فَإِنَّ الله لَا مُسْتَكْرِهَ لَهُ» [٧٠٠].

وعن عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه قال: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ بِنْتَ رَسُولِ الله ﷺ لَيْلَةً، فَقَالَ لَهُمْ: «أَلَا تُصَلُّونَ؟»، قَالَ عَلِيٌّ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله إِنَّمَا أَنْفُسُنَا بِيَدِ الله، فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا، فَانْصَرَفَ رَسُولُ الله ﷺ حِينَ قُلْتُ ذَلِكَ، وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا، ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُدْبِرٌ، يَضْرِبُ فَخِذَهُ، وَيَقُولُ: «﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾» [٧٠١].

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ خَامَةِ الزَّرْعِ، يَفِيءُ وَرَقُهُ مِنْ حَيْثُ أَتَتْهَا الرِّيحُ تُكَفِّئُهَا، فَإِذَا سَكَنَتِ اعْتَدَلَتْ، وَكَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ يُكَفَّأُ بِالْبَلَاءِ، وَمَثَلُ الْكَافِرِ كَمَثَلِ الْأَرْزَةِ صَمَّاءَ مُعْتَدِلَةً، حَتَّى يَقْصِمَهَا الله إِذَا شَاءَ» [٧٠٢].

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ، وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى الْمِنْبَرِ: «إِنَّمَا بَقَاؤُكُمْ فِيمَا سَلَفَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ، كَمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، أُعْطِيَ أَهْلُ التَّوْرَاةِ التَّوْرَاةَ، فَعَمِلُوا بِهَا حَتَّى انْتَصَفَ النَّهَارُ، ثُمَّ عَجَزُوا، فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، ثُمَّ أُعْطِيَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ الْإِنْجِيلَ، فَعَمِلُوا بِهِ حَتَّى صَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ عَجَزُوا، فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، ثُمَّ أُعْطِيتُم الْقُرْآنَ، فَعَمِلْتُمْ بِهِ حَتَّى غُرُوبِ الشَّمْسِ، فَأُعْطِيتُمْ قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ، قَالَ أَهْلُ التَّوْرَاةِ: رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَقَلُّ عَمَلاً وَأَكْثَرُ أَجْرًا، قَالَ: هَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ أَجْرِكُمْ مِنْ شَيْءٍ؟، قَالُوا: لَا، فَقَالَ: فَذَلِكَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ» [٧٠٣].

وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قَالَ: بَايَعْتُ رَسُولَ الله ﷺ فِي رَهْطٍ، فَقَالَ: «أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِالله شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ،

وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَأُخِذَ بِهِ فِي الدُّنْيَا، فَهُوَ لَهُ كَفَّارَةٌ وَطَهُورٌ، وَمَنْ سَتَرَهُ اللهُ فَذَلِكَ إِلَى اللهِ إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ» [٧٠٤].

المسألة (الثانية والتسعون): فِي أَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الخَالِقُ للعِبَادِ وأَفْعَالِهِمْ [٧٠٧]

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [٧٠٧].

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [٧١٠].

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [٧١٠].

وَقَالَ الله عز وجل: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [٧١٢].

وعن أَبي ذَرٍّ رضي الله عنه، قال: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ أَيُّ: الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟، قَالَ: «إِيمَانٌ بِاللهِ وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ» [٧١٢].

المسألة (الثالثة والتسعون): في أَنَّ اللهَ تَعَالَى يُحْدِثُ مَا يُرِيْدُ إِحْدَاثَهُ [٧١٥]

قال الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [٧١٥].

وقال الله عز وجل: ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [٧١٦].

وقال الله جل وعلا: ﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ [٧١٦].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُحْدِثُ مِنْ أَمْرِهِ مَا يَشَاءُ، وَإِنَّ مِمَّا أَحْدَثَ أَنْ لَا تَكَلَّمُوا فِي الصَّلَاةِ» [٧١٧].

المسألة (الرابعة والتسعون): فِي أَنَّ كَلَامَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ سَابِقٌ لِخَلْقِهِ؛ بقَوْلِهِ: كُنْ فَيَكُوْن [٧١٩]

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾ [٧١٩].

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [٧٢٠].

وقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَمَّا قَضَى الله الْخَلْقَ، كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ، إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي» [٧٢١].

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا- أَوْ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً-، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَهُ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَهُ، ثُمَّ يُبْعَثُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ، فَيُؤْذَنُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيَكْتُبُ رِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَعَمَلَهُ وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، حَتَّى لَا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُ النَّارَ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا» [٧٢٢].

وقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي قَوْمٌ ظَاهِرِينَ عَلَى النَّاسِ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ الله» [٧٢٩].

وعَن ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: وَقَفَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى مُسَيْلِمَةَ فِي أَصْحابِهِ، فَقَالَ: «لَوْ سَأَلْتَنِي هَذِهِ الْقِطْعَةَ مَا أَعْطَيْتُكَهَا، وَلَنْ تَعْدُوَ أَمْرَ الله فِيكَ، وَلَئِنْ أَدْبَرْتَ لَيَعْقِرَنَّكَ الله» [٧٣٠].

المسألة (الخامسة والتسعون): فِي أَنَّ اللهَ جَلَّ جَلَالُهُ يَقُولُ الحَقَّ [٧٣٢]

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ [٧٣٢].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو مِنَ اللَّيْلِ: «اللهمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، قَوْلُكَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللهمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَأَسْرَرْتُ وَأَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهِي، لَا إِلَهَ لِي غَيْرُكَ».

وفي رواية: وَقَالَ: «أَنْتَ الْحَقُّ، وَقَوْلُكَ الْحَقُّ» [٧٣٣].

المسألة (السادسة والتسعون): فِي أَنَّ القُرآنَ كَلَامُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ [٧٣٨]

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَ﴾ [٧٣٨]

وقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَا فُلَانُ إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَقُلْ: اللهمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنَّكَ إِنْ مُتَّ فِي لَيْلَتِكَ مُتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَإِنْ أَصْبَحْتَ أَصَبْتَ أَجْرًا» [٣٩].

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ يَوْمَ الْأَحْزَابِ: «اللهمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، سَرِيعَ الْحِسَابِ، اهْزِمِ الْأَحْزَابَ، وَزَلْزِلْ بِهِمْ» [٧٤١].

المسألة (السابعة والتسعون): فِي أَنَّ كَلَامَ اللهِ تَعَالَى لَا نِهَايَةَ لَهُ وَلَا نَفَادَ [٧٤٣]

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ [٧٤٣].

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [٧٤٤].

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «تَكَفَّلَ الله لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ، لَا يُخْرِجُهُ مِنْ بَيْتِهِ إِلَّا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ وَتَصْدِيقُ كَلِمَتِهِ، أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يَرُدَّهُ إِلَى مَسْكَنِهِ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ» [٧٤٥].

المسألة (الثامنة والتسعون): فِي أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُوْلُ القَوْلَ وَيُنَادِي وَيَتَكَلَّمُ بِكَلامٍ مَسْمُوعٍ [٧٤٩].

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ

قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [٧٤٩].

وقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِذَا قَضَى الله الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ» [٧٥٠].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَقُولُ الله: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، فَيُنَادَى بِصَوْتٍ: إِنَّ الله يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ» [٧٥١].

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ الله قَدْ أَحَبَّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي جِبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ: إِنَّ الله قَدْ أَحَبَّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَيُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ» [٧٥٢].

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولاً الْجَنَّةَ، وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنَ النَّارِ، رَجُلٌ يَخْرُجُ حَبْوًا، فَيَقُولُ لَهُ رَبُّهُ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: رَبِّ الْجَنَّةُ مَلْأَى، فَيَقُولُ لَهُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَكُلُّ ذَلِكَ يُعِيدُ عَلَيْهِ الْجَنَّةُ مَلْأَى، فَيَقُولُ: إِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا عَشْرَ مِرَارٍ» [٧٥٣].

وَعَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ، أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ ابْنَ عُمَرَ ﷺ: كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ فِي النَّجْوَى؟، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَدْنُو أَحَدُكُمْ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَضَعَ كَنَفَهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولُ: أَعَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا؟، فَيَقُولُ: نَعَمْ، وَيَقُولُ: عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا؟، فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَرِّرُهُ، ثُمَّ يَقُولُ: إِنِّي سَتَرْتُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ» [٧٥٤].

المسألة (التاسعة والتسعون): فِي ذِكْرِ النَّبِيِّ ﷺ وَرِوَايَتِهِ عَنْ رَبِّهِ [٧٥٦]

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ، قَالَ: «إِذَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِذَا تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِذَا أَتَانِي مَشْيًا أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً» [٧٥٦].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ: «لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: إِنَّهُ خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى وَنَسَبَهُ إِلَى أَبِيهِ» [٧٥٧].

المسألة (المئة): فِي قَوْلِ الله تَعَالَى: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾، وفعل النبي ﷺ حين ينزل عليه الوحي [٧٥٩]

قال الله عزوجل: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [٧٦٠].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قَالَ الله تَعَالَى: أَنَا مَعَ عَبْدِي حَيْثُمَا ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ» [٧٦١].

المسألة (الأولى بعد المئة): في حِمَايَةِ النَّبِيِّ ﷺ حِمَى التَّوْحِيْدِ، وَسَدِّهِ طُرُقَ الشِّرْكِ [٧٦٢]

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [٧٦٢].

وَعَنْ عَبْدِ الله بْنِ الشِّخِّيْرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا، فَقَالَ: «السَّيِّدُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى»، قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلاً، وَأَعْظَمُنَا طَوْلاً؛ فَقَالَ: «قُوْلُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ» [٧٦٣].

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ نَاسًا قَالُوا: يَا رَسُوْلَ الله: يَا خَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا، وَسَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِدِنَا، فَقَالَ ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدٌ، عَبْدُ الله وَرَسُوْلُهُ، مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي الله عَزَّ وَجَلَّ» [٧٦٥].

المسألة (الثانية بعد المئة): فِي أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ أمر الرَّسُولَ ﷺ بِتَبْلِيْغِ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ [٧٦٨]

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [٧٦٩].

وقَالَ الله تَعَالَى ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ [٧٧١].

وَقَالَ أَنَسٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خَالَهُ حَرَامًا إِلَى قَوْمِهِ، وَقَالَ: «أَتُؤْمِنُونِي أُبَلِّغُ رِسَالَةَ رَسُولِ الله ﷺ فَجَعَلَ يُحَدِّثُهُمْ» [٧٧٢].

***

الشرح

المسألة (الأولى):
فِي التَّوْحِيْدِ الَّذِي هُوَ حَقُّ الله عَلَى العَبِيْدِ

التوحيد في اللغة: مشتق من وحد الشيء إذا جعله واحداً.

وفي الشـرع: إفراد الله – سبحانه وتعالى – بما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

وينقسم التوحيد إلى ثلاثة أقسام:

١- توحيد الربوبية، ٢- توحيد الألوهية، ٣- توحيد الأسماء والصفات.

ودليلها مجموع في قول الله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥].

فدل قول الله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ على توحيد الربوبية.

وهو إفراد الله عز وجل بالخلق والملك والرزق والتدبير.

ودل قول الله تعالى ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ على توحيد الألوهية.

وهو إفراد الله عز وجل بالعبادة؛ وهو أساس التوحيد؛ لأنه كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» – أي: لا معبود بحق إلا الله –.

والعبادة المطلوب إفرادها لله تعالى؛ هي: كل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة.

ودل قول الله تعالى: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ – السمي هو المثيل – على توحيد الأسماء والصفات.

وهو إفراد الله عز وجل بما سمّى به نفسه في كتابه أو على لسان رسوله.

وذلك يكون بإثبات ما أثبته الله عز وجل لنفسه، ونفي ما نفاه عن نفسه؛ من

غير تحريف[١] ولا تعطيل[٢]، ومن غير تكييف[٣] ولا تمثيل[٤].

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

قوله: ﴿خَلَقْتُ﴾؛ أي: أوجدت.

وقوله: ﴿ٱلْجِنَّ﴾ هم عالمٌ غيبيٌ مخفيٌ عنا، ولهذا جاءت المادة من الجيم والنون، وهما يدلان على الخفاء والاستتار.

وقوله: ﴿وَٱلْإِنسَ﴾ سموا بذلك؛ لأنهم لا يعيشون بدون إيناس، فهم يأنس بعضهم ببعض، ويتحرك بعضهم إلى بعض.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ بمعنى إلا ليوحدون.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: العبادة هي طاعة الله تعالى بامتثال ما أمر الله عز وجل به على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وقال أيضاً: العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

---

(١) التحريف: هو التغيير لغة، واصطلاحاً: تغيير النص لفظاً أو معنى؛ فالتغيير اللفظي يكون بتغيير ضبط الكلمة، كقراءة الجاهل لقول الله تعالى: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ بنصب لفظ الجلالة، وأما التغيير المعنوي يكون بصرف اللفظ عن ظاهره بلا دليل، كتحريف اليدين المضافتين لله عز وجل إلى معنى القوة أو النعمة.

(٢) التعطيل: هو الترك والإخلاء لغةً، قال الله تعالى: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾؛ أي: تركها أهلها، واصطلاحاً: إنكار ما يجب لله عز وجل من الأسماء والصفات، ومثال التحريف المعنوي يصلح في هذا المقام.

(٣) التكييف: هو حكاية الصفة، كقول القائل: كيف الشمس ؟ فيقال: منيرة.

وأما إن كان السؤال عن صفات الله تعالى بكيف، فجوابنا كجواب الإمام مالك: الكيف مجهول، والصفة معلومة، والسؤال عنها بدعة.

كذلك الأمور الغيبية لا يجوز السؤال عنها بكيف.

(٤) التمثيل: هو إثبات المثلية للشيء في جميع الصفات، ويتضح هذا في بيان التشبيه فإنه مساواة الشيء للشيء في بعض صفاته.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: أصل العبادة التذلل والخضوع.

وسميت وظائف الشرع على المكلفين عبادات؛ لأنهم يلتزمونها ويفعلونها خاضعين متذللين لله تعالى.

وقال العماد ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: وعبادته هي طاعته بفعل المأمور وترك المحظور، وذلك هو حقيقة دين الإسلام؛ لأن معنى الإسلام: الاستسلام لله تعالى، المتضمن غاية الانقياد والذل والخضوع.

وقال أيضًا في تفسير هذه الآية: معنى الآية أن الله خلق الخلق ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب، وأخبر أنه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء في جميع أحوالهم وهو خالقهم ورازقهم.

وهذا المعنى هو الذي قصد بالآية قطعًا، وهو الذي يفهمه جماهير المسلمين ويحتجون بالآية عليه.

وَقَالَ الله تَعَالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

هذه الآية تفسير للآية قبلها؛ فالآية قبلها فيها بيان معنى العبادة وفيها بيان الغرض من إيجاد الخلق، وأنه لأجل العبادة التي أرسلت بها الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿بَعَثْنَا﴾؛ أي: أخرجنا، وأرسلنا ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾؛ والأمة هنا: الطائفة من الناس.

والله تعالى ابتعث الرسل عليهم الصلاة والسلام بهاتين الكلمتين ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾؛ ففي قوله: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ إثبات، وفي قوله: ﴿وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ نفي.

والحكمة من إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام:

إقامة الحجة: قال الله تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥].

والرحمة: لقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وبيان الطريق الموصل إلى الله تعالى؛ لأن الإنسان لا يعرف ما يجب لله سبحانه على الوجه التفصيل إلا عن طريق الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: تذللوا له بالعبادة، وسبق تعريف العبادة.

وقوله: ﴿وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾؛ أي: ابتعدوا عنه بأن تكونوا في جانب، وهو في جانب؛ والطاغوت: مشتق من الطغيان؛ والطغيان: مجاوزة الحد؛ كما في قول الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]؛ أي: تجاوز حده؛ وأجمع ما قيل في تعريفه هو ما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنه: «ما تجاوز به العبد حده من متبوع، أو معبود، أو مطاع»؛ ومراده أنه طاغوت باعتبار عابده، وتابعه، ومطيعه؛ لأنه تجاوز به حده، حيث نَزَّله فوق منزلته التي جعلها الله له، كعيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ فإن تابعه تجاوز الحد فيه، وهو لم يأمر أحداً بذلك، فتكون عبادته لهذا المعبود، واتباعه لمتبوعه، وطاعته لمطاعه طغياناً لمجاوزته الحد بذلك.

أو يكون طاغوتاً باعتبارهما جميعاً، إذا كان المتبوع؛ مثل: الكهان، والسحرة، وعلماء السوء، والمعبود؛ مثل: الأصنام، والمطاع؛ مثل: الأمراء الخارجين عن طاعة الله عز وجل، فإذا اتخذهم الإنسان أرباباً يحل ما حرم الله تعالى من أجل تحليلهم له، ويحرم ما أحل الله تعالى من أجل تحريمهم له؛ فهؤلاء طواغيت، والفاعل تابع للطاغوت، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۞ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤].

قوله: ﴿وَقَضَىٰ﴾ قضاء الله عز وجل ينقسم إلى قسمين: قضاء شرعي، وقضاء كوني.

فالقضاء الشرعي: يجوز وقوعه من المقضي عليه وعدمه، ولا يكون إلا فيما يحبه الله تعالى؛ مثال ذلك: هذه الآية: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]؛ فتكون قضى بمعنى: أمر وشرع، أو بمعنى: وصَّى، وما أشبههما.

والقضاء الكوني: لابد من وقوعه، ويكون فيما أحبه الله تعالى، وفيما لا يحبه؛ مثال ذلك: قول الله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤]، فالقضاء هنا كوني؛ لأن الله عز وجل لا يشرع الفساد في الأرض، ولا يحبه.

وهذا الجزء من الآية هو الشاهد في هذه المسألة.

وقوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾؛ أي: قضى ربك أن نحسن بالوالدين إحسانا، والوالدان: يشمل الأم، والأب، ومن فوقهما، لكنه في الأم والأب أبلغ، وكلما قربا منك كانا أولى بالإحسان؛ والإحسان: هو بذل المعروف، وفي قوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ بعد قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ دليل على أن حق الوالدين بعد حق الله عز وجل.

وقوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾؛ أي: كف الأذى عنهما؛ ومعنى ﴿أُفٍّ﴾: أتضجر؛ لأنك إذا قلته؛ فقد يتأذيان بذلك.

وفي الآية إشارة إلى أنهما إذا بلغا الكبر صارا عبئًا على ولدهما؛ فلا يتضجر من الحال، ولا ينهرهما في المقال إذا أساءا في الفعل أو القول.

وقوله: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾؛ أي: المنع من إظهار المخالفة في القول على سبيل الرد عليهما والتكذيب لهما، ولذا رُوْعِي هذا الترتيب وإلا فالمنع من التأفيف يدل على المنع من النَّهر لهما بطريق الأولى.

وقوله: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾؛ أي: لينًا حسنًا بهدوء وطمأنينة؛ فالقول

الكريم يكون في صيغته، وأدائه، والخطاب به، فلا يكون مزعجاً كرفع الصوت مثلاً، بل يتضمن الدعاء والإيناس لهما.

وقوله: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ ﴾؛ أي: تواضع لهما وتذلل.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾؛ أي: فرحاً من رحمتك عليهما.

وقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا ﴾؛ أي: ادعُ الله تعالى أن يرحمهما؛ وفيه حَثّ على ملازمة الدعاء لهما دائماً.

وقوله: ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾؛ أي: تكون رحمة مثل تربيتهما لي أو مثل رحمتهما لي.

وَقَالَ الله تَعَالى: ﴿وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦].

قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا﴾؛ هذا أيضاً فيه أمر ونهي، أما الأمر ففي قوله: ﴿وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ﴾، والنهي في قوله: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا﴾.

وقوله: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا﴾؛ دل على النهي على أي نوع من الشرك.

و معنى الشرك: اتخاذ الشريك؛ وهو أن يجعل واحداً شريكاً لآخر.

وهو هنا اتخاذ الشريك مع الله جل وعلا في الربوبية، أو في العبادة، أو في الأسماء والصفات.

وينقسم الشرك إلى أكبر وأصغر؛ فالأكبر هو المُخرج من الملة، والأصغر ما حَكَمَ الشارع عليه بأنه شرك، وليس فيه ما يلحقه بالشرك الأكبر، وعبر عنه بعض العلماء بقوله: ما كان وسيلة إلى الشرك الأكبر.

وسيأتي قريبا الحديث عن الشرك بتوسع إن شاء الله تعالى.

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ

وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۞ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۞ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣].

قال ابن مسعود ﵁: «من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه؛ فليقرأ قوله تعالى: ...- وذكر الآيات[(١)]-».

«ابن مسعود» هو عبد الله بن مسعود أبو عبد الرحمن، صحابي جليل من السابقين الأولين، وأهل بدر وأحد والخندق وبيعة الرضوان من كبار علماء الصحابة، أمَّرَه عمر ﵁ على الكوفة، ومات سنة اثنتين وثلاثين - ﵁ -.

وقوله: «من أراد...»؛ الاستفهام هنا للحث والتشويق.

وقوله: «وصية محمد ﷺ»؛ أي: رسول الله محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي ﷺ، وهذا التعبير من ابن مسعود ﵁ يدل على جواز مثله.

وقوله: «التي عليها خاتمه»، الخاتم بمعنى التوقيع.

وقوله: «وصية محمد ﷺ» ليست وصية مكتوبة مختومًا عليها؛ ويدل لهذا: أن أبا جحيفة سأل علي بن أبي طالب ﵁: هل عهد إليكم النبي ﷺ بشيء؟ فقال: لا،

---

(١) رواه الترمذي برقم(٣٠٧٠)، وقال: حسن غريب، ورواه الطبراني في «الكبير» برقم (١٠٠٦٠)، قال الألباني في «صحيح وضعيف سنن الترمذي»:ضعيف الإسناد؛ وقال المباركفوري في «تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي» - في أحد رواة الحديث وهو داود الأودي -: «الظاهر أن داود هذا هو داود بن عبدالله الأودي الزعافري؛ بالزاي والمهملة وبالفاء،أبو علاء الكوفي؛ ثقة من السادسة،وهو غير عَمّ عبدالله بن إدريس»، وانظر كلام الحافظ ابن حجر في «التقريب»، فإن كان كما قال فالأثر صحيح، والله أعلم.

والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهماً يؤتيه الله تعالى في القرآن، وما في هذه الصحيفة، قيل: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر.

فلا يظن أن النبي ﷺ أوصى بهذه الآيات وصية خاصة مكتوبة، لكن ابن مسعود رضي الله عنه يرى أن هذه الآيات قد شملت الدين كله؛ فكأنها الوصية التي ختم عليها رسول الله ﷺ وأبقاها لأمته.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ...﴾؛ الخطاب للنبي ﷺ، أمره الله تعالى أن يقول للناس: ﴿تَعَالَوْا﴾؛ أي: أقبلوا، وهلموا، وأصله من العلو كأن المنادي يناديك أن تعلو إلى مكانه، فيقول: تعالى؛ أي: ارتفع إليَّ.

وقوله ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ الوصية هنا شرعية، وإذا كانت الوصية من الله عز وجل شرعية، فهي أمر واجب.

قال ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى لنبيه ورسوله ﷺ ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله سبحانه، وحرموا ما رزقهم الله، ﴿تَعَالَوْا﴾؛ أي: هلموا وأقبلوا، ﴿أَتْلُ﴾ أقص عليكم ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ حقاً، لا تخرصاً ولا ظناً، بل وحياً منه وأمراً من عنده ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ وكأن في الكلام محذوفاً دل عليه السياق تقديره: وصاكم ألا تشركوا به شيئاً، ولهذا قال في آخر الآية: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ﴾.

وهنا الشاهد، والمراد من هذه الآية هوتحريم الشرك، ومن لازم تحريم الشرك وجوب التوحيد.

وقوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾؛ أي: وأتل عليكم الأمر بالإحسان إلى الوالدين؛ وقال القرطبي رحمه الله: الإحسان إلى الوالدين برهما وحفظهما وصيانتهما وامتثال أمرهما، وترك السلطنة عليهما.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم﴾، بعد أن ذكر حق الأصول ذكر حق الفروع؛ ولفظ الأولاد يشمل الذكر والأنثى، قال الله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١].

وقوله: ﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾؛ أي: بسبب الإملاق؛ والإملاق: الفقر، وتقييد النهي عن قتل الأولاد بخشية الإملاق بناء على واقع المشركين غالباً.

وقوله: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾؛ أي: إذا أبقيتموهم؛ فإنّ الرزق لن يضيق عليكم بإبقائهم؛ لأن الذي يقوم بالرزق هو الله تعالى.

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك، قلت: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك، قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني بحليلة جارك، ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۞ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ۞ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠][1].

وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾، لم يقل: لا تأتوا؛ لأن النهي عن القرب أبلغ من النهي عن الإتيان؛ لأن النهي عن القرب نهي عنها، وعما يكون ذريعة إليها، ولذلك حَرُم على الرجل أن ينظر إلى المرأة الأجنبية، وأن يخلو بها، وأن تسافر المرأة بلا محرم؛ لأن ذلك يقرب من الفواحش.

والفواحش: هي التي قبحها واضح من الذنوب والمعاصي، وقيل: هي الكبائر.

وقوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾؛ قيل: ما ظهر فحشه، وما خفي؛ لأن الفواحش منها شيء مستفحش في نفوس جميع الناس، ومنها شيء فيه خفاء.

وقيل: ما أظهرتموه، وما أسررتموه، فالإظهار: فعل الزنا - والعياذ بالله - مجاهرةً، والإبطان فعله سراً، وقيل: ما عظم فحشه، وما كان دون ذلك؛ لأن الفواحش ليست على حد سواء، ولهذا جاء عن النبي ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر»[2]، وهذا يدل على أن الكبائر فيها أكبر وفيها ما دون ذلك.

وقال ابن عطية رَحِمَهُ اللهُ: هو نهي عام عن جميع أنواع الفواحش، وهي المعاصي.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾؛ النفس التي حرم الله عز

---

(١) رواه البخاري برقم (٤٤٧٧)، ومسلم برقم (٨٦).

(٢) رواه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم برقم (٨٧).

وجل: هي النفس المعصومة، وهي نفس المسلم، والذمي، والمعاهد، والمستأمِن.

والحق: ما أثبته الشرع، والباطل: ما نفاه الشرع.

فمن الحق الذي أثبته الشرع في قتل النفس المعصومة؛ قال النبي ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثّيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة»[1].

وقال هنا: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، وقال قبلها: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم﴾؛ فيكون النهي عن قتل الأولاد مكرراً مرتين: مرة بذكر الخصوص، ومرة بذكر العموم.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾؛ الوصية بالشيء هي العهد به على وجه الاهتمام؛ إذن كل ما ذكر سابقًا لا بد أن يؤخذ به على وجه الاهتمام.

وقوله: ﴿تَعْقِلُونَ﴾؛ معناه: تفهمون، وحسن الفهم يؤدي إلى حسن التصرف.

وفي هذا دليلٌ على أن هذه الأمور إذا التزم بها الإنسان؛ فهو عاقل رشيد، وإذا خالفها؛ فهو سفيه ليس بعاقل.

وقد تضمنت هذه الآية خمس وصايا:

الأولى: توحيد الله تبارك وتعالى.

الثانية: الإحسان بالوالدين.

الثالثة: أن لا نقتل أولادنا.

الرابعة: أن لا نقرب الفواحش.

الخامسة: أن لا نقتل النفس التي حرم الله تعالى إلا بالحق.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟﴾ هذا حماية لأموال اليتامى أن لا نقربها إلا بالخصلة التي هي أحسن؛ فلا نقربها بأي تصرف إلا بما نرى أنه أحسن، فإذا لاح للولي تصرفان أحدهما أكثر ربحًا؛ فالواجب عليه أن يأخذ بما هو أكثر ربحًا لأنه أحسن.

والحسن هنا يشمل: الحسن الدنيوي، والحسن الديني، فإذا لاح تصرفان أحدهما أكثر ربحًا وفيه ربًا، والآخر أقل ربحًا وهو أسلم من الربا؛ فنقدم الأخير؛

---

(١) رواه البخاري برقم (٦٨٧٨)، ومسلم برقم (١٦٧٦).

لأن الحسن الشرعي مقدم على الحسن الدنيوي المادي.

و﴿ٱلْيَتِيمِ﴾ هو من مات أبوه ولم يبلغ.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾؛ أي: إذا بلغ أشده؛ فإننا ندفع المال إليه بعد أن نختبره، وننظر في حسن تصرفه، ولا يجوز لنا أن نبقي المال عندنا.

ومعنى ﴿أَشُدَّهُۥ﴾: قوته العقلية والبدنية.

وبلوغ الأشد؛ المراد به هنا: الأشد الذي يكون به التكليف، وهو تمام خمسة عشرة سنة، أو إنبات العانة أو الإنزال.

قال مالك وغيره: هو الرشد وزوال السفه مع البلوغ.

والخطاب هنا لأولياء اليتامى أو للحاكم على قول بعض أهل العلم.

وقوله: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾؛ أي: أوفوا الكيل إذا كلتم فيما يكال من الأطعمة والحبوب، وأوفوا الميزان: إذا وزنتم فيما يوزن؛ كاللحوم مثلاً...، والأمر بالإيفاء شاملٌ لجميع ما تتعامل به مع غيرك؛ فيجب عليك أن توفي بالكيل والوزن وغيرهما في التعامل.

وقوله: ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾؛ أي: بالعدل.

ولما كان قوله: ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ قد يشق بعض الأحيان؛ لأن الإنسان قد يفوته أن يوفي الكيل أو الوزن أحياناً، أعقب ذلك بقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾؛ أي: طاقتها، فإذا بذل جهده وطاقته، وحصل النقص؛ فلا يعد مخالفاً؛ لأن ما خرج عن الطاقة معفو عنه فيه، كما أن هذه الجملة تفيد العفو من وجه، وهو ما خرج عن الوسع؛ فإنها تفيد التغليظ من وجه، وهو أن على المرء أن يبذل وسعه في الإيفاء بالقسط، ولكن متى تبين الخطأ وجب تلافيه؛ لأنه داخل في الوسع.

وقوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ﴾؛ معناه: أيُّ قَوْلٍ تَقُوله؛ فإنه يجب عليك أن تعدل في قولك، سواء كان ذلك لنفسك على غيرك، أو لغيرك على نفسك، أو لغيرك على غيرك، أو لتحكم بين اثنين؛ فالواجب العدل؛ إذ العدل في اللغة الاستقامة، وضده الجور والميل، فلا تمل يميناً ولا شمالاً، ولم يقل هنا: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾؛ لأن القول لا يشق فيه العدل غالباً.

وقوله: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾؛ أي: المقول له صاحب قرابة، فلا تحابيه لقرابته، فتميل

معه على غيره من أجله؛ فاجعل أمرك إلى الله عز وجل الذي خلقك، وأمرك بهذا، وإليه سترجع، ويسألك - عز وجل - ماذا فعلت في هذه الأمانة.

وقد أقسم أشرف الخلق، وسيد ولد آدم، وأعدل البشر ﷺ وقال: «وايم الله؛ لو أن فاطمة بنت محمد سرقت؛ لقطعت يدها»(١).

قال بعض أهل العلم: العدل في القول في حق الولي والعدو لا يتغير في الرضى والغضب بل يكون على الحق وإن كان ذا قربى فلا يميل إلى الحبيب والقريب ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨].

وقوله: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾؛ وعَهْد الله: ما عهد به إلى عباده، وهي عبادته - سبحانه وتعالى - والقيام بأمره؛ كما قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ [المائدة: ١٢]، هذا ميثاق من جانب المخلوق، وقول الله تعالى: ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ [المائدة: ١٢]، هذا من جانب الله عز وجل.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾، هذه الآية الكريمة فيها أربع وصايا من الخالق - سبحانه -:

الأولى: أن لا نقرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن.

الثانية: أن نوفي الكيل والميزان بالقسط.

الثالثة: أن نعدل إذا قلنا.

الرابعة: أن نوفي بعهد الله.

والآية الأولى فيها خمس وصايا، صار الجميع تسع وصايا.

وقوله: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾ قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وبوصية الله تعالى التي وصاكم بها فأوفوا؛ وإيفاء ذلك بأن يطيعوه بما أمرهم به ونهاهم عنه، وأن يعملوا بكتابه وسنة رسوله ﷺ ذلك هو الوفاء بعهد الله تعالى.

---

(١) رواه البخاري برقم (٣٤٧٥)، ومسلم برقم (١٦٨٨).

ثم قال الله عز وجل: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾، هذه هي الوصية العاشرة؛ فقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى﴾ يحتمل أن المشار إليه ما سبق؛ لأنك لو تأملته وجدته محيطاً بالشرع كله؛ إما نصاً، وإما إيماء، ويحتمل أن المراد به ما علم من دين الله؛ أي: هذا الذي جاءكم به الرسول ﷺ هو صراطي؛ أي: الطريق الموصل إليه - سبحانه وتعالى -.

وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾، ﴿ٱلسُّبُلَ﴾؛ أي: الطرق الملتوية الخارجة عنه.

وقوله: ﴿فَتَفَرَّقَ﴾ أصلها: «تتفرق» حذفت منه تاء المضارعة؛ أي أنكم إذا اتبعتم ﴿ٱلسُّبُلَ﴾ تفرقت بكم عن سبيله، وتشتت بكم الأهواء وبعدت.

وقوله: ﴿ٱلسُّبُلَ﴾ جمع سبيل، وفي الطريق التي أضافها الله عز وجل إلى نفسه قال: ﴿سَبِيلِهِۦ﴾ سبيل واحد؛ لأن سبيل الله عز وجل واحد، وأما ما عداه فسبل متعددة، ولهذا قال النبي ﷺ: «وستفترق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار؛ إلا واحدة»[1]؛ فالسبيل المنجي واحد، والسبل الباقية متشعبة متفرقة.

ولا يرد على هذا قول الله تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٦]؛ لأن ﴿سُبُلَ﴾ هنا؛ وإن كانت مجموعة؛ لكن أضيفت إلى السلام فكانت منجية، ويكون المراد بها شرائع الإسلام.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: خط رسول الله ﷺ خطاً بيده، ثم قال هذا سبيل الله مستقيماً، ثم خط خطوطاً عن يمين ذلك الخط وعن شماله، ثم قال: وهذه سبل ليس منها سبيل إلا وعليه شيطان يدعو إليه، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ﴾ الآية[2].

وعن مجاهد رحمه الله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ﴾، قال: البدع والشهوات.

---

(١) رواه ابن ماجة برقم (٣٩٩٣)، وصححه الألباني؛ انظر «السلسلة الصحيحة» برقم (٢٠٣).

(٢) رواه أحمد (١/ ٤٦٥،٤٣٥)، والنسائي في «الكبرى» (٧/ ١٤٩ - تحفة)، والدارمي في «سننه» (١/ ٦٧)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣١٨) وحسنه الألباني؛ انظر «مشكاة المصابيح» برقم (١٦٦).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الصراط المستقيم هو طريق الله الذي نصبه لعباده موصلاً لهم إليه، ولا طريق إليه سواه، بل الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا طريقه الذي نصبه على ألسن رسله، وجعله موصلاً لعبادة الله وهو إفراده بالعبادات، وإفراد رسله بالطاعة، فلا يشرك به أحداً في عبادته، ولا يشرك برسوله ﷺ أحداً في طاعته؛ فيجرد التوحيد، ويجرد متابعة الرسول ﷺ، وهذا كله مضمون شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله؛ فأي شيء فسر به الصراط المستقيم فهو داخل في هذين الأصلين.

وقال سهل بن عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عليكم بالأثر والسنة، فإني أخاف، إنه سيأتي عن قليل زمان إذا ذكر إنسان النبي ﷺ والاقتداء به في جميع أحواله ذموه ونفروا عنه وتبرأوا منه، وأذلوه وأهانوه.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ أي: ذلك المذكور، وصاكم لتنالوا به درجة التقوى، والالتزام بما أمر الله به ورسوله ﷺ.

وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ رَدِيْفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ فَقَالَ لِي: «يَا مُعَاذُ، أَتَدْرِي مَا حَقُّ الله عَلَى العِبَادِ، وَمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى الله؟» فَقُلْتُ: الله وَرَسُوْلُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «حَقُّ الله عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوْهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ العِبَادِ عَلَى الله أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» فَقُلْتُ: يَا رَسُوْلَ الله أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟، قَالَ: «لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا» (١).

«**معاذ بن جبل**» رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، هو ابن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي أبو عبد الرحمن، صحابي مشهور من أعيان الصحابة، شهد بدراً وما بعدها، وكان إليه المنتهى في العلم والأحكام والقرآن.

و قوله: «**رديف**»؛ بمعنى رادف؛ أي: راكب معه خلفه،وفيه جواز الإرداف على الدابة.

وقوله: «**على حمار**»، أي: أهلي؛ لأن الوحشي لا يركب، قيل: اسمه عُفير، أهداه إليه المقوقس صاحب مصر.

وفيه: تواضعه ﷺ لركوب الحمار والإرادف عليه، خلافًا لما عليه أهل الكبر.

---

(١) رواه البخاري برقم (٢٨٥٦)، ومسلم برقم (٣٠).

وقوله: «**أتدري**»؛ أي: أتعلم.

وقوله: «**ما حق الله على العباد؟**»؛ أي: ما أوجبه عليهم، وما يجب أن يعاملوه به. وألقاه على معاذ رضي الله عنه بصيغة السؤال؛ ليكون أشد حضوراً لقلبه حتى يفهم ما يقول صلى الله عليه وسلم.

وقوله: «**وما حق العباد على الله؟**»؛ أي: ما يجب أن يعاملهم به، والعباد لم يوجبوا شيئًا، بل الله جل وعلا أوجبه على نفسه، فضلاً منه على عباده، قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤]؛ فأوجب سبحانه على نفسه أن يرحم من عمل سوءاً بجهالة؛ أي: بسفه وعدم حسن تصرف ثم تاب من بعد ذلك وأصلح.

ومعنى «كتب»؛ أي: أوجب.

ثم قال: «**وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً**»؛ هل الحق واجب أم لا؟، نقول: نعم هو حق واجب، لكن بإيجاب الله ذلك الحق على نفسه، والله -جل وعلا- يحرم على نفسه ما يشاء بما يوافق حكمته، ويوجب على نفسه؛ ما يشاء بما يوافق حكمته، فكما أن الله عز وجل حرم الظلم على نفسه؛ كما في قول الله تعالى في الحديث القدسي: «إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا»[1].

كذلك أوجب على نفسه أشياء؛ لكن بعض أهل العلم تحاشى إطلاق لفظ الإيجاب على الله جل جلاله، وقال: يعبر عن ذلك بأنه حق، يتفضل به الله سبحانه على من يشاء، فهو حق تفضل، لا حق إيجاب بمتعين؛ لأن الحق الواجب هو الذي أوجبه الله تعالى على نفسه، والعباد لا يوجبون على الله جل وعلا شيئًا من الحقوق، بل هو الذي أوجبه -جل وعلا- على نفسه؛ وتفضل على عباده، والله جل جلاله لا يخلف الميعاد.

وقوله: «**قلت: الله ورسوله أعلم**»؛ والمعنى: أعلم من غيرهما، وأعلم مني أيضًا.

وقوله: «**يعبدوه**»؛ أي: يتذللوا له بالطاعة.

وقوله: «**ولا يشركوا به شيئاً**»؛ أي: في عبادته وما يختص به، وشيئًا نكرة في سياق النفي؛ فتعم كل شيء لا رسولاً ولا ملكًا ولا وليًا ولا غيرهم.

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٥٧٧).

وقوله: «**أفلا أبشر الناس**»؛ أي: أأسكت فلا أبشر الناس؟.

والبشارة: هي الإخبار بما يسر.

وقد تستعمل في الإخبار بما يضر، ومنه قول الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق: ٢٤]، لكن الأكثر الأول.

وقوله: «**لا تبشرهم**»؛ أي: لا تخبرهم، و«**لا**» ناهية.

والمعنى: أن الله لا يعذب من لا يشرك به شيئًا، وأن المعاصي تكون مغفورة بتحقيق التوحيد.

ونهى النبي ﷺ عن إخبارهم؛ لئلا يعتمدوا على هذه البشرى دون تحقيق مقتضاها؛ لأن تحقيق التوحيد يستلزم اجتناب المعاصي؛ لأن المعاصي صادرة عن الهوى، وهذا نوع من الشرك، قال الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقوله: «**فيتكلوا**»، وفي رواية: «إني أخاف أن يتكلوا»، أي: يعتمدوا على ذلك، فيتركوا التنافس في الأعمال الصالحة، اعتمادا على ما يتبادر من ظاهر الحديث.

وفي رواية: «فأخبر بها معاذ عند موته تأثمًا»؛ أي: تحرجًا من الإثم.

قال أبو المظفر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لم يكن يكتمها إلا عن جاهل يحمله جهله على سوء الأدب بترك الخدمة في الطاعة، فأما الأكياس فإذا سمعوا بمثل هذا زادوا في الطاعة، فلا وجه لكتمانها عنهم».

وفيه جواز كتمان العلم للمصلحة، والخوف من الاتكال على سعة رحمة الله سبحانه وتعالى.

* * *

المسألة (الثانية):
فِي فَضْلِ التَّوْحِيْدِ وَمَا يُكَفِّرُ مِنَ الذُّنُوْبِ

فيه بيان فضل التوحيد، وبيان ما يكفره من الذنوب؛ لأن من آثار فضل التوحيد تكفير الذنوب، وأن التوحيد أكبر دعامة للرغبة في الطاعة؛ لأن الموحد يعمل لله سبحانه وتعالى؛ فهو يعمل سراً وعلانية، أما غير الموحد؛ كالمرائي مثلاً؛ فإنه يتصدق ويصلي، ويذكر الله عز وجل إذا كان عنده من يراه فقط، ولهذا قال بعض السلف: «إني لأود أن أتقرب إلى الله بطاعة لا يعلمها إلا هو».

وأن الموحدين ﴿لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

قَالَ الله تَعَالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

قول الله تعالى: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ﴾؛ أي: يخلطوا.

وقوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾؛ الظلم هنا ما يقابل الإيمان؛ وهو الشرك، ولما نزلت هذه الآية شق ذلك على الصحابة، وقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟، فقال النبي ﷺ: «ليس الأمر كما تظنون، إنما المراد به الشرك، ألم تسمعوا إلى قول الرجل الصالح - يعني: لقمان -: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1]».

والظلم أنواع:

١- أظلم الظلم؛ وهو الشرك في حق الله تعالى.

٢- ظلم الإنسان نفسه؛ فلا يعطيها حقها؛ مثل أن يصوم فلا يفطر، ويقوم فلا ينام.

٣- ظلم الإنسان غيره؛ مثل أن يتعدى على شخص بالضرب، أو القتل، أو أخذ

---

(١) رواه البخاري برقم (٦٩٣٧)، ومسلم برقم (١٢٤).

مال، أو ما أشبه ذلك.

وإذا انتفى الظلم، حصل الأمن.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ﴾؛ أي: الأمن من الزيغ والانحراف وسوء الخاتمة، والأمن من العذاب.

وقوله: ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾؛ فيهتدون إلى الحق في العقائد والمسائل، وإلى شرع الله تعالى بالعلم والعمل، ويهتدون على الصراط، ويهتدون إلى الجنة والدخول فيها.

وقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَحْدَهُ لَا شَرِيْكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدَاً عَبْدُهُ وَرَسُوْلُهُ، وَأَنَّ عِيْسَى عَبْدُ الله وَرَسُوْلُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوْحٌ مِنْهُ، وَالجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ الله الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ» (١).

قوله: «**من شهد أن لا إله إلا الله**»؛ الشهادة لا تكون إلا عن علم سابق، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]؛ والمراد: من تكلم بها عارفاً لمعناها، عاملاً بمقتضاها، باطناً وظاهراً.

والشهادة: هي الاعتراف باللسان، والاعتقاد بالقلب، والتصديق بالجوارح، ولهذا لما قال المنافقون للرسول ﷺ: ﴿نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ١]، وهذه جملة مؤكدة بثلاث مؤكدات: الشهادة، وإن، واللام، كذبهم الله عز وجل بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]؛ فلم ينفعهم هذا الإقرار باللسان لأنه خالٍ من الاعتقاد بالقلب، وخالٍ من التصديق بالعمل؛ فلا تتحقق الشهادة إلا بعقيدة في القلب، واعتراف باللسان، وتصديق بالعمل.

وقوله: «**لا إله إلا الله**»؛ أي: لا معبود على وجهٍ يستحق أن يعبد إلا الله سبحانه،

---

(١) رواه البخاري برقم (٣٤٣٥)، ومسلم برقم(٢٨).

وهذه الأصنام التي تعبد لا تستحق العبادة؛ لأنه ليس فيها من خصائص الألوهية شيء.

وقوله: «**أن لا إله**»؛ أي: لا مألوه؛ والمألوه: هو المعبود محبةً وتعظيمًا، تحبه وتعظمه لما تعلم من صفاته العظيمة وأفعاله الجليلة.

وقوله: «**إلا الله**»؛ أي: لا مألوه إلا الله جل وعلا، ولهذا حكي عن قريش قولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

والتوحيد الذي جاءت به الرسل في قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]؛ أي: من إله حقيقي يستحق أن يعبد، وهو الله سبحانه.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الإله هو المعبود المطاع، فإن الإله هو المألوه، والمألوه هو الذي يستحق أن يعبد، وكونه يستحق أن يعبد هو بما اتصف به من الصفات التي تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب، المخضوع له غاية الخضوع.

وقال أيضًا: فإن الإله هو المحبوب المعبود الذي تألهه القلوب بحبها، وتخضع له وتذل له، وتخافه وترجوه، وتنيب إليه في شدائدها، وتدعوه في مهماتها، وتتوكل عليه في مصالحها، وتلجأ إليه وتطمئن بذكره، وتسكن إلى حبه، وليس ذلك إلا لله وحده، ولهذا كانت «لا إله إلا الله» أصدق الكلام، وكان أهلها أهل الله وحزبه، والمنكرون لها أعداءه وأهل غضبه ونقمته، فإذا صحت صح بها كل مسألة وحال وذوق، وإذا لم يصححها العبد فالفساد لازم له في علومه وأعماله.

وقوله: «**وحده لا شريك له**»؛ وحده: توكيد للإثبات، لا شريك له: توكيد للنفي في كل ما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

وقوله: «**وأن محمداً**»؛ هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب القرشي، الهاشمي، خاتم النبيين ﷺ؛ أي: وشهد بذلك، وهو معطوف على ما قبله.

وقوله: «**عبده**»؛ أي: ليس شريكًا مع الله سبحانه؛ ومعنى العبد هنا: المملوك العابد؛ أي: أنه مملوك لله تعالى.

وقوله: «**ورسوله**»؛ أي: المبعوث بما أوحي إليه؛ فليس كاذبًا على الله جل جلاله.

فهو أكمل الخلق في هاتين الصفتين الشريفتين؛ فالرسول ﷺ عبد مربوب، جميع خصائص البشرية تلحقه؛ فهو بشر مثلنا؛ إلا أنه يوحى إليه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [فصلت: ٦].

فإن شهادة أن محمداً رسول الله تقتضي الإيمان به وتصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانتهاء عما عنه نهى وزجر، وأن يعظم أمره ونهيه، ولا يقدم عليه قول أحد كائناً من كان.

وقوله: «**وأن عيسى عبد الله ورسوله**»، الكلام فيها كالكلام في شهادة أن محمداً رسول الله، إلا أننا نؤمن برسالة عيسى عليه السلام، ولا يلزمنا اتباعه إذا خالفت شريعته شريعتنا.

فشريعة مَن قبلنا لها ثلاث حالات:

الأولى: أن تكون مخالفة لشريعتنا؛ فالعمل على شرعنا.

الثانية: أن تكون موافقة لشريعتنا؛ فنحن متبعون لشريعتنا.

الثالثة: أن يكون مسكوتاً عنها في شريعتنا، وفي هذه الحال اختلف علماء الأصول: هل نعمل بها، أو ندعها؟، والصحيح أنها شرع لنا، ودليل ذلك: قول الله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١].

وقد تطرف في عيسى عليه السلام طائفتان:

الأولى: اليهود كذبوه، فقالوا: بأنه ولد زنى، وأن أمه من البغايا، وأنه ليس بنبي، وقتلوه شرعاً؛ أي: محكوم عليهم عند الله أنهم قتلوه في حكم الله تعالى الشرعي؛ لقول الله تعالى عنهم: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٥٧]، وأما بالنسبة لحكم الله القدري؛ فقد كُذِّبوا، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ۝ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٧-١٥٨]، ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]، فقتلوا المشبه لهم وصلبوه.

الثانية: النصارى؛ قالوا: إنه ابن الله سبحانه وتعالى، وإنه ثالث ثلاثة، وجعلوه إلهاً مع الله تعالى، وكذبوا فيما قالوا.

أما عقيدتنا نحن فيه: فنشهد أنه عبد الله ورسوله، وأن أمه صديقة؛ كما أخبر الله تعالى بذلك، وأنها أحصنت فرجها، وأنها عذراء، ولكن مثله عند الله عز وجل كمثل آدم، خلقه من تراب ثم قال له: كن؛ فيكون.

وفي قوله: «**عبد الله**»، رد على النصارى.

وفي قوله: «**ورسوله**»، رد على اليهود.

وقوله: «**وكلمته ألقاها إلى مريم**» أطلق الله تعالى كلمة؛ لأنه خلق بالكلمة، فالحديث ليس على ظاهره؛ إذ عيسى عليه السلام ليس كلمة؛ لأنه يأكل، ويشرب، ويبول ويتغوط، وتجري عليه جميع الأحوال البشرية؛ قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وعيسى عليه السلام ليس كلمة الله عز وجل؛ إذ إن كلام الله تعالى وصف قائم به، لا بائن منه، أما عيسى عليه السلام؛ فهو ذات بائنة عن الله سبحانه، يذهب ويجيء، ويأكل الطعام ويشرب.

وقوله: «**ألقاها إلى مريم**»؛ أي: وجهها إليها بقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ ﴾.

ومريم ابنة عمران ليست أخت موسى وهارون عليهما السلام كما يظنه بعض الناس، ولكن كما قال الرسول ﷺ: «كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم»[1]؛ فهارون أخو مريم، ليس هارون أخا موسى، بل هو آخر يسمى باسمه، وكذلك عمران سمي باسم أبي موسى.

وقوله: «**وروح منه**»؛ أي: صار جسده – عليه السلام – بالكلمة، فنفخت فيه هذه الروح التي هي من الله عز وجل؛ أي: خلق من مخلوقاته أضيفت إليه – تعالى – للتشريف والتكريم.

و عيسى عليه السلام ليس روحاً، بل جسد ذو روح، قال الله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥].

فبالنفخ صار جسداً، وبالروح صار جسداً وروحاً.

---

(١) رواه مسلم برقم (٢١٣٥).

وقوله: «**منه**» هذه هي التي أضلت النصارى، فظنوا أنه جزء من الله سبحانه وتعالى فضلوا وأضلوا كثيرا، ولكننا نقول: إن الله عز وجل قد أعمى بصائرهم؛ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور؛ فمن المعلوم أن عيسى عليه السلام كان يأكل الطعام، وهذا شيء معروف، ومن المعلوم أيضاً أن اليهود يقولون: إنهم صلبوه، وهل يمكن لمن كان جزءاً من الرب أن ينفصل عن الرب ويأكل ويشرب ويدعى أنه قتل وصلب؟.

وعلى هذا تكون «مِن» للابتداء، وليست للتبعيض؛ فهي كقوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية: ١٣]؛ فلا يمكن أن نقول: إن الشمس والقمر والأنهار جزءاً من الله جل وعلا، وهذا لم يقل به أحد؛ فقوله: «**منه**»؛ أي: روح صادرة من الله عز وجل، وليست جزءً من الله عز وجل كما تزعم النصارى.

وقوله: «**والجنة حق والنار حق**»؛ أي: وشهد أن الجنة التي أخبر بها الله تعالى في كتابه أنه أعدها للمتقين حق؛ أي: ثابتة لا شك فيها، وشهد أن النار التي أخبر بها الله تعالى في كتابه أنه أعدها للكافرين حق كذلك ثابتة، كما قال الله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]، وقال الله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤]، وفى الآيتين ونظائرهما دليل على أن الجنة والنار مخلوقتان الآن.

وقوله: «**أدخله الله الجنة**»؛ إدخال الجنة ينقسم إلى قسمين:

الأول: إدخال كامل لم يسبق بعذاب لمن أتمّ العمل.

الثاني: إدخال ناقص مسبوق بعذاب لمن نقص العمل؛ فالمؤمن إذا غلبت سيئاته حسناته إن شاء الله عز وجل عذّبه بقدر عمله، وإن شاء لم يعذّبه، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ١١٦].

وقوله: «**على ما كان من العمل**»؛ أي: من صلاح أو فساد؛ لأن أهل التوحيد لابد لهم من دخول الجنة، ويحتمل أن يكون معنى قوله: «**على ما كان من العمل**»

أن يدخل أهل الجنة على حسب أعمال كل منهم في الدرجات.

وقال رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ الله حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ الله» (١).

هذا الحديث له قصة؛ وهي أن عِتبان بن مالك رضي الله عنه كان يصلى بقومه، فضعف بصره، وشق عليه الذهاب إليهم، فطلب من النبي ﷺ أن يخرج إليه، وأن يصلى في مكان من بيته ليتخذه مصلى، فخرج إليه النبي ﷺ ومعه طائفة من أصحابه، منهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فلما دخل البيت، قال: «أين تريد أن أصلى؟»، قال: صلِّ ها هنا، وأشار إلى ناحية من البيت، فصلى بهم النبي ﷺ ركعتين، ثم جلس على طعام صنعوه له، فجعلوا يتذاكرون، فذكروا رجلاً يقال له: مالك بن الدُّخْشُم، فقال بعضهم: هو منافق، فقال رسول الله ﷺ: «لا تقل هكذا؛ أليس قال: لا إله إلا الله يريد بذلك وجه الله؟!»، ثم قال: «فإن الله حرم على النار...» الحديث.

فنهاهم أن يقولوا هكذا لأنهم لا يدرون عما في قلبه؛ لأنه يشهد أن لا إله إلا الله، وهنا الرسول ﷺ قال هكذا، ولم يبرئ الرجل، إنّما أتى بعبارة عامة بأن الله تعالى حرّم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله تعالى، ونهى أن نطلق ألسنتنا في عباد الله جل وعلا الذي ظاهرهم الصلاح، ونقول: هذا مُرَاء، هذا فاسق، وما أشبه ذلك؛ لأننا لو أخذنا بما نظن فسدت الدنيا والآخرة؛ فكثير من الناس نظن بهم سوءً، ولكن لا يجوز أن نقول ذلك، وظاهرهم الصلاح، ولهذا قال العلماء: يحرم ظن السوء بمسلم ظاهره العدالة.

وقوله: «**فإن الله حرم على النار**»؛ أي: منع من النار، أو منع النار أن تصيبه.

وقوله: «**من قال: لا إله إلا الله**»؛ أي: بشرط الإخلاص، بدليل قوله: «**يبتغي بذلك وجه الله**»؛ أي: يطلب وجه الله تعالى.

قال الحسن رحمه الله: «ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال».

---

(١) رواه البخاري برقم (٤٢٥)، ومسلم برقم (٣٣).

وقال بكر بن عبد الله المزني رَحِمَهُ اللهُ: «ما سبقهم أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بكثرة صيام ولا صلاة ولكن بشيء وقر في قلبه».

وَقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «قَالَ الله تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ؛ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيْتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شِيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»(١).

هذا جزء مقتطع مما رواه أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وأذكره هنا بتمامه؛ وهو أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تبارك وتعالى: يا بن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا بن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا بن آدم إنك لو أتيتني... الحديث».

وقوله: «**قال الله تعالى: يا ابن آدم...**»، هذا من الأحاديث القدسية، والحديث القدسي: هو ما رواه النبي ﷺ عن ربه، وقد أدخله المحدثون في الأحاديث النبوية؛ لأنه منسوب إلى النبي ﷺ تبليغًا، وليس من القرآن بالإجماع، وإن كان كل واحد منهما قد بلغه النبي ﷺ أمته عن الله عز وجل.

و معلوم أن بين القرآن والحديث القدسي فروق كثيرة:

منها: أن الحديث القدسي لا يتعبد بتلاوته؛ بمعنى: أن الإنسان لا يتعبد لله تعالى بمجرد قراءته؛ فلا يثاب على كل حرف منه عشر حسنات، والقرآن يتعبد بتلاوته بكل حرف منه عشر حسنات.

ومنها: أن الله تعالى تحدى أن يأتي الناس بمثل القرآن أو آية منه، ولم يرد مثل ذلك في الأحاديث القدسية.

ومنها: أن القرآن محفوظ من عند الله تعالى؛ كما قال الله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، والأحاديث القدسية بخلاف ذلك؛ ففيها الصحيح والحسن، بل أضيف إليها ما كان ضعيفًا أو موضوعًا، وهذا وإن لم يكن منها لكن نسب إليها، وفيها التقديم والتأخير والزيادة والنقص.

---

(١) رواه الترمذي برقم (٣٥٤٠)، ومسلم برقم(٢٦٨٧)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه، والحديث حسنه الألباني؛ انظر «صحيح الجامع» برقم (٤٣٣٨).

ومنها: أن القرآن لا تجوز قراءته بالمعنى بإجماع المسلمين، وأما الأحاديث القدسية، فعلى الخلاف في جواز نقل الحديث النبوي بالمعنى والأكثرون على جوازه.

ومنها: أن القرآن تشرع قراءته في الصلاة ومنه ما لا تصح الصلاة بدون قراءته، بخلاف الأحاديث القدسية.

ومنها: أن القرآن لا يمسه إلا طاهر على الأصح، بخلاف الأحاديث القدسية.

ومنها: أن القرآن ثبت بالتواتر القطعي المفيد للعلم اليقيني، فلو أنكر منه حرفًا أجمع القراء عليه؛ لكان كافراً، بخلاف الأحاديث القدسية؛ فإنه لو أنكر شيئًا منها مدعيًا أنه لم يثبت؛ لم يكفر، أما لو أنكره مع علمه أن النبي ﷺ قاله؛ لكان كافراً لتكذيبه النبي ﷺ.

وقد اختلف العلماء رحمهم الله تعالى في لفظ الحديث القدسي: هل هو كلام الله تعالى، أو أن الله تعالى أوحى إلى رسوله ﷺ معناه واللفظ لفظ رسول الله ﷺ؟؛ على قولين:

القول الأول: أن الحديث القدسي من عند الله جل جلاله لفظه ومعناه.

والقول الثاني: أن الحديث القدسي معناه من عند الله عز وجل ولفظه لفظ النبي ﷺ.

وكلا القولين قوي، ويصعب الترجيح بينهما، ثم لو قيل: إن الأولى ترك الخوض في هذا؛ خوفًا من أن يكون من التنطع الهالك فاعله، والاقتصار على القول بأن الحديث القدسي هو ما رواه النبي ﷺ عن ربه وكفى؛ لكان ذلك كافيًا، ولعله أسلم، والله أعلم.

وقوله: «**بقراب الأرض**»؛ أي: ما يقاربها؛ إما ملئًا، أو ثقلاً، أو حجمًا، أو كلَّ هذا....

وقوله: «**خطايا**»؛ جمع خطيئة، وهي الذنب، والخطايا الذنوب، ولو كانت صغيرة؛ لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ [البقرة: ٨١].

وقوله: «**لا تشرك بي شيئًا**»؛ أي: لا شركًا أصغر ولا أكبر؛ وهذا قيد عظيم قد

يتهاون به الإنسان، ويقول: أنا غير مشرك، وهو لا يدري؛ فحب المال مثلاً بحيث يلهي عن طاعة الله عز وجل من الإشراك، قال النبي ﷺ: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة....»[١]؛ فسمى النبي ﷺ من كان هذا همه: عبداً له.

وقوله: «**لأتيتك بقرابها مغفرة**»؛ أي: أن حسنة التوحيد عظيمة تكفر الخطايا الكبيرة إذا لقي الله وهو لا يشرك به شيئًا، والمغفرة ستر الذنب والتجاوز عنه.

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ - في معنى الحديث -: «ويعفى لأهل التوحيد المحض الذي لم يشوبوه بالشرك ما لا يعفى لمن ليس كذلك؛ فلو لقي الموحد الذي لم يشرك بالله شيئًا ألبته ربه بقراب الأرض خطايا أتاه بقرابها مغفرة، ولا يحصل هذا لمن نقص توحيده؛ فإن التوحيد الخالص الذي لا يشوبه شرك لا يبقى معه ذنب؛ لأنه يتضمن من محبة الله وإجلاله وتعظيمه، وخوفه ورجائه وحده ما يوجب غسل الذنوب ولو كانت قراب الأرض، فالنجاسة عارضة والدافع لها قوي».

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلاً سَمِعَ رَجُلاً يَقْرَأُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، يُرَدِّدُهَا فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَذَكَرَ لَهُ ذَلِكَ، وَكَأَنَّ الرَّجُلَ يَتَقَالُّهَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ»[٢].

«**أبو سعيد الخدري**» هو: سعد بن مالك بن سنان بن ثعلبة بن الأبجر -وهو خدرة- الذي ينسب إليه، أنصاري خزرجي، بايع تحت الشجرة، وغزا مع رسول الله ﷺ غزوات عدة، وكان أبوه من شهداء أحد، وأبو سعيد من علماء الصحابة وفقهائهم، والمكثرين الحديث عن رسول الله ﷺ، توفي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سنة أربع وسبعين.

---

(١) رواه البخاري برقم (٢٨٨٧).

(٢) رواه البخاري برقم(٧٣٧٤)

وقوله: «**أن رجلاً سمع رجلاً**»، السامع هو أبو سعيد ﷺ راوي الحديث، والقاريء هو قتادة، كما بينه البخاري، وجاء مصرحاً به بلفظ: «بات قتادة بن النعمان يقرأ من الليل كله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فذكر ذلك للنبيﷺ، فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده: لتعدل نصف القرآن أو ثلثه»[1].

وقتادة بن النعمان بن زيد بن عامر الأنصاري، وهو صحابي، شهد بدراً، هو أخو أبي سعيد لأمه، وكانا متجاورين في السكن، وتوفي ﷺ سنة ثلاث وعشرين.

وقوله: «**وكأن الرجل يتقالّها**»؛ أي: يعدها قليلة بالنسبة إلى غيرها من سور القرآن؛ والمراد: أنه رآها قليلة في العمل، لا أنه عدها ناقصة.

وقوله: «**والذي نفسي بيده**»؛ أي: روحي، وحياتي وموتي، يتصرف فيّ كيف يشاء، وكان ﷺ كثيراً ما يحلف بهذه الصيغة.

وقوله: «**إنها لتعدل ثلث القرآن**»، عدل الشيء ما عادله من غير جنسه؛ ومعنى كونها تعدل ثلث القرآن: أن القرآن أنزل على ثلاثة أقسام: ثلث منه الأحكام وبيان الحلال من الحرام،وثلث منه الوعد والوعيد، والجزاء، وما وقع بمن كذب الله عز وجل ورسله عليهم الصلاة والسلام، وما سيقع بهم في الآخرة، وكذا من أطاعه، وثلث منه في أسماء الله تعالى وصفاته، و﴿**قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ**﴾ هي صفة الرحمن، خالصة لذلك، وبهذا الاعتبار عدلت ثلث القرآن؛ لما فيها من التوحيد، الذي هو ثلث معاني القرآن.

وليس معنى ذلك أنه يكتفي بها عن سائر القرآن؛ بمعنى أن من قرأها ثلاثاً كفاه عن قراءة القرآن؛ لأن النبي ﷺ قال: «إنها تعدل ثلث القرآن».

وعَدل الشيء يطلق على ما ليس من جنسه، كما قال الله تعالى: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ [المائدة: ٩٥]، فجعل الصيام عدل الكفارة، وهما جنسان.

فثواب قراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وإن كان يعدل ثواب قراءة ثلث القرآن في القدر، فلا يلزم أن يكون مثله في النوع والصفة؛ لأنها لا تغني عما اشتمل عليه القرآن من الأمر والنهي، والوعد والوعيد، وسائر ما يحتاج إليه العباد، فالناس محتاجون

(١) رواه أحمد في «المسند» (٣/ ١٥)، بإسناد ضعيف، وانظر: «الفتح الرباني» (١٨/ ٣٤٦) .

إلى جميع القرآن، ومنتفعون به لا تغني عنها سورة الإخلاص، وإن كانت تعدل ثلث القرآن.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإذا قرأ الإنسان ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حصل له من الثواب بقدر ثلث القرآن، لكن لا يلزم أن يكون الثواب من جنس الثواب الحاصل بقراءة ثلث القرآن؛ لأن الإنسان يحتاج إلى ما يحصل له من ثواب الأمر والنهي والقصص، وغير ذلك، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ لا تسد مسد ذلك، ولا تقوم مقامه، مع أن فضل القراءة والذكر والدعاء وغير ذلك، يختلف باختلاف حال الإنسان، فالقراءة بتدبر أفضل من القراءة بلا تدبر، والصلاة بخشوع وحضور قلب، أفضل من الصلاة بدون ذلك، فإذا كانت ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يعدل ثوابها ثواب ثلث القرآن، فلا بد من اعتبار التماثل في سائر الصفات، وإلا فقراءة غيرها مع التدبر والخشوع أفضل من قراءتها مع الغفلة والجهل، والناس متفاضلون في فهم هذه السورة، وما اشتملت عليه، كما هم متفاضلون في فهم سائر القرآن».

ومما يعين على توحيد الله عز وجل، فهم معاني هذه السورة العظيمة.

فقوله: ﴿قُلْ﴾ الخطاب لكل من يصح خطابه.

وقوله: ﴿هُوَ﴾ ضمير وأين مرجعه؟ قيل: إن مرجعه المسؤول عنه، كأنه يقول: الذي سألتم عنه الله تعالى.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ﴾ هو العلم على ذات الله سبحانه، المختص بالله عز وجل، لا يتسمى به غيره، وكل ما يأتي بعده من أسماء الله تعالى فهو تابع له إلا نادراً؛ ومعنى الله: الإله، وإله بمعنى مألوه؛ أي: معبود، لكن حذفت الهمزة تخفيفًا لكثرة الاستعمال.

وقوله: ﴿أَحَدٌ﴾ لا تأتي إلا في النفي غالبًا أو في الإثبات في أيام الأسبوع، يقال: الأحد، الاثنين، لكن تأتي في الإثبات موصوفًا بها الرب عز وجل، لأنه سبحانه وتعالى أحد؛ أي: متوحد فيما يختص به في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فـ﴿أَحَدٌ﴾، لا ثاني له ولا نظير له ولا ند له.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ هذه جملة مستأنفة بعد أن ذكر الأحدية ذكر الصمدية، وأتى بها بجملة معرفة في طرفيها، لإفادة الحصر، أي: الله وحده الصمد.

ومعنى ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ قيل: الصَّمَدُ هو الكامل، في علمه، وفي قدرته، وفي حكمته، وفي عزته، وفي سؤدده، وفي كل صفاته، وقيل: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ الذي لا جوف له؛ يعني لا أمعاء ولا بطن، ولهذا قيل: الملائكة صمد؛ لأنهم ليس لهم أجواف، لا يأكلون ولا يشربون، هذا المعنى روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولا ينافي المعنى الأول، لأنه يدل على غناه بنفسه عن جميع خلقه، وقيل: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ بمعنى المفعول؛ أي: المصمود إليه، أي: الذي تصمد إليه الخلائق في حوائجها؛ بمعنى: تميل إليه وتنتهي إليه وترفع إليه حوائجها، فهو بمعنى الذي يحتاج إليه كل أحد.

هذه الأقوال لا ينافي بعضها بعضاً فيما يتعلق بالله عز وجل، ولهذا نقول: إن المعاني كلها ثابتة، لعدم المنافاة فيما بينها.

إذن فـ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ هو الكامل في صفاته الذي افتقرت إليه جميع مخلوقاته، فهي صامدة إليه.

فهو مستغنٍ عن كل ما سواه، كامل في كل ما يوصف به، وأن جميع ما سواه مفتقر إليه.

ولكمال أحديته وكمال صمديته ﴿لَمْ يَلِدْ﴾؛ والوالد محتاج إلى الولد بالخدمة والنفقة ويعينه عند العجز ويبقي نسله، وقال: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾؛ لأنه لو ولد، لكان مسبوقاً بوالد مع أنه جل وعلا هو الأول الذي ليس قبله شيء، وهو الخالق وما سواه مخلوق، فكيف يولد؟، وإنكار أنه ولد أبلغ في العقول من إنكار أنه والد ولهذا لم يَدَّعِ أحد أن لله ولداً.

وقد نفى الله جل جلاله هذا وهذا وبدأ بنفي الولد، لأهمية الرد على مدعيه بل قال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، حتى ولو بالتسمي، فهو لم يلد ولم يتخذ ولداً، بنو آدم قد يتخذ الإنسان منهم ولداً وهو لم يلده بالتبني أو بالولاية أو

بغير ذلك، وإن كان التبني غير مشروع، أما الله عز وجل، فلم يلد ولم يولد، ولما كان يرد على الذهن فرض أن يكون الشيء لا والداً ولا مولوداً لكنه متولد، نفى هذا الوهم الذي قد يرد، فقال جل وعلا: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾، وإذا انتفى أن يكون له كفواً أحد، لزم أن لا يكون متولداً، ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾؛ أي: لا يكافئه أحد في جميع صفاته.

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ رَجُلاً عَلَى سَرِيَّةٍ، وَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ، فَيَخْتِمُ بِـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾، فَلَمَّا رَجَعُوا، ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «سَلُوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟»، فَسَأَلُوهُ؟ فَقَالَ: لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَخْبِرُوهُ أَنَّ الله يُحِبُّهُ»(١).

«**عائشة**» هي بنت أبي بكر الصديق، وزوجة رسول الله ﷺ وحبيبته، كانت فقيهة ربانية، وعالمة بأشعار العرب وأنسابهم وأيامهم، أكثرت عن رسول الله ﷺ الرواية، فلذلك صارت مرجعاً للصحابة في كثير من أمور الدين، فهي من حفاظ الصحابة وعلمائهم، روى عنها خلق كثير من الصحابة والتابعين، ولدت رَضِيَ اللهُ عَنْهَا سنة أربع من البعثة النبوية، وتزوجها رسول الله ﷺ بعد موت خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بثلاث سنوات، ودخل بها في المدينة، وهي ابنة تسع سنوات، وتوفي عنها ولها من العمر ثماني عشرة سنة، ومات ﷺ وهي حاضنته على صدرها.

مناقبها كثيرة، توفيت في المدينة سنة سبع -أو ست- وخمسين، وقيل: ثمان وخمسين، وصلى عليها أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ودفنت في البقيع، رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

وقولها: «**بعث رجلاً على سرية**» السرية قطعة من الجيش، يقال: خير السرايا أربع مئة رجل، وقيل: ما بين خمسة أنفس إلى ثلاث مئة، تسمى سرية؛ لأنها تسري ليلاً في خفية؛ لئلا ينذر بهم فيحذر الأعداء ويمتنعوا.

---

(١) رواه البخاري برقم (٧٣٧٥)، ومسلم برقم (٨١٣).

وقولها: «**فيختم بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾**» قال ابن دقيق العيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يدل على أنه كان يقرأ بغيرها، والظاهر أنه كان يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ مع غيرها في ركعة واحدة، ويختم بها في تلك الركعة، وإن كان اللفظ يحتمل أن يكون يختم بها في آخر ركعة يقرأ فيها السورة.

وقوله: «**لأنها صفة الرحمن**» هذه السورة وسائر سور القرآن هي صفة الرحمن؛ لأنها كلامه، وكلامه من صفاته، ولكن تميزت هذه السورة بأنها خالصة لذكر أوصاف الرحمن -تعالى- وهذا هو المتبادر إلى الفهم من مراد الصحابي -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ-؛ أي: أنها خالصة لوصف الرحمن -تعالى- دون غيره.

وقوله: «**أخبروه أن الله يحبه**» قد يكون سبب محبة الله عز وجل له: محبته لهذه السورة، أو لمحبته ذكر صفات الرب - عز وجل -، وحسن فهمه وعقيدته في ذلك، أو لمجموع الأمرين، وهو الأولى.

وفيه ثبوت محبة الله تعالى لأهل طاعته من عباده، والأدلة عليه كثيرة جداً، فلذلك صار إنكاره ضلالاً بيناً، وأما من قال: محبة الله تعالى لعباده: إرادته ثوابهم، وتنعيمهم؛ فهذا خطأ؛ فإن محبته - تبارك وتعالى - لعبده المؤمن شيء فوق إنعامه، وإحسانه، وعطائه، وإثابته، فإن هذا أثر المحبة وموجبها، أما هي فأعظم من ذلك؛ فهي صفة من صفاته، تليق بجلاله.

* * *

المسألة (الثالثة):
فِيْمَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيْدَ دَخَلَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ

قوله: «**حقق التوحيد**» المراد بتحقيق التوحيد: تخليصه من الشرك، ولا يكون إلا بأمور ثلاثة:

الأول: العلم؛ فلا يمكن أن تحقق شيئًا قبل أن تعلمه، قال الله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩].

الثاني: الاعتقاد؛ فإذا علمت ولم تعتقد واستكبرت؛ لم تحقق التوحيد، قال الله تعالى عن الكافرين: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥]؛ فما اعتقدوا انفراد الله عز وجل بالألوهية.

الثالث: الانقياد؛ فإذا علمت واعتقدت ولم تنقد؛ لم تحقق التوحيد، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۞ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٥-٣٦].

فيكون تحقيقه بمعنى تحقيق الشهادتين «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»؛ ومعنى تحقيق الشهادتين تصفية الدين من شوائب الشرك والبدع والمعاصي.

فإذا حصل هذا وحقق التوحيد؛ فإن الجنة مضمونة له بغير حساب.

وقوله: «**بغير حساب**»؛ أي: لا يحاسب لا على المعاصي ولا على غيرها.

قَالَ الله سبحانه وتَعَالَى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠].

قوله: ﴿أُمَّةً﴾؛ أي: إمامًا، وأمة تأتي في القرآن على أربعة معاني: إمام، ودهر، وجماعة، ودين.

وقوله: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾؛ هذا ثناء من الله سبحانه وتعالى على إبراهيم

عليه السلام بأنه إمام متبوع؛ لأنه أحد الرسل الكرام من أولي العزم، ثم إنه عليه السلام قدوة في أعماله وأفعاله وجهاده؛ فإنه جاهد قومه وحصل منهم عليه ما حصل، وألقي في النار فصبر.

ثم ابتلاه الله سبحانه وتعالى بالأمر بذبح ابنه، وهو وحيده، وقد بلغ معه السعي - أي: شب وترعرع -؛ فليس كبيراً قد طابت النفس منه، ولا صغيراً لم تتعلق به النفس كثيراً، فصار على منتهى تعلق النفس به.

ثم وفق إلى ابن بار مطيع لله عز وجل، قال الله تعالى عنه: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٢]، لم يتمرد ويهرب، بل أراد من والده أن يوافق أمر ربه، وهذا من بره بأبيه وطاعته لمولاه - سبحانه وتعالى -، وانظر إلى هذه القوة العظيمة مع الاعتماد على الله عز وجل في قوله: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾.

وامتثلا جميعاً وأسلما، وانقادا لله عز وجل ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾؛ أي: على الجبين؛ أي جبهته؛ لأجل أن يذبحه، وهو لا يرى وجهه، فجاء الفرج من الله تعالى: ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۞ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٤-١٠٥].

وقوله: ﴿قَانِتًا ﴾؛ القنوت: دوام الطاعة، والاستمرار فيها على كل حال؛ فهو مطيع لله جل وعلا، ثابت على طاعته، مديم لها في كل حال.

وقوله: ﴿حَنِيفًا ﴾؛ أي: مائلاً عن الشرك، مجانباً لكل ما يخالف الطاعة، فوصف بالإثبات والنفي.

وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾؛ تأكيد، أي: لم يكن مشركاً طول حياته؛ فقد كان عليه السلام معصوماً عن الشرك، مع أن قومه كانوا مشركين، فوصفه الله تعالى بامتناعه عن الشرك استمراراً في قوله: ﴿حَنِيفًا ﴾، وابتداءً في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾، والدليل على ذلك: أن الله جل جلاله جعله إماماً، ولا يجعل الله سبحانه للناس إماماً من لم يحقق التوحيد أبداً.

وقالَ الله تَعَالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١].

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾؛ أي: وجلون، مشفقة قلوبهم، كل ذلك من خشية ربهم، خوفاً أن يضع عليهم عدله، فلا يبقى لهم حسنة، وسوء ظن بأنفسهم، أن لا يكونوا قد قاموا بحق الله تعالى، وخوفاً على إيمانهم من الزوال، ومعرفة منهم بربهم، وما يستحقه من الإجلال والإكرام، وخوفهم وإشفاقهم يوجب لهم الكف عما يوجب الأمر المخوف من الذنوب، والتقصير في الواجبات.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: يؤمنون في الآيات القرآنية ويتدبرونها، وكذلك الآيات الكونية، فيتفكرون فيها فيحدث لهم بذلك من تفاصيل الإيمان، ما لا يعبر عنه اللسان.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾؛ يراد به الشرك بالمعنى الأعم؛ إذ تحقيق التوحيد لا يكون إلا باجتناب الشرك بالمعنى الأعم، ولكن ليس معنى هذا ألا تقع منهم المعاصي؛ لأن كل ابن آدم خطاء، وليس بمعصوم، ولكن إذا عصوا؛ فإنهم يتوبون ولا يستمرون عليها؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

قال العلماء: «قدَّم هنا قوله: ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾؛ لأن الربوبية تستلزم العبودية، فصار عدم الإشراك في الربوبية معناه عدم الإشراك في العبودية، وهذا وصف الذين حققوا التوحيد؛ لأنه يلزم من عدم الإشراك ألا يشرك هواه؛ لأن المرء إذا أشرك هواه أتى بالبدع، أو أتى بالمعصية، فصار نفي الشرك نفياً للشرك بأنواعه، ونفياً للبدعة، ونفياً للمعصية، وهذا هو تحقيق التوحيد لله جل وعلا».

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾؛ أي: يعطون من أنفسهم مما أمروا به، ما آتوا من كل ما يقدرون عليه، من صلاة، وزكاة، وحج، وصدقة، وغير ذلك، ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾؛ أي: ومع هذا قلوبهم خائفة ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾؛ أي: خائفة عند عرض أعمالها عليه، والوقوف بين يديه، أن تكون أعمالهم غير منجية من عذاب الله عز وجل، لعلمهم بربهم، وما يستحقه من أصناف العبادات.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾؛ أي: في ميدان التسارع في أفعال الخير، همهم ما يقربهم إلى الله تعالى، وإرادتهم مصروفة فيما ينجي من عذابه، فكل خير سمعوا به، أو سنحت لهم الفرصة إليه، انتهزوه وبادروه، قد نظروا إلى أولياء الله تعالى وأصفيائه، يسارعون في كل خير، وينافسون في التقرب عند ربهم، فنافسوهم.

ولما كان السابق لغيره المسارع قد يسبق لجده وتشميره، وقد لا يسبق لتقصيره، أخبر الله تعالى أن هؤلاء من القسم السابقين؛ فقال: ﴿وَهُمْ لَهَا﴾ أي: للخيرات ﴿سَٰبِقُونَ﴾ قد بلغوا ذروتها.

وَعَنْ حُصَيْنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ سَعِيْدِ بْنِ جُبَيْرٍ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ رَأَى الكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَّ البَارِحَةَ؟، فَقُلْتُ: أَنَا، ثُمَّ قُلْتُ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ، وَلَكِنِّي لُدِغْتُ، قَالَ: فَمَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: ارْتَقَيْتُ، قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟ قُلْتُ: حَدِيثٌ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ، قَالَ: وَمَا حَدَّثَكُمْ؟، قُلْتُ: حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ الحُصَيْبِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ»، قَالَ: قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ.

وَلَكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيْمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيْلَ لِي: هَذَا مُوْسَى وَقَوْمُهُ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيْمٌ، فَقِيْلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُمْ سَبْعُوْنَ أَلْفَاً يَدْخُلُوْنَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ».

ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُوْلَئِكَ؛ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِيْنَ صَحِبُوا رَسُوْلَ الله ﷺ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِيْنَ وَلِدُوا فِي الإِسْلَامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بِالله شَيْئًا، وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُوْلُ الله ﷺ فَأَخْبَرُوْهُ، فَقَالَ ﷺ: «هُمُ الَّذِيْنَ لَا يَسْتَرْقُوْنَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُوْنَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُوْنَ».

فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ: ادْعُ الله أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ ﷺ: «أَنْتَ مِنْهُمْ»، ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: ادْعُ الله أَنْ يِجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ ﷺ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ»(١).

«**حصين بن عبد الرحمن**»، السُّلَمي، أبو الهذيل الكوفي، من التابعين، ثقة، مات سنة ست وثلاثين ومئة، وله ثلاث وتسعون.

و«**سعيد بن جبير**»، الأسدي، أبو عبد الله الكوفي، من كبار التابعين، ثقة ثبت فقيه، قُتِل بين يدي الحجاج، في شعبان سنة خمس وتسعين، وله تسع وأربعون سنة.

وقوله: «**أما إني لم أكن في صلاة**»، قال هذا - رَحِمَهُ اللهُ - لئلا يظن أنه قائم يصلى فيحمد بما لم يفعل، وهذا خلاف ما عليه بعضهم، يفرح أن الناس يتوهمون أنه يقوم يصلي، وهذا من نقص التوحيد.

وقول حصين رَحِمَهُ اللهُ ليس من باب المراءاة، بل هو من باب الحسنات، وليس كمن يترك الطاعات خوفًا من الرياء؛ لأن الشيطان قد يزيِّن للإنسان ترك الطاعة خشية الرياء، ولكن عليه أن يفعل الطاعة، ولا يكن في قلبه أنه يرائي الناس.

وقوله: «**لدغت**»؛ أي: لدغته عقرب أو غيرها، والظاهر أنها شديدة؛ لأنه لم ينم منها.

و قوله: «**فما صنعت**» القائل هو سعيد.

وقوله: «**ارتقيت**»؛ أي: استرقيت؛ لأن افتعل مثل استفعل، وفي رواية مسلم: «استرقيت»؛ أي: طلبت الرقية.

وقوله: «**فما حملك على ذلك**»؛ أي: قال سعيد: ما السبب أنك استرقيت.

---

(١) رواه البخاري برقم(٦٥٤١)، ومسلم برقم (٢٢٠).

وهذا يدل على أن السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يتحاورون حتى يصلوا إلى الحقيقة، فسعيد بن جبير لم يقصد الانتقاد على حصين حين قال: «**فما حملك على ذلك**»، بل قصد أن يستفهم منه ويعرف مستنده.

وقوله: «**الشعبي**» هو عامر بن شراحيل، أبو عمرو الهمداني، وهو من ثقات التابعين وفقهائهم، مات سنة أربع ومئة، وله إثنان وثمانون سنة.

و«**عن بريدة بن الحصيب**» هو ابن الحارث أبو سهل الأسلمي، صحابي شهير، أسلم قبل بدر، مات سنة ثلاث وستين.

وقوله: «**لا رقية**»؛ أي: لا قراءة أو لا استرقاء على مريض أو مصاب؛ والرقية: هي التعويذ بقراءة القرآن والأدعية النبوية والأذكار، لحفظ الصحة، ودفع المرض أو رفعه.

وهذه هي الرقية الشرعية، وثمة رقية محرَّمة؛ وهي ما كان فيها استعمال نجاسات، أو تمتمات، أو ألفاظ شركية، أو استغاثة بغير الله تعالى، وما كان فيها كلام ليس له معنى؛ وهي التي عناها النبي ﷺ في قوله: «إن الرقى والتمائم والتولة من الشرك»[1].

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «أجمع أهل العلم على جواز الرقى عند اجتماع ثلاثة شروط: أن تكون بكلام الله أو بأسمائه أو بصفاته، وأن تكون باللسان العربي أو بما يعرف معناه من غيره، وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بتقدير الله تعالى».

وقوله: «**إلا من عين**»، هي نظرة من حاسد، نفسه خبيثة، تتكيف بكيفية خاصة، فينبعث منها ما يؤثر على المصاب، ويسميها العامة الآن: «النفس».

وقوله: «**حُمَة**»، هي كل ذات سم؛ والمعنى: لدغته إحدى ذوات السموم، والعقرب من ذوات السموم.

وهذا يدل على أن الرقية من العين أو الحمة مفيدة، وهذا أمر واقع؛ فإن الرُّقى تنفع بإذن الله تعالى من العين ومن الحمة أيضًا، وكثير من الناس يقرؤون على الملدوغ فيبرأ حالاً، ويدل لهذا قصة الرجل الذي بعثه النبي ﷺ في سرية، فاستضافوا قومًا، فلم يضيفوهم، فلدغ سيدهم لدغة عقرب، فقالوا: من يرقي؟ فقالوا: لعل هؤلاء الركب عندهم راقٍ، فجاؤوا إلى السرية، قالوا: هل فيكم من راقٍ؟ قالوا: نعم،

---

(١) رواه أبو داود برقم (٣٨٨٣)، وصححه الألباني؛ انظر: «السلسلة الصحيحة» برقم (٢٩٧٢).

ولكن لا نرقي لكم إلا بشيء من الغنم، فقالوا: نعطيكم، فاقتطعوا لهم من الغنم، ثم ذهب أحدهم يقرأ عليه الفاتحة، قرأها مراراً، فقام كأنما نشط من عقال، فانتفع اللديغ بقراءتها، ولهذا قال ﷺ: «وما يدريك أنها رقية؟» -يعني: الفاتحة-(١)، وكذا القراءة من العين مفيدة.

ويستعمل للعين طريقة أخرى غير الرقية، وهو الاستغسال؛ وهي أن يؤتى بالعائن، ويطلب منه أن يتوضأ، ثم يؤخذ ما تناثر من الماء من أعضائه، ويصب على المصاب، ويشرب منه، ويبرأ بإذن الله عز وجل.

وأما العائن؛ فينبغي إذا رأى ما يعجبه أن يبرّك عليه؛ لقول النبي ﷺ لعامر بن ربيعة لما عان — أي: أصابه بعينه - سهل بن حنيف: «هلّا إذا رأيت ما يعجبك، برّكت عليه»(٢)؛ أي: قلت: بارك الله عليه، أو اللهم بارك فيه.

وقوله: «**ولكن حدثنا**»، القائل سعيد بن جبير.

و«**ابن عباس**» هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي، أبو العباس، ابن عمّ رسول الله محمد ﷺ، صحابي مشهور، وهو ترجمان القرآن، مات سنة تسع وستين، وقيل: سنة سبعين، وله إحدى وسبعون سنة، رضي الله عنه.

وقوله: «**عرضت علي الأمم**»، العارض لها الله سبحانه وتعالى، و«**الأمم**»: جمع أمة وهي أمم الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وقوله: «**الرهط**»، من الثلاثة إلى التسعة.

وقوله: «**والنبي ومعه الرجل والرجلان**»، الظاهر أن الواو بمعنى أو؛ أي: ومعه الرجل أو الرجلان؛ لأنه لو كان معه الرجل والرجلان صار يغني أن يقول: ومعه ثلاثة، لكن المعنى: والنبي ومعه الرجل، والنبي الثاني ومعه الرجلان.

وقوله: «**والنبي وليس معه أحد**»؛ أي: يبعث ولا يكون معه أحد، لكن يبعثه الله تعالى لإقامة الحجة.

وقوله: «**إذ رفع لي**»، هذا على تقدير محذوف؛ أي: بينما أنا كذلك؛ إذ رفع لي.

وقوله: «**سواد عظيم**»؛ المراد بالسواد هنا الظاهر أنه الأشخاص، ولهذا يقال: ما رأيت سواده؛ أي: شخصه؛ أي: أشخاصاً عظيمة كانوا من كثرتهم سواداً.

---

(١) رواه البخاري برقم (٢٢٧٦)، ومسلم برقم (٢٢٠١).

(٢) رواه أحمد (٣/ ٤٨٦)، وصححه الألباني؛ انظر «السلسلة الصحيحة» برقم (٢٥٧٢).

وقوله: «**فظننت أنهم أمتي**»؛ لأن الأنبياء عرضوا عليه بأممهم؛ فظن هذا السواد أمته ﷺ.

وقوله: «**فقيل لي: هذا موسى وقومه**»، هذا يدل على كثرة أتباع موسى عليه السلام وقومه الذين أرسل إليهم.

وقوله: «**فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك**»، هذا أعظم من السواد الأول؛ لأن أمة النبي ﷺ أكثر بكثير من أمة موسى عليه السلام.

وقوله: «**بغير حساب ولا عذاب**»، أي: لا يعذبون ولا يحاسبون كرامةً لهم، وظاهره أنه لا في قبورهم ولا بعد قيام الساعة.

وقوله: «**فخاض الناس في أولئك**»، هذا الخوض للوصول إلى الحقيقة نظرياً وعملياً حتى يكونوا منهم.

وقوله: «**الذين صحبوا رسول الله**» هذا وما سيأتي هو من ظن الصحابة؛ فيحتمل أن يكون صوابا أو خطأ.

ولعل مرادهم الصحبة المطلقة، ويؤيده ظاهر اللفظ، أو الذين صحبوه في هجرته، أو غير ذلك مما يقيد لفظ الصحبة بوصف ما.

وقوله: «**الذين ولدوا في الإسلام**»؛ أي: مَن ولد بعد البعثة وأسلم، وهؤلاء كثيرون، ولو قلنا: ولدوا في الإسلام من الصحابة ما بلغوا سبعين ألفاً.

وقوله: «**هم الذين لا يسترقون**» هذه رواية الصحيحين، وفى رواية لمسلم: «ولا يرقون» قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: هذه الزيادة وَهْمٌ من الراوي، لم يقل النبي ﷺ: «ولا يرقون»، وقد قال النبي ﷺ حين سئل عن الرقى: «من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه»[1]، وقال ﷺ: «لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك»[2]، وأيضاً فقد «رقى جبريل النبي ﷺ »، و«رقى النبي ﷺ أصحابه»، قال: والفرق بين الراقي والمسترقي: أن المسترقي سائل مستعطٍ ملتفت إلى غير الله تعالى بقلب، والراقي محسن متفضل على الآخرين.

و استرقى هنا؛ أي: طلب الرقية؛ أي:لا يطلبون من أحد أن يقرأ عليهم، لقوة اعتمادهم على الله عز وجل، لعزة نفوسهم عن التذلل لغير الله تعالى، ولما في ذلك

---

(١) رواه مسلم برقم (٢١٩٩).

(٢) رواه مسلم برقم (٢٢٠٠).

من التعلق بغير الله سبحانه.

وقوله: «**ولا يكتوون**»، أي: لا يطلبون من أحد أن يكويهم.

ومعنى اكتوى: طلب من يكويه، وهذا مثل قوله: «**ولا يسترقون**».

والظاهر أن قوله: «**لا يكتوون**» أعم من أن يسألوا ذلك أو يفعل ذلك باختيارهم.

أما الكي في نفســه فجائز، كما جاء عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ بَعَثَ إلى أُبي بن كعب طبيباً فقطع له عرقاً وكواه[1].

وعن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه كُوِيَ من ذات الجنب، والنبي ﷺ حي[2]، وعنه أيضــاً رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ كوى أسعد بن زرارة من الشوكة[3].

وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أن النبي ﷺ قال: «الشفاء في ثلاث: شربة عسل، وشرطة مِحْجَم، وكية نار، وأنا أنهى أمتي عن الكي»[4]، وفي لفظ: «وما أحب أن أكتوي»[5].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «قد تضــمنت أحاديث الكي أربعة أنواع؛ (أحدها) فعله، (والثاني) عدم محبته، (والثالث) الثناء على من تركه، (والرابع) النهي عنه، ولا تعارض بينها بحمد الله؛ فإن فعله يدل على جوازه، وعدم محبته له لا يدل على المنع منه، وأما الثناء على تاركه فيدل على أن تركه أولى وأفضــل، وأما النهي عنه فعلى سبيل الاختيار والكراهة».

وقوله: «**ولا يتطيرون**»، مأخوذ من الطير، وأصله: التشاؤم بالطير، ولكنه أعم من ذلك؛ فهو التشــاؤم بمرئي، أو مســموع، أو زمان، أو مكان، وكانت العرب معروفة بالتطير، حتى لو أراد الإنســان منهم خيراً ثم رأى الطير قادمة من اليمين أو الشــمال حسب ما كان معروفاً عندهم، تجده يتأخر عن هذا الذي أراده، ومنهم من إذا سمع صوتاً أو رأى شخصــاً تشاءم، ومنهم من يتشاءم من شهر شوال أو بشهر صفر، ومنهم من يتشاءم بيوم الأربعاء، وهذا كله مما أبطله الشرع؛ لضرره على الإنسان عقلاً وتفكيراً وسلوكاً، وكون الإنسان لا يبالي بهذه الأمور، هذا هو التوكل على الله تعالى، ولهذا ختم بقوله: «**وعلى ربهم يتوكلون**»؛ فانتفاء هذه الأمور عنهم يدل على

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٢٠٧).

(٢) رواه البخاري برقم (٥٧١٩).

(٣) رواه: الترمذي برقم (٢٠٥٥)؛ وقوله: «الشوكَة» هي حُمْرة تعلو الوجْه والجَسد.

(٤) رواه البخاري برقم (٥٦٨٠).

(٥) رواه البخاري برقم (٥٦٨٣)، ومسلم برقم (٢٢٠٥).

قوة توكلهم.

وقوله: «**وعلى ربهم يتوكلون**» ذكر الأصل الجامع الذي تفرعت عنه هذه الأفعال والخصال، وهو التوكل على الله تعالى، وصدق الالتجاء إليه، والاعتماد بالقلب عليه، الذي هو نهاية تحقيق التوحيد الذي يثمر كل مقام شريف من المحبة والرجاء والخوف، والرضا به ربـاً وإلهـاً، والرضا بقضائه.

الحديث لا يدل على أنهم لا يباشرون الأسباب أصلاً، فإن مباشرة الأسباب في الجملة أمر فطري ضروري، لا انفكاك لأحد عنه، بل نفس التوكل: مباشرة لأعظم الأسباب، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]؛ أي: كافيه؛ وإنما المراد أنهم يتركون الأمور المكروهة مع حاجتهم إليها، توكلاً على الله تعالى، كالاكتواء والاسترقاء، فتركهم له لكونه سبباً مكروهـاً، لا سيما والمريض يتشبث - فيما يظنه سبباً لشفائه - بخيط العنكبوت.

وأما مباشرة الأسباب والتداوي على وجه لا كراهة فيه، فغير قادح في التوكل، فلا يكون تركه مشروعـاً، لما جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله»[(١)].

وعن أسامة بن شريك رضي الله عنه قال: كنت عند النبي ﷺ وجاءت الأعراب، فقالوا: يا رسول الله أنتداوى؟ قال: «نعم، يا عباد الله تداووا، فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له شفاء، غير داء واحد»، قالوا: وما هو؟ قال: «الهَرَم»[(٢)].

وقال ابن القيم رحمه الله: «وقد تضمنت هذه الأحاديث إثبات الأسباب والمسببات، وإبطال قول من أنكرها، والأمر بالتداوي، وأنه لا ينافي التوكل، كما لا ينافيه دفع ألم الجوع والعطش، والحر والبرد؛ بأضدادها بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نَصَبها الله تعالى مقتضية لمسبباتها قدراً وشرعـاً، وأن تعطيلها يقدح في نفس التوكل، كما يقدح في الأمر والحكمة، ويضعفه من حيث يظن معطلها أن تركها أقوى في التوكل، فإن تركها عجز ينافي التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب على الله

---

(١) رواه البخاري برقم (٥٦٧٨)، بدون عبارة: «علمه من علمه وجهله من جهله»، وهو بتمامه رواه أحمد (١/ ٣٧٧).

(٢) رواه أحمد (٤/ ٢٧٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» برقم (٢٩١)، وصححه الألباني؛ انظر: «صحيح الأدب المفرد» برقم (٢٢٣).

تعالى في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه، ودفع ما يضره في دينه ودنياه، ولا بد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب، وإلا كان معطلاً للحكمة والشرع، فلا يجعل العبد عجزه توكلاً ولا توكله عجزاً».

وقد اختلف العلماء في التداوي هل هو مباح وتركه أفضل، أو مستحب، أو واجب؟.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ليس بواجب عند جماهير الأئمة، وإنما أوجبه طائفة قليلة من أصحاب الشافعي وأحمد».

وهل هذه الأشياء تدل على أن من لم يتصف بها فهو مذموم، أو فاته الكمال؟.

الجواب: أن الكمال فاته إلا بالنسبة للتطير؛ فإنه لا يجوز؛ لأنه ضرر، وليس له حقيقة أصلاً.

وإذا طلب منك إنسان أن يرقيك؛ فهل يفوتك كمال إذا لم تمنعه؟.

الجواب: لا يفوتك؛ لأن النبي ﷺ لم يمنع عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن ترقيه، وهو أكمل الخلق توكلاً على الله عز وجل وثقةً به، ولأن هذا الحديث: «**لا يسترقون...**»؛ إنما كان في طلب هذه الأشياء، ولا يخفى الفرق بين أن تحصل هذه الأشياء بطلب وبين أن تحصل بغير طلب.

ولو قال قائل بالاقتصار على ما في هذا الحديث؛ وهو أنهم: «**لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون**»، وأن ما عدا ذلك لا يمنع من دخول الجنة بلا حساب ولا عذاب؛ للنصوص الواردة بالأمر بالتداوي والثناء على بعض الأدوية؛ كالعسل والحبة السوداء؛ لكان له وجه.

و«**عكاشة بن محصن**» هو ابن حرثان الأسدي، أبو محصن كان من السابقين إلى الإسلام، قتل يوم اليمامة في عهد أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وقوله: «**فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم**» فيه: جواز طلب الدعاء من الفاضل.

وقوله: «**فقال: أنت منهم**»، قول الرسول ﷺ هذا ...، الظاهر أنه وحي، وفيه بشارة لهذا الصحابي الجليل بأنه من الذين يدخلون الجنة من غير حساب ولا عذاب.

وقوله: «**ثم قام رجل آخر، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، قال: سبقك بها عكاشة**»، لم يرد النبي ﷺ أن يقول له: لا، ولكن قال: «**سبقك بها**»؛ أي: بهذه المنقبة

والفضيلة، أو بهذه المسألة عكاشة بن محصن.

وقد اختلف العلماء لماذا قال الرسول ﷺ هذا الكلام؟.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: «لم يكن عند الثاني من الأحوال ما كان عند عكاشة، فلذلك لم يجبه، إذ لو أجابه لجاز أن يطلب ذلك كل من كان حاضراً فيتسلسل الأمر، فسد الباب بقوله ذلك».

وفيه دليل على أن أهل تحقيق التوحيد قليل، وليسوا بكثير؛ ولهذا جاء عددهم في هذا الحديث بأنهم سبعون ألفا، وقد جاء في بعض الروايات: بأن الله جل وعلا أعطى النبي ﷺ مع كل واحد من السبعين ألفًا أعطاه سبعين ألفًا[1]، فيكون العدد قرابة خمسة ملايين من هذه الأمة، ولا يكون للعدد في هذا الحديث مفهوم، أو كان ذلك قبل سؤال النبي ﷺ أن يُزاد في عدد أولئك الذين حققوا التوحيد.

فإن قيل: ما معنى أن يُزاد في عددهم؟.

فالجواب: أن المعنى أن الله جل وعلا يمن على أناس من هذه الأمة -غير السبعين ألفا- ممن سيأتون بعد، فيوفقهم لعمل تحقيق التوحيد، فالله جل وعلا هو الذي يوفق، وهو الذي يهدي، ثم هو الذي يجازي، فما أعظمه من محسن برٍّ كريم رحيم سبحانه وتعالى.

* * *

---

(١) رواه أحمد (١/ ٦)، وصححه الألباني؛ انظر «السلسلة الصحيحة» برقم (١٤٨٤).

المسألة (الرابعة):
فِي الخَوْفِ مِنَ الشِّرْكِ

لا بد أن نعلم أن تحقيق التوحيد عند أهله لا بد أن يقترن معه الخوف من الشرك، فكل محقق للتوحيد، يخاف من الشرك، وإذا خاف من الشرك، فإن «**الخوف**» الذي هو فزع القلب وهلعه، يجعل العبد حريصاً كل الحرص على البعد عن الشرك والهروب منه.

و«**الخوف من الشرك**» يثمر ثمرات؛ منها: أن يكون متعلماً للشرك بأنواعه حتى لا يقع فيه، ومنها: أن يكون متعلماً للتوحيد بأنواعه حتى يقوم في قلبه الخوف من الشرك، ويعظم ويستمر على ذلك.

و«**الشرك**»: هو إشراك غير الله عز وجل معه في نوع من أنواع العبادة، وقد يكون أكبر، وقد يكون أصغر، وقد يكون خفياً.

قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨ و١١٦].

قوله: ﴿**لَا يَغْفِرُ**﴾؛ المغفرة: هي الستر لما يخاف وقوع أثره، ويقال في اللغة: غفر إذا ستر، ومنه سمي ما يوضع على الرأس مغفرا؛ لأنه يستر الرأس، ويقيه الأثر المكروه من وقع السيف ونحوه، فهي راجعة إلى ستر الأثر الذي يخاف منه، والشرك والمعصية لها أثرهما إما في الدنيا، وإما في الآخرة، أو فيهما جميعاً، وأعظم ما يُمَنّ به على العبد أن يغفر ذنبه، وذلك بأن يستر عليه، ويمحى عنه أثره، فلا يؤاخذ به في الدنيا، ولا يعاقب عليه في الآخرة، فلولا المغفرة لهلك الناس.

ومعنى قوله -جل وعلا- في هذه الآية: ﴿**لَا يَغْفِرُ**﴾؛ أي: أنه سبحانه لا يستر ذنوب وإشراك المشرك ولا يمحوها، بل يعاقبه عليها ويدخله النار خالداً فيها أبداً، فقوله: ﴿**لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ**﴾، إذن هذا وعيد بأنه - تعالى- لم يجعل مغفرته لمن

أشرك به.

وقوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾، المراد بالـ﴿دُونَ﴾ هنا: ما هو أقل من الشرك.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «أخبر تعالى أنه لا يغفر أن يشرك به؛ أي: لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك به ويغفر ما دون ذلك؛ أي: من الذنوب لمن يشاء من عباده».

فتبين بهذا أن الشرك أعظم الذنوب؛ لأن الله تعالى أخبر أنه لا يغفره؛ أي: إلا بالتوبة منه، وما عداه فهو داخل تحت مشيئة الله عز وجل إن شاء غفره بلا توبة وإن شاء عذب به، وهذا يوجب للعبد شدة الخوف من هذا الذنب الذي هذا شأنه عند الله جل جلاله، وإنما كان كذلك لأنه أقبح القبح وأظلم الظلم؛ إذ مضمونه تنقيص رب العالمين، وصرف خالص حقه لغيره، وعدل غيره به، كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، ولأنه مناقض للمقصود بالخلق، والأمر مناف له من كل وجه، وذلك غاية المعاندة لرب العالمين، والاستكبار عن طاعته، والذل له، والانقياد لأوامره، الذي لا صلاح للعالم إلا بذلك، فمتى خلا منه خرب وقامت القيامة، كما قال النبي ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله»[(١)]، ولأن الشرك تشبيه للمخلوق بالخالق تعالى وتقدس في خصائص الإلهية؛ من ملك الضر والنفع والعطاء والمنع، الذي يوجب تعلق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل وأنواع العبادة كلها بالله وحده، فمن علق ذلك لمخلوق فقد شبهه بالخالق، وجعل مَن لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً فضلاً عن غيره، شبيهاً بمن له الخلق كله، وله الملك كله، وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، فَأَزِمّة الأمور كلها بيديه سبحانه، ومرجعها إليه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، الذي إذا فتح للناس رحمة فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم، فأقبح التشبيه تشبيه العاجز الفقير بالذات، بالقادر الغني بالذات، ومن خصائص الإلهية الكمال المطلق من جميع الوجوه، الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده، والتعظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوكل والتوبة

---

(١) رواه مسلم برقم (١٤٨).

والاستعانة وغاية الحب مع غاية الذل، كل ذلك يجب عقلاً وشرعاً وفطرةً أن يكون لله وحده، ويمتنع عقلاً وشرعاً وفطرةً أن يكون لغيره، فمن فعل شيئاً من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا مثل له ولا ند له، وذلك أقبح التشبيه وأبطله، فلهذه الأمور وغيرها أخبر - سبحانه - أنه لا يغفره، مع أنه كتب على نفسه الرحمة.

وهل المراد بالشرك هنا الأكبر، أم مطلق الشرك؟.

قال بعض العلماء: «إنه مطلق يشمل كل شرك ولو كان أصغر، كالحلف بغير الله، فإن الله لا يغفره».

وقال آخرون من أهل العلم: «إن قوله هنا: ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ دالة على العموم، لكنه عموم مراد به خصوص الشرك الأكبر، فالمقصود بالشرك في قوله: ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ هو الشرك الأكبر فقط دون غيره، وأما ما دون الشرك الأكبر، فإنه يكون داخلا تحت المشيئة».

وقال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أما دخول المشرك النار فهو على عمومه فيدخلها ويخلد فيها، ولا فرق بين الكتابي اليهودي والنصراني، وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة، ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر عناداً وغيره، ولا بين من خالف ملة الإسلام وبين من انتسب إليها ثم حكم بكفره بجحده وغير ذلك.

وأما دخول من مات غير مشرك الجنة فهو مقطوع به، لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مصراً عليها ومات على ذلك فهو تحت المشيئة فإن عفي عنه دخل الجنة وإلا عذب في النار ثم أخرج منها وأدخل الجنة».

وَقَالَ الخَلِيْلُ إِبرَاهِيمُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

قوله: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ فـ﴿وَٱجْنُبْنِى﴾ أي: اجعلني في جانب والأصنام في جانب، وهذا أبلغ مما لو قال: امنعني وبني من عبادة الأصنام؛ لأنه إذا كان في جانب عنها كان أبعد.

و﴿وَبَنِىَّ﴾ بنيه هم: بنوه لصلبه؛ أي: ذريته وما توالد من صلبه.

وقوله: ﴿ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ جمع صنم؛ والصنم هو: ما كان على صورة مما يعبد من دون الله تعالى، يصور صورة على شكل وجه رجل، أو على شكل جسم حيوان، أو رأس حيوان، أو على شكل صورة كوكب، أو نجم، أو على شكل الشمس والقمر ونحو ذلك، فإذا صوَّر صورة، فتلك الصورة يقال لها: صنم.

والوثن: هو ما عبد من دون الله تعالى مما هو ليس على شكل صورة، فالقبر وثن، وليس بصنم، والمشهد؛ مشاهد القبور عند عبادها هذه أوثان، وليست بأصنام، ولهذا قال النبي ﷺ: «اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد»[1]، فدعا الله جل وعلا أن لا يجعل قبره وثناً، فصار الوثن ما يعبد من دون الله عز وجل مما ليس على هيئة صورة.

وقد يطلق على الصنم أنه وثن، كما قال الله جل وعلا في قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًا﴾ [العنكبوت: ١٧]، ولكن هذا يطلق على قلة؛ وقال بعض أهل العلم: هم عبدوا الأصنام، وعبدوا الأوثان جميعاً، فصار في بعض الآيات ذكر الأصنام لعبادتهم الأصنام، وفي بعض ذكر الأوثان لعبادتهم الأوثان، والأول أظهر في أنه قد يطلق على الصنم أنه وثن.

وإبراهيم عليه السلام حقق التوحيد، وقد وصفه الله تعالى بأنه كان أمة قانتاً لله حنيفاً، وبأنه لم يك من المشركين؛ فهل يطمئن من كان على هذه الحال إلى أنه لن يعبد غير الله تعالى، ولن يعبد الأصنام، أو يظل مقيماً على خوفه؟!، وهل حال الكمَّل الذين حققوا التوحيد أنهم يطمئنون أم يخافون؟؟!، هذا إبراهيم عليه السلام كما في هذه الآية خاف الشرك، وخاف عبادة الأصنام، فدعا الله تعالى بقوله: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ فكيف ممن دون إبراهيم عليه السلام ممن ليس من السبعين ألفاً فهم عامة هذه الأمة؟.

قال إبراهيم التيمي رحمه الله لما تلا هذه الآية؛ قال: «ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم عليه السلام».

إذا كان إبراهيم عليه السلام هو الذي حقق التوحيد، وهو الذي وُصِفَ بما وُصِفَ به، وهو الذي كسَّر الأصنام بيده، يخاف من الفتنة بها فمن يأمن البلاء بعده؟.

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٢٤٦) وصححه الألباني؛ انظر «أحكام الجنائز» (ص٢٧٦).

وَعَنْ مَحْمُوْدِ بْنِ لَبِيْدٍ ﷺ،قَالَ: قَالَ رَسُــوْلُ الله ﷺ: «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ»، فَسُئِلَ عَنْهُ؟ فَقَالَ: «الرِّيَاءُ» (١).

«**محمود بن لَبِيد**» بن عقبة الأنصـاري الأشـعلي، أبو نعيم المدني، ولد في حياة النبي ﷺ، واختلف في صحبته، وعلى الراجح أنه صحابي قليل الحديث، وتوفي في المدينة سنة ست وتسعين وله تسع وتسعون سنة، ﷺ.

والحديث له تتمة؛ وهي قوله ﷺ: «يقول الله يوم القيامة - إذا جُزِيَ الناس بأعمالهم -: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء».

والخطاب هنا للمسلمين؛ إذ المسلم هو الذي يخاف عليه الشرك الأصغر، وليس لجميع الناس.

وقوله: «**الرياء**»؛ معناه: أن يَعبد الله تعالى ليراه الناس فيمدحوه على كونه عابداً، وليس يريد أن تكون العبادة للناس؛ لأنه لو أراد ذلك، لكان شركـًا أكبر.

والظاهر أن هذا على سبيل التمثيل، وإلا فقد يكون رياء، وقد يكون سماعـًا؛ أي: يقصد بعبادته أن يسمعه الناس فيثنوا عليه، فهذا داخل في الرياء، فالتعبير بالرياء من باب التعبير بالأغلب.

أما إن أراد بعبادته أن يقتدي الناس به فيها، فليس هذا رياء، بل هذا من الدعوة إلى الله عز وجل، والرسول ﷺ يقول: «فعلت هذا لتأتموا بي وتعلموا صلاتي»(٢).

والرياء قسمان: رياء المسلم، ورياء المنافق؛ رياء المنافق: رياء في أصل الدين؛ يعني: راءى بإظهار الإسلام، وأبطن الكفر، قال الله تعالى: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [النساء: ١٤٢]؛ ورياء المسلم: أن يحسن صلاته من أجل نظر الناس، أو أن يحسن تلاوته لأجل أن يمدح ويثنى عليه.

وقوله: «**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**»، هو أخوف الذنوب التي خافها

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٤٢٨ و ٤٢٩)، وصححه الألباني؛ انظر «سلسلة الأحاديث الصحيحة» برقم (٩٥١).
(٢) رواه البخاري برقم (٩١٧)، ومسلم برقم (٥٤٤).

النبي ﷺ على أهل التوحيد؛ لأنهم ما داموا أهل توحيد، فإنهم ليسوا من أهل الشرك الأكبر، فبقي أن يخاف عليهم الشرك الأصغر؛ والشرك الأصغر تارة يكون في النيات، وتارة يكون في الأقوال، وتارة يكون في الأعمال؛ يعني: في القلب يكون الشرك الأصغر، وفي المقال، وفي الفعال -أيضاً-.

وَقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُوْنِ الله نِدّاً دَخَلَ النَّارَ»[(١)].

قوله: «**من**» تفيد العموم للذكر والأنثى.

وقوله: «**يدعو**»، الدعاء إما دعاء عبادة وإما دعاء مسألة؛ فالأول: دعاء عبادة؛ مثاله: الصوم، والصلاة،... وغير ذلك من العبادات، فإذا صلى الإنسان أو صام، فقد دعا ربه بلسان الحال أن يغفر له، وأن يجيره من عذابه، وأن يعطيه من نواله، وهذا في أصل الصلاة، كما أنها تتضمن الدعاء بلسان المقال؛ ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ [غافر: ٦٠]، فجعل الدعاء عبادة، وهذا القسم كله شرك، فمن صرف شيئاً من أنواع العبادة لغير الله جل جلاله، فقد كفر كفراً مخرجاً له عن الملة، فلو ركع لإنسان أو سجد لشيء يعظمه كتعظيم الله سبحانه في هذا الركوع أو السجود، لكان مشركاً.

والثاني: دعاء المسألة؛ فهذا ليس كله شركاً، بل فيه تفصيل؛ فإن كان المخلوق قادراً على ذلك، فليس بشرك؛ كقوله: اسقني ماء، لمن يستطيع ذلك؛ قال ﷺ: «من دعاكم فأجيبوه»[(٢)]، فليس بشرك، وأما إن دعا المخلوق بما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه، فإن دعوته شرك مخرج عن الملة؛ مثال ذلك: أن تدعو إنساناً أن ينزل الغيث؛ أي: المطر، معتقداً أنه قادر على ذلك.

وقوله: «**من دون الله**» هذه العبارة ترد كثيراً في القرآن والسنة، ويراد بها شيئان:

الأول: أن تأتي بمعنى «مع»: فيكون معنى: «**من دون الله**» أي مع الله تعالى، وعبر عن المعية بلفظ «**من دون الله**»؛ لأن كل من دُعي مع الله فهو دون الله جل وعلا، فهم

---

(١) رواه البخاري برقم (٤٤٩٧)، مسلم برقم (٩٢).

(٢) رواه أحمد (٢/ ٦٨)، وصححه الألباني؛ انظر «السلسلة الصحيحة» برقم (٢٥٤).

دونه والله جل وعلا هو الأكبر، وهو الأعظم.

والثاني: أن تأتي بمعنى: «غير» فيكون معنى: «**من دون الله**»؛ أي: يدعو إلهـًا غير الله سبحانه؛ يعني: أنه لم يعبد الله عز وجل، وأشرك معه غيره، بل دعا غيره استقلالاً.

وقوله: «**ندا**»؛ الند الشبيه، يقال: فلان ند فلان؛ أي: مثله وشبيهه.

وقوله: «**دخل النار**»؛ يعني: كحال الكفار، فيكون خالدا فيها؛ لأن المسلم إذا وقع في الشرك الأكبر؛ فإنه يحبط العمل بذلك، قال الله جل وعلا لنبيه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۞ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥-٦٦]؛ فلو فرض أن أشرك النبي ﷺ لحبط عمله، ولكان في الآخرة من الخاسرين، أفلا يوجب هذا أن يخاف من هو دونه ممن يدعي الصلاح والعلم من الشرك؟!!.

فوجه الاستدلال ظاهر، في قوله ﷺ: «**من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار**» أنه يوجب الخوف؛ لأن قصد المسلم، بل قصد العاقل أن يكون ناجيـًا من النار، ومتعرضـًا لثواب الله سبحانه وتعالى في الجنة.

وَقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «مَنْ لَقِيَ الله لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئـًا دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئـًا دَخَلَ النَّارَ»[1].

قوله: «**من لقي الله**» يعني: مات.

وقوله: «**لا يشرك به شيئاً**»؛ أي: من لم يتخذ معه شريكـًا في الإلهية ولا في الخلق، ولا في العبادة.

ومن المعلوم ـ من الشرع المجمع عليه عند أهل السنة ـ أن من مات على ذلك، فلا بد له من دخول الجنة، وإن جرت عليه قبل ذلك أنواع من العذاب والمحنة، وإن مات على الشرك لا يدخل الجنة ولا يناله من الله جل وعلا رحمة، ويخلد في النار أبد الآباد من غير انقطاع عذاب، وهذا معلوم ضروري من الدين، مجمع عليه بين

(١) رواه مسلم برقم (٩٣).

المسلمين.

وقوله: «**شيئاً**» يفيد العموم؛ والمعنى: أي شرك كان.

وقوله: «**دخل الجنة**» قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أما دخول من مات غير مشرك الجنة، فهو مقطوع له به، لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مات مصراً عليها دخل الجنة أولاً، وإن كان صاحب كبيرة مات مصراً عليها، فهو تحت المشيئة، فإن عفا عنه دخل الجنة أولاً، وإلا عذب في النار ثم أخرج فيدخل الجنة».

وقوله: «**دخل النار**» قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أما دخول المشرك إلى النار، فهو على عمومه، فيدخلها ويخلد فيها، ولا فرق فيه بين الكتابي اليهودي والنصراني، وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة من المرتدين والمعطلين، ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر عناداً وغيره، ولا بين من خالف ملة الإسلام، وبين من انتسب إليها ثم حكم بكفره وجحوده».

***

المسألة (الخامسة):
فِي الدَّعْوَةِ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَه إِلَّا الله

إن من تمام التوحيد أن تدعو غيرك إليه، فإنه لا يتم في القلب حتى تدعو إليه، وهذه حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله؛ وشهادتك معناها اعتقادك، ونطقك، وعملك بمقتضاها، ثم إخبارك الغير بما دلت عليه.

فقوله: «**الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله**»؛ أي: الدعوة إلى التوحيد؛ فلا ينبغي لمن عرف التوحيد وحققه أن يقتصر على نفسه، بل يجب عليه أن يدعو إليه، كما دعا إليه الرسل وأتباعهم؛ قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ حينما تلا قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، فقال: «هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا أحب أهل الأرض إلى الله، أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحاً في إجابته، وقال: إنني من المسلمين، هذا خليفة الله».

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

قوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾؛ أي: طريقي.

وقوله: ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فالداعي إلى الله عز وجل هو المخلص الذي يريد أن يوصل الناس إلى الله تعالى، ومن دعا إلى الله عز وجل ثم رأى الناس فارين منه، فلا ييأس، ويترك الدعوة؛ فإن الرسول ﷺ قال لعلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «انفذ على رسلك، فوالله؛ لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»[١]؛ فمعناه: أنه يدعو إلى الله

---

(١) رواه البخاري برقم (٢٩٤٢)، ومسلم برقم (٢٤٠٦).

جل وعلا، فإذا استجاب واحد، كفى، وإذا لم يستجب أحد، فقد أبرأ ذمته أيضًا، وفي الحديث: «ويأتي النبي وليس معه أحد».

ثم إنه يكفي من الدعوة أن يتبين للناس أن هذا حق وهذا باطل؛ لأن الناس إذا سكتوا عن بيان الحق، وأقروا الباطل مع طول الزمن، ينقلب الحق باطلاً، والباطل حقًا.

وقوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾؛ أي: علم، فتضمنت هذه الدعوة الإخلاص والعلم؛ لأن أكثر ما يفسد الدعوة عدم الإخلاص، أو عدم العلم، وليس المقصود بالعلم في قوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ العلم بالشرع فقط، بل يشمل العلم بالشرع، والعلم بحال المدعو، والعلم بالسبيل الموصل إلى المقصود، وهو الحكمة.

فيكون بصيراً بحكم الشرع، وبصيراً بحال المدعو، وبصيراً بالطريق الموصلة لتحقيق الدعوة، ولهذا قال النبي ﷺ لمعاذ: «إنك تقدم على قوم أهل كتاب»[1].

وهذه ليست كلها من العلم بالحكم الشرعي؛ لأن علمي أن هذا الرجل قابل للدعوة باللين، وهذا قابل للدعوة بالشدة، وهذا عنده علم يمكن أن يقابلني بالشبهات، أمر زائد على العلم بالحكم الشرعي، وكذلك العلم بالطرق التي تجلب المدعوين، كالترغيب بكذا والتشجيع، كقوله ﷺ مخاطباً أصحابه حينما اقتتل المسلمون والمشركون: «من قتل قتيلاً له عليه بيِّنة، فله سلبه»[2]، أو بالتأليف؛ فالنبي ﷺ أعطى المؤلفة قلوبهم في غزوة حنين إلى مئة بعير[3]، فهذا كله من الحكمة.

والجاهل لا يصلح للدعوة، وليس محموداً، وليست طريقته طريقة الرسول ﷺ؛ لأن الجاهل يفسد أكثر مما يصلح.

وقوله: ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾؛ أي: أنا ومن اتبعني على بصيرة؛ أي: في عبادتي ودعوتي.

وقوله: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ معطوف على قوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾؛ أي: وقل:

---

(١) رواه البخاري برقم (١٤٥٨)، ومسلم برقم (١٩).

(٢) رواه البخاري برقم (٣١٤٢)، ومسلم برقم (١٧٥١).

(٣) رواه البخاري برقم (٤٣٣٠)، ومسلم برقم (١٠٦١).

﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: تنزيها لله عن الأنداد والشركاء.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾؛ أي: الذين يجعلون معه آلهة أخرى.

فأحسن الأقوال قول من دعا إلى الله عز وجل، وأحسن الأعمال عمل من دعا إلى الله جل وعلا؛ ولهذا قال الله سبحانه: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُوْلَ الله ﷺ، لَمَّا بَعَثَ مُعَاذاً إِلَى اليَمَنِ، قَالَ لَهُ: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمَاً مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوْهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله – وَفِي رِوَايَةٍ[1]: إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا الله –، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوْكَ لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ الله افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوْكَ لِذَلِكَ: فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ الله افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوْكَ لِذَلِكَ فَإِيَاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُوْمِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الله حِجَابٌ»[2].

«**ابن عباس**» هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، ابن عمِّ رسول الله ﷺ، صحابي جليل، ومن علماء الصحابة، ويُسمى الحبر لسعة علمه، مات سنة ثمان وستين بالطائف، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله: «**بعث معاذاً**»؛ هو معاذ بن جبل بن عمرو الأنصاري، الخزرجي، أبو عبد الرحمن، صحابي مشهور، مات بالشام سنة ثماني عشرة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله: «**بعث معاذاً**»؛ أي: أرسله، وبعثه على صفة المعلم والحاكم والداعي، وبعثه في ربيع الأول سنة عشرة من الهجرة، وهذا هو المشهور، وبعثه هو وأبا موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، بعث معاذاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى صنعاء وما حولها، وأبا موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى عدن وما حولها، وأمرهما: «أن اجتمعا وتطاوعا ولا تفترقا، ويسرا ولا تعسرا، وبشرا

---

(١) عند البخاري برقم (٧٣٧٢).

(٢) رواه البخاري برقم(١٤٥٨)، ومسلم برقم (١٩).

وذكرا ولا تنفرا»[١].

وقوله: «**إنك تأتي قوماً من أهل كتاب**»؛ فقوله: «**من**» بيانية؛ والمراد بالكتاب: التوراة والإنجيل؛ فيكون المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى، وهم أكثر أهل اليمن في ذلك الوقت، وإن كان في اليمن مشركون، لكن الأكثر اليهود والنصارى، ولهذا اعتمد الأكثر.

وأخبره النبي ﷺ بذلك، لأمرين:

الأول: أن يكون بصيراً بأحوال من يدعو.

الثاني: أن يكون مستعداً لهم؛ لأنهم أهل كتاب، وعندهم علم.

وقال ذلك مرشداً له، وهذا دليل على معرفته ﷺ بأحوال الناس.

وما يعلمه من أحوالهم، فله طريقان: الأول: الوحي، والثاني: العلم والتجربة.

وقوله: «**شهادة**»؛ الشهادة هنا من العلم، قال الله تعالى: ﴿**إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ [الزخرف: ٨٦]، فالشهادة هنا العلم والنطق باللسان؛ لأن الشاهد مخبر عن علم، وهذا المقام لا يكفي فيه مجرد الإخبار، بل لابد من علم وإخبار وقبول وإقرار وانقياد.

فلو اعتقد بقلبه، ولم يقل بلسانه: أشهد أن لا إله إلا الله؛ فإنه ليس بمسلم بالإجماع حتى ينطق بها؛ لأن كلمة أشهد تدل على الإخبار، والإخبار متضمن للنطق، فلابد من النطق، فالنية فقط لا تجزئ، ولا تنفعه عند الله عز وجل حتى ينطق، والنبي ﷺ قال لعمه أبي طالب: «قل»[٢]، ولم يقل: اعتقد أن لا إله إلا الله فقط.

وقوله: «**لا إله إلا الله**»؛ أي: لا معبود إلا الله؛ فإله بمعنى مألوه، فهو فعال بمعنى مفعول، وعند المتكلمين، إله بمعنى آله، فهو اسم فاعل، وعليه يكون معنى لا إله، أي: لا قادر على الاختراع، وهذا باطل، ولو قيل بهذا المعنى، لكان المشركون الذين قاتلهم النبي ﷺ موحدين؛ لأنهم يقرّون به، قال الله تعالى: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ**﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال الله تعالى: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ**﴾ [الزمر: ٣٨]، فإن قيل: كيف يقال: لا معبود إلا الله،

(١) رواه البخاري برقم (٤٣٤١)، ومسلم برقم (١٧٣٣).

(٢) رواه البخاري برقم (١٣٦٠)، ومسلم برقم (٢٤).

والمشركون يعبدون أصنامهم؟!، أجيب: بأنهم يعبدونها بغير حق، فهم وإن سموها آلهة، فألوهيتها باطلة، وليست معبودات بحق، ولذلك إذا مسهم الضر، لجؤوا إلى الله تعالى، وأخلصوا له الدين، وعلى هذا لا تستحق أن تسمى آلهة، فهم يعبدونها ويعترفون بأنهم لا يعبدونها إلا لأجل أن تقربهم إلى الله فقط، فجعلوها وسيلة وذريعة، وبهذا التقدير لا يرد علينا إشكال في قول الرسل لقومهم: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]؛ لأن هذه المعبودات لا تستحق أن تعبد، بل الإله المعبود حقاً هو الله سبحانه وتعالى.

ففي قوله: «**لا إله إلا الله**» نفي الألوهية لغير الله تعالى، وإثباته لله سبحانه، ولهذا جاءت بطريق الحصر.

وهي شهادة التوحيد التي أمرهم أن يبلغوها، بقوله في الرواية الأخرى: «**إلى أن يُوَحِّدوا الله**».

واعلم أنه لا بد في شهادة أن لا إله إلا الله من سبعة شروط، لا تنفع قائلها إلا باجتماعها:

أحدها: العلم المنافي للجهل. الثاني: اليقين المنافي للشك. الثالث: القبول المنافي للرد. الرابع: الانقياد المنافي للترك. الخامس: الإخلاص المنافي للشرك. السادس: الصدق المنافي للكذب. السابع: المحبة المنافية لضدها.

وبعض أهل العلم زاد أمراً ثامناً؛ وهو: الكفر بالطاغوت؛ وقد جمعها كلها عالم فاضل؛ فقال:

عِلْمٌ يَقِينٌ وَإِخْلاَصٌ وَصِدْقُكَ مَع ... مَحَبَّةٍ وَانْقِيَادٍ وَالقَبُولِ لَهَا
وَزِيْدَ ثَامِنُهَا الكُفْرَانُ مِنْكَ بِمَا ... سِوَى الإِلَهِ مِنَ الأَشْيَاءِ قَد أُلِهَا

وفيه دليل على أن التوحيد - الذي هو إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له وترك عبادة ما سواه - هو أول واجب؛ ولهذا كان أول ما دعت إليه الرسل عليهم السلام: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [المؤمنون: ٣٢]، وقال نوح ﷺ: ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هود: ٢٦]، وفيه معنى «لا إله إلا الله» مطابقة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قد علم بالاضطرار من دين الرسول ﷺ واتفقت عليه الأمة أن أصل الإسلام وأول ما يؤمر به الخلق: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فبذلك يصير الكافر مسلماً، والعدو ولياً، والمباح دمه

وماله، معصوم الدم والمال.

ثم إن كان ذلك من قلبه فقد دخل في الإيمان، وإن قاله بلسانه دون قلبه فهو في ظاهر الإسلام دون باطن الإيمان».

وقال أيضًا: «وأما إذا لم يتكلم بها مع القدرة فهو كافر باتفاق المسلمين باطنًا وظاهراً، عند سلف الأمة وأئمتها وجماهير العلماء».

وقوله: «**فإن هم أطاعوك لذلك**»؛ أي: شهدوا وانقادوا لذلك، «**فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات**»، فيه: أن الصلاة أعظم واجب بعد الشهادتين.

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ - ما معناه -: «أنه يدل على أن المطالبة بالفرائض في الدنيا لا تكون إلا بعد الإسلام، ولا يلزم من ذلك أن لا يكونوا مخاطبين بها، ويزاد في عذابهم بسببها في الآخرة، والصحيح أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة المأمور به والمنهي عنه، وهذا قول الأكثرين».

وقوله: «**فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم**»، فيه دليل على أن الزكاة أوجب الأركان بعد الصلوات، وأنها تؤخذ من الأغنياء وتصرف إلى الفقراء، وإنما خص النبي ﷺ الفقراء لأن حقهم في الزكاة آكد من حق بقية الأصناف الثمانية المذكورة في قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

وقوله: «**إياك وكرائم أموالهم**»؛ كرائم جمع كريمة؛ وهي الجامعة للكمال الممكن في حقها، من غزارة لبن، وجمال صورة، وكثرة لحم وصوف؛ فهي خيار المال وأنفسه وأكثره ثمنًا.

فيحرم على العامل في الزكاة أخذ كرائم المال، ويحرم على صاحب المال إخراج شرار المال، بل يخرج الوسط، فإن طابت نفسه بالكريمة جاز.

واعلم أنه لم يذكر في الحديث الصوم والحج، فأشكل ذلك على كثير من العلماء؛ ولعل عدم ذكرهما راجع إلى حسب نزول الفرائض، وأن أول ما فرض الله تعالى الشهادتين ثم الصلاة، أو أنه ﷺ كان يذكر في كل مقام ما يناسبه.

وقوله: «**واتق دعوة المظلوم**»؛ أي: اجعل بينك وبينها وقاية بالعدل وترك الظلم؛ وهذان الأمران يقيان ـ مَن رزقهما ـ من جميع الشرور دنيا وأخرى.

وفي ختام هذا الكلام، أذكر حديثًا جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما يشمل هذه الأمور وغيرها؛ أنه قال: إن وفد عبد القيس لما أتوا النبي ﷺ: قال رسول الله ﷺ: «مَن القوم؟، أو: مَن الوفد؟» قالوا: ربيعة، قال: «مرحبا بالقوم أو: بالوفد غير خزايا ولا ندامى»، قالوا: يا رسول الله، إنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في الشهر الحرام وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر فمرنا بأمر فصل نخبر به من وراءنا وندخل به الجنة، وسألوه عن الأشربة؛ فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع: أمرهم بالإيمان بالله وحده قال: «أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وأن تعطوا من المغنم الخمس»، ونهاهم عن أربع: عن الحنتم والدباء والنقير والمزفت»، وقال: «احفظوهن وأخبروا بهن من وراءكم»[1].

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: «لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُوْلَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُوْلُهُ، يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ»، فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوْكُوْنَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحُوا؛ غَدَوا عَلَى رَسُوْلِ اللهِ ﷺ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا، فَقَالَ: «أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟» فَقِيْلَ: هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ، فَأُتِيَ بِهِ، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ، وَدَعَا لَهُ، فَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، فَقَالَ: «انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ تَعَالَى فِيْهِ، فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا، خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»[2].

«**سهل بن سعد**» ابن مالك بن خالد الأنصاري الخزرجي الساعدي، أبو العباس صحابي شهير، وأبوه صحابي أيضًا، مات سنة ثمان وثمانين وقد جاوز المئة.

وقوله: «**يوم خيبر**»؛ أي: في غزوة خيبر، وكانت سنة سبع، و«**خيبر**» هي قرية كانت لليهود، ذات حصون ومزارع.

---

(١) رواه البخاري برقم (٥٣)، ومسلم برقم (١٧).

(٢) رواه البخاري برقم (٤٢١٠)، ومسلم برقم (٢٤٠٦).

وقوله: «**الراية**»؛ أي: العَلَم، وسمي راية؛ لأنه يُرى؛ وهو ما يتخذه أمير الجيش للعلامة على مكانه.

وقوله: «**غداً**»؛ يراد به ما بعد اليوم، والأمس يراد به ما قبله؛ والأصل أنه يراد بالغد ما يلي يومك، ويراد بالأمس الذي يليه يومك، وقد يراد بالغد ما وراء ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]؛ أي: يوم القيامة.

وقوله: «**يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله**»؛ أثبت المحبة لله تعالى من الجانبين؛ أي:أن الله تعالى يَحب ويُحب، وقد أنكر هذا قوم، وقالوا: المراد بمحبة الله للعبد إثابته أو إرادة إثابته، والمراد بمحبة العبد لله سبحانه محبة ثوابه، وهذا تحريف للكلام عن ظاهره، مخالف لإجماع السلف من الصحابة والتابعين وأئمة الهدى من بعدهم؛ ومحبة الله تعالى ثابتة له حقيقة،وهي من صفاته سبحانه وتعالى الفعلية، وكل شيء من صفات الله جل جلاله يكون له سبب؛ فهو من الصفات الفعلية، والمحبة لها سبب.

وقوله: «**يفتح الله على يديه**» صريح في البشارة بحصول الفتح، فهو علم من أعلام النبوة.

وقوله: «**على يديه**»؛ أي: يفتح خيبر على يديه.

وقوله: «**بات**»؛ البيتوتة: هي المكث في الليل، سواء أكان نوم، أم لم يكن.

وقوله: «**يَدُوْكُون ليلتهم**»؛ أي: يخوضون في تلك الليلة؛ ويعني: ظلوا ليلا يتحدثون من دون نوم لعِظم هذا الفضل الذي ذكره ﷺ.

وقوله: «**فلما أصبحوا غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها**» وفى رواية أبي هريرة رضي الله عنه، أن عمر رضي الله عنه قال: «ما أحببت الإمارة إلا يومئذ»(١).

وقوله: «**غدوا على رسول الله**»؛ أي: ذهبوا إليه في الغدوة مبكرين، كلهم يرجو أن يعطاها لينال محبة الله عز وجل ورسوله ﷺ.

وقوله «**فقال: أين علي؟**»؛ القائل: رسول الله ﷺ، و«**علي**» ابن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم القرشي، أبو الحسن، ابن عم رسول الله ﷺ، صحابي جليل،

---

(١) رواها مسلم برقم (٢٤٠٥).

ورابع الخلفاء الراشدين، ولد قبل البعثة بعشر سنين، وقتل في ليلة السابع عشر من شهر رمضان سنة أربعين من الهجرة.

وقوله: «**فقيل: هو يشتكي عينيه**»؛ أي: من الرمد.

وقوله: «**فأتي به**»، كأنه - رضي الله عنه - قد عمم على عينيه؛ لأن قوله: «**أُتِي به**»؛ أي: يقاد.

وقوله: «**فبصَق**»؛ أي: تفل.

وقوله: «**ودعا له فبرأ**»؛ أي: عوفي في الحال، عافية كاملة كأن لم يكن به وجع من رمد ولا ضعف بصر.

وقوله: «**انفذ على رسلك**»؛ أي: مهلك؛ مأخوذ من رسل الناقة؛ أي: حليبها يحلب شيئًا فشيئًا؛ والمعنى: امش هوينًا هوينًا؛ لأن المقام خطير؛ لأنه يخشى من كمين، واليهود خبثاء أهل غدر.

وقوله: «**حتى تنزل بساحتهم**»؛ أي: ما يقرب منهم وما حولهم.

وقوله: «**ثم ادعهم**»؛ أي: أهل خيبر، «**إلى الإسلام**»؛ أي: الاستسلام لله تعالى.

وقوله: «**وأخبرهم بما يجب عليهم**»؛ أي: فلا تكفي الدعوة إلى الإسلام فقط، بل يخبرهم بما يجب عليهم فيه حتى يقتنعوا به ويلتزموا، لكن على الترتيب الذي في حديث بعث معاذ رضي الله عنه.

وهذه المسألة يتردد الإنسان فيها: هل يخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى في الإسلام قبل أن يسلموا أو بعده؟.

فإذا نظرنا إلى ظاهر حديث معاذ وحديث سهل هذا، فإننا نقول: الأولى أن ندعوه للإسلام، وإذا أسلم نخبره.

وإذا نظرنا إلى واقع الناس الآن، وأنهم لا يسلمون عن اقتناع؛ قلنا: علينا أن نخبرهم أولاً بما يجب عليهم من حق الله عز وجل، لئلا يرتدوا عن الإسلام بعد إخبارهم بما يجب عليهم، وحينئذ يجب قتلهم لأنهم مرتدون.

والصواب أن يقال: تترك هذه المسألة للواقع وما تقتضيه المصلحة من تقديم هذا أو هذا.

وقوله: «**لأن يهدي الله بك**»، ولم يقل: لأن تهدي؛ لأن الذي يهدي هو الله جل

وعلا؛ والمراد بالهداية هنا هداية التوفيق والدلالة والإرشاد.

وقوله: «**حمر النعم**» جمع أحمر؛ والمراد: الإبل الحمراء، وذكرها لأنها مرغوبة عند العرب، وهي أحسن وأنفس ما يكون من الإبل عندهم.

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وتشبيه أمور الآخرة بأمور الدنيا إنما هو للتقريب إلى الأفهام، وإلا فذرة من الآخرة خير من الأرض بأسرها وأمثالها معها».

* * *

المسألة (السادسة):
فِي تَفْسِيْرِ التَّوحِيْدِ وَشَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا الله

قوله: «**تفسير**» معناه: كشف وإيضاح.

وقوله: «**التوحيد**»؛ أي: إفراد الله جل وعلا بالعبادة؛ والتوحيد ثلاثة أنواع: توحيد الربوبية، وتوحيد الإلوهية، وتوحيد الأسماء والصفات؛ وهذا معلوم بالاستقراء من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ.

وقوله: «**شهادة أن لا إله إلا الله**»، معطوف على التوحيد؛ أي: وتفسير شهادة أن لا إله إلا الله، والعطف هنا من باب عطف المترادفين؛ لأن التوحيد حقيقة هو شهادة أن لا إله إلا الله.

والشهادة هي أعظم كلمة قالها مكلف، ولا شيء أعظم منها؛ وذلك لأن معناها هو الذي قامت عليه الأرض والسماوات، وما تعبَّدَ المتعبدون إلا بتحقيقها وامتثالها.

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ [الإسراء: ٥٧].

أي: هؤلاء الذين يدعوهم، هؤلاء هم أنفسهم ﴿**يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ**﴾، فكيف تدعونهم وهم محتاجون مفتقرون؟! فهذا سفه في الحقيقة، وهذا ينطبق على كل من دُعِي وهو دَاعٍ، كعيسى ابن مريم عليه السلام، والملائكة، والأولياء، والصالحين.

فهؤلاء الذين زعمتم أنهم أولياء من دون الله تعالى لا يملكون كشف الضر ولا تحويله من مكان إلى مكان؛ لأنهم هم بأنفسهم ﴿**يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ**﴾، وقد قال الله تعالى مبينًا حال هؤلاء المدعوين: ﴿وَٱلَّذِينَ

تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر: ١٣-١٤].

وقوله: ﴿**يَدْعُونَ**﴾؛ أي: دعاء مسألة، كمن يدعو النبي ﷺ، وكمن يدعو علياً، أو غيرهما من الخلق عند وقوعه في الشدائد.

وقد يكون دعاء عبادة، كمن يتذلل لهم بالتقرب، والنذر، والركوع، والسجود.

وقوله: ﴿**يَبْتَغُونَ**﴾؛ أي: يطلبون.

وقوله: ﴿**ٱلْوَسِيلَةَ**﴾؛ أي: الشيء الذي يوصلهم إلى الله تعالى.

وقوله جل وعلا: ﴿**أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ**﴾، فيه بيان لحال خاصة عباد الله سبحانه الذين جمعوا بين العبادة والخوف والرجاء فيرجون رحمته ويخافون عذابه، وهم إنما توجهوا إليه وحده دون ما سواه، فأنزلوا الخوف والمحبة والدعاء والرغب والرجاء في الله جل وعلا وحده دون ما سواه، وهذا هو تفسير التوحيد.

وقال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ - في هذه الآية -: «ذكر المقامات الثلاث؛ الحب، وهو ابتغاء التقرب إليه، والتوسل إليه بالأعمال الصالحة، والرجاء والخوف، وهذا هو حقيقة التوحيد وحقيقة دين الإسلام».

فَعُلِمَ أن التوحيد يتضمن البراءة من الشرك، بحيث لا يدعو مع الله أحداً، لا ملكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلاً، وهؤلاء الذين يدعون الأنبياء والملائكة لم يتبرؤا من الشرك، بل هم واقعون فيه، ومن العجب أنهم يدعون من هم في حاجة إلى ما يقربهم إلى الله تعالى، فهم غير مستغنين عن الله عز وجل بأنفسهم، فكيف يغنون غيرهم؟!.

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٧].

قوله: ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ** ﴾ اسم والد إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو آزر، كما جاء في كتاب الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ

مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٧٤]، وهو الراجح من كلام أهل العلم.

وقوله: ﴿بَرَآءٌ﴾ من التبرؤ، وهو التخلي؛ أي: إنني متخل غاية التخلي عما تعبدون إلا الذي فطرني.

وقوله: ﴿تَعْبُدُونَ﴾؛ العبادة هنا التذلل والخضوع؛ لأن في قومه من يعبد الأصنام، ومنهم من يعبد الشمس والقمر والكواكب.

وقوله: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، جمع بين النفي والإثبات؛ فالنفي: ﴿بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾، والإثبات: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، فدل على أن التوحيد لا يتم إلا بالكفر بما سوى الله عز وجل والإيمان بالله وحده، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وفي قول إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، ولم يقل: «إلا الله» فائدتان:

الأولى: الإشارة إلى علة إفراد الله تعالى بالعبادة؛ لأنه كما أنه منفرد بالخلق فيجب أن يفرد بالعبادة.

الثانية: الإشارة إلى بطلان عبادة الأصنام؛ لأنها لم تفطركم حتى تعبدوها، ففيها تعليل للتوحيد الجامع بين النفي والإثبات، وهذه من البلاغة التامة في تعبير إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

قوله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: هؤلاء اليهود والنصارى صيروا ﴿أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا﴾؛ فأنزلوهم منزلة ربهم في قبول تحريمهم وتحليلهم لما لم يحرمه الله جل وعلا ولم يحله الله تعالى.

وقوله: ﴿أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ﴾؛ الأحبار: جمع حبر، وهو العالم، ويقال

للعالم أيضـًا بحر لكثرة علمه، والرهبان؛جمع راهب؛ أي: عابد.

وقوله: ﴿أَرْبَابًا﴾؛ جمع رب؛ أي: يجعلونهم بمنزلة ربهم؛ فيجعلون الأحبار أربابـًا لأنهم يـأتمرون بأمرهم في مخالفة أمر الله تعالى، فيطيعونهم في معصية الله سبحانه، ويجعلون الرهبان أربابـًا يعبدونهم من دون الله عز وجل؛ لأنهم أطاعوهم في تحليل الحرام، وتحريم الحلال.

وقوله: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: من غير الله جل جلاله.

جاء عن عدي بن حاتم رضي الله عنه أنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم، وفي عنقي صليب من ذهب، فقال صلى الله عليه وسلم: «يا عدي اطرح عنك هذا الوثن»، وسمعته يقرأ قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، فقال: «أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئـًا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئـًا حرموه»[1].

وقوله: ﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾، معطوف على أحبارهم؛ أي: اتخذوا المسيح ابن مريم عليه السلام أيضـًا ربـًا؛ حيث قالوا: إنه ثالث ثلاثة.

وقوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾؛ أي: يتذللوا بالطاعة لله وحده، الذي خلق المسيح والأحبار والرهبان والسماوات والأرض.

وقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود حق إلا هو.

وقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾، تنزيه لله سبحانه عما يشركون.

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٥٦].

قوله: ﴿أَندَادًا﴾، جمع ند، وهو الشبيه والنظير، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لمن قال له: ما شاء الله وشئت: «أجعلتني لله ندًا؟! بل ما شاء الله وحده»[2].

---

(١) رواه الترمذي برقم (٣٠٩٥)، وحسنه الألباني؛ انظر «غاية المرام» (ص١٩).

(٢) رواه النسائي في «الكبرى» (٦/ ٢٤٥) برقم (١٨٢٥)، وفي «عمل اليوم والليلة» برقم (٩٨٨)،

وقوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾، هذا وجه المشابهة؛ أي: الندية في المحبة يحبونهم كحب الله تعالى.

واختلف المفسرون في قوله: ﴿كَحُبِّ﴾؛ فقيل: يجعلون محبة الأصنام مساوية لمحبة الله عز وجل، فيكون في قلوبهم محبة لله سبحانه ومحبة للأصنام، ويجعلون محبة الأصنام كمحبة الله تعالى؛ فيكون معنى قوله جل وعلا: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾، أنهم يحبونهم محبة مثل محبتهم لله جل جلاله.

وقيل: يحبون هذه الأصنام محبة شديدة كمحبة المؤمنين لله جل وعلا.

وقيل: هم في الواقع ما أحبوا الله تعالى حقيقة؛ لأن حب الله عز وجل لا يكون إلا عن معرفة بالله بأسمائه وصفاته، ومن أحب الله عز وجل حقيقة لا يمكن أن يتخذ من دونه نداً.

وليس معنى ﴿كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾؛ أي: كحبهم لله تعالى، ولكن معناها - والله أعلم - يحبونهم حباً من جنس الحب الذي لا يكون إلا لله تعالى، وهو حب العبادة؛ غاية الحب في غاية الحب والتعظيم فهذا هو الحب الذي ينشأ عنه الدعاء والضراعة وطلب تفريج الكروب ونحوها مما يجرده المؤمنون لله وحده وهم أشد حباً لله عز وجل، والمشركون يجردونه لأوليائه أو يشركونهم مع الله سبحانه ولا يرجون لله وقاراً.

وتتمة الآية هي قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾، على الرأي الأول يكون معناها: والذين آمنوا أشد حباً لله تعالى من هؤلاء لله سبحانه؛ لأن محبة المؤمنين خالصة، ومحبة هؤلاء فيها شرك بين الله وبين أصنامهم.

وعلى الرأي الثاني معناها: والذين آمنوا أشد حباً لله عز وجل من هؤلاء لأصنامهم؛ لأن محبة المؤمنين ثابتة في السراء والضراء على برهان صحيح، بخلاف المشركين؛ فإن محبتهم لأصنامهم تتضاءل إذا مسهم الضر.

واعلم أن كل الأمور تسير بالمحبة، فأنت مثلاً لا تتحرك لشيء إلا وأنت تحبه،

وأحمد في «مسنده» (١/ ٢١٤)، وصححه الألباني؛ انظر: «السلسلة الصحيحة» برقم (١٥٧).

حتى اللقمة من الطعام لا تأكلها إلا لمحبتك لها؛ ولهذا قيل: إن جميع الحركات مبناها على المحبة، فالمحبة أساس العمل، فالإشراك في المحبة إشراك بالله عز وجل.

والمحبة أنواع:

الأول: المحبة لله تعالى، وهذه لا تنافي التوحيد، بل هي من كماله، فأوثق عرى الإيمان: الحب في الله، والبغض في الله سبحانه، والمحبة لله عز وجل هي أن تحب هذا الشيء لأن الله جل وعلا يحبه، سواء كان شخصاً أو عملاً، وهذا من تمام التوحيد.

الثاني: المحبة الطبيعية التي لا يؤثرها المرء على محبة الله عز وجل، فهذه لا تنافي محبة الله تعالى، كمحبة الزوجة، والولد، والمال، ولهذا لما سئل النبي ﷺ: من أحب الناس إليك؟ قال ﷺ: «عائشة»، قيل: فمن الرجال؟ قال ﷺ: «أبوها»[(١)]، ومن ذلك محبة الطعام والشراب واللباس.

الثالث: المحبة مع الله سبحانه التي تنافي محبة الله تعالى، وهي أن تكون محبة غير الله عز وجل كمحبة الله تعالى أو أكثر من محبة الله، بحيث إذا تعارضت محبة الله تعالى ومحبة غيره قدم محبة غير الله سبحانه، وذلك إذا جعل هذه المحبة نداً لمحبة الله عز وجل يقدمها على محبة الله سبحانه أو يساويها بها.

وَعَنِ النَّبِي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُوْنِ الله، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى الله عز وجل»[(٢)].

قوله ﷺ: «**من قال لا إله إلا الله**»؛ أي: لا معبود حق إلا الله تعالى.

وقوله: «**وكفر بما يعبد من دون الله**»؛ أي: بعبادة من يعبد من دون الله سبحانه؛ كعيسى ابن مريم عليه السلام كان يعبد من دون الله عز وجل، ونحن نؤمن به، لكن لا نؤمن بعبادته ولا بأنه مستحق للعبادة، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ

(١) رواه البخاري برقم (٣٦٦٢)، ومسلم برقم (٢٣٨٤).

(٢) رواه مسلم برقم (٢٣).

ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۞ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ [المائدة: ١١٦].

وقوله: «**حرم ماله ودمه**»؛ اعلم أن النبي ﷺ علق عصمة المال والدم بأمرين:

الأول: قول لا إله إلا الله عن علم ويقين.

والثاني: الكفر بما يعبد من دون الله جل وعلا، فلم يكتف باللفظ المجرد عن المعنى، بل لابد من قولها والعمل بها.

وقوله: «**وحسابه على الله**»، فإن كان صادقاً في قول هذه الكلمة؛ فإنه يكون مسلماً حقّاً، باطناً وظاهراً، ويدخل الجنة، وإن كان قالها ظاهراً فقط، فهذا هو النفاق، وذلك يحقن دمه ويحرم ماله، ولكنه في الآخرة يكون في النار، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [النساء: ١٤٥].

* * *

المسألة (السابعة):
أَنَّ مِنَ الشِّرْكِ لُبْسُ الحَلَقَةِ وَالخَيْطِ وَنَحْوِهِمَا لِرَفْعِ البَلاءِ أَوْ دَفْعِهِ

قوله: «**من الشرك**»، «**من**» هنا تبعيضية؛ يعني: أن هذا المثال المذكور؛ وهو «**لبس الحلقة والخيط**» بعض أنواع الشرك.

ولبس هذه الأشياء قد يكون شركًا أصغر وقد يكون شركًا أكبر بحسب اعتقاد لابسها.

وكان لبس هذه الأشياء من الشرك؛ لأن كل من أثبت سببًا لم يجعله الله تعالى سببًا شرعيًا ولا قدريًا، فقد جعل نفسه شريكًا مع الله تعالى؛ فمثلاً: قراءة الفاتحة سبب شرعي للشفاء، وأكل المسهل سبب حسي لانطلاق البطن، عُلِمَ بالتجارب.

وقوله: «**الحلقة**»، إما أن تكون من صفر؛ يعني من نحاس، وإما أن تكون من حديد، أو تكون من أي معدن.

وقوله: «**الخيط**» معروف، والمراد عقدهُ في اليد على وجه الاعتقاد، وليس المراد خيطًا بعينه.

وقوله: «**ونحوهما**» ما يكون نحو الحلقة والخيط، مثل: الخرز والتمائم والحديد، ونحو ذلك مما قد يلبس، ومثله أيضًا ما يعلق في البيوت، أو في السيارات، أو يعلق على الصغار، ونحو ذلك مما فيه لبس أو تعليق، فكل ذلك يدخل في الشرك.

وقوله: «**لرفع البلاء، أو دفعه**»، الفرق بينهما: أن الرفع يكون بعد نزول البلاء، والدفع يكون قبل نزول البلاء.

وكان للعرب اعتقاد في الحلقة والخيط والتمائم وغيرها، إذ كانوا يعتقدون أن من تعلق شيئًا من ذلك أثر فيه ونفع، إما من جهة دفع البلاء قبل وقوعه، وإما من جهة رفع البلاء أو المرض بعد وقوعه.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

قول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾؛ أي: أخبروني، وهذا تفسير باللازم؛ لأن من رأى أخبر، وإلا، فهي استفهام عن رؤية، قال الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ [الماعون: ١]؛ أي: أخبرني ما حال من كذب بالدين؟.

وقوله: ﴿مَّا تَدْعُونَ﴾ يشمل دعاء المسألة، ودعاء العبادة؛ لأنهما حالتان من أحوال أهل الإشراك بالله سبحانه وتعالى.

و﴿مَّا﴾ في قوله: ﴿مَّا تَدْعُونَ﴾ عامة؛ لأنها اسم موصول بمعنى الذي؛ أي: أفرأيتم الذي تدعونه من دون الله تعالى، والذي يدعونه من دون الله تعالى - الذي شملته هذه الآية- أنواع؛ وهو كل ما دعي من دون الله تعالى مما جاء بيانه في القرآن.

وقد جاء في القرآن بيان الأصناف التي أشرك بها من دون الله جل وعلا وتوجه لها بالعبادة؛ وهي أنواع:

الأول: بعض الأنبياء والرسل والصالحون؛ كما قال الله جل وعلا: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، فهذا فيه بيان هذا النوع من المعبودين.

الثاني: الملائكة؛ كما جاء بيانه في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

ونوع آخر - من المشركين -: كانوا يتوجهون للكواكب بالعبادة؛ مثل من يعبد الشمس والقمر، وغيرهما من الكواكب.

ونوع آخر: كانوا يتوجهون إلى الأشجار والأحجار.

ونوع: كانوا يتوجهون للأصنام والأوثان.

فقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، يدخل فيه كل مَن توجه إليه بشيء من أنواع العبادة.

وقوله: ﴿إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ﴾، فيه إبطال

أن يكون لتلك الآلهة- بأنواعها- إضـرار أو نفع؛ ومعنى قوله عز وجل: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾؛ أي: لا يسـتطيعون ذلك، كما إنه: إن أرادني الله جل وعلا برحمة، فهل تسـتطيع هذه الآلهة أن تدفع رحمة الله تعالى؟!، الجواب: أنها لا تسـتطيع أيضـًا، فبطل إذاً أن يكون ثَمَّ تعلق بتلك الآلهة التي يُظَنّ أن لها مقامات عند الله جل وعلا موجبة لشفاعتها.

وقوله: ﴿كَٰشِفَٰتُ﴾، يشمل الدفع والرفع؛ فهي – أي: هذه الآلهة – لا تكشف الضر بدفعه وإبعاده، ولا تكشفه برفعه وإزالته.

وقوله: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ يعم جميع أنواع الضرر؛ يعني: أن غير الله جل وعلا لا يستطيع أن يرفع ضراً – أيّ ضرٍّ- أنزله الله جل وعلا إلا بإذنه سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: كافيني؛ والحسب: الكفاية، فإن فيه تفويض الكفاية إلى الله دون الأسـباب الوهمية، وأما الأسـباب الحقيقية، فلا ينافي تعاطيها توكل العبد على الله تعالى وتفويض الأمر إليه، لأنها من عنده.

وقوله: ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾؛ المعنى: أن المتوكل حقيقةً هو المتوكل على الله تعالى، أما الذي يتوكل على الأصـنام والأولياء والأضـرحة، فليس بمتوكل على الله تعالى.

وهذا لا ينافي أن يوكل الإنسان إنسانـًا في شيء ويعتمد عليه؛ لأن هناك فرقـًا بين التوكل على الإنسان الذي يفعل لك شيئـًا بأمرك، وبين توكلك على الله تعالى؛ لأن توكلك على الله تعالى اعتقادك أن بيده النفع والضر، وأنك متذلل معتمد عليه، مفتقر إليه، مفوض أمرك إليه. فهذه الأصـنام لا تنفع أصحابها لا بجلب نفع ولا بدفع ضر، فليسـت أسـبابـًا لذلك، فيقاس عليها كل ما ليس بسـبب شـرعي أو قدري، فيعتبر اتخاذه سببـًا إشراكـًا بالله تعالى.

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الجُهَنِيِّ ﷺ، أَنَّ رَسُوْلَ الله ﷺ أَقْبَلَ إِلَيْهِ رَهْطٌ، فَبَايَعَ تِسْعَةً، وَأَمْسَكَ عَنْ وَاحِدٍ؛ فَقَالُوا: يَا رَسُوْلَ الله، بَايَعْتَ تِسْعَةً وَتَرَكْتَ هَذَا؟ قَالَ ﷺ: «إِنَّ عَلَيْهِ تَمِيْمَةً»، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فَقَطَعَهَا، فَبَايَعَهُ، وَقَالَ ﷺ: «مَنْ عَلَّقَ تَمِيْمَةً؛ فَقَدْ أَشْرَكَ»[(١)].

---

(١) رواه أحمد(٤/ ١٥٦)، وصححه الألباني؛ انظر «سلسلة الأحاديث الصحيحة» برقم (٤٩٢).

«**عقبة بن عامر الجهني**» صحابي مشهور، فقيه فاضل، ولي إمارة مصر لمعاوية ثلاث سنين ومات قريباً من الستين.

وقوله: «**علق**» وفي لفظ: «تعلق»؛ يعني: أنه علق وتعلق قلبه بما علق، ولفظ «تعلق» يشمل التعليق وتعلق القلب بما علق فهو نوع لبس؛ والمعنى: أنه تعلق قلبه بما لبس، سواء كان المعلق في صدره أو يده أو في أي موضع آخر، فالمقصود أن يكون قلبه معلقاً بما تعلقه.

وقوله: «**عليه تميمة**» التميمة هي نوع خرزات وأشياء توضع على صدور الصغار غالباً، وقد يضعها الكبار لأجل دفع العين أو دفع الضرر أو الحسد أو أثر الشياطين ونحو ذلك.

وقوله: «**من علق تميمة فقد أشرك**»؛ لأن تعليق التمائم والتعلق بها شرك أصغر، وقد يكون أكبر بحسب حال المعلق.

قال أبو السعادات: إنما جعلها شركاً؛ لأنهم أرادوا دفع المقادير المكتوبة عليهم، وطلبوا دفع الأذى من غير الله عز وجل الذي هو دافعه.

وَعَنْ عِيْسَى بْنِ عَبدِ الرحمن، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى عَبْدِالله بْنِ عُكَيْمٍ أَعُوْدُهُ، وَبِهِ حُمْرَةٌ، فَقُلْتُ: أَلَا تُعَلِّقُ شَيْئًا؟، قَالَ: المَوْتُ أَقْرَبُ مِنْ ذَلِكَ؛ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ»[1].

«**عيسى بن عبد الرحمن**»، ابن أبي ليلى الأنصاري الكوفي، تابعي ثقة.

و«**عبد الله بن عُكَيم**»، أبو معبد الجهني الكوفي اختلف في صحبته؛ وقيل: إنه مخضرم، والراجح أن له صحبة، توفي في إمرة الحجاج.

وقوله: «**وبه**»؛ أي: بعبد الله بن عكيم.

وقوله: «**حمرة**»؛ أي: يظهر عليه المرض والتعب، مما يعلو الوجه والجسد الحمرة.

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٣١٠، ٣١١)، والترمذي برقم (٢٠٧٢)، وحسنه الألباني؛ انظر «غاية المرام تخريج أحاديث الحلال والحرام» برقم(٢٩٧).

وقوله: «**ألا تعلق شيئاً**»؛ أي: يدعوه ليعلق على نفسه شيئاً من التعاويذ والتمائم وأشباهها.

وقوله: «**الموت أقرب من ذلك**»؛ لأنه نوع من الشرك؛ والمعنى: أن مَن علق شيئاً منها معتقداً أنها تجلب إليه نفعاً أو تدفع عنه ضراً، فالهلاك خير له من الوقوع في الشرك، ويدل على أنه يقدم الموت على الوقوع في الشرك.

وقد اختلف أهل العلم في تعليق التمائم التي من القرآن والسنة.

والقول الراجح أنه لا يجوز ذلك وهو قول ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما، وهو ظاهر قول حذيفة وعقبة بن عامر وابن عكيم رضي الله عنهم جميعاً، وبه قال جماعة من التابعين، منهم أصحاب ابن مسعود رضي الله عنه، وأحمد في رواية اختارها كثير من أصحابه، وجزم به المتأخرون، واحتجوا بهذا الحديث وما في معناه.

وقال بعض العلماء: هذا هو الصحيح لوجوه ثلاثة تظهر للمتأمل:

الأول: عموم النهي، ولا مخصص للعموم.

الثاني: سد الذريعة؛ فإنه يفضي إلى تعليق مَا ليس كذلك.

الثالث: أنه إذا علق فلا بد أن يمتهنه المعلق بحمله معه في حال قضاء الحاجة والاستنجاء ونحو ذلك.

«تنبيه»: ظهر في الأسواق في الآونة الأخيرة حلقة من النحاس يقولون: إنها تنفع من الروماتيزم، يزعمون أن الإنسان إذا وضعها على عضده وفيه روماتيزم نفعته من هذا الروماتيزم، ولا ندري هل هذا صحيح أم لا؟، لكن الأصل أنه ليس بصحيح؛ لأنه ليس عندنا دليل شرعي ولا حسي يدل على ذلك، وهي لا تؤثر على الجسم، فليس فيها مادة دهنية حتى نقول: إن الجسم يشرب هذه المادة وينتفع بها، فالأصل أنها ممنوعة حتى يثبت لنا بدليل صحيح صريح واضح أن لها اتصالاً مباشراً بهذا الروماتيزم حتى ينتفع بها.

***

المسألة (الثامنة):
فِي الرُّقَى وَالتَمَائِم

لقد جاء من النصوص في الكتاب والسنة، ما يدل على أن الرقى منها ما هو جائز مشروع، ومنها ما هو شرك ممنوع، والتمائم منها ما هو متفق عليه أنه شرك، ومنها ما قد اختلف الصحابة فيه.

وقوله: «**الرقى**»، جمع رقية؛ وهي معروفة، وقد كانت العرب تستعملها، وحقيقتها: أنها أدعية وألفاظ تقال أو تتلى ثم ينفث بها، ومنها ما له أثر عضوي في البدن، ومنها ما له أثر في الأرواح، ومنها ما هو جائز مشروع، ومنها ما هو شرك ممنوع، وثبت أنه ﷺ رَقى نفسه، ورَقى غيره، بل ثبت أنه رُقي أيضاً، رقاه جبريل عليه السلام، ورقته عائشة رضي الله عنها.

وقد رُخِّص في الرقى ما لم تكن شركاً؛ وهي الرقى التي خلت من الشرك، وقد سأل بعض الصحابة النبي ﷺ عن حكم الرقى؟، فقال ﷺ: «اعرضوا عليّ رقاكم؛ لا بأس بالرقى، ما لم يكن فيه شرك»[1].

وقد قال العلماء: الرقية تجوز بثلاثة شروط مجمع عليها:

الأول: أن تكون بالقرآن والسنة، أو بأسماء الله تعالى أو بصفاته.

الثاني: أن تكون بالكلام العربي؛ أي: بلسان عربي معلوم المعنى.

الثالث: ألا يعتقد أنها تنفع بنفسها بل بتقدير الله عز وجل.

وقوله: «**التمائم**»، جمع تميمة: وهي تجمع أنواعاً كثيرة؛ فالتمائم تجمع كل ما يعلق أو يتخذ مما يراد منه تتميم أمر الخير للعبد أو دفع الضرر عنه، ويعتقد فيه أنه سبب ولم يجعل الله جل وعلا ذلك الشيء سبباً لا شرعاً ولا قدراً، فالتميمة إذاً شيء يتخذ من جلد أو ورق ويكون فيه أذكار وأدعية وتعوذات تعلق على الصدر أو في العضد، وقد تتخذ التميمة من خرزات وحبال... ونحو ذلك، يعلق على الصدر، وقد تكون التميمة باتخاذ شيء يجعل على باب البيت أو في السيارة أو أي مكان ما.

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٢٠٠).

تنبيه: يقول بعض الناس: إنما أعلق هذه الأشياء للزينة ولا أستحضر هذه المعاني المحظورة...، فنقول: إن تعليق التمائم لدفع الضرر واعتقد أنها سبب شرك أصغر، وإن تعليقها للزينة فهو محرم؛ لأجل مشابهة من يشرك الشرك الأصغر، وقد قال ﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم»[1].

عَنْ أَبِي بَشِيْرٍ الأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه، أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُوْلِ الله ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَأَرْسَلَ رَسُوْلاً: «أَنْ لاَ يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيْرٍ قِلَادَةٌ مِنْ وَتَرٍ - أَوْ قِلَادَةٌ- إِلاَّ قُطِعَتْ»[2].

«**أبو بشير الأنصاري**» قيل: اسمه قيس بن عبيد، وقال ابن عبد البر: لا يوقف له على اسم صحيح، وهو صحابي شهد الخندق، ومات بعد الستين، ويقال: إنه جاوز المئة.

وقوله: «**في بعض أسفاره**» قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: لم أقف على تعيينه؛ والسفر: مفارقة محل الإقامة؛ وسمي سفراً لأمرين: الأول: حسي؛ وهو أنه يسفر ويظهر عن بلده لخروجه من البنيان، والثاني: معنوي؛ وهو أن يُسفر عن أخلاق الرجال؛ أي: يكشف عنها، وكثير من الناس لا تعرف أخلاقهم وعاداتهم وطبائعهم إلا بالأسفار.

وقوله: «**فأرسل رسولاً**»، قيل: هو زيد بن حارثة رضي الله عنه.

وقوله: «**قلادة من وتر، أو قلادة**»، شك من الراوي، والأولى أرجح؛ لأن القلائد كانت تتخذ من الأوتار، ويعتقدون أن ذلك يدفع العين عن البعير، وهذا اعتقاد فاسد، ولهذا أمر النبي ﷺ أن نقطع هذه القلائد.

وقوله: «**وتر**»؛ هو سلك من العصب يؤخذ من الشاة.

وأما إذا كانت هذه القلادة من غير وتر، وإنما تستعمل للقيادة كالزمام، فهذا لا بأس به لعدم الاعتقاد الفاسد، وكان الناس يعملون ذلك كثيراً من الصوف أو غيره.

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٥٠)، وأبو داود برقم (٤٠٣١)، وصححه الألباني؛ انظر «صحيح الجامع» برقم (٢٨٣١).

(٢) رواه البخاري برقم(٣٠٠٥)، ومسلم برقم (٢١١٥).

وقوله: «**في رقبة بعير**»، ذكر البعير؛ لأن هذا هو الذي كان منتشــراً حينذاك، فهذا القيد بناء على الواقع عندهم، فيكون كالتمثيل، وليس بمخصص.

وجه الاســتدلال بهذا الحديث أن تعليق القلادة من الوتر على البعير أو أيّ دابة ومركب مأمور بقطعه، والأمر بقطعه؛ لأجل أن العرب تعتقد أنها تدفع العين عن الأبعرة والنِّعم، فيعلقون عليها الأوتار على شكل قلائد، وربما ناطوا بالأوتار أشياء من خرز أو من شعر أو نحو ذلك لدفع العين، فهذا نوع من أنواع التمائم.

وقَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ»[1].

للحديث قصــة؛ وهي أن زينب امرأة عبد الله بن مســعود رضي الله عنها قالت: إن عبد الله رأى في عنقي خيطًا، فقال: ما هذا؟، قلت: خيط رقي لي فيه، قالت: فأخذه ثم قطعه، ثم قال: أنتم آل عبد الله لأغنياء عن الشرك؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرقى والتمائم والتولة شــرك»، فقلت: لقد كانت عيني تقذف، وكنت أختلف إلى فلان اليهودي، فإذا رقى سكنت؟!، فقال عبد الله: إنما ذلك عمل الشيطان، كان ينخسها بيده، فإذا رقاها كف عنها، إنما كان يكفيك أن تقولي كما كان رسـول الله ﷺ يقول: «أذهب البأس، رب الناس، واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقمًا».

فهذا الحديث تضــمَّن تأكيداً؛ لأن دخول «**إن**» على الجملة الخبرية بعدها يفيد تأكيد ما تضمنته.

وقوله: «**الرقى**» لما دخلت عليها الألف واللام أفادت العموم، أن كل الرقى من الشرك، وأن كل التمائم من الشرك، وأن كل التولة من الشرك، فتكون هذه الأنواع كلها من الشــرك، وهذا العموم خص الدليل منه الرقى وحدها، وهو قوله: «لا بأس بالرقى ما لم تكن شركًا»، وبأن النبي ﷺ رَقَى ورُقِيَ.

وقوله: «**التمائم**» فلم يخص الدليل بالجواز منها نوعًا دون نوع فتكون التمائم بكل أنواعها شركًا لعدم ورود ما يخصص بعضها، إذ لم يُستثن شيء منها، والأصل بقاء العام على عمومه، والتخصيص يكون بالشرع، ولم يرد هنا، فيبقى على الأصل.

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣٨١)، وأبو داود برقم (٣٨٨٣)، وابن ماجه برقم (٣٥٣٠)، وصــححه الألباني؛ انظر «سلسلة الأحاديث الصحيحة» برقم (٣٣١).

وقوله: «**التولة**»، شيء يعلقونه على الزوج، يزعمون أنه يحبب الزوجة إلى زوجها والزوج إلى امرأته، وهذا شرك؛ لأنه ليس بسبب شرعي ولا قدري لإيجاد المحبة.

وقوله: «**شرك**»، هل هي شرك أصغر أو أكبر؟؛ هي بحسب ما يريد الإنسان منها إن اتخذها معتقداً أن المسبب للمحبة هو الله تعالى، فهي شرك أصغر، وإن اعتقد أنها تفعل بنفسها، فهي شرك أكبر.

وَعَنْ رُوَيْفِعٍ ﷺ قَالَ: قَالَ لِي رَسُوْلُ الله ﷺ: «يَا رُوَيْفِعُ! لَعَلَّ الحَيَاةَ سَتَطُوْلُ بِكَ بَعْدِي، فَأَخْبِرِ النَّاسَ أَنَّ مَنْ عَقَدَ لِحْيَتَهُ، أَوْ تَقَلَّدَ وَتَرَاً، أَوِ اسْتَنْجَى بِرَجِيْعِ دَابَّةٍ أَوْ عَظْمٍ، فَإِنَّ مُحَمَّدَاً مِنْهُ بَرِيْءٌ»[1].

«**رويفع**» هو ابن ثابت بن السكن الأنصاري ﷺ، صحابي جليل.

وقوله: «**لعل الحياة ستطول بك**» فيه علم من أعلام النبوة؛ فإن رويفعاً طالت حياته إلى سنة ست وخمسين فمات ببرقة من أعمال مصر أميراً عليها، وهو من الأنصار، وقيل: مات سنة ثلاث وخمسين.

وقوله: «**فأخبر الناس**» دليل على وجوب إخبار الناس، وليس هذا مختصاً برويفع ﷺ، بل كل من كان عنده علم ليس عند غيره مما يحتاج إليه الناس وجب إعلامهم به، فإن اشترك هو وغيره في علم ذلك فالتبليغ فرض كفاية.

وقوله: «**من عقد لحيته**»، اللحية عند العرب كانت لا تقص ولا تحلق، كما أن ذلك هو السنة، لكنهم كانوا يعقدون لحاهم لأسباب؛ منها: الافتخار والعظمة؛ فتجد أحدهم يعقد أطرافها، أو يعقدها من الوسط عقدة واحدة ليعلم أنه رجل عظيم، وأنه سيد في قومه، ومنها ما يكون خوفاً من العين؛ لأنها إذا كانت حسنة وجميلة ثم عقدت أصبحت قبيحة.

وقوله: «**أو تقلد وتراً**»؛ الوتر: سلك من العصب يؤخذ من الشاة، وتتخذ للقوس وتراً، ويستعملونها في أعناق إبلهم أو خيلهم، أو في أعناقهم، يزعمون أنه يمنع العين، وهذا من الشرك.

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٠٨-١٠٩)، وأبو داود برقم(٣٦)، والنسائي(٨/ ١٣٥-١٣٦)، وصححه الألباني؛ انظر «صحيح الجامع» برقم(٧٩١٠).

وقوله: «**أو استنجى برجيع دابة**»؛ الاستنجاء: مأخوذ من النجو؛ وهو إزالة أثر الخارج من السبيلين؛ لأن الإنسان الذي يتمسح بعد الخلاء يزيل أثره.

ورجيع الدابة: هو روثها.

وقوله: «**أو عظم**»؛ العظم معروف، وإنما تبرأ النبي ﷺ ممن استنجى بهما؛ لأن الروث علف بهائم الجن والعظم طعامهم.

وعن النبي ﷺ قال: «لا تستنجوا بالروث ولا العظام؛ فإنه زاد إخوانكم من الجن»[1].

وقوله: «**فإن محمداً بريء منه**» هذا من الألفاظ التي تدل على أن هذا الفعل من الكبائر؛ لأن مما يستدل به على كون الفعل أو القول من الكبائر؛ أن يتبرأ النبي ﷺ منه؛ لأن ذلك يدل على عظم المعصية، وأن الشرك الأصغر من الكبائر، كما أن الشرك الأكبر من الكبائر، والكبائر العملية -التي ليس معها اعتقاد- كالزنا، والسرقة، وشرب الخمر؛ هي من حيث جنس المحرم والكبيرة، أقل مرتبة من الشرك الأصغر فضلاً عن الشرك الأكبر.

وقد جاء عن إبراهيم النخعي رَحِمَهُ اللَّهُ، أنه قال: كانوا يكرهون التمائم كلها، من القرآن وغير القرآن[2].

إبراهيم النخعي؛ هو ابن يزيد النخعي الكوفي، ثقة من كبار التابعين الفقهاء، هو تلميذ ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو عالم أهل الكوفة بعد ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مات سنة ست وتسعين، وله خمسون سنة أو نحوها.

ومراده بكانوا يكرهون؛ أي: أصحاب عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كعلقمة، والأسود، وأبي وائل، والحارث بن سويد، وعبيد السلماني، ومسروق، والربيع بن خثيم، وسويد بن غفلة... وغيرهم، وهم من سادات التابعين رحمهم الله تعالى جميعًا.

***

(١) رواه مسلم برقم (٤٥٠) (١٥٠)، والترمذي برقم (٣٢٥٨).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» برقم (٣٥١٨).

المسألة (التاسعة):
فِيْمَنْ تَبَرَّكَ بِشَجَرَةٍ أَوْ حَجَرٍ وَنَحْوِهِمَا

قوله: «**من تبرك**» التبرك هو طلب البركة؛ ومعنى البركة؛ كثرة الشيء الذي فيه الخير وثباته ولزومه، فالتبرك هو طلب الخير الكثير، وطلب ثباته، وطلب لزومه.

وطلب البركة المشروعة لا يخلو من أمرين:

الأول: أن يكون التبرك بأمر شرعي معلوم؛ مثل القرآن، قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ [ص: ٢٩]، فمن بركته أن من أخذ به حصل له الفتح، ومن بركته أن الحرف الواحد بعشر حسنات، إلى غير ذلك من بركاته الكثيرة.

الثاني: أن يكون بأمر حسي معلوم؛ مثل: التعليم، والدعاء، ونحوه؛ فهذا الرجل يتبرك بعمله ودعوته إلى الخير، فيكون هذا بركة؛ لأننا نِلْنَا منه خيراً كثيراً.

والنصوص في القرآن والسنة دلت على أن البركة من الله جل وعلا، وأن الله جل وعلا هو الذي يبارك، وأنه لا أحد من الخلق يبارك أحداً، قال الله سبحانه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]، وقال الله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، وقال الله سبحانه: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ [الصافات: ١١٣]، وقال الله عز وجل: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا﴾ [مريم: ٣١].

وقد دلت النصوص في الكتاب والسنة على أن الأشياء التي أحل الله جل وعلا البركة فيها، قد تكون أمكنة أو أزمنة، وقد تكون مخلوقات آدمية، فهذان قسمان:

القسم الأول: أن الله تعالى بارك بعض الأماكن كبيت الله الحرام، وبيت المقدس وما حوله، كما قال الله سبحانه: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١]؛ ومعنى كون الأرض مباركة، أن يكون فيها الخير الكثير اللازم الدائم لها، ليكون ذلك أشجع في أن يلازمها أهلها الذين دعوا إليها، وهذا لا يعني أبداً أن يتمسح بأرضها أو أن يتمسح

بحيطانها؛ لأن بركتها لازمة لا تنتقل بالذات.

وبارك بعض الأزمنة كشهر رمضان، وعشر ذي الحجة.... وغيرها ففيها الأجور تتضاعف.

القسم الثاني: البركة المنوطة ببني آدم، وهي البركة التي جعلها الله عز وجل في المؤمنين من الناس، وعلى رأسهم؛ سادة المؤمنين من الأنبياء والرسل، فهؤلاء بركتهم بركة ذاتية؛ يعني أن أجسامهم مباركة؛ بمعنى أنه لو تبرك أحد من أقوامهم بأجسادهم، إما بالتمسح بها، أو بأخذ عرقها، أو بالتبرك ببعض أشعارهم، فهذا جائز؛ لأن الله جل جلاله جعل أجسادهم مباركة بركة متعدية، ونبينا ﷺ جسده مبارك، ولهذا ورد في السنة أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتبركون بعرقه، ويتبركون بشعره، وإذا توضأ اقتتلوا على وضوءه، إلى آخر ما ورد في ذلك، وهذا مخصوص بالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، أما غيرهم فلم يرد دليل على أن من أصحاب الأنبياء من بركتهم بركة ذاتية حتى أفضل هذه الأمة أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فقد جاء بالتواتر القطعي أن الصحابة والتابعين والمخضرمين لم يكونوا يتبركون بأبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، كما كانوا يتبركون بشعر النبي ﷺ أو بوضوئه أو بنخامته أو بعرقه أو بملابسه ونحو ذلك.

فعلمنا بهذا التواتر القطعي أن بركة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما إنما هي بركة عمل ليست بركة ذات تنتقل كما هي بركة النبي ﷺ.

فكل مسلم فيه بركة، وهذه البركة ليست بركة ذات، وإنما هي بركة عمل، وبركة ما معه من الإسلام والإيمان، وما في قلبه من الإيقان والتعظيم لله جل وعلا والإجلال له، والاتباع لرسوله ﷺ، فهذه البركة التي في العلم أو العمل أو الصلاح لا تنتقل من شخص إلى آخر؛ وعليه فيكون معنى التبرك بأهل الصلاح، هو الاقتداء بهم في صلاحهم؛ والتبرك بأهل العلم هو الأخذ من علمهم والاستفادة منه وهكذا.

ولا يجوز أن يتبرك بهم بمعنى يتمسح بهم أو يتبرك بريقهم؛ لأن أفضل الخلق من هذه الأمة وهم الصحابة رضي الله عنهم لم يفعلوا ذلك مع خير هذه الأمة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، وهذا أمر مقطوع به.

وهناك بركات موهومة باطلة؛ مثل ما يزعمه الدجالون: أن فلانًا الميت الذي

يزعمون أنه ولي، أنزل عليكم من بركته، وما أشبه ذلك، فهذه بركة باطلة، لا أثر لها.

وتبرك المشركين بالتوجه إلى الآلهة، وهذه الآلهة يكون منها الصنم الذي من الحجارة، والقبر من التراب ويكون منها الوثن، والشجر، ويكون منها البقاع المختلفة كالغار أوعين ماء أو نحو ذلك، فهذه التبركات المختلفة جميعها تبركات شركية.

قوله: «**بشجرة أو حجر**»؛ ذلك لأن المشركين كانوا يتبركون ببعض الأشجار والأحجار.

وقوله: «**ونحوهما**» يعني نحو الشجرة والحجر؛ مثل البقاع المختلفة أو غار معين أو قبر أو عين ماء أو نحو ذلك من الأشياء التي يعتقد فيها أهل الجهالة.

وحكم التبرك بالشجر أو بالحجر أو بالقبر أو ببقاع مختلفة قد يكون شركًا أكبر، وقد يكون شركًا أصغر؛ فيكون شركًا أكبر: إذا طلب بركتها معتقداً أنه بتمسحه بهذا الشجر أو الحجر أو القبر أو تمرغه عليه أو التصاقه به يتوسط له عند الله تعالى، فإذا اعتقد فيه أنه وسيلة إلى الله تعالى، فهذا اتخاذ إله مع الله جل وعلا وشرك أكبر، وهذا هو الذي كان يعتقده أهل الجاهلية بالأشجار والأحجار التي يعبدونها، وقد قال الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

ويكون التبرك شركًا أصغر إذا كان يتخذ هذا التبرك بنثر التراب عليه، أو إلصاق الجسم به، أو التبرك بعين ونحوها، أسبابًا لحصول البركة بدون اعتقاد أنها توصل وتقرب إلى الله يعني: أنه جعلها أسبابًا فقط.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ اللَّٰتَ وَالْعُزَّىٰ ۞ وَمَنَوٰةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰٓ ۞ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۞ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۞ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩-٢٣].

قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ اللَّٰتَ وَالْعُزَّىٰ﴾، لما ذكر الله عز وجل المعراج بقوله: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا

هَوَىٰ * مَاضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَاغَوَىٰ ﴾ [النجم: ١-٢]، قال الله سبحانه: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ [النجم: ١٨]؛ أي رأى النبي ﷺ من آيات الله تعالى الكبرى.

قال الأعمش رَحِمَهُ اللهُ: سموا اللات من الإله، والعزى من العزيز.

وقال ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ: وكانوا قد اشتقوا اسمها من الله تعالى، قالوا: اللات مؤنثة منه، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، قال: وكذا العزى من العزيز.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: اللات كانت صخرة بيضاء منقوشة عليها بيت الطائف له أستار وسدنة وحوله فناء معظم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تبعها.

وقال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: إنه كان رجلاً يَلِتُ - أي: يَبِلُّ، أو يَفُتُّ ويَسْحَقُ- السويق بالسمن عند صخرة، للمشركين الحاجِّين، فلما مات ذلك الرجل عبدت ثقيف تلك الصخرة إعظاماً لصاحب السويق.

ونقل عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنه قال: إنه لما مات دفنوه وعبدوا قبره.

ولا منافاة بين القولين؛ فإنهم عبدوا الصخرة والقبر - الذي لعله كان عندها - تأليهاً وتعظيماً.

وأما العزى؛ فقال ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ: كانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة، بين مكة والطائف، كانت قريش يعظمونها؛ كما قال أبو سفيان يوم أحد: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال رسول الله ﷺ «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم»[1].

وعن أبي الطفيل قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة - وكانت بها العزى، وكانت على ثلاث سمرات - فقطع السمرات، وهدم البيت الذي كان عليها، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره، فقال ﷺ: «ارجع فإنك لم تصنع شيئاً»، فرجع خالد، فلما أبصرته السدنة أمعنوا في الجبل وهم يقولون: يا عزى يا عزى، فأتاها خالد فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحفن التراب على رأسها فعممها بالسيف فقتلها ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال ﷺ: «تلك العزى»[2].

وقوله: ﴿ وَمَنَوٰةَ ﴾؛ مناة: كانت بالمشلل عند قُديد، بين مكة والمدينة، وكانت

---

(١) رواه البخاري برقم (٤٠٤٣).

(٢) النسائي في «الكبرى»، كما في «تحفة الأشراف» (٤/ ٢٣٥)، وإسناده حسن.

خزاعة والأوس والخزرج يعظمونها ويهلون منها للحج.

وأصل اشتقاقها: من اسم الله المنان، وقيل: لكثرة ما يمنى – أي: يراق – عندها من الدماء للتبرك بها.

وقال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنها صنم بين مكة والمدينة.

وقال ابن هشام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فبعث رسول الله ﷺ علياً فهدمها عام الفتح.

فمعنى الآية كما قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن فيها حذفاً تقديره: أفرأيتم هذه الآلهة، أنفعت أو ضرت، حتى تكون شركاء لله تعالى؟.

وقوله: ﴿ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾، إشارة إلى أن التي تعظمونها، وتذبحون عندها، وتكثر إراقة الدماء حولها: أنها أخرى بمعنى متأخرة؛ أي: ذميمة حقيرة.

فهذه الأصنام الثلاثة المعبودة عند العرب إنما ذكرت؛ لأنها أشهر الأصنام وأعظمها عند العرب.

وقوله: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾، هذا أيضاً استفهام إنكاري على المشركين الذين يجعلون لله البنات ولهم البنين، فإذا ولد لهم الذكر فرحوا واستبشروا به، وإذا ولدت الأنثى ظل وجه الإنسان منهم مسوداً، وهو كظيم، ومع ذلك يقولون: الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى، فيجعلون البنات لله – والعياذ بالله – ولهم ما يشتهون.

وقوله: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾؛ ضيزى: باطلة جائرة؛ لأنه على الأقل إذا أردتم القسمة، فاجعلوا لكم من البنات نصيباً، واجعلوا لله من البنين نصيباً، أما أن تجعلوا ما تختارونه لأنفسكم؛ وهم البنون، وتجعلون ما تكرهون لله تعالى، فهذه قسمة جائرة باطلة.

وقوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾، الضمير في ﴿هِىَ﴾ يعود إلى الأصنام؛ أي: هذه الأصنام «اللات، والعزى، ومناة» التي سميتموها آلهة واتخذتموها آلهة تعبدونها، هي مجرد ﴿أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾، ولكن ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾؛ أي: من حجة ودليل.

وقوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾، ﴿إِن﴾ هنا بمعنى «ما»؛ أي: ما يتبعون إلا الظن؛ والظن الذين يتبعونه هو أنها آلهة، وأن لله البنات ولهم البنون، والظن لا يغني من الحق شيئًا، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٣٦].

وقوله: ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾، كذلك أيضًا يتبعون ما تهوى الأنفس، وهذا أضر شيء على الإنسان أن يتبع ما يهوى، فالإنسان الذي يعبد الله تعالى بالهوى، فإنه لا يعبد الله حقًا، إنما يعبد عقله وهواه، قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣]، لكن الذي يعبد الله بالهدى لا بالهوى هو الذي على الحق.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾؛ أي: على يد النبي ﷺ، فكان الأجدر بهم أن يتبعوا الهدى دون الهوى.

وفيها دليل على أنهم كانوا يعتقدون أن هذه الأصنام تنفعهم وتضرهم، ولهذا يأتون إليها، يدعونها، ويذبحون لها، ويتقربون إليها، ويتبركون بها.

وما كان يفعله المشركون عندها هو عين ما يفعله المشركون في الأزمنة المتأخرة عند بعض الأحجار والأشجار والقبور...، فوجب التحذير من هذه الأفعال.

وَعَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُوْلِ الله ﷺ إِلَى حُنَيْنٍ وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَلِلْمُشْرِكِيْنَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُوْنَ عِنْدَهَا، وَيَنُوْطُوْنَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ، فَقُلْنَا: يَا رَسُوْلَ الله، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتَ أَنْوَاطٍ، فَقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «الله أَكْبَرُ! إِنَّهَا السُّنَنُ، قُلْتُمْ - وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ - كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيْلَ لِمُوْسَى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»[1].

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٢١٨)، والترمذي برقم (٢١٨٠)، وقال: حسن صحيح، وحسنه الألباني؛

«**أبو واقد االليثي**» اسمه الحارث بن عوف، وهو صحابي مشهور، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وقوله: «**خرجنا مع النبي ﷺ**»؛ أي: بعد غزوة الفتح؛ لأن النبي ﷺ لما فتح مكة تجمعت له ثقيف وهوازن بجمع عظيم كثير جداً، فقصدهم ﷺ ومعه اثنا عشر ألفًا؛ ألفان من أهل مكة، وعشرة آلاف جاء بهم من المدينة، فلما توجهوا بهذه الكثرة العظيمة، قالوا: لن نغلب اليوم من قلة، فأعجبوا بكثرتهم، ولكن بين الله عز وجل أن النصر من عنده سبحانه وليس بالكثرة؛ قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ❁ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ❁ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢٥-٢٧]، ثم لما انحدروا من وادي حنين وجدوا أن المشركين قد كمنوا في الوادي، فحصل ما حصل، وتفرق المسلمون عن رسول الله ﷺ، ولم يبق معه إلا نحو مئة رجل، وفي آخر الأمر كان النصر للنبي ﷺ، والحمد لله تعالى.

وقوله: «**حدثاء**»، جمع حديث؛ أي: أننا قريبوا عهد بكفر، وإنما ذكر ذلك - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - للاعتذار لطلبهم وسؤالهم، ولو وقر الإيمان في قلوبهم لم يسألوا هذا السؤال.

وقوله: «**يعكفون عندها**»؛ أي: يقيمون عليها؛ والعكوف: ملازمة الشيء، وكان عكوف المشركين عند تلك السدرة تبركًا بها وتعظيمًا لها.

وقوله: «**ينوطون بها أسلحتهم**»؛ أي: يعلقونها عليها للبركة.

وقوله: «**يقال: لها ذات أنواط**»؛ أي: أنها تلقب بهذا اللقب؛ لأنه تناط فيها الأسلحة، وتعلق عليها رجاء بركتها.

فبعض الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ قالوا للنبي ﷺ: «**اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط**»؛ أي: سدرة نعلق أسلحتنا عليها تبركًا بها؛ ظنوا أن هذا أمر محبوب عند الله عز وجل وقصدوا التقرب به، وإلا فهم أجل قدراً من أن يقصدوا مخالفة النبي ﷺ.

انظر «ظلال الجنة في تخريج السنة» برقم (٧٦).

وقوله: «**الله أكبر**»، وفي رواية: «سبحان الله»؛ والمراد: تعظيم الله تعالى وتنزيهه عن هذا الشرك بأي نوع كان، مما لا يجوز أن يطلب أو يقصد به غير الله سبحانه، وكان النبي ﷺ يستعمل التكبير والتسبيح في حال التعجب تعظيماً لله تعالى وتنزيهاً له، إذا سمع من أحد ما لا يليق بالله جل جلاله، مما فيه شرك في الربوبية أو الإلهية.

وقوله: «**إنها السُّنن**»؛ أي: الطرق التي يسلكها العباد.

وقوله: «**قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾**»؛ أي: إن الرسول ﷺ قاس ما قاله هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم على ما قاله بنو إسرائيل لموسى عليه السلام.

وقوله: «**والذي نفسي بيده**» المراد: أن نفسه بيد الله تعالى، لا من جهة إماتتها وإحيائها فحسب، بل من جهة تدبيرها وتصريفها أيضاً، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها - سبحانه وتعالى -.

وقوله: «**لتركبُن سنن من كان قبلكم**»؛ بفتح السين، وفي رواية: بضمها؛ أي: طرقهم ومناهجهم.

وفيه علم من أعلام النبوة من حيث إنه وقع كما أخبر به ﷺ.

وفيه: النهي عن التشبه بأهل الجاهلية وأهل الكتاب فيما كانوا يفعلونه، إلا ما دل الدليل على أنه من شريعة النبي ﷺ.

***

المسألة (العاشرة):
فِي أنَّ مِنَ الشِّرْكِ الذَّبْحُ لِغَيْرِ الله تعالى

قوله: «**الذبح**»، الذبح هو إراقة الدم؛ وصفته: فري الأوداج وقطع الحلقوم والمريء.

وقوله: «**لغير الله تعالى**»؛ يعني: متقرباً به إلى غير الله تعالى؛ أي: ذبح لأجل غير الله تعالى.

قَاَلَ الله تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

قوله: ﴿**قُلْ**﴾؛ الخطاب للنبي ﷺ؛ أي: قل لهؤلاء المشركين معلناً لهم قيامك بالتوحيد الخالص.

وقوله: ﴿**إِنَّ صَلَاتِي**﴾؛ الصلاة في اللغة: الدعاء، وفي الشرع: عبادة لله جل وعلا ذات أقوال وأفعال معلومة، مفتتحة بالتكبير، مختتمة بالتسليم.

وقوله: ﴿**وَنُسُكِي**﴾؛ النسك لغة: العبادة، وفي الشرع: ذبح القربان،وهو المراد هنا؛ ومعناه: التقرب بالدم، والتقرب بالدم لله جل وعلا عبادة عظيمة؛ لأن الذبائح أو المنحورات من الإبل، أو البقر، أو الغنم أو الضأن، مما تعظم في نفوس أهلها، ونحرها تقرباً إلى الله جل وعلا، والصدقة بها عبادة عظيمة فيها إراقة الدم لله تعالى، وفيها تعلق القلب بحسن الثواب من الله جل وعلا، وفيها حسن الظن بالله تبارك وتعالى، وفيها التخلص من الشح، والرغبة فيما عند الله سبحانه بإزهاق نفس عزيزة عند أهلها، ولهذا كان النحر والذبح عبادة من العبادات العظيمة التي يحبها الله جل وعلا.

وقوله: ﴿**لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾؛ الرب هنا: المالك المتصرف، وهذه ربوبية مطلقة، و﴿**الْعَالَمِينَ**﴾؛ ما سوى الله عز وجل، وسمي بذلك؛ لأنه علم على خالقه؛ وهي تطلق على العالمين بهذا المعنى، وتطلق على العالمين في وقت معين، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧]؛ يعني: عالمي زمانهم.

وقوله: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾؛ أي: لا شريك له في عبادته، ولا في ربوبيته، ولا أسمائه وصفاته.

وقوله: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ﴾، فيكون دالاً على الحصر والتخصيص، وإنما خص بذلك؛ لأنه أعظم المأمورات، وهو الإخلاص لله تعالى ونفي الشرك، فكأنه ما أمر إلا بهذا، ومعلوم أن من أخلص لله تعالى، فسيقوم بعبادة الله سبحانه وتعالى في جميع الأمور.

وقوله: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾، يحتمل أن المراد الأولية الزمنية، فيتعين أن تكون أولية إضافية، ويكون المراد أنا أول المسلمين من هذه الأمة؛ لأنه سبقه في الزمن من أسلموا، ويحتمل أن المراد الأولية المعنوية، فإن أعظم الناس إسلامـًا وأتمهم انقياداً هو الرسول ﷺ، فتكون الأولية أولية مطلقة.

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾ [الكوثر: ٢].

قوله: ﴿فَصَلِّ﴾، الفاء للسببية عاطفة على قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾؛ أي: بسبب إعطائنا لك ذلك صلِّ لربك وانحر شكراً لله تعالى على هذه النعمة؛ والمراد بالصلاة هنا الصلاة المعروفة شرعـًا.

والكوثر هو نهر في الجنة، جعله الله تعالى كرامة لرسوله ﷺ ولأمته.

وقوله: ﴿وَٱنۡحَرۡ﴾؛ هو الطعن بالسكين في لبة الإبل؛ وهي التي فوق الترقوة وتحت الرقبة؛ أي: اجعل نحرك لله تعالى كما أن صلاتك له، وهذا يدل على أن النحر من العبادة ولهذا أمر الله عز وجل به وقرنه بالصلاة.

وقال رسول الله ﷺ: «لَعَنَ الله مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ الله، لَعَنَ الله مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، لَعَنَ الله مَنْ آوَى مُحْدِثـًا، لَعَنَ الله مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الأَرْضِ»[(١)].

قوله: «**لعن الله**»، اللعن من الله تعالى هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله سبحانه،

(١) رواه مسلم برقم (١٩٧٨).

فإذا قيل: لعنه الله؛ فالمعنى: طرده وأبعده عن رحمته، وإذا قيل: اللهم العن فلانًا؛ فالمعنى: أبعده عن رحمتك واطرده عنها.

قال أبو السعادات رَحِمَهُ اللَّهُ: أصل اللعن: الطرد والإبعاد من الله تعالى، ومن الخلق السب والدعاء.

وقوله: «**من ذبح لغير الله**»، يشمل كل من ذبح لغير الله تعالى حتى لو ذبح لنبي، أو ملك، أو جني، أو غيرهم.

وجاء عن سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «دخل الجنة رجل في ذباب، ودخل النار رجل في ذباب»، قالوا: وكيف ذلك؟! قال: «مر رجلان على قوم لهم صنم، لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئًا، فقالوا لأحدهما: قرب، قال: ليس عندي شيء، قالوا له: قرب ولو ذبابًا، فقرب ذبابًا، فخلوا سبيله، فدخل النار، وقالوا للآخر: قرب، فقال: ما كنت لأقرب لأحد شيئًا دون الله عز وجل، فضربوا عنقه فدخل الجنة»[(١)].

ودلَّ أن التقريب للصنم بالذبح كان سببًا لدخول النار، و دلَّ على أن الذبح لغير الله تعالى شرك أكبر؛ لأن ظاهر قوله: «دخل النار»؛ يعني: استوجبها مع من يخلد فيها.

وفيه وجه آخر للدلالة؛ وهو أنه إذا كان تقريب هذا الذي لا قيمة له -وهو الذباب- سببًا في دخول النار؛ فإنه يدل على أن من قرَّب ما هو أبلغ وأعظم منفعة عند أهله، أنه سبب أعظم لدخول النار.

استظهر بعض العلماء من قتلهم لأحد الرجلين، أن المعنى أنه: لا يجوزه حتى يقرب أو يقتل، وأن هذا علم بالسياق، فصار ذلك نوع إكراه؛ فلهذا استشكلوا كون هذا الأثر دالاً على أن من فعل هذا الفعل يدخل النار مع أنه مكره.

والجواب عن هذا الإشكال: أن هذا القول، وما فيه من عدم إعذار المكره ولو بالقتل كان في شرع من قبلنا، أما رفع الإكراه أو جواز قول كلمة الكفر، أو عمل الكفر مع اطمئنان القلب بالإيمان، فهذا خاص بهذه الأمة، هذا ما أجاب به بعض أهل العلم.

---

(١) رواه أحمد في كتاب «الزهد» (ص١٥،١٦)، وقال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: «الحديث صحيح موقوفًا على سلمان الفارسي رضي الله عنه؛ إلا أنه يظهر لي أنه من الإسرائيليات التي كان تلقاها عن أسياده حينما كان نصرانيًا»؛ انظر «سلسلة الأحاديث الضعيفة» برقم (٥٨٢٩) لزامًا؛ فإنه مهم جداً.

وقوله: «**من لعن والديه**»، «**والديه**» يشمل الأب والأم، ومن فوقهما، لأن الجد أب، و«**لعن**»؛ أي: سبهما وشتمهما، فاللعن من الإنسان السب والشتم، فإذا سببت إنسانًا أو شتمته، فهذا لعنه؛ لأن النبي ﷺ قيل له: كيف يلعن الرجل والديه؟، قال ﷺ: «يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه»(١).

وقوله: «**من آوى محدثًا**»؛ أي: ضمه إليه وحماه، والإحداث: يشمل الإحداث في الدين، والإحداث في الأمر؛ أي: في شؤون الأمة، كالجرائم وشبهها؛ فمن آوى محدثًا، فهو ملعون، وكذا من ناصرهم؛ لأن الإيواء أن تأويه لكف الأذى عنه، فمن ناصره، فهو أشد وأعظم، والمحدث أشد منه؛ لأنه إذا كان إيواؤه سببًا للعنة، فإن نفس فعله جرم أعظم.

ففيه التحذير من البدع والإحداث في الدين، قال النبي ﷺ: «إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة»(٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذه الكبيرة تختلف مراتبها باختلاف مراتب الحدث في نفسه، فكلما كان الحدث في نفسه أكبر كانت الكبيرة أعظم».

وقوله: «**منار الأرض**»؛ أي: علاماتها ومراسيمها التي تحدد بين الجيران، فمن غيرها ظلمًا، فهو ملعون، وما أكثر الذين يغيرون منار الأرض، لا سيما إذا زادت قيمتها، وما علموا أن الرسول ﷺ يقول: «من اقتطع شبراً من الأرض ظلمًا، طوقه من سبع أرضين»(٣).

فالأمر عظيم، مع أن هذا الذي يقتطع من الأرض ويغير المنار، ويأخذ ما لا يستحق، لا يدري، قد يستفيد منها في دنياه، وقد يموت قبل ذلك، وقد يسلط عليه آفة تأخذ ما أخذ.

فيه دليل على أن تغيير «**منار الأرض**» من كبائر الذنوب، ولهذا قرنه النبي ﷺ بالشرك وبالعقوق وبالإحداث، مما يدل على أن أمره عظيم، وأنه يجب على المرء أن يحذر منه، وأن يخاف الله سبحانه وتعالى حتى لا يقع فيه.

* * *

---

(١) رواه البخاري برقم (٥٩٧٣)، ومسلم برقم (٩٠).

(٢) رواه أبو داود برقم (٤٠٦٧)، وصححه الألباني؛ انظر «صحيح الجامع» برقم (٢٥٤٩).

(٣) رواه البخاري برقم (٢٤٥٢)، ومسلم برقم (١٦١٠).

المسألة (الحادية عشرة):
فِي أَنَّهُ لَا يُذبَحُ لله بِمَكَانٍ يُذْبَحُ فِيْهِ لِغَيْرِ الله

أي: ذكر الذبح لله تعالى، ولكنه في مكان يذبح فيه لغيره، كمن يريد أن يضحي لله تعالى في مكان يذبح فيه للأصنام، فلا يجوز أن تذبح فيه؛ لأنه موافقة للمشركين في ظاهر الحال، وربما أدخل الشيطان في قلبك نية سيئة، فتعتقد أن الذبح في هذا المكان أفضل، وما أشبه ذلك، وهذا خطر.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

قوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ﴾، ضمير الغيبة يعود إلى مسجد الضرار، حيث بني على نية فاسدة؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [التوبة: ١٠٧]، والمتخذون هم المنافقون، وغرضهم من ذلك، مضارة مسجد قباء؛ ولهذا يسمى مسجد الضرار.

والكفر بالله تعالى هنا؛ لأنه يقرر في مسجد الضرار الكفر - والعياذ بالله -؛ لأن الذين اتخذوه هم المنافقون.

ويريدون التفريق بين المؤمنين، فبدلاً من أن يصلى في مسجد قباء صف أو صفان يصلى فيه نصف صف، والباقون في المسجد الآخر.

وكونه إرضاءاً لمن حارب الله تعالى ورسوله ﷺ؛ يقال: إن رجلاً ذهب إلى الشام، وهو أبو عامر الفاسق، وكان بينه وبين المنافقين الذين اتخذوا المسجد مراسلات، فاتخذوا هذا المسجد بتوجيهات منه، فيجتمعون فيه لتقرير ما يريدونه من المكر والخديعة للرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، قال الله تعالى: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ

إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [التوبة: ١٠٧]، فهذه سنة المنافقين: الأيمان الكاذبة، ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٧]، فشهد الله تعالى على كذبهم؛ لأن ما يسرونه في قلوبهم، ولا يعلم ما في القلوب إلا علام الغيوب، فكأن هذا المضمر في قلوبهم بالنسبة إلى الله تعالى أمر مشهود يرى بالعين، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [المنافقون: ١].

وقوله: ﴿أَبَدًا ﴾ إشارة إلى أن هذا المسجد سيبقى مسجد نفاق.

وقوله: ﴿أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ ﴾؛ أي: جعلت التقوى أساساً له، فقام عليه.

قال المفسرون: إن الله تعالى نهى رسوله ﷺ عن الصلاة في مسجد الضرار، والأمة تبع له في ذلك، ثم إنه تعالى حثه على الصلاة في مسجد قباء الذي أسس من أول يوم بني على التقوى، وهي طاعة الله عز وجل ورسوله ﷺ، وجمعاً لكلمة المؤمنين ومعقلاً ومنزلاً للإسلام وأهله، ولهذا جاء أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة في مسجد قباء كعمرة»[1]، وأيضاً فإن رسول الله ﷺ كان يزور قباء راكباً وماشياً[2].

وقد صرح أن المسجد المذكور في الآية هو مسجد قباء جماعة من السلف، منهم ابن عباس، وعروة، وعطية، والشعبي، والحسن وغيرهم.

ويؤيده قوله تعالى في الآية: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ﴾.

وقيل: هو مسجد رسول الله ﷺ لحديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: تمارى رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم، فقال رجل: هو مسجد قباء، وقال الآخر: هو مسجد رسول الله ﷺ؛ فقال رسول الله ﷺ: «هو مسجدي هذا»[3]، وهو قول عمر وابنه وزيد بن ثابت وغيرهم.

قال ابن كثير رحمه الله: وهذا صحيح، ولا منافاة بين الآية والحديث؛ لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق

---

(١) رواه الترمذي برقم (٣٢٤)، وابن ماجه برقم (١٤١١)، وصححه الألباني؛ انظر «صحيح الجامع» برقم (٣٨٧٢).

(٢) رواه البخاري برقم (١١٩٤)، ومسلم برقم (١٣٩٩).

(٣) رواه الترمذي برقم (٣٠٩٩)، ورواه مسلم برقم (١٣٩٨)؛ بلفظ: «مسجدكم هذا».

الأولى، وهذا بخلاف مسجد الضرار الذي أسس على معصية الله، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾، فلهذه الأمور نهى الله تعالى نبيه عن القيام فيه للصلاة، وكان الذين بنوه جاءوا إلى النبي ﷺ قبل خروجه إلى غزوة تبوك فسألوه أن يصلي فيه، وأنهم إنما بنوه للضعفاء وأهل العلة في الليلة الشاتية، فقال ﷺ: «إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله»، فلما قفل ﷺ راجعـًا إلى المدينة، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعضه، نزل الوحي بخبر المسجد، فبعث إليه فهدمه قبل قدومه إلى المدينة.

وقوله: ﴿فِيهِ﴾؛ أي: في هذا المسجد المؤسس على التقوى.

وقوله: ﴿يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾، بخلاف من كان في مسجد الضرار، فإنهم رجس، كما قال الله تعالى في المنافقين: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ [التوبة: ٩٥].

وقوله: ﴿يَتَطَهَّرُواْ﴾، يشمل طهارة القلب من النفاق والحسد والغل وغير ذلك، وطهارة البدن من الأقذار والنجاسات والأحداث.

وقوله: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ فعن عويم بن ساعدة الأنصاري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ آتاهم في مسجد قباء، فقال ﷺ: «إن الله قد أحسن عليكم الثناء بالطهور في قصة مسجدكم، فما هذا الطهور الذي تطهرون به؟»، فقالوا: والله يا رسول الله، ما نعلم شيئـًا إلا أنه كان لنا جيران من اليهود، كانوا يغسلون أدبارهم من الغائط، فغسلنا كما غسلوا»[1].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾، هذه محبة حقيقية ثابتة لله عز وجل تليق بجلاله وعظمته، ولا تماثل محبة المخلوقين، وأهل التعطيل يقولون: المراد بالمحبة: الثواب أو إرادته، فيفسرونها إما بالفعل أو إرادته، وهذا خطأ.

---

(١) رواه أحمد (٣ / ٤٢٢)، والحاكم في «المستدرك» (١ / ١٥٥)، وابن خزيمة في «صحيحه» كما في «تفسير ابن كثير» (٢ / ٣٨٩)، وحسنه الألباني؛ انظر «الإرواء» (١/ ٨٥).

وقوله: ﴿ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ أصله المتطهرين؛ قال أبو العالية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن الطهور بالماء لحسن ولكنهم المتطهرون من الذنوب.

فدل على أن كل مكان يعصى الله عز وجل فيه أنه لا يقام فيه؛ فهذا المسجد متخذ للصلاة، لكنه محل معصية، فلا تقام فيه الصلاة، وكذا لو أراد إنسان أن يذبح في مكان يذبح فيه لغير الله تعالى كان حراماً، لأنه يشبه الصلاة في مسجد الضرار.

وقريب من هذا النهي عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها؛ لأنهما وقتان يسجد فيهما الكفار للشمس، فهذا باعتبار الزمن والوقت، والحديث هنا باعتبار المكان.

وَعَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: نَذَرَ رَجُلٌ أَنْ يَنْحَرَ إِبِلاً بِبُوَانَةَ، فَسَأَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «هَلْ كَانَ فِيْهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ»؟، قَالُوا: لَا، قَالَ ﷺ: «فَهَلْ كَانَ فِيْهَا عِيْدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ»؟، قَالُوا: لَا، فَقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «أَوْفِ بِنَذْرِكَ؛ فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ الله، وَلَا فِيْمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ»[(١)].

«**ثابت بن الضحاك**» هو ابن خليفة الأشهلي، أبو زيد المدني، صحابي مشهور، ولد سنة ثلاث من البعثة، ومات سنة خمس وأربعين.

وقوله: «**نذر**»؛ النذر في اللغة: الإلزام والعهد، واصطلاحاً: إلزام المكلف نفسه لله تعالى شيئاً غير واجب في الغالب؛ وقال بعض العلماء: لا نحتاج أن نقيد بغير واجب، وأنه إذا نذر الواجب صح النذر وصار المنذور واجباً من وجهين: من جهة النذر، ومن جهة الشرع، ويترتب على ذلك وجوب الكفارة إذا لم يحصل الوفاء.

والنذر في الأصل مكروه، بل إن بعض أهل العلم يميل إلى تحريمه؛ لأن النبي ﷺ نهى عنه، وقال ﷺ: «لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من البخيل»[(٢)]، ولأنه إلزام

---

(١) رواه أبو داود برقم (٣٣١٣)، وصححه الألباني؛ انظر «سلسلة الأحاديث الصحيحة» برقم (٢٨٧٢).

(٢) رواه البخاري برقم (٦٦٠٨)، ومسلم برقم (١٦٣٩) (٤).

لنفس الإنسان لما جعله الله تعالى في حل منه، وفي ذلك زيادة تكليف على نفسه، ولأن الغالب أن الذي ينذر يندم، وتجده يسأل العلماء يميناً وشمالاً يريد الخلاص مما نذر لثقله ومشقته عليه، ولا سيما ما يفعله بعض العامة إذا مرض، أو تأخر له حاجة يريدها، تجده ينذر كأنه يقول: إن الله تعالى لا ينعم عليه بجلب خير أو دفع الضرر إلا بهذا النذر.

وقوله: «**إبلاً**» اسم جمع لا واحد له من لفظه، لكن له واحد من معناه، وهو البعير.

وقوله: «**ببوانه**»؛ الباء بمعنى «في»، وهي للظرفية؛ والمعنى: بمكان يسمى بوانه؛ قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هو موضع في أسفل مكة دون يلملم.

وقال أبو السعادات رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هضبة من وراء ينبع.

وقوله: «**هل كان فيها وثن**»؛ الوثن: كل ما عبد من دون الله تعالى، من شجر، أو حجر، سواء نحت أو لم ينحت، والصنم يختص بما صنعه الآدمي على شكل معين.

وقوله: «**الجاهلية**»، نسبة إلى ما كان قبل الرسالة، وسميت بهذا، لأنهم كانوا على جهل عظيم.

فيه المنع من الوفاء بالنذر إذا كان في المكان وثن، ولو بعد زواله.

وقوله: «**عيد**»؛ العيد: اسم لما يعود أو يتكرر، والعود بمعنى الرجوع؛ أي: هل اعتاد أهل الجاهلية أن يأتوا إلى هذا المكان، ويتخذوا هذا اليوم عيداً، وإن لم يكن فيه وثن؟، «**قالوا: لا**».

فسأل النبي ﷺ عن أمرين: عن الشرك، ووسائله؛ فالشرك: «**هل كان فيها وثن؟**»، ووسائله: «**هل كان فيها عيد من أعيادهم؟**».

وقوله: «**أوف بنذرك**»، فعل أمر مبني على حذف حرف العلة الياء، والكسرة دليل عليها؛ أي: إذا ما ألزمت نفسك به.

وقوله: «**لا وفاء لنذر في معصية الله**»؛ أي: لا يمكن أن توفي بنذر في معصية الله تعالى، لأنه لا يتقرب إلى الله تعالى بمعصيته، وليست المعصية مباحة حتى يقال افعلها.

وقوله: «**ولا فيما لا يملك ابن آدم**» الذي لا يملكه ابن آدم يحتمل معنيين:

الأول: ما لا يملك فعله شرعـاً؛ كما لو قال: لله عليّ أن أعتق عبد فلان، فلا يصح لأنه لا يملك إعتاقه.

الثاني: ما لا يملك فعله قدراً؛ كما لو قال: لله عليّ نذر أن أطير بيدي، فهذا لا يصح، لأنه لا يملكه.

والفقهاء رحمهم الله تعالى يمثلون بمثل هذا للمستحيل.

تنبيه: سيأتي في المسألة التالية بعض أحكام النذر وما يتعلق به.

* * *

المسألة (الثانية عشرة):
فِي أَنَّ مِنَ الشِّرْكِ النَّذْرُ لِغَيْرِ الله تعالى

قوله: «**من الشرك**»؛ المقصود به هنا: الشرك الأكبر؛ لأن النذر عبادة، كما سيأتي بيانه، والعبادة لا يجوز أن تصرف لغير الله تعالى.

وقوله: «**النذر**»، النذر في اللغة: الإلزام والعهد، واصطلاحـًا: إلزام المكلف نفسه لله تعالى شيئـًا غير واجب في الغالب.

وقوله: «**لغير الله تعالى**»؛ مثل أن يقول: لفلان عليّ نذر، أو لهذا القبر عليّ نذر، أو لجبريل عليّ نذر، يريد بذلك التقرب إليهم،... وما أشبه ذلك.

واعلم أن أقسام النذر من حيث الوصف والحكم ستة:

الأول: ما يجب الوفاء به، وهو نذر الطاعة؛ لقوله ﷺ: «من نذر أن يطيع الله، فليطعه»[1].

الثاني: ما يحرم الوفاء به، وهو نذر المعصية؛ لقوله ﷺ: «ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»، وقوله ﷺ: «فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله»[2].

الثالث: ما يجري مجر اليمين؛ وهو نذر المباح، فيخير بين فعله وكفارة اليمين؛ مثل: لو نذر أن يلبس هذا الثوب، فإن شاء لبسه وإن شاء لم يلبسه، وكفر كفارة يمين.

الرابع: نذر اللجاج والغضب، واللجاج هو الإصرار على الشيء مطلقـًا؛ وسمي بهذا الاسم؛ لأن اللجاج والغضب يحملان عليه غالبـًا، وليس بلازم أن يكون هناك لجاج وغضب؛ وهو الذي يقصد به معنى اليمين، الحث، أو المنع، أو التصديق، أو التكذيب.

مثل لو قال: حصل اليوم كذا وكذا، فقال الآخر: لم يحصل، فقال: إن كان حاصلاً، فعليَّ لله نذر أن أصوم سنة؛ فالغرض من هذا النذر التكذيب، فإذا تبين أنه حاصل، فالناذر مخير بين أن يصوم سنة، وبين أن يكفر كفارة يمين؛ لأنه إن صام فقد

---

(١) رواه البخاري برقم (٦٦٩٦).

(٢) رواه مسلم برقم (١٦٤١).

وَفَّى بنذره، وإن لم يصم حنث، والحانث في اليمين يكفر كفارة يمين.

الخامس: نذر المكروه؛ فيكره الوفاء به، وعليه كفارة يمين.

السادس: نذر ما لم يُسَمّ؛ مثل أن يقول: لله عليَّ نذر، ولا يذكر شيئـًا؛ فهذا كفارته كفارة يمين، كما قال النبي ﷺ: «كفارة النذر إذا لم يسم كفارة يمين»[(١)].

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ [الإنسان: ٧].

قوله: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾، هذه الآية سيقت لمدح الأبرار، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۞ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۞ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۞ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٥-٨]، ومدحهم بهذا يقتضي أن يكون النذر عبادة؛ لأن الإنسان لا يمدح ولا يستحق دخول الجنة إلا بفعل شيء يكون عبادة.

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩].

في هذه الآية أمر بالوفاء بالنذر، والأمر بالوفاء به يدل على أنه عبادة؛ لأن العبادة هي ما أمر به شرعـًا.

وفي هذه الآية والآية التي سبقتها دليل على أن النذر لغير الله تعالى من الشرك؛ فإن الله تعالى أمر عباده به، وأثنى عليهم بوفائهم، وجعله من الأسباب التي بها يدخلون الجنة، ولا يكون سببـًا يدخلون به الجنة إلا وهو عبادة، فيقتضي أن صرفه لغير الله تعالى شرك أكبر.

---

(١) رواه ابن ماجه برقم (٢١٢٧)، والترمذي برقم (١٥٢٨)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب؛ ورواه مسلم برقم (١٦٤٥)، وأبو داود برقم (٣٣٢٣)؛ دون لفظة: «إذا لم يسم»؛ وهذه الزيادة يضعفها الشيخ الألباني؛ انظر «الإرواء» برقم (٢٥٨٦).

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

إن الله عز وجل عظَّم النذر بقوله: ﴿**فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ**﴾ وعظَّم أهله، وهذا يدل على أن الوفاء به عبادة محبوبة لله -جل وعلا-.

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا فيه المجازاة على النفقات، واجبها ومستحبها، قليلها وكثيرها، التي أمر الله بها، والنذور التي ألزمها المكلف نفسه، وإن الله تعالى يعلمها فلا يخفى عليه منها شيء، ويعلم ما صدرت عنه، هل هو الإخلاص أو غيره، فإن صدرت عن إخلاص وطلب لمرضاة الله جازى عليها بالفضل العظيم والثواب الجسيم، وإن لم ينفق العبد ما وجب عليه من النفقات، ولم يوفِ ما أوجبه على نفسه من المنذورات، أو قصد بذلك رضى المخلوقات، فإنه ظالم قد وضع الشيء في غير موضعه، واستحق العقوبة البليغة، ولم ينفعه أحد من الخلق ولم ينصره، فلهذا قال في ختام الآية: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾».

وَقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيْعَ الله فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ الله فَلَا يَعْصِهِ»(١).

قوله: «**من نذر أن يطيع الله**»؛ الطاعة: هي موافقة الأمر؛ أي: توافق الله تعالى فيما يريد منك إن أمرك، فالطاعة فعل المأمور به، وإن نهاك؛ فالطاعة ترك المنهي عنه، هذا معنى الطاعة إذا جاءت مفردة.

أما إذا قيل: طاعة ومعصية، فالطاعة لفعل الأوامر، والمعصية لفعل النواهي.

وظاهر الحديث: يشمل ما إذا كانت الطاعة المنذورة جنسها واجب؛ كالصلاة والحج وغيرهما، أو غير واجب؛ كتعليم العلم وغيره.

وهنا سؤال قد يرد في هذا المقام، وهو أن النذر مكروه، قد كرهه النبي ﷺ، وسئل

---

(١) رواه البخاري برقم (٦٦٩٦).

عنه؟، فقال ﷺ: «إنه لا يأتي بخير»[(١)]؛ فكيف يكون عبادة، وقد كرهه النبي ﷺ؟.

والجواب: أن النذر منه مطلق ومن مقيد، فالنذر المطلق هو أن يلزم العبد نفسه بعبادة لله جل وعلا هكذا بلا قيد، كأن: يقول -مثلا-: لله عليّ نذر أن أصلي ركعتين، وليس هذا النذر في مقابلة شيء يحدث له في المستقبل، أو شيء حدث له، فيلزم نفسه بعبادة كصلاة، أو صيام، أو نحو ذلك، فهذا هو النذر المطلق، وهو إلزام العبد نفسه بطاعة لله جل وعلا أو بعبادة.

وليس هذا النذر الذي كرهه ﷺ؛ بل النذر المكروه - أو المحرم - هو النذر المقيد؛ وحقيقته: أن يلزم العبد نفسه بطاعة لله جل وعلا مقابل شيء يحدثه الله جل وعلا له، ويقدره ويقضيه له؛ كأن يقول -مثلا-: إن شفى الله مريضي فلله عليَّ نذر أن أتصدق بكذا وكذا، أو إن نجحت فأصلي ليلة، أو إن عُينت في هذه الوظيفة، فسأصوم أسبوعًا، ونحو ذلك؛ فهذا كأنه يشترط بهذا النذر على الله جل وعلا؛ يعني: مقابلة للفعل بالفعل، وهذا هو الذي وصفه النبي ﷺ بقوله: «إنما يستخرج به من البخيل»[(٢)]؛ لأن البخيل هو الذي لا يعمل العبادة حتى يقاضى عليها.

وهذا المعنى الخاطئ يستحضره كثير من العوام، الذين يستعملون النذور؛ فإنهم يظنون أن حاجاتهم لا تحصل إلا بالنذر، وقد قال أهل العلم: «إن من ظن أنه لا تحصل حاجة من حاجاته إلا بالنذر، فإن اعتقاده هذا محرم؛ لأنه ظن أن الله عز وجل لا يعطي إلا بمقابل، وهذا سوء ظن بالله جل وعلا، وسوء اعتقاد فيه - سبحانه وتعالى -، بل هو المتفضل المنعم على خلقه».

وهو الذي لا يأتي بخير ولو كان نذر طاعة، وإنما يستخرج به من البخيل، ولهذا نهى عنه النبي ﷺ، وبعض العلماء يحرمه، للنهي عنه، لأن صاحبه يلزم نفسه بأمر هو في عافية منه، وكم من إنسان نذر وأخيراً ندم، وربما لم يفعل.

ويدل لقوة القول بتحريم النذر، قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ [النور: ٥٣]، فهذا التزام مؤكد بالقسم فيشبه النذر، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّا

---

(١) رواه مسلم (١٦٣٩) (٢).

(٢) رواه مسلم (١٦٣٩) (٢).

نُقْسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ﴾ [النور: ٥٣]؛ أي: عليكم طاعة معروفة بدون يمين، والإنسان الذي لا يفعل الطاعة إلا بالنذر، أو حلف على نفسه؛ يعني أن الطاعة ثقيلة عليه.

قوله: «**ومن نذر أن يعصي الله، فلا يعصه**»، لا: ناهية، والنهي بحسب المعصية، فإن كانت المعصية حراماً، فالوفاء بالنذر حرام، وإن كانت المعصية مكروهة، فالوفاء بالنذر مكروه، لأن المعصية الوقوع فيما نهي عنه، والمنهي عنه ينقسم عند أهل العلم إلى قسمين: منهي عنه نهي تحريم، ومنهي عنه نهي تنزيه.

ونذر المعصية ينعقد، ولهذا قال الرسول ﷺ: «من نذر أن يعصي الله، فلا يعصه»، ولو قال: من نذر أن يعصي الله فلا نذر له، لكان لا ينعقد، ففي قوله ﷺ: «فلا يعصه» دليل على أنه ينعقد لكن لا ينفذ.

اختلف أهل العلم هل تلزمه كفارة أو لا؟؛ والراجح أنها تجب الكفارة؛ لأن الرسول ﷺ ذكر في الحديث أن كفارته كفارة يمين، وأيضاً من حيث القياس لو أن الإنسان أقسم ليفعلن محرماً، وقال: والله، لأفعلن هذا الشيء وهو محرم، فلا يفعله، ويكفر كفارة يمين، مع أنه أقسم على فعل محرم، والنذر شبيه بالقسم، وعلى هذا، فكفارته كفارة يمين.

والفرق بين النذر لغير الله وبين نذر المعصية: أن النذر لغير الله تعالى ليس لله أصلاً، ونذر المعصية لله سبحانه، ولكنه على معصية من معاصيه، مثل أن يقول: لله عليّ نذر أن أفعل كذا وكذا من معاصي الله تعالى.

* * *

المسألة (الثالثة عشرة):
فِي أَنَّ مِنَ الشِّرْكِ الاسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ الله

قوله: «**من الشرك**»؛ «**من**» هنا تبعيضية، و«**الشرك**» المقصود به -هنا- الشرك الأكبر؛ أي: من الشرك الأكبر الاستعاذة بغير الله تعالى.

وقوله: «**الاستعاذة**»؛ أي: طلب العياذ، والعياذ ما يؤمِّن من الشر، كالفرار من شيء مخوف إلى ما يؤمن منه، أو إلى من يؤمّن منه.

والطلب من أنواع التوجه والدعاء؛ لأن الطلب يدل على أن هناك من يُطلب منه والمطلوب منه لما كان أرفع درجة من الطالب كان الفعل المتوجه إليه يسمى دعاء، ولهذا فإن حقيقة الاستعاذة لغة، ودلالتها شرعـًا؛ هي: طلب العوذ، أو طلب العياذ، وهو دعاء مشتمل على ذلك، وهكذا في كل ما فيه طلب نقول: إنه دعاء.

وإذا كان دعاء؛ فإنه عبادة، والعبادة حق لله وحده دون ما سواه،كما قام الإجماع على هذا، ودلت النصوص عليه؛ كقول الله سبحانه: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، وكقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وكقوله عز وجل: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]، إذاً فكل طلب: هو دعاء.

وقوله: «**بغير الله**»، هذا الغير شامل لكل من يتوجه إليهم بالعبادة ويشركونهم مع الله تعالى، ويدخل في ذلك بالأولية ما كان المشركون الجاهليون يتوجهون إليهم بالعبادة، من الجن، والملائكة، والرسل والأنبياء والصالحين، والأشجار والأحجار، وغير ذلك من معبوداتهم.

لكن هل المقصود شمول هذا الحكم على فاعله بالشرك لكل أنواع الاستعاذة ولو كان فيما يقدر عليه المخلوق؟.

الجواب: أن هذا فيه تفصيل، قد جاءت أدلة بأنه يستعاذ بالمخلوق فيما يقدر عليه؛ لأن حقيقة الاستعاذة طلب انكفاف الشر، وطلب العياذ، وهو أن يستعيذ من

شر أحدق به، وإذا كان كذلك فقد يملك المخلوق شيئًا من ذلك.

وعلى هذا فتكون الاستعاذة بغير الله شركًا أكبر إذا كان ذلك المخلوق لا يقدر على أن يعيذ، أو طُلِبتْ منه الإعاذة فيما لايقدر عليه إلا الله جل وعلا.

قَالَ الله سبحانه وتَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

قوله: ﴿يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾؛ أي: يلتجئون إليهم مما يحاذرونه، يظنون أنهم يعيذونهم، ولكن زادوهم رهقًا؛ أي: خوفًا وذعراً، وكان العرب في الجاهلية إذا نزلوا في وادٍ نادوا بأعلى أصواتهم: نعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه.

وقوله: ﴿بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، يستفاد منه أن للجن رجالاً، ولهم إناث.

وقوله: ﴿فَزَادُوهُمْ﴾ فالواو ضمير الجن والهاء ضمير الإنس.

وقوله: ﴿رَهَقًا﴾؛ أي: ذعراً وخوفًا؛ بل الرهق يدل على شيء أشد من مجرد الذعر والخوف، فكأنهم مع ذعرهم وخوفهم أرهقهم وأضعفهم، فالذعر والخوف في القلوب، والرهق في الأبدان.

وهذه الآية تدل على أن الاستعاذة بالجن حرام؛ لأنها لا تفيد المستعيذ، بل تزيده رهقًا، فعوقب بنقيض قصده.

قال مُلّا علي قاري الحنفي رَحِمَهُ اللهُ: «لا يجوز الاستعاذة بالجن؛ فقد ذم الله الكافرين على ذلك، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨]؛ فاستمتاع الإنسي بالجني في قضاء حوائجه وامتثال أوامره وإخباره بشيء من المغيبات، واستمتاع الجني بالإنسي تعظيمه إياه، واستعاذته به وخضوعه له».

وَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً، فَقَالَ: أَعُوْذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرُّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْحَلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ»[(١)].

قوله: «**من نزل منزلاً**» يشمل من نزله على سبيل الإقامة الدائمة، أو الطارئة.

وقوله: «**أعوذ بكلمات الله التامات**» شرع الله عز وجل لأهل الإسلام أن يستعيذوا به بدلاً عما يفعله أهل الجاهلية من الاستعاذة بالجن، فشرع الله جل وعلا للمسلمين أن يستعيذوا بأسمائه وصفاته.

وقوله: «**أعوذ**»؛ بمعنى: ألتجئ وأعتصم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: «معنى «**الكلمات**» الكاملات التي لا يلحقها نقص ولا عيب، كما يلحق كلام البشر، وقيل معناه: الشافية الكافية، وقيل: الكلمات هنا هي القرآن؛ فإن الله تعالى أخبر عنه بأنه: ﴿هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤]، وهذا الأمر على جهة الإرشاد إلى ما يدفع به الأذى».

وقوله: «**التامات**»؛ تمام الكلام بأمرين: الأول: الصدق في الأخبار، والثاني: العدل في الأحكام؛ قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

وقوله: «**من شر ما خلق**»؛ أي: من شر الذي خلق؛ لأن الله سبحانه خلق كل شيء: الخير والشر، ولكن الشر لا ينسب إليه؛ لأنه خلق الشر لحكمة، فعاد بهذه الحكمة خيراً، فكان خيراً.

وليس كل ما خلق الله عز وجل فيه شر، لكن تستعيذ من شره إن كان فيه شر؛ لأن مخلوقات الله تعالى تنقسم إلى ثلاثة أقسام؛ هي:

الأول: شر محض؛ كالنار، وإبليس باعتبار ذاتيهما، أما باعتبار الحكمة التي خلقهما الله جل جلاله من أجلها، فهي خير.

الثاني: خير محض؛ كالجنة، والرسل، والملائكة.

الثالث: فيه شر وخير؛ كالإنس، والجن، والحيوان.

و إنما أنت تستعيذ من شر ما فيه شر.

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٧٠٨).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: من كل شر في أي مخلوق قام به الشر من حيوان أو غيره، إنسيًا، أو جنيًا، أو هامة، أو دابة، أو ريحًا، أو صاعقة، أو أي نوع من أنواع البلاء في الدنيا والآخرة».

وقوله: «**لم يضره شيء**» لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: هذا خبر صحيح وقول صادق علمنا صدقه دليلاً وتجربة، فإني منذ سمعت هذا الخبر عملت عليه فلم يضرني شيء إلى أن تركته، فلدغتني عقرب بالمهدية ليلاً، فتفكرت في نفسي، فإذا بي قد نسيت أن أتعوذ بتلك الكلمات.

* * *

المسألة (الرابعة عشرة):
فِي أَنَّ مِنَ الشِّرْكِ أَنْ يَسْتَغِيْثَ بِغَيْرِ الله أَوْ يَدْعُو غَيْرَهُ

قوله: «**من الشرك**»؛ المراد بالشرك هنا الشرك الأكبر.

وقوله: «**أن يستغيث**»؛ الاستغاثة: هي طلب الغوث؛ والغوث يحصل لمن وقع في شدة وكرب يخشى معه المضرة الشديدة أو الهلاك.

فالاستغاثة: طلب الغوث؛ وطلب الغوث لا يوجه إلا لله تعالى، ولا يصلح إلا من الله عز وجل فيما لا يقدر عليه إلا الله جل جلاله؛ لأن الاستغاثة يمكن أن تطلب من المخلوق فيما يقدر عليها.

لكن متى تكون الاستغاثة بغير الله تعالى شركًا أكبر؟.

تكون شركًا أكبر إذا استغاث بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل؛ لأن المرء إذا استغاث بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى، وهو يعلم أن هذا لا يقدر عليه إلا الله تعالى، فهذا شرك أكبر بالله جل وعلا؛ لأن حقيقة الأمر أنه لا يقدر عليه إلا الله سبحانه.

وقوله: «**أو يدعو غيره**» اعلم أن الدعاء نوعان: دعاء المسألة، ودعاء العبادة؛ فما كان فيها من السؤال والطلب بما ينفع الداعي من جلب نفع أو كشف ضر؛ فهو دعاء مسألة، وما كان فيها من الحمد والثناء والتسبيح والركوع والسجود وغير ذلك من الأركان والواجبات؛ فهو دعاء عبادة.

وفي كلا النوعين لا يجوز دعاء غير الله سبحانه وتعالى.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [يونس: ١٠٦-١٠٧].

قوله: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ظاهر سياق الآية أن الخطاب للرسول ﷺ، وكونه يوجه إليه مثل هذا الخطاب لا يقتضي أن يكون ممكناً منه؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥]، فالخطاب له ولجميع الرسل عليهم الصلاة والسلام، ولا يمكن أن يقع منه باعتبار حاله لا باعتبار كونه إنساناً وبشراً.

إذاً، فالحكمة من النهي أن يكون غيره متأسياً به، فإذا كان النهي موجهاً إلى من لا يمكن منه باعتبار حاله، فهو إلى من يمكن منه من باب أولى.

وقوله: ﴿ وَلَا تَدْعُ ﴾ هذا نهي؛ والنهي أن يتوجه أحد إلى غير الله جل وعلا بدعاء مسألة أو بدعاء عبادة، وقد نُهي النبي ﷺ عن ذلك أعظم النهي ووجِّه إليه الخطاب بذلك، مع أنه إمام المتقين، وإمام الموحدين.

وقوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: من سواه.

وقوله: ﴿مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾؛ يعني: الذي لا ينفعك ولا يضرك، و ﴿مَا ﴾ تشمل العقلاء وغير العقلاء؛ فالعقلاء: كالملائكة والأنبياء والرسل والصالحين، وغير العقلاء: كالأصنام والأحجار والأشجار.

وهذا القيد ليس شرطاً بحيث يكون له مفهوم، فيكون لك أن تدعو من ينفعك ويضرك، بل هو لبيان الواقع؛ لأن المدعو من دون الله سبحانه وتعالى لا يحصل منه نفع ولا ضرر؛ قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ٥-٦].

وقوله: ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾؛ أي: إن دعوت من دون الله عز وجل ما لا ينفعك ولا يضرك، فحال فعلك تكون من الظالمين.

وقوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾، ﴿بِضُرٍّ﴾ تعم جميع أنواع الضر، سواء أكان ضراً في الدين، أم كان ضراً في الدنيا، يعني كان ضراً في الدنيا من جهة الأبدان، أو من جهة الأموال، أو من جهة الأولاد، أو من جهة الأعراض، ونحو ذلك.

وقوله: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: الذي يكشف الضر في الحقيقة هو الله جل وعلا لا يكشف البلوى إلا هو- سبحانه وتعالى -، وإذا كان المخلوق يقدر على ذلك الكشف، فإنما هو من جهة أنه سبب، فالله سبحانه هو الذي جعله سبباً يقدر على أن يكشف بإذن الله جل وعلا وإلا فالكاشف حقيقة هو الله جل وعلا، والمخلوق - ولو كان يقدر - فإنما قدر بإقدار الله له؛ إذ هو سبب من الأسباب، فالحاصل أن الكاشف على الحقيقة هو الله سبحانه وتعالى وحده.

وقوله: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾؛ هنا قال: ﴿يُرِدْكَ﴾، وفي الضر قال: ﴿يَمْسَسْكَ﴾ فهل هذا من باب تنويع العبارة، أو هناك فرق معنوي؟.

الجواب: هناك فرق معنوي؛ وهو أن الأشياء المكروهة لا تنسب إلى إرادة الله تعالى، بل تنسب إلى فعله؛ أي: مفعوله؛ فالمس من فعل الله تعالى، والضر من مفعولاته، فالله تعالى لا يريد الضر لذاته، بل يريد لغيره، لما يترتب عليه من الخير، ولما وراء ذلك من الحِكَم البالغة.

أما الخير؛ فهو مراد الله تعالى لذاته، ومفعول له.

ويقرب من هذا قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠].

وقوله: ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾؛ أي: لا يستطيع أن يرد فضل الله تعالى أبداً، ولو اجتمعت الأمة على ذلك، قال النبي ﷺ: «اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت»[(١)]، وعليه، فنعتمد على الله تعالى في جلب المنافع، ودفع المضار، وبقاء ما أنعم علينا به، ونعلم أن الأمة مهما بلغت من المكر والكيد والحيل لتمنع فضل الله جل جلاله، فإنها لا تستطيع.

وقوله: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾، الضمير إما أن يعود إلى الفضل؛ لأنه أقرب، أو إلى الخير؛ لأنه هو الذي يتحدث عنه، ولا يختلف المعنى بذلك.

---

(١) رواه البخاري برقم (٨٤٤)، ومسلم برقم (٥٩٣).

وقوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾، كل فعل مقيد بالمشيئة، فإنه مقيد بالحكمة؛ لأن مشيئة الله تعالى ليس مجردة؛ يفعل ما يشاء لمجرد أنه يفعله فقط؛ لأن من صفات الله سبحانه الحكمة، ومن أسمائه الحكيم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

وقوله: ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، العبودية هنا عامة؛ لأن قوله: ﴿بِخَيْرٍ﴾ يشمل خير الدنيا والآخرة، وخير الدنيا يصيب الكفار.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ أي: ذو المغفرة؛ والمغفرة: ستر الذنب والتجاوز عنه، مأخوذة من المغفر؛ وهو ما يتقى به السهام، والمغفرة فيه ستر ووقاية، والرحيم؛ أي: ذو الرحمة؛ وهي صفة تليق بالله عز وجل، تقتضي الإحسان والإنعام.

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

فهم يعبدون هذه الأوثان من شجر وحجر وغيرها، وهي لا تملك لهم رزقاً أبداً، لو دعوها إلى يوم القيامة ما أحضرت لهم ولا حبة بُرّ، ولا دفعت عنهم أدنى مرض أو فقر، فإذا كانت لا تملك الرزق، فالذي يملكه هو الله تعالى، ولهذا قال سبحانه: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾؛ أي: اطلبوا عند الله عز وجل الرزق؛ لأنه سبحانه هو الذي لا ينقضي ما عنده، ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، والرزق هو العطاء، كما قال الله تعالى: ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النساء: ٨].

وقوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: فابتغوا الرزق حال كونه عند الله تعالى لا عند غيره.

وقوله: ﴿وَٱعْبُدُوهُ﴾؛ أي: تذللوا بالطاعة؛ لأن العبادة مأخوذة من التعبيد، وهو التذليل، ومنه قولهم: طريق معبد؛ أي: مذلل للسالكين، قد أزيل عنه الأحجار

والأشجار المؤذية، لأنكم إذا تذللتم له بالطاعة، فهو من أسباب الرزق، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣-٤]، فأمر أن نطلب الرزق عنده، ثم أعقبه بقوله سبحانه: ﴿وَٱعْبُدُوهُ﴾ إشارة إلى أن تحقيق العبادة من طلب الرزق، لأن العابد ما دام يؤمن أن: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، فعبادته تتضمن طلب الرزق بلسان الحال.

وقوله: ﴿وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾؛ أي: واشكروا نعمة الله تعالى، لله سبحانه، فاللام هنا لإفادة الإخلاص، لأن الشاكر قد يشكر الله عز وجل لبقاء النعم، وهذا لا بأس به، ولكن كونه يشكر لله تعالى وتأتي إرادة بقاء النعمة تبعـًا، هذا هو الأكمل والأفضل.

والشكر فسروه بأنه: القيام بطاعة المنعم، وقالوا: إنه يكون في ثلاثة مواضع:

١-في القلب؛ وهو أن يعترف بقلبه أن هذه النعمة من الله تعالى، فيرى لله سبحانه فضلاً عليه بها.

٢- اللسان؛ وهو أن يتحدث بها على وجه الثناء على الله تعالى والاعتراف وعدم الجحود، لا على سبيل الفخر والخيلاء والترفع على عباد الله تعالى، فيتحدث بالغنى لا ليكسر خاطر الفقير، بل لأجل الثناء على الله تعالى.

٣ - الجوارح؛ وهو أن يستعملها بطاعة المنعم، وعلى حسب ما يختص بهذه النعمة.

فمثلاً: شُكر الله تعالى على نعمة العلم: أن تعمل به، وتعلمه الناس.

وشُكر الله تعالى على نعمة المال: أن تصرفه بطاعة الله تعالى، وتنفع الناس به.

وشُكر الله تعالى على نعمة الطعام: أن تستعمله فيما خلق له، وهو تغذية البدن.

وقوله: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ أي:أن رجوعنا إلى الله سبحانه، وهو الذي سيحاسبنا على ما حملنا إياه من الأمر بالعبادة، والأمر بالشكر، وطلب الرزق منه.

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ٥-٦].

قوله: ﴿ **وَمَنْ أَضَلُّ** ﴾، الاستفهام يراد به هنا النفي؛ أي: لا أحد أضل، و﴿**أَضَلُّ**﴾: اسم تفضيل؛ أي: لا أحد أضل من هذا؛ والضلال: أن يتيه الإنسان عن الطريق الصحيح.

وإذا كان الاستفهام مراد به النفي كان أبلغ من النفي المجرد؛ لأنه يحوله من نفي إلى تحدٍّ؛ أي: بَيِّنْ لي عن أحد أضل ممن يدعو من دون الله تعالى؟؛ فهو متضمن للتحدي.

وقوله: ﴿**مِمَّن يَدْعُوا**﴾، متعلق بأضل؛ ويراد بالدعاء هنا دعاء المسألة ودعاء العبادة.

وقوله: ﴿**مِن دُونِ اللَّهِ**﴾؛ أي: سواه.

وقوله: ﴿**مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾؛ أي: لو بقي كل عمر الدنيا يدعو ما استجاب له، قال الله تعالى: ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ [فاطر: ١٤].

وقوله: ﴿**مَن لَّا يَسْتَجِيبُ**﴾ أتى بـ ﴿**مَن**﴾، وهي للعاقل، مع أنهم يعبدون الأصنام والأحجار والأشجار، وهي غير عاقلة؛ لأنهم لما عبدوها نزلوها منزلة العاقل، فخوطبوا بمقتضى ما يدعون؛ لأنه أبلغ في إقامة الحجة عليهم في أنهم يدعون من يرونهم عقلاء، ومع ذلك لا يستجيبون لهم، وهذا من بلاغة القرآن؛ لأنه خاطبهم بما تقتضيه حالهم ليقيم الحجة عليه؛ إذ لو قيل: ما لا يستجيب له، لقالوا: هناك عذر في عدم الاستجابة لأنهم غير عقلاء.

وقوله: ﴿**وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ**﴾؛ أي: أن هذه الأصنام غافلة عن دعوة هؤلاء إياهم، ويكون هذا أبلغ في أن هذه الأصنام لا تفيد شيئًا في الدنيا ولا في الآخرة.

وقوله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾؛ أي: يوم القيامة، ﴿كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾؛ أي: كان العابدون للمعبودين أعداء، أو كان المعبودون للعابدين أعداء، يشمل المعنيين، وهذا من بلاغة القرآن.

وَقَالَ الله تَعَالَى ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٦٢].

قوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ﴾؛ أي: الذي أصابه الضرر، فلا يجيب المضطر إلا الله عز وجل، لكن قيده بقوله: ﴿إِذَا دَعَاهُ﴾، أما إذا لم يدعه، فقد يكشف الله سبحانه ضره، وقد لا يكشفه.

وقوله: ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾؛ أي: يزيل السوء؛ والسوء: ما يسوء المرء.

وقوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾، الذين يجعلهم الله تعالى خلفاء الأرض هم عباد الله الصالحون، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [النمل: ١٠٥]، وقال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥].

وقوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، الاستفهام للإنكار، أو بمعنى النفي، وهما متقاربان؛ أي: هل أحد مع الله يفعل ذلك؟!.

الجواب: لا، وإذا كان ذلك، فيجب أن تصرف العبادة لله وحده، وكذلك الدعاء، فالواجب على العبد أن يوجه السؤال إلى الله تعالى، ولا يطلب من أحد أن يزيل الضرر ويكشف السوء وهو لا يستطيع.

***

المسألة (الخامسة عشرة):
فِي أَنَّ الأَمْر كُلَّه بِيَدِ الله، وَهُوَ المُسْتَحِقُّ للعِبَادَةِ

فيها بيان أن الذي يخلق هو الله وحده، والذي يرزق هو الله وحده، والذي يملك هو الله وحده، وأن غير الله جل وعلا ليس له نصيب من الخلق، وليس له نصيب من الرزق، وليس له نصيب من الإحياء، وليس له نصيب من الإماتة، وليس له نصيب من الأمر، وليس لـه ملك حقيقي في أمر من الأمور، حتى أعلى الخلق مقاماً، وهو النبي ﷺ؛ يُنْفَى عنه ذلك الأمر، فإنه منفي عمن هو دونه من باب أولى.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩١-١٩٢].

قوله: ﴿ أَيُشْرِكُونَ ﴾؛ أي: في العبادة؛ قال المفسرون: «في هذه الآية توبيخ وتعنيف للمشركين في عبادتهم مع الله تعالى ما لا يخلق شيئاً وهو مخلوق؛ والمخلوق لا يكون شريكاً للخالق في العبادة التي خلقهم لها، وبَيَّنَ أنهم لا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون، فكيف يشركون به من لا يستطيع نصر عابديه ولا نصر نفسه؟!!، وهذا برهان ظاهر على بطلان ما كانوا يعبدونه من دون الله عز وجل، وهذا وصف كل مخلوق، حتى الملائكة والأنبياء والصالحين، وأشرف الخلق محمد ﷺ قد كان يستنصر ربه على المشركين، ويقول: «اللهم أنت عضدي ونصيري، بك أحول وبك أصول، وبك أقاتل»[1]، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٣]، وقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ

---

(١) رواه أبو داود برقم (٢٦٣٢)، والترمذي برقم (٣٥٨٤)، وصححه الألباني؛ انظر «صحيح سنن أبي داود».

وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وقوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۞ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۞ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ﴾ [الجن: ٢١-٢٣]؛ فكفى بهذه الآيات برهانـًا على بطلان دعوة غير الله كائنـًا من كان».

وقوله: ﴿مَا لَا يَخْلُقُ﴾، هنا عَبَّرَ بـ ﴿مَا﴾ دون «من»، وفي قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ ﴾ [الأحقاف: ٥]، عَبَّرَ بـ ﴿من﴾، والمناسبة ظاهرة؛ لأن الداعين هناك نزلوهم منزلة العاقل، أما هنا، فالمدعو جماد؛ لأن الذي لا يخلق شيئـًا ولا يصنعه جماد لا يفيد.

وقوله: ﴿شَيْـًٔا﴾، نكرة في سياق النفي، فتفيد العموم.

وقوله: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾، وصف هذه الأصنام بالعجز والنقص.

وأما قوله: ﴿مَا لَا يَخْلُقُ﴾ الضمير بالإفراد، وقوله: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ الضمير بالجمع؛ فما توجيهه؟.

أجيب: بأن قوله: ﴿مَا لَا يَخْلُقُ﴾ عاد الضمير على ﴿مَا﴾ باعتبار اللفظ؛ لأن ﴿مَا﴾ اسم موصول، لفظها مفرد، لكن معناها الجمع، فهي صالحة بلفظها للمفرد، وبمعناها للجمع، كقوله تعالى: ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ﴾.

وقوله: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ عاد الضمير على ﴿مَا﴾ باعتبار المعنى، كقوله: ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴾.

وقوله: ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾؛ أي: لا يقدرون على نصرهم لو هاجمهم عدو؛ لأن هؤلاء المعبودين قاصرون.

والنصر: الدفع عن المخذول بحيث ينتصر على عدوه.

وقوله: ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾؛ أي: زيادة على ذلك هم عاجزون عن الانتصار لأنفسهم، فكيف ينصرون غيرهم؟!.

فبيّن الله عز وجل عجز هذه الأصنام، وأنها لا تصلح أن تكون معبودة من أربعة

وجوه؛ هي:

١-أنها لا تخلق؛ ومن لا يخلق لا يستحق أن يعبد.

٢- أنها مخلوقة من العدم؛ فهي مفتقرة إلى غيرها ابتداءً ودوامًا.

٣- أنها لا تستطيع نصر الداعين لها.

٤- أنها لا تستطيع نصر نفسها.

وقَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ * إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣-١٤].

قوله: ﴿**وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ**﴾ يشمل دعاء المسألة، ودعاء العبادة، و﴿**مِن دُونِهِ**﴾؛ أي: سوى الله تعالى.

وقوله: ﴿**مَا يَمْلِكُونَ**﴾، ﴿**مَا**﴾: نافية.

وقوله: ﴿**مِن قِطْمِيرٍ**﴾ في النواة ثلاثة أشياء ذكرها الله تعالى في القرآن لبيان حقارة الشيء:

القطمير: وهو اللفافة الرقيقة التي على النواة.

الفتيل: وهو سلك يكون في الشق الذي في النواة.

النقير: وهي النقرة التي تكون على ظهر النواة.

وقوله: ﴿**إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ**﴾؛ أي: إن هذه الأصنام لو دعوتموها ما سمعت، ولو فرض أنها سمعت ما استجابت، لأنها لا تقدر على ذلك، ولهذا قال إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢]، فإذا كانت كذلك، فمن السفه أن يُدْعَى من دون الله تعالى أي شيء، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠].

وقوله: ﴿**وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ**﴾؛ هو كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ

كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ٦]؛ فهؤلاء المعبودون إن كانوا يبعثون ويحشرون، فكفرهم بشركهم ظاهر كمن يعبد عزيراً والمسيح، وإن كانوا أحجاراً وأشجاراً ونحوها، فيحتمل أن يشملها ظاهر الآية؛ وهو أن الله جل وعلا يأتي بهذه الأحجار ونحوها، فتكفر بشرك من يشرك بها، ويؤيده قوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، جاء عن النبي ﷺ: «أنه عند بعث الناس يقال لكل أمة: لتتبع كل أمة ما كانت تعبد من دون الله»(١)، فالحجر يكون أمامهم يوم القيامة، ويكون له كلام ينطق به، ويكفر بشركهم، فإذا كانت المعبودات تحضر وتحصب في النار إهانة لعابديها، وتحضر لتتبع إلى النار، فلا غرو أن تكفر بعابديها إذا أحضرت.

وقوله: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]، هذا مثال يضرب لمن أخبر بخبر ورأى شكًّا عند من خاطبه به، فيقول: ولا ينبئك مثل خبير؛ ومعناه: إنه لا يخبرك بالخبر مثل خبير به؛ وهو الله جل جلاله؛ لأنه لا يعلم أحد ما يكون في يوم القيامة إلا الله تعالى، وخبره خبر صدق، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٢].

والخبير: هو العالم ببواطن الأمور.

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، قَالَ: «شُجَّ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَّتُهُ؛ فَقَالَ ﷺ: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ؟»، فَنَزَلَتْ: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾(٢).

«**أنس**» بن مالك بن النضر الأنصاري الخزرجي، خادم رسول الله ﷺ، صحابي جليل، مات سنة اثنتين وتسعين، وقد جاوز المئة، رضي الله عنه.

---

(١) رواه البخاري برقم (٤٥٨١)، ومسلم برقم (١٨٣).

(٢) سورة آل عمران: ١٢٨، والحديث رواه البخاري معلقـًا، تحت باب ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾، وفي المغازي، ورواه مسلم موصولاً برقم (١٧٩١).

قوله: «**يوم أحد**»؛ أحد: اسم جبل معروف شمالي المدينة؛ والمراد: المعركة التي وقعت بالقرب منه.

وقوله: «**شج**»؛ الشجة: الجرح في الرأس والوجه خاصة؛ وهو أن يضربه بشيء فيجرحه فيه ويشقه، ثم استعمل في غيره من الأعضاء.

وقوله: «**وكسرت رَباعيته**»، السِّنَّان المتوسطان يسميان ثنايا، وما يليهما يسميان رباعيتين.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الرباعية بفتح الراء وتخفيف الياء؛ وهي كل سن بعد ثنية.

وقال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: للإنسان أربع رباعيات.

وقال ابن حجر العسقلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المراد أنها كسرت، فذهب منها فلقة ولم تقلع من أصلها.

وقال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في هذا وقوع الأسقام والإبتلاء بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لينالوا بذلك جزيل الأجر والثواب، ولتعرف الأمم ما أصابهم ويأتسوا بهم.

وقال القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ليعلم أنهم من البشر تصيبهم محن الدنيا، ويطرأ على أجسامهم ما يطرأ على أجسام البشر، ليتيقن أنهم مخلوقون مربوبون، ولا يفتن بما ظهر على أيديهم من المعجزات، ويلبس الشيطان من أمرهم ما لبسه على النصارى وغيرهم.

وقوله: «**كيف يفلح قوم شجوا نبيهم ﷺ**» الاستفهام يراد به الاستبعاد؛ أي: بعيد أن يفلح قوم شجوا نبيهم.

وقوله: «**يُفلح**» من الفلاح؛ وهو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب.

وقوله: «**فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾**»؛ أي: نزلت هذه الآية، والخطاب فيها للرسول ﷺ.

وقوله: ﴿**ٱلْأَمْرِ**﴾؛ أي: الشأن؛ والمراد: شأن الخلق، فشأن الخلق إلى خالقهم، حتى النبي ﷺ ليس له فيهم شيء. و ﴿**شَيْءٌ**﴾: نكرة في سياق النفي، فتعم.

وفي رواية عَن ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُوْلَ الله ﷺ يَقُوْلُ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوْعِ فِي الرَّكْعَةِ الأَخِيْرَةِ مِنَ الفَجْرِ: «اللهمَّ الْعَنْ فُلَانًا وفُلَانًا» بَعْدَمَا يَقُوْلُ: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ»، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [1]، وَفِي رِوَايَةٍ أخرى: يَدْعُو عَلَى صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ، وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو وَالحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، فَنَزَلَتْ: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾[2].

«**ابن عمر**» هو عبد الله بن عمر بن الخطاب، أبو عبد الرحمن، صحابي جليل، مات سنة ثلاث وسبعين، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قوله: «**يقول: اللهم العن**»؛ اللعن: هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله؛ أي: أبعدهم عن رحمتك، واطردهم منها.

وقوله: «**فلانًا وفلانًا**» في رواية أنهم: صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام.

وذلك لأنهم رؤوس المشركين يوم أحد، هم وأبو سفيان بن حرب، فما استجيب له ﷺ فيهم.

«**فأنزل الله تعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾**» على هذا يكون سبب نزول الآية دعوة النبي ﷺ على هؤلاء، أما قوله: «**كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟**»؛ سبب ثانٍ لنزول الآية؛ ولا مانع أن يكون لنزول الآية سببان.

وقد أسلم هؤلاء الثلاثة وحسن إسلامهم رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، فتأمل الآن أن العداوة قد تنقلب

---

(١) رواه البخاري برقم (٤٠٦٩).

(٢) رواه البخاري مرسلاً بهذا اللفظ برقم (٤٠٧٠)، ووصله أحمد (٢/ ٩٣)، والترمذي برقم (٣٠٠٤)، وفيه عمر بن حمزة وهو ضعيف؛ كما قال الحافظ في «التقريب»، وانظر تخريج شيخي مقبل الوادعي رَحِمَهُ اللهُ في كتابه «الصحيح المسند من أسباب النزول» (ص ٢٩ - ٣٠).

ولاية؛ لأن القلوب بيد الله سبحانه وتعالى، ولو أن الأمر كان على ظن النبي ﷺ، لبقي هؤلاء على الكفر حتى الموت، إذ لو قبلت الدعوة عليهم، وطردوا عن الرحمة، لم يبق إلا العذاب، ولكن النبي ﷺ ليس له من الأمر شيء، فالأمر كله لله عز وجل، ولهذا هدى الله تعالى هؤلاء القوم، وصاروا من أولياء الله جل وعلا الذابين عن دينه، بعد أن كانوا من أعداء الله تعالى القائمين ضده، والله سبحانه يمُن على من يشاء من عباده.

وهذا لا يفهم منه عدم جواز الدعاء على الكافر أو الظالم أو الفاسق بعينه، بل يجوز الدعاء عليهم ولعنهم بأعيانهم، وجاء عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إن النبي ﷺ كان يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، إذا قال بعضهم لبعض: أيكم يجيء بسلى جزور بني فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد؟، فانبعث أشقى القوم، فجاء به، فنظر حتى سجد النبي ﷺ، ووضعه على ظهره بين كتفيه، وأنا أنظر، لا أغير شيئًا، لو كان لي منعة، قال: فجعلوا يضحكون ويميل بعضهم على بعض، ورسول الله ﷺ ساجد لا يرفع رأسه، حتى جاءته فاطمة فطرحت عن ظهره، فرفع رأسه ثم قال: «اللهم عليك بقريش - ثلاث مرات -»، فشق عليهم إذ دعا عليهم، قال: وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة، ثم سمى: «اللهم عليك بأبي جهل وعليك بعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط»، وَعَدَّ السابع فلم نحفظه، قال: فوالذي نفسي بيده لقد رأيت الذين عد رسول الله ﷺ صرعى في القليب قليب بدر[1].

وغيرها من الأحاديث التي تدل على جواز لعن المعين والدعاء عليه.

ولا تعارض بين الأحاديث؛ فإن أحاديث المنع من لعن المعين، فيها دلالة على أنه لا يلزم من لعن اللاعن الاستجاب له ولو كان النبي ﷺ، فإن الله تعالى قال للنبي ﷺ: «ليس لك من الأمر شيء»؛ أي: ليس إليك يا محمد، من أمر خلقي إلا أن تنفذ

---

(١) رواه البخاري برقم (٢٤٠)، ومسلم برقم (١٧٩٤)، وقوله: «بسلى»؛ أي: الجلدة التي يكون فيها ولد البهائم وهي كالمشيمة بالنسبة للآدمي، و«جزور» كل مذبوح من الإبل ذكراً أم أنثى، وقوله: «عليك بقريش»؛ أي: أهلك كفارهم ومن فعل ذلك منهم، و«صرعى» قتلى، و«القليب»؛ أي: البئر القديمة.

فيهم أمري، وتنتهي فيهم إلى طاعتي، وإنما أمرهم إليّ، والقضاء فيهم بيدي دون غيري، أقضي فيهم وأحكم بالذي أشاء، من التوبة على من كفر بي وعصاني وخالف أمري، أو العذاب إما في عاجل الدنيا بالقتل والنِّقم، وإما في أجل الآخرة بما أعددت لأهل الكفر بي.

وأيضـًا في سبب النزول الثاني للآية؛ ذكر الله عز وجل لنبيه محمد ﷺ بأن ليس لك من الأمر شيء، لأنه لما أصابه بأُحُد ما أصابه من المشركين، قال - كالآيس لهم من الهدى أو من الإنابة إلى الحق -: «كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم».

وأما الأحاديث الأخرى فتدل على الجواز.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَامَ رَسُـوْلُ الله ﷺ حِيْنَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]؛ قَالَ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ - أَوِ كَلِمَةً نَحْوَهَا - اشْـتَرُوا أَنْفَسَكُمْ، لَا أُغْنِي عَنْكُم مِنَ الله شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ الله شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُوْلِ الله ﷺ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ الله شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِيْنِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ الله شَيْئًا»[1].

«**أبو هريرة**» هو عبد الرحمن بن صخر الدوسي، من علماء الصحابة الحفاظ، مات سنة سبع وخمسين، وهو ابن ثمان وسبعين سنة رضي الله عنه.

قوله: «**قام**»؛ أي: خطيبـًا.

وقوله: «**أنزل عليه**»؛ أي: أنزل عليه بواسطة جبريل عليه السلام؛ قوله تعالى: ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ**﴾.

وقوله: ﴿**وَأَنذِرْ**﴾؛ أي: حذر وخوف؛ والإنذار: الإعلام المقرون بتخويف.

وقوله: ﴿**عَشِيرَتَكَ**﴾؛ العشيرة: قبيلة الرجل من الجد الرابع فما دون.

وقوله: ﴿**ٱلْأَقْرَبِينَ**﴾؛ أي: الأقرب فالأقرب، فأول من يدخل في عشيرة الرجل

---

(١) رواه البخاري برقم (٢٧٥٣)، ومسلم برقم (٢٠٤).

أولاده، ثم آباؤه، ثم إخوانه، ثم أعمامه، وهكذا، ويؤخذ من هذا أن الأقرب فالأقرب أولى بالإنذار؛ لأن الحكم المعلق على وصف يقوى بقوة هذا الوصف، وذلك أن الوصف الموجب للحكم كلما كان أظهر وأبين، كان الحكم فيه أظهر وأبين.

وقوله: «**حين أنزل عليه**»، يفيد أنه لم يتأخر ﷺ، بل قام، فقال: «**يا معشر قريش!**»؛ أي: يا جماعة قريش؛ وقريش: هو فهر بن النضر بن مالك، أحد أجداد الرسول ﷺ.

وقوله: «**أو كلمة نحوها**»؛ أي: أو قال كلمة نحوها؛ أي: شبهها، وهذا من احتراز الرواة؛ أنهم إذا شكوا أدنى شك، قالوا: أو كما قال، أو كلمة نحوها، وما أشبه ذلك! وعليه فـ«**أو**»: للشك والتردد.

وقوله: «**اشتروا أنفسكم**»؛ أي: أنقذوها؛ لأن المشتري نفسه كأنه أنقذها من هلاك، والمشتري راغب، ولهذا عبر بالاشتراء، كأنه يقول: اشتروا أنفسكم راغبين.

وقوله: «**لا أغني عنكم من الله شيئاً**»، هذا هو الشاهد؛ أي: لا أدفع أو لا أنفع؛ أي: لا أنفعكم بدفع شيء عنكم دون الله سبحانه، ولا أمنعكم من شيء أراده الله جل وعلا لكم، لأن الأمر بيد الله تعالى، ولهذا أمر عز وجل نبيه بذلك، فقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۞ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن: ٢١-٢٢].

وقوله: «**شيئاً**»، نكرة في سياق النفي، فتعم أي شيء.

وقوله: «**يا عباس بن عبد المطلب**»؛ هو عم النبي ﷺ، وعبد المطلب جد النبي ﷺ.

فإن قيل: كيف يقول النبي ﷺ: عبد المطلب مع أنه لا يجوز أن يضاف عبد إلا إلى الله عز وجل؟.

فالجواب: إن هذا ليس إنشاء، بل هو خبر، فاسمه عبد المطلب، ولم يسمه النبي ﷺ، لكن اشتهر بعبد المطلب، ولهذا انتمى إليه الرسول ﷺ، فقال:

أنا النبي لا كذب   أنا ابن عبد المطلب[1]

فلو فرض أن لك أباً يسمى عبد المطلب، أو عبد العزى، فإنك تنتسب إليه، ولا

---

(١) رواه البخاري برقم (٢٩٣٠)، ومسلم برقم (١٧٧٦).

يعد هذا إقراراً، ولكنه خبر عن أمر واقع، كما لو قلت: كفر فلان، نافق فلان، وما أشبه ذلك، ولكن إذا كان موجوداً غيرنا اسمه إذا كان لا يجوز.

وقوله: «**لا أغني عنك من الله شيئًا**»؛ أي: لا أنفعك بشيء دون الله تعالى، ولا أمنعك من شيء أراده الله تعالى لك، فالنبي ﷺ لا يغني عن أحد شيئًا حتى عن أبيه وأمه.

وقوله: «**يا صفية عمة رسول الله!**»، وقوله: «**يا فاطمة بنت محمد! سليني من مالي ما شئت**»؛ أي: اطلبي من مالي ما شئت، فلن أمنعك؛ لأنه ﷺ مالك لماله، ولكن بالنسبة لحق الله؛ قال ﷺ: «**لا أغني عنك من الله شيئًا**».

فهذا كلام النبي ﷺ لأقاربه الأقربين: عمه، وعمته، وابنته، فما بالك بمن هم أبعد؟!؛ فعدم إغنائه عنهم شيئًا من باب أولى، فهؤلاء الذين يتعلقون بالرسول ﷺ ويلوذون به ويستجيرون به، الموجودون في هذا الزمن وقبله، قد غرهم الشيطان واجتالهم عن طريق الحق؛ لأنهم تعلقوا بما ليس بمتعلق، إذ الذي ينفع بالنسبة للرسول ﷺ هو الإيمان به واتباعه، أما دعاؤه والتعلق به ورجاؤه فيما يؤمل، وخشيته فيما يخاف منه، فهذا شرك بالله جل جلاله، وهو مما يبعد عن الرسول ﷺ، وعن النجاة من عذاب الله تعالى.

* * *

المسألة (السادسة عشرة):
فِي أنَّ المَلَائِكَةَ يَخافُونَ رَبَّهُمْ وَيفعَلُوْنَ مَا يُؤْمَرُون

فيها برهان على أن المستحق للعبادة هو الله جل جلاله؛ لأنه هو المتصف بصفات الكمال والجلال، ولأنه لا يستحق أحد أن يكون شريكًا مع الله عز وجل؛ لأن الملائكة وهم أقرب ما يكون من الخلق لله عز وجل، وأعرف عُمَّار السماء به، قال الله تعالى في وصفهم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠]، وقال الله جل وعلا في وصفهم أيضًا: ﴿هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧].

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾، فـ﴿عَن﴾ تفيد المجاوزة؛ والمعنى: جاوز الفزع قلوبهم؛ أي: أزيل الفزع عن قلوبهم؛ والفزع: هو الخوف المفاجئ؛ لأن الخوف المستمر لا يسمى فزعًا؛ وأصله: النهوض من الخوف.

وقال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال بعضهم: الذين فزع عن قلوبهم: الملائكة، قالوا: وإنما فزع عن قلوبهم من غشية تصيبهم عند سماعهم كلام الله بالوحي».

وقوله: ﴿قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾؛ المعنى: قال بعضهم لبعض: إنما قلنا ذلك؛ لأن الكلام قائلاً ومقولاً له، فلو جعلنا الضمير في ﴿قَالُوا۟﴾ عائداً على الجميع؛ فأين المقول له؟؛ والمعنى: أي شيء قال ربكم؟.

وقوله: ﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾؛ أي: قال المسؤولون؛ والمعنى: أن الله سبحانه قال القول الحق، لأنه سبحانه هو الحق، ولا يصدر عنه إلا الحق، ولا يقول ولا يفعل إلا الحق.

والحق في الكلام هو الصدق في الأخبار، والعدل في الأحكام؛ كما قال الله تعالى:

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾؛ أي: العلي في ذاته وصفاته، والكبير: ذو الكبرياء، وهي العظمة التي لا يدانيها شيء؛ أي: العظيم الذي لا أعظم منه.

والشاهد منها: أنه سبحانه وتعالى إذا كان منفرداً في العظمة والكبرياء؛ فيجب أن يكون منفرداً في العبادة.

ويوضح المراد من هذه الآية الحديث الآتي؛

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَضَى اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ المَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانَ يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ - وَصَفَهُ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ فَحَرَّفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ - فَيَسْمَعُ الكَلِمَةَ، فَيُلْقِيْهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيْهَا الآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِئَةَ كِذْبَةٍ، فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؟، فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ» [(١)].

قوله: «**قضى الله الأمر في السماء**»؛ المراد بالأمر الشأن، أي: إذا تكلم الله تعالى بالأمر الذي يوحيه إلى جبريل ﷺ بما أراد، ويكون القضاء بالقول؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧].

وقوله: «**خضعانا**»؛ أي: خضوعاً؛ لقوله: «**كأنه**»؛ أي: صوت القول في وقعه على قلوبهم.

وقوله: «**صفوان**» هو الحجر الأملس الصلب، والسلسلة عليه يكون لها صوت عظيم.

---

(١) رواه البخاري برقم (٤٨٠٠).

تنبيه: ليس المراد تشبيه صوت الله تعالى بهذا؛ لأن الله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، بل المراد تشبيه ما يحصل لهم من الفزع عندما يسمعون كلامه بفزع من يسمع سلسلة على صفوان.

وقوله: «**ينفذهم ذلك**»؛ النفوذ: هو الدخول في الشيء، ومنه: نفذ السهم في الرمية؛ أي: دخل فيها؛ والمعنى: أن هذا الصوت يبلغ منهم كل مبلغ.

وما جاء في هذا الحديث مطابق للآية تماماً، وعلى هذا يجب أن يكون هذا تفسير الآية، ولا يقبل لأي قائل أن يفسرها بغيره؛ لأن تفسير القرآن إذا كان بالقرآن أو السنة؛ فإنه نص لا يمكن لأحد أن يتجاوزه.

وقوله: «**فيسمعها مسترق السمع**»؛ أي: هذه الكلمة التي تكلمت بها الملائكة؛ أي: يسمع الكلمة التي قضاها الله عز وجل، وهم الشياطين يركب بعضهم بعضاً.

وتأمل كلمة «**مسترق**»؛ ففيها دليل على أنه يبادر، فكأنه يختلسها اختلاساً بسرعة، ويؤيده قول الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠].

وقال رسول الله ﷺ: «إن الملائكة تنزل في العنان - وهو السحاب - فتذكر الأمر قضي في السماء، فتسترق الشياطين السمع، فتوحيه إلى الكهان»[1].

وقوله: «**ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض**»، يحتمل أن يكون هذا من كلامه ﷺ، أو من كلام أبي هريرة رضي الله عنه، أو من كلام سفيان رحمه الله.

وقوله: «**وصفه سفيان بكفه**»؛ أي: وصف ركوب بعضهم فوق بعض؛ أي: أنها واحد فوق الثاني؛ أي: الأصابع؛ فالجن يتراكبون واحداً فوق الآخر، إلى أن يصلوا إلى السماء، فيقعدون لكل واحد مقعد خاص، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٩].

و«**سفيان**»: هو ابن عيينة؛ ثقة حافظ فقيه.

وقوله: «**وبدد**»؛ أي: فرق بين أصابعه.

وقوله: «**فيسمع الكلمة، فيلقيها إلى من تحته**»؛ أي: سمع أعلى المسترقين الكلمة، فيلقيها إلى من تحته؛ أي: يخبره بها.

---

(١) رواه البخاري برقم (٣٢١٠).

وقوله: «**ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها**»؛ أي: يلقي الكلمة آخرهم الذي في الأرض على لسان الساحر أو الكاهن.

والسحر: عزائم ورقى وتعوذات تؤثر في بدن المسحور وقلبه وعقله وتفكيره.

والكاهن: هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل.

والسحرة قد يكون لهم من الجن من يسترق لهم السمع.

ولا يصل هؤلاء المسترقون إلا إلى السماء الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ [الأنبياء: ٣٢]؛ فلا يمكن نفوذه إلى ما فوقه.

وقوله: «**فربما أدركه الشهاب...**»؛ الشهاب: جزء منفصل من النجوم، ثاقب، قوي، ينفذ فيما يصطدم به.

قال العلماء: في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ﴾ [الملك: ٥]؛ أي: جعلنا شهابها الذي ينطلق منها؛ فهذا من باب عود الضمير إلى الجزء لا إلى الكل.

فالشهب: نيازك تنطلق من النجوم.

وهي كما قال أهل الفلك: تنزل إلى الأرض، وقد تحدث تصدعا فيها، أما النجم، فلو وصل إلى الأرض لأحرقها.

وقوله: «**فيكذب معها مئة كذبة**»؛ أي: الكاهن أو الساحر.

وقوله: «**فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟**»؛ أي: أنه قبل الباطل.

والناس في الأمور الغريبة على حسب ما أخبر به المخبر يأخذون كل ما يقوله صدقًا، فإذا أخبر بشيء فوقع، ثم أخبر بشيء ثان؛ قالوا: إذن لابد أن يصدق.

واعلم أن الأمر إذا كان فيه شيء من الحق فلا يدل على أنه حق كله، فكثيراً ما يلبس أهل الضلال الحق بالباطل ليكون أقبل لباطلهم، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٤٢].

واختلف العلماء: هل المسترقون انقطعوا عن الاستراق بعد بعثة الرسول ﷺ إلى الأبد، أو انقطعوا في وقته فقط؟.

والثاني هو الأقرب: أنهم انقطعوا في وقت البعثة فقط، حتى لا يلتبس كلام الكهان بالوحي، ثم بعد ذلك زال السبب الذي من أجله انقطعوا.

وقوله: «**فيكذب معها مئة كذبة**»، هل هذا على سبيل التحديد، أو المراد: المبالغة؛

أي: أنه يكذب معها كذبات كثيرة؟.

الثاني هو الأقرب، وقد تزيد عن ذلك وقد تنقص؛ «**فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟**».

وَقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «إِذَا تَكَلَّمَ الله تَعَالَى بِالْوَحْيِ، سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاءِ لِلسَّمَاءِ صَلْصَلَةً كَجَرِّ السِّلْسِلَةِ عَلَى الصَّفَا، فَيُصْعَقُوْنَ،فَلَا يَزَالُوْنَ كَذَلِكَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ جِبْرِيْلُ،حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ جِبْرِيْلُ فُزِّعَ عَنْ قُلُوْبِهِمْ، فَيَقُوْلُوْنَ: يَا جِبْرِيْلُ؛ مَاذَا قَالَ رَبُّكَ؟، فَيَقُوْلُ: الحَقَّ، فَيَقُوْلُوْنَ: الحَقَّ الحَقَّ»[1].

قوله: «**إذا تكلم الله بالوحي**» أي: أن الوحي من كلام الله عز وجل، وأنه يتكلم به، وأنه يسمع منه، ولذلك قال: «**إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء للسماء صلصلة**».

وقوله: «**صلصلة**»، هي صوت وقوع الحديد بعضه على بعض.

وقوله: «**كجر السلسلة على الصفا**»؛ السلسلة هي الحلقات من الحديد المرتبط بعضها ببعض.

وقوله: «**الصفا**» جمع صفاة وهي الصخرة والحجر الأملس، فإنها إذا جرت على الصفا سمع لها صوت متقطع بسبب سحبها عليه، وهو يسمى الصلصلة.

وقوله: «**فيصعقون**»؛ أي: فيصيب أهل السماوات غشي وصعق، ولا يزالون كذلك حتى يأتي جبريل عليه السلام بالوحي من الله عز وجل، فيفيقون، ويقولون: «**ماذا قال ربك؟ فيقول: الحق، فيقولون: الحق الحق**»؛ يعني: أنه قال الحق.

* * *

(١) رواه أبو داود برقم (٤٧٣٨)، وصححه الألباني؛ انظر «سلسلة الأحاديث الصحيحة» برقم (١٢٩٣).

المسألة (السابعة عشرة):
فِي إِثْبَاتِ الشَّفَاعَةِ لله وَأَنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا بِإِذْنِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

قوله: «**الشفاعة**»؛ فهي لغة: اسم من شفع يشفع، إذا جعل الشيء اثنين، والشفع ضد الوتر، قال الله تعالى: ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ [الفجر: ٣]؛ واصطلاحًا: التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة؛ مثال جلب المنفعة: شفاعة النبي ﷺ لأهل الجنة بدخولها؛ ومثال دفعة المضرة: شفاعة النبي ﷺ لمن استحق النار أن لا يدخلها.

وذِكْر الشفاعة هنا؛ لأن المشركين الذين يعبدون الأصنام يقولون: إن الأصنام شفعاء لهم عند الله تعالى، وهم يشركون بالله سبحانه وتعالى فيها بالدعاء والاستغاثة وما أشبه ذلك، وهم بذلك يظنون أنهم معظمون الله عز وجل، ولكنهم منتقصون له؛ لأنه عليم بكل شيء، وله الحكم التام المطلق والقدرة التامة، ولهذا لا تكون الشفاعة عنده سبحانه إلا بإذنه لكمال سلطانه وعظمته.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١].

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾؛ الإنذار: هو الإعلام المتضمن للتخويف، أما مجرد الخبر، فليس بإنذار، والخطاب للنبي ﷺ.

وقوله: ﴿بِهِ﴾ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أي: «بالقرآن».

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، هم المؤمنون؛ قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: ليس كل خلقه عاتب، إنما عاتب الذين يعقلون، فقال: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾؛ وهم المؤمنون أصحاب العقول الواعية.

وقوله: ﴿يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ﴾؛ أي: يخافون مما يقع لهم من سوء العذاب في

ذلك الحشر؛ والحشر: الجمع، وقد ضمن هنا معنى الضم والانتهاء؛ فمعنى يحشرون؛ أي: يجمعون حتى ينتهوا إلى الله تعالى.

وقوله: ﴿**لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ**﴾؛ يعني: أن الشفيع في الحقيقة هو الله جل جلاله دون ما سواه.

فالشفاعة جميعا ملك لله تعالى، وأهل الإيمان وغيرهم في الحقيقة ليس لهم من دون الله ولي ولا شفيع، فليس من أحد يشفع لهم من دون الله جل وعلا بل لا بد أن تكون الشفاعة بإذنه وبرضاه.

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤].

قبل هذه الآية؛ قوله تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾؛ فقوله: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ ﴾: يا محمد، ﴿أَوَلَوْ كَانُواْ ﴾؛ أي: وإن كانوا؛ يعني الآلهة، ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا﴾ من الشفاعة ﴿وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾.

فجاء بعدها قوله: ﴿**قُل**﴾؛ أي: يا محمد ﴿**لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا**﴾.

فقوله تعالى: ﴿**لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ**﴾؛ المعنى: لله وحده الشفاعة كلها، لا يوجد شيء منها خارج عن إذن الله تعالى وإرادته.

وقوله: ﴿**جَمِيعًا**﴾ أفادت أن هناك أنواعـًا للشفاعة؛ وقد قسم أهل العلم رحمهم الله تعالى الشفاعة إلى قسمين رئيسيين؛ هما:

القسم الأول: الشفاعة الخاصة بالرسول ﷺ؛ وهي أنواع:

النوع الأول: الشفاعة العظمى؛ وهي من المقام المحمود الذي وعده الله تعالى، فإن الناس يلحقهم يوم القيامة في ذلك الموقف العظيم من الغم والكرب ما لا يطيقونه، فيقول بعضهم لبعض: اطلبوا من يشفع لنا عند الله عز وجل، فيذهبون إلى آدم أبي البشر عليه السلام، فيذكرون من أوصافه التي ميزه الله تعالى بها؛ أن الله سبحانه خلقه بيده، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل

شـيء، فيقولون: اشـفع لنا عند ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟! فيعتذر، ثم يذهبون إلى نوح عليه السلام، ويذكرون من أوصافه التي امتاز بها؛ بأنه أول رسول أرسله الله تعالى إلى الأرض، فيعتذر، ثم يذهبون إلى إبراهيم عليه السلام، فيذكرون من صفاته، ثم يعتذر، ثم يذهبون إلى موسى عليه السلام فيذكرون أوصافه ما يقتضي أن يشفع، فيعتذر، ثم يذهبون إلى عيسى عليه السلام، فيذكرون من أوصافه ما يقتضي أن يشفع، فلا يعتذر بشيء، لكن يحيل إلى من هو أعلى مقامًا، فيقول: اذهبوا إلى محمد ﷺ، فيقولون: يا محمد، أنت رسول الله وخام الأنبياء، وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فيشفع إلى الله عز وجل ليريح أهل الموقف[1].

النوع الثاني: شفاعته ﷺ في أهل الجنة أن يدخلوها[2]؛ لأنهم إذا عبروا الصراط ووصلوا إليها وجدوها مغلقة، فيطلبون من يشفع لهم، فيشفع النبي ﷺ إلى الله جل وعلا في فتح أبواب الجنة لأهلها.

النوع الثالث: شفاعته ﷺ في عمه أبي طالب أن يخفف عنه العذاب[3]، وهذه مستثناة من قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩]، وذلك لما كان لأبي طالب من نصرة للنبي ﷺ ودفاع عنه، وهو لم يخرج من النار، لكن خفف عنه حتى صار - والعياذ بالله - في ضحضاح من نار، وعليه نعلان يغلي منهما دماغه، وهذه الشفاعة خاصة بالرسول ﷺ لا أحد يشفع في كافر أبداً إلا النبي ﷺ، ومع ذلك لم تقبل الشفاعة كاملة، وإنما هي تخفيف فقط.

القسم الثاني: الشفاعة العامة له ﷺ ولجميع المؤمنين؛ وهي أنواع:

النوع الأول: الشفاعة فيمن استحق العقاب بالنار من المسلمين أن لا يدخلها، وهذه قد يستدل لها بقول الرسول ﷺ: «ما من مسلم يموت فيقوم على جنازته

---

(١) رواه البخاري برقم (٤٧١٢)، ومسلم برقم (١٩٣).

(٢) رواه مسلم برقم (١٩٦).

(٣) رواه البخاري برقم (٣٨٨٣)، ومسلم برقم (٢٠٩).

أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئًا، إلا شفعهم الله فيه»[1].

النوع الثاني: الشفاعة فيمن دخل النار من المسلمين أن يخرج منها، وقد تواترت بها الأحاديث وأجمع عليها الصحابة رضي الله عنهم، واتفق عليها أهل الملة ما عدا طائفتين؛ وهما: المعتزلة والخوارج؛ فإنهم ينكرون الشفاعة في أهل المعاصي مطلقًا؛ لأنهم يرون أن فاعل الكبيرة مخلد في النار، ومن استحق الخلود، فلا تنفع فيه الشفاعة.

النوع الثالث: الشفاعة في رفع درجات المؤمنين، وهذه تؤخذ من دعاء المؤمنين بعضهم لبعض؛ كما قال ﷺ في أبي سلمة رضي الله عنه: «اللهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهديين، وافسح له في قبره، ونور له فيه، واخلفه في عقبه»[2]، والدعاء شفاعة، كما قال ﷺ: «ما من مسلم يموت، فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئًا، إلا شفعهم الله فيه».

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

قوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ﴾؛ ﴿مَن﴾ اسم استفهام بمعنى النفي؛ أي: لا يشفع أحد عند الله سبحانه إلا بإذنه.

والمعنى: أنه لا أحد يشفع عند الله إلا بإذن الله تعالى؛ والنفي إذا جاء في سياق الاستفهام، يكون مضمنًا معنى التحدي؛ أي: إذا كان أحد يشفع بغير إذن الله عز وجل فأتِ به.

وقوله: ﴿عِندَهُۥٓ﴾؛ أي: الله سبحانه؛ فلا يشفع أحد عنده ولو كان مقربًا، كالملائكة المقربين، إلا بإذنه؛ والإذن لا يكون إلا بعد الرضى.

قال ابن جرير رحمه الله: نزلت لما قال الكفار: ما نعبد أوثاننا هذه إلا ليقربونا إلى الله جل جلاله زلفى؛ قال الله تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر: ٤٤].

---

(١) رواه مسلم برقم (٩٤٨).

(٢) رواه مسلم برقم (٩٢٠).

فليس لأحد أن يشـفع إلا بشـرط أن يأذن الله عز وجل له فلا أحد يشـفع عند الله تعـالى إلا بـإذنـه؛ فلا الملائكـة، ولا الأنبيـاء، ولا المقربون، يملكون شـيئـًا من الشفاعات، وإنما الله جل وعلا هو الذي يملك الشفاعة جميعـًا.

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

قوله تعـالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾، ﴿وَكَم﴾ خبرية للتكثير؛ والمعنى: ما أكثر الملائكة الذين في السـماء، والملائكة تكون في السـماوات وفي الأرض، ولكن أراد الملائكة التي في السـماوات العلى، وهي عند الله سـبحانه، فحتى الملائكة المقربون حملة العرش لا تغني شفاعتهم إلا من بعد أن يأذن الله تعالـى لمن يشاء ويرضى.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾، كقوله سـبحانه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وكقوله عز وجل: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣]؛ فإذا كان هذا في حق الملائكة المقربين، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة هذه الأنداد عند الله عز وجل، وهو لم يشـرع عبادتها ولا أذن فيها، بل قد نهى عنها على ألسنة جميع رسله، وأنزل بالنهي عن ذلك جميع كتبه؟.

إذا كانت الملائكة وهي في السـماوات في العلو لا تغني شـفاعتهم إلا بعد إذنه تعالى ورضاه، فكيف باللات والعزى وهي في الأرض؟!.

وقوله: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ﴾؛ يعني من الشـافعين ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾؛ أي: يرضى قول الشافع، ويرضى أيضـًا عن المشفوع له.

فالشفاعة لا تقع لأحد إلا بشرطين:

الأول: إذن الرب تعالى للشافع أن يشفع.

والثاني: رضاه عن المأذون بالشفاعة فيه.

وهو سبحانه وتعالى لا يرضى من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة إلا ما أريد به وجهه.

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ * وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢].

قوله تعالى: ﴿قُلِ﴾: يا محمد، لقريش حينما شكوا إليه ﷺ ما أصابهم من قحط ﴿ٱدْعُوا۟﴾، الأمر هنا للتحدي والتعجيز، وقوله: ﴿ٱدْعُوا۟﴾ يحتمل معنيين؛ هما:

١-أحضروهم.

٢- أدعوهم دعاء مسألة.

فلو دعوهم دعاء مسألة لا يستجيبون لهم؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]، يكفرون؛ أي: يتبرءون.

وقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾؛ واحدة الذر: وهي صغار النمل، ويضرب بها المثل في القلة.

وكذلك ما دون الذرة لا يملكونه؛ والمقصود بذكر الذرة المبالغة، وإذا قصد المبالغة بالشيء قلة أو كثرة، فلا مفهوم له؛ فالمراد الحكم العام؛ فمثلاً قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]؛ أي: مهما بالغت في الاستغفار.

وقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾؛ أي: ما لهؤلاء الذين تدعون من دون الله تعالى، ﴿فِيهِمَا﴾؛ أي: في السماوات والأرض، و﴿مِن شِرْكٍ﴾؛ أي: مشاركة؛ فهم لا يملكون ما دون الذرة انفراداً ولا مشاركة.

وقوله: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ الضمير في ﴿وَمَا لَهُۥ﴾ يعود إلى الله تعالى؛ وفي ﴿مِنْهُم﴾ يعود إلى الأصنام؛ أي: ما لله تعالى من هذه الأصنام ظهير، و ﴿ظَهِيرٍ﴾ بمعنى معين؛ أي: ليس لله سبحانه معين في أفعاله، وبذلك ينتفي عن هذه الأصنام كل ما يتعلق به العابدون، فهي لا تملك شيئًا على سبيل الانفراد ولا المشاركة ولا الإعانة؛ لأن من يعينك وإن كان غير شريك لك يكون له مِنّه عليك، فربما تحابيه في إعطائه ما يريد.

قال أبو العباس ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نفى الله تعالى عما سواه كل ما يتعلق به المشركون؛ فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه، أو يكون عونـًا لله عز وجل، ولم يبق إلا الشفاعة، فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]؛ فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون، هي منتفية يوم القيامة، كما نفاها القرآن، وأخبر النبي ﷺ أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده، لا يبدأ بالشفاعة أولاً، ثم يقال له: ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تُعط، واشفع تُشفع[1].

وقال له أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله؟، قال ﷺ: «من قال لا إله إلا الله خالصـًا من قلبه»[2].

فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله سبحانه، ولا تكون لمن أشرك بالله عز وجل.

وحقيقته: أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع، ليكرمه وينال المقام المحمود.

فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع، وقد بيَّن النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص».

***

---

(١) رواه البخاري برقم(٣٣٤٠)، ومسلم برقم (١٩٣).

(٢) رواه البخاري برقم(٩٩).

المسألة (الثامنة عشرة):
فِي أنَّ اللهَ وَحْدَهُ يَمْلِكُ الهِدَايَةَ

إن الهداية من أعز المطالب، ولما كان النبي ﷺ، وهو أفضل الخلق، وسيد ولد آدم، قد نفى الله تعالى عنه أن يملك الهداية، دل ذلك على أن الهداية بيد الله تعالى وحده.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [سبأ: ٢٢].

قوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾، الخطاب للنبي ﷺ، وكان يحب هداية عمه أبي طالب، أو من هو أعم.

فأنت يا محمد ولك المنزلة الرفيعة عند الله تعالى لا تستطيع أن تهدي من أحببت هدايته، ومعلوم أنه إذا أحب هدايته؛ فسوف يحرص عليه، ومع ذلك لا يتمكن من هذا الأمر؛ لأن الأمر كله بيد الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

فإذا كان النبي ﷺ ليس له من الأمر شيء، ولا يستطيع أن ينفع قرابته؛ كما جاء في قوله ﷺ: «يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئا»[1]، فما دونه ﷺ من باب أولى.

وقوله: ﴿لَا تَهْدِى﴾؛ ﴿لَا﴾ هنا نافية، و﴿تَهْدِى﴾ الهداية المنفية هنا؛ هي هداية التوفيق والإلهام؛ ومعناها: أن الله جل وعلا يجعل في قلب العبد من الإعانة الخاصة على قبول الهدى، ما لا يجعله لغيره، فالتوفيق إعانة خاصة لمن أراد الله تعالى توفيقه.

---

(١) رواه البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨).

وظاهر قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، أن النبي ﷺ يحب أبا طالب.

وهذا قد يكون على تقدير أن المفعول محذوف، والتقدير: من أحببت هدايته لا من أحببته هو، أو: أنه أحب عمه محبة طبيعية كمحبة الابن أباه ولو كان كافراً، أو أن ذلك قبل النهي عن محبة المشركين.

ويوجد نوع ثاني من الهداية المتعلقة بالمكلف: هي هداية الدلالة والإرشاد، وهذه ثابتة للنبي ﷺ بخصوصه، ولكل داع إلى الله تعالى، ولكل نبي ورسول، قال الله جل وعلا: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، وقال الله جل وعلا في نبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣]؛ ومعنى ﴿لَتَهْدِي﴾؛ أي: لتدل وترشد إلى صراط مستقيم بأبلغ أنواع الدلالة، وأبلغ أنواع الإرشاد، المؤيدين بالمعجزات والبراهين، الدالة على صدق ذلك الهادي، وصدق ذلك المرشد.

والمراد هنا: أن النفع وطلب النفع في هذه المطالب المهمة يجب أن يكون من الله جل وعلا، وأن محمداً ﷺ مع عِظَم شأنه عند ربه، وعظم مقامه عند ربه، وأنه سيد ولد آدم، وأفضل الخلق ﷺ، وأشرف الأنبياء والمرسلين إلا أنه لا يملك من الأمر شيئًا ﷺ.

فبطل إذاً تعلق القلوب في المطالب المهمة كالهداية، والمغفرة، وطلب الرضوان، وطلب دفع الشرور، وفي جلب الخيرات إلا بالله جل وعلا؛ فإنه هو الذي يجب أن تتعلق القلوب به - جل وعلا - خضوعًا وإنابةً ورغبًا، ورهبًا وإقبالاً عليه، وإعراضًا عما سواه - سبحانه وتعالى -.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول تعالى لرسوله: إنك يا محمد لا تهدي من أحببت؛ أي: ليس إليك ذلك، إنما عليك البلاغ والله تعالى يهدي من يشاء، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، كما قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

وَعَنِ ابْنِ المُسَيَّبِ عَنْ أَبِيْهِ قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ وَعِنْدَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ وَأَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ لَهُ: «يَا عَمِّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ»، فَقَالَا لَهُ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ؟ فَأَعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَعَادَا، فَكَانَ آخِرُ مَا قَالَ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُوْلَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ»، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [التوبة: ١١٣]، وَأَنْزَلَ اللهُ فِي أَبِي طَالِبٍ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾[1].

«**ابن المسيب**» هو سعيد بن المسيب، أحد العلماء والفقهاء الكبار، من التابعين.

و«**عن أبيه**»؛ أبوه هو المسيب بن حَزْن بن أبي وَهْبٍ المخزومي، له صحبه، عاش إلى خلافة عثمان، رضي الله عنهما.

وقوله: «**الوفاة**»؛ يعني: الموت.

وقوله: «**قل: لا إله إلا الله**»، يجوز أنه قال على سبيل الأمر والإلزام؛ لأنه يجب أن يأمر كل أحد أن يقول: لا إله إلا الله، ويجوز أنه قال له ذلك على سبيل الترجي والتلطف معه، وأبو طالب والذين عنده يعرفون هذه الكلمة ويعرفون معناها، ولهذا بادروا بالإنكار.

وقوله: «**أُحاج**»؛ المعنى: أذكرها حجة لك عند الله تعالى، وجاء في بعض الروايات أنه قال ﷺ: «أشهد لك بها عند الله»[2].

وقوله: «**فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟**»، القائلان هما: عبد الله بن أبي أمية، وأبو جهل، والاستفهام للإنكار عليه؛ لأنهما عرفا أنه إذا قالها – أي: كلمة

---

(١) رواه البخاري برقم (١٣٦٠)، ومسلم برقم (٢٤).

(٢) رواه مسلم برقم (١٧٩).

الإخلاص - وَحَّدَ، وملة عبد المطلب هي الشـرك، وذكرا له ما تهيج به نَعْرَته، وهي ملة عبد المطلب حتى لا يخرج عن ملة آبائه.

وقد مات أبو جهل على ملة عبد المطلب، أما عبدالله بن أبي أمية والمسيب الذي روى الحديث، فأسلما؛ فأسلم من هؤلاء الثلاثة رجلان، رضي الله عنهما.

وقوله: «**ملة عبد المطلب**»؛ أي: دين عبد المطلب.

وقوله: «**فأعاد عليه النبي ﷺ**»؛ أي: قوله: «**قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله تعالى**».

وقوله: «**فأعادا عليه**»؛ أي: قولهما: «**أترغب عن ملة عبد المطلب**».

ومن حكمة الرب سـبحانه وتعالى في عدم هداية أبي طالب إلى الإسـلام ليبين لعباده أن ذلك إليه، وهو القادر عليه دون مَن سـواه، فلو كان عند النبي ﷺ الذي هو أفضـل خلقه، من هداية القلوب، وتفريج الكروب، ومغفرة الذنوب، والنجاة من العذاب، ونحو ذلك شـيء، لكان أحق الناس بذلك، وأولاهم به، عَمُّه الذي كان يحوطه ويحميه وينصره ويؤويه، فسبحان من بهرت حكمته العقول، وأرشد العباد إلى ما يدلهم على معرفته وتوحيده، وإخلاص العمل له وتجريده.

وقوله: «**هو على ملة عبد المطلب**»؛ الظاهر أن أبا طالب قال: أنا، فغير الراوي هذا اللفظ لـ«هو» استقباحـًا أن يَنْسِب لنفسه النطق بالكفر، وعَدَّها بعض العلماء من التصرفات الحسنة.

وقوله: «**وأبى أن يقول: لا إله إلا الله**»، هذا تأكيد من الراوي في نفي وقوع ذلك من أبي طالب.

وقوله: «**فقال النبي ﷺ: لأسـتغفرن لك ما لم أنه عنك**»؛ الاسـتغفار: طلب المغفرة، وكأن النبي ﷺ في نفسه شيء من أنه سيُنْهَى، حيث قال: «**ما لم أنه عنك**»؛ فوقع الأمر كما توقع، ونُهِي عنه.

وقوله: «**ما لم أنه عنك**»؛ الناهي عنه، هو الله سبحانه وتعالى.

وكانت وفاة أبي طالب بمكة قبل الهجرة بقليل.

وقوله: ﴿**أَن يَسْتَغْفِرُواْ**﴾؛ أي: يطلبوا المغفرة للمشركين.

وقوله: ﴿**وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ**﴾؛ أي: حتى ولو كانوا أقارب لهم، ولهذا لما

اعتمر النبي ﷺ، ومرَّ بقبر أُمِّهِ استأذن الله عز وجل أن يستغفر لها فلم يأذن الله تعالى له، فاستأذنه أن يزور قبرها فأذن له؛ فزاره للاعتبار، وبكى وأبكى من حوله من الصحابة(١).

فالله جل جلاله منعه من طلب المغفرة للمشركين؛ لأن هؤلاء المشركين ليسوا أهلا للمغفرة؛ لأنك إذا دعوت الله تعالى أن يفعل ما لا يليق؛ فهو اعتداء في الدعاء.

وقوله: «**وأنزل الله في أبي طالب**»؛ أي: في شأنه؛ وهذا مشعر بأن الآية الأولى نزلت في أبي طالب وفي غيره، والآية الثانية نزلت في أبي طالب وحده.

وقوله: ﴿**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ**﴾، الخطاب للرسول ﷺ؛ أي: لا تُوَفِّق مَن أحببت للهداية.

وقوله: ﴿**يَهْدِي مَن يَشَآءُ**﴾؛ أي: يهدي هداية التوفيق من يشاء، واعلم أن كل فعل يضاف إلى مشيئة الله تعالى؛ فهو مقرون بالحكمة؛ أي: من اقتضت حكمته أن يهديه فإنه يهتدي، ومن اقتضت حكمته أن يضله أضله.

وهذا الحديث يقطع وسائل الشرك بالرسول ﷺ وغيره؛ فالذين يلجئون إليه ﷺ ويستنجدون به مشركون، فلا ينفعهم ذلك؛ لأنه لم يؤذن له أن يستغفر لعمه، مع أنه قد قام معه قياماً عظيماً، ناصره وآزره في دعوته؛ فكيف بغيره ممن يشركون بالله جل وعلا؟!.

* * *

(١) رواه مسلم برقم (٩٧٦).

المسألة (التاسعة عشرة):
فِي أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِمْ دِيْنَهُمْ هُوَ الغُلُوُّ فِي الصَّالِحِيْنَ

إذا كان التوحيد ظاهراً، والأدلة عليه من النصوص بَيِّنَة؛ فكيف -إذاً- دخل الشرك؟، وكيف وقع الناس فيه، والأدلة على انتفائه، وبطلانه، وعدم جوازه، ظاهرة؟!، مع أن الرسل جميعًا عليهم الصلاة والسلام بعثوا ليُعْبَد الله وحده دون ما سواه، كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ [النحل: ٣٦].

والإجابة على هذه الأسئلة: فيه بيان أن سبب الشرك وسبب الكفر؛ هو الغلو الذي نهى الله جل وعلا عنه، ونهى عنه رسوله ﷺ سواء في هذه الأمة، أو في الأمم السابقة، فأحد أسباب وقوع الكفر والشرك هو الغلو في الصالحين، بل هو سببهما الأعظم.

وقوله: «**سبب كفر بني آدم**»؛ السبب في اللغة: ما يتوصل به إلى غيره، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ﴾ [الحج: ١٥]؛ أي: بشيء يوصله إلى السماء، ومنه أيضًا سمي الحبل سببًا؛ لأنه يتوصل به إلى استسقاء الماء من البئر.

و أما في الاصطلاح عند أهل الأصول: فهو الذي يلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم؛ أي: إذا وجد السبب وجد المسبب، وإذا عدم السبب عدم المسبب، إلا أن يكون هناك سبب آخر يثبت به المسبب.

وقوله: «**بني آدم**»، يشمل الرجال والنساء؛ لأنه إذا قيل: بنو فلان، وهم قبيلة، شمل ذكورهم وإناثهم.

وقوله: «**وتركهم**»؛ يعني: وسبب تركهم «**دينهم**».

وقوله: «**هو الغلو**»؛ الغلو: هو مجاوزة الحد في الثناء مدحـًا أو قدحـًا.

والمراد هنا: مجاوزة الحد في الثناء مدحـًا.

وقوله: «**الغلو في الصالحين**»؛ أي: هو سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم الذي أمروا به، أنهم تجاوزوا الحد الواجب في تعظيمهم، حتى آل بهم الأمر إلى الشرك.

وكلمة «**الصالحين**» تشمل كل من قام به هذا الوصف من الأنبياء والرسل، والأولياء، من أيِّ أمةٍ كانوا.

وأصل كلمة «**الصالحين**»، أنها جمع الصالح؛ والصالح هو اسم مَن قام به الصلاح، والصلاح في الكتاب والسنة تارة يكون بمعنى نفي الفساد؛ أي: ما يقابل الفساد، وتارة يكون بمعنى ما يقابل السيئات؛ فيقال: صالح بمعنى ليس به فساد، ويقال أيضـًا: صالح بمعنى ليس بسيئ.

فالصالحون هم أهل الطاعة والإخلاص لله جل وعلا، الذين اجتنبوا الفساد، واجتنبوا السيئات، وهم الذين اشتركوا في فعل الطاعات، وترك المحرمات، أو كانوا من السابقين بالخيرات.

قَالَ الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ [النساء: ١٧١].

قوله: ﴿**يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ**﴾؛ نداء لليهود والنصارى، والكتاب: هو التوراة لليهود، والإنجيل للنصارى.

وقوله: ﴿**لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ**﴾؛ أي: لا تتجاوزوا الحد مدحـًا أو قدحـًا، والأمر واقع كذلك بالنسبة لأهل الكتاب عمومـًا؛ فإنهم غلوا في عيسى بن مريم عليه السلام مدحـًا وقدحـًا، حيث قالت النصارى: إنه ابن الله، وجعلوه ثالث ثلاثة، واليهود غلوا

فيه قدحـًا، وقالوا: إن أمه زانية، وإنه ولد زنا، قاتلهم الله؛ فكل من الطرفين غلا في دينه وتجاوز الحد بين إفراط وتفريط.

والحد الذي أذن به الشرع في حق الصالحين من الرسل والأنبياء، حتى لا يكون تعظيمهم مجاوزة للحد المعلوم، هو بالأخذ بشرائعهم، واتباعهم والاقتداء بهم مع المحبة والاحترام، والموالاة والنصرة، وغير ذلك من المعاني الداخلة في الحد المأذون به في حقهم.

وهي الشاهد من هذه الآية؛ فنهى عن الغلو في الدين؛ لأنه يتضمن مفاسد كثيرة.

وقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾؛ والحق ما قاله - سبحانه وتعالى - عن نفسه بأنه: إله واحد، أحد، صمد، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً.

وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾، هذه صيغة حصر؛ فيكون المعنى: ما المسيح عيسى بن مريم إلا رسول الله، وأضافه إلى أمه ليقطع قول النصارى الذي يضيفونه إلى الله تعالى.

وفي قوله: ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾، إبطال لقول اليهود عنه: إنه كذاب، ولقول النصارى عنه: إنه إله.

وقوله: ﴿وَكَلِمَتُهُ﴾؛ أي: إنه قال له: كن فكان،وهو إبطال لقول اليهود عنه: إنه ابن زنا.

وقوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾؛ أي: إنه - عز وجل - جعل عيسى عليه السلام كغيره من بني آدم من جسد وروح، وأضاف روحه إليه تشريفـًا وتكريمـًا؛ كما في قوله تعالى في آدم عليه السلام: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩؛ ص: ٧٢]؛ فهذا للتشريف والتكريم.

وقوله: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾الخطاب لأهل الكتاب، ومِن رُسله محمد ﷺ، الذي هو آخرهم وخاتمهم وأفضلهم.

وقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾؛ أي: إن الله تعالى ثالث ثلاثة – تعالى الله عَمَّا يقولون علواً كبيراً –.

وقوله: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۘ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي

ٱلْأَرْضِ ﴾؛ أي: تنزيهـاً لـه أن يكون لـه ولـد؛ لأنـه مـالـك لمـا في السـماوات وما في الأرض، ومن جملتهم عيسـى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فهو من جملة المملوكين المربوبين؛ فكيف يكون إلهـاً مع الله أو ولداً لله تعالى؟!.

وقولـه: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾؛ أي: كفى بـالله تعـالى أن يكون حفيظـاً على عباده، مدبراً لأحوالهم، عالمـاً بأعمالهم.

وقـال الله تعـالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح: ٢٣].

جاء عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «هذه أسـماء رجالٍ صـالحين من قوم نوحٍ، فلما هلكوا، أوحى الشـيطان إلى قومهم أن انصـبوا إلى مجالسـهم التي كانوا يجلسـون فيها أنصـاباً، وسـموها بأسـمائهم، ففعلوا، ولم تعبد، حتى إذا هلك أولئك، ونسي العلم، عُبِدت»[(١)].

وقوله: ﴿وَقَالُواْ ﴾؛ أي: قال بعضهم لبعض.

وقوله: ﴿لَا تَذَرُنَّ ﴾؛ أي: لا تدعن وتتركن.

وقولـه: ﴿ءَالِهَتَكُمْ ﴾؛ المراد: لا تـذروا عبـادتهـا ولا تمكنوا أحـداً من إهـانتهـا؟، وانصـروا آلهتكم، ولا تـدعوهـا للنـاس، بـل احرصـوا عليهـا، وهذا من التواصـي بالباطل، عكس الذين آمنوا وعملوا الصالحات يتواصون بالحق.

وقوله: ﴿وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾، هذه الخمسـة كأن لها مزية على غيرها؛ لأن قوله: ﴿ءَالِهَتَكُمْ ﴾ عام يشمل كل ما يعبدون، فخصوها بالذكر.

والآلهـة: جمع إله، وهو كل ما عُبِدَ، سـواء بحق أو بباطل، لكن إذا كان المعبود هو الله عز وجل؛ فهو حق، وإن كان غير الله تعالى؛ فهو باطل.

وقول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هذه أسـماء رجال صـالحين من قوم نوح»؛ فنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ

---

(١) رواه البخاري برقم (٤٩٢٠).

هو أول رسول بعثه الله تعالى بعبادة الله وحده دون مَن سواه، وبالدعوة إلى التوحيد، لما وقع الشرك في قومه، ولقد دخل الشرك في قوم نوح عن طريق الغلو في الصالحين، كما قال ابن عباس رضي الله عنه هنا في بيان أصل وقوع هذا الشرك.

وقول ابن عباس رضي الله عنهما: «أوحى الشيطان» الوحي إلقاءٌ في خفاء؛ أي: وحي وسوسة، وليس وحي إلهام.

والشيطان لا يتحدث عَلناً ولكن يلقي في خفاء؛ فألقى الشيطان في روعهم، فكان سبباً للشرك بالله جل وعلا.

وقال ابن القيم رحمه الله: «قال غير واحد من السلف: لما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم».

ومعنى قوله: «أن انصبوا إلى مجالسهم»؛ الأنصاب: جمع نصب، وهو كل ما ينصب من عصا أو حجر أو غيره؛ أي: وضعوا أنصاباً في مجالسهم، وقولوا: هذا وَدٌّ، وهذا سُوَاع، وهذا يَغُوث، وهذا يَعُوق، وهذا نَسْر؛ لأجل إذا رأيتموهم تتذكروا عبادتهم فتنشطوا عليها، هكذا زين لهم الشيطان، وهذا غرور ووسوسة من الشيطان، كما قال لآدم عليه السلام: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]، وإذا كان العبد لا يتذكر عبادة الله تعالى إلا برؤية أشباح هؤلاء؛ فهذه عبادة قاصرة أو معدومة.

الشاهد أن أولئك توجهوا إلى صور الصالحين، وكانوا أهل علم يعلمون أنهم إذا اتخذوا هذه الصور، فإنهم لن يعبدوها، لكن كانت تلك الصور للصالحين والمعظمين وسيلة وطريقاً وسبباً لأن عُبِدَت في المستقبل لَمَّا نُسِي العلم.

وَقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «لَا تَطْرُوْنِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُوْلُوا: عَبْدُ الله وَرَسُوْلُهُ»[1].

قوله: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم**»؛ الإطراء مجاوزة الحد في المدح؛ والمعنى لا تمدحوني بالباطل، ولا تجاوزوا الحد في مدحي.

(١) رواه البخاري برقم (٣٣٤٥).

وقوله: «**إنما أنا عبد**»؛ أي: ليس لي حق من الربوبية، ولا مما يختص به الله عز وجل أبداً.

وقوله: «**فقولوا: عبد الله ورسوله**»، هذان الوصفان أصدق وصف وأشرفه في الرسول ﷺ؛ فأشرف وصف للإنسان أن يكون من عباد الله سبحانه، قال الله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات: ١٧١]؛ فوصفهم الله تعالى بالعبودية قبل الرسالة مع أن الرسالة شرف عظيم، لكن كونهم عباداً لله عز وجل أشرف وأعظم.

فمحمد ﷺ عبدٌ لا يُعبد، ورسولٌ لا يكذَّب، ولهذا نقول في صلاتنا عندما نسلم عليه ونشهد له بالرسالة: وأشهد أن محمدا عبده ورسوله؛ فهذا أفضل وصف اختاره النبي ﷺ لنفسه.

وَقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالغُلُوَّ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الغُلُوُّ»[(١)].

قوله: «**إياكم**»، للتحذير.

وقوله: «**والغلو**»؛ الغلو: هو مجاوزة الحد مدحاً أو ذماً، وقد يشمل ما هو أكثر من ذلك أيضاً؛ فيقال: مجاوزة الحد في الثناء وفي التعبد وفي العمل؛ لأن هذا الحديث ورد في رمي الجمرات، حيث روى ابن عباس رضي الله عنهما؛ أن رسول الله ﷺ غداة العقبة وهو على ناقته قال: «القط لي حصى، فلقطت له سبع حصيات، هن حصى الخذف؛ فجعل ينفضهن في كفه، ويقول: أمثال هؤلاء فارموا، وإياكم والغلو في الدين؛ فإنما أهلك من قبلكم الغلو في الدين»[(٢)].

وقوله: «**من كان قبلكم**»؛ أي: الأمم السابقة.

وقوله: «**أهلك**»، يحتمل معنيين:

---

(١) رواه أحمد (١/ ٢١٥-٣٤٧)، والنسائي (٥/ ٢٦٨)، وابن ماجة برقم (٣٠٢٩)، وصححه الألباني؛ انظر «سلسلة الأحاديث الصحيحة» برقم (١٢٨٣).

(٢) هذا لفظ ابن ماجة.

الأول: أن المراد هلاك الدين، وعليه يكون الهلاك واقعـًا مباشـرة من الغلو؛ لأن مجرد الغلو هلاك.

الثاني: أنه هلاك الأجسام، وعليه يكون الغلو سببـًا للهلاك؛ أي: إذا غلوا خرجوا عن طاعة الله عز وجل فأهلكهم الله تعالى.

وَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: «هَلَكَ المُتَنَطِّعُوْنَ» - قَالَهَا ثَلَاثـًا -[1].

قوله: «**المتنطعون**»، المتنطع: هو المتعمق المتقعر المتشدق، سواء كان في الكلام أو في الأفعال، والتنطع والإطراء والغلو متقاربة المعنى يجمعها مجاوزة الحد المشروع، والغلو يشمل الإطراء، ويشمل التنطع، فكل تنطع، وكل إطراء غلو، والغلو اسم جامع لهذه جميعا.

والتنطع في المسائل الدينية يشبه الغلو فيها؛ فهو أيضـًا من أسباب الهلاك.

ومن التنطع: الامتناع من المباح مطلقـًا؛ كالذي يمتنع من أكل اللحم والخبز، ومِن لبس الكتان والقطن، ولا يلبس إلا الصوف، ويمتنع من نكاح النساء، ويظن أن هذا من الزهد المستحب.

وقوله: «**قالها ثلاثـًا**»؛ أي: قال: «هلك المتنطعون، هلك المتنطعون، هلك المتنطعون»، فيها مبالغة في التعليم والإبلاغ، فقد بَلَّغ البلاغ المبين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

(١) رواه مسلم برقم (٢٦٧٠).

المسألة (العشرون):
فِي التَّغْلِيْظِ عَلَى مَنْ عَبَدَ اللهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ فَكَيْفَ إِذَا عبَدَهُ؟

إن النبي ﷺ كان حريصـًا على هذه الأمة، ومن تمام حرصه على الأمة، أن حذرهم كلَّ وسيلة تصل بهم إلى الشرك، وسد جميع الذرائع الموصلة إلى الشرك، وغَلَّظَ على من يفعلون شيئًا من تلك الوسائل، أو الذرائع الموصلة إلى الشرك.

وقوله: «**عبد الله عند قبر**»؛ يعني: أنه لم يشرك بالله، بل عَبَدَ الله وَحْدَه، بأن صلى لله سبحانه مخلصًا، أو دعا لله تعالى مخلصًا، أو تضرع واستغاث، واستعاذ بالله جل وعلا عند قبر.

وصورة ذلك أن يأتي آتٍ إلى قبر رجل صالح، يعلم صلاحه، كأن يكون من الأنبياء والمرسلين، أو أن يكون من صالحي هذه الأمة، أو صالحي أمة غير هذه الأمة، فيتحرى ذلك المكان، كي يعبد الله وحده، دون ما سواه، رجاء بركة هذه البقعة.

وقوله: «**فكيف إذا عبده؟**»؛ يعني: إذا كان هذا التغليظ واللعن، قد جاء في حق من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد، ومن أسرج على القبور، أو عظَّمها، وعظَّم مَن فيها، وعَبَدَ الله وَحْدَهُ عندها؛ إذا كان هذا قد جاءت النصوص بلعن فاعله، وأنه من شرار الخلق عند الله عز وجل، فكيف إذا توجه ذلك العابد إلى صاحب القبر يدعوه ويرجوه، أو يخافه، أو يأمل منه، أو يستغيث به، أو يصلي له، أو يذبح له، أو يستشفع به؟!!، لا شك أن هذا أعظم وأعظم في التغليظ من عبادة الله وحده عند قبر رجل صالح.

عَنْ عَائِشَةَ ﵂: أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتْ لِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ كَنِيْسَةً رَأَتْهَا فِي أَرْضِ الحَبَشَـةِ، وَمَا فِيْهَا مِنَ الصُّـوَرِ، فَقَالَ ﷺ: «أُوْلَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيْهِمُ الرَّجُلُ الصَّـالِحُ أَوِ العَبْدُ الصَّـالِحُ بَنُوا عَلَى قَبْرِهِ مَسْـجِداً، وَصَـوَّرُوا فِيْهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، أُوْلَئِكَ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللهِ»[1].

«**أم سلمة**» هي هند بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية، زوج رسول الله ﷺ أم المؤمنين.

وقولها: «**ذكرت لرسول الله**»؛ أي: أخبرته وهو في مرض موته بما رأت، وفي رواية: أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا ذلك لرسول الله ﷺ.

وقولها: «**كنيسة**»؛ الكنيسة هي معبد النصارى.

وقولها: «**من الصور**» الظاهر أن هذه الصور معلقة ومجسمة أو تماثيل منصوبة.

وقوله: «**أولئك**»، المشار إليهم نصارى الحبشة، ويحتمل أن يراد من فعلوا هذه الأفعال أيًّا كانوا.

وقوله: «**الرجل الصالح أو العبد الصالح**»، و«**أو**» هنا شك من الراوي.

وقوله: «**بنوا على قبره**»؛ أي: قبر ذلك الرجل الصالح.

وقوله: «**صوروا فيه تلك الصور**»؛ أي: التي رأت، والأقرب أنها صورة ذلك الرجل الصالح، وربما أنهم يضيفون إلى صورته صورة بعض الصالحين، وربما تكون الصور على أحجام مختلفة، فتجتمع منها صور كثيرة.

وقوله: «**أولئك شرار الخلق عند الله**»؛ لأن عملهم هذا وسيلة إلى الكفر والشرك، وهذا أعظم الظلم وأشده، فما كان وسيلة إليه؛ فإن صاحبه يستحق بأن يكون من شرار الخلق عند الله سبحانه وتعالى.

وَعَنْ عَائِشَـةَ ﵂ قَالَتْ: لَمَّا نُزِلَ بِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيْصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَـفَهَا، فَقَالَ – وَهُوَ كَذَلِكَ –: «لَعْنَةُ اللهِ عَلَى

---

(١) رواه البخاري برقم (٤٢٧)، ومسلم برقم (٥٢٨).

اليَهُوْدِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُوْرَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»؛ يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا، وَلَوْلَا ذَلِكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِداً[1].

قولها: «**لما نزل برسول الله**»؛ أي: نزل به ملك الموت لقبض روحه.

وقولها: «**طفِق**»؛ أي: جعل.

وقولها: «**خميصة**»، هي كساء مربع له أعلام كان يطرحه النبي ﷺ على وجهه.

وقولها: «**فإذا اغتم بها**»؛ أي: أصابه الغم بسببها، وقد احتضر ﷺ.

وقولها: «**وهو كذلك**»؛ أي: وهو في هذه الحال عند الاحتضار.

وقوله: «**لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، يقول هذا في سياق الموت، و«**لعنة الله**»؛ أي: طرده وإبعاده، وهذه الجملة يحتمل أنه يراد بها ظاهر اللفظ؛ أي: أن النبي ﷺ يخبر بأن الله تعالى لعنهم، ويحتمل أن يراد بها الدعاء؛ والمعنى على هذا الاحتمال أن النبي ﷺ دعا عليهم، وهو في سياق الموت بسبب هذا الفعل.

وقوله: «**اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، الجملة هذه تعليل لقوله: «**لعنة الله على اليهود والنصارى**»، كأن قائلاً يقول: لماذا لعنهم النبي ﷺ؛ فكان الجواب: أنهم «**اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»؛ أي: أمكنة للسجود، سواء بنوا مساجد أم لا، يصلون ويعبدون الله تعالى فيها مع أنها مبنية على القبور.

وقولها: «**يحذر ما صنعوا**»، الظاهر أن هذا كلام عائشة رضي الله عنها؛ لأنها فهمت من قول النبي ﷺ ذلك تحذير أمته من هذا الصنيع الذي كانت تفعله اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم.

وقولها: «**ولولا ذلك أبرز قبره**»، أبرز؛ أي: أخرج من بيته؛ لأن البروز معناه الظهور؛ أي: لولا التحذير وخوف أن يتخذ قبره مسجداً؛ لأخرج ودفن في البقيع مثلاً، لكنه في بيته أصون له، وأبعد عن اتخاذه مسجداً؛ فلهذا لم يبرز قبره، وهذا أحد الأسباب التي أوجبت أن لا يبرز مكان قبره ﷺ، وأيضاً من الأسباب إخباره ﷺ:

---

(١) رواه البخاري برقم (٤٣٥)، ومسلم برقم (٥٣١).

«أنه ما قبض نبي إلا دفن حيث قبض»[1].

ولا مانع أن يكون للحكم الواحد سببان فأكثر، كما أن السبب الواحد قد يترتب عليه حكمان أو أكثر؛ كغروب الشمس يترتب عليه جواز إفطار الصائم، وصلاة المغرب.

وقولها: «**غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً**»؛ أي: خاف من اتخاذ قبره مسجداً، والصحابة رضي الله عنهم اتفقوا على أن يدفن ﷺ في بيته بعد تشاورهم، لأنهم خشوا ذلك.

ويجوز أن يكون بعضهم أشار بأن يدفن في بيته، وليس في ذهنه إلا هذه الخشية، وبعضهم أشار أن يدفن في بيته، وعنده علم بأنه ﷺ قال: «ما قبض نبي إلا دفن حيث قبض»، وخوفاً من اتخاذه مسجداً.

وإذا قال قائل: نحن واقعون في مشكلة بالنسبة لقبر الرسول ﷺ الآن، فإنه في وسط المسجد؛ فما هو الجواب؟.

قلنا: الجواب على ذلك من وجوه:

الأول: أن المسجد لم يبن على القبر؛ بل بني المسجد في حياة النبي ﷺ.

والثاني: أن النبي ﷺ لم يدفن في المسجد، حتى يقال: إن هذا من دفن الصالحين في المسجد، بل دفن في بيته.

والثالث: أن إدخال بيوت الرسول ﷺ، ومنها بيت عائشة رضي الله عنها مع المسجد ليس باتفاق من الصحابة رضي الله عنهم.

والرابع: أن القبر ليس في المسجد، حتى بعد إدخاله؛ لأنه في حجرة مستقلة عن المسجد؛ فليس المسجد مبنيا عليه، ولهذا جعل هذا المكان محفوظاً ومحوطاً بثلاثة جدران، وجعل الجدار في زاوية منحرفة عن القبلة؛ أي: مثلث، والركن في الزاوية الشمالية، بحيث لا يستقبله الإنسان إذا صلى لأنه منحرف.

---

(١) رواه أحمد (١/ ٧)، والترمذي برقم (١٠١٨)، وابن ماجة برقم (١٦٢٨)، وقال الألباني في كتابه «أحكام الجنائز» (ص١٧٣): «حديث ثابت بما له من الطرق والشواهد».

وَعَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوْتَ بِخَمْسٍ، وَهُوَ يَقُوْلُ: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى الله أَنْ يَكُوْنَ لِي مِنْكُمْ خَلِيْلٌ، فَإِنَّ الله قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيْلاً، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيْمَ خَلِيْلاً، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أُمَّتِي خَلِيْلاً، لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيْلاً، أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُوْنَ قُبُوْرَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا القُبُوْرَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»[1].

«**جندب بن عبد الله**» بن سفيان البجلي، أبو عبد الله، صحابي جليل، مات بعد الستين، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قوله: «**بخمس**»؛ أي: خمس ليال، لكن العرب تطلقها على الأيام والليالي.

وقوله: «**أبرأ**»؛ البراءة: هي التخلي؛ أي: أتخلى أن يكون لي منكم خليل.

وقوله: «**خليل**»، هو الذي يبلغ في الحب غايته؛ لأن حبه يكون قد تخلل الجسم كله.

والخلة أعظم أنواع المحبة وأعلاها، ولم يثبتها الله عز وجل فيما نعلم إلا لاثنين من خلقه، هما: إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٥]، ومحمد ﷺ في قوله ﷺ: «**إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلًا**».

وبهذا تعرف الجهل الذي يقوله بعض العامة: إن إبراهيم خليل الله، ومحمداً حبيب الله، وهذا تنقص في حق الرسول ﷺ؛ لأنهم بهذه المقالة جعلوا مرتبة النبي ﷺ دون مرتبة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنهم إذا جعلوا حبيب الله لم يفرقوا بينه وبين غيره من الناس؛ فإن الله تعالى يحب المحسنين والصابرين، وغيرهم ممن علق الله تعالى بفعلهم المحبة.

وقوله: «**فإن الله قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً**»، هذا تعليل لقوله:

---

(١) رواه مسلم برقم (٥٣٢).

«**إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل**»؛ فالنبي ﷺ ليس في قلبه خلة لأحد إلا الله عز وجل.

وقوله: «**ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً؛ لاتخذت أبا بكر خليلاً**» هذا نص صريح على أن أبا بكر رضي الله عنه أفضل الصحابة رضي الله عنهم.

واسم أبي بكر: عبد الله بن عثمان، وهو الصديق، خليفة رسول الله ﷺ، وأفضل الصحابة بإجماع من يعتد بقوله من أهل العلم.

وقوله: «**ألا وإن من كان قبلكم**»، إنكار النبي ﷺ صنيعهم هذا؛ يُخرَّج على وجهين:

أحدهما: أنهم يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً لهم.

الثاني: أنهم يجوزون الصلاة في مدافن الأنبياء والتوجه إليها حالة الصلاة، نظراً منهم بذلك إلى عبادة الله والمبالغة في تعظيم الأنبياء.

الأول: هو الشرك الجلي، والثاني: الخفي، فلذلك استحقوا اللعن.

وقوله: «**ألا فلا تتخذوا**»، هذا تنبيه آخر للنهي عن اتخاذ القبور مساجد، وهذا عام يشمل قبره وقبر غيره.

وقوله: «**فإني أنهاكم عن ذلك**»، هذا نهي باللفظ دون الأداة تأكيداً لهذا النهي لأهمية المقام.

ونهى عنه في آخر حياته، ثم إنه لعن ــ وهو في السياق ــ من فعله، والصلاة عندها من ذلك، وإن لم يُبْنَ مسجد، وهو معنى قولها رضي الله عنها: «غير أنه خشي أن يُتَّخَذ مسجداً»، فإن الصحابة رضي الله عنهم لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجداً، وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجداً، بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجداً، كما قال ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»[١].

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالَّذِيْنَ يَتَّخِذُوْنَ القُبُوْرَ مَسَاجِدَ»[٢].

---

(١) رواه البخاري برقم(٣٣٥)، ومسلم برقم(٥٢١).

(٢) رواه أحمد (١/ ٤٠٥)، وصححه الألباني؛ انظر كتابه «تحذير الساجد من اتخاذ القبور

قوله: «**إن من شرار الناس**»، شرار: جمع شر؛ والمعنى: أصحاب الشر، وفي هذا دليل على أن الناس يتفاوتون في الشر، وأن بعضهم أشد من بعض.

وقوله: «**من تدركهم الساعة**»، الساعة؛ أي: يوم القيامة، وسميت بذلك لأنها داهية، وكل شيء داهية عظيمة يسمى ساعة، كما يقال: هذه ساعتك في الأمور الداهية التي تصيب الإنسان.

وقوله: «**تدركهم الساعة وهم أحياء**»، ظاهره فيه إشكال، وهو أنه ثبت عن النبي ﷺ قوله: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله»[١]، وفي رواية: «حتى تقوم الساعة»[٢]؛ فكيف نوفق بين الحديثين؛ لأن ظاهر حديث المتن أن كل من تدركهم الساعة وهم أحياء؛ فهم من شرار الخلق؟!.

والجمع بينهما أن يقال: إن المراد بقوله: «حتى تقوم الساعة»؛ أي: إلى قرب قيام الساعة، وليس إلى قيامها بالفعل؛ لأنها لا تقوم إلا على شرار الخلق؛ فالله تعالى يرسل ريحاً تقبض نفس كل مؤمن، ولا يبقى إلا شرار الخلق، وعليهم تقوم الساعة، كما جاء عن النبي ﷺ[٣].

وقوله: «**والذين يتخذون القبور مساجد**»؛ أي: وإن من شرار الناس الذين يتخذون القبور مساجد؛ أي: بالصلاة عندها وإليها، وبناء المساجد عليها؛ فهم من شرار الخلق، وإن لم يشركوا؛ لأنهم فعلوا وسيلة من وسائل الشرك، والوسائل لها أحكام المقاصد، وإن كانت دون مرتبتها، لكنها تعطى حكمها بالمعنى العام، فإن كانت وسيلة لواجب صارت واجبة، وإن كانت وسيلة لمحرم؛ فهي محرمة.

***

مساجد» (ص ١٨).

(١) رواه البخاري برقم (٣٦٤٠)، ومسلم برقم (١٩٢١).

(٢) رواه مسلم برقم (١٩٢٢).

(٣) رواه مسلم برقم (٢٩٤٠).

المسألة (الحادية والعشرون):
أَنَّ الغُلُوَّ فِي قُبُوْرِ الصَّالحِيْنَ يُصَيِّرُهَا أَوْثَانًا تُعْبَدُ مِنْ دُوْنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ

قوله: «**يصيرها**»؛ يعني: يجعلها؛ أي: الغلو صار وسيلة لاتخاذها أوثانا، وقد يكون الغُلُوُّ جعلها وثنًا يُعبد من دون الله جل وعلا.

وهذا هو الواقع والمشاهد في كثير من بلاد الإسلام في أن القبور صارت أوثانًا تعبد من دون الله تعالى لما أقيمت عليها المشاهد والقباب، ودُعِي الناس إليها وذبح لها، وقبلت النذور لها، وصار يُطَاف حولها، ويعكف عندها ونحو ذلك من أنواع الشرك الأكبر بالله سبحانه.

وقوله: «**الصالحين**»، يشمل الأنبياء والأولياء، بل ومن دونهم.

وقوله: «**أوثانًا**»، جمع وثن؛ وهو كل ما نصب للعبادة.

وقوله: «**تعبد من دون الله**»؛ أي: من غيره، وهو شامل لما إذا عبدت وحدها أو عبدت مع الله تعالى؛ لأن الواجب في عبادة الله إفراده فيها، فإن قرن بها غيره صارت عبادة لغير الله تعالى.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾ [النجم: ١٩].

قوله تعالى: ﴿ **أَفَرَءَيْتُمُ** ﴾، الهمزة: للاستفهام، والمراد به التحقير، والخطاب لعابدي هذه الأصنام اللات والعزى.

لما ذكر الله تعالى المعراج، وما حصل فيه من الآيات العظيمة، التي قال الله عز وجل عنها: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ [النجم: ١٨]؛ قال: ﴿ **أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ** ﴾؛ أي: ما نسبة هذه الأصنام للآيات الكبيرة التي رآها النبي ﷺ ليلة المعراج.

وقوله: ﴿ٱللَّـٰتَ﴾؛ قيل: إنها كانت صخرة بيضاء عليها نقوش في الطائف، وقيل: إن أصلها: رجل كان يلت السويق للحجاج، فلما مات؛ عظموه، وعكفوا على قبره، وغلوا في قبره، وقالوا: هذا الرجل المحسن الذي يلت السويق للحجاج ويطعمهم إياه، ثم بعد ذلك عبدوه؛ فصار الغلو في القبور يصيرها أوثانًا تعبد من دون الله تعالى.

وفي هذا التحذير من الغلو في القبور، ولهذا نُهي عن تجصيصها والبناء عليها والكتابة عليها، خوفًا من هذا المحظور العظيم الذي يجعلها تعبد من دون الله تعالى، وكان الرسول ﷺ يأمر إذا بعث بعثًا: بـ«أن لا يدعوا قبراً مشرفًا إلا سووه»[1]؛ لعلمه أنه مع طول الزمان سيقال: لولا أن له مزية ما اختلف عن القبور؛ فالذي ينبغي أن تكون القبور متساوية لا ميزة لواحد منها عن البقية.

قال مجاهد بن جبر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾؛ إنه كان يلت لهم السويق فمات فعكفوا على قبره»[2]، وكذلك قال ابن عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «اللات» رجلاً يلت السويق للحاج[3].

و«السويق»، هو عبارة عن الشعير يحمص، ثم يطحن، ثم يُلَتّ؛ أي: يخلط بتمر أو شبهه، ثم يؤكل.

ومعنى: «فمات، فعكفوا على قبره»؛ أي: ثم عبدوه مع الله تعالى.

والغريب أن الناس في جاهليتهم يكرمون حجاج بيت الله سبحانه وتعالى، ويلتون لهم السويق، وأن العباس أيضًا يسقي لهم من زمزم، وفي الوقت الحاضر صار بعض الناس بالعكس يستغلون الحجاج غاية الاستغلال - والعياذ بالله -.

وقوله: ﴿وَٱلْعُزَّىٰ﴾ كانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة، بين مكة والطائف، كانت قريش يعظمونها ويسمونها العزى، كما قال أبو سفيان يوم أحد: لنا العزى ولا عزى لكم.

---

(١) رواه مسلم برقم (٩٦٩).

(٢) انظر «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٢٣).

(٣) رواه البخاري برقم (٤٨٥٩).

وجاء بعدها قوله تعالى: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٠]؛ و«مناة» كانت صخرة ضخمة بين مكة والمدينة؛ ومما ذكر في سبب تسميتها بمناة، أن دماء الذبائح كانت تمنى عندها؛ أي: تراق وتسكب.

وقوله: «الثالثة الأخرى»؛ المعنى: التحقير والذم، فهي المتأخرة الوضعية.

وذكر أن هذه الأسماء الثلاثة مشتقة من أسماء الله تعالى؛ فاللَّات من الإله، والعُزّى من العزيز، ومناة من المنان.

وَقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «اللهمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا،لَعَنَ الله قَوْمًا اتَّخَذُوا قُبُوْرَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» (١).

قوله: «**اللهم**»، أصلها: يا الله؛ فحذفت يا النداء لأجل البداءة باسم الله تعالى، وعوض عنها الميم الدالة على الجمع؛ فكأن الداعي جمع قلبه على الله عز وجل، وكانت الميم في الآخر لأجل البداءة باسم الله تعالى.

وقوله: «**لا تجعل قبري وثنًا**»؛ «**لا**»: للدعاء؛ لأنها طلب من الله تعالى، و«**تجعل**»؛ أي: تُصَيِّر.

وقوله: «**وثنًا**»؛ وفي رواية: «يعبد»، فتكون صفة لوثن، وهي صفة كاشفة؛ لأنه الوثن هو الذي يعبد من دون الله تعالى.

وإنما سأل النبي ﷺ ذلك؛ لأن من كان قبلنا جعلوا قبور أنبيائهم مساجد وعبدوا صالحيهم، فسأل النبي ﷺ ربه أن لا يجعل قبره وثنًا يعبد؛ لأن دعوته كلها بالتوحيد ومحاربة الشرك.

وقوله: «**اللهم لا تجعل قبري وثنًا**»، قد استجاب الله سبحانه دعاءه.

ودل الحديث على أن قبر النبي ﷺ لو عُبِد لكان وثنًا، لكن حماه الله تعالى بما حال بينه وبين الناس فلا يوصل إليه.

ودل الحديث على أن الوثن هو ما يباشره العابد من القبور والتوابيت التي عليها.

---

(١) رواه أحمد(٢/ ٢٤٦)، وصححه الألباني؛ انظر كتابه «تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد» (ص ١٨-١٩).

وقد عظمت الفتنة بالقبور لتعظيمها وعبادتها، كما قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يهرم فيها الكبير، وينشأ فيها الصغير، تجري على الناس، يتخذونها سنة، إذا غيرت قيل: غيرت السنة»[(١)].

ولخوف الفتنة نهى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن تتبع آثار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقال ابن وضاح: سمعت عيسى بن يونس يقول: «أمر عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقطع الشجرة التي بويع تحتها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[(٢)]، فقطعها؛ لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها، فخاف عليهم الفتنة.

وقال المعرور بن سويد: «صليت مع عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بطريق مكة صلاة الصبح، ثم رأى الناس يذهبون مذاهب، فقال: أين يذهب هؤلاء؟ فقيل: يا أمير المؤمنين، مسجد صلى فيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهم يصلون فيه، فقال: إنما هلك من كان قبلكم بمثل هذا، كانوا يتتبعون آثار أنبيائهم ويتخذونها كنائس وبيعًا، فمن أدركته الصلاة في هذه المساجد فليصل، ومن لا، فليمض ولا يتعمدها».

وقوله: «**اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»؛ أي: جعلوها مساجد؛ إما بالبناء عليها، أو بالصلاة عندها؛ فالصلاة عند القبور من اتخاذها مساجد، والبناء عليها من اتخاذها مساجد.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لَعَنَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَوَّارَاتِ القُبُوْرِ»[(٣)]، وفي رواية: «وَالمُتَّخِذِيْنَ عَلَيْهَا المَسَاجِدَ»[(٤)].

---

(١) رواه الدارمي(١/ ٦٠)، والحاكم(٤/ ٥١٤)، وصححه الألباني في «صلاة التراويح» ص(٥٠)، وقال: «وهذا وإن كان موقوفًا فهو في حكم الرفع؛ لأن ما فيه من التحدث عن أمور غيبية لا تقال إلا بالوحي، فهو من أعلام نبوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد تحققت كل جملة فيه»؛ والحديث في مصادره مطول، وهو هنا باختصار.

(٢) قال الحافظ في «الفتح» (٧/ ٤٤٨): «وجدت عند ابن سعد بإسناد صحيح عن نافع أن عمر رضي الله عنه بلغه أن قومًا يأتون الشجرة فيصلون عندها فتوعدهم ثم أمر بقطعها فقطعت».

(٣) رواه الترمذي برقم (١٠٥٦)، وابن ماجه برقم (١٥٧٦)، وصححه الألباني؛ انظر «إرواء الغليل» برقم (٧٧٤).

(٤) رواه أبو داود برقم (٣٢٣٦)، والترمذي برقم (٣٢٠)، والنسائي (٤/ ٩٤-٩٥)، وحسنه الألباني؛ انظر «سلسلة الأحاديث الضعيفة» برقم (٢٢٥)، و«تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد» (ص٤٣).

قوله: «**لعن**»، اللعن: هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله تعالى؛ ومعنى «**لعن رسول الله ﷺ**»؛ أي: دعا عليهم باللعنة.

وقوله: «**زوّارات القبور**»، صيغة مبالغة لزائرات: جمع زائرة؛ تدل على الكثرة؛ أي: كثرة الزيارة؛ وهذا النهي يحمل على تكرار الزيارة، لأن «**زوارات**» صيغة مبالغة؟.

واختلف العلماء في زيارة النساء للقبور، والراجح في هذا الخلاف: هو جوز زيارة النساء للقبور؛ لحديث المرأة: التي مر النبي ﷺ بها وهي تبكي عند قبر، فقال لها: «اتقي الله واصبري»، فقالت له: إليك عني؛ فإنك لم تصب بمثل مصيبتي، فانصرف الرسول ﷺ عنها، فقيل لها: هذا رسول الله ﷺ، فجاءت إليه تعتذر؛ فقال لها ﷺ: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى» [1]؛ فالنبي ﷺ شاهدها عند القبر ولم ينهها عن الزيارة، وإنما أمرها أن تتقي الله وتصبر.

ولما ثبت من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا الطويل[2]، وفيه: أن النبي ﷺ خرج إلى أهل البقيع في الليل، واستغفر لهم ودعا لهم، وأن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ أتاه في الليل وأمره، فخرج ﷺ مختفياً عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وزار ودعا ورجع، ثم أخبرها الخبر؛ فقالت: ما أقول لهم يا رسول الله؟ قال ﷺ: «قولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين....».

فعلمها النبي ﷺ دعاء زيارة القبور، وتعليمه هذا دليل على الجواز.

وأن زيارة النساء للقبور سنة كالرجال؛ لقوله ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور؛ فزوروها؛ فإنها تذكركم الآخرة»[3]، وهذا عام للرجال والنساء إلا إن النساء كره لهن الإكثار من زيارة القبور؛ للعن النبي ﷺ زوارات القبور.

وأيضاً لأن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زارت قبر أخيها، فقال لها عبد الله بن أبي مليكة: أليس

---

(١) رواه البخاري (١٢٨٣)، ومسلم برقم (٩٢٦).

(٢) رواه مسلم برقم (٩٧٤).

(٣) رواه أحمد (١/ ١٤٥)، ورواه مسلم بلفظ: «نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، ونهيتكم عن لحوم الأضاحي» برقم (٩٧٧)، وأبو داود برقم (٣٢٣٥) و(٣٦٩٨)، والترمذي برقم (١٠٥٤).

النبي ﷺ قد نهى عن زيارة القبور؟ قالت: إنه أمر بها بعد ذلك[1].

وهذا دليل على أنه منسوخ.

وقوله: «**والمتخذين عليها المساجد**»، هذا هو الشاهد؛ أي: الذين يضعون عليها المساجد، وقد سبق أن اتخاذ القبور مساجد له صورتان:

١ - أن يتخذها مصلى يصلى عندها.

٢ - بناء المساجد عليها.

وفي رواية جاء فيها قوله: «والسرج» جمع سراج، توقد عليها السرج ليلاً ونهاراً تعظيماً وغلواً فيها، مما يؤدي بعد ذلك إلى عبادتها.

* * *

(١) رواه الترمذي برقم (١٠٥٥)، والبيهقي (٤/ ٧٨)، وذكره الهيثمي في «المجمع»، وقال: رواه الطبراني في «الكبير» ورجاله رجال الصحيح، وبعض أهل العلم ضعفه.

المسألة (الثانية والعشرون):
فِي سَدِّ كُلِّ طَرِيْقٍ يُوْصِلُ إِلَى الشِّرْكِ

قوله: «**سدّ كل طريق**»؛ أي:لم يدع الأبواب مفتوحة، يلج إليها من شاء، ولكنه سد وأغلق كل طريق يوصل إلى الشرك؛ لأن الشرك أعظم الذنوب، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨].

قَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوْتَكُمْ قُبُوْرَاً، وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيْدَاً، وَصَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ»(١).

قوله: «**لا تجعلوا بيوتكم**»، جمع بيت، وهو مقر الإنسان وسكنه، سواء كان من طين أو حجارة أو خيمة أو غير ذلك، وغالب ما يراد به الطين والحجارة.

وقوله: «**قبوراً**»؛ أي: لا تدفنوا فيها، وهذا لا شك أنه ظاهر اللفظ، ولكن أورد على ذلك دفن النبي ﷺ في بيته، وأجيب عليه أن هذا من خصائصه ﷺ.

وقال بعض العلماء: المراد بـ«**لا تجعلوا بيوتكم قبوراً**»؛ أي: لا تجعلوها مثل القبور؛ أي: المقبرة لا تصلون فيها، وذلك لأنه من المتقرر عندهم أن المقابر لا يصلى فيها، وأيدوا هذا التفسير بأنه سبقها جملة في رواية: «اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم، ولا تجعلوها قبوراً»(٢)، وهذا يدل على أن المراد: لا تدعوا الصلاة فيها.

وكلا المعنيين صحيح؛ فلا يجوز أن يدفن الإنسان في بيته، بل يدفن مع المسلمين؛ لأن هذه هي العادة المتبعة منذ عهد النبي ﷺ إلى اليوم، ولأنه إذا

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٣٦٧)، وأبو داود برقم (٢٠٤٢)، وصححه الألباني؛ انظر «صحيح الجامع» برقم (٧٢٢٦).

(٢) رواه مسلم برقم (٧٧٧).

دفن في بيته؛ فإنه ربما يكون وسيلة إلى الشرك، فربما يعظم هذا المكان، ولأنه يحرم من دعوات المسلمين الذين يدعون بالمغفرة لأموات المسلمين عند زيارتهم للمقابر، وغير ذلك من الأمور التي تصان بها القبور وأهلها.

ولا يجوز أيضاً أن تجعلوها مثل القبور في عدم الصلاة فيها؛ فهو دليل على أنه ينبغي أن يجعل الإنسان من صلاته في بيته ولا يخليه من الصلاة، وجاء عن النبي ﷺ الترغيب والحث على صلاة النافلة في البيوت؛ فقال ﷺ: «أفضل صلاة المرء في بيته، إلا المكتوبة»[١].

والحديث يدل على أن الأفضل أن المرء يجعل من صلاته في بيته، وذلك في جميع النوافل؛ إلا ما ورد الشرع أن يفعل في المسجد؛ مثل: صلاة الكسوف، وقيام الليل في رمضان، أو النوافل التي تسن لها الجماعة.

وقوله: «**عيداً**»، اسم لما يعتاد فعله، أو التردد إليه، فإذا اعتاد الإنسان أن يعمل عملاً كما لو كان كلما حال عليه الحول صنع طعاماً ودعا الناس؛ فهذا يسمى عيداً؛ لأنه جعله يعود ويتكرر.

والمراد؛ أي: لا ترددوا على قبري وتعتادوا ذلك، سواء قيدوه بالسنة أو بالشهر أو بالأسبوع؛ فإنه ﷺ نهى عن ذلك، وإنما يزار لسبب، كما لو زاره ليتذكر الآخرة.

وقوله: «**وصلوا علي**»، هذا أمر؛ أي: قولوا: اللهم صلِّ على محمد، وقد أمر الله تعالى بذلك في قوله: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا** ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وفضل الصلاة على النبي ﷺ معروف، ومنه: أن من صلى عليه مرة، صلى الله عليه بها عشراً[٢].

والصلاة من الله تعالى على رسوله ﷺ ليس معناها كما قال بعض أهل العلم: إن

---

(١) رواه البخاري برقم (٧٣١)، ومسلم (٧٨١).

(٢) رواه مسلم برقم (٣٨٤).

الصلاة من الله الرحمة، ومن الملائكة الاستغفار، ومن بني آدم الدعاء.

فهذا ليس بصحيح، بل إن الصلاة من الله عز وجل على المرء ثناؤه عليه في الملأ الأعلى، كما قال أبو العالية رَحِمَهُ اللهُ وتبعه على ذلك المحققون من أهل العلم.

فمن صلى على محمد ﷺ مرة أثنى الله جل وعلا عليه في الملأ الأعلى عشر مرات، وهذه نعمة كبيرة.

وقوله: «**فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم**»،تبلغه الصلاة عليه يوضحه ما ورد عن النبي ﷺ: «أن لله ملائكة سياحين يسيحون في الأرض يبلغون النبي ﷺ سلام أمته عليه»[(١)].

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «ويشير بذلك إلى أن ما ينالني منكم من الصلاة والسلام يحصل مع قربكم من قبري وبعدكم، فلا حاجة لكم إلى اتخاذه عيداً».

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ الحُسَيْنِ: أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً يَجِيْءُ إِلَى فُرْجَةٍ كَانَتْ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ، فَيَدْخُلُ فِيْهَا فَيَدْعُو، فَنَهَاهُ، وَقَالَ: أَلَا أُحَدِّثُكُمْ حَدِيْثاً سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي عَنْ جَدِّي عَنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيْداً، وَلَا بُيُوْتَكُمْ قُبُوْرَاً، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ تَسْلِيْمَكُمْ يَبْلُغُنِي أَيْنَ كُنْتُمْ»[(٢)].

«**علي بن الحسين**» هو ابن علي بن أبي طالب، المعروف بزين العابدين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وأبوه الحسين سبط رسول الله ﷺ وريحانته، وهو من أفضل التابعين من أهل بيته ﷺ وأعلمهم.

وقوله: «**أنه رأى رجلاً يجيء إلى فُرْجة**»؛ هي الكوة في الجدار والخوخة

---

(١) رواه النسائي، برقم (١٢٨٢)، وأحمد (١/ ٤٤١)، والدارمي في «سننه» (٢/ ٤٠٩)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٥٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٣/ ١٩٥)، وقال ابن القيم في «جلاء الأفهام» (ص٢٣): «هذا إسناد صحيح»، وصححه الألباني؛ انظر«صحيح الجامع» برقم (٢١٧٤).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» برقم (٢١١)، والضياء المقدسي في «المختارة» (١/ ١٥٤)، وحسنه الألباني؛ في تحقيقه لكتاب «فضل الصلاة على النبي ﷺ» برقم (٢٠) لإسماعيل القاضي؛ وانظر كتاب الألباني «تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد» (ص ٩٥).

ونحوهما، وهذا الرجل لاشـك أنه لم يتكرر مجيئه إلى هذه الفرجة إلا لاعتقاده أن فيها فضـلاً ومزية، وكونه يظن أن الدعاء عند القبر له مزية فتح باب ووسـيلة إلى الشرك، بل جميع العبادات إذا كانت عند القبر؛ فلا يجوز أن يعتقد أن لها مزية، سواء كانت صلاة أو دعاء أو قراءة.

وقوله: «**فنهاه**»؛ أي: طلب منه الكف عن هذا الفعل.

وقوله: «**ألا أحدثكم حديثا**»، «**ألا**»: أداة عرض؛ أي: أعرض عليكم أن أحدثكم؛ وفائدتها: تنبيه المخاطب إلى ما يريد أن يحدثه به، وقال: «**أحدثكم**»، والرجل واحد؛ لأن الظاهر أنه كان عند أصحابه يحدثهم، فجاء هذا الرجل إلى الفرجة.

وقوله: «**عن أبي عن جدي**»، أبوه: الحسين، وجده: علي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

وقوله: «**لا تتخذوا قبري عيدا**»؛ أي: أنه نهى أن يتخذ قبره عيداً يعتاد ويتكرر إليه؛ لأنه وسيلة إلى الشرك.

وقوله: «**ولا بيوتكم قبورا**»؛ أي: لا تجعلوها مثل القبور فلا تصلون فيها، بل علينا أن نصلي في بيوتنا، وقد سبق معناه قريباً في الحديث السابق.

وقوله: «**وصـلوا علي؛ فإن تسـليمكم يبلغني حيث كنتم**»، اللفظ هكذا، وقوله: «**صـلوا علي**» يقتضـي أن يقال: فإن صـلاتكم تبلغني؛ إلا أنه قال: «**فإن تسـليمكم**» ولعل هذا من باب الطي والنشر؛ فيكون المعنى: صلوا عليَّ وسلموا؛ فإن تسليمكم وصلاتكم تبلغني، وكأنه ذكر الفعلين والعلتين، لكن حذف من الأولى ما دلت عليه الثانية، ومن الثانية ما دلت عليه الأولى.

وقوله: «**وصلوا علي**»، سبق معناها في شرح الحديث السابق، والمراد: صلوا عليَّ في أي مكان كنتم، ولا حاجة إلى أن تأتوا إلى القبر وتسلموا عليّ وتصلوا عليّ عنده.

وقوله: «**يبلغني**»؛ أي: عن طريق الملائكة.

هذا يدل على النهي عن قصد القبور والمشاهد لأجل الدعاء والصلاة عندها.

* * *

المسألة (الثالثة والعشرون):
أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الأُمَّةِ يَعْبُدُ الأَوْثَانَ

قوله: «**أن بعض هذه الأمة**» إشارة إلى وقوع ذلك من بعضهم، لا من كلهم؛ لأن عبادة الأوثان لم تكن من الأمة كلها، وإنما كانت من بعض هذه الأمة، وإلا فلا تزال طائفة من هذه الأمة ظاهرين على الحق؛ كما قال النبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم إلى قيام الساعة»[1].

والمراد هنا أمة الإجابة؛ فإن بعضهم يتركون دينهم ويتوجهون إلى الأوثان يعبدونها؛ يعني: أن مِمَّن أجاب الرسول ﷺ في دعوته، تتقادم بهم العهود، حتى يرتدوا على أدبارهم ويتركوا دينهم.

وقوله: «**يعبد الأوثان**»، جمع وثن؛ والوثن هو كل شيء توجه إليه الناس بالعبادة، والوثن ليس هو المُصَوَّر على شكل صورة، بل الصنم هو ما كان على شكل صورة، والفرق بين الأوثان والأصنام أن الأصنام هي الآلهة التي صُوِّرت على شكل صور، كأن يجعل لنبي من الأنبياء صورة، ويعبدها، أو يجعل لرجل من الرجال كـ«بوذا» ونحوه صورة ويسجد لها، ويعبدها، فهذه تسمى أصنامًا، أما الأوثان؛ فهي الأشياء المعبودة، أيًّا كانت فقد تكون جداراً، أو قبراً، أو رجلاً ميتًا، أو صفة من الصفات يتخذها معبودة من دون الله تعالى، فكل ما توجه إليه العباد من دون الله تعالى بنوع من أنواع العبادة، فهو وثن من الأوثان.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

قوله: ﴿**بِٱلْجِبْتِ**﴾، اسم عام لكل ما فيه مخالفة لأمر الله جل وعلا وأمر

(١) رواه البخاري برقم (٣٦٤٠)، ومسلم برقم (١٩٢١).

رسـوله ﷺ في الاعتقاد، فقد يكون الجبت سـحراً، وهذا هو الذي فسـر به كثير من السلف الجبت، وقد يكون الجبت الكاهن.

ومعنى قولـه: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾؛ أي: يؤمنون بـالسـحر ويؤمنون بالباطل وبعبادة غير الله جل وعلا.

وقولـه: ﴿وَٱلطَّٰغُوتِ﴾، الطـاغوت مشـتق من الطغيـان؛ وهو مجـاوزة الحـد، فالطاغية هو الذي تجاوز الحد في أمر الدين بأن جعل ما لله له؛ ولهذا يُعرف بأنه: كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع.

وشـرح هذا: أن مجاوزة العبد حده؛ أي: أنه تعدى حَدَّ ذلك الشـيء الذي توجه إليه؛ وهو الحد الذي لم يأذن به الشـرع مجاوزته له، فتوجهوا إليه بالعبادة أو اعتقاده فيه بعض خصـائص الإلهية من أنه يغيثه كيف ما شـاء، ومن أنه يملك غوثه، ويملك الشفاعة له، أو أن يغفر له، وأن يعطيه، ويملك أن يقربه إلى الله جل وعلا ونحو ذلك مما لا يملكه المعبودون، فإن كل ذلك مجاوزته بذلك المتخذ عن الحد الذي جعل له في الشرع.

والمتبوع هو مثل العلماء والقادة في أمر الدين؛ ومعنى مجاوزة الحدّ فيهم؛ أنهم صـاروا يتبعونهم في كل ما قالوا: وإن أحلوا لهم الحرام، وحرموا عليهم الحلال، أو جعلوا لهم السـنة بدعة والبدعة سـنة، وهم يعلمون أصـل الدين، ولكنهم خالفوا لأجل ما قال فلان، فإن هذا قد تُجُوِّزَ به حده، فإن حد المتبوع في الدين أن يكون آمراً بما أمر به الشـرع ناهيـاً عما نهى عنه الشـرع، فإذا أحل الحرام أو حرم الحلال، فإنه يعتبر طاغوتـاً، ومن اتبعـه، فـإنه يكون قـد تجـاوز بـه حـده، وقـد أقر بـأنـه طـاغوت، واتخذه كذلك.

والمطاع هو يشـمل الأمراء والملوك والحكام والرؤسـاء الذين يأمرون بالحرام فيطـاعون، ويـأمرون بتحريم الحلال فيطـاعون في ذلـك، مع علم المطيع بمـا أمر الله جل وعلا به، فهؤلاء اتخذوهم طواغيت؛ لأنهم جاوزوا بهم حدهم.

وقولـه في الآيـة: ﴿وَٱلطَّٰغُوتِ﴾، يـدخـل فيـه كل هذه الأنواع؛ أي: الذين عُبِدوا، والذين أُتبعوا، والذين أُطيعوا.

فالإيمان بالجبت والطاغوت حصـل ووقع من الذين أوتوا نصيبـاً من الكتاب من

اليهود والنصارى، وإذا كان قد وقع منهم فسيقع في هذه الأمة، لأن النبي ﷺ أخبر أن ما وقع في الأمم قبلنا سيقع في هذه الأمة، كما جاء عنه ﷺ أنه قال: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعـاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»[1]؛ فمثل بشيء صغير، وهو دخول جحر الضب، الذي لا يمكن أن يفعل، تنبيهـاً على أن ما هو أعلى من ذلك، سيقع من هذه الأمة، كما وقع من الأمم قبلنا، وقد حصل كما أخبر به النبي ﷺ، فإن من هذه الأمة من آمن بالسحر، ومنهم من آمن بعبادة غير الله، ومنهم من أطاع العلماء والأمراء في تحليل ما حرم الله عز وجل وتحريم ما أحل الله سبحانه، فكانوا بذلك متبعين سنن من كان قبلهم، وحصل منهم إيمان بالجبت والطاغوت، كما حصل من الأمم قبلهم.

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

قوله تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم**﴾، الخطاب للنبي ﷺ رداً على هؤلاء اليهود الذين اتخذوا دين الإسلام هزواً ولعبـاً.

وقوله: ﴿**أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ**﴾؛ أي: أخبركم، والاستفهام هنا للتقرير والتشويق؛ أي: سأقرر عليكم هذا الخبر؛ والمعنى: يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنونه بنا؟، وهم أنتم أيها المتصفون بهذه الصفات المفسرة بقوله: ﴿**مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ**﴾؛ أي: أبعده من رحمته، ﴿**وَغَضِبَ عَلَيْهِ**﴾؛ أي: غضبـاً لا يرضى بعده أبداً، ﴿**وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ**﴾.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سُئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير، أهي مما مسخ الله؟ فقال ﷺ: «إن الله لم يهلك قومـاً – أو قال: لم يمسخ قومـاً – فجعل لهم

(١) رواه البخاري برقم (٧٣٢٠)، ومسلم برقم (٢٦٦٩).

نسلاً ولا عقباً، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك»[1].

وقوله: ﴿مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ ثواباً وجزاء؛ أي: بشر من ذلك جزاء عند الله تعالى.

وقوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ لعنه؛ أي: طرده وأبعده عن رحمته.

وقوله: ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: أحل عليه غضبه، والغضب: صفة من صفات الله تعالى؛ وهي تقتضي الانتقام من المغضوب عليه.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ الإشارة هنا إلى اليهود؛ فإنهم لعنوا، كما أكَّد أيضاً بقول الله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٨].

وجُعِلُوا قردة كما أكَّد أيضاً بقوله تعالى: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٥]، وأكَّد أيضاً غضب الله تعالى عليهم بقوله: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠].

وقال بعض العلماء: «القردة أصحاب السبت، والخنازير كفار مائدة عيسى عليه السلام».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن المسخين كلاهما من أصحاب السبت، فشبابهم مسخوا قردة وشيوخهم مسخوا خنازير».

وقوله: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾؛ أي: وجعل منهم مَن عبد الطاغوت؛ أي: أطاع الشيطان فيما سوّل له.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾؛أي: هؤلاء الموصوفون بهذه الصفات القبيحة، هم شر مكاناً في الآخرة، ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: عن طريق الحق.

وَقَالَ الله سبحانه وتَعَالَى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١].

(١) رواه مسلم برقم (٢٦٦٣).

هذه الآية في سياق قصة أصحاب الكهف، وقصتهم عجيبة؛ كما قال الله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ [الكهف: ٩]؛ وهم فتية آمنوا بالله تعالى، وكانوا في بلاد شرك، فخرجوا منها إلى الله عز وجل، فيسر الله تعالى لهم غاراً، فدخلوا فيه، وناموا نومة طويلة بلغت: ﴿ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥]، وهم نائمون لا يحتاجون إلى أكل وشرب، ومن حكمة الله تعالى أن الله عز وجل يقلبهم ذات اليمين وذات الشمال، حتى لا يتسرب الدم في أحد الجانبين، ولما خرجوا بعثوا بأحدهم إلى المدينة ليشتري لهم طعاماً، وآخر الأمر أن أهل المدينة اطلعوا على أمرهم، وقالوا: لا بد أن نبني على قبورهم مسجداً.

وقوله: ﴿**قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ**﴾؛ المراد بهم: الكبراء والأمراء وأصحاب النفوذ فيهم؛ لأن الذي له الغلبة في الأمر، هو من يملك الأمر والنهي في الناس، وقالوا مقسمين مؤكدين: ﴿**لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا**﴾، وبناء المساجد على القبور من وسائل الشرك كما سبق؛ والمراد: أنهم فعلوا مع الفتية بعد موتهم ما يذم فاعله؛ لأن النبي ﷺ قال: « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد »، أراد تحذير أمته أن يفعلوا كفعلهم؛ وقد حصل هذا في تلك الأمة، وما دام أنه حصل، فإنه سيحصل في هذه الأمة؛ لأنه ما من خصلة من الشرك حصلت في الأمم قبلنا إلا وحصلت في هذه الأمة.

وَعَنْ أَبِي سَعِيْدٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرَاً شِبْرَاً وَذِرَاعَاً بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ»، قَالُوا: يَا رَسُوْلَ اللهِ، اليَهُوْدَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «فَمَنْ»؟[1].

«**أبو سعيد**» هو سعد بن مالك بن سنان بن عبيد الخُدْري الأنصاري، صحابي جليل، مات سنة ثلاث وستين في المدينة، رضي الله عنه.

---

(١) رواه البخاري برقم (٧٣٢٠)، ومسلم برقم (٢٦٦٩).

قوله: «**لتتبعن**»، اللام موطئة للقسم، والنون للتوكيد، فالكلام مؤكد بثلاثة مؤكدات: القسم المقدر، واللام، والنون، والتقدير: والله لتتبعن.

وقوله: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم**» ليس على ظاهره؛ لأننا لو أخذنا بظاهره كانت جميع هذه الأمة تتبع سنن من كان قبلها، لكننا نقول: إنه عام مخصوص؛ لأن في هذه الأمة من لا يتبع كما أخبر النبي ﷺ أنه: لا تزال طائفة من هذه الأمة على الحق، فهو من باب الغالب؛ أي: أن الغالب مِن الأمة سيتبع الأمم السابقة، قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣]، وقد يقال: إن الحديث على عمومه، وأنه لا يلزم أن تتبع هذه الأمة الأمم السابقة في جميع سننها، بل بعض الأمة يتبعها في شيء، وبعض الأمة يتبعها في شيء آخر، وحينئذ لا يقتضي خروج هذه الأمة من الإسلام، وهذا أولى لبقاء الحديث على عمومه، ومن المعلوم أن من طرق من كان قبلنا ما لا يخرج من الملة؛ مثل: أكل الربا، والحسد، والبغي، والكذب، ومنه ما يخرج من الملة؛ كعبادة الأوثان.

وقوله: «**سنن من كان قبلكم**»؛ أي: من الأمم السابقة، وأما قوله: «**سنن**» فيها روايتان: «سُنن» و«سَنن»؛ فبضم السين: جمع سنة، وهي الطريقة، وبفتحها فهي مفردة بمعنى الطريق، والسنن: هي الطرائق، وهي متنوعة، منها ما هو اعتداء على حق الخالق كالشرك، ومنها ما هو اعتداء على حق المخلوق كأكل أموالهم بغير حق.

وقوله: «**شبراً شبراً وذراعاً بذراع**»؛ وفي رواية: «حذو القذة بالقذة»، وكلها كناية عن شدة الموافقة لهم في المخالفات والمعاصي، ومعنى «القذة»؛ ريش السهم، و«الشبر» هو قياس الكف ابتداء من أصبع الخنصر حتى أصبع الإبهام، وذلك بإعطائها أكبر متسع للامتداد، و«الذراع» هو قياس طول الساعد ابتداء من طرف إصبع الوسطى حتى المرفق.

وقوله: «**حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**» أراد ﷺ أن كثيراً مِن أمته لا تدع شيئاً مما كان يفعله اليهود والنصارى إلا فعلته كله لا تترك منه شيئاً.

وقوله: «**جحر الضب**»؛ الجحر هو كل ما يُحتفر في الأرض من الحيوانات، والضب حيوان يعيش في الصحراء والبراري، ويصنف من فصيلة السحالي؛ واخار

النبي ﷺ «**حجر الضب**» وهو من أصغر الجحور؛ لأن جحره يجمع بين القذارة الشديدة والضيق الشديد؛ الأمر الذي لا يدع لعاقل مجالاً لرؤية أي جماليات فضرب به المثل على سبيل المبالغة في الاتباع لهم.

وقوله: «**قالوا اليهود والنصارى**» اليهود: أتباع موسى عليه السلام، وسموا يهودا نسبة إلى يهوذا من أحفاد إسحاق عليه السلام، أو لأنهم هادوا إلى الله تعالى؛ أي: رجعوا إليه بالتوبة من عبادة العجل، والنصارى: هم أتباع عيسى عليه السلام، وسموا بذلك نسبة إلى بلدة تسمى الناصرة، وقيل: من النصرة؛ كما قال الله تعالى: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الصف: ١٤].

وقوله: «**قال: فمن**» المراد به التقرير؛ أي: فمن أعني غير هؤلاء، أو فمن هم غير هؤلاء؟!؛ فالصحابة رضي الله عنهم لما حدثهم ﷺ بهذا الحديث كأنه حصل في نفوسهم بعض الغرابة، فلما سألوا؟، قرر النبي ﷺ أنهم اليهود والنصارى.

فهذا الحديث يدل على أن كل كفر وشرك وقع في الأمم السالفة، فسيقع في هذه الأمة، فإن الأمم السالفة عبدت الأوثان، وكفرت بالله جل وعلا وسيقع في هذه الأمة.

وَقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيْتُ الكَنْزَيْنِ: الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَأَنْ لا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوّاً مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيْحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي، قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ: أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوّاً مِنَ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيْحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُوْنَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضاً وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضاً»[1].

(١) رواه مسلم برقم (٢٨٨٩).

قوله: «**زوى لي الأرض**»؛ أي: زويت الشيء جمعته وقبضته؛ والمعنى: جمعها حتى بَصُر ما تملك أمته من أقصى المشارق والمغارب منها.

وقوله: «**فرأيت**»؛ أي: بعيني؛ فهي رؤية عينية، ويحتمل أن يكون رؤيا منامية.

وقوله: «**مشارقها ومغاربها**»؛ أي: أماكن الشرق والغرب منها، وهذا ليس على الله تعالى بعزيز؛ لأنه على كل شيء قدير، فمن قدرته أن يجمع الأرض حتى يشاهد النبي ﷺ ما سيبلغ ملك أمته منها.

المراد قوة بصر النبي ﷺ؛ أي: أن الله تعالى أعطاه قوة بصر حتى أبصر مشارق الأرض ومغاربها، ونحن إذا أردنا تقريب هذا الأمر نجد أن صورة الكرة الأرضية الآن مجموعة يشاهد الإنسان فيها مشارق الأرض ومغاربها؛ فالله عز وجل على كل شيء قدير؛ فهو قادر على أن يجمع له ﷺ الأرض حتى تكون صغيرة فيدركها من مشارقها إلى مغاربها.

وقوله: «**وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها**»؛ المراد: أمة الإجابة التي آمنت بالرسول ﷺ سيبلغ ملكها ما زوي للرسول ﷺ منها، وهذا هو الواقع؛ فإن ملك هذه الأمة اتسع من المشرق ومن المغرب اتساعاً بالغاً، لكنه من الشمال والجنوب أقل بكثير، والأمة الإسلامية وصلت من المشرق إلى السند والهند وما وراء ذلك، ومن المغرب إلى ما وراء المحيط، وهذا يحقق ما رآه النبي ﷺ.

وقوله: «**وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض**»؛ يعني به كنز كسرى، وهو ملك الفرس، وكنز قيصر وهو ملك الروم وقصورهما وبلادهما؛ وعبر بالأحمر عن كنز قيصر؛ لأن الغالب عندهم كان الذهب، وبالأبيض عن كنز كسرى؛ لأن الغالب عندهم كان الجوهر والفضة، ووجد ذلك في خلافة عمر رضي الله عنه؛ فإنه سيق إليه تاج كسرى وحليته، وما كان في بيوت أمواله، وجميع ما حوته مملكته على سعتها وعظمتها.

وقوله: «**أعطيت**» هل أعطيها في حياته، أم بعد موته؟ الذي يظهر أنها أعطيت لأمته، والذي أعطي لأمته؛ فهو كالمعطى له ﷺ.

وقوله: «**وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة**» السنة: الجدب والقحط، وهو يهلك ويدمر، و«**بعامة**»؛ أي: عموماً تعمهم، هذه دعوة؛ والباء هنا رواية صحيحة، وفي بعض الروايات بحذفها؛ قال القرطبي رحمه الله: كأنها زائدة؛ لأن «عامة»

صفة لـ«سنة».

وقوله: «**وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم**»؛ أي: لا يسلط عليهم عدواً، والعدو: ضد الولي، وهو: المعادي المبغض الحاقد، وأعداء المسلمين هنا: هم الكفار، ولهذا قال: «**من سوى أنفسهم**».

وقوله: «**يستبيح**»؛ أي: يستحل، و«**بيضتهم**»؛ البيضة: ما يجعل على الرأس وقاية من السهام؛ ومعناه: أن الله تعالى لا يسلط العدو على كافة المسلمين حتى يستبيح جميع ما حازوه من البلاد والأرض، ولو اجتمع عليهم من بأقطار الأرض وهي جوانبها.

وقوله: «**حتى يكون بعضهم يهلك بعضـًا، ويسبى بعضهم بعضـًا**»؛ أي: إن أمر الأمة ينتهي إلى أن يكون بعضهم يهلك بعضـًا، وقد سلط بعضهم على بعض، كما هو الواقع، وذلك لكثرة اختلافهم وتفرقهم.

وقوله: «**وإن ربي قال: يا محمد، إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد**»؛ أي: إذا حكمت حكمـًا مبرمـًا نافذاً فإنه لا يرد بشيء، ولا يقدر أحد على رده.

وقضاء الله تعالى نوعان:

قضاء شرعي قد يرد؛ فقد يريده الله تعالى ولا يقبلونه؛ كقول الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]؛ لأنه لو كان كونيـًا؛ لكان كل الناس لا يعبدون إلا الله تعالى.

وقضاء كوني لا يرد، ولابد أن ينفذ؛ كقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤]؛ لأن الله تعالى لا يقضي شرعا بالفساد، لكنه يقضي به كونـًا وإن كان يكرهه سبحانه؛ فإن الله عز وجل لا يحب الفساد ولا المفسدين، لكنه يقضي بذلك لحكمة بالغة، كما قسم خلقه إلى مؤمنين وكافرين؛ لما يترتب على ذلك من المصالح العظيمة.

والمراد بالقضاء هنا: القضاء الكوني؛ فلا أحد يستطيع رده مهما كان من الكفر والفسوق؛ فقضاء الله عز وجل نافذ على أكبر الناس عتواً واستكباراً، فقد نفذ على فرعون وأغرق بالماء الذي كان يفتخر به، وعلى طواغيت بني آدم فأهلكهم الله تعالى

ودمرهم.

والقضاء قد يتوقف على الدعاء، بل إن كل قضاء أو أكثر القضاء له أسباب إما معلومة أو مجهولة؛ فدخول الجنة لا يمكن إلا بسبب يترتب دخول الجنة عليه، وهو الإيمان والعمل الصالح.

كذلك حصول المطلوب، قد يكون الله عز وجل منعه حتى نسأل، لكن من الأشياء ما لا تقتضي الحكمة وجوده، وحينئذ يجازى الداعي بما هو أكمل، أو يؤخر له ويدخر له عند الله عز وجل، أو يصرف عنه من السوء ما هو أعظم، والدعاء إذا تمت فيه شروط القبول ولم يجب؛ فإننا نجزم بأنه ادخر له.

وقوله: «**وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة**» هذه واحدة.

والثانية: قوله: «**أن لا أسلط عليهم من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارهم حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ويسبي بعضهم بعضاً**»؛ هذه الإجابة قيدت بقوله: «**حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً**» إذا وقع ذلك منهم؛ فقد يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم؛ فكأن إجابة الله تعالى لرسوله ﷺ في الجملة الأولى بدون استثناء، وفي الجملة الثانية باستثناء «**حتى يكون بعضهم ...**».

وهذه هي الحكمة من تقديم قوله: «**إذا قضيت قضاء؛ فإنه لا يرد**»؛ فصارت إجابة الله عز وجل لرسوله ﷺ مقيدة.

ومن نعمة الله جل جلاله أن هذه الأمة لن تهلك بسنة بعامة أبداً؛ فكل من يدين بدين الرسول ﷺ؛ فإنه لن يهلك، وإن هلك قوم في جهة بسنة؛ فإنه لا يهلك الآخرون.

فإذا صار بعضهم يقتل ويسبي بعضهم بعضاً؛ فإنه يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، وهذا هو الوقع؛ فالأمة الإسلامية حين كانت أمة واحدة عوناً في الحق ضد الباطل كانت أمة مهيبة، ولما تفرقت وصار بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً؛ سلط الله جل وعلا عليهم عدواً من سوى أنفسهم.

وفيه دليل على تحريم القتال بين المسلمين، وإهلاك بعضهم بعضاً، وسبي بعضهم بعضاً، وأنه يجب أن يكونوا أمة واحدة حتى تبقى هيبتهم بين الناس

وتخشاهم الأمم.

وهو يدل على انفتاح الدنيا على الأمة وتنازعها، الذي يوقعها في المخالفة والمعصية والبدعة والشرك.

وَفِي رِوَايَةٍ زَادَ: «وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئِمَّةَ المُضِلِّيْنَ، وَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمُ السَّيْفُ لَمْ يُرْفَعْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَلَا تَقُوْمُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالمُشْرِكِيْنَ، وَحَتَّى تَعْبُدَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي الأَوْثَانَ، وَإِنَّهُ سَيَكُوْنُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُوْنَ ثَلَاثُوْنَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّيْنَ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الحَقِّ ظَاهِرِيْنَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى» (١).

قوله: «**إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين**»، بين الرسول ﷺ أنه لا يخاف على الأمة إلا «**الأئمة المضلين**»؛ و«**الأئمة**»: جمع إمام، والإمام قد يكون إماما في الخير أو الشر، قال الله تعالى في أئمة الخير: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].

وقال الله تعالى عن آل فرعون أئمة الشر: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ [القصص: ٤١].

وقوله: «**الأئمة المضلين**»، هم أئمة الشر؛ والمراد بهم هنا: الأمراء والعلماء والعباد فيحكمون فيهم بغير علم فيضلونهم، كما قال الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴾ [الأحزاب: ٦٧].

وقوله: «**وإذا وقع السيف لم يرفع إلى يوم القيامة**»؛ وكذلك وقع؛ فإن السيف لما وقع بقتل عثمان رضي الله عنه لم يرفع، وكذلك يكون إلى يوم القيامة، ولكن قد يكثر تارة ويقل أخرى، ويكون في جهة ويرتفع عن أخرى.

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٧٨)، وأبو داود برقم (٤٢٥٢)، وابن ماجه برقم (٣٩٥٢)، وصححه الألباني؛ انظر «صحيح الجامع» برقم (١٧٧٣).

وقوله: «**ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين**»؛ هل المراد باللحوق هنا اللحوق البدني؛ بمعنى أنه يذهب هذا الحي إلى المشركين ويدخلون فيهم، أو اللحوق الحكمي؛ بمعنى أن يعملوا بعمل المشركين فيشابههم بالصفات، أو الأمران معـًا؟، الظاهر أن المراد جميع ذلك.

وأما «الحي»؛ فالظاهر أن المراد به الجنس، وليس واحد الأحياء، وإن قيل: إن المراد واحد الأحياء؛ فلابد أن يكون لهذا الحي أثره وقيمته في الأمة الإسلامية، بحيث يتبين ويظهر، وربما يكون لهذا الحي إمام يزيغ - والعياذ بالله - ويفسد؛ فيتبعه كل الحي، ويتبين ويظهر أمره.

وقوله: «**وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان**»، هذا وقع؛ ففي كل جهة من جهات المسلمين من يعبدون القبور ويعظمون أصحابها ويسألونهم الحاجات والرغبات ويلتجئون إليهم.

وقوله: «**وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي**»؛ هل ظهروا أم لا؟، الذي يظهر أنه ظهر بعضهم، وبعضهم ينتظر؛ لأن النبي ﷺ لم يحصرهم في زمن معين، وما دامت الساعة لم تقم؛ فهم ينتظرون.

وقوله: «**كلهم يزعم**»؛ أي: يدعي؛ وليس المراد بالحديث من ادعى النبوة مطلقـًا؛ فإنهم لا يحصون كثرة لكون غالبهم تنشأ دعوته عن جنون، وإنما المراد من قامت له شوكة وبدأ له شبهة.

وقوله: «**وأنا خاتم النبيين**»؛ أي: آخرهم، وأكد ذلك بقوله: «**لا نبي بعدي**»، الخاتم الذي ختم به؛ يعني أنه آخر النبيين، كما قال الله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وإنما ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام في آخر الزمان، حاكمـًا بشريعة محمد ﷺ مصليـًا إلى قبلته؛ قال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لينزلن فيكم ابن مريم حكمـًا مقسطـًا، فليكسرن الصليب، وليقتلن الخنزير، وليضعن الجزية»[١].

وقوله: «**ولا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين**»؛ أي: أنهم يبقون إلى آخر وجودهم عالين وغالبين ومنصورين، والطائفة: الجماعة.

وقوله: «**ظاهرين**»؛ المعنى: لا تزال على الحق، وهي كذلك أيضـًا عالية وغالبة

---

(١) رواه البخاري برقم (٢٢٢٢)، ومسلم برقم (١٥٥) (٢٤٢).

ومنصورة.

وقوله: «**لا يضـرهم من خذلهم ولا من خالفهم**»، خذلهم؛ أي: لم ينصـرهم ويوافقهم على ما ذهبوا إليه، وفي هذا دليل على أنه سيوجد من يخذلهم، لكنه لا يضـرهم؛ لأن الأمور بيد الله تعالى، وقد قال ﷺ: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك»(١)، وكذلك: « لا يضرهم من خالفهم »؛ لأنهم منصورون بنصر الله تعالى؛ فالله عز وجل إذا نصر أحداً فلن يستطيع أحد أن يذله.

وقوله: «**حتى يأتي أمر الله**»؛ أي: الكوني، وذلك عند قيام الساعة عندما يأتي أمره - سبحانه وتعالى - بأن تقبض نفس كل مؤمن، حتى لا يبقى إلا شرار الخلق؛ فعليهم تقوم الساعة؛ كما جاء عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أنه قال: قال النبي ﷺ: «لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق، هم شر أهل الجاهلية»، فقال عقبة بن عامر رضي الله عنه: وأما أنا فسمعت النبي ﷺ يقول: «لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله، قاهرين لعدوهم، لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة، وهم على ذلك»، قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه: «ويبعث الله ريحاً ريحها المسك، ومسها مس الحرير، فلا تترك أحداً في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته، ثم يبقى شرار الناس فعليهم تقوم الساعة»(٢)، وفي رواية: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله»(٣).

فقوله: «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين**» لم يحدد مكانها هنا في هذا الحديث، ولقد جاء التحديد لها في روايات أخرى: أنها في أكناف بيت المقدس، ولكن هذا لا يلزم أنه لا يكون منهم في أماكن أخرى، فيشمل جميع بقاع الأرض، فالمهم أن هذه الطائفة مهما نأت بهم الديار، فهي طائفة واحد منصورة على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله تعالى.

* * *

---

(١) رواه الترمذي برقم (٢٥١٦)، وصححه الألباني؛ انظر «صحيح الترمذي».

(٢) رواه مسلم برقم (١٩٢٤) (١٧٦).

(٣) رواه مسلم برقم (١٤٨).

المسألة (الرابعة والعشرون): فِي السِّحْرِ

قوله: «**السحر**»؛ هو كل ما كان خفي السبب دقيقًا في إدراكه، وهو عبارة عن ما خفي ولطف سببه؛ ومعنى خفي: صار سبب ذلك الشيء خفيًا، لا يقع بظهور، وإنما يقع على وجه الخفاء؛ ولهذا سمي آخر الليل سَحَراً لذلك، وكذلك قيل في أكلة آخر الليل: سَحُور؛ وذلك لأنها تقع على وجه الخفاء وعدم الاشتهار والظهور من الناس.

ولفظة «**السحر**» وما اشتقت منه تدل على خفاء في الشيء؛ ولهذا فإنه في اللغة يطلق السحر على أشياء كثيرة: منها ما يكون من جهة المقال، ومنها ما يكون من جهة الفعل، ومنها ما يكون من جهة الاعتقاد.

وَعَرَّف العلماء السحر بقولهم: هو عزائم ورقى وعقد يؤثر في القلوب والأبدان فيمرض ويقتل ويفرق بين المرء وزوجه.

والسحر الذي هو كفر وشرك أكبر بالله جل وعلا، فهو استخدام الشياطين والاستعانة بها، لحصول أمر بواسطة التقرب لذلك الشيطان بشيء من أنواع العبادة.

ولولا أن للسحر حقيقة، لم يأمر الله تعالى بالاستعاذة منه، فهو يضُرُّ حقيقة، ويمرض حقيقة، ويقتل حقيقة.

وحقيقة السحر أنه استخدام للشياطين في التأثير، ولا يمكن للساحر أن يصل إلى إنفاذ سحره حتى يكون متقربـًا إلى الشياطين، فإذا تقرب إليها خدمته شياطين الجن بأن أثرت في بدن المسحور، فلكل ساحر خادم من الشياطين يخدمه، ولكل ساحر مستعان به من الشياطين، فلا يمكن للساحر أن يكون ساحراً على الحقيقة إلا إذا تقرب إلى الشياطين؛ ولهذا فإن السحر شرك وكفر بالله جل وعلا.

قال الله سبحانه: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ [الفلق: ٤].

هذه الآية من سورة الفلق؛ وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * **وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ** * وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

فقوله: ﴿قُلْ﴾؛ أي: يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد ﴿أَعُوذُ﴾؛ أي: ألجأ وألوذ، وأعتصم ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾؛ الفلق هو كل شيء ينفلق عن الشيء الآخر، أي: ينفصل عنه، فالصبح ينفلق عن الليل، قال الله: ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام:٩٦]، والحب ينفصل عن النوى، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾ [الأنعام:٩٥]، فالفلق كل شيء يفصل، ورب الفلق: هو رب الشيء الذي ينفصل عن الشيء، هذا من الناحية اللغوية، لكن الفلق هنا في هذه السورة الكريمة المراد به الصبح عند أكثر أهل العلم، و﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾؛ هذا يشمل جميع ما خلق الله تعالى من إنس وجن وحيوانات؛ فيستعاذ بخالقها من الشر الذي فيها، ثم خص بعد ما عمَّم، فقال: ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾؛ أي: من شر ما يكون في الليل حين يغشى الناس، وتنتشر فيه كثير من الأرواح الشريرة، والحيوانات المؤذية.

وهنا الشاهد؛ وهو قوله تعالى: ﴿ **وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ** ﴾؛ أي: ومن شر السواحر، اللاتي يعقدن في سحرهن بالنفث في عقد الخيوط التي يعقدنها على السحر.

فقوله: ﴿**ٱلنَّفَّٰثَٰتِ**﴾؛ جمع نافثة، والنافثة هي المرأة التي تنفث في عقد الخيط، والنفث؛ قيل: هو شبه النفخ دون تفل ريق، والأصح أنه مع الريق، وهذا النفث: هو على عقد تعقد في خيوط ونحوها على اسم المسحور، فيؤذى بذلك.

وقوله: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾؛ فالحاسد: هو الذي يحب زوال النعمة عن المحسود فيسعى في زوالها بما يقدر عليه من الأسباب، فاحتيج إلى الاستعاذة بالله من شره، وإبطال كيده.

فهذه السورة، تضمنت الاستعاذة من جميع أنواع الشرور، عموماً وخصوصاً.

وهي رقية ناجعة تفيد كل إنسان، لوقايته من الشرور، وحفظه من السوء، وتخلصه من السحر والعين و الحسد، وغير ذلك، والله على كل شيء قدير.

وقد جاء عن النبي ﷺ أن حث على الرقية بها ومعها سورة الإخلاص وسورة الناس في عدة أحاديث؛ أذكر بعضها، قال ﷺ: «يا ابن عباس، ألا أخبرك بأفضل ما تعوَّذ به المتعوِّذون؟»، قال: بلى يا رسول الله، قال: «﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ هاتين السورتين»[1]، وقال ﷺ: «يا عقبة بن عامر، ألا أعلمك سوراً ما أنزلت في التوراة ولا في الزبور ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثلهن، لا يأتين عليك ليلة إلا قرأتهن فيها، ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾»[2]، و«كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث مرات»[3].

---

(١) أبو داود (١٣١٥ و١٣١٦)، وصححه الألباني؛ انظر «السلسلة الصحيحة» برقم (١١٠٤).

(٢) رواه أحمد (٤/ ١٥٨)، وصححه الألباني؛ انظر «السلسلة الصحيحة» وبرقم (٢٨٦١).

(٣) رواه البخاري برقم (٥٠١٧).

وقال الله جل وعلا: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

قوله: ﴿وَاتَّبَعُوا﴾؛ أي: اليهود ﴿مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ﴾؛ أي: ما تلت؛ والعرب تضع المستقبل موضع الماضي، والماضي موضع المستقبل، وقيل: ما كانت تتلوا، أي: تقرأ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: تتبع وتعمل به، وقال عطاء: تحدث وتتكلم به، ﴿عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾؛ أي: في ملكه وعهده، ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾؛ أي: بالسحر، وقيل: لم يكن سليمان كافرا يسحر ويعمل به، ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾.

وقوله عزّ وجل: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ﴾؛ أي: يعلمون الذي أنزل على الملكين، والإنزال: هنا بمعنى الإلهام والتعليم.

وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما والحسن البصري رحمه الله: «الملكين» بكسر اللام، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هما رجلان ساحران كانا ببابل، وقال الحسن رحمه الله: علجان[1]، لأن الملائكة لا يعلمون السحر.

والقراءة المعروفة لقوله تعالى: ﴿عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ بالفتح وليس بالكسر.

فإن قيل: كيف يجوز تعليم السحر من الملكين؟ قيل: له تأويلان، أحدهما: أنهما لا يتعمدان التعليم لكن يصفان السحر، ويذكران بطلانه ويأمران باجتنابه، والتعليم:

---

(١) العلج: هو الرجل الغليظ، أو الرجل العجمي.

بمعنى الإعلام، فالشقي يترك نصيحتهما ويتعلم السحر من صنعتهما، والتأويل الثاني: أن الله تعالى امتحن الناس بالملكين في ذلك الوقت، فمن شقي يتعلم السحر منهما ويأخذه عنهما ويعمل به فيكفر به، ومن سعد يتركه، فيبقى على الإيمان، ويزداد المعلمان بالتعليم عذابا ففيه ابتلاء للمعلم والمتعلم، ولله أن يمتحن عباده بما شاء فله الأمر والحكم.

وقوله: ﴿**بِبَابِلَ**﴾؛ هي بابل العراق، سمّيت بابل لتبلبل الألسنة بها عند سقوط صرح نمرود، أي: تفرّقها.

وقوله: ﴿**هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ**﴾؛ هما اسمان سريانيان، وهما في محل الخفض على تفسير الملكين إلا أنهما نصبا لعجمتهما ومعرفتهما.

فعلل كفر الشياطين بقوله: ﴿**يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ**﴾.

وقول الله سبحانه: ﴿**وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ**﴾؛ تعلم السحر وفهم كيف يكون، وكيف يعمل السحر، كل هذا لا يمكن أن يكون إلا بالكفر والشرك، لكن هناك مراتب:

أحداها: أن يتعلم ذلك نظرياً ولا يعمله.

والثانية: أن يتعلمه ويعمله – ولو مرة –، وهناك مرتبة الساحر الذي يتعلم ويعمل به دائماً.

وبعض العلماء يقول: السحر قسمان: منه ما يكون بالاستعانة بالشياطين، فهذا كفر وشرك أكبر، ومنه ما يكون بالأدوية والتدخينات، فهذا فسق ومحرم، ولا يكفر فاعله إلا إذا استحله.

وهذا التقسيم هو من جهة الواقع؛ يعني: أنهم نظروا في الذين يمارسون ذلك، فمنهم من يقول: إنه ساحر، وليس كذلك من حيث النظر الشرعي؛ يعني: أنه ليس السحر الذي وصف في الشرع، فيقول هو ساحر، وهو يستخدم أدوية وتعويذات، وفي الحقيقة هو مشعوذ، ولا يصدق عليه اسم الساحر، وإن كان البعض يطلق عليه ساحر.

وهذا فيما يفعل، يؤثر عن طريق الأدوية، وأما الصرف والعطف؛ يعني: جلب محبة امرأة لزوجها، أو صرف محبة المرأة لزوجها، فهذا من نواقض الإسلام؛ لأنه

شـرك بالله تعالى؛ ولأنه لا يمكن لأحد أن يصـل إلى روح وقلب من يراد صـرفه أو العطف إليه إلا بالشرك؛ لأن الشيطان هو الذي يؤثر على النفس، ولن يخدم الشيطان الإنسي الساحر إلا بعد أن يشرك بالله جل وعلا.

وقوله: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾؛ هو أن يؤخذ كل واحد عن صاحبه ويبغض كل واحد منهما صاحبه، قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُم﴾، قيل: أي: السحرة، وقيل: الشياطين، ﴿بِضَآرِّينَ بِهِۦ﴾، أي: بالسحر ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾، أي: أحدا إلَّا بإذن الله، أي: بعلمه وتكوينه، فالسـاحر يسـحر والله يكوّن، قال سـفيان الثوري: معناه إلا بقضائه وقدره ومشيئته، ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ﴾؛ يعني: السحر يضرهم، ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟﴾؛ أي: اليهود

وقوله: ﴿لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾؛ أي: اشـترى السـحر، والاشـتراء أن يأخذ شـيئًا، ويدفع عوضـه، والسـاحر ومن تعلم السـحر اشترى السحر؛ أي: أخذ السحر وبذل توحيده عوضـًا، فالثمن هو التوحيد، والإيمان بالله وحده، والمثمن هو السـحر؛ ولهذا قال الله جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾؛ يعني: من دفع دينه عوضـًا عن ذلك الشيء الذي أخذه، وهو السحر.

وقوله: ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾؛ أي: ما له في الآخرة من نصيب، ومعنى الخلاق: هو النصيب والحظ.

وقوله: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ﴾؛ أي: باعوا به ﴿أَنفُسَهُمْ﴾، حظ أنفسـهم حيث اختاروا السحر والكفر على الدين والحق، ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ بعد ما أخبر أنهم علموا؟ قيل: أراد بقوله: ولقد علموا، يعني: الشـياطين، وقيل: يعني: اليهود، وقيل: كلاهما في اليهود،لكنهم لما لم يعلموا بما علموا، فكأنهم لم يعلموا.

فدلت الآية على تحريم السحر، وكذلك هو محرم في جميع أديان الرسل عليهم السلام.

وقال الله جل جلاله: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّـٰحِرُونَ﴾ [يونس: ٧٧].

وقال الله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩].

قوله: ﴿ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴾؛ قالها موسى عليه السلام حينما كذب فرعون وقومه الحق والآيات التي أتى بها موسى عليه السلام؛ قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ۞ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾؛ أي: قال فرعون وقومه، والمعنى: أنهم حملوا المعجزات على السحر، قال لهم موسى عليه السلام: ﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا ﴾، قيل: في الكلام حذف؛ وتقديره: أتقولون للحق هذا سحر؛ فـ﴿ أَتَقُولُونَ ﴾ إنكار، وقولهم محذوف؛ أي: هذا سحر، ثم استأنف إنكاراً آخر من قبله، فقال: ﴿ أَسِحْرٌ هَٰذَا ﴾! فحذف قولهم الأول اكتفاء بالثاني من قولهم، منكراً على فرعون وملئه.

فقوله: ﴿ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴾؛ أي: لا يفلح ولا يفوز من أتى بالسحر، والساحرون في خسران دائماً.

وقوله: ﴿ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾؛ أي: الساحر لا يفوز ولا ينجو حيث أتى من الأرض، وقيل: حيث احتال.

وهذه الآية جاءت أثناء حوار؛ قال الله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۞ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۞ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۞ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۞ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [طه: ٦٥-٦٩]؛ يقول الله تعالى - مخبراً عن السحرة حين توافقوا هم وموسى عليه السلام أنهم قالوا لموسى -: ﴿ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ ﴾: أي: أنت أولاً، ﴿ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۞ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ﴾؛ أي: أنتم أولاً لنرى ماذا تصنعون من السحر، وليظهر للناس جلية أمرهم، ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾، وفي الآيات الأخرى: ﴿ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٤٤]، وأيضاً: ﴿ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وأيضاً: ﴿ فَإِذَا

حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ * فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾؛ أي: خاف على الناس أن يفتنوا بسحرهم، ويغتروا بهم قبل أن يلقي ما في يمينه، فأوحى الله تعالى إليه في الساعة الراهنة، أن ألق ما في يمينك – يعني: عصاك –، فإذا هي تلقف ما صنعوا، وذلك أنها صارت أشبه بالتنين العظيم الهائل، فجعلت تتبع تلك الحبال والعصي، حتى لم تبق منها شيئاً إلا تلقفته وابتلعته، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عياناً جهرة نهاراً ضحوة، فقامت المعجزة واتضح البرهان ووقع الحق وبطل السحر الذي صنعوه، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾، فلما عاين السحرة ذلك وشاهدوه، ولهم خبرة بفنون السحر ووجوهه، علموا علم اليقين أن هذا الذي فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل، وأنه حق لا مرية فيه، ولا يقدر على هذا إلا الذي يقول للشيء كن فيكون، فعند ذلك وقعوا سجداً لله جل جلاله، وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون، ولهذا قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: كانوا أول النهار سحرة وفي آخر النهار شهداء بررة.

ولا يصح الاستدلال بها على نفي تأثير السحر؛ لأن السحر أنواع كثيرة ولا ينحصر في نوع واحد، فهو ليس فقط مجرد تخييل كان في أعين الناس ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾؛ أي: عظيم في باب السحر وفي مجال السحر، فمن رآه عده سحراً عظيماً، فإنه ألقى كل واحد عصاه فصارت العصي ثعابين.

قال الجشمي رَحِمَهُ اللهُ: تدل الآيات على أن القوم أتوا بما في وسعهم من التمويه، وكان الزمان زمان سحر، والغالب عليهم الاشتغال به، فأتى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من جنس ما هم فيه، بما لم يقدر عليه أحد، ليعلموا أنه معجز وليس بسحر كما صنعوا هم.

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: اليهود، ﴿بِٱلْجِبْتِ﴾؛ أي: السحر.

واليهود كانوا من أكثر الناس تعلماً للسحر وممارسة له، ويَدَّعُون أن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ علمهم إياه، وقد اعْتَدُوا.

وقوله: ﴿وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ هو ما تجاوز به العبد حده؛ من معبود، أو متبوع، أو مطاع.

وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الجبت»؛ السحر، «والطاغوت»؛ الشيطان.

وقال جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كانت الطواغيت:التي يتحاكمون إليها في جهينة واحدٌ، وفي أَسْلَمَ واحدٌ، وفي كُلّ حَيٍّ وَاحدٌ،كُهَّانٌ يَنْزِلُ عَلَيْهِم الشيطان[1].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُوْلَ الله ﷺ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوْبِقَاتِ» قَالُوا: يَا رَسُوْلَ الله: وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّرْكُ بِالله، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ الله إِلَّا بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيْمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ الغَافِلَاتِ المُؤْمِنَاتِ»[2].

قوله: «**اجتنبوا**»؛ أي: اتركوا، بل أشد من مجرد الترك؛ لأن الاجتناب معناه أن تكون في جانب وهي في جانب آخر، وهذا يستلزم البعد عنها؛ لأن الإنسان قد يترك الشيء وهو قريب منه، فإذا قيل: اجتنبه؛ يعني: اتركه مع البعد.

وقوله: «**السبع الموبقات**»، هذا لا يقتضي الحصر؛ فإن هناك موبقات أخرى، ولكن النبي ﷺ يحصر أحياناً بعض الأنواع والأجناس، ولا يعني بذلك عدم وجود غيرها؛ بل ليدل على أهمية أو عِظَم ما حصره، و«**الموبقات**»؛ أي: المهلكات.

وقوله: «**قالوا: يا رسول الله! وما هن؟**»، سألوا عن تبيينها، وبه تتبين الفائدة من الإجمال، وهي أن يتطلع المخاطب لبيان هذا المجمل؛ لأنه إذا جاء مبيناً من أول وهلة؛ لم يكن له التلقي والقبول كما إذا أجمل ثم بين.

وقوله: «**قال: الشرك بالله**» قدمه لأنه أعظم الموبقات؛ فإن أعظم الذنوب أن تجعل لله نداً وهو خلقك؛ والشرك بالله يتناول الشرك بربوبيته أو ألوهيته أو أسمائه أو صفاته.

فمن اعتقد أن مع الله خالقاً أو معيناً؛ فهو مشرك، أو أن أحداً سوى الله يستحق أن يعبد؛ فهو مشرك وإن لم يعبده، فإن عبده؛ فهو أعظم، أو أن لله مثيلاً في أسمائه؛ فهو مشرك؛ قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن**

---

(١) أوردهما تعليقاً البخاري في «صحيحه»، كتاب التفسير، باب: «وإن كنتم مرضى أو على سفر».

(٢) رواه البخاري برقم (٢٧٦٦)، ومسلم برقم (٨٩).

يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢].

وبين ﷺ أن الشـرك أعظم ما يكون من الجناية والجرم؛ حين سـئل: أي الذنب أعظم؟، فقال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» (١).

وقوله: «**والسحر**»؛ أي: من الموبقات؛ لأن السحر من أعظم ما يكون في الجناية على بني آدم؛ فهو يفسد على المسحور أمر دينه ودنياه، ويقلقه ويصرفه عن طبيعته وفطرته ويلحقه من الضيق ما لا يعلمه إلا رب العباد، ولهذا كان السحر يلي الشرك بالله عز وجل، وهذا هو الشاهد من الحديث.

وقوله: «**وقتل النفس**»؛ القتل: إزهاق الروح؛ والمراد بالنفس: البدن الذي فيه الروح.

وقوله: «**التي حرم الله**»؛ النفس المحرمة أربعة أنفس؛ هي: نفس المؤمن، والذمي، والمعاهد، والمستأمِن؛ أي: طالب الأمان؛ فالمؤمن لإيمانه، والذمي لذمته، والمعاهد لعهده، والمستأمن لتأمينه.

والفرق بين الثلاثة – الذمي، والمعاهد، والمستأمن –: أن الذمي هو الذي بيننا وبينه ذمة؛ أي: عهد على أن يقيم في بلادنا معصوماً مع بذل الجزية، وأما المعاهد؛ فيقيم في بلاده، لكن بيننا وبينه عهد أن لا يحاربنا ولا نحاربه، وأما المستأمن؛ فهو الذي ليس بيننا وبينه ذمة ولا عهد، لكننا أمناه في وقت محدد؛ كرجل حربي دخل إلينا بأمان للتجارة ونحوها، أو ليفهم الإسلام، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة: ٦]، فهذه الأنفس الأربع قتلها حرام، لكنه ليست على حد سواء في التحريم؛ فنفس المؤمن أعظم، ثم الذمي، ثم المعاهد، ثم المستأمن.

وقوله: «**إلا بالحق**»؛ أي: بالعدل؛ لأن هذا حكم، والحق إذا ذكر بإزاء الأحكام؛ فالمراد به العدل، وإذا ذكر بإزاء الأخبار؛ فالمراد به الصدق، والعدل: هو ما أمر الله تعالى به ورسوله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النحل: ٩٠].

والمراد: مما يوجب القتل؛ مثل: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه

---

(١) رواه البخاري برقم (٢٤٧٧)، ومسلم برقم (٨٦).

المفارق للجماعة.

واختلف العلماء فيمن قتل مؤمنـًا متعمداً، وهل له توبة أم لا؟، فذهب ابن عباس وأبو هريرة وغيرهما رضي الله عنهم إلى أنه لا توبة له، استدلالاً بقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا ﴾، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «نزلت هذه الآية وهي آخر ما نزل وما نسخها شيء»(١)، وفي رواية: «لقد نزلت في آخر ما نزل وما نسخها شيء حتى قبض رسول الله ﷺ وما نزل وحي»، واستدلالاً بقول رسول الله ﷺ: «كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً أو الرجل يقتل مؤمنـًا متعمداً»(٢).

وذهب جمهور الأمة سلفـًا وخلفـًا إلى أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله تعالى، فإن تاب وأناب وعمل صالحـًا بدل الله سبحانه سيئاته حسنات، كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠].

وقوله: «**وأكل الربا**» الربا في اللغة: الزيادة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج: ٥]؛ يعني: زادت، وفي الشرع: تفاضل في عقد بين أشياء يجب فيها التساوي، ونسأ في عقد بين أشياء يجب فيها التقابض.

و«**الربا**»: ربا فضل؛ أي: زيادة، وربا نسيئة؛ أي: تأخير، وهو يجري في ستة أموال بيَّنها الرسول ﷺ في قوله: «الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والتمر بالتمر، والشعير بالشعير، والملح بالملح»(٣)؛ فهذه هي الأموال الربوية بنص الحديث وإجماع المسلمين، وهذه الأصناف الستة إن بعت منها جنسـًا بمثله جرى فيه ربا الفضل وربا النسيئة، فلو زدت واحداً على آخر؛ فهو ربا فضل، أو سويته لكن

---

(١) رواه البخاري برقم (٤٥٩٠)، ومسلم برقم (٣٠٢٣) (١٦).

(٢) رواه أحمد (٤/ ٩٩)، والنسائي (٧/ ٨١)، وصححه الألباني لشواهده؛ انظر «الصحيحة» برقم (٥١١).

(٣) رواه مسلم برقم (١٥٨٧).

أخرت القبض؛ فهو ربا نسيئة، وربما يجتمع النوعان كما لو بعت ذهبًا بذهب متفاضلاً والقبض متأخر؛ فقد اجتمع في هذا العقد ربا الفضل وربا النسيئة، وعلى هذا، فإذا بعت جنسًا بجنسه؛ فلا بد من أمرين: التساوي، والتقابض في مجلس العقد.

وإذا اختلفت الأجناس واتفقت العلة؛ أي: اتفق المقصود في العوضين؛ فإنه يجري ربا النسيئة دون ربا الفضل؛ فذهب بفضة متفاضلاً مع القبض جائز، وذهب بفضة متساويًا مع التأخير ربا لتأخر القبض.

ثم قال ﷺ في ختام الحديث السابق: «فإذا اختلفت هذه الأصناف؛ فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد».

ذكر النبي ﷺ الأكل بقوله: «**أكل الربا**»؛ لأنه مِن أعم وجوه الانتفاع، هكذا قال أهل العلم، ولهذا قال الله تعالى في بني إسرائيل: ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ﴾ [النساء: ١٦١]، ولم يقل أكلهم، والأخذ أعم من الأكل؛ فأكل الربا معناه أخذه، سواء استعمله في الأكل أو الفرش أو البناء أو المسكن أو غير ذلك.

وقوله: «**وأكل مال اليتيم**»؛ «**اليتيم**»: هو الذي مات أبوه قبل بلوغه، سواء كان ذكراً أم أنثى، أما من ماتت أمه قبل بلوغه؛ فليس يتيمًا لا شرعًا ولا لغة.

لأن اليتيم مأخوذ من اليتم، وهو الانفراد؛ أي: انفرد عن الكاسب له؛ لأن أباه هو الذي يكسب له.

وخص «**اليتيم**»؛ لأنه لا أحد يدافع عنه؛ ولأنه أولى أن يرحم، وإذا كان أحق أن يرحم؛ فكيف يسطو هذا الرجل الظالم على ماله فيأكله؟!.

وأكل مال غير اليتيم حرام، ولكن أكل مال اليتيم أشد حرمة؛ لأن اليتيم له شأن خاص، ولهذا توعد الله تعالى من أكل أموال اليتامى، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

وقوله: «**والتولي يوم الزحف**» التولي: بمعنى الإدبار والإعراض، ويوم الزحف؛ أي: يوم تلاحم الصفين في القتال مع الكفار، وسمي يوم الزحف؛ لأن الجموع إذا تقابلت تجد أن بعضها يزحف إلى بعض، كالذي يمشي زحفًا كل واحد منهم يهاب

الآخر، فيمشي رويداً رويداً.

والتولي يوم الزحف، من كبائر الذنوب؛ لأنه يتضمن الإعراض عن الجهاد في سبيل الله تعالى، وكسر قلوب المسلمين، وتقوية أعداء الله تعالى، وهذا يؤدي إلى هزيمة المسلمين.

لكن هذا خُصِّص بقول الله تعالى: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [الأنفال: ١٦].

فالله سبحانه وتعالى استثنى حالتين:

الأولى: أن يكون متحرفـًا لقتال؛ أي: متهيئـًا له، كمن ينصرف ليصلح من شأنه أو يهيئ الأسلحة ويعدها، ومنه الانحراف إلى مكان آخر يأتي العدو من جهته؛ فهذا لا يعد متوليـًا، إنما يعد متهيئـًا.

الثانية: المتحيز إلى فئة، كما إذا حصرت سرية للمسلمين يمكن أن يقضي عليها العدو، فانصرف من هؤلاء لينقذها؛ فهذا لا بأس به لدعاء الضرورة إليه بشرط ألا يكون على الجيش ضرر، فإن كان على الجيش ضرر وذهبت طائفة كبيرة إلى هذه السرية بحيث توهن قوة الجيش وتكسره أمام العدو؛ فإنه لا يجوز؛ لأن الضرر هنا متحقق، وإنقاذ السرية غير متحقق؛ فلا يجوز لأن المقصود إظهار دين الله تعالى، وفي هذا إذلال لدين الله تعالى، إلا إذا كان الكفار أكثر من مثلي المسلمين، فيجوز الفرار حينئذ؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ ﴾ [الأنفال: ٦٦]، أو كان عندهم عدة لا يمكن للمسلمين مقاومتها، كالطائرات إذا لم يكن عند المسلمين من صواريخ ما يدفعها، فإذا علم أن الصمود يستلزم الهلاك والقضاء على المسلمين؛ فلا يجوز لهم أن يبقوا؛ لأن مقتضى ذلك أنهم يغررون بأنفسهم.

وقوله: «**وقذف المحصنات**»؛ القذف: بمعنى الرمي؛ والمراد به هنا الرمي بالزنا، والمحصنات هنا الحرائر.

وقوله: «**الغافلات**»؛ أي: العفيفات عن الزنا البعيدات عنه، اللاتي لا يخطر على بالهن هذا الأمر.

وقوله: «**المؤمنات**»، احترازاً من الكافرات، فمن قذف امرأة هذه صفاتها؛ فإن ذلك من الموبقات، ومع ذلك يقام عليه الحد ثمانون جلدة، ولا تقبل شهادته ويكون فاسقًا؛ فجعل الله تعالى عليه ثلاثة أمور، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٤]، ثم قال الله سبحانه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ﴾ [النور: ٥]، وهذا الاستثناء لا يشمل أول الجمل بالاتفاق، ويشمل آخر الجمل بالاتفاق، واختلف العلماء في الجملة الثانية، وهي قوله: ﴿وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗا﴾؛ فقيل: إنه يعود إليها، وقيل: لا يعود.

وبناء على ذلك إذا تاب القاذف: هل تقبل شهادته أم لا؟.

الجواب: اختلف في ذلك أهل العلم؛ فمنهم من قال: لا تقبل شهادته أبداً ولو تاب، وأيدوا قولهم بأن الله عز وجل أَبَّدَ ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗا﴾، وفائدة هذا التأبيد أن الحكم لا يرتفع عنهم مطلقًا.

وقال آخرون: بل تقبل؛ لأن مبنى قبول الشهادة وردها على الفسق، فإذا زال وهو المانع من قبول الشهادة؛ زال ما يترتب عليه.

وينبغي في مثل هذا أن يقال: إنه يرجع إلى نظر الحاكم، فإذا رأى من المصلحة عدم قبول الشهادة لردع الناس عن التهاون بأعراض المسلمين؛ فليفعل.

وإلا؛ فالأصل أنه إذا زال الفسق وجب قبول الشهادة.

وهل قذف المحصنين الغافلين المؤمنين كقذف المحصنات من كبائر الذنوب؟.

الجواب: الذي عليه جمهور أهل العلم أن قذف الرجل كقذف المرأة، وإنما خص بذلك المرأة؛ لأن الغالب أن القذف يقع على النساء أكثر؛ ولأنه يستلزم الشك في نسب أولادها من زوجها، فيلحق بهن القذف ضرراً أكثر؛ فتخصيصه من باب التخصيص بالغالب.

وبعد شرح هذا الحديث كاملاً، نعود إلى موضوعنا هنا؛ وهو السحر؛ فقد جاءت بعض الآثار عن بعض الصحابة رضي الله عنهم، توضح أموراً وأحكامًا متعلقة بالسحر والساحر، نذكرها هنا للفائدة.

فعن جندب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «حد الساحر ضربة بالسيف»[(١)].

والمراد بـ«ضربة بالسيف» هي ضربة قوية قاضية؛ وهي كناية عن القتل.

وهذا الأثر أخذ به مالك وأحمد وأبوحنيفة رحمهم الله تعالى؛ فقالوا: يقتل الساحر، وأما الشافعي رَحِمَهُ اللهُ لم ير القتل عليه بمجرد السحر إلا إن عمل في سحره ما يبلغ الكفر.

وفي قول جندب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هنا أنه لم يفرق بين ساحر وساحر، ولم يأت في أدلة الكتاب والسنة التفصيل في اسم الساحر الذي يحد، أو الذي وصف بالكفر بين نوع ونوع من التأثير، فالأنواع التي يستخدمها السحرة مما يصدق عليها أنها سحر في التأثير وفي الإمراض وفي التفريق وفي التأثير على العقول وعلى القلوب ونحو ذلك، من أنواع التأثير الخفي الذي يكون باستخدام الشياطين، أو بأمور خفية؛ فهذا كله لا يفرق فيه بين فاعل وفاعل؛ فلهذا قال العلماء: إن الساحر من أي نوع حده أن يقتل.

اختلف العلماء في حَدِّه؛ أهو حدّ ردة أو حَدّ كفر، فذهب جماعة منهم أنه حدّ ردّة؛ لأن حقيقة السحر أنه لا بد أن يكون فيه إشراك بالله جل وعلا؛ فمن أشرك بالله جل وعلا فقد ارتد وحل دمه وماله.

ولشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ تفصيل أحسن فيه يقول: «إن الساحر قد لا تدرك حقيقة سحره فيترك أمره في قتله إلى الإمام إذا رأى المصلحة في قتله قتله، وإن لم ير المصلحة في قتله لم يقتله».

وجاء عن بجالة بن عبدة قال: كتب عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أن اقتلوا كل ساحر وساحرة»، قال: فقتلنا ثلاث سواحر[(٢)].

وأيضـًا عن حفصة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «أنها أمرت بقتل جاريةٍ لها سحرتها، فقتلت»[(٣)].

وهذه الآثار من حجج الجمهور القائلين بأن الساحر يقتل، وظاهرها أنه يقتل من

---

(١) رواه الترمذي برقم (١٤٦٠)، وقال: الصحيح عن جندب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ موقوف، وكذا صححه الألباني؛ انظر «سلسلة الأحاديث الضعيفة» برقم (١٤٤٦).

(٢) رواه أحمد (١/ ١٩١)، وأبو داود برقم (٣٠٤٣)، وغيرهما مختصراً، وصححه الألباني؛ انظر «صحيح وضعيف سنن أبي داود».

(٣) رواه مالك في «الموطأ» (كتاب العقول/ باب ما جاء في الغيلة والسحر) بلاغـًا، وعبد الرزاق في «مصنفه» (١٠/ ١٨) موصولاً، وبسند صحيح.

غير استتابة، لكن اختلف العلماء هل يستتاب أم لا؟.

فالمشهور عن أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ أنه لا يستتاب، وبه قال مالك، واستدل أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لم يستتيبوهم، ولأن علم السحر لا يزول بالتوبة.

ونقل عن أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ أيضـًا أن الساحر يستتاب؛ فإن تاب قبلت توبته وخلي سبيله، وبه قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لأن ذنبه لا يزيد على الشرك، والمشرك يستتاب وتقبل توبته، فكذلك الساحر، وعلمه بالسحر لا يمنع توبته، بدليل ساحر أهل الكتاب إذا أسلم، ولذلك صح إيمان سحرة فرعون وتوبتهم،وهذا هو الراجح.

وجاء عن أبي عثمان النهدي رَحِمَهُ اللَّهُ - وهو من كبار التابعين -: أن ساحراً كان يلعب عند الوليد بن عقبة، فكان يأخذ سيفه فيذبح نفسه ولا يضره، فقام جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى السيف فأخذه، فضرب عنقه، ثم قرأ: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣][1].

ولهذه الحادثة طريق أخرى عند البيهقي عن ابن وهب، قال: أخبرني ابن لهيعة عن أبي الأسود: «أن الوليد بن عقبة كان بالعراق يلعب بين يديه ساحر، وكان يضرب رأس الرجل، ثم يصيح به، فيقوم خارجًا، فيرتد إليه رأسه، فقال الناس: سبحان الله، يحيى الموتى ! ورآه رجل من صالح المهاجرين، فنظر إليه، فلما كان من الغد، اشتمل على سيفه فذهب يلعب لعبه ذلك، فاخترط الرجل سيفه فضرب عنقه، فقال: إن كان صادقًا فليحي نفسه! وأمر به الوليد ديناراً صاحب السجن - وكان رجلاً صالحًا - فسجنه، فأعجبه نحو الرجل، فقال: أتستطيع أن تهرب؟ قال: نعم، قال: فاخرج لا يسألني الله عنك أبداً».

***

(١) رواه الدارقطني في «سننه» (٣/ ١١٤)، وصححه الألباني؛ انظر «سلسلة الأحاديث الضعيفه» (٣/ ٦٤٢).

المسألة (الخامسة والعشرون):
فِي بَيَان شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْرِ

قوله: «**بيان**»؛ أي: توضيح حقائق «**أنواع السحر**» مع حكمها.

فاسم «**السحر**» عام في اللغة، يدخل فيه الاسم الخاص الذي فيه استعانة بالشياطين والتقرب إليها وعبادتها لتخدم الساحر، ويدخل فيها أمور أخرى يطلق عليها الشارع أنها سحر، وليست كالسحر الأول في الحقيقة، ولا في الحكم،كما جاء في قول النبي ﷺ: «إن من البيان لسحرا» والبيان ليس سحراً فيه استعانة بالشياطين، ولكنه داخل في حقيقة السحر اللغوية؛ لأن له تأثيراً خفياً على القلوب، فإن الإنسان البليغ ذا البيان والإيضاح يؤثر في القلوب حتى يسبيها، وربما قلب الحق باطلاً والباطل حقاً ببيانه.

والحد الذي ذكر سابقاً، وفيه أن: «حد الساحر ضربةٌ بالسيف» لا ينطبق على كل ما أطلق عليه سحراً.

قَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُوْمِ، فَقَدِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ، زادَ مَا زَادَ»[1].

قوله: «**من اقتبس**»؛ أي: من تعلم؛ لأن التعلم وهو أخذ الطالب من العالم شيئاً من علمه بمنزلة الرجل يقتبس من صاحب النار شعلة.

وقوله: «**شعبة**»؛ أي: طائفة.

وقوله: «**من النجوم**»؛ المراد: علم النجوم، وليس المراد النجوم أنفسها؛ وهو العلم الذي يستدل به على الحوادث الأرضية؛ فيستدل مثلاً باقتران النجم الفلاني

---

(١) رواه أحمد (١/ ٢٢٧-٣١١)، وأبو داود برقم (٣٩٠٥)، وابن ماجه برقم (٣٧٢٦)، وصححه الألباني؛ انظر «سلسلة الأحاديث الصحيحة» برقم (٧٩٣).

بالنجم الفلاني على أنه سيحدث كذا وكذا، ويستدل بولادة إنسان في هذا النجم على أنه سيكون سعيداً، وفي النجم الآخر على أنه سيكون شقيًا؛ فيستدلون باختلاف أحوال النجوم على اختلاف الحوادث الأرضية، والحوادث الأرضية من عند الله تعالى، قد تكون أسبابها معلومة لنا، وقد تكون مجهولة، لكن ليس للنجوم بها علاقة، ولهذا جاء في حديث زيد بن خالد الجهني رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في غزوة الحديبية؛ أنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات ليلة على إثر سماء من الليل؛ فقال ﷺ: «قال الله تعالى: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر؛ فمن قال: مطرنا بنوء كذا وكذا — بنوء؛ يعني: بنجم، والباء للسببية؛ يعني: هذا المطر من النجم -؛ فإنه كافر بي مؤمن بالكوكب، ومن قال: مطرنا بفضل الله ورحمته؛ فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب» [(١)].

وعلم النجوم ينقسم إلى قسمين:

الأول: علم التأثير؛ وهو أن يستدل بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية؛ فهذا محرم باطل لقول النبي ﷺ: «**من اقتبس شعبة من النجوم؛ فقد اقتبس شعبة من السحر**»، وقوله ﷺ: «من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا؛ فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب»، ولقول النبي ﷺ في الشمس والقمر: «إنهما آيتان من آيات الله تعالى، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته»[(٢)]؛ فالأحوال الفلكية لا علاقة بينها وبين الحوادث الأرضية.

الثاني: علم التسيير؛ وهو ما يستدل به على الجهات والأوقات؛ فهذا جائز، وقد يكون واجبًا أحيانًا، كما قال الفقهاء: إذا دخل وقت الصلاة يجب على الإنسان أن يتعلم علامات القبلة من النجوم والشمس والقمر، قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥]، فلما ذكر الله عز وجل العلامات الأرضية انتقل إلى العلامات السماوية؛ فقال الله تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]، فالاستدلال بهذه النجوم على الأزمان لا بأس به، مثل أن يقال: إذا طلع النجم الفلاني دخل وقت السيل ودخل

---

(١) رواه البخاري برقم (٨٤٦)، ومسلم برقم (٧١).

(٢) رواه البخاري برقم (١٠٤١)، ومسلم (٩٠٤).

وقت الربيع، وكذلك على الأماكن؛ كالقبلة، والشمال، والجنوب.

وقوله: «**فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد**»؛ هذا هو الشاهد من الحديث، حيث دلّ على أن التنجيم فيه نوع من أنواع السحر، لأن كلًّا من المنجِّم والساحر يدّعي علم الغيب الذي اختصّ الله تعالى بعلمه.

والمراد كلما زاد في تعلُّم علم النجوم زاد في تعلُّم السحر، حتى يصل إلى آخر حقيقة علم التأثير كما يسمونه، فيصبح سحراً وكهانة على الحقيقة، ويأتي أن التنجيم منه علم التأثير وهو جعل الكواكب والنجوم في حركتها والتقائها وافتراقها وطلوعها وغروبها مؤثرة في الحوادث الأرضية، أو دالة على ما سيحدث في الأرض أو يحدث للأشخاص، فيجعلونها دالة على علم الغيب، ومنبئة على المغيبات، وهذا القدر هو من السحر، لأنه يشترك معه في حقيقته، وهو أنه تأثير بأمر خفي.

ومما يدخل في التنجيم في هذا العصر بوضوح – مع غفلة الناس عنه – ما يسمونه الأبراج، ويجعلون عليها اسمـًا ورسمـًا للبرج كالأسد، والعقرب، والثور، إلى آخره، ويجعلون أمام كل برج ما سيحصل فيه، فإذا كان الرجل أو المرأة مولوداً في ذلك البرج، فيقول له: سيحصل لك في هذا الشهر كذا وكذا وكذا، وهذا هو التنجيم الذي هو التأثير.

فهذا يجب إنكاره إنكاراً شديداً؛ لأن التنجيم من السحر كما ذكرنا، ويجب أيضـًا على كل مسلم أن لا يتابعه، وأن لا يقرأه، ولا يطّلع عليه، لأن الاطلاع على تلك الأبراج وما فيها – ولو لمجرد المعرفة – يدخل في النهي من جهة أنه أتى الكاهن غير منكر عليه.

وقوله: «**زاد ما زاد**»؛ أي: أن الشيء إذا كان من الشيء؛ فإنه يزداد بزيادته؛ فكلما زاد شعبة من تعلم النجوم ازداد شعبة من السحر.

وَقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «أَلَا هَلْ أُنَبِّئُكُمْ مَا العَضْهُ؟؛ هِيَ النَّمِيْمَةُ، القَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ»[(١)].

قوله: «**ألا**» أداة استفتاح، والغرض تنبيه المخاطب والاعتناء بما يخبر به لأهميته.

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٦٠٦).

وقوله: «**هل أنبئكم ما العضه**» الاستفهام للتشويق؛ لأن الإنسان مشتاق إلى العلوم يحب أن يعلم، وقد يكون المراد به التنبيه؛ لأن الموجه إليه الخطاب ينبغي أن يتنبه ليعلم.

ومعنى «**أنبئكم**»؛ أخبركم، وقال بعض العلماء: إن الإنباء لغة يكون في الأمور الهامة، والإخبار أعم منه يكون في الهامة وغير الهامة.

وقوله: «**العَضْه**» بفتح العين وسكون الضاد وبالهاء؛ على وزن وَجْه، وروي بكسر العين وفتح الضاد؛ على وزن عِدَة، والضبط الأول لهذا اللفظ أشهر.

ومعنى «**العضه**»؛ الكذب والبهتان وقول الزور، وأيضاً: السحر، أو نوع من أنواع السحر؛ وهذا المعنى هو المراد هنا؛ لأن العضه تأتي بمعنى القطع والتمزيق، ومنه قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩١]؛ أي: قِطَعاً وأجزاءً؛ يؤمنون ببعضه ويكفرون ببعضه، والسحر منه ما يُقَطِّع الأوصال ويفرق الأحبة، وهذا ما تفعله النميمة بين الناس؛ ففسرها النبي ﷺ به.

وقوله: «**هي النميمة**»؛ هي من نَمَّ الحديث إلى غيره؛ أي: نقله؛ والنميمة فسرها بقوله: «**القالة بين الناس**»؛ أي: نقل القول بين الناس، فينقل من هذا إلى هذا، فيأتي لفلان ويقول: فلان يسبك؛ فهو نَمَّ إليه الحديث ونقله، وسواء كان صادقاً أو كاذباً، فإن كان كاذبا؛ فهو بهت ونميمة، وإن كان صادقاً؛ فهو نميمة.

فتجد رجلين صديقين، فيأتي نمام، فيقول لأحدهما: صاحبك يسبك، فتنقلب هذه المودة إلى عداوة، فيحصل التفرق، وهذا يشبه السحر بالتفرق؛ لأن السحر فيه تفريق، قال الله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة: ١٠٢].

قال يحيى بن أبي كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يفسد النمام والكذاب في ساعة مالا يفسد الساحر في سنة».

وقال أبو الخطاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن السحر السعي بالنميمة والإفساد بين الناس».

ووجهه؛ أنه يقصد الأذى بكلامه وعمله على وجه المكر والحيلة أشبه السحر، ولهذا يعلم بالعرف والعادة أنه يؤثر وينتج ما يعمله الساحر أو أكثر، فيعطى حكمه

تسوية بين المتماثلين أو المتقاربين، لكنه يقال: الساحر إنما كفر لوصف السحر، وهو أمر خاص ودليله خاص، وهذا ليس بساحر، وإنما يؤثر عمله ما يؤثره فيعطى حكمه، إلا فيما اختص به من الكفر وعدم قبول التوبة.

والنميمة من كبائر الذنوب، وهي سبب لعذاب القبر، ومن أسباب حرمان دخول الجنة، قال النبي ﷺ: «لا يدخل الجنة قتات»[(١)]؛ أي: نمام، وفي حديث ابن عباس رضي الله عنه: أنه ﷺ «مَرَّ بقبرين يعذبان وما يعذبان من كبير؛ كان أحدهما لا يستتر من بوله، وكان الآخر يمشي بالنميمة»[(٢)].

والنميمة كما هي من كبائر الذنوب؛ فهي في الحقيقة خلق ذميم، ولا ينبغي للإنسان أن يطيع النمام مهما كانت حاله، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١٠-١١]، واعلم أن من نَمَّ إليك نَمَّ فيك؛ فاحذره.

وَقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرَاً»[(٣)].

قوله: «**إن من البيان**»؛ المعنى: إن بعض البيان سحر وبعضه ليس بسحر.

و«**البيان**»: هو الفصاحة والبلاغة، وهو من نعمة الله تعالى على الإنسان، قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٣-٤].

و«**البيان**» نوعان:

الأول: بيان لابد منه، وهذا يشترك فيه جميع الناس، فكل إنسان إذا جاع قال: إني جعت، وإذا عطش قال: إني عطشت، وهكذا.

الثاني: بيان بمعنى الفصاحة التامة التي تسبي العقول وتغير الأفكار، وهي التي قال فيها الرسول ﷺ: «**إن من البيان لسحراً**».

ووجه كون البيان سحراً: أنه يأخذ بعقل السامع، فيصرفه أو يعطفه، فيظن السامع أن الباطل حق لقوة تأثير المتكلم، فينصرف إليه، ولهذا إذا أتى إنسان يتكلم بكلام

---

(١) رواه البخاري برقم (٦٠٥٦) ومسلم برقم (١٠٥).

(٢) رواه البخاري برقم (٢١٦)، ومسلم برقم (٢٩٢).

(٣) رواه البخاري برقم (٥١٤٦)، ومسلم برقم (٨٦٩).

معناه باطل، لكن لقوة فصاحته وبيانه يسحر السامع حقًا، فينصرف إليه، وإذا تكلم إنسان بليغ يحذر من حق، ولفصاحته وبيانه يظن السامع أن هذا الحق باطل، فينصرف عنه، وهذا من جنس السحر.

وقال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تأوله طائفة على الذم؛ لأن السحر مذموم، وذهب أكثر أهل العلم وجماعة أهل الأدب إلى أنه على المدح؛ لأن الله تعالى مدح البيان.

ولكن اعلم أن البيان من حيث هو بيان لا يمدح عليه ولا يذم، ولكن ينظر إلى أثره، والمقصود منه، فإن كان المقصود منه رد الحق وإثبات الباطل؛ فهو مذموم؛ لأنه استعمال لنعمة الله تعالى في معصيته، وإن كان المقصود منه إثبات الحق وإبطال الباطل؛ فهو ممدوح، وإذا كان البيان يستعمل في طاعة الله تعالى وفي الدعوة إلى الله تعالى؛ فهو خير.

***

المسألة (السادسة والعشرون):
فِي الكُهَّانِ وَنَحْوِهِمْ

قوله: «**الكهان**»، وأيضـًا الكَهَنة: جمع كاهن، وهم قوم كانوا في أحياء العرب يتحاكم الناس إليهم، وتتصل بهم الشياطين، وتخبرهم عما كان في السماء، تسترق السمع من السماء، وتخبر الكاهن به، ثم الكاهن يضيف إلى هذا الخبر ما يضيف من الأخبار الكاذبة، ويخبر الناس، فإذا وقع مما أخبر به شيء؛ اعتقده الناس عالمـًا بالغيب، فصاروا يتحاكمون إليهم؛ فهم مرجع للناس في الحكم، ولهذا يسمون الكهنة؛ إذ هم يخبرون عن الأمور في المستقبل، يقولون: سيقع كذا وسيقع كذا.

قال العلماء: «كل من تكلم في معرفة الأمور المغيبة الماضية أو المستقبلة بطريق التنجيم أو الخط في الرمل بطريق الطرْق أو بالودع، ونحو ذلك من الأساليب أو بالخشبة المكتوب عليها «أباجاد»، ونحو ذلك من قراءة الفنجان أو قراءة الكف كل من يخبر عن الأمور المغيبة بشيء يجعله وسيلة لمعرفة الأمور المغيبة يسمى كاهنا ويسمى عرافـًا».

وقوله: «**نحوهم**»؛ يعني: من العرافين، والمنجمين، والذين يخطون في الرمل، والذين يكتبون على الخشب، ويقرؤون الفنجان... ونحو ذلك.

وهذه المسألة أتى بها بعد مسائل السحر السابقة؛ لأن حقيقة عمل الكاهن أنه يستخدم الجن لإخباره بالأمور المغيبة، في الماضي أو الأمور المغيبة في المستقبل التي لا يعلمها إلا الله جل جلاله.

واستخدامه الجنَّ كفرٌ وشركٌ أكبر بالله جل وعلا؛ لأن استخدام الجن في مثل هذه الأشياء، لا يكون إلا بأن يتقرب إلى الجن بشيء من العبادات، فالكهان لا بد لكي يُخدَمُوا بذكر الأمور المغيبة لهم أن يتقربوا إلى الجني ببعض العبادات إما بالذبح أو الاستغاثة أو بالكفر بالله جل وعلا بإهانة المصحف أو بسب الله سبحانه أو نحو ذلك من الأعمال الشركية الكفرية.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِيْنَ يَوْمًا»(١).

قوله: «**من أتى عرافًا**»؛ العراف: صيغة مبالغة من العارف، أو نسبة؛ أي: من ينتسب إلى العِرافة؛ والعراف؛ قيل: هو الكاهن، وهو الذي يخبر عن المستقبل؛ وقيل: هو اسم عام للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ممن يستدل على معرفة الغيب بمقدمات يستعملها، وهذا المعنى أعم، يدل عليه الاشتقاق؛ إذ هو مشتق من المعرفة، فيشمل كل من تعاطى هذه الأمور وادعى بها المعرفة.

وقوله: «**فسأله؛ لم تقبل له صلاة أربعين يومًا**»؛ ظاهر الحديث أن مجرد سؤاله يوجب عدم قبول صلاته أربعين يومًا، ولكنه ليس على إطلاقه؛ فسؤال العراف ونحوه ينقسم إلى أقسام:

القسم الأول: أن يسأله سؤالاً مجرداً؛ فهذا حرام؛ لقول النبي ﷺ: «**من أتي عرافًا...**»؛ فإثبات العقوبة على سؤاله يدل على تحريمه؛ إذ لا عقوبة إلا على فعل محرم.

القسم الثاني: أن يسأله فيصدقه، ويعتبر قوله؛ فهذا كفر؛ لأن تصديقه في علم الغيب تكذيب للقرآن، حيث قال الله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

القسم الثالث: أن يسأله ليختبره: هل هو صادق أو كاذب، وليظهر عجزه وكذبه، لا لأجل أن يأخذ بقوله؛ فهذا لا بأس به، وهذا مطلوب؛ لأن إبطال قول الكهنة لاشك أنه أمر مطلوب، وقد يكون واجبًا، ولا يدخل في الحديث.

وقد سأل النبي ﷺ ابن صياد؛ فقال ﷺ: «ماذا خبأت لك؟»، قال: الدُّخ، فقال ﷺ: «اخسأ؛ فلن تعدو قدرك» (٢)؛ فالنبي ﷺ سأله عن شيء أضمره؛ لأجل أن

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٢٣٠).

(٢) رواه البخاري برقم (١٣٥٥)، ومسلم برقم (٢٩٣١)؛ ومعنى «الدخ»؛ أي: أنه أراد أن يقول: «الدخان»، فلم يستطع أن يتمّمها، على عادة الكهان من اختطاف بعض الكلمات من أوليائهم من الجن.

يختبره؛ فاختبره، فلم يجب.

فصار السؤال هنا ليس على إطلاقه، بل يفصل فيه هذا التفصيل على حسب ما دلت عليه الأدلة الشرعية الأخرى.

وقوله: «**لم تقبل له صلاة أربعين ليلة**» نفي القبول إما أن يكون لفوات شرط، أو لوجود مانع؛ ففي هاتين الحالين يكون نفي القبول نفيًا للصحة، كما لو قلت: من صلى بغير وضوء لم يقبل الله تعالى صلاته.

وإن كان نفي القبول لا يتعلق بفوات شرط ولا وجود مانع؛ فلا يلزم من نفي القبول نفي الصحة، وإنما يكون المراد بالقبول المنفي: إما نفي القبول التام؛ أي: لم تقبل على وجه التمام الذي يحصل به تمام الرضى وتمام المثوبة، وإما أن يُراد به أن هذه السيئة التي فعلها تقابل تلك الحسنة في الميزان، فتسقطها، ويكون وزرها موازيًا لأجر تلك الحسنة، وإذا لم يكن له أجر صارت كأنها غير مقبولة، وإن كانت مجزئة ومبرئة للذمة، لكن الثواب الذي حصل بها قوبل بالسيئة فأسقطته.

وقوله: «**أربعين يومًا**» تخصيص هذا العدد لا يمكننا أن نعلله؛ لأن الشيء المقدر بعدد لا يستطيع الإنسان غالبًا أن يعرف حكمته، فكون الصلاة خمس صلوات أو خمسين لا نعلم لماذا خُصصت بذلك؛ فهذا من الأمور التي يُقصد بها التعبُد لله تعالى، والتعبد لله تعالى بما لا تعرف حكمته أبلغ من التعبد له بما تعرف حكمته؛ لأنه أبلغ في التذلل؛ صحيح أن الإنسان إذا عرف الحكمة اطمأنت نفسه أكثر، لكن كون الإنسان ينقاد لما لا يعرف حكمته دليل على كمال الانقياد والتعبد لله عز وجل.

ويؤخذ من الحديث: تحريم إتيان العراف وسؤاله؛ إلا ما استثني؛ كما ذكرت سابقًا؛ لما في إتيانهم وسؤالهم من المفاسد العظيمة، التي ترتب على تشجيعهم وإغراء الناس بهم، وهم في الغالب يأتون بأشياء كلها باطلة.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُوْلُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ»(١).

وفي رواية: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُوْلُ، فَقَدَ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ»(٢).

قوله: «**من أتى كاهنًا**»، والرواية الأخرى: «**عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا**» تقدم معنى الكهان والعراف.

وقوله: «**فصدقه**»؛ أي: نسبه إلى الصدق، وقال: إنه صادق، وتصديق الخبر يعني: تثبيته وتحقيقه، فقال: هذا حق وصحيح وثابت.

وقوله: «**بما يقول**»، «**ما**» عامة في كل ما يقول، حتى ما يحتمل أنه صدق؛ فإنه لا يجوز أن يصدقه؛ لأن الأصل فيهم الكذب.

وقوله: «**فقد كفر بما أُنزل على محمد**»؛ أي: بالذي أُنزل، والذي أنزل على محمد ﷺ القرآن، أُنزل إليه بواسطة جبريل عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ❁ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٣]، وقال الله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢].

والكفر هنا كفر أصغر وليس بالكفر المخرج من الملة، وهذا القول هو القول صحيح، وهو الذي يتعين جمعًا بين النصوص، فإن قول النبي ﷺ: «من أتى عرافًا فسأله عن شيء، لم تقبل له صلاة أربعين يومًا»؛ يدل على أنه لم يخرج من الإسلام، والحديث الآخر، وهو قوله ﷺ: «**من أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ**» يدل على كفره، فعلمنا بذلك أن كفره كفر أصغر وليس كفراً مخرجًا من الملة.

---

(١) رواه أبو داود برقم (٣٩٠٤)، والترمذي برقم (١٣٥)، وابن ماجه برقم (٦٣٩)،وصححه الألباني؛ انظر «الإرواء» برقم (٢٠٠٦).

(٢) رواه أحمد (٢/ ٤٢٩)، والحاكم (١/ ٨)، وصححه الألباني؛ انظر «صحيح الجامع» برقم (٥٩٣٩).

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطَيِّرَ لَهُ أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكِهِّنَ لَهُ أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ، وَمَنْ عَقَدَ عُقْدَةً-أَوْ قَالَ:عَقَدَ عُقْدَةً-وَمَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُوْلُ، فَقَدَ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ» (١).

قوله: «**ليس منا**»؛ لا تدل على خروج الفاعل من الإسلام، بل على حسب الحال.

وقوله: «**تطير**»؛ التطير: هو التشاؤم بالمرئي أو المسموع أو المعلوم أو غير ذلك، وأصله من الطير؛ لأن العرب كانوا يتشاءمون أو يتفاءلون بالطير.

ومنه ما يحصل لبعض الناس إذا شرع في عمل، ثم حصل له في أوله تعثر تركه وتشاءم؛ فهذا غير جائز، بل يعتمد على الله ويتوكل عليه؛ لأنه إذا لم يوفق فيه لأول مرة؛ فكم من إنسان لم يوفق في العمل أول مرة، ثم وفق في ثاني مرة أو ثالث مرة وهكذا...؟!.

وقوله: «**أو تُطير له**» بالبناء للمفعول؛ أي: أمر مَن يتطير له، مثل أن يأتي شخص، ويقول: سأسافر إلى المكان الفلاني، وأنت صاحب طير، وأريد أن تزجر طيرك لأنظر: هل هذه الوجهة مباركة أم لا، فمن فعل ذلك؛ فقد تبرأ منه الرسول ﷺ.

وقوله: «**من تطير**» يشمل من تطير لنفسه، أو تطير لغيره.

وقوله: «**أو تكهن**» الكهانة ادعاء علم الغيب في المستقبل، يقول سيكون كذا وكذا، وربما يقع ما ادعاه، فيكون فتنة للكاهن ولمن طلب من الكاهن.

وقوله: «**أو تُكهن له**»؛ أي: طلب من الكاهن أن يتكهن له، كأن يقول للكاهن: ماذا يصيبني غداً، أو في الشهر الفلاني، أو في السنة الفلانية، وهذا تبرأ منه الرسول ﷺ.

وقوله: «**أو سَحَرَ**»؛ السحر هو: عزائم ورقى وعقد يؤثر في القلوب والأبدان فيمرض ويقتل ويفرق بين المرء وزوجه.

وقوله: «**أو سُحر له**»؛ أي: طلب من الساحر أن يسحر له.

---

(١) رواه البزار في «مسنده» برقم (٣٥٧٨)، وحسنه الألباني؛ انظر «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٦/ ٣١١).

وقوله: «**مَن عقد عقدة**»؛ هذا دَأْبُ أَهلِ السحر أن يأخذ أحدهم خيطـًا فيعقد عليه عقدة، ويتكلم عليه بالسحر بنفثٍ.

وقولـه: «**أو قـال: عقـد عقـدة**» شـك من الراوي؛ والفرق بينهما بإثبات «مَن» أو حذفها؛ وهذا إن دَلَّ فيدل على حرص الرواة في نقل الأحاديث.

وقوله: «**ومن أتى كاهناً فصدقه...**» إلى آخر الحديث، سبق قريبـًا بيانه.

واعلم أن أصناف الكهانة كثيرة جداً وجامعها الذي يجمعها أنه يستخدم الكاهن وسيلة ظاهرة عنده ليقنع السائل بأنه وصل إليه العلم عن طريق أمور ظاهرة كالنجوم، أو عن طريق الخط، أو عن طريق الطرق، أو عن طريق الودع، أو عن طريق الفنجان، أو عن طريق الكف، أو عن طريق النظر في الحصى، أو عن طريق الخشب، ونحو ذلك.

هذه كلها وسائل يغر بها الكاهن من يأتيه، وهي في الحقيقة وسائل لا تحصل ذاك العلم، ولكن العلم جاءه عن طريق الجن، وهذه الوسيلة إنما هي وسيلة لخداع الناس، ولكي يظن الظان أنها تؤدي إلى العلم، وأن هؤلاء أصحاب علم وفن بهذه الأمور.

* * *

المسألة (السابعة والعشرون):
فِي النُّشْرَةِ

قوله: «**النُّشرة**»؛ في اللغة؛ بضم النون: فعلة من النشر؛ وهو التفريق.

وفي الاصطلاح: حل السحر عن المسحور؛ لأن هذا الذي يحل السحر عن المسحور: يرفعه، ويزيله، ويفرقه.

والنشرة متعلقة بالسحر وأصلها من النشر وهو قيام المريض صحيحاً، وهي اسم لعلاج المسحور ومن يظن أن به مساً من الجن.

سميت نشرة؛ لأنه ينتشر بها؛ أي: يقوم ويرجع إلى حالته المعتادة و يكشف ويزال عنه ما يجد من الداء.

وهل النشرة جميعاً، مذمومة؟ أو أن منها ما هو مذموم ومنها ما هو مأذون به؟.

فالنشرة منها الجائزة: وهي ما كانت بالقرآن أو بالأدعية المعروفة أو بالأدوية عند الأطباء ونحو ذلك.

ومنها الممنوعة: وهي التي من أنواع الشرك، وهي أن ينشر عنه بغير الطريق الأول بطريق السحر فيحل السحر الأول بسحر آخر.

والسحر لا ينعقد أصلاً إلا بأن يتقرب الساحر للجني، أو أن يكون الجني يخدم الساحر الذي يشرك بالله عز وجل دائماً.

عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُوْلَ الله صلى الله عليه وسلم سُئِلَ عَنِ النُّشْرَةِ؟ فَقَالَ صلى الله عليه وسلم: «هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ»(١).

«**جابر**»؛ هو ابن عبد الله، صحابي جليل رضي الله عنه.

قوله: «**عن النشرة**»؛ أي: المعروفة في الجاهلية التي كانوا يستعملونها في

(١) رواه أحمد (٣/ ٢٩٤)، وأبو داود برقم (٣٨٦٨)، وصححه الألباني؛ انظر «سلسلة الأحاديث الصحيحة» برقم (٢٧٦٠).

الجاهلية، وذلك عن طريق من طرق حل السحر.

وهي على نوعين:

الأول: أن تكون باستخدام الشياطين، فإن كان لا يصل إلى حاجته منهم إلا بالشرك؛ كانت شركًا، وإن كان يتوصل لذلك بمعصية دون الشرك؛ كان لها حكم تلك المعصية.

الثاني: أن تكون بالسحر؛ كالأدوية والرقى والعقد والنفث وما أشبه ذلك؛ فهذا له حكم السحر.

وقوله: «**من عمل الشيطان**»؛ أي: من العمل الذي يأمر به الشيطان ويوحي به؛ لأن الشيطان يأمر بالفحشاء ويوحي إلى أوليائه بالمنكر، وهذا يغني عن قوله: إنها حرام، بل هو أشد؛ لأن نسبتها للشيطان أبلغ في تقبيحها والتنفير منها، ودلالة النصوص على التحريم لا تنحصر في لفظ التحريم أو نفي الجواز، بل إذا رتبت العقوبات على الفعل كان دليلاً على تحريمه.

وجاء عن قتادة بن دعامة الدوسي أنه قال لسعيد بن المسيب: رجل به طب أو يؤخذ عن امرأته، أيحل عنه أو ينشر؟، قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع فلم ينه عنه [١].

ومعنى «رجل به طِب»؛ أي: سحر؛ والطب من الأضداد؛ يقال لعلاج الداء: طب، والسحر من الداء يقال له: طب.

والذي «يؤخذ عن امرأته»؛ أي: يحبس عن زوجته؛ فلا يتمكن من جماعها، وهو ليس به بأس، وهذا نوع من السحر.

ويروى عن الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: «لا يحل السحر إلا ساحر».

وهذا الأثر ذكره ابن الجوزي في «جامع المسانيد» بغير إسناد بلفظ: «لا يطلق السحر إلا ساحر».

وقال ابن مفلح رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «الآداب الشرعية»: «وقال ابن الجوزي في «جامع المسانيد»: «النشرة حل السحر عن المسحور، ولا يكاد يقدر عليه إلا من يعرف

---

(١) رواه البخاري معلقًا تحت باب هل يستخرج السحر من كتاب الطب، ووصله الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (١٠/ ٢٣٣)، وسنده صحيح.

السحر»، وقد قال الحسن: «لا يطلق السحر إلا ساحر إلا أنه لا يجوز ذلك».

فقوله: «إلا أنه لا يجوز ذلك»؛ إن كان هذا من كلام الحسن فيدل على أنه رَحِمَهُ اللَّهُ لا يرى جواز ذلك، والله أعلم.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «النشرة: حل السحر عن المسحور، وهي نوعان:

إحداهما: حل بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، وعليه يحمل قول الحسن، فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب، ويبطل عمله عن المسحور.

والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة، فهذا جائز بل مستحب».

وأما ما ذُكر سابقاً عن سعيد بن المسيب من قوله: «لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح»؛ فإنه يريد بذلك ما ينفع من النشرة بالتعوذات والأدعية والقرآن والدواء المباح ونحو ذلك، أما النشرة التي هي بالسحر فابن المسيب أرفع من أن يقول إنها جائزة ولم ينه عنها والنبي ﷺ يقول: «**هي من عمل الشيطان**»، لهذا قال: «لا بأس به إنما يريدون به الإصلاح فأما ما ينفع فلم ينه عنه»؛ يعني: من الأدوية المباحة ومن الرقى والتعوذات الشرعية وقراءة القرآن ونحو ذلك فهذا لم ينه عنه بل أُذن فيه.

وقد ذهب بعض العلماء إلى جواز حل السحر بمثله إذا كان للضرورة، وهذا القول ليس بصواب بل هو غلط؛ لأن الضرورة لا تكون جائزة ببذل الدين والتوحيد عوضا عنها، وحفظ الدين مرتبته الأعلى، وغيره أدنى منه - بلا شك- فلا يبذل ما هو أعلى لتحصيل ما هو أدنى.

وضرورة الحفاظ على النفس وإن كانت مهمة، لكنها دون حفظ الدين مرتبة؛ ولهذا لا يقدم ما هو أدنى على ما هو أعلى، أو أن يبذل ما هو أعلى لتحصيل ما هو أدنى، والأنفس لا يجوز حفظها بالشرك، ولأن يموت المرء وهو على التوحيد خير له من أن يعافى وقد أشرك بالله جل وعلا، لأن السحر لا يكون إلا بشرك، والذي يأتي الساحر ويطلب منه حل السحر، فقد رضي قوله وعمله ورضي أن يعمل به ذاك ورضي أن يشرك ذاك بالله جل جلاله لأجل منفعته وهذا غير جائز، فتحصل من هذا أن السحر -نشراً ووقوعاً- لا يكون إلا بالشرك الأكبر بالله جل وعلا.

وعليه فلا يجوز أن يحل لا من جهة الضرورة ولا من جهة غير الضرورة من باب أولى بسحر مثله بل يحل وينشر بالرقى الشرعية.

***

المسألة (الثامنة والعشرون):
فِي التَّطَيُّرِ

«**التطير**» في اللغة: مصدر تطير، وأصله مأخوذ من الطير؛ لأن العرب يتشاءمون أو يتفاءلون بالطيور على الطريقة المعروفة عندهم بزجر الطير، ثم ينظر: هل يذهب يمينـًا أو شمالاً أو ما أشبه ذلك، فإن ذهب إلى الجهة التي فيها التيامن؛ أقدم، أو فيها التشاؤم؛ أحجم.

أما في الاصطلاح؛ فهو التشاؤم بمرئي، أو مسموع، أو معلوم.

بمرئي؛ مثل: لو رأى طيراً فتشاءم لكونه موحشـًا فيحجم.

أو مسموع؛ مثل: مَن هَمَّ بأمر فسمع أحداً يقول لآخر: يا خسران، أو يا خائب؛ فيتشاءم فيحجم.

أو معلوم؛ كالتشاؤم ببعض الأيام أو بعض الشهور أو بعض السنوات؛ فهذه لا تُرى ولا تسمع فتجده فيها يحجم عن أي عمل.

واعلم أن التطير ينافي التوحيد ـ وهو محرم ـ؛ ووجه منافاته له من وجهين:

الأول: أن المتطير قطع توكله على الله سبحانه واعتمد على غير الله تعالى.

الثاني: أنه تعلق بأمر لا حقيقة له، بل هو وهم وتخييل؛ فأي رابطة بين هذا الأمر، وبين ما يحصل له، وهذا لا شك أنه يخل بالتوحيد؛ لأن التوحيد عبادة واستعانة؛ قال الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقال الله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ**﴾؛ هذه الآية نزلت في قوم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما

حكى الله تعالى عنهم في قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾، قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾، ومعنى: ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾: أنه إذا جاءهم البلاء والجدب والقحط قالوا: هذا من موسى وأصحابه؛ فأبطل الله تعالى هذه العقيدة بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ والمعنى: أن ما يصيبهم من الجدب والقحط ليس من موسى عليه السلام وقومه، ولكنه من الله سبحانه؛ فهو الذي قدره ولا علاقة لموسى عليه السلام وقومه به، بل إن الأمر يقتضي أن موسى عليه السلام وقومه سبب للبركة والخير، ولكن هؤلاء - والعياذ بالله تعالى - يلبسون على العوام ويوهمون الناس خلاف الواقع.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فهم في جهل؛ فلا يعلمون أن هناك إلهاً مدبراً، وأن ما أصابهم من الله تعالى وليس من موسى عليه السلام وقومه.

ففي الآية بيان أن هذا التطير من صفات أعداء الرسل ومن خصال المشركين، وإذا كان كذلك فهو مذموم ومن خصال المشركين الشركية، وليست من خصال أتباع الرسل، وأما أتباع الرسل فإنهم يعلقون ذلك بما عند الله تعالى من القضاء والقدر أو بما جعله الله جل وعلا لهم من ثواب أعمالهم أو العقاب على أعمالهم، كما قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾ [يس: ١٩].

قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾؛ أي: قال الذين أرسلوا إلى القرية في قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۞ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ۞ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ۞ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۞ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۞ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [يس: ١٣-١٩].

فقالوا ذلك رداً على قول أهل القرية: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾؛ أي: تشاءمنا بكم، وإننا لا نرى أنكم تدلوننا على الخير، بل على الشر وما فيه هلاكنا؛ فأجابهم الرسل بقولهم: ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾؛ أي: مصاحب لكم، فما يحصل لكم؛ فإنه منكم ومن أعمالكم، فأنتم السبب في ذلك.

ولا منافاة بين هذه الآية والتي قبلها؛ لأن الأولى تدل على أن المقدر لهذا الشيء هو الله تعالى، والثانية تبين سببه، وهو أنه منهم؛ فهم في الحقيقة طائرهم معهم؛ أي: الشؤم الحاصل عليهم معهم ملازم لهم؛ لأن أعمالهم تستلزمه؛ كما قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

ومعنى قوله: ﴿أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾؛ أي: ما أصابكم ليس منهم، بل هو من إسرافكم.

و﴿مُسْرِفُونَ﴾؛ أي: متجاوزون للحد الذي يجب أن تكونوا عليه.

وتدل هذه الآية والتي قبلها على أن التطير كان معروفاً من قبل العرب وفي غير العرب؛ لأن الأولى في فرعون وقومه، والثانية في أصحاب القرية.

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ «لَا عَدْوَى، وَلَا طِيَرَةَ، وَلَا هَامَةَ، وَلَا صَفَرَ»[(١)].
وفي رواية زاد: «وَلَا نَوْءَ»[(٢)]، وَفي رواية أخرى زاد: «وَلَا غُوْلَ»[(٣)].

في بعض روايات هذا الحديث جاء فيها: فقال أعرابي: يا رسول الله، فما بال الإبل تكون في الرمل كأنها الظباء، فيجيء البعير الأجرب فيدخل فيها فيجربها كلها؟، قال النبي ﷺ: «فمن أعدى الأول».

(١) رواه البخاري برقم (٥٧٠٧)، ومسلم برقم (٢٢٢٠) (١٠١).
(٢) رواها مسلم برقم (٢٢٢٠) (١٠٦).
(٣) رواها مسلم برقم (٢٢٢٢) (١٠٧).

وفي رواية: أن أبا هريرة ﵁ كان يحدث بحديث: «لا عدوى...»، ويحدث عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يُوْرِدُ مُمرضٌ على مُصِــح»، وفي بعض روايات هذا الحديث أيضـًا: «وفر من المجذوم كما تفر من الأسد».

وقوله: «**لا عدوى**»؛ يشــمل الحســية والمعنوية، وإن كانت في الحســية أظهر، والعدوى اســم من الإعداء؛ وهو أن يصــيبه مثل ما بصــاحب الداء؛ وذلك أن يكون ببعير جرب مثلا يتقي مخالطته بإبل أخرى حذار أن يتعدى ما به من الجرب إليها فيصيبها ما أصابه.

وقوله: «**ولا طيرة**»؛ أي: لا طيرة مؤثرة بل الطيرة شيء وهمي، يكون في القلب لا أثر لها في قضاء الله تعالى وقدره.

وقوله: «**ولا هامة**»؛ الهامة بتخفيف الميم الهامة طير من طيور الليل؛ وقيل: البومة.

وكانت تزعم العرب أنه إذا قُتل القتيل؛ صــارت عظامه هامة تطير وتصــرخ حتى يؤخذ بثأره، وربما اعتقد بعضهم أنها روحه، وكانت تزعم أيضا، أنها إذا وقعت على بيت أحدهم ونعقت؛ فإنها تنعق به ليموت، ويعتقدون أن هذا دليل قرب أجله، وهذا كله - بلا شك - عقيدة باطلة.

وقوله: «**ولا صَفَر**»؛ هي حية تكون في البطن تصيب الماشية والناس، وهي أعدى من الجرب عند العرب، وعلى هذا فالمراد بنفيه ما كانوا يعتقدونه من العدوى.

وقال آخرون: المراد به شـهر صـفر؛ والنفي هنا نفي كونه مشـؤومـًا؛ أي: لا شـؤم فيه، وهو كغيره من الأزمان يقدر فيه الخير ويقدر فيه الشر.

وهـذا النفي في هذه الأمور الأربعة ليس نفيـًا للوجود؛ لأنها موجودة، ولكنه نفي للتأثير؛ فالمؤثر هو الله تعالى.

وقوله: «**لا نوء**»؛ واحد الأنواء؛ والأنواء: هي منازل القمر، وهي ثمان وعشــرون منزلة، كل منزلة لها نجم تدور بمدار الســنة، وهذه النجوم بعضــها يســمى النجوم الشمالية، وهي لأيام الصيف، وبعضها يسمى النجوم الجنوبية، وهي لأيام الشتاء.

فالعرب كانوا يتشاءمون بالأنواء، ويتفاءلون بها؛ فبعض النجوم يقولون عنه: هذا نجم نحس لا خير فيه، وبعضـها بالعكس يتفاءلون به فيقولون عنه: هذا نجم سـعود

وخير، ولهذا إذا أُمطروا قالوا: مُطرنا بنوء كذا، ولا يقولون: مُطرنا بفضل الله ورحمته، ولا شك أن هذا غاية الجهل.

وقوله: «**ولا غول**»؛ الغول واحد الغيلان؛ وهو جنس من الجن والشياطين، كانت العرب تزعم أن الغول في الفلاة تتراءى للناس، تتلون تلونًا في صور شتى وتغولهم؛ أي: تضلهم عن الطريق وتهلكهم، فنفاه النبي ﷺ وأبطله.

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: «لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الفَأْلُ»، قَالُوا: وَمَا الفَأْلُ؟، قَالَ: «الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ» [(١)].

قوله: «**لا عدوى، ولا طيرة**»، تقدم الكلام عليهما.

وقوله: «**ويعجبني الفأل**»؛ أي: يسرني، والفأل بَيّنه بقوله: «**الكلمة الطيبة**»؛ فـ«**الكلمة الطيبة**» تعجبه ﷺ؛ لما فيها من إدخال السرور على النفس والانبساط، والمضي قُدمًا لما يسعى إليه الإنسان، وليس هذا من الطيرة، بل هذا مما يشجع الإنسان؛ لأنها لا تؤثر عليه، بل تزيده طمأنينة وإقدامًا وإقبالاً.

والكلمة الطيبة لا بد أن تكون في كل شيء؛ لأن الكلمة الطيبة في الحقيقة تفتح القلب وتكون سببًا لخيرات كثيرة، حتى إنها تُدخل المرء في جملة ذوي الأخلاق الحسنة.

وقال الحليمي رَحِمَهُ اللهُ: «إنما كان ﷺ يعجبه الفأل؛ لأن التشاؤم سوء ظن بالله تعالى بغير سبب محقق، والتفاؤل حسن ظن به، والمؤمن مأمور بحسن الظن بالله تعالى على كل حال».

لقد جمع النبي ﷺ في قوله بين محذورين ومرغوب؛ فالمحذوران هما العدوى والطيرة، والمرغوب هو الفأل، وهذا من حُسن تعليم النبي ﷺ؛ فمن ذكر المرهوب ينبغي أن يذكر معه ما يكون مرغوبًا.

---

(١) رواه البخاري برقم (٥٧٧٦)، ومسلم برقم (٢٢٢٤).

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُوْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، وَمَا مِنَّا إِلَّا...، وَلَكِنَّ الله يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ»[1].

قوله: « **الطيرة شرك، الطيرة شرك**»؛ هاتان الجملتان يؤكد بعضهما بعضاً من باب التوكيد اللفظي، وهذا اللفظ صريح في تحريم الطيرة، وأنها من الشرك لما فيها من تعلق القلب بغير الله تعالى؛ وإنما جعل الطيرة من الشرك لأنهم كانوا يعتقدون أن الطيرة تجلب لهم نفعاً أو تدفع عنهم ضراً إذا عملوا بموجبها، فكأنهم أشركوا مع الله تعالى.

وقوله: «**شرك**»؛ أي: إنها من أنواع الشرك، وليست الشرك كله؛ و المراد بالشرك هنا الشرك الأصغر ولكن قد يصل إلى الشرك الأكبر المخرج من الملة بما يُعتقد.

وقال العلماء: «إن كل إنسان اعتمد على سبب لم يجعله الشرع سبباً؛ فإنه مشركٌ شركاً أصغر».

وهذا نوع من الإشراك مع الله عز وجل؛ إما في التشريع إن كان هذا السبب شرعياً، وإما في التقدير إن كان هذا السبب كونياً، لكن لو اعتقد هذا المتشائم المتطير أن هذا فاعل بنفسه دون الله تعالى؛ فهو مشرك شركاً أكبر؛ لأنه جعل لله تعالى شريكاً في الخلق والإيجاد.

وقوله: «**وما منا إلا...**» إلى آخر الحديث؛ هو من قول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو مدرج في الحديث؛ والمدرج: أن يُدخل أحد الرواة كلاماً في الحديث من عنده بدون بيان، ويكون في الإسناد والمتن، ولكن أكثره في المتن، وقد يكون في أول الحديث، وقد يكون في وسطه، وقد يكون في آخره، وهو الأكثر.

ومعنى «**وما منا إلا..** »؛ أن ما منا إنسان يسلم من التطير؛ فالإنسان يسمع شيئاً فيتشاءم، أو يبدأ في فعل؛ فيَجِد في أوله ثم يجده ليس بالسهل فيتشاءم ويتركه.

وقوله: «**ولكن الله يذهبه بالتوكل**»؛ أي: لكن لما توكلنا على الله عز وجل في جلب

---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» برقم (٩٠٩)، وأبو داود برقم (٣٩١٠)، والترمذي برقم (١٦١٤)، وابن ماجه برقم (٣٥٣٨)، وصححه الألباني؛ انظر «سلسلة الأحاديث الصحيحة» برقم (٤٢٩).

النفع ودفع الضر، أذهبه الله تعالى عنا بتوكلنا عليه وحده.

والتوكل: صدق الاعتماد على الله سبحانه في جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة بالله تعالى، وفعل الأسباب التي جعلها الله تعالى أسباباً.

فلا يكفي صدق الاعتماد فقط، بل لابد أن تثق به؛ لأنه سبحانه يقول: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾.

وَعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ عَنْ حَاجَةٍ فَقَدْ أَشْرَكَ»، قَالُوا: فَمَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ؟، قَالَ: «أَنْ تَقُوْلَ: اللهمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ» [(١)].

قوله: «**من ردته الطيرة عن حاجة**»؛ الحاجة: كل ما يحتاجه الإنسان بما تتعلق به الكمالات، وقد تطلق على الأمور الضرورية.

وقوله: «**فقد أشرك**»؛ أي: شركاً أكبر إن اعتقد أن هذا المتشاءم به يفعل ويحدث الشر بنفسه، وإن اعتقده سبباً فقط فهو أصغر؛ لأنه سبق وقد ذكرنا كلاماً مفيداً وهو: «إن كل من اعتقد في شيء أنه سبب ولم يثبت أنه سبب لا كوناً ولا شرعاً؛ فشركه شرك أصغر؛ لأنه ليس لنا أن نثبت أن هذا سبب إلا إذا كان الله تعالى قد جعله سبباً كونياً أو شرعياً؛ فالشرعي: كالقراءة والدعاء، والكوني: كالأدوية التي جرب نفعها.

وقوله: «**فما كفارة ذلك**»؛ أي: ما كفارة هذا الشرك، أو ما هو الدواء الذي يزيل هذا الشرك؟؛ لأن الكفارة قد تطلق على كفارة الشيء بعد فعله، وقد تطلق على الكفارة قبل الفعل، وذلك لأن الاشتقاق مأخوذ من الكفر، وهو الستر، والستر واق؛ فكفارة ذلك إن وقع وكفارة ذلك إن لم يقع.

وقوله: «**اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك**»؛ يعني: فأنت الذي بيدك الخير المباشر؛ كالمطر والنبات، وغير المباشر؛ كالذي يكون سببه من عند الله تعالى على يد مخلوق؛ مثل: أن يعطيك إنسان دراهم صدقة أو هدية، وما أشبه ذلك؛ فهذا الخير من الله جل وعلا، لكن بواسطة جعلها الله سبحانه سبباً، وإلا فكل الخير من

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٢٢٠)، وصححه الألباني؛ انظر «سلسلة الأحاديث الصحيحة»(٣/ ٥٤).

الله عز وجل.

وقوله: «**فلا خير إلا خيرك**» هذا الحصر حقيقي؛ فالخير كله من الله تعالى، سواء كان بسبب معلوم أو بغيره.

وقوله: «**لا طير إلا طيرك**»؛ أي: الطيور كلها ملكك؛ فهي لا تفعل شيئًا، وإنما هي مسخرة، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩]، وقال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩]؛ فالمهم أن الطير مسخرة بإذن الله سبحانه؛ فالله تعالى هو الذي يدبرها ويصرفها ويسخرها تذهب يمينا وشمالا، ولا علاقة لها بالحوادث.

ويحتمل أن المراد بالطير هنا ما يتشاءم به الإنسان؛ فكل ما يحدث للإنسان من التشاؤم والحوادث المكروهة؛ فإنه من الله تعالى كما أن الخير من الله جل وعلا؛ كما قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وقوله: «**ولا إله غيرك**»؛ «**لا**» نافية للجنس، و«**إله**» بمعنى: مألوه؛ والمألوه: هو المعبود محبة وتعظيمًا يتأله إليه الإنسان محبة له وتعظيمًا له.

فإن قيل: إن هناك آلهة دون الله تعالى؛ كما قال الله تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [هود: ١٠١].

أجيب: أنها وإن عبدت من دون الله جل وعلا وسميت آلهة؛ فليست آلهة حقًا لأنها لا تستحق أن تعبد؛ فلهذا نقول: لا إله إلا الله؛ أي: لا إله حق إلا الله.

* * *

المسألة (التاسعة والعشرون): فِي التَّنْجِيْمِ

قوله: «**التنجيم**» هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية.

وجاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوم يكتبون «أبا جاد» وينظرون في النجوم؛ أنه قال: «ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق»[١].

يعني: والحال أنهم ينظرون، فيربطون ما يكتبون بسير النجوم وحركتها.

و«أبا جاد»؛ هي: أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ...

و«أبا جاد» ينقسم إلى قسمين:

الأول: تعلم مباح؛ بأن نتعلمها لحساب الجُمَّل، وما أشبه ذلك؛ فهذا لا بأس به، وما زال أناس يستعملونها.

وحساب الجُمَّل؛ هو هذه الحروف التي تعرف بـ «أبا جاد»؛ وهي تحمل أرقامًا حسابية، وأذكرها مرتبة وأضع كل رقم بعد حرفه: أ «١»، ب «٢»، ج «٣»، د «٤»، هـ «٥»، و «٦»، ز «٧»، ح «٨»، ط «٩»، ي «١٠»، ك «٢٠»، ل «٣٠»، م «٤٠»، ن «٥٠»، ص «٦٠»، ع «٧٠»، ف «٨٠»، ض «٩٠»، ق «١٠٠»، ر «٢٠٠»، س «٣٠٠»، ت «٤٠٠»، ث «٥٠٠»، خ «٦٠٠»، ذ «٧٠٠»، ظ «٨٠»، غ «٩٠٠»، ش «١٠٠٠».

تنبيه: يوجد اختلاف في ترتيب هذه الحروف بين أهل المشـرق وأهل المغرب، والذي ذكرته هو ترتيب أهل المغرب، وأما ترتيب أهل المشرق فيكون بجعل حرف السين مكان حرف الصاد، وحرف الصاد مكان حرف الضاد، وحرف السين مكان حرف الشين، وحرف الضاد مكان حرف الغين، وحرف الشين مكان حرف الغين، والله أعلم.

والثاني: محرم، وهو كتابة «أبا جاد» كتابة مربوطة بسـير النجوم وحركتها وطلوعها وغروبها، وينظرون في النجوم ليستدلوا بالموافقة أو المخالفة على ما

---

(١) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (١١/ ٢٦)، بسند صحيح.

سيحدث في الأرض، إما على سبيل العموم؛ كالجدب والمرض والحرب وما أشبه ذلك، أو على سبيل الخصوص؛ كأن يقول لشخص: سيحدث لك مرض أو فقر أو سعادة أو نحس في هذا وما أشبه ذلك؛ فهم يربطون هذه بهذه، وليس هناك علاقة بين حركات النجوم واختلاف الوقائع في الأرض.

وظاهر كلام ابن عباس رضي الله عنهما أنه يرى كفرهم؛ لأن الذي ليس له خلاق – أي: نصيب – عند الله تعالى هو الكافر؛ إذ لا ينفى النصيب مطلقاً عن أحد من المؤمنين، وإن كان له ذنوب عذب بقدر ذنوبه، أو تجاوز الله عز وجل عنها، ثم صار آخر أمره إلى نصيبه الذي يجده عند الله سبحانه.

وعلم النجوم ينقسم إلى قسمين:

علم التأثير، وعلم التسيير.

فعلم التأثير؛ ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: أن يعتقد أن هذه النجوم مؤثرة فاعلة؛ بمعنى أنها هي التي تخلق الحوادث والشرور؛ فهذا شرك أكبر؛ لأن من ادعى أن مع الله سبحانه خالقاً؛ فهو مشرك شركاً أكبر؛ فهذا جعل المخلوق المُسَخّر خالقاً مُسخّراً.

الثاني: أن يجعلها سبباً يدعي به علم الغيب، فيستدل بحركاتها وتنقلاتها وتغيراتها على أنه سيكون كذا وكذا؛ لأن النجم الفلاني صار كذا وكذا، مثل أن يقول: هذا الإنسان ستكون حياته شقاء؛ لأنه ولد في النجم الفلاني، وهذا حياته ستكون سعيدة؛ لأنه ولد في النجم الفلاني؛ فهذا اتخذ تعلم النجوم وسيلة لادعاء علم الغيب، ودعوى علم الغيب كفر مخرج عن الملة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، وهذا من أقوى أنواع الحصر؛ لأنه بالنفي والإثبات، فإذا ادعى أحد علم الغيب؛ فقد كَذَّب القرآن.

الثالث: أن يعتقدها سبباً لحدوث الخير والشر؛ أي: أنه إذا وقع شيء نسبه إلى النجوم، ولا ينسب إلى النجوم شيئاً إلا بعد وقوعه؛ فهذا شرك أصغر.

وقد ثبت عن النبي ﷺ في أنه قال في الكسوف: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات

الله يخوف الله بهما عباده»[1]؛ فمعنى ذلك أنهما علامة إنذار.

وهذا لا يسلم فيه أصلاً أن للكسوف تأثيراً في الحوادث والعقوبات من الجدب والقحط والحروب، ولذلك قال النبي ﷺ: «إنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته»[2]، لا في ما مضى ولا في المستقبل، وإنما يخوف الله تعالى بهما العباد لعلهم يرجعون.

وأما علم التسيير؛ فهذا ينقسم إلى قسمين:

الأول: أن يستدل بسيرها على المصالح الدينية؛ فهذا مطلوب، وإذا كان يعين على مصالح دينية واجبة كان تعلمها واجباً.

الثاني: أن يستدل بسيرها على المصالح الدنيوية؛ فهذا لا بأس به، وهو نوعان:

النوع الأول: أن يستدل بها على الجهات.

النوع الثاني: أن يستدل بها على الفصول، وهو ما يعرف بتعلم منازل القمر.

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥]؛ خلق الله هذه النجوم لثلاثٍ: زينةً للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلاماتٍ يهتدى بها؛ فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به»[3].

وروي أيضاً عن قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: «إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصال: جعلها زينة للسماء، وجعلها يهتدى بها، وجعلها رجوماً للشياطين؛ فمن تعاطى فيها غير ذلك، فقد قال برأيه وأخطأ حظه وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به، وإن ناساً جهلة بأمر الله قد أحدثوا في هذه النجوم كهانة: من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود والطويل والقصير والحسن والدميم، وما علم هذه النجوم وهذا الدابة وهذا الطائر بشيء من هذا الغيب، ولو أن أحداً علم الغيب لعلمه آدم الذي خلقه الله بيده وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شيء».

---

(١) رواه البخاري برقم (١٠٤١)، ومسلم برقم (٩١١).

(٢) رواه البخاري: (١٠٤٨)، ومسلم برقم (٩٠٧).

(٣) رواه البخاري معلقاً، تحت باب في النجوم، من كتاب بدء الخلق، ووصله الحافظ ابن حجر، انظر «فتح الباري» (٦/ ٢٩٥)، ورواه الطبرني في «تفسيره» (١٧/ ١٨٥)، وهو صحيح.

فتأمل ما أنكره هذا الإمام مما حدث من المنكرات في عصر التابعين، وما زال الشر يزداد في كل عصر بعدهم حتى بلغ الغاية في هذا العصر، وعمت به البلوى في جميع الأمصار فَمُقِلّ ومستكثر، وعز في الناس من ينكره، وعظمت المصيبة به في الدين، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۞ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

قوله: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾؛ أي: جبالاً أرسى الأرض بها وثقلها لئلا تميد بالناس أي تتحرك وتميل بهم، والميد: هو الاضطراب.

وقوله: ﴿وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا﴾؛ أي: وجعل فيها أنهارا وطرقا مختلفة، ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، إلى ما تريدون فلا تضلون عنه.

وقوله: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾؛ أي: معالم الطرق.

وقد ذكر الله تعالى نوعين من العلامات التي يهتدي بها:

الأول: أرضية، وتشمل كل ما جعل الله تعالى في الأرض من علامة؛كالجبال، والأنهار، والطرق، والأودية، ونحوها.

والثاني: أفقية؛ في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾؛ النجم: اسم جنس يشمل كل ما يهتدى به، ولا يختص بنجم معين؛ لأن لكل قوم طريقة في الاستدلال بهذه النجوم على الجهات، سواء جهات القبلة أو المكان، براً أو بحراً.

وهذا من نعمة الله تعالى أن جعل علامات علوية لا يحجب دونها شيء، وهي النجوم؛ لأنك في الليل لا تشاهد جبالاً ولا أودية، وهذا من تسخير الله جل جلاله، قال الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ فَقَدِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ، زَادَ مَا زَادَ»[(١)].

هذا الحديث سبق ذكره في مسألة خمس وعشرين، في بيان شيء من أنواع السحر، وأعيد توضيحه هنا أيضاً.

فقوله: «**من اقتبس**»؛ أي: من تعلم؛ لأن التعلم وهو أخذ الطالب من العالم شيئاً من علمه بمنزلة الرجل يقتبس من صاحب النار شعلة.

وقوله: «**شعبة**»؛ أي: طائفة.

وقوله: «**من النجوم**»؛ المراد: علم النجوم، وليس المراد النجوم أنفسها؛ وهو العلم الذي يستدل به على الحوادث الأرضية؛ فيستدل مثلاً باقتران النجم الفلاني بالنجم الفلاني على أنه سيحدث كذا وكذا، ويستدل بولادة إنسان في هذا النجم على أنه سيكون سعيداً، وفي النجم الآخر على أنه سيكون شقياً؛ فيستدلون باختلاف أحوال النجوم على اختلاف الحوادث الأرضية، والحوادث الأرضية من عند الله تعالى، قد تكون أسبابها معلومة لنا، وقد تكون مجهولة، لكن ليس للنجوم بها علاقة، ولهذا جاء في حديث زيد بن خالد الجهني رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في غزوة الحديبية؛ أنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات ليلة على إثر سماء من الليل؛ فقال ﷺ: «قال الله تعالى: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر؛ فمن قال: مطرنا بنوء كذا وكذا – بنوء؛ يعني: بنجم، والباء للسببية؛ يعني: هذا المطر من النجم –؛ فإنه كافر بي مؤمن بالكوكب، ومن قال: مطرنا بفضل الله ورحمته؛ فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب»[(٢)].

وعلم النجوم ينقسم إلى قسمين:

الأول: علم التأثير؛ وهو أن يستدل بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية؛ فهذا محرم باطل لقول النبي ﷺ: «**من اقتبس شعبة من النجوم؛ فقد اقتبس شعبة من السحر**»، وقوله ﷺ: «من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا؛ فذلك كافر بي مؤمن

---

(١) رواه أحمد (١/ ٢٢٧-٣١١)، وأبو داود برقم (٣٩٠٥)، وابن ماجة برقم (٣٧٢٦)، وصححه الألباني؛ انظر: «السلسلة الصحيحة» برقم (٧٩٣).

(٢) رواه البخاري برقم (٨٤٦)، ومسلم برقم (٧١).

بالكوكب»، ولقول النبي ﷺ في الشمس والقمر: «إنهما آيتان من آيات الله تعالى، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته» (١)؛ فالأحوال الفلكية لا علاقة بينها وبين الحوادث الأرضية.

الثاني: علم التسيير؛ وهو ما يستدل به على الجهات والأوقات؛ فهذا جائز، وقد يكون واجبًا أحيانًا، كما قال الفقهاء: إذا دخل وقت الصلاة يجب على الإنسان أن يتعلم علامات القبلة من النجوم والشمس والقمر، قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥]، فلما ذكر الله عز وجل العلامات الأرضية انتقل إلى العلامات السماوية؛ فقال الله تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]، فالاستدلال بهذه النجوم على الأزمان لا بأس به، مثل أن يقال: إذا طلع النجم الفلاني دخل وقت السيل ودخل وقت الربيع، وكذلك على الأماكن؛ كالقبلة، والشمال، والجنوب.

وقوله: «**زاد ما زاد**»؛ أي: أن الشيء إذا كان من الشيء؛ فإنه يزداد بزيادته؛ فكلما زاد شعبة من تعلم النجوم ازداد شعبة من السحر.

وقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُوْنَ الجَنَّةَ: مُدْمِنُ الخَمْرِ، وَقَاطِعُ الرَّحِمِ، وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ»(٢).

قوله: «**ثلاثة لا يدخلون الجنة**»، هل المراد الحصر، وأن غيرهم يدخل الجنة؟.

الجواب: لا؛ لأن هناك من لا يدخلون الجنة سوى هؤلاء؛ فهذا الحديث لا يدل على الحصر.

وهل هؤلاء كفار؛ لأن من لا يدخل الجنة كافر؟.

اختلف أهل العلم في هذا الحديث وما يشبهه من أحاديث الوعيد على أقوال؛ أرجحها:

---

(١) رواه البخاري برقم (١٠٤١)، ومسلم برقم (٩٠٤).

(٢) رواه أحمد (٤/ ٣٩٩)، وحسنه الألباني؛ انظر «سلسلة الأحاديث الصحيحة» برقم (٦٧٩).

أن هذا نفي مطلق، والنفي المطلق يحمل على المقيد؛ فيقال: لا يدخلون الجنة دخولا مطلقًا يعني لا يسبقه عذاب، ولكنهم يدخلون الجنة دخولاً يسبقه عذاب بقدر ذنوبهم، ثم مرجعهم إلى الجنة، وذلك لأن نصوص الشرع يصدق بعضها بعضًا، ويلائم بعضها بعضًا.

وقوله: «**مدمن خمر**»؛ هو الذي يشرب الخمر كثيراً، والخمر حده الرسول ﷺ بقوله: «كل مسكر خمر»[1]؛ ومعنى «مسكر»؛ أي: غطى العقل على وجه اللذة والطرب، وليس كل ما غطى العقل فهو خمر؛ فالبنج مثلاً ليس بخمر، وإذا شرب منها فأغمي عليه؛ فليس ذلك بخمر، وإنما الخمر الذي يغطي العقل على وجه اللذة والطرب؛ فتجد الشارب يحس أنه في منزلة عظيمة وسعادة، فالذي يغطي العقل على سبيل اللذة محرم بالكتاب والسنة، ومن استحله، فهو كافر، إلا إن كان ناشئًا ببادية بعيدة، أو حديث عهد بالإسلام، ولا يعلم الحكم الشرعي في ذلك، فإنه يُعَرَّف ولا يُكفَّر بمجرد إنكاره تحريمه.

وقوله: «**قاطع الرحم**»؛ الرحم: هم القرابة، قال الله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٥]، وليس كما يظنه العامة أنهم أقارب الزوجين؛ لأن هذه تسمية غير شرعية، والشرعية في أقارب الزوجين: أن يسموا أصهاراً.

ومعنى قطع الرحم: أن لا يصله، والصلة جاءت مطلقة في الكتاب والسنة، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [الرعد: ٢١]، ومنه الأرحام.

والأقارب ينقسمون إلى قريب وبعيد؛ فأقربهم يجب له من الصلة أكثر مما يجب للأبعد.

والصلة ليس معناها أن تصل من وصلك؛ لأن هذا مكافأة، وليست صلة؛ لأن الإنسان يصل أبعد الناس عنه إذا وصله، إنما الواصل؛ كما قال الرسول ﷺ: «من إذا قطعت رحمه وصلها»[2]، هذا هو الذي يريد وجه الله تعالى والدار الآخرة.

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٠٠٣).

(٢) رواه البخاري برقم (٥٩٩١).

وقوله: «**ومصدق بالسحر**»؛ هو المراد هنا، ووجهه أن علم التنجيم نوع من السحر، فمن صدق به؛ فقد صدق بنوع من السحر، فقد سبق قول النبي ﷺ: «أن من اقتبس شعبة من النجوم؛ فقد اقتبس شعبة من السحر»، والمصدق به هو المصدق بما يخبر به المنجمون، فإذا قال المنجم: سيحدث كذا وكذا، وصدق به؛ فإنه لا يدخل الجنة؛ لأنه صدق بعلم الغيب لغير الله جل وعلا، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

* * *

المسألة (الثلاثون):
فِي الاسْتِسْقَاءِ بِالأَنْوَاءِ

قوله: «**الاستسقاء**»؛ يدل على طلب السقيا، كالاستغفار: طلب المغفرة، والاستعانة: طلب المعونة، والاستعاذة: طلب العوذ، والاستهداء: طلب الهداية؛ لأن مادة استفعل في الغالب تدل على الطلب، وقد لا تدل على الطلب، بل تدل على المبالغة في الفعل؛ مثل: استكبر؛ أي: بلغ في الكبر غايته، وليس المعنى طلب الكبر.

و«**الاستسقاء بالأنواء**»؛ أي: أن تطلب منها أن تسقيك.

والاستسقاء بالأنواء ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: شرك أكبر، وله صورتان:

الأولى: أن يدعو الأنواء بالسقيا؛ كأن يقول: يا نوء كذا ! اسقنا أو أغثنا، وما أشبه ذلك، فهذا شرك أكبر؛ لأنه دعا غير الله تعالى، ودعاء غير الله تعالى من الشرك الأكبر، قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن: ١٨]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [يونس: ١٠٦]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على النهي عن دعاء غير الله جل وعلا وأنه من الشرك الأكبر.

والثانية: أن ينسب حصول الأمطار إلى هذه الأنواء على أنها هي الفاعلة بنفسها دون الله تعالى ولو لم يدعها، فهذا شرك أكبر في الربوبية، والأول في العبادة؛ لأن الدعاء من العبادة، وهو متضمن للشرك في الربوبية؛ لأنه لم يدعها إلا وهو يعتقد أنها تفعل وتقضي الحاجة.

القسم الثاني: شرك أصغر، وهو أن يجعل هذه الأنواء سبباً مع اعتقاده أن الله تعالى هو الخالق الفاعل؛ لأن كل من جعل سبباً لم يجعله الله تعالى سبباً لا بوحيه ولا بقدره، فهو مشرك شركاً أصغر.

قال الله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ * وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ * فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ * وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٧٥-٨٢].

جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «قال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا...؛ فأنزل الله تعالى هذه الآيات»(١).

وقوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ اختلف في ﴿لَا﴾ والراجح أنها نافية، والمنفي محذوف؛ والتقدير: لا صحة لما تزعمون من أن القرآن كذب أو سحر وشعر وكهانة، وبعدها قال: أُقسم بمواقع النجوم إنه لقرآن كريم.

فأقسم لا علاقة لها بـ ﴿لا﴾ إطلاقـًا،لأن ﴿لا﴾ للتنبيه المتضمن للنفي، والجملة بعدها مثبتة؛ لأن ﴿لا﴾ بمعنى انتبه، أقسم بمواقع النجوم، وهذا هو الصحيح.

فإن قيل: ما الفائدة من إقسامه سبحانه مع أنه صادق بلا قسم؛ لأن القسم إن كان لقوم يؤمنون به ويصدقون كلامه، فلا حاجة إليه، وإن كان لقوم لا يؤمنون به، فلا فائدة منه، قال الله تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَ﴾ [البقرة: ١٤٥]؟!.

أُجيب: أن فائدة القسم من وجوه:

الأول: أن هذا أسلوب عربي لتأكيد الأشياء بالقسم، وإن كانت معلومة عند الجميع، أو كانت منكرة عند المخاطب، والقرآن نزل بلسان عربي مبين.

الثاني: أن المؤمن يزداد يقينـًا من ذلك، ولا مانع من زيادة المؤكدات التي تزيد في يقين العبد، قال الله تعالى عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

الثالث: أن الله تعالى يقسم بأمور عظيمة دالة على كمال قدرته وعظمته وعلمه،

---

(١) رواه مسلم برقم (٧٣)، وانظر كتاب «الصحيح المسند من أسبب النزول» (ص ١٥١) لشيخي مقبل الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

فكأنه يقيم في هذا المقسم به البراهين على صحة ما أقسم عليه بواسطة عظم ما أقسم به.

الرابع: التنويه بحال المقسم به؛ لأنه لا يقسم إلا بشيء عظيم، وهذان الوجهان لا يعودان إلى تصديق الخبر، بل إلى ذكر الآيات التي أقسم بها تنويهاً له بها وتنبيهاً على عظمها.

الخامس: الاهتمام بالمقسم عليه، وأنه جدير بالعناية والإثبات.

وقوله: ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ الباء حرف قسم، والمواقع جمع موقع، واختلف في النجوم، فقيل: إنها النجوم المعروفة، فيكون المراد بمواقعها مطالعها ومغاربها.

وأقسم الله تعالى بها، لما فيها من الدلالة على كمال القدرة في هذا الانتظام البديع.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾؛ ﴿لَقَسَمٌ﴾: هذا القسم أكد الله تعالى عظمته بـ(إن)، و(اللام) تنويهاً بالمقسم عليه وتعظيمه؛ و﴿لَّوۡ تَعۡلَمُونَ﴾ مؤكد ثالث؛ كأنه قال: ينبغي أن تعلموا هذا الأمر ولا تجهلوه، فهو أعظم من أن يكون مجهولا، فإنه يحتاج إلى علم وانتباه، فلو تعلمون حق العلم لعرفتم عظمته، فانتبهوا.

وقوله: ﴿لَقُرۡءَانٌ﴾ القرآن يعطي أهله من الخيرات الدينية والدنيوية والجسمية والقلبية، فهو سلاح لمن تمسك به، ولكن يحتاج إلى أن نتمسك به بالقول والعمل والعقيدة، فلا بد أن يصدق العقيدة والعمل، والقرآن جامع بين الأمرين، فيه قوة وعظمة، وكذا خيرات كثيرة وإحسان لمن تمسك به.

وقوله: ﴿كَرِيمٌ﴾ يطلق على كثير العطاء، وهذا كمال في العطاء متعد للغير، ويطلق على الشيء البهي الحسن.

وقوله: ﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ﴾؛ المكنون: المحفوظ، قال الله تعالى ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٌ مَّكۡنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٩]، واختلف المفسرون في هذا الكتاب على قولين:

الأول: أنه اللوح المحفوظ الذي كتب الله تعالى فيه كل شيء.

الثاني - وإليه ذهب ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ -: أنه الصحف التي في أيدي الملائكة، قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٌ ۝ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝ مَّرۡفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةِۭ ۝ بِأَيۡدِي سَفَرَةٍ﴾ [عبس: ١١-١٥]؛ فقوله: ﴿بِأَيۡدِي سَفَرَةٍ﴾ يرجح أن المراد الكتب التي في أيدي

الملائكة؛ لأن قوله: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾؛ أي: الملائكة، يوازن قوله: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾، وعلى هذا يكون المراد بالكتاب الجنس لا الواحد.

ومعنى قوله: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾؛ فالضمير يعود إلى الكتاب المكنون، لأنه أقرب شيء، وهو المراد به اللوح المحفوظ، لأنه أقرب مذكور، والمطهرون: هم الذين طهرهم الله تعالى، وهم الملائكة، طهروا من الذنوب وأدناسها، قال الله تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ ﴾ [التحريم: ٦]، وقال الله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، وقال الله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٧]، وفرق بين المُطَهِّر الذي يريد أن يفعل الكمال بنفسه، وبين المُطَهَّر الذي كمله غيره وهم الملائكة.

وقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾؛ أي: منزل من خالقهم، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذا القرآن منزل من رب العالمين وليس كما يقولون: إنه سحر أو كهانة أو شعر، بل هو الحق الذي لا مرية فيه، وليس وراءه حق نافع.

وقوله: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴾؛ الاستفهام للإنكار والتوبيخ، و﴿ٱلْحَدِيثِ﴾ هنا المراد به القرآن، و﴿مُّدْهِنُونَ﴾؛ المدهن: الخائف من غيره الذي يحابيه بقوله وفعله؛ والمعنى: أتدهنون بهذا الحديث، وتخافون وتستخفون؟!، لا ينبغي لكم هذا، بل ينبغي لمن معه القرآن أن يصدع به وأن يبينه ويجاهد به، قال الله تعالى: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٢].

وقوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾، أكثر المفسرين على أنه على حذف مضاف؛ أي: أتجعلون شكر رزقكم؛ أي: ما أعطاكم الله عز وجل من شيء من المطر ومن إنزال القرآن؛ أي: تجعلون شكر هذه النعمة العظيمة أن تكذبوا بها، والنبي ﷺ وإن كان ذكرها في المطر، فإنها تشمل المطر وغيره، وقيل: إنه ليس في الآية حذف؛ والمعنى: تجعلون شكركم تكذيباً، وقال: إن الشكر رزق - وهذا أقوى - بل هو أكبر الأرزاق، فالنعمة تحتاج إلى شكر، ثم إذا شكرتها، فهي نعمة أخرى تحتاج إلى شكر ثان، وإن شكرت في الثانية، فهي نعمة تحتاج إلى شكر ثالث، وهكذا أبداً، قال الله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ١٨].

وقوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ﴾؛ أي: تصيرون، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي تجعلون حظكم من هذا الرزق الذي به حياتكم: التكذيب به؛ يعني القرآن، وقال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تجعلون حظكم ونصيبكم من القرآن أنكم تكذبون، وقال: خسر عبد لا يكون حظه من القرآن إلا التكذيب.

وقوله: ﴿رِزْقَكُمْ﴾، الرزق هو العطاء؛ والمراد به هنا معنيان:

الأول: أن المراد به رزق العلم؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ * وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ* وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥-٨٣]؛ أي: تخافونهم فتداهنونهم، وتجعلون شكر ما رزقكم الله تعالى به من العلم والوحي أنكم تكذبون به، وهذا هو ظاهر سياق الآية.

الثاني: أن المراد بالرزق المطر؛ قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير الآية: أن المراد بالرزق المطر، وأن التكذيب به نسبته إلى الأنواء[1].

والقاعدة في التفسير: أن الآية إذا كانت تحتمل المعنيين جميعًا بدون منافاة تحمل عليهما جميعًا، وإن حصل بينهما منافاة طلب المرجح، وهنا لا منافة بينهما، فتحمل على المعنيين.

والمعنى: أن الله تعالى يوبخ هؤلاء الذين يجعلون شكر الرزق التكذيب والاستكبار والبعد، لأن شكر الرزق يكون بالتصديق والقبول والعمل بطاعة المنعم، والفطرة كذلك لا تقبل أن تكفر بمن ينعم عليها، فالفطرة والعقل والشرع كل منها يوجب أن تشكر من ينعم عليك، سواء قلنا: المراد بالرزق المطر الذي به حياة الأرض، أو قلنا أن المراد به القرآن الذي به حياة القلوب، فإن هذا من أعظم الرزق، فكيف يليق بالإنسان أن يقابل هذه النعمة بالتكذيب؟!.

---

(١) رواه البخاري في «صحيحه»، كتاب الاستسقاء / باب قول الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾.

وَقَالَ رَسُـوْلُ الله ﷺ: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الجَـاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُوْنَهُنَّ: الفَخْرُ بِالأَحْسَـابِ، والطَّعْنُ فِي الأَنْسَـابِ، وَالاسْـتِسْـقَـاءُ بِالنُّجُوْمِ، وَالنِّيَاحَةُ» [(١)].

قوله: «**أربع**» ليس للحصر؛ لأن هناك أشياء تشاركها في المعنى، وإنما يقول النبي ﷺ ذلك من باب حصر العلوم وجمعها بالتقسيم والعدد؛ لأنه يقرب الفهم، ويثبت الحفظ.

وقوله: «**أمتي**»، أي: أمة الإجابة.

وقوله: «**من أمر الجاهلية**»؛ أي: من شأن الجاهلية، وإضافتها إلى الجاهلية الغرض منها التقبيح والتنفير؛ لأن كل إنسان يقال: فعلك فعل الجاهلية لا شك أنه يغضب، إذ إنه لا أحد يرضى أن يوصف بالجهل، ولا بأن فعله من أفعال الجاهلية.

والمراد بالجاهلية هنا: ما قبل البعثة؛ لأنهم كانوا على جهل وضلال عظيم، حتى إن العرب كانوا أجهل خلق الله تعالى.

وقوله: «**لا يتركونهن**»؛ المراد لا يتركون كل واحد منها باعتبار المجموع بالمجموع، بأن يكون كل واحد منها عند جماعة، والثاني عند آخرين، والثالث عند آخرين، والرابع عند آخرين، وقد تجتمع هذه الأقسام في قبيلة، وقد تخلو بعض القبائل منها جميعـًا، إنما الأمة كمجموع لا بد أن يوجد فيها شيء من ذلك؛ لأن هذا خبر من الصادق المصدوق ﷺ.

والمراد بهذا الخبر التنفير؛ لأنه ﷺ قد يخبر بأشياء تقع وليس غرضه أن يؤخذ بها، كما قال ﷺ: «لتركبن سنن من كان قبلكم اليهود والنصارى»[(٢)]؛ أي: فاحذروا، وأخبر ﷺ: «أن الظعينة تخرج من صنعاء إلى حضر موت لا تخشى إلا الله »[(٣)]؛ أي: بلا محرم، وهذا خبر واقع وليس إقرارا له شرعـًا.

وقوله: «**الفخر بالأحساب**»؛ الفخر: التعالي والتعاظم، والباء للسببية؛ أي: يفخر

---

(١) رواه مسلم برقم (٩٣٤).

(٢) رواه البخاري برقم (٧٣٢٠).

(٣) رواه البخاري برقم (٣٥٩٥).

بسبب الحسب الذي هو عليه، والحسب: ما يحتسبه الإنسان من شرف وسؤدد، كأنه يكون من بني هاشم فيفتخر بذلك.

وإذا كان الفخر بالحسب من فعل الجاهلية، فلا يجوز لنا أن نفعله، ولهذا قال الله تعالى لنساء نبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣]؛ واعلم أن كل ما ينسب للجاهلية، فهو مذموم ومنهي عنه.

وقوله: «**الطعن في الأنساب**»؛ الطعن: العيب؛ لأنه وخز معنوي كوخز الطاعون في الجسد، ولهذا سمي العيب طعناً، والأنساب: جمع نسب، وهو أصل الإنسان وقرابته، فيطعن في نسبه؛ كأن يقول: أنت ابن الدباغ، أو أنت ابن الزبال.

ولما عَيَّر أبو ذر رضي الله عنه رجلاً بأمه، قال له النبي ﷺ: «أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية»[1]؛ فدل على أن الطعن في الأنساب من عمل الجاهلية، وأن المسلم قد يكون فيه شيء من هذه الخصال المسماة بجاهلية ويهودية ونصرانية، ولا يوجب ذلك كفره ولا فسقه.

وقوله: «**والاستسقاء بالنجوم**»؛ هذا هو الشاهد من الحديث في هذا الباب، والمراد نسبة المطر إلى النوء وهو سقوط النجم.

فإذا قال قائلهم: مطرنا بنجم كذا أو بنوء كذا؛ فلا يخلوا إما أن يعتقد أن له تأثيراً في إنزال المطر؛ فهذا شرك وكفر، وهو الذي يعتقده أهل الجاهلية، وإما أن يقول: مطرنا بنوء كذا مثلاً، لكن مع اعتقاده أن المؤثر هو الله وحده، لكنه أجرى العادة بوجود المطر عند سقوط ذلك النجم، والصحيح: أنه يحرم نسبة ذلك إلى النجم ولو على طريق المجاز، فيكون ذلك شركًا أصغر، والله أعلم.

وقوله: «**والنياحة** »؛ أي: على الميت؛ هذا هو الرابع؛ والنياحة: هي رفع الصوت بالبكاء على الميت قصدا، وينبغي أن يضاف إليه على سبيل النوح، كنوح الحمام.

والنياحة تشمل ما إذا كانت من رجل أو امرأة، لكن الغالب وقوعها من النساء.

وظاهره أن هذه الذنوب لا تكفرها إلا التوبة، وأن الحسنات لا تمحوها؛ لأنها من كبائر الذنوب، والكبائر لا تمحى بالحسنات، فلا يمحوها إلا التوبة.

---

(١) رواه البخاري برقم (٣٠)، ومسلم برقم (١٦٦١).

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ ﷺ قَالَ: صَلَّى لَنَا رَسُوْلُ الله ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالحُدَيْبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُوْنَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟»، قَالُوا: الله وَرَسُوْلُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «أَصبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ الله وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالكَوْكِبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالكَوْكِبِ» [(١)].

«**زيد بن خالد**» الجهني؛ صحابي مشهور، مات سنة ثمان وستين، أو: وسبعين، وله خمس وثمانون سنة ﷺ.

وقوله: «**صلى لنا**»؛ أي: إماماً؛ لأن الإمام يصلي لنفسه ولغيره، ولهذا يتبعه المأموم، وقيل: إن اللام بمعنى الباء، وهذا قريب.

وقوله: «**صلاة الصبح بالحديبية**»؛ أي: صلاة الفجر، والحديبية فيها لغتان: التخفيف، وهو أكثر، والتشديد؛ وهي اسم بئر سمي بها المكان، وقيل: إن أصلها شجرة حدباء تسمى حديبية، والأكثر على أنه بئر، وهذا المكان قريب من مكة بعضه في الحل وبعضه في الحرم، ويسمى الآن الشميسي.

وقوله: «**على إثر سماء كانت من الليل**»، الإثر معناه العقب، والأثر: ما ينتج عن السير، و«**سماء**» المراد به المطر، و«**كانت من الليل**»، «**من**» لابتداء الغاية، هذا هو الظاهر - والله أعلم -، ويحتمل أن تكون بمعنى «في» للظرفية.

وقوله: «**فلما انصرف**»؛ أي: من صلاته، وليس من مكانه، بدليل قوله: «**أقبل على الناس**».

وقوله: «**هل تدرون ماذا قال ربكم؟**»، الاستفهام يراد به التنبيه والتشويق لما سيخبرهم به، وإلا فالرسول ﷺ يعلم أنهم لا يعلمون ماذا قال الله جل وعلا، لأن الوحي لا ينزل عليهم.

ومعنى قوله: «**هل تدرون**»؛ أي: هل تعلمون.

وقوله: «**قالوا: الله ورسوله أعلم**»؛ في ظاهره إشكال معنوي؛ وهو أنهم جمعوا بين

---

(١) رواه البخاري برقم (٨٤٦)، ومسلم برقم (٧١).

الله ورسوله بالواو، مع أن الرسول ﷺ لما قال له الرجل: «ما شاء الله وشئت، قال ﷺ: «أجعلتني لله نداً!»[1]؛ فيقال: إن هذا أمر شرعي، وقد نزل على الرسول ﷺ، وأما إنكاره على من قال: ما شاء الله وشئت، فلأنه أمر كوني، والرسول ﷺ ليس له شأن في الأمور الكونية.

والمراد بقولهم: «**الله ورسوله أعلم**» تفويض العلم إلى الله ورسوله، وأنهم لا يعلمون.

وقوله: «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر**»، «**مؤمن**»؛ صفة لموصوف محذوف، أي: عبد مؤمن، وهكذا يقال في «**كافر**»؛ أي: عبد كافر.

وقوله: «**فأما من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته**»؛ أي: قال بلسانه وقلبه، والباء للسببية، والفضل: العطاء والزيادة، والرحمة: صفة من صفات الله تعالى، يكون بها الإنعام والإحسان إلى الخلق.

وقوله: «**فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب**»؛ لأنه نسب المطر إلى الله سبحانه ولم ينسبه إلى الكوكب، ولم ير له تأثيرا في نزوله، بل نزل بفضل الله تعالى.

وقوله: «**وأما من قال مُطرنا بنوء كذا وكذا**»، الباء للسببية، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب، وصار كافراً بالله تعالى؛ لأنه أنكر نعمة الله جل وعلا ونسبها إلى سبب لم يجعله الله عز وجل سبباً، فتعلقت نفسه بهذا السبب، ونسي نعمة الله سبحانه، وهذا الكفر لا يخرج من الملة؛ لأن المراد نسبة المطر إلى النوء على أنه سبب وليس النوء على أنه فاعل؛ لأنه قال: «**مطرنا بنوء كذا**»، ولم يقل: أنزل علينا المطر نوء كذا، لأنه لو قال ذلك، لكان نسبة المطر إلى النوء نسبة إيجاد.

فعلم أن المراد: أن من أقر بأن الذي خلق المطر وأنزله هو الله تعالى، ولكن النوء هو السبب، فهو كافر، وعليه يكون من باب الكفر الأصغر الذي لا يخرج من الملة.

والمراد «**بالكوكب**» النجم، وكانوا ينسبون المطر إليه، ويقولون: إذا سقط النجم الفلاني جاء المطر، وليسوا ينسبونه إلى هذا نسبة وقت، فنسبة الوقت جائزة بأن يريد بقوله: مُطرنا بنوء كذا؛ أي: جاءنا المطر في هذا النوء؛ أي: في وقته.

* * *

---

(١) رواه البخاري برقم (٨٤٦)، ومسلم برقم (٧١).

المسألة (الحادية والثلاثون):
فِي تَعْظِيمِ اللهِ تَعَالَى

قوله: «**تعظيم الله**»؛ التعظيم هو معرفة عظمة الرب وإجلاله مع التذلل له؛ وعلى قدر المعرفة والعلم يكون تعظيمه في القلب والعمل، وأعرف الناس به أشـدهم تعظيماً له وإجلالاً ومحبة وطاعة وعبادة.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا﴾؛ أي: ما عظموا الله سبحانه وتعالى حق تعظيمه حيث أشركوا به ما كان من مخلوقاته.

وقوله: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؛ هذا فيه بيان لعظمة الله عز وجل، إذ أن الأرض كلها ببحارها وأنهارها وأشـجارها وكل ما فيها، الأرض كلها جميعاً قبضته يوم القيامة، والسماوات على عظمتها وسعتها مطويات بيمينه، قال الله عـز وجـل: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وقوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى﴾؛ هذا تنزيه له عن كل نقص وعيب، ومما ينزه عنه هذه الأنداد، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿وَتَعَالَى﴾؛ أي: ترفع.

وقوله: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ أي: عن كل شـرك يشـركون به، سـواء جعلوا الخالق كالمخلوق أو العكس.

وعَن ابْنِ مَسْعُوْدٍ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الأَحْبَارِ إِلَى رَسُوْلِ الله ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّا نَجِدُ أَنَّ الله يَجْعَلَ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالأَرْضِيْنَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلائِقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُوْلُ: أَنَا المَلِكُ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾»[1].

وَفِي رِوَايَة: «وَالجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، والماءَ وَالثَّرَى عَلَى إصبعٍ، وَسَائِرَ الخلقِ عَلَى إِصْبعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ فَيَقُوْلُ: أنا الملك، أنا الملك»[2].

«**ابن مسعود**» هو عبد الله بن مسعود، أبو عبد الرحمن، من علماء الصحابة الأجلاء، مات سنة اثنتين وثلاثين، رضي الله عنه.

وقوله: «**حبر**»؛ الحبر هو العالم الكثير العلم، والحبر يشابه البحر في اشتقاق الحروف، ولهذا كان العالم أحيانًا يسمى بالحبر وأحيانًا بالبحر.

وقوله: «**إنا نجد**»؛ أي: في التوراة.

وقوله: «**إصبع**»؛ واحدة الأصابع، وفيه إثبات الأصابع لله عز وجل لإقراره ﷺ هذا الحبر على ما قال.

والإصبع إصبع حقيقي يليق بالله عز وجل كاليد، وليس المراد بقوله: «**على إصبع**»؛ سهولة التصرف في السماوات والأرض، كما يقوله أهل التحريف، بل هذا خطأ مخالف لظاهر اللفظ والتقسيم، ولأنه ﷺ أثبت ذلك بإقراره، ولقوله ﷺ: «إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن»[3]؛ ولا يلزم من قوله: «بين أصبعين» المماسة، ألا ترى قوله تعالى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤]، والسحاب لا يمس الأرض ولا السماء وهو بينهما.

---

(١) رواه البخاري برقم(٤٨١١)، ومسلم برقم (٢٧٨٦) (١٩).

(٢) رواها مسلم برقم (٢٧٨٦) (١٩).

(٣) رواه مسلم برقم (٢٦٥٤).

ونحن نثبت الأصابع لله عز وجل ونقر بها ونقبلها، وأن لا نقتصر على مجرد إمرارها بدون معنى، بل نُقِرَّها ونقول: المراد بها أصابع حقيقية يجعل الله سبحانه وتعالى عليها هذه الأشياء الكبيرة، ولكن لا يجوز أبداً أن نتخيل بأفهامنا أو أن نقول بألسنتنا: إنها مثل أصابعنا، بل نقول: الله أعلم بكيفية هذه الأصابع، فكما أننا لا نعلم ذاته المقدسة، فكذلك لا نعلم كيفية صفاته، بل نكِل علمها إلى الله سبحانه وتعالى.

وقوله: «**الملك**»؛ أي: ذو السلطان، وليس مجرد المتصرف، بل هو المتصرف فيما يملك على وجه السلطة والعلو.

فمُلك الله تعالى متضمن لكمال السلطان والتدبير والملك، بخلاف غيره، فإن من ملوك الدنيا من يكون ملكـًا لا يملك التصرف.

وقوله: «**فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقـًا لقول الحبر**»؛ فهذا يدل على أنه ﷺ أقره واستشهد لقوله بآية من كتاب الله تعالى، فضحكه وإستشهاده تقرير لقول الحبر، وسبب الضحك هو سروره، حيث جاء في القرآن ما يصدق ما وجده هذا الحبر في كتبه.

وقوله: «**حتى بدت نواجذه**»؛ أي: ظهرت، ونواجذ: جمع ناجذ، وهو أقصى الأضراس.

وقوله: «**ثم قرأ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ﴾**» الآية، وقد سبق بيانها.

وقوله: «**ثم يهزهن**»؛ أي: هزاً حقيقيـًا، ليبين للعباد في ذلك الموقف العظيم عظمته وقدرته، وكان الرسول ﷺ يقرأ هذه الآية ويقبض أصابعه ويبسطها.

ومن هذا الحديث: هل لنا أن نهُزّ أيدينا كما فعل النبي ﷺ؟.

إن هذا يختلف بحسب ما يترتب عليه، فليس كل من شاهد أو سمع يتقبل ذهنه ذلك بغير أن يشعر بالتمثيل، فينبغي أن نكف؛ لأن هذا ليس بواجب، حتى نقول: يجب علينا أن نبلغ كما بلغ الرسول ﷺ بالقول والفعل، أما إذا كنا نتكلم مع طلبة علم، فحينئذ نفعل كما فعل الرسول ﷺ.

وقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَطْوِي الله السَّماوَاتِ يَوْمَ القِيَامَة، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ اليُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟، أَيْنَ المُتَكَبِّرُوْنَ؟، ثُمَّ يَطْوِي الأَرْضَيْنَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُوْلُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ الجَبَّارُوْنَ؟، أَيْنَ المُتَكَبِّرُوْنَ»[١].

قوله: «**يطوي الله السماوات**»؛ الطي هو ضد البسط.

وقوله: «**ثم يقول: أنا الملك**»؛ يقول ذلك ثناء على نفسه – سبحانه وتعالى –، وتنبيهاً على عظمته الكاملة وعلى ملكه الكامل؛ أي: أنا الذي لي الملكية المطلقة والسلطان التام لا ينازعني فيهما أحد.

وقوله: «**أين الجبارون؟**»؛ الاستفهام للتحدي، فيقول: أين الملوك الذين كانوا في الدنيا لهم السلطة والتجبر والتكبر على عباد الله؟، وفي ذلك الوقت يحشرون أمثال الذر، يطأهم الناس بأقدامهم.

وقوله: «**يطوي الأرضين السبع**» أشار الله عز وجل في القرآن إلى أن الأرضين سبع، ولم يرد العدد صريحاً في القرآن، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، والمماثلة هنا لا تصح إلا في العدد؛ لأن الكيفية تتعذر المماثلة فيها، وأما السنة، فقد صرحت بعدة أحاديث بأنها سبع، كقوله ﷺ: «مَن أخذ شبراً مِن الأرض ظلماً، فإنه يطوقه يوم القيامة من سبع أراضين»[٢].

وقوله: «**ثم يأخذهن بشماله**»؛ كلمة «شمال» اختلف فيها الرواة، فمنهم من أثبتها، ومنهم من أسقطها، وقد حكموا على من أثبتها بالشذوذ، لأنه خالف ثقتين في روايتها عن ابن عمر رضي الله عنهما، ومنهم من قال: إن ناقلها ثقة، ولكنه قالها من تصرفه.

وأصل هذه التخطئة هو ما جاء عن الرسول ﷺ أنه قال: «المقسطون على منابر من نور على يمين الرحمن وكلتا يديه يمين»[٣]، وهذا يقتضي أنه ليس هناك يد يمين

(١) رواه البخاري برقم (٧٤١٢)، ومسلم برقم (٢٧٨٨).
(٢) رواه البخاري برقم (٣١٩٨)، ومسلم برقم (١٦١٠).
(٣) رواه مسلم برقم (١٨٢٧).

ويد شمال.

ولكن إذا كانت لفظة «شـمال» محفوظة، فهي لا تنافي «كلتا يديه يمين»؛ لأن المعنى أن اليد الأخرى ليست كيد الشمال بالنسبة للمخلوق ناقصة عن اليد اليمنى، فقوله ﷺ: «كلتا يديه يمين»؛ أي: ليست فيها نقص، ويؤيد هذا ما جاء عن النبي ﷺ في حديث لما خلق الله آدم عليه السلام... الطويل، أنه قال: «اخترت يمين ربي، وكلتا يديه يمين مباركة»(١).

ويؤيده أيضـًا قوله ﷺ: «المقسطون على منابر من نور على يمين الرحمن»؛ فإن المقصود بيان فضل مرتبتهم، وأنهم على يمين الرحمن - سبحانه -.

ومن هـذه الأحاديث تعلم أن يديه – سبحانه وتعالى - اثنتان بلا شـك، وكل واحدة غير الأخرى، وإذا وصـفنا اليد الأخرى بالشـمال، فليس المراد أنها أقل قوة من اليد اليمنى، بل كلتا يديه يمين؛ أي: قوية.

والواجب علينا أن نقول: إن ثبتت عن الرسـول ﷺ، فنحن نؤمن بها، ولا منافاة بينها وبين قوله ﷺ: «كلتا يديه يمين» كما سبق، وإن لم تثبت، فلن نقول بها.

وهذه الأحاديث تدل على عظمة الله تعالى، وأنه سـبحانه المتصـرف بكل ملكه كما يشاء ومتى يشاء.

***

---

(١) رواه الترمذي برقم (٣٣٦٨)، وصححه الألباني؛ انظر «صحيح الجامع» برقم (٥٢٠٩).

المسألة (الثانية والثلاثون):
فِي الرِّيَاءِ

المراد النهي والتحذير من الرياء؛ لأنه شرك بالله جل وعلا.

وقوله: «**الرياء**»؛ هو مشتق من الرؤية؛ والمراد بها إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدون صاحبها؛ والفرق بينه وبين السمعة: أن الرياء لما يرى من العمل كالصلاة، والسمعة لما يسمع كالقراءة والوعظ والذكر، ويدخل في ذلك التحدث بما عمله.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾؛ يأمر الله تعالى نبيه أن يقول للناس: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، وهو قصر النبي ﷺ على البشرية، وأنه ليس ربـًا ولا ملكـًا، وأكد هذه البشرية بقوله: ﴿مِّثْلُكُمْ﴾.

وقوله: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾؛ الوحي في اللغة: الإعلام بسرعة وخفاء، وفي الشرع: إعلام الله تعالى بالشرع.

والوحي: هو الفرق بيننا وبينه ﷺ، فهو متميز بالوحي كغيره من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾؛ أي: ما إلهكم إلا إله واحد، وهو الله سبحانه وتعالى، فإذا ثبت ذلك، فإنه لا يليق بك أن تشرك معه غيره في العبادة التي هي خالص حقه، ولذلك قال الله تعالى بعد ذلك: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾؛ المراد بالرجاء: الطلب والأمل؛ أي: من كان يأمل أن يلقى ربه؛ والمراد باللقيا هنا الملاقاة الخاصة؛ لأن اللقيا على نوعين:

الأول: الخاصة بالمؤمنين، وهو لقاء الرضى والنعيم كما في هذه الآية، وتتضمن رؤيته تبارك وتعالى، كما ذكر ذلك بعض أهل العلم.

الثاني: عامة لكل إنسان، قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ...﴾ [الانشقاق: ٦-١٠] الآيات.

وقوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾؛ لا: ناهية، وخص العبادة؛ لأنها خالص حق الله تعالى، ولذلك أتى بكلمة «رب» إشـارة إلى العلة، فكما أن ربك خلقك ولا يشاركه أحد في خلقك، فيجب أن تكون العبادة له وحده، ولذلك لم يقل: «لا يشرك بعبادة الله»، فذكر الرب من باب التعليل.

وقوله: ﴿أَحَدًۢا﴾ نكرة في سياق النهي، فتكون عامة لكل أحد.

والمراد أن الرياء من الشرك، فيكون داخلاً في النهي عنه.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ مَعِي فِيْهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[1].

قوله: «**قال الله تعالى**»؛ يرويه النبي ﷺ عن ربه سبحانه وتعالى، ويسمى هذا النوع في علم مصطلح الحديث بالحديث القدسي؛ وهو الحديث المرفوع القولي المسند من النبي ﷺ إلى الله سبحانه وتعالى.

وقوله: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك**»؛ يعني: إذا كان بعض الشركاء يستغني عن شركته مع غيره، فالله تعالى أغنى الشركاء عن المشاركة.

فالله جل وعلا لا يقبل عملاً له فيه شـرك أبداً، ولا يقبل إلا العمل الخالص له وحده، فكما أنه الخالق له وحده، فكيف تصرف شيئاً من حقه إلى غيره! فهذا ليس عدلاً.

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٩٨٥).

وقوله: «**عملاً**»؛ معناه: أيّ عمل من صلاة، أو صيام، أو حج، أو جهاد، أو غيره.

وقوله: «**تركته وشركه**»؛ أي: لم أثبه على عمله الذي أشرك فيه؛ والمراد بـ«**شركه**»: عمله الذي أشرك فيه، وليس المراد شريكه؛ لأن الشريك الذي أشرك به مع الله تعالى قد لا يترك، كمن أشرك نبياً أو ولياً، فإن الله عز وجل لا يترك ذلك النبي والولي.

وأيضاً فالمراد في إيراد هذا الحديث هنا هو أن الرياء من الشرك، والله تعالى مستغني عن عمل المرائي.

وَعَنْ أَبِي سَعِيْدٍ ﷺ، قَالَ: قَالَ النَّبِي ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ المَسِيْحِ الدَّجَّالِ؟»، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُوْلَ الله، قَالَ: «الشِّرْكُ الخَفِيُّ؛ يَقُوْمُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي، فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ، لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ»[1].

قوله: «**ألا**»؛ أداة عرض، والغرض منها تنبيه المخاطب، فهو أبلغ من عدم الإتيان بها.

وقوله: «**بما هو أخوف عليكم عندي**»؛ أي: عند الرسول ﷺ؛ لأنه ﷺ من رحمته بالمؤمنين يخاف عليهم كل الفتن، وأعظم فتنة في الأرض هي فتنة المسيح الدجال، لكن خوف النبي ﷺ من فتنة هذا الشرك الخفي، أشد من خوفه من فتنة المسيح الدجال، وإنما كان كذلك؛ لأن التخلص منه صعب جداً، ولذلك قال بعض السلف: «ما جاهدت نفسي على شيء مجاهدتها على الإخلاص».

وقوله: «**المسيح الدجال**»، المسيح؛ أي: ممسوح العين اليمنى، فذكر النبي ﷺ وصفين في الدجال: أحدهما حسي؛ وهو أن الدجال أعور العين اليمنى، كما قال النبي ﷺ: «إن الله لا يخفى عليكم، إنه ليس بأعور وإن الدجال أعور العين اليمنى»[2]، والثاني معنوي؛ وهو الدجال، فهو صيغة مبالغة، أو يقال: بأنه نسبة إلى

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٣٠)، وابن ماجه برقم (٤٢٠٤) واللفظ له، وحسنه الألباني؛ انظر «صحيح الترغيب والترهيب» برقم (٢٧).

(٢) رواه البخاري برقم (٣٤٤٠)، ومسلم برقم (١٦٩).

وصفه الملازم له، وهو الدجل والكذب والتمويه، وهو رجل من بني آدم، ولكن الله سبحانه وتعالى بحكمته يخرجه ليفتن الناس به، وفتنته عظيمة، إذ ما في الدنيا منذ خلق آدم إلى أن تقوم الساعة فتنة أشد من فتنة الدجال.

والمسيح الدجال ثبتت به الأحاديث واشتهرت حتى كان من المعلوم بالضرورة؛ لأن النبي ﷺ أمر أمته أن يتعوذوا بالله عز وجل منه في كل صلاة، فالذي نؤمن به أنه سيخرج في آخر الزمان، ويحصل منه كل ما أخبر عنه الرسول ﷺ.

وقوله: «**الشرك الخفي**»؛ الشرك قسمان خفي وجلي؛ فالجلي: ما كان بالقول مثل الحلف بغير الله، أو قول ما شاء الله وشئت، أو بالفعل: مثل الانحناء لغير الله تعظيماً، والخفي: ما كان في القلب؛ مثل: الرياء، لأنه لا يبين، إذ لا يعلم ما في القلوب إلا الله تعالى، ويسمى أيضاً: «شرك السرائر»؛ وهذا هو الذي بينه الله تعالى بقوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩]؛ لأن الحساب يوم القيامة على السرائر، قال الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات: ٩-١٠].

وقوله: «**يقوم الرجل، فيصلي فيزين صلاته**»؛ يتساوى في ذلك الرجل والمرأة، والتخصيص للرجل هنا لضرب المثل.

وقوله: «**فيزين صلاته**»؛ أي: يحسنها بالطمأنينة، ورفع اليدين عند التكبير، ونحو ذلك.

وقوله: «**لما يرى من نظر رجل**»؛ أي: للذي يراه من نظر رجل، وهذه هي العلة لتحسين الصلاة، فقد زين صلاته ليراه هذا الرجل؛ فيمدحه بلسانه أو يعظمه بقلبه، وهذا شرك.

ولا خلاف أن الإخلاص شرط لصحة العمل وقبوله، وكذلك المتابعة، كما قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الملك: ٢]، قال: أخلصه وأصوبه، قيل: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟، قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، فالخالص ما كان لله تعالى، والصواب ما كان على السنة.

* * *

المسألة (الثالثة والثلاثون):
مِنَ الشِّرْكِ إِرَادَةُ الإِنْسَانِ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا

المراد هنا أن العمل لأجل الدنيا شرك ينافي كمال التوحيد الواجب، ويحبط الأعمال، وهو أعظم من الرياء؛ لأن مريد الدنيا قد تغلب إرادته تلك على كثير من عمله، وأما الرياء فقد يعرض له في عمل دون عمل، ولا يسترسل معه، والمؤمن يكون حذراً من هذا وهذا.

وقوله: «**من الشرك**»، «**من**» للتبعيض؛ أي: بعض الشرك يكون بإرادة الإنسان بعمله الدنيا.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦].

قوله تعالى: ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا**﴾؛ أي: أن مَن عمل عملاً يريد به الحياة الدنيا.

وقوله: ﴿**وَزِينَتَهَا**﴾؛ أي: المال، والبنين، والنساء، والحرث، والأنعام، والخيل المسومة، كما قال الله تعالى: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا**﴾ [آل عمران: ١٤].

وقوله: ﴿**نُوَفِّ إِلَيْهِمْ**﴾؛ أي: أنهم يعطون ما يريدون في الدنيا، فعجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا، كما قال الله تعالى: ﴿**وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَـٰتِكُمْ فِى**

حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل لا يظلم المؤمن حسنة يثاب عليها الرزق في الدنيا ويجزي بها في الآخرة، قال: وأما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يعطى بها خيراً»(١).

ولهذا لما بكى عمر رضي الله عنه حين رأى النبي ﷺ وقد أثر في جنبه الفراش، فقال ﷺ: «ما يبكيك؟»، قال: يا رسول الله ! كسرى وقيصر يعيشان فيما يعيشان فيه من نعيم وأنت على هذه الحال!؟؛ فقال رسول ﷺ: «أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم»(٢)، وفي الحقيقة هي ضرر عليهم؛ لأنهم إذا انتقلوا من دار النعيم إلى الجحيم، صار عليهم أشد وأعظم في فقد ما متعوا به في الدنيا.

وقوله: ﴿ وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾؛ البخس: النقص؛ أي: لا ينقصون مما يجازون فيه؛ لأن الله تعالى عدل لا يظلم أحداً.

وقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾؛ المشار إليه هنا، الذين يريدون الحياة الدنيا وزينتها.

وقوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾؛ فيه حصر وطريقة النفي والإثبات، وهذا يعني أنهم لن يدخلوا الجنة، لأن الذي ليس له إلا النار محروم من الجنة والعياذ بالله جل وعلا.

وقوله: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا﴾؛ الحبوط: الزوال؛ أي: زال عنهم ما صنعوا في الدنيا.

وقوله: ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فأثبت الله تعالى أنه ليس لهؤلاء إلا النار، وأن ما صنعوا في الدنيا قد حبط، وأن أعمالهم باطلة.

وهذه الآية مخصوصة بقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [الإسراء: ١٨]؛ فالأمر موكول إلى مشيئة الله عز وجل وفيمن يريده؛ لقوله: ﴿مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾، وإلا فقد

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٨٠٨).

(٢) رواه البخاري برقم (٢٤٦٨)، ومسلم برقم (١٤٧٩).

يكون خسرانـًا في الدنيا والآخرة؛ قال الله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣]، فلذلك نجد فقراء من الكفار أفقر من المسلمين وحياتهم ضنك وضيق، وذكر أن الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ لما كان قاضي القضاة في مصر مرَّ يومـًا بالسوق في موكب عظيم وهيئة جميلة، فهجم عليه يهودي يبيع الزيت الحار وأثوابه ملطخة بالزيت وهو في غاية الرثاثة والشناعة، فقبض على لجام بغلته، وقال: يا شيخ الإسلام، تزعم أن نبيكم، قال: الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر؛ فأي سجن أنت فيه وأي جنة أنا فيها؟!، فقال: أنا بالنسبة لما أعدَّ الله لي في الآخرة من النعيم كأني الآن في السجن، وأنت بالنسبة لما أعد لك في الآخرة من العذاب الأليم، كأنك في جنة، فأسلم اليهودي[1].

وَقَالَ رَسُـوْلُ الله ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّيْنَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيْصَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيْلَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيْكَ فَلَا انْتَقَشَ، طُوْبَى لِعَبدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيْلِ الله، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ»[2].

قوله: «**تعس**» بكسر العين ويجوز الفتح؛ أي: سقط وعثر وانكب لوجهه، وهو دعاء عليه بالهلاك؛ والمراد هنا: هلك، وقيل: هو ضد سعد؛ أي: شقي.

وقوله: «**عبد الدينار**»؛ الدينار: هو النقد من الذهب، وزِنَةُ الدِّينار الإسلاميِّ مثقالٌ من الذهب، والمثقالُ غرامان وربع، وسماه عبد الدينار؛ لأنه تعلق به تعلق العبد

(١) انظر كتاب «فيض القدير» (٣/ ٥٤٦).

(٢) رواه البخاري برقم (٢٨٨٧).

بالرب، فكان أكبر همه، وقدّمه على طاعة ربه سبحانه وتعالى.

ويقال في «**عبد الدرهم**»، ما قيل في «**عبد الدينار**»؛ والدرهم هو النقد من الفضة، والدرهم الإسلامي يساوي سبعة أعشار المثقال، وزنة المثقال أربعة جرامات وربع الجرام من الفضة.

يتبين منه: أن من الناس من يعبد الدنيا؛ أي: يتذلل لها، ويخضع لها، وتكون مُنَاهُ وغايته، فيغضب إذا فقدت، ويرضى إذا وجدت، ولهذا سمي النبي ﷺ مَن هذا شأنه عبداً لها.

وقوله: «**تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة**» الخميصة؛ هي ثوب خز أو صوف مُعَلَّم، وقيل: لا تسمى خميصة إلا أن تكون سوداء معلمة، والخميلة؛ هي ذات الخمل، ثياب لها خمل من أي شيء كان، وقيل: هي فراش وثير؛ أي: وطيء؛ والمعنى: أنه ليس له هم إلا هذا الأمر، فإذا كان عابداً لهذه الأمور لأنه صرف لها جهوده وهمته، فكيف بمن أراد بالعمل الصالح شيئًا من الدنيا فجعل الدين وسيلة للدنيا؟!! فهذا أعظم.

وقوله: «**إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط**»؛ يحتمل أن يكون المعطي هو الله تعالى فيكون الإعطاء قدريًا؛ أي: إن قدر الله تعالى له الرزق والعطاء رضي وانشرح صدره، وإن منع وحرم المال سخط بقلبه وقوله؛ كأن يقول: لماذا أنا فقير وهذا غني؟، وما أشبه ذلك، فيكون ساخطًا على قضاء الله جل وعلا وقدره؛ لأن الله تعالى منعه، والله سبحانه وتعالى يعطي ويمنع لحكمة، ويعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن يحب.

والواجب على المؤمن أن يرضى بقضاء الله تعالى وقدره، إن أُعطي شكر، وإن مُنع صبر.

وقوله: «**تعس وانتكس**» تعس؛ أي: خاب وهلك، وانتكس؛ أي: انتكست عليه الأمور بحيث لا تتيسر له، فكلما أراد شيئا انقلبت عليه الأمور خلاف ما يريد، ولهذا قال: «**وإذا شيك فلا انتقش**»؛ أي: لا يقدر إذا أصابته شوكة على إخراجها بالمنقاش؛ فهو لا يستطيع أن يزيل ما يؤذيه عن نفسه.

وهذه الجمل الثلاث يحتمل أن يكون خبراً منه ﷺ عن حال هذا الرجل، وأنه في

تعاسة وانتكاس وعدم خلاص من الأذى، ويحتمل أن يكون من باب الدعاء على مَن هذه حاله؛ لأنه لا يهتم إلا للدنيا، فدعا عليه أن يهلك، وأن لا يصيب من الدنيا شيئًا، وأن لا يتمكن من إزالة ما يؤذيه.

وقوله: «**طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله**»؛ هذا عكس الأول، فهو لا يهتم للدنيا، وإنما يهتم للآخرة، فهو في استعداد دائم للجهاد في سبيل الله عز وجل.

وقوله: «**طوبى**» من الطيب؛ أي: أطيب حال تكون لهذا الرجل، وورد أن «**طوبى**» هي شجرة في الجنة.

وقوله: «**آخذ بعنان فرسه**»؛ أي: ممسك بمقود فرسه الذي يقاتل عليه.

وقوله: «**في سبيل الله**» ضابطه أن يقاتل لتكون كلمة الله سبحانه هي العليا لا للحمية أو الوطنية أو ما أشبه ذلك، لكن إن قاتل وطنية وقصد حماية وطنه لكونه بلداً إسلامياً يجب الذود عنه، فهو في سبيل الله تعالى، وكذلك من قاتل دفاعًا عن نفسه أو ماله أو أهله، فإن النبي ﷺ قال: «من قُتل دون ماله فهو شهيد، ومَن قُتل دون دِينه فهو شهيد، ومَن قُتل دون دمه فهو شهيد، ومَن قُتل دون أهله فهو شهيد»[1].

وقوله: «**أشعث رأسه، مغبرة قدماه**»؛ أي: رأسه أشعث من الغبار في سبيل الله تعالى، فهو لا يهتم بحاله ولا بدنه ما دام هذا الأمر ناتجًا عن طاعة الله عز وجل، وقدماه مغبرة في السير في سبيل الله تعالى، وهذا دليل على أن أهم شيء عنده هو الجهاد في سبيل الله تعالى، أما أن يكون شعره أو ثوبه أو فراشه نظيفًا، فليس له هَمّ فيه.

وقوله: «**إن كان في الحراسة، فهو في الحراسة، وإن كان في الساقة، فهو في الساقة**»؛ الحراسة والساقة ليست من مقدم الجيش؛ فالحراسة: أن يحرس الإنسان الجيش، والساقة: أن يكون في مؤخرته، وللجملتين معنيان:

أحدهما: أنه لا يبالي أين وضع؛ إن قيل له: احرس، حرس، وإن قيل له: كن في الساقة، كان فيها، فلا يطلب مرتبة أعلى من هذا المحل كمقدم الجيش مثلاً.

الثاني: إن كان في الحراسة أدى حقها، وكذا إن كان في الساقة.

---

(١) رواه الترمذي برقم (١٤٢١)، وأبو داود برقم (٤٧٧٢)، وصححه الألباني؛ انظر «إرواء الغليل» برقم (٧٠٨).

وهو صالح للمعنيين، يحمل عليهما جميعاً.

وقوله: «**إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع له**»؛ أي: هو عند الناس ليس له جاه ولا شرف، حتى إن استأذن لم يؤذن له، وهكذا عند أهل السلطة ليس له مرتبة، فإن شفع لم يشفع، ولكنه وجيه عند الله تعالى وله المنزلة العالية، لأنه يقاتل في سبيل الله عز وجل.

والشفاعة: هي التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة.

والاستئذان: طلب الإذن بالشيء.

قال النبي ﷺ: «رب أشعث مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره»[1].

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فيه ترك حب الرياسة والشهرة وفضل الخمول والتواضع.

والمراد من الحديث واضح في أن مَن أراد بعمله الدنيا تعس وهلك ولم ينفعه عمله.

* * *

(١) رواه مسلم برقم (٢٦٢٢) (١٣٨) و(٢٨٥٤) (٤٨).

المسألة (الرابعة والثلاثون): مِنَ الخَوْفِ ما يكون شِرْكـًا

قوله: «**الخوف**»: هو توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة، وقيل: هو الهمّ مما يستقبل ولا يكون إلا في المستقبل.

والخوف منه محمود ومنه مذموم؛ فأما الخوف المحمود: فهو الذي يدعو الإنسان للبحث عن حاله، ومراقبة نفسه ومحاسبتها عن أعمالها السيئة، وهو الذي يدعو المرء إلى البعد عن المعاصي ومداومة الاستغفار والتوبة، وأما الخوف المذموم؛ فهو الذي يُكوّن لدى الإنسان حالة هلع وتوجس وترقب لخطر قادم، يجعله يعيش مكتوف الأيدي، و يثنيه عن العمل ويؤخره عن واجباته، وصاحبه بحاجة لأن يجد ويجتهد في العمل على إزالته والحد منه.

وأيضـًا: يقول أهل العلم: الخوف قسمان:

الأول: الخوف الطبيعي والجِبلِّي، فهذا في الأصل مباح، لقوله تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١] وقوله تعالى عنه أيضـًا: ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [القصص: ٣٣]، لكن إن حمل على ترك واجب أو فعل محرم، فهو محرم.

الثاني: خوف العبادة والتذلل والتعظيم والخضوع، وهو ما يسمى بخوف السر؛ وهذا لا يصلح إلا لله سبحانه وتعالى فمن أشرك فيه مع الله تعالى غيره، فهو مشرك شركـًا أكبر؛ وذلك مثل: من يخاف من الأصنام أو الأموات، أو من يزعمونهم أولياء ويعتقدون نفعهم وضرهم، كما يفعله بعض عباد القبور: يخاف من صاحب القبر أكثر مما يخاف الله جل وعلا، لهذا قال: «**من الخوف ما يكون شركـًا**»؛ أي: بعض منه يكون شركـًا، والبعض الآخر يكون على حسب فاعله، فقد يكون مذمومـًا، وقد يكون ممدوحـًا محموداً، وقد يكون طبيعيـًا.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ﴾؛ صيغة حصر والمشار إليه التخويف من المشركين؛ والمعنى: ما هذا التخويف الذي حصل إلا من شيطان يخوف أولياه.

وقوله: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾؛ أي: يوقع الخوف في قلوب أنصاره، الذين ينصرون الفحشاء والمنكر، أو الشرك وما ينافي التوحيد، فيكون عظيماً، أو ما هو أدنى من ذلك.

كما جاء في الآية التي قبلها، حيث قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وذلك ليصدهم عن واجب من واجبات الدين، وهو الجهاد، فيخوفهم بذلك، وكذلك ما يحصل في نفس من أراد أن يأمر بالمعروف أو ينهى عن المنكر، فيخوفه الشيطان ليصده عن هذا العمل، وكذلك ما يقع في قلب الداعية.

فإن للشيطان وساوس يلقيها في قلب ابن آدم منها التخويف من أعدائه، وهذا ما وقع فيه كثير من الناس، وهو الخوف من أعداء الله عز وجل فكانوا فريسة لهم، لو توكلوا على الله تعالى وخافوه قبل كل شيء لخافهم الناس، ولهذا قال أهل العلم: «من خاف الله خافه كل شيء، ومن اتقى الله اتقاه كل شيء، ومن خاف غير الله خاف من كل شيء».

والحاصل: أن الشيطان يخوف كل من أراد أن يقوم بواجب، فإذا ألقى الشيطان في نفسك الخوف، فالواجب عليك أن تعلم أن الإقدام على كلمة الحق ليس هو الذي يدني الأجل، وليس السكوت والجبن هو الذي يبعد الأجل فكم من داعية صدع بالحق ومات على فراشه؟، وكم من جبان قتل في بيته؟، وانظر إلى خالد بن الوليد رضي الله عنه، كان شجاعاً مقداماً ومات على فراشه، ومادام الإنسان قائماً بأمر الله جل وعلا، فليثق بأن الله تعالى مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وحزب الله تعالى هم الغالبون.

وقوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾؛ لا ناهية، والهاء ضمير يعود على أولياء الشيطان؛ وهذا

النهي للتحريم بلا شك؛ أي: بل امضوا فيما أمرتكم به وفيما أوجبته عليكم من الجهاد، ولا تخافوا هؤلاء، وإذا كان الله سبحانه مع الإنسان، فإنه لا يغلبه أحد، لكن نحتاج في الحقيقة إلى صدق النية والإخلاص والتوكل التام، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

ويفهم منها أن الخوف من الشيطان وأوليائه مناف للإيمان، فإن كان الخوف يؤدي إلى الشرك، فهو مناف لأصل الإيمان، وإلا، فهو مناف لكمال الإيمان.

وقَالَ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾؛ المراد بالعمارة: العمارة المعنوية؛ وهي عمارتها بالصلاة والذكر وقراءة القرآن ونحوها، وكذلك الحسية بالبناء الحسي، فإن عمارتها به حقيقة لا تكون إلا ممن ذكرهم الله تعالى، لأن من يعمرها وهو لم يؤمن بالله واليوم الآخر لم يعمرها حقيقة، لعدم انتفاعه بهذه العمارة، فالعمارة النافعة الحسية والمعنوية من الذين آمنوا بالله واليوم الآخر، ولهذا لما افتخر المشركون بعمارة المسجد الحرام، قال الله تعالى ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، وأضاف الله سبحانه المساجد إلى نفسه تشريفا، لأنها موضع عبادته.

وقوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾، ﴿مَنْ﴾؛ فاعل يعمر، والإيمان بالله تعالى يتضمن أربعة أمور؛ هي: الإيمان بوجوده، وربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته.

وقوله: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾؛ هو يوم القيامة، وسمي بذلك لأنه لا يوم بعده.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: يدخل في الإيمان بالله واليوم الآخر كل ما أخبر به ﷺ مما يكون بعد الموت؛ مثل فتنة القبر وعذابه ونعيمه؛ لأن حقيقة الأمر أن الإنسان إذا مات قامت قيامته وارتحل إلى دار الجزاء.

ويقرن الله جل وعلا الإيمان به بالإيمان باليوم الآخر كثيراً؛ لأن الإيمان باليوم الآخر يحمل الإنسان إلى الامتثال، فإنه إذا آمن أن هناك بعثاً وجزاء، حمله ذلك على العمل لذلك اليوم، ولكن من لا يؤمن باليوم الآخر لا يعمل، إذ كيف يعمل لشيء وهو لا يؤمن به؟!.

وقوله: ﴿**وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ**﴾؛ أي: أتى بها على وجهٍ قويمٍ لا نقص فيه.

وقوله: ﴿**وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ**﴾؛ الزكاة: هي المال الذي أوجبه الشارع في الأموال الزكوية، وتختلف مقاديرها حسب ما تقتضيه حكمة الله عز وجل.

وقوله: ﴿**وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ**﴾ فيها حصر طريقة الإثبات والنفي؛ فقوله: ﴿**وَلَمْ يَخْشَ**﴾ نفي، وقوله: ﴿**إِلَّا ٱللَّهَ**﴾ إثبات؛ والمعنى: أن خشيته انحصرت في الله عز وجل، فلا يخشى غيره؛ والخشية نوع من الخوف، لكنها أخص منه، والفرق بينهما: أن الخشية تكون مع العلم بالمخشي وحاله، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، والخوف قد يكون من الجاهل، وأن الخشية تكون بسبب عظمة المخشي، بخلاف الخوف، فقد يكون من ضعف الخائف لا من قوة المخّوف.

وهنا الشاهد من هذه الآية في هذه المسألة.

وقوله: ﴿**فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ**﴾؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «عسى من الله واجبة»، وجاءت بصيغة الترجي، لئلا يأخذ الإنسان الغرور بأنه حصل على هذا الوصف.

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠].

قوله: ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ**﴾؛ المراد بهؤلاء الناس: مَن لا يصل الإيمان إلى قرارة

قلبه، فيقول: آمنا بالله، لكنه إيمان ضعيف على حرف، كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [الحج: ١١]، و﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾؛ أي: على طرف، فإذا امتحنه الله تعالى بما يقدر عليه من إيذاء الأعداء في الله تعالى، جعل فتنة الناس كعذاب الله جل وعلا.

وقوله: ﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾، ﴿فِى﴾: للسببية؛ أي: بسبب الإيمان بالله عز وجل وإقامة دينه، ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾، ﴿جَعَلَ﴾؛ أي: صيّر؛ والمراد بالفتنة هنا الإيذاء، وسمي فتنة؛ لأن الإنسان يفتتن به، فيصد عن سبيل الله تعالى.

وقوله: ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾؛ معلوم أن الإنسان يفر من عذاب الله تعالى، فيوافق أمره، فهذا يجعل فتنة الناس كعذاب الله، فيفر من إيذائهم بموافقة أهوائهم وأمرهم جعلاً لهذه الفتنة كالعذاب، فحينئذ يكون قد خاف من هؤلاء كخوفه من الله تعالى، لأنه جعل إيذاءهم كعذاب الله جل وعلا، ففر منه بموافقة أمرهم.

وهنا الشاهد من هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾؛ كانوا يدّعون أن ما يحصل لهم من الإيذاء بسبب الإيمان، فإذا انتصر المسلمون، قالوا: نحن معكم نريد أن يصيبنا مثل ما أصابكم من غنيمة وغيرها.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ استفهام تقريري؛ أي: أوليس الله هو العالم بما انطوت عليه الضمائر من خير وشر، وبما في قلوب الناس من إيمان ونفاق، بلى إنه بكل شيء عليم، والعالمين هم كل ما سوى الله تعالى.

وَقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: « مَنِ الْتَمَسَ رِضَى الله بِسَخَطِ النَّاسِ رضي الله عنه وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَى النَّاسِ بِسَخَطِ الله سَخِطَ الله عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ »[1].

---

(١) رواه ابن حبان في «صحيحه» برقم (٢٧٦)، واللفظ له، والترمذي برقم (٢٤١٤)، وصححه الألباني؛ انظر «سلسلة الأحاديث الصحيحة» برقم (٢٣١١).

قوله: «**من التمس**»؛ أي: طلب.

وقوله: «**رضى الله**»؛ أي: أسباب رضاه.

وقوله: «**بسخط الناس**»، الباء للعوض؛ أي: طلب ما يرضي الله تعالى ولو سخط الناس به بدلاً من هذا الرضى، وجواب الشرط: «**رضي الله عنه وأرضى عنه الناس**».

وقوله: «**رضي الله عنه وأرضى عنه الناس**»، هذا ظاهر، فإذا التمس العبد رضى ربه عز وجل بنية صادقة رضي الله عنه؛ لأنه أكرم من عبده، وأرضى عنه الناس، وذلك بما يلقي في قلوبهم من الرضى عنه ومحبته؛ لأن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء.

وقوله: «**ومن التمس رضى الناس بسخط الله**»؛ أي: طلب ما يرضي الناس، ولو كان يسخط الله، أي: خوفاً منهم حتى يرضوا عنه، فقدم الخوف منهم على مخافة الله تعالى، فنتيجة ذلك أن يعامل بنقيض قصده، ولهذا قال: «**سخط الله عليه وأسخط عليه الناس**»، فألقى الله تعالى في قلوبهم سخطه وكراهيته.

وما أكثر الذين يطلبون رضى الناس بسخط الله تعالى، فهؤلاء في سخط الله جل جلاله ولو في الظاهر رضي عنهم الناس، فلا ينفعهم هذا، قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦].

* * *

المسألة (الخامسة والثلاثون): فِي التَّوكُّلِ

قوله: «**التوكل**»؛ هو الاعتماد على الله سبحانه وتعالى في حصول المطلوب، ودفع المكروه، مع الثقة به، وفعل الأسباب المأذون فيها.

ولا بد من أمرين في هذا المقام:

الأول: أن يكون الاعتماد على الله اعتمادا صادقا حقيقيا.

الثاني: فعل الأسباب المأذون فيها.

فمن جعل أكثر اعتماده على الأسباب، نقص توكله على الله جل وعلا، ويكون قادحًا في كفاية الله سبحانه، فكأنه جعل السبب وحده هو العمدة فيما يصبو إليه من حصول المطلوب وزوال المكروه.

ومن جعل اعتماده على الله تعالى ملغيًا للأسباب، فقد طعن في حكمة الله عز وجل، لأن الله تعالى جعل لكل شيء سببًا، فمن اعتمد على الله تعالى اعتماداً مجرداً، كان قادحًا في حكمة الله تعالى؛ لأن الله سبحانه حكيم، يربط الأسباب بمسبباتها، كمن يعتمد على الله تعالى في حصول الولد وهو لا يتزوج.

والنبي ﷺ أعظم المتوكلين، ومع ذلك كان يأخذ بالأسباب، فكان يأخذ الزاد في السفر، ولما خرج إلى أُحد ظاهر بين درعين؛ أي: لبس درعين اثنين[١]، ولما خرج مهاجراً أخذ من يدله الطريق[٢]، ولم يقل سأذهب مهاجراً وأتوكل على الله عز وجل، ولن أصطحب معي من يدلني الطريق، وكان ﷺ يتقي الحر والبرد، ولم ينقص ذلك من توكله.

ويذكر أنه قدم ناس من أهل اليمن إلى الحج بلا زاد، فجيء بهم إلى عمر رضي الله عنه، فسألهم؟!، فقالوا: نحن المتوكلون على الله، فقال: لستم المتوكلين، بل أنتم المتواكلون.

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٣/ ٤٤٩)، وأبو داود برقم (٢٥٩٠)، وابن ماجة، برقم (٢٨٠٦)، وصححه الألباني؛ انظر «صحيح أبي داود».

(٢) رواه البخاري برقم (٢٢٦٣).

قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

التوكل يجب إخلاصه لله تعالى، لأنه من أفضل العبادات وأعلى مقامات التوحيد، بل لا يقوم به على وجه الكمال إلا خواص المؤمنين، كما جاء في صفة السبعين ألفـًا الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، ولذلك أمر الله تعالى به في غير آية من القرآن أعظم مما أمر بالوضوء والغسل من الجنابة، بل جعله شرطـًا في الإيمان والإسلام، ومفهوم ذلك انتفاء الإيمان والإسلام عند انتفائه، كما في الآية هنا: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، وقوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله سبحانه: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ [المزمل: ٩]، وقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا﴾ [الإسراء: ٢]، وقوله عز وجل: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٦]، وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٣]، وغير ذلك من الآيات، وفي قوله ﷺ: «لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصـًا وتروح بطانـًا»[(١)].

ولا يمكن تحقيق العبادة إلا بالتوكل؛ لأن الإنسان لو وُكِّل إلى نفسه وُكِّل إلى ضعف وعجز، ولم يتمكن من القيام بالعبادة، فهو حين يعبد الله تعالى يشعر أنه متوكل على الله جل وعلا، فينال بذلك أجر العبادة وأجر التوكل.

وإذا تبين ذلك؛ فمعنى الآية: أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أمر قومه بدخول الأرض المقدسة التي كتبها الله تعالى لهم ولا يرتدوا على أدبارهم خوفـًا من الجبارين، بل يمضوا قدمـًا لا يهابونهم ولا يخشونهم متوكلين على الله سبحانه في هزيمتهم، مصدقين بصحة وعده لهم إن كانوا مؤمنين.

---

(١) رواه الترمذي برقم (٢٣٤٤)، وابن ماجة برقم (٤١٦٤)، وصححه الألباني؛ انظر «سلسلة الأحاديث الصحيحة» برقم (٣١٠).

وقَالَ الله تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الأنفال: ٢-٣].

قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ** ﴾؛ ﴿ **إِنَّمَا** ﴾ أداة حصر؛ والحصر هو إثبات الحكم في المذكور ونفيه عما عداه؛ والمعنى: ما المؤمنون إلا هؤلاء.

وذكر الله تعالى في هذه الآية وما بعدها خمسة أوصاف:

الوصف الأول: قوله تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾؛ أي: خافت لما فيها من تعظيم الله تعالى؛ مثال ذلك: رجل هم بمعصية، فذكر الله تعالى أو ذُكِّر به، وقيل له: اتق الله؛ فإن كان مؤمناً، فإنه سيخاف، وهذا هو علامة الإيمان.

الوصف الثاني: قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا**﴾؛ أي: تصديقاً وامتثالاً، وفي هذا دليل على أن الإنسان قد ينتفع بقراءة غيره أكثر مما ينتفع بقراءة نفسه، كما أمر الرسول ﷺ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن يقرأ عليه، فقال:كيف أقرأ عليك وعليك أُنزل؟، فقال: «إني أُحب أن أسمعه من غيري»، فقرأ عليه من سورة النساء، حتى بلغ قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١]، قال ﷺ: «حسبك»، فنظر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه إليه، فإذا عيناه ﷺ تذرفان[1].

واستدل الصحابة رضي الله عنهم والتابعون ومن تبعهم من أهل السنة بهذه الآية ونظائرها على زيادة الإيمان ونقصانه.

قال عمير بن حبيب رضي الله عنه: «إن الإيمان يزيد وينقص، فقيل له: وما زيادته ونقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله وخشيناه فذلك زيادته، وإذا غفلنا ونسينا وضيعنا فذلك نقصانه».

الوصف الثالث: قوله تعالى: ﴿**وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾؛ أي: يعتمدون على الله تعالى لا على غيره، وهم مع ذلك يعملون الأسباب، وهذا هو الشاهد.

---

(١) رواه البخاري برقم (٥٠٥٠)، ومسلم برقم (٨٠٠).

الوصف الرابع: قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾؛ أي: يأتون بها مستقيمة كاملة، و﴿ٱلصَّلَوٰةَ ﴾: اسم جنس تشمل الفرائض والنوافل.

الوصف الخامس: قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾؛ «من»: للتبعيض، فيكون الله تعالى يمدح من أنفق بعض ماله لا كله، أو تكون «من» لبيان الجنس، فيشمل الثناء على من أنفق البعض ومن أنفق الكل؛ والصواب: أنها لبيان الجنس، وأن من أنفق الكل يدخل في الثناء، إذا توكل على الله تعالى في أن يرزقه وأهله، كما فعله أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]، أما إن كان أهله في حاجة أو كان المنفق عليه ليس بحاجة ماسة تستلزم إنفاق المال كله، فلا ينبغي أن ينفق ماله عليه.

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٤].

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾؛ المراد به الرسول ﷺ؛ يخاطب الله تعالى رسوله ﷺ بوصف النبوة أحياناً، وبوصف الرسالة أحياناً؛ فحينما يأمره أن يُبَلِّغ يناديه بوصف الرسالة، وأما في الأحكام الخاصة، فالغالب أن يناديه بوصف النبوة، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١]، وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١].

و﴿ٱلنَّبِيُّ﴾؛ هو المنبأ من قبل الله تعالى، ومنبئ لعباد الله تعالى.

وقوله: ﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: كافيك، والحسب: الكافي؛ والمعنى: ما حسبك إلا الله جل وعلا.

وقوله: ﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾؛ أي: الله سبحانه وحده كافيك وكافي أتباعك، فلا تحتاجون معه إلى أحد.

فإذا كان هو الكافي لعبده وجب ألا يتوكل إلا عليه، ومتى التفت بقلبه إلى سواه وكله الله عز وجل إلى مَن التفت إليه، كما قال ﷺ: «من تَعَلَّق شيئاً وُكِلَ إليه».

---

(١) رواه أبو داود برقم (١٦٧٨)، والترمذي برقم (٣٦٧٥)، وحسنه الألباني؛ انظر «صحيح أبي داود».

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾؛ أي: أن من يتوكل على الله سبحانه، فإن الله تعالى يكفيه مهماته وييسر له أمره، فالله جل وعلا حسبه ولو حصل بعض الأذية، فإن الله تعالى يكفيه الأذى.

والرسول ﷺ سيد المتوكلين، ومع ذلك يصيبه الأذى ولا تحصل له المضرة؛ لأن الله تعالى حسبه، فالنتيجة لمن اعتمد على الله عز وجل أن يكفيه ربه سبحانه المؤونة.

والآية تفيد بمفهومها أن من توكل على غير الله سبحانه خذل، لأن غير الله لا يكون حسبًا، فمن توكل على غير الله تعالى تخلى الله عز وجل عنه، وصار موكولاً إلى هذا الشيء ولم يحصل له مقصوده، وابتعد عن الله تعالى بمقدار توكله على غير الله تعالى.

وفيها دليل على فضل التوكل، وأنه أعظم الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار.

وقال الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾؛ قالها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾»[1].

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾؛ أي: أبو سفيان ومن معه، وكلمة ﴿ٱلنَّاسُ﴾ هنا، يمثل بها الأصوليون للعام الذي أُريد به الخصوص.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾؛ هذا في نص القرآن؛ لما انصرف أبو سفيان من

---

(١) رواه البخاري برقم (٤٥٦٣).

أُحد أراد أن يرجع إلى النبي ﷺ وأصحابه ليقضي عليهم بزعمه، فلقي ركبًا فقال لهم: إلى أين تذهبون؟ قالوا: نذهب إلى المدينة، فقال: بلغوا محمداً وأصحابه أنّا راجعون إليهم فقاضون عليهم، فجاء الركب إلى المدينة، فبلغوهم، فقال رسول الله ﷺ ومن معه: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، وخرجوا في نحو سبعين راكبا، حتى بلغوا حمراء الأسد، ثم إن أبا سفيان تراجع عن رأيه وانصرف إلى مكة، وهذا من كفاية الله تعالى لرسوله ﷺ وللمؤمنين، حيث اتكلوا واعتمدوا عليه تعالى.

وقوله: ﴿حَسْبُنَا﴾؛ أي: كافينا.

وقوله: ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾؛ الوكيل: هو الله تعالى المعتمد عليه في جلب النافع ودفع الضار.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هو حسب من توكل عليه، وكافي من لجأ إليه، وهو الذي يؤمن خوف الخائف، ويجير المستجير، فمن تولاه واستنصر به وتوكل عليه، وانقطع بكليته إليه، تولاه وحفظه وحرسه وصانه، ومن خافه واتقاه، أمنه مما يخاف ويحذر، ويجلب إليه ما يحتاج إليه من المنافع».

وقول ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «إن إبراهيم قالها حين أُلقى في النار»؛ قولٌ لا مجال للرأي فيه، فيكون له حكم الرفع.

الشاهد من الآية: قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾؛ حيث جعلوا حسبهم الله وحده وهو نعم الوكيل.

وقال رسول الله ﷺ: «لَوْ أَنَّكُمْ تَتوكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصاً وَتَرُوحُ بِطَاناً»[1].

قوله: «**لو أنكم تتوكلون**»؛ أي: لو تحقق توكلكم «**على الله حق توكله**»؛ أي: توكلاً حقيقياً تعتمدون على الله اعتماداً كاملاً في طلب رزقكم وفي غيره بسائر الأحوال، وتروا أن الخير بيده ومن عنده «**لرزقكم كما يرزق الطير**».

وقوله: «**تغدو**»؛ أي: الذهاب أول النهار.

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣٠)، والترمذي برقم (٢٣٤٤)، وصححه الألباني؛ انظر «السلسلة الصحيحة» برقم (٣١٠).

وقوله: «**خماصـًا**»؛ جمع خميص: وهو الضـامر البطن؛ أي: خالية الأجواف من القوت.

وقوله: «**وتروح**»؛ أي: وترجع آخر النهار.

وقوله: «**بطانًا**»؛ جمع بطين؛ أي: ممتلئة البطون.

قال البيهقي رَحِمَهُ اللَّهُ في «شـعب الإيمان»: ليس في هذا الحديث دلالة على القعود عن الكسب، بل فيه ما يدل على طلب الرزق، لأن الطير إذا غدت؛ فإنها تغدو لطلب الرزق، وإنمـا أراد - والله أعلم -: لو توكلوا على الله تعـالى في ذهـابهم ومجيئهم وتصـرفهم ورأوا أن الخير بيده ومن عنده لم ينصـرفوا إلا سـالمين غانمين كالطير تغدو خماصـًا وتعود بطانـًا، لكنهم يعتمـدون على قوتهم وجلـدهم ويغشـون ويكذبون ولا ينصحون، وهذا خلاف التوكل.

فينبغي على الإنسـان أن يعتمد على الله حق الاعتماد ولا يشـرك بالله تعالى شيئًا؛ لأنه ما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها حتى الطير في جو السـماء لا يمسـكه في جو السـماء إلا الله ولا يرزقه إلا الله كل دابة في الأرض من أصـغر ما يكون كالذر أو أكبر مـا يكون كـالفيلة وأشـباهها، فإن على الله رزقها، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

وقال رسـول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وعَلَيْك تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَـمْتُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بعزَّتِكَ؛ لا إلهَ إلا أَنْتَ أَنْ تُضلَّني، أَنْتَ الحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالجِنُّ والإِنْسُ يَمُوتُونَ»[1].

قوله: «**اللهم**»؛ أصلها يا الله؛ فالميم عوض من يا.

وقوله: «**اللهم لك**»؛ أي: لا لغيرك.

وقوله: «**لك أسـلمت وبك آمنت**»؛ أي: لك انقدت وبك صـدقت؛ يعني: انقدت لأمرك ونهيك وصدقت بك وبما أنزلت وأرسلت.

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: فيه إشارة إلى الفرق بين الإسلام والإيمان.

---

(١) رواه البخاري برقم (٧٣٨٣)، ومسلم برقم (٢٧١٧)، واللفظ له.

ومعرفة الفرق بين المؤمن والمسلم تنبني على تحديد الفرق بين الإسلام والإيمان، والقاعدة عند العلماء: أنهما إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا؛ أي: إذا ورد لفظ الإسلام والإيمان في نص واحد، كان معنى الإسلام: الأعمال الظاهرة، ومعنى الإيمان: الاعتقادات الباطنة، كقوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

أما إذا ذكر الإسلام وحده دخل في معناه الإيمان، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]، وإذا ذكر الإيمان وحده دخل فيه الإسلام، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ [المائدة: ٥].

وعلى هذا التفصيل، فإن كل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمنـًا، لذلك يحكم للمنافق في أحكام الدنيا بالإسلام، وقلبه خاوٍ من الإيمان، وإن مات على نفاقه فهو في الآخرة من الخاسرين.

وقوله: «**وعليك توكلت**»، هذا هو الشاهد هنا؛ والمعنى: عليك اعتمدت في كل شؤون حياتي لا على غيرك، ومَن توكل واعتمد على الله تعالى فإنه إليه ينيب وبه يخاصم، ولا يشرك مع الله أحداً في كل أحواله وشؤونه.

وقوله: «**وإليك أنبت**»؛ أي: رجعت مقبلاً بقلبي عليك أو أقبلت بهمتي وطاعتي عليك وأعرضت عما سواك.

وقوله: «**وبك خاصمت**»؛ أي: بك أحتج وأدفع وأخاصم؛ والمعنى: بقوتك ونصرك وإعانتك إياي حاربت أعداءك وقاتلتهم، أو بما آتيتني من البراهين والحجج خاصمت من خاصمني من الكفار.

وقوله: «**اللهم إني أعوذ بعزتك**»؛ أي: إني أعوذ بقوة سلطانك وبغلبتك.

وقوله: «**لا إله إلا أنت**»؛ هذه كلمة التوحيد، وهي هنا معترضة، لتأكيد العزة والملك والسلطان، المستحق وحده - سبحانه وتعالى - العبادة.

وقوله: «**أن تضلني**»، من الإضلال، وهو متعلق بأعوذ؛ أي: أعوذ بعزتك أن تضلني وتهلكني بعدم التوفيق للرشاد والهداية والسداد، وقال القاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي أعوذ بك من أن تضلني بعد إذ هديتني ووفقتني لانقياد الظاهر والباطن في حكمك

وقضاءك، وللإنابة إلى جنابك، والمخاصمة مع أعدائك، والالتجاء في كل حال إلى عزتك ونصرتك، وفيه إيماء إلى قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ [آل عمران: ٨].

وقوله: «**أنت الحي القيوم**»؛ أي: الدائم القائم بتدبير الخلق «**الذي لا يموت**» بلفظ الغائب للأكثر، وفي بعض الروايات بلفظ: الخطاب؛ أي: الحي الحياة الحقيقية التي لا يجامعها الموت بحال.

وقوله: «**والجن والإنس يموتون**»؛ عند ما تقضي آجالهم، وخصا بالذكر؛ لأنهما المكلفان المقصودان بالتبليغ، فكأنهما الأصل.

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: استدل به على أن الملائكة لا تموت، ولا حجة فيه؛ لأنه مفهوم لقب، ولا اعتبار له، وعلى تقديره: فيعارضه ما هو أقوى منه؛ وهو عموم قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، مع أنه لا مانع من دخول الملائكة في مسمى الجن لجامع ما بينهم من الاستتار عن عيون الإنس، وقال بعضهم: لا مانع من دخول الملائكة في مسمى الجن لجامع ما بينهم من الاستتار، قلت: هذا كلام واهٍ؛ لأن مسمى الجن غير مسمى الملائكة، ولا يلزم من استتارهم عن أعين الناس صحة دخول الملائكة الذين هم من النور في الجن الذين خلقوا من مارج من نار.

* * *

المسألة (السادسة والثلاثون):
مِن الحُبِّ مَا يَكُوْنُ شِرْكًا

أصل الأعمال كلها هو المحبة؛ فالإنسان لا يعمل إلا لما يحب، إما لجلب منفعة، أو لدفع مضرة، فإذا عمل شيئًا، فلأنه يحبه إما لذاته كالطعام، أو لغيره كالدواء.

وعبادة الله تعالى مبنية على المحبة، بل هي حقيقة العبادة، إذ لو تعبدت بدون محبة صارت عبادتك لا روح فيها.

فإذا كان الإنسان في قلبِهِ محبة الله جل وعلا للوصول إلى جنته، فسوف يسلك الطريق الموصل إلى ذلك.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]

قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾؛ يعني: المشركين.

وقوله: ﴿مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ﴾؛ أي: أصنامًا يعبدونها، و﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾؛ أخبر الله تعالى أن مَن أحب مِن دون الله سبحانه شيئًا كما يحب الله تعالى فهو ممن اتخذ من دون الله تعالى أنداداً، فهذا ند في المحبة لا في الخلق والربوبية، فإنه لا أحداً من أهل الأرض يثبت الند بالخلق والربوبية، بخلاف ند المحبة، فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله عز وجل أنداداً في الحب والتعظيم.

وقوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾؛ فيها قولان؛ أحدهما: يحبونهم كما يحبون الله جل وعلا؛ فيكون قد أثبت لهم محبة الله تعالى، ولكنها محبة أشركوا فيها مع الله تعالى أندادهم، والثاني: أن المعنى يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون الله سبحانه.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾؛ أي: أن الذين آمنوا أشد حبًا لله

سبحانه من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم التي يحبونها ويعظمونها من دون الله تعالى.

وَقَالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦].

قوله: ﴿**إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ**﴾، هذا في يوم القيامة حين يجمع الله القادة والأتباع، فيتبرّأ بعضهم من بعض، هذا قول أكثر المفسّرين، وقال السدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هم الشياطين يتبرؤون من الإنس.

وقوله: ﴿**وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ**﴾؛ الأسباب: جمع سبب؛ وهو كل ما يتوصل به إلى شيء، وفي اصطلاح الأصوليين: ما يلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم، فكل ما يوصل إلى شيء، فهو سبب، قال الله تعالى: ﴿**مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ**﴾ [الحج: ١٥]، ومنه سمي الحبل سبباً؛ لأن الإنسان يتوصل به إلى استخراج الماء من البئر.

وقال عبد الله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في قوله تعالى: ﴿**وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ**﴾؛ هي المودة - أي: المحبة -.

وتفسيره رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ للأسباب بالمودة وهو الشاهد هنا -؛ لأن جميع الأسباب التي يتعلق بها المشركون لتنجيهم تنقطع بهم، ومنها محبتهم لأصنامهم وتعظيمهم إياها، فإنها لا تنفعهم، ولعل ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أخذ ذلك من سياق الآيات، فقد قال الله تعالى: ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ**﴾، ثم قال تعالى: ﴿**إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ**﴾.

وبه تعرف أن مراده المودة الشركية، فأما المودة الإيمانية، كمودة الله تعالى ومودة ما يحبه من الأعمال والأشخاص، فإنها نافعة موصلة للمراد، وقال الله تعالى: ﴿ **ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ**﴾ [الزخرف: ٦٧].

وكما قال الله تعالى عن إبراهيم الخليل عليه السلام: أنه قال لقومه: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وهذه الآية وإن كانت نزلت في المشركين عُبّاد الأوثان الذين يحبون أندادهم وأوثانهم كحُبّ الله عز وجل، فإنها عامة، لأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولهذا قال قتادة رحمه الله: ﴿**وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ**﴾؛ قال: أسباب الندامة يوم القيامة.

وقَالَ الله تَعَالَى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤].

قوله: ﴿**قُلۡ**﴾؛ الخطاب للرسول ﷺ، قُلْ يا محمد لهؤلاء المتخلّفين عن الهجرة: ﴿**إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ**﴾.

وقوله: ﴿**وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا**﴾؛ أي: اكتسبتموها، ﴿**وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا**﴾؛ أي: عدم نفادها، ﴿**وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ**﴾؛ أي: تستطيبونها؛ يعني: القصور والمنازل، ﴿**أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ**﴾.

وقوله: ﴿**فَتَرَبَّصُواْ**﴾؛ أي: فانتظروا، يراد به التهديد؛ أي: انتظروا عقاب الله تعالى، ولهذا قال سبحانه: ﴿**حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦ**﴾؛ بإهلاك هؤلاء المُؤْثِرين لمحبة هؤلاء الأصناف الثمانية على محبة الله عز وجل ورسوله ﷺ وجهاد في سبيله.

وَقَالَ رَسُـوْلُ الله ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُوْنَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِيْنَ»[1].

قوله: «**لا يؤمن**»، هذا نفي للإيمان، ونفي الإيمان تارة يراد به نفي الكمال الواجب، وتارة يراد به نفى الوجود؛ أي: نفي الأصل؛ والمنفي هنا هو كمال الإيمان الواجب، إلا إذا خلا القلب من محبة الرسول ﷺ إطلاقاً، فلا شك أن هذا نفي لأصل الإيمان.

وقوله: «**من ولده**»؛ يشمل الذكر والأنثى، وبدأ بمحبة الولد؛ لأن تعلق القلب به أشد من تعلقه بأبيه غالباً.

وقوله: «**ووالده**»؛ يشمل أباه، وجده وإن علا، وأمه، وجدته وإن علت.

وقوله: «**والناس أجمعين**»؛ يشمل إخوته وأعمامه وأبناءهم وأصحابه، فلا يتم الإيمان حتى يكون الرسول ﷺ أحب إليه من جميع المخلوقين.

بل حتى من نفسه؛ فقد جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله، لأنت أَحَبّ الناس إليّ إلَّا من نفسي!، فقال ﷺ: «لا والذي نفسي بيده، حتى أكون أَحَبُّ إليك من نفسك»، فقال عمر رضي الله عنه: فإنه الآن، والله لأنت أَحَبّ إليَّ من نفسي، فقال ﷺ: «الآن يا عمر»[2].

وإذا كان هذا في محبة الرسول ﷺ، فكيف بمحبة الله تعالى؟!.

ومحبة الرسول ﷺ تكون لأمور:

الأول: أنه رسول الله ﷺ، وإذا كان الله جل وعلا أحب إليك من كل شيء، فرسوله أحب إليك من كل مخلوق.

الثاني: لما قام به من عبادة الله تعالى وتبليغ رسالته.

الثالث: لما آتاه الله جل وعلا من مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال.

الرابع: أنه سبب هدايتك وتعليمك وتوجيهك.

الخامس: لصبره على الأذى في تبليغ الرسالة.

---

(١) رواه البخاري برقم (١٥)، ومسلم برقم (٤٤).

(٢) رواه البخاري برقم (٦٦٣٢).

السادس: لبذل جهده بالمال والنفس لإعلاء كلمة الله تعالى.

فإذن يجب علينا أن نحبه ﷺ أكثر من أنفسنا، ويجب علينا أن ندافع عنه وعن سُنّته بقدر استطاعنا، وإذا أمرنا بأمر وحصل هناك ما يعارض الأمر النبوي، قدمنا أمر النبي ﷺ على غيره.

وليس معنى هذا أن يكون حب الرسول ﷺ مقترنـًا بالتعظيم والذل والخضوع الذي لا يجوز إلا لله جل وعلا، فلا نشرك الرسول ﷺ بالمحبة المختصة بالله تعالى، لأن الرسول إنما أحببناه؛ لأنه دلنا على الله عز وجل، ولأن الله تعالى أمرنا بحُبِّه واتِّباعه؛ قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فالسعادة الحقيقية والاهتداء التام لا يتحقق إلا بطاعته، كما قال سبحانه: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤]، وقال الله عز وجل: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥٢]، وهنا تنبيه: فالطاعة تكون لله تعالى ولرسوله ﷺ، وأما الخشية والتقوى فلله وحده سبحانه وتعالى.

وَقَالَ رَسُـوْلُ الله ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيْهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الإِيْمَانِ: أَنْ يَكُوْنَ اللهُ وَرَسُوْلُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لله، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُوْدَ فِي الكُفْرِ بَعْدِ إِذْ أَنْقَذَهُ الله مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»[1].

قوله: «**ثلاث من كن فيه**»؛ أي: ثلاث خصال، «**كن**» بمعنى: وجدن فيه.

وقوله: «**وجد بهن حلاوة الإيمان**»، الباء للسببية، و«**حلاوة الإيمان**»؛ ما يجده الإنسان في نفسه وقلبه من الطمأنينة والراحة والانشراح، واستلذاذ الطاعات وتحمل المشاق وإيثار ذلك على أغراض الدنيا، وليست مدركة باللعاب والفم، والمقصود

(١) رواه البخاري برقم (١٦)، ومسلم برقم (٤٣).

بالحلاوة هنا الحلاوة القلبية.

الخصلة الأولى من الخصال الواردة في الحديث:

قوله: «**أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما**»؛ الرسول محمد ﷺ، وكذا جميع الرسل عليهم السلام تجب محبتهم، وقوله: «**أحب إليه مما سواهما**»؛ أي: أحب إليه من الدنيا كلها ونفسه وولده ووالده وزوجته وكل شيء سواهما.

والخصلة الثانية:

قوله: «**وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله**»؛ يشمل الرجل والمرأة؛ فقوله: «**لا يحبه إلا لله**»؛ اللام للتعليل؛ أي: من أجل الله تعالى، لأنه قائم بطاعة الله عز وجل.

وحب الإنسان للمرء له أسباب كثيرة: يحبه للدنيا، ويحبه للقرابة، ويحبه للزمالة، ويحب المرء زوجته للاستمتاع وهي تحبه كذلك، ويحب من أحسن إليه، ولكن إذا أحببت هذا المرء لله جل وعلا، فإن ذلك من أسباب وجود حلاوة الإيمان.

والخصلة الثالثة:

قوله: «**وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار**» هذه الصورة في كافر أسلم، فهو يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله تعالى منه، كما يكره أن يقذف في النار، وإنما ذكر هذه الصورة؛ لأن الكافر يألف ويحب ما كان عليه أولاً، فربما يرجع إليه بخلاف مَن لا يعرف الكفر أصلاً.

فمن كره العود في الكفر كما يكره القذف في النار، فإن هذا من أسباب وجود حلاوة الإيمان.

* * *

المسألة (السابعة والثلاثون):
فِيْمَنْ أَطَاعَ العُلَمَاءَ وَالأُمَرَاءَ فِي تَحْرِيْمِ مَا أَحَلَّ الله أَوْ تَحلِيْلِ مَا حَرَّمَ الله فَقَدِ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُوْنِ الله

لابد أن يكون العبد مطيعًا لله جل وعلا فيما أحل وما حرَّم، محلاً للحلال، محرمًا للحرام، لا يتحاكم إلا إليه جل جلاله، ولا يُحَكِّمُ في الدين إلا شَرْعَ الله تعالى.

والعلماء وظيفتهم تبيين معاني ما أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ، وليست وظيفتهم التي أذن لهم بها في الشرع أن يحللوا ما يشاءون، أو يحرموا ما يشاءون، بل وظيفتهم الاجتهاد في فقه النصوص، وأن يبينوا ما أحل الله تعالى، وما حرم جل وعلا، فهم أدوات ووسائل لفهم نصوص الكتاب والسنة؛ ولذلك كانت طاعتهم تبعًا لطاعة الله ورسوله ﷺ، يطاعون فيما فيه طاعة لله عز وجل ولرسوله ﷺ.

وما كان من الأمور الاجتهادية، فيطاعون؛ لأنهم هم أفقه بالنصوص من غيرهم، فتكون طاعة العلماء والأمراء من جهة الطاعة بالتبعية لله تعالى ولرسوله ﷺ.

أما الطاعة الاستقلالية؛ هي نوع من أنواع العبادة، فيجب إفراد الله جل وعلا بها، فليست إلا لله تعالى، حتى طاعة النبي ﷺ إنما هي تبع لطاعة الله عز وجل، فإن الله تعالى هو الذي أذن بطاعته، وهو الذي أمر بطاعة رسوله ﷺ وهذا معنى الشهادة له بأنه رسول الله، قال الله جل وعلا: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ٦٤].

وقوله: «**من أطاع العلماء والأمراء**»؛ العلماء والأمراء هم أولو الأمر في قوله جل وعلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ [النساء: ٥٩]؛ قال العلماء: أولو الأمر يشمل من له الأمر في حياة الناس في دينهم؛ وهم العلماء، وفي دنياهم؛ وهم الأمراء، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ ولم يكرر فعل الطاعة؛

قال العلماء: «دل هذا على أن طاعة أولي الأمر، ليست استقلالا، وإنما يطاعون في طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ، فإذا أمروا بمعصية، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، والأمور الاجتهادية التي ليس فيها نص من الكتاب والسنة، فإنهم يطاعون في ذلك لأن الله أَذِنَ به، ولما في ذلك من المصالح المرعية في الشرع».

وقوله: «**في تحريم ما أحل الله**»؛ يعني: في تحريم الأمر الذي أحله الله سبحانه، بحيث هناك حلال في الشرع، فيحرمونه؛ أي: يحرمه العالم، أو يحرمه الأمير، فيطيعه الناس، وهم يعلمون أنه حلال، لكن يطيعونه في التحريم؛ ومثاله: أن الله تعالى أحل أكل الخبز، فيقولون: الخبز حرام عليكم دينا، فلا تأكلوه تديناً، ويحرمونه لأجل ذلك، فإن أطاعوهم كان ذلك طاعة لهم في تحريم ما أحل الله عز وجل.

وقوله: «**أو تحليل ما حرم الله**»؛ يعني: أحلوا ما يُعْلَم أن الله تعالى حرمه؛ مثاله: حرم الله تعالى الخمر، فأحله العلماء، أو أحله الأمراء، فمن أطاع عالماً، أو أميراً في اعتقاد أن الخمر حلال، وهو يعلم أنها حرام، وأن الله سبحانه حرمها، فقد اتخذه رباً من دون الله جل وعلا.

فتحريم ما أحل الله عز وجل لا ينقص درجة في الإثم عن تحليل ما حرم الله تعالى، وكثير من ذوي الغيرة من الناس تجدهم يميلون إلى تحريم ما أحل الله تعالى أكثر من تحليل الحرام، بعكس المتهاونين، وكلاهما خطأ.

وقوله: «**فقد اتخذهم أربابا**»؛ الأرباب جمع الرب، والرب والإله لفظان يفترقان إذا اجتمعا، ويجتمعان إذا افترقا؛ لأن الرب هو السيد الملك المتصرف في الأمر، والإله هو المعبود.

وقوله: «**من دون الله**»؛ يعني: مع الله تعالى، أو: من دون الله سبحانه استقلالاً.

قال الله تَعَالَى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَـٰلَۢا بَعِيدًا ❁ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ

أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ۞ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٠-٦٢].

جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان أبو برزة الأسلمي كاهنـًا يقضي بين اليهود فيما يتنافرون إليه، فتنافر إليه ناس من المسلمين، فأنزل الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ...﴾[1].

«أبو برزة الأسلمي»؛ هو نضلة بن عبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، صاحب رسول الله ﷺ.

وقوله: «كَاهِنـًا»؛ الكاهن: هو الذي يُخْبِرُ عن أمورٍ مُسْتَقْبَلَةٍ من الغيب مستعينـًا في ذلك بالشياطين.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾؛ الاستفهام يراد به التقرير والتعجب من حالهم، والخطاب للنبي ﷺ.

وقوله: ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، هذا يُعَيِّن أن يكون الخطاب للنبي ﷺ هنا، ولم يقل الذين آمنوا، لأنهم لم يؤمنوا، بل يزعمون ذلك وهم كاذبون.

والذي أُنزل على النبي ﷺ الكتاب والحكمة، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣]؛ قال المفسرون: الحكمة السنة، وهم يزعمون أنهم آمنوا بذلك، لكن أفعالهم تكذب أقوالهم، حيث يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت لا إلى الله ورسوله.

وقوله: ﴿إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾؛ صيغة مبالغة من الطغيان، ففيه اعتداء وبغي؛ والمراد به هنا كل حكم خالف حكم الله تعالى ورسوله ﷺ، وكل حاكم يحكم بغير ما أنزل الله على رسوله، أما الطاغوت بالمعنى الأعم فقد حده ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ بأنه: «كل ما

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» برقم (١٢٠٤٥)، وصححه شيخي مقبل الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ؛ انظر «الصحيح المسند من أسباب النزول» (ص٤٥).

تجاوز العبد به حده من معبود أو متبوع أو مطاع».

وقوله: ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾؛ أي: أمرهم الله جل وعلا بالكفر بالطاغوت أمراً ليس فيه لبس ولا خفاء، فمن أراد التحاكم إليه، فهذه الإرادة على بصيرة، إذ الأمر بُين لهم.

وقوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾؛ الشيطان جنس يشمل شياطين الإنس والجن.

وقوله: ﴿أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا﴾؛ أي: يوقعهم في الضلال البعيد عن الحق، ولكن لا يلزم من ذلك أن ينقلهم إلى الباطل مرة واحدة، ولكن بالتدريج شيئًا فشيئًا حتى يوقعهم في الضلال البعيد.

وقوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ ﴾؛ أي: قال لهم الناس: أقبلوا ﴿إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من القرآن ﴿وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ نفسه في حياته وسنته بعد وفاته؛ والمراد هنا الرسول ﷺ نفسه في حياته.

وقوله: ﴿رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا﴾؛ الرؤية هنا رؤية حال لا رؤية بصر، بدليل قوله: ﴿تَعَالَوۡاْ﴾؛ فهي تدل على أنهم ليسوا حاضرين عنده؛ والمعنى: كأنما تشاهدهم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا دليل على أن من دعي إلى تحكيم الكتاب والسنة، فأبى، أنه من المنافقين».

وقوله: ﴿يَصُدُّونَ﴾؛ بمعنى: يعرضون.

وقوله: ﴿ فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا ﴾، الاستفهام هنا يراد به التعجب؛ أي: كيف حالهم إذا أصابتهم مصيبة؛ والمصيبة هنا تشمل المصيبة الشرعية والدنيوية لعدم تضاد المعنيين.

فالدنيوية؛ مثل: الفقر، والجدب، وما أشبه ذلك، فيأتون يشكون إلى النبي ﷺ، فيقولون: أصابتنا هذه المصائب ونحن ما أردنا إلا الإحسان والتوفيق.

والشرعية: إذا أظهر الله تعالى رسوله ﷺ على أمرهم، خافوا وقالوا: يا رسول

الله، ما أردنا إلا الإحسان والتوفيق.

وقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: بما قدموه من الأعمال السيئة.

وقوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾؛ أي: ما أردنا إلا إحساناً بكوننا نسلم من الفضيحة والعار، وتوفيقاً بين المؤمنين والكافرين أو بين طريق الكفر وطريق الإيمان؛ أي: نمشي معكم ونمشي مع الكفار، وهذا حال المنافقين، فهم قالوا: أردنا حسن المنهج والمسلك مع هؤلاء وهؤلاء ونوفق بين الطرفين.

وتمام هذه الآيات مع توضيحها، قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾، توعدهم الله بأنه يعلم ما في قلوبهم من النفاق والمكر والخداع، فالله علام الغيوب، ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ بقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ وهذا من أبلغ ما يكون من الإهانة والاحتقار، وقوله: ﴿وَعِظْهُمْ﴾؛ أي: ذكرهم وخوفهم، لكن لا تجعلهم أكبر همك، فلا تخافهم، وقم بما يجب عليك من الموعظة لتقوم عليهم الحجة، ﴿وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾؛ أي: قل لهم قولاً بليغاً في أنفسهم؛ أي: يبلغ في أنفسهم مبلغاً مؤثراً،وانصحهم سراً في أنفسهم،وقولاً بليغاً في قلوبهم يؤثر عليها.

وَقَالَ الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

قال أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ: «عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته، يذهبون إلى رأي سفيان – أي الثوري –، والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أتدري ما الفتنة؟، الفتنة: الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك»(١).

وقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾؛ الضمير يعود للرسول ﷺ،

---

(١) أورده ابن بطة في «الإبانة الكبرى» برقم (٩٧).

بدليل أول الآية؛ قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وقوله: ﴿أَمْرِهِۦٓ﴾؛ واحد الأوامر، وليس واحد الأمور؛ لأن الأمر هو الذي يخالف فيه، وهو مفرد مضاف، فيعم جميع الأوامر التي جاءت عن الرسول ﷺ.

وقوله: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ الفتنة فسرها الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالشرك، وعلى هذا يكون الوعد بأحد أمرين: إما الشرك، وإما العذاب الأليم.

وقد يعظم رأيه وهواه على ما أمر به الرسول ﷺ؛ وهذا أيضًا من الفتنة؛ جاء رجل إلى الإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقال: من أين أُحرم؟، فقال له: من الميقات الذي وَقَّت رسول الله ﷺ وأحرم منه، فقال الرجل: فإن أحرمت من أبعد منه؟، فقال مالك: لا أرى ذلك، فقال: ما تكره من ذلك؟، قال: أكره عليك الفتنة، قال الرجل: وأيّ فتنة في ازدياد الخير؟، فقال مالك: فإن الله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وقَالَ الله تَعَالَى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

قوله: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾؛ الاستفهام هنا للتوبيخ؛ والمعنى: أفلا يطلبون إلا حكم الجاهلية، والحكم الذي يطلبونه يحتمل معنيين:

أحدهما: حُكم أهل الجاهلية الذين سبقوا الرسالة؛ فيريدون أن يعيدوا هذه الأمة إلى طريق الجاهلية التي أحكامها معروفة.

ثانيهما: حُكم الجهل الذي لا يبنى على العلم، سواء كانت عليه الجاهلية السابقة أم لم تكن، وهذا أعم.

والإضافة للجاهلية تقتضي التقبيح والتنفير مِن كل حكم يخالف حكم الله تعالى.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾، استفهام يتضمن النفي؛ أي: لا أحد أحسن من الله تعالى حكماً، وهذا النفي مشرب معنى التحدي.

والحكم هنا يشمل الكوني والشرعي.

فإن قيل: يوجد في الأحكام الكونية ما هو ضار مثل الزلازل والفيضانات وغيرها، فأين الحسن في ذلك؟.

الجواب: أن الغايات المحمودة في هذه الأمور تجعله حسنة، كما يضرب الإنسان ولده تربية له، فيعد هذا الضرب فعلاً حسناً، فكذلك الله عز وجل يصيب بعض الناس بهذه المصائب لتربيتهم، قال الله تعالى في القرية التي قلب الله عز وجل أهلها قردة خاسئين: ﴿ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٦٦]، وهذا الحسن في حكم الله تعالى، وكلما ازداد العبد يقيناً وإيماناً ازداد معرفة بحسن أحكام الله تعالى، وكلما نقص إيمانه ويقينه ازداد جهلاً بحسن أحكام الله تعالى، ولذلك تجد أهل العلم الراسخين فيه، إذا جاءت الآيات المتشابهات بينوا وجه ذلك بأكمل بيان ولا يرون في ذلك تناقضاً، وعلى هذا فإنه يتبين قوة الإيمان واليقين بحسب ما حصل للإنسان من معرفته بحسن أحكام الله جل وعلا الكونية والشرعية.

وقال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ١١].

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾؛ الإفساد في الأرض نوعان:

الأول: إفساد حسي مادي؛ وذلك مثل هدم البيوت وإفساد الطرق وما أشبه ذلك.

الثاني: إفساد معنوي؛ وذلك بالمعاصي؛ فهي من أكبر الفساد في الأرض، قال الله تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١].

وقوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾؛ هذه دعوى من أبطل الدعاوى، حيث قالوا: ما

حالنا وما شأننا إلا الإصلاح، ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾؛ فهؤلاء الذين يفسدون في الأرض ويدعون الإصلاح هم المفسدون حقيقة لا غيرهم.

ففيها التنبيه على عدم الاغترار بأقوال أهل الأهواء، وإن زخرفوها بالدعوى.

وفيها التحذير من الاغترار بالرأي ما لم يقم على صحته دليل من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ، فما أكثر من يصدق بالكذب ويكذب بالصدق إذا جاءه، وهذا من الفساد في الأرض، ويترتب عليه من الفساد أمور كثيرة، تخرج صاحبها عن الحق وتدخله في الباطل.

والمراد أن التحاكم إلى غير ما أنزل الله عز وجل من أكبر أسباب الفساد في الأرض.

وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ يشمل الفساد المادي والمعنوي كما سبق في توضيح الآية السابقة.

وقوله: ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ من قبل المصلحين، ومن ذلك الوقوف ضد دعوة أهل العلم، والوقوف ضد من ينادي بأن يكون الحكم بما في كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله لها ببعث الرسل، وبيان الشريعة والدعاء إلى طاعة الله، فإن عبادة غير الله والدعوة إلى غيره والشرك به هو أعظم فساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو بالشرك به ومخالفة أمره، فالشرك والدعوة إلى غير الله وإقامة معبود غيره، ومطاع متبع غير رسول الله ﷺ، هو أعظم فساد في الأرض، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود المطاع، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسوله ليس إلا، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول ﷺ، فإذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع ولا طاعة، ومن تدبر أحوال العالم وجد كل

صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله، وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسببه مخالفة رسوله والدعوة إلى غير الله ورسوله».

والمراد: أن التحاكم إلى ما أنزل الله هو الإصلاح، وإن التحاكم إلى غيره هو الإفساد.

وعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رضي الله عنه: أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ هَذِهِ الآية: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١]، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ؟!، قَالَ ﷺ: «أَلَيْسَ يُحَرِّمُوْنَ مَا أَحَلَّ الله فَتُحَرِّمُوْنَهُ، وَيُحِلُّوْنَ مَا حَرَّمَ الله، فَتُحِلُّوْنَهُ؟»، فَقُلْتُ: بَلَى، قَالَ ﷺ: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»[1].

قوله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ ﴾ الضمير يعود للنصارى؛ لأن اليهود لم يتخذوا المسيح ابن مريم إلهـًا، بل ادعوا أنه ابن زانية وحاولوا قتله، وادعوا أنهم قتلوه، ويحتمل أن يعود الضمير لليهود والنصارى جميعـًا، ويختص النصارى باتخاذ المسيح ابن مريم، وهذا هو المتبادر من السياق مع الآية التي قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾.

وقوله: ﴿أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ ﴾؛ الأحبار: جمع حبر، وحبر بفتح الحاء وكسرها؛ وهو العالم الواسع العلم، والرهبان: جمع راهب، وهو العابد الزاهد.

وقوله: ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: مشاركين لله عز وجل في التشريع؛ لأنهم يحلون ما حرم الله تعالى فيحله هؤلاء الأتباع، ويحرمون ما أحل

(١) رواه الترمذي برقم (٣٠٩٥)، وحسنه الألباني؛ انظر «سلسلة الأحاديث الصحيحة» برقم (٣٢٩٣).

الله تعالى فيحرمه الأتباع.

وتمام الآية مع توضيحها هو قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾؛ أي: اتخذوه إلها مع الله تعالى، بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾؛ والعبادة: التذلل والخضوع، واتباع الأوامر واجتناب النواهي؛ و﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ هو الله عز وجل، وإله؛ أي: مألوه معبود مطاع، و﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾؛ التسبيح: التنزيه؛ أي: تنزيه الله جل جلاله عن كل نقص، وقوله: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: مما سواه من المسيح ابن مريم والأحبار والرهبان، فهو متنزه عن كل شرك وعن كل مشرك به.

وقوله: «**إنا لسنا نعبدهم**»؛ أي: لا نعبد الأحبار والرهبان، ولا نسجد لهم ولا نركع ولا نذبح ولا ننذر لهم، وهذا صحيح بالنسبة للأحبار والرهبان، بدليل قوله: «**أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟!**».

وهذا الوصف لا ينطبق على عيسى عليه السلام أبداً، لأنه رسول الله، فما أحله، فقد أحله الله تعالى، وما حرمه، فقد حرمه الله سبحانه.

وقوله: «**فتلك عبادتهم**» ووجه كونها عبادة: أن من معنى العبادة الطاعة، وطاعة غير الله تعالى عبادة للمطاع، ولكن بشرط أن تكون في غير طاعة الله تعالى، أما إذا كانت في طاعة الله تعالى فهي عبادة لله سبحانه، لأنك أطعت غير الله عز وجل في طاعة الله تعالى، كما لو أمرك أبوك بالصلاة فصليت، فلا تكون قد عبدت أباك بطاعتك له، ولكن عبدت الله سبحانه، لأنك أطعت غير الله تعالى في طاعة الله عز وجل، ولأن أمر غير الله سبحانه بطاعة الله تعالى وامتثال أمره هو امتثال لأمر الله عز وجل.

واعلم أن اتباع العلماء أو الأمراء في تحليل ما حرم الله تعالى أو العكس؛ ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: أن يتابعهم في ذلك راضياً بقولهم، مقدماً له، ساخطاً لحكم الله سبحانه فهو كافر؛ لأنه كره ما أنزل الله عز وجل، فأحبط الله تعالى عمله، ولا تحبط الأعمال إلا بالكفر، فكل من كره ما أنزل الله جل وعلا، فهو كافر.

الثاني: أن يتابعهم في ذلك راضيـًا بحكم الله سبحانه وعالمـًا بأنه أمثل وأصلح للعباد والبلاد، ولكن لهوى في نفسه اختاره، كأن يريد مثلاً وظيفة، فهذا لا يكفر، ولكنه فاسق وله حكم غيره من العصاة.

الثالث: أن يتابعهم جاهلاً، فيظن أن ذلك حكم الله تعالى؛ فينقسم إلى قسمين:

مَن يمكنه أن يعرف الحق بنفسه، لكنه مفرط أو مقصر، فهذا آثم؛ لأن الله سبحانه أمر بسؤال أهل العلم عند عدم العلم.

ومَن لا يكون عالمـًا ولا يمكنه التعلم فيتابعهم تقليداً ويظن أن هذا هو الحق، فهذا لا شيء عليه؛ ولأنه فعل ما أمر به وكان معذور بذلك، ولذلك ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن مَن أُفْتِي بغير علم، فإنما إثمه على من أفتاه» [1]، لو قلنا: بإثمه بخطأ غيره، لزم من ذلك الحرج والمشقة، ولم يثق الناس بأحد لاحتمال خطئه.

* * *

(١) رواه أحمد في «المسند» (٢/ ٣٢١، ٣٦٥)، وأبو داود برقم (٣٦٥٧)، وابن ماجة برقم (٥٣)، وحسنه الألباني؛ انظر «المشكاة» (٢٤٢).

المسألة (الثامنة والثلاثون):
مِنَ الشِّرْكِ إِثْبَاتُ نِعْمَةِ الله تَعَالَى إِلَى غَيْرِهِ

المراد التأدب مع جناب الربوبية، والابتعاد عن الألفاظ الشركية؛ كنسبة النعم إلى غير الله تعالى، فإن ذلك باب من أبواب الشرك الخفي.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «شفاء العليل»: لما أضافوا النعمة إلى غير الله فقد أنكروا نعمة الله بنسبتها إلى غيره، فإن الذي يقول هذا جاحد لنعمة الله عليه غير معترف بها، وهو كالأبرص والأقرع الذين ذَكَّرَهُما المَلَكُ بنعم الله عليهما فأنكراها وقالا: إنما ورثنا هذا كابراً عن كابر، وكونها موروثة عن الآباء أبلغ في إنعام الله عليهم إذ أنعم بها على آبائهم ثم ورَّثهم إياها فتمتعوا هم وآباؤهم بنعمه.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [النحل: ٨٣].

قوله تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَ ﴾؛ أي: يدركون بحواسهم أن النعمة من عند الله تعالى.

وقوله: ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾؛ واحدة والمراد بها الجمع، فهي ليست واحدة، بل هي لا تحصى، قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وقوله: ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾؛ أي: ينكرون إضافتها إلى الله عز وجل لكونهم يضيفونها إلى السبب، متناسين المسبب الذي هو الله سبحانه وتعالى، وليس المعنى أنهم ينكرون هذه النعمة؛ مثل أن يقولوا: ما جاءنا مطر أو ولد أو صحة، ولكن ينكرونها بإضافتها إلى غير الله تعالى، متناسين الذي خلق السبب فوجد به المسبب.

وقوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾؛ أي: أكثر العارفين بأن النعمة من الله سبحانه الكافرون؛ أي: الجاحدون كونها من الله تعالى، أو الكافرون بالله عز وجل.

وقوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ﴾ بعد قوله: ﴿ يَعْرِفُونَ ﴾ الجملة الأولى أضافها إلى الكل،

والثانية أضافها إلى الأكثر، وذلك لأن منهم من هو عامي لا يعرف ولا يفهم، ولكن أكثرهم يعرفون ثم يكفرون.

فوصف الكفار بأنهم يعرفون نعمة الله جل وعلا، ثم ينكرونها، وإنكار النعمة أن تنسب إلى غير الله تعالى، وأن يُجعَل المتفضل بالنعمة غير الذي أسداها، وهو الله جل جلاله.

فالواجب على العبد أن يعلم أن كل النعم من الله جل وعلا، وأن كمال التوحيد لا يكون إلا بإضافة كل نعمة إلى الله جل وعلا، وأن إضافة النعم إلى غير الله تعالى نقص في كمال التوحيد، ونوع شرك بالله جل وعلا.

وإضافة النعمة إلى غير الله تعالى أحياناً إنما هو لأنهم أسباب تأتي النعم على أيديهم، وأسباب في إيصال النعمة إليك، فمن كان سبباً في معالجتك، أو سبباً في تعيينك، أو سبباً في نجاحك، أو نحو ذلك، لا يدل على أنه هو ولي النعمة، أو هو الذي أنعم، فإن ولي النعمة هو الرب جل وعلا، وهذا من كمال التوحيد؛ فإن القلب الموحد يعلم أنه ما ثَمّ شيء في هذا الملكوت إلا والله جل وعلا هو الذي يرسله، وهو الذي يمسك كما يشاء، قال الله سبحانه: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [فاطر: ٢]، فكل النعم من الله جل جلاله والعباد أسباب في ذلك.

فالواجب إذن أن تُنسب النعمة إلى المسبب لا إلى السبب؛ لأن السبب لو أراد الله عز وجل لأبطل كونه سبباً، وهذا السبب إذا كان آدمياً، فقلبه بين أصبعين من أصابع الله جل وعلا لو شاء لصده عن أن يكون سببا، أو أن ينفعك بشيء، فالله جل وعلا هو ولي النعمة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما من أحد تعلق بمخلوق إلا وخذل، وما من أحد تعلق بمخلوق في حصول النفع له أو اندفاع مكروه عنه إلا خذل، وهذا في غالب المسلمين».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهذا يتضمن قطع إضافة النعمة عن مَن لولاه لم تكن، وإضافتها إلى من لم يملك لنفسه ضرّاً ولا نفعاً فضلاً عن غيره، وغايته أن يكون جزءاً من أجزاء السبب أجرى الله نعمته على يد، والسبب لا يستقل بالإيجاد وجعله

سـببـاً هو من نعم الله عليـه، فهو المنعم بتلـك النعمـة، وهو المنعم بمـا جعلـه من أسبابها، فالسبب والمسبب من إنعامه، وهو تعالى كما أنه قد ينعم بذلك السبب، فقد ينعم بدونه ولا يكون له أثر، وقد يسلبه سببيته، وقد يجعل لها معارضـاً يقاومها، وقد يرتب على السبب ضد مقتضاه، فهو وحده المنعم على الحقيقة.

قـال الله تعـالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣]؛ فالعبد لا خروج له عن نعمة الله وفضله ومنته وإحسانه طرفة عين، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

شـرع تبارك وتعـالى في بيـان وحدانيـة ألهويتـه بأنه تعالى هو المنعم على عبيده بإخراجهم من العدم إلى الوجود وإسـباغه عليهم النعم الظاهرة والباطنة؛ فقال تعـالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ** ﴾؛ النداء هنا وجّه لعموم الناس؛ مما يدل على أن العبادة أهم شـيء؛ بل إنّ النـاس مـا خلقوا إلا للعبـادة، كمـا قـال الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقولـه تعـالى: ﴿**ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ**﴾؛ أي: تـذللوا لـه بـالطاعـة؛ وذلك بفعل الأوامر، واجتناب النواهي، ذلاً تامـاً ناشئـاً عن المحبة والتعظيم؛ و«الرب» هو الخالق المالك المُدَبِّر لشؤون خلقه ﴿**ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ**﴾؛ أي: أوجدكم من العدم ﴿**وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ**﴾؛ يعني: وخلق الذين من قبلكم؛ أي: سائر الأمم الماضية.

وقوله تعالى: ﴿**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾؛ «لعل» هنا للتعليل؛ أي لتصلوا إلى التقوى؛ لأن التقوى مرتبـة عالية لا ينالها كل أحد إلا من أخلص العبادة لله عز وجل، قال الله عزّ وجلّ في الجنة: ﴿**أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ

ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا﴾؛ أي: موطأة يستقر الإنسان عليها استقراراً كاملاً مهيأة له يستريح فيها، ليست نشَزاً؛ وليست مؤلمة عند النوم عليها، أو عند السكون عليها، أو ما أشبه ذلك؛ والله تعالى قد وصف الأرض بأوصاف متعددة: وصفها بأنها فراش، وبأنها ذلول، وبأنها مهاد.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا﴾ [النبأ: ١٢]؛ السماء جعلها الله بمنزلة البناء، وبمنزلة السقف، قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗا﴾ [الأنبياء: ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾؛ ليست هي السماء الأولى؛ بل المراد بـ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ هنا العلو؛ لأن الماء؛ الذي هو المطر، ينزل من السحاب، والسحاب بين السماء والأرض، قال الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النور: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]؛ وهذا نعرف أن السماء يطلق على معنيين؛ المعنى الأول: البناء الذي فوقنا؛ والمعنى الثاني: العلو.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجَ بِهِۦ﴾؛ أي: بسببه؛ ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ جمع ثمرة؛ وجمعت باعتبار أنواعها؛ ﴿رِزۡقٗا لَّكُمۡ﴾؛ أي: عطاء لكم.

وقوله: ﴿فَلَا﴾ هذه ناهية؛ أي: فلا تجعلوا له أنداداً في العبادة، كما أنكم لم تجعلوا له أنداداً في الربوبية، وأيضاً لا تجعلوا له أنداداً في أسمائه وصفاته، لأنهم قد يصفون غير الله تعالى بأوصاف الله عز وجل، كاشتقاق العزى من العزيز.

وقوله: ﴿أَندَادٗا﴾؛ جمع ند، وهو الشبيه والنظير، والمراد هنا: أنداداً في العبادة.

وقوله: ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾؛ أي: والحال أنكم تعلمون؛ والمعنى: وأنتم تعلمون

أنه لا أنداد له - يعني في الربوبية -؛ لأن هذا محط التقبيح من هؤلاء، أنهم يجعلون له أنداداً، وهم يعلمون أنه لا أنداد له في الربوبية، أما الألوهية، فيجعلون له أنداداً، قالوا للنبي ﷺ كما جاء في القرآن الكريم: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥]، ويقولون في تلبيتهم: «لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك»، وهذا من سفههم، فإنه إذا صار مملوكًا، فكيف يكون شريكًا، ولهذا أنكر الله تعالى عليهم في قوله سبحانه: ﴿**فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾، إذ الأنداد بالمعنى العام - بقطع النظر عن كونه يخاطب أقواما يقرون بالربوبية - يشمل الأنداد في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿**فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾؛ أي: لا تشركوا بالله شيئًا من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر، وأنتم تعلمون أنه ربكم لا رب لكم يرزقكم غيره، وقد علمتم أن الذي يدعوكم الرسول إليه من توحيده هو الحق الذي لا شك فيه.

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: قَالَ الله تعالى: «أَصْبَحَ منْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ الله وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤمنٌ بِالكَوْكَبِ»[1].

قد سبق هذا الحديث بتمامه في «الاستسقاء بالأنواء»؛ وجاء في أوله أنَّ زيدَ بن خالدٍ رضي الله عنه قال: صلَّى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصُّبْح بالحُدَيْبِية على إِثْر سماءٍ كانت مِنَ الليل، فلَمَّا انصرف أقْبَلَ على النَّاس فقال: «هَلْ تُدْرَوْنَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال رسولُ الله ﷺ: قال الله تعالى: «**أَصْبَحَ منْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بي وَكَافِرٌ...**».

فقوله: «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر**»، «**مؤمن**»؛ صفة لموصوف محذوف، أي: عبد مؤمن، وهكذا يقال في «**كافر**»؛ أي: عبد كافر.

---

(١) رواه البخاري برقم (٨٤٦)، ومسلم برقم (٧١).

وقوله: «**فأما من قال: مُطرنا بفضـل الله ورحمته**»؛ أي: قال بلسـانه وقلبه، والباء للسببية، والفضل: العطاء والزيادة، والرحمة: صفة من صفات الله تعالى، يكون بها الإنعام والإحسان إلى الخلق.

وقوله: «**فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب**»؛ لأنه نسب المطر إلى الله سبحانه ولم ينسبه إلى الكوكب، ولم ير له تأثيراً في نزوله، بل نزل بفضل الله تعالى.

وقوله: «**وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا**»، الباء للسـببية، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب، وصار كافراً بالله تعالى؛ لأنه أنكر نعمة الله جل وعلا ونسبها إلى سبب لم يجعله الله جل وعلا سبباً، فتعلقت نفسه بهذا السبب، ونسي نعمة الله سبحانه، وهذا الكفر لا يخرج من الملة؛ لأن المراد نسبة المطر إلى النوء على أنه سبب وليس النوء على أنه فاعل؛ لأنه قال: «**مطرنا بنوء كذا**»، ولم يقل: أنزل علينا المطر نوء كذا؛ لأنه لو قال ذلك، لكان نسبة المطر إلى النوء نسبة إيجاد.

وهذا هو الشاهد.

وأما المراد «**بالكوكب**» النجم، وكانوا ينسـبون المطر إليه، ويقولون: إذا سـقط النجم الفلاني جاء المطر، وليسوا ينسبونه إلى هذا نسبة وقت، فنسبة الوقت جائزة بأن يريد بقوله: مطرنا بنوء كذا؛ أي: جاءنا المطر في هذا النوء؛ أي: في وقته.

❊ ❊ ❊

المسألة (التاسعة والثلاثون):
فِي وُجُوْبِ تَعْظِيْمِ الله جَلَّ وَعَلَا فِي الأَلْفَاظِ وَأَنَّ النِّعَمَ يَجِبُ أَنْ تُنْسَبَ إِلَيْهِ، وَأَنْ يُشْكَرَ عَلَيْهَا

الواجب على العبد أن يتحرز في ألفاظه، وبخاصة فيما يتصل بالله جل وعلا أو بأسمائه وصفاته، أو بأفعاله وأنعامه، أو بعدله وحكمته.

والتحرز في هذا من كمال التوحيد؛ لأنه لا يصدر التحرز إلا عن قلب معظم لله سبحانه، يعلم أن الله جل جلاله مطلع عليه، وأنه سبحانه هو ولي الفضل، وهو ولي الإنعام، وهو الذي يستحق أن يُجل فوق كل جليل، وأن يحبّ فوق كل محبوب، وأن يعظم فوق كل معظم، فالله جل وعلا يجب توقيره، وتعظيمه في الألفاظ.

وأن الإنسان إذا أضاف النعمة إلى عمله وكسبه، ففيه نوع من الإشراك بالربوبية، وإذا أضافها إلى الله تعالى لكنه زعم أنه مستحق لهذا، وأن ما أعطاه الله تعالى ليس محض تفضل، لكن لأنه أهل، ففيه نوع من التعالي والترفع في جانب العبودية.

فلا بد من الحذر والانتباه.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [فصلت: ٥٠].

قوله تعالى: ﴿ **وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ** ﴾؛ الضمير يعود على الإنسان، وقيل: المراد به الكافر، والظاهر أن المراد به الجنس - أي: الإنسان -، إلا أنه يمنع من هذه الحال الإيمان.

وقوله: ﴿ **مِّنَّا** ﴾؛ أضافه الله تعالى إليه، لوضوح كونها من الله، ولتمام منته بها.

وقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ﴾؛ أي: أنه لم يذق الرحمة من أول أمره، بل أصيب بضــراء، كالفقر وفقد الأولاد وغير ذلك، ثم أذاقه بعد ذلك الرحمة حتى يحس بها وتكون لذتها والسرور بها أعظم؛ مثل الذائق للطعام بعد الجوع.

وقوله: ﴿مَسَّتۡهُ﴾؛ أي: أصابته وأثرت فيه.

وقوله: ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾؛ هذا كفر بنعمة الله سبحانه وتعالى وإعجاب بالنفس.

وقوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾؛ بعد أن انغمس في الدنيا نسي الآخرة، بخلاف المؤمن إذا أصابته الضـراء لجأ إلى الله عز وجل، ثم كشـفها، ثم وجد بعد ذلك لذة وسروراً يشكر الله تعالى على ذلك.

وقوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰ﴾؛ المعنى: على فرض أن أرجع إلى الله تعالى أن لي عنده الذي هو أحســن من هذا، واللام في ﴿لَلۡحُسۡنَىٰ﴾ للتوكيد.

وقوله: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾؛ أي: لنجزينهم.

وقوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾؛ يهدد الله تعالى من كان هذا عمله واعتقاده بالعقاب والنكال الشديد.

وَقَالَ رَسُــولُ الله ﷺ: «إنَّ ثَلَاثَةً مِنْ بَنِي إسْــرَائيل: أبْرَص، وأقْرَعَ، وأعْمَى؛ فأرَادَ الله أنْ يَبْتَلِيَهُمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكاً، فَأَتَى الأبْرَصَ، فَقَالَ أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟، قَالَ: لَوْنٌ حَسَنٌ وَجِلْدٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ، قَالَ: فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ، وَأُعْطِيَ لَوْناً حَسَناً، وَجِلْدَاً حَسَناً، فَقَالَ: أَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟، قَالَ: الْإِبِلُ، فأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ، وقَالَ: بَارَكَ الله لَكَ فِيهَا، فَأَتَى الْأَقْرَعَ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟، قَالَ: شَعَرٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا، قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ، قَالَ: فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عنه، وَأُعْطِيَ شَعَــرَاً حَسَنَاً، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟، قَالَ: الْبَقَرُ، قَالَ: فَأَعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلاً، وَقَالَ: بَارَكَ

اللهُ لَكَ فِيهَا، قَالَ: فَأَتَى الْأَعْمَى، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟، قَالَ: أَنْ يَرُدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي، فَأُبْصِرُ بِهِ النَّاسَ، قَالَ: فَمَسَحَهُ، فَرَدَّ اللهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟، قَالَ: الْغَنَمُ، فَأَعْطِيَ شَاةً وَالِدًا؛ فأنتج هذان، وولّد هَذَا، فكان لهذا وَادٍ مِنَ الإِبلِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ البَقَرِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الغَنَمِ، قال: ثُم إِنَّهُ أَتَى الأَبْرَصَ فِي صُوْرَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ، قَدِ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَاغَ لِيَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ وَالْمَالَ، بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ عَلَيْهِ فِي سَفرِي، فَقَالَ لَهُ: إِنَّ الحُقُوقَ كَثِيرَةٌ، فَقَالَ لَهُ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ، أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ، فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللهُ، فَقَالَ: لَقَدْ وَرِثْتُ هَذَا المالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ، وَأَتَى الْأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ لَهُ: مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا، قَالَ لَهُ: هَذَا المَالُ وَرِثْتُهُ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ، وَلَا أَذْكُر أَنَّنِي كُنْتُ كَذَلِكَ، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ، وَأَتَى الْأَعْمَى فِي صُورَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ، وَابْنُ سَبِيلٍ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَاغَ لِيَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي، فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى، فَرَدَّ ذاللهُ إِلَيَّ بَصَرِي، فَخُذْ مَا شِئْتَ وَدَعْ مَا شِئْتَ، فَوَاللهِ لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ للهِ، فَقَالَ: أَمْسِكْ مَالَكَ، فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ، فَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْكَ وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ»[1].

جميع القصص الواردة في القرآن وصحيح السنة ليس المقصود منها مجرد الخبر، بل يقصد منها العبرة والعظة مع ما تكسب النفس من الراحة والسرور؛ قال

(١) رواه البخاري برقم (٣٤٦٤)، ومسلم برقم (٦٩٦٤).

الله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف: ١١١].

وقوله: «**أبرص**»؛ أي: في جلده برص، والبرص داء معروف، وهو من الأمراض المستعصية التي لا يمكن علاجها بالكلية، وربما توصلوا أخيراً إلى عدم انتشارها وتوسعها في الجلد، لكن رفعها لا يمكن، ولهذا جعلها الله تعالى آية لعيسى عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ﴾ [المائدة: ١١٠].

وقوله: «**أقرع**»؛ من ليس على رأسه شعر.

وقوله: «**أعمى**»؛ من فقد البصر.

وقوله: «**فأراد الله**»؛ الإرادة هنا كونية.

وقوله: «**يبتليهم**»؛ أي: يختبرهم.

وقوله: «**ملكاً**» أحد الملائكة؛ هو عالم غيبي خلقهم الله تعالى من نور، وجعلهم قائمين بطاعة لله سبحانه، لا يأكلون ولا يشربون، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، لهم أشكال وأعمال ووظائف مذكورة في الكتاب والسنة، ويجب الإيمان بهم، وهم أحد أركان الإيمان الستة.

وقوله: «**قذرني**»؛ أي: استقذرني وكرهوا مخالطتي من أجله.

وقوله: «**به**» الباء للسببية؛ أي: بسببه.

وقوله: «**فمسحه**»؛ ليتبين أن لكل شيء سبباً، وبرئ بإذن الله عز وجل؛ «**فذهب عنه قذره**»؛ بدأ بذهاب القَذر قبل اللون الحسن والجلد الحسن، لأنه يبدأ بزوال المكروه قبل حصول المطلوب، كما يقال: التخلية قبل التحلية.

وقوله: «**عشراء**»؛ أي: حاملاً.

وقوله: «**قال: الغنم**» هذا يدل على زهده كما يدل على أنه صاحب سكينة وتواضع، لأن السكينة في أصحاب الغنم؛ وقد قال النبي ﷺ: «ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم»؛ فقال أصحابه رضي الله عنهم: وأنت يا رسول الله؟! فقال ﷺ: «نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة»[1].

وقوله: «**شاة والداً**»؛ أي: ستلد فهي قريبة الولادة، ويؤيده أن صاحبيه أعطيا أنثى

---

(١) رواه البخاري برقم (٢٢٦٢).

حاملاً، ولما يأتي من قوله: «**فأنتج هذان وولد هذا**»، والشيء قد يسمى بالاسم القريب، فقد يعبر عن الشيء حاصلاً وهو لم يحصل، لكنه قريب الحصول.

وقوله: «**فأنتج هذان**»؛ أي: حصل لهما نتاج الإبل والبقر.

وقوله: «**وولد هذا**»؛ أي: صار لشاته أولاد.

وقوله: «**رجل مسكين**»؛ والمسكين: الفقير، وسمي الفقير مسكيناً؛ لأن الفقر أسكنه وأذله، والغني الغالب يكون عنده قوة وحركة.

وقوله: «**وابن السبيل**»؛ أي: مسافر سمي بذلك لملازمته للطريق.

وقوله: «**انقطعت بي الحبال في سفري**» الحبال؛ أي: الأسباب، فالحبل يطلق على السبب وبالعكس، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ [الحج: ١٥]، ولأن الحبل سبب يتوصل به الإنسان إلى مقصوده.

وقوله: «**فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك**»؛ أي: لا شيء يوصلني إلى أهلي إلا بالله تعالى، ثم بك.

وقوله: «**أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن**»؛ السؤال هنا ليس سؤال استخبار بل سؤال استجداء؛ لأن «سأل» تأتي بمعنى استجدى وبمعنى استخبر، تقول: سألته عن فلان؛ أي: استخبرته، وسألته مالاً؛ أي: استجديته واستعطيته، وإنما قال: «**أسألك بالذي أعطاك**»، ولم يقل: أسألك بالله تعالى، لأجل أن يذكره بنعمة الله تعالى عليه، ففيه إغراء له على الإعانة لهذا المسكين؛ لأنه جمع بين أمرين: كونه مسكيناً وكونه ابن سبيل، ففيه سببان يقتضيان الإعطاء.

وقوله: «**أتبلغ به في سفري**»؛ أي: ليوصلني إلى أهلي.

وقوله: «**الحقوق كثيرة**»؛ أي: هذا المال الذي عندي متعلق به حقوق كثيرة ليس من حقك أنت فقط، وتناس - والعياذ بالله - أن الله جل وعلا هو الذي منّ عليه بالجلد الحسن واللون الحسن والمال.

وقوله: «**كأني أعرفك**»؛ الكاف هنا للتحقيق لا للتشبيه؛ والمعنى: إني أعرفك معرفة تامة.

وقوله: «**كابراً عن كابر**»؛ أنكر أن المال من الله عز وجل، لكنه لم يستطيع أن ينكر البرص؛ والمعنى: ممن يكبرني وهو الأب، عن كابر له وهو الجد، وقيل: المراد

الكبر المعنوي؛ أي: إننا شرفاء وسادة وفي نعمة من الأصل، وليس هذا المال مما تجدد، واللفظ يحتمل المعنيين جميعًا.

وقوله: «**إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت**»؛ أي: إن كنت كما ذكرت عن نفسك، فأبقى الله تعالى عليك هذه النعمة؛ وإن كنت كاذبًا وأنك لم ترثه كابراً عن كابر، فصيرك الله عز وجل إلى ما كنت من البرص والفقر.

وقوله: «**فوالله، لا أجهدك بشيء أخذته لله**»؛ الجهد: المشقة؛ والمعنى: لا أشق عليك بمنع ولا منّة، واعترافه بلسانه مطابق لما في قلبه، فيكون دالاً على الشكر بالقلب بالتضمين.

وقوله: «**خذ ما شئت ودع ما شئت**»، هذا من باب الشكر بالجوارح، فيكون هذا الأعمى قد أتم أركان الشكر.

وقوله: «**لله**»؛ اللام للاختصاص؛ والمعنى: لأجل الله سبحانه، وهذا ظاهر في إخلاصه لله تعالى، فكل ما تأخذه لله جل وعلا فأنا لا أمنعك منه ولا أردك.

وقوله: «**إنما ابتليتم**»؛ أي: اختبرتم، والذي ابتلاهم هو الله تعالى.

وقوله: «**فقد رضي الله عنك**»؛ لأنك شكرت نعمة الله تعالى بالقلب واللسان والجوارح.

وقوله: «**وسخط على صاحبيك**»؛ لأنهما كفرا نعمة الله سبحانه وأنكرا أن يكون الله جل جلاله هو الذي منّ عليهما بالشفاء والمال.

وقال النبي ﷺ: «مَنْ أُعْطِيَ عَطَاءً فَوَجَدَ فلْيَجْزِ بِهِ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَلْيُثْنِ بِهِ؛ فَمَنْ أَثْنَى بِهِ، فَقَدْ شَكَرَهُ، ومَنْ كَتَمَهُ فَقَدْ كَفَرَهُ، وَمَنْ تَحَلَّى بِبَاطِلٍ فَهُوَ كَلَابس ثَوْبَيْ زُورٍ»[(١)].

قوله: «**من أعطي عطاء فوجد**»؛ أي: كل من أعطي حقًا فليكن عارفًا بحقه، «**فـ**»إن «**وجد**» مالاً «**فليجز به**»، والمعنى: أن من صنع إليه معروفًا فيكافئه مقابل ما

---

(١) رواه أبو داود برقم (٤٨١٥)، والترمذي برقم (٢٠٣٤)، وصححه الألباني؛ انظر: «السلسلة الصحيحة» برقم (٦١٧).

حصل منه الإحسان، فيقابل الإحسان بالإحسان، فإذا كان ذا قدرة مالية؛ فإنه يكافئه ويجزي به، ذلك الذي أحسن إليه وأعطاه.

وقوله: «**فإن لم يجد فليثن به**»؛ أي: «**لم يجد**» مالاً «**فليثن به**» عليه، ولا يجوز له كتمان نعمته.

وقوله: «**فمن أثنى به فقد شكره**»؛ أي: من أثنى على من أحسن إليه بهذه النعمة، فقد شكره على ما أعطاه.

وفائدة التعبير بحرف الترتيب (الفاء) في كل الجمل: الإشارة إلى أن من أعطي لا يؤخر الجزاء عن الإعطاء.

وقوله: «**ومن كتمه فقد كفره**»؛ أي: كفر هذه النعمة، وهذا هو الشاهد من الحديث، ومعلوم أن الثناء والدعاء يمكن أن يكون مع المكافأة والعطاء، فالإنسان حتى إذا قدر على المبادلة والإحسان، فإنه أيضاً يدعو مع ذلك ويشكر عليه ويثني عليه بذلك، لكن إذا لم يكن عند الإنسان شيء يقابل به، فلا أقل من الثناء والدعاء لمن حصل منه الإحسان إليه.

وهذا في ما يكون بين الإنسان والإنسان، فكيف فيما يكون بين العبد وربه سبحانه وتعالى، فقد جاء عن النبي ﷺ: «التحدث بنعمة الله شكر وتركها كفر، ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير، ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله، والجماعة بركة والفرقة عذاب»[1].

وقال محمد بن علي الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ: الشكر انكشاف الغطاء عن القلب لشهود النعمة، والكثير انكشاف الشفتين عن الأسنان لوجود الفرج، فالشكر رؤية القلب النعمة من الله تعالى، والثناء عليه باللسان، والطاعة له بالأركان، ثم الاعتراف برؤية التقصير عن بلوغ شكره؛ لأن الشكر نعمة منه يجب الشكر عليها.

والإنسان يشكر المعروف الذي يسدي إليه، ومعلوم أن كل خير فهو من الله سبحانه وتعالى، فكل خير حصل للإنسان فالله تعالى هو المتفضل به، ومن الخير الذي يتفضل الله به على من يشاء من عباده أن يسوق إليه إنساناً يسخره له ويلين قلبه له بحيث يحسن إليه، وهذا الإحسان هو في الحقيقة من الله عز وجل؛ لأن الله تعالى

(١) رواه أحمد (٤/ ٢٨٧)، وحسنه الألباني؛ انظر «صحيح الجامع» برقم (٣٠١٤).

هو الذي وفق من أراد أن يحسن إليه للإحسان إليه، فهو سبحانه وتعالى متفضل بكل شيء، فعلى الإنسان أن يشكر الله عز وجل على كل النعم الظاهرة والباطنة؛ لأنها كلها من الله تقديراً وتوفيقاً، ومن ساق الله تعالى الخير على يديه لإنسان فإنه يشكره ويثني عليه ويدعو له، سواء كان هذا المعروف يتعلق بأمر دنيوي أو بأمر ديني.

وقوله: «**ومن تحلى بباطل فهو كلابس ثوبي زور**»؛ قال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان رجل في العرب يلبس ثوبين من ثياب المعاريف ليظنه الناس أنه رجل معروف محترم؛ لأن المعاريف لا يكذبون، فإذا رأه الناس على هذه الهيئة يعتمدون على قوله وشهادته على الزور لأجل تشبيهه نفسه بالصادقين، وكان ثوباه سبب زوره فسميا ثوبي زور.

وجاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: لمن قالت: يا رسول الله، إن لي ضَرَّة، فهل عليَّ جناح إن تشبعت من زوجي غير الذي يعطيني؟، فقال ﷺ: «المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور»(١)؛ المتشبع بما لم يعط؛ أي: المتكثر بما ليس عنده عند الناس المتزين بالباطل.

* * *

(١) رواه البخاري برقم (٥٢١٩)، ومسلم برقم (٢١٢٩).

المسألة (الأربعون):
فِي كَثْرَةِ الحَلِفِ

قوله: «**الحلف**»؛ هو اليمين والقسم، وهو تأكيد الشيء بذكر معظم بصيغة مخصوصة بأحد حروف القسم؛ وهي: الباء والواو، والتاء.

ومن الظاهر أن القلب المعظم لله جل جلاله، الذي إذا ذكر الله تعالى وَجِل قلبه، أنه لا يكثر الحلف؛ لأن كثرة الحلف لا تجتمع مع كمال التوحيد؛ فإن مَن كَمُل التوحيد في قلبه - أو قارب الكمال- لا يجعل الله جل وعلا عرضة لأيمانه.

فالذي إذا تكلم تكلم بالحلف، وإذا باع باع بالحلف، وإذا اشترى اشترى بالحلف، ونحو ذلك؛ لم يعظم التعظيم الواجب لله جل وعلا.

فإن الواجب على العبد أن يعظم الله سبحانه وتعالى، وأن لا يكثر اليمين.

والمقصود باليمين والحلف هنا اليمين المعقودة، التي عقدها صاحبها، أما لغو اليمين؛ فإن هذا معفو عنه، مع أن الكمال فيه والمستحب أن يخلّص الموحد لسانه وقلبه من كثرة الحلف - في الإكرام ونحوه- بلغو اليمين.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٤]

قوله: ﴿عُرْضَةً﴾؛ العرضة أصلها الشدة والقوة، ومنه قيل للدابة التي تتّخذ للسفر: عرضة؛ لقوتها عليه، ثم قيل لكل ما يصلح لشيء: هو عرضة له، حتى قالوا للمرأة: هي عرضة النكاح، إذا صلحت له، والعرضة كل ما يعرض فيمنع عن الشيء؛ وهذا هو المراد هنا.

فمعنى الآية: لا تجعلوا الحلف بالله سببًا مانعًا لكم عن البرّ والتقوى، يُدعى أحدكم إلى صلة رحم أو برّ، فيقول: حلفت بالله أن لا أفعله فيعتل بيمينه في ترك البر.

وقوله: ﴿أَن تَبَرُّواْ﴾؛ أي: أن لا تبروا، وكذلك ما عطف عليها ﴿وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: وأن لا تتقوا، وأن لا تصلحوا بين الناس، كقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء: ١٧٦]، أي: لئلا تضلوا.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هو الرجل يحلف ألا يصل قرابته، فجعل الله له مخرجًا في التكفير، وأمره ألا يعتل بالله وليكفر عن يمينه

وجاءت آية أخرى تؤكد هذا الأمر، وهي قول الله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ [النور: ٢٢]؛ أي: لا يحلفوا أن لا يؤتوا ذوي القرابة والمساكين شيئًا من أموالهم.

وفسرها بعض العلماء: بالمنع من كثرة الحلف، تقديسًا لاسم الله جل وعلا، ومنعًا من ابتذال اليمين، والتهاون بترداد اسم الجلالة على الألسن؛ لأن الحَلَّاف – أي: الكثير الحلف – مجترئ على الله، غير معظم له، كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ [القلم: ١٠]

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾؛ حلّاف: صيغة مبالغة؛ يعني: كثير الحلف؛ وكفى بها مزجرة لمن اعتاد الحلف، فهذه الآية فيها زجر عن كثرة الحلف؛ لأن بعض الناس يعتادون كثرة الحلف فيما يستحق وما لا يستحق، فهذه إشارة إلى ذم من يكثر الحلف، وأن الإنسان لا يحلف إلا في الأمور العظيمة، أو الأمور المهمة والجسيمة، لكن الحلف في كل شيء حتى وإن كان تافهًا ينبغي أن يتحرج منه الإنسان.

وقال أهل العلم: إن كثرة الحلف مذمومة، واستدلوا بهذه الآية، وأيضًا بقوله تعالى: ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]، وبأن النبي ﷺ لم يكن يكثر من الأيمان، وبأن من حام حول الحمى يوشك أن يواقعه؛ فإذا أكثر الشخص من الحلف أوشك أن يقع في الحلف على الحرام، أو الحلف المحرم، أو الحلف كاذبًا، أو الوقوع فيما حلف عليه، وينسى – لكثرة أيمانه – فلا يكفِّر، وأيضًا: بأن الله سبحانه

وتعالى وصف أهل النفاق أنهم يكثرون من الأيمان كي يصرفوا الناس عنهم، قال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً ﴾ [المجادلة: ١٦]؛ أي: وقاية يتقون بها أقوال الناس فيهم وأحكام الناس فيهم.

ومع هذا؛ فإن الحلف بالله تعالى عبادة من العبادات القولية التي تؤدى باللسان، وفيها تعظيم له سبحانه وتعالى، وفيها توحيد الله عز وجل، لذلك لا يجوز الحلف إلا بالله سبحانه وتعالى أو بأسمائه أو بصفاته أو بأفعاله، أما الحلف بالمخلوقين فهو شرك، كما قال النبي ﷺ: «من حلف بغير الله فقد أشرك»[(١)]، و«من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت»[(٢)]، فلا يجوز الحلف بغير الله، لا بنبي، ولا بولي، ولا بملك، ولا أب، ولا شرف،... ولا غير ذلك، حتى النبي محمد ﷺ، وما سمعنا أن واحداً من الصحابة رضي الله عنهم جميعًا حلف بالنبي ﷺ، لأنهم كانوا يعرفون أن هذه عبادة ولا يجوز أن تصرف إلا لله تعالى.

وقوله: ﴿مَّهِينٍ﴾؛ أي: حقير.

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿حَلَّافٖ مَّهِينٍ﴾؛ هو أبو جهل بن هشام.

وقَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾ [المائدة: ٨٩].

هذه جزء من آية؛ وهي بتمامها يقول الله تعالى: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾.

وقوله: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾ ذكرها الله عز وجل في سياق كفارة اليمين، وكل يمين لها ابتداء وانتهاء ووسط، فالابتداء الحلف، والانتهاء الكفارة، والوسط

---

(١) رواه أبو داود برقم (٣٢٥١)، والترمذي برقم (١٥٣٥)، وصححه الألباني: انظر «إرواء الغليل» برقم (٢٥٦١).

(٢) رواه البخاري برقم (٦٦٤٦).

الحنث؛ وهو أن يفعل ما حلف على تركه، أو يترك ما حلف على فعله، وعلى هذا كل يمين على شيء ماض فلا حنث فيه، وما لا حنث فيه فلا كفارة فيه، لكن إن كان صادقًا، فقد بر، وإلا، فهو آثم؛ لأن الكفارة لا تكون إلا على شيء مستقبل.

وحفظ اليمين يشمل أحواله الثلاثة؛ لأن من معنى حفظ اليمين عدم كثرة الحلف.

والمراد بعدم كثرة الحلف: ما كان معقوداً ومقصوداً، أما ما يجرى على اللسان بلا قصد؛ مثل: لا والله، وبلى والله، فلا مؤاخذة فيه، لقوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ [المائدة: ٨٩].

وكذلك من حفظ اليمين عدم الحنث فيها، وهذا فيه تفصيل؛ لأن النبي ﷺ قال لعبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه: «إذا حلفت على يمين، فرأيت غيرها خيراً منه، فكفر عن يمينك، وَأْتِ الذي هو خير»[1].

فحفظ اليمين في الحنث أن لا يحنث إلا إذا كان خيراً، وإلا، فالأحسن حفظ اليمين وعدم الحنث؛ مثال ذلك: رجل قال: و الله لا أكلم فلانـًا؛ وهو من المؤمنين الذين يحرم هجرهم، فهذا يجب أن يحنث في يمينه ويكلمه وعليه الكفارة؛ مثال آخر: رجل قال: والله لأعينن فلانـًا على شيء محرم؛ فهذا يجب الحنث فيه والكفارة، ولا يعينه، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

وإذا كان الأمر متساويـًا والحنث وعدمه سواء في الإثم، فالأفضل حفظ اليمين.

كذلك من حفظ اليمين إخراج الكفارة بعد الحنث، والكفارة واجبة فوراً؛ لأن الأصل في الواجبات هو الفورية، وهو قيام بما تقتضيه اليمين.

والكفارة هي: إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة، وهذا على سبيل التخيير، فمن لم يجد، فصيام ثلاثة أيام.

وَقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «الحَلِفُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مُمْحِقَةٌ لِلكَسْبِ»[2].

قوله: «**الحلف**»؛ المراد به هنا الحلف الكاذب، كما في رواية: «اليمين الكاذبة»[3]،

(١) رواه البخاري برقم (٢٠٨٧)، ومسلم برقم (١٦٠٦).

(٢) رواه البخاري برقم(٢٠٨٧)، ومسلم برقم (١٦٠٦).

(٣) رواها أحمد (٢/ ٢٣٥).

أما الصادقة، فليس فيها عقوبة، لكن لا يكثر منها كما سبق.

وقوله: «**منفقة للسلعة**»؛ أي: ترويج للسلعة، مأخوذ من النَّفاق؛ وهو مضي الشيء ونفاذه.

وقوله: «**ممحقة للكسب**»؛ أي: متلفة له؛ والإتلاف يشمل الإتلاف الحسي؛ بأن يسلط الله تعالى على ماله شيئًا يتلفه من حريق أو نهب أو مرض يلحق صاحب المال فيتلفه في العلاج، والإتلاف المعنوي؛ بأن ينزع الله عز وجل البركة من ماله فلا ينتفع به دينًا ولا دنيا، وكم من إنسان عنده مال قليل، لكن نفعه الله سبحانه به ونفع غيره ومن وراءه، وكم من إنسان عنده أموال كثيرة لكن لم ينتفع بها؛ لأن البركة قد محقت.

وَقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ الله وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيْم: أُشَيْمِطٌ زَانٍ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ، وَرَجُلٌ جَعَلَ الله بِضَاعَتَهُ، لَا يَشْتَرِي إلا بِيَمِيْنِهِ، وَلَا يَبِيْعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ»[(١)].

قوله: «**ثلاثة لا يكلمهم الله**»؛ التكليم: هو إسماع القول، وأما ما يقدره الإنسان في نفسه، فلا يسمى كلامًا على سبيل الإطلاق، وإن كان يسمى قولاً وكلامًا بالتقييد بالنفس، كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ﴾ [المجادلة: ٨]، وقال عمر رضي الله عنه في قصة السقيفة: «**زورت في نفسي كلامًا**»؛ أي: قدرته.

فالكلام عند الإطلاق لا يكون إلا بحرف وصوت مسموع.

وكلام الله سبحانه وتعالى حقيقي يسمع، ولكن الصوت ليس كأصوات المخلوقين، أما ما يسمع من كلام الله جل جلاله، فلا شك أنه بحروف يفهمها المخاطب، إذ لو كان يتكلم بحروف لا تشبه الحروف التي يتكلم بها المخاطب لم يفهم كلامه أبداً، فالحروف التي تسمع هي حروف اللغة التي يخاطب الله تعالى بها من يخاطبه، والله عز وجل يخاطب كل أحد بلغته.

ونفي الكلام هنا دليل على إثبات أصله؛ لأنه لما نفاه عن قوم دل على ثبوته لغيرهم.

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٦/ ٢٤٦)، وصححه الألباني؛ انظر: «صحيح الجامع» برقم (٣٠٧٢).

وبهذه الطريقة استدل بعض أهل العلم على إثبات رؤية الله جل وعلا يوم القيامة للمؤمنين بقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]؛ فما حجب الفجار عن رؤيته إلا ورآه الأبرار، إذ لو امتنعت الرؤية مطلقًا لكان الفجار والأبرار سـواء فيها، كذلك هنا لو انتفى كلام الله تعالى عن كل أحد، فلا وجه للتخصيص بنفي الكلام عن هؤلاء.

ولا يلزم من كلامه - سبحانه وتعالى - أن يكون له آلة كالآدمي، كاللسان، والأسنان، والحلق، وما أشبه ذلك، كما لا يلزم من سماع الله سبحانه وتعالى أن يكون له أذن، فالأرض مثلاً تسمع وتحدث وليس لها لسان ولا آذان، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٤-٥]، وكذا الجلد ينطق يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠]، وكذا الأيدي والأرجل، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]؛ فالأيدي والأرجل والألسن والجلود والسمع والأبصار ليس لها لسان ولا شفتان، وهذا هو المعلوم لنا.

فإن قيل: إن الله جل وعلا يكلم من هو أعظم منهم جرمًا وهم أهل النار؟.

فالجواب: أن المراد بنفي الكلام هنا كلام الرضى، أما كلام الغضب والتوبيخ، فإن هذا الحديث لا يدل على نفيه.

وقوله: «**ولا يزكيهم**»؛ التزكية: بمعنى التوثيق والتعديل، فيوم القيامة لا يوثقهم، ولا يعدلهم، ولا يشهد عليهم بالإيمان، لما فعلوه من هذه الأفعال الخبيثة.

وقوله: «**أشيمط زان**»؛ هو الذي اختلط سواد شعره ببياضه لكبر سنه، وكبير السن قد بردت شهوته، وليس فيه ما يدعوه إلى الزنى، ولكنه زنى مما دل على سوء في إرادته، ولأنه عادة قد بلغ اشده واستوى وعرف الحكمة، وملكه عقله أكثر من هواه، فالزنى منه غريب، إذ ليس عن شهوة ملحة، وكأن تقادم سنه يستلزم أن يغلب جانب العقل، لكنه خالف مقتضى ذلك، ولهذا صغره تحقيراً لشأنه، فقال: «**أُشيمط**» تصغير أَشمط.

والزنى فعل الفاحشة في قبل أو دبر، وقد نهى الله سبحانه عنه وبين أنه فاحشة، فقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

وقوله: «**عائل**»؛ أي: فقير.

وقوله: «**مستكبر**»؛ الاستكبار: الترفع والتعاظم؛ وهو نوعان:

النوع الأول: استكبار عن الحق بأن يرده أو يترفع عن القيام به.

والنوع الثاني: استكبار على الخلق باحتقارهم واستذلالهم، كما قال النبي ﷺ: «الكبر بطر الحق وغمط الناس» [(١)].

فالفقير داعي الاستكبار عنده ضعيف، فيكون استكباره دليلاً على ضعف إيمانه وخبث طويته، ولذلك كانت عقوبته أشد.

وقوله: «**ورجل جعل الله بضاعته، لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه**»؛ أي: جعل الحلف بالله تعالى بضاعة له، وإنما ساغ التأويل هنا؛ لأن النبي ﷺ هو الذي فسره بذلك، حيث قال: «**لا يشتري إلا بيمينه...**»؛ ومعناها: أنه كلما اشترى حلف، وكلما باع حلف طلباً للكسب، واستحق هذه العقوبة؛ لأنه إن كان صادقًا، فكثرة أيمانه تشعر باستخفافه واستهانته باليمين، ومخالفته قوله تعالى: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾، وإن كان كاذباً جمع بين أربعة أمور محذورة: استهانته باليمين، ومخالفته أمر الله تعالى بحفظ اليمين، وكذبه، وأكله المال بالباطل، وأن يمينه يمين غموس، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «من حلف على يمين هو فيها فاجر، يقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان» [(٢)].

وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: «خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُوْنَهُمْ، ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُوْنَهُمْ - قَالَ عِمْرَانُ: فَلَا أَدْرِي أَذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا؟ -، ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُوْنَ وَلَا يُسْتَشْهَدُوْنَ، وَيَخُوْنُوْنَ وَلَا يُؤْتَمَنُوْنَ، وَيَنْذِرُوْنَ وَلَا يُوْفُوْنَ، وَيَظْهَرُ فِيْهِمُ السِّمَنُ» [(٣)].

«**عمران بن حصين**» ابن عبيد بن خلف الخزاعي، أبو نُجَيْد، صحابي جليل مشهور، مات سنة اثنتين وخمسين بالبصرة، رضي الله عنه.

---

(١) رواه مسلم برقم (٩١).

(٢) رواه البخاري برقم (٢٣٥٦)، ومسلم برقم (١٣٨).

(٣) رواه البخاري برقم(٣٦٥٠)، ومسلم برقم (٢٢٣٥).

وقوله: «**خير أمتي قرني**»، وفي لفظ: «خيركم قرني»، وفي لفظ آخر: «خير الناس قرني»، وعليه فإن هذه الأمة خير الأمم، فإذا كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جميعاً خير قرونها لزم أن يكونوا خير الناس.

والقرن مأخوذ من الاقتران؛ والمراد: الطائفة المقترنون بشيء من الأشياء، كالملة، أو السن، وما أشبه ذلك.

فمن العلماء من عَرَّفَه: بالطائفة، ومنهم من عَرَّفه بالزمن، وهؤلاء اختلفوا فيه على أقوال: فمنهم من حده بأربعين، ومنهم من حده بثمانين، ومنهم من حده بمئة، ومنهم من حده بمئة وعشرين سنة؛ والصواب ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: من أن القرن معتبر بمعظم الناس، فإذا كان معظم الناس الصحابة، فالقرن قرنهم، وإذا كان معظم الناس التابعين، فالقرن قرنهم، وهكذا.

وقوله: «**أمتي**»؛ المراد أمة الإجابة؛ لأن أمة الدعوة إذا لم يؤمنوا فليس فيهم خير.

وقوله: «**فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً**»، إذا كان عمران رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لا يدري فغيره من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جميعاً حفظوا، وذكروا أن القرون المفضلة ثلاثة، وهذا هو المشهور.

وقوله: «**يشهدون**»؛ أي: يخبرون عما علموه مما شاهدوه أو سمعوه أو لمسوه أو شموه؛ لأن الشهادة إخبار الإنسان بما يعلم.

وقوله: «**ولا يستشهدون**»؛ أي: لا يطلب منهم تحمل الشهادة؛ وهم الذين يشهدون بغير علم، فهم شهداء زور، أو أنه لا يطلب منهم أداء الشهادة، وهم الذين يؤدون الشهادة قبل أن يدعوا لأدائها، فيكون ذلك دليلاً على تسرعهم في أداء الشهادة وعدم اهتمامهم بها، ودليلاً على استخفافهم بها.

وما هذا إلا لقلّة دينهم وقلّة أمانتهم، وهذا نقضٌ في التّوحيد، فيكون هذا الصنيع مشابهاً كثرة الحلف؛ لأنّ الشهادة حلف، كما قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ [المنافقون: ١-٢]، فسمّى الشهادة يميناً، وهذا يتضمّن كثرة شهاداتهم، لأنّهم ما داموا أنهم مستعدِّين للشهادة؛ فهذا دليلٌ على أنّهم ليس عندهم تمنُّع، فتكثُر شهاداتهم، وكثرة شهاداتهم دليلٌ على استخفافهم بالشهادة.

ولكن هذا القول يشكل عليه حديث زيد بن خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ قال: «ألا

أخبركم بخير الشهداء: الذي يأتي بالشهادة قبل أن يسألها»[(١)]؛ فهذا ترغيب في أداء الشهادة قبل أن يسألها، وظاهره: أنه معارض لحديث عمران رضي الله عنه، فجمع بعض العلماء بينهما بأن المراد بحديث زيد رضي الله عنه من يشهد بحق لا يعلمه المشهود له.

إذن فالشّاهد يجب عليه أن يكون أميناً في شهادته ولا يشهد إلاّ بالحق؛ قال الله تعالى: ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف: ١]، يعلمون ما شهدوا به، ويتيقّنونه، ولا يشهدون بموجِب الظنّ، وإنّما يشهدون بشيء يعلمونه ويتأكّدونه.

وقوله: «**يخونون ولا يؤتمنون**»؛ هذا هو الوصف الثاني لهم؛ أي: أنهم أهل خيانة وليس أهل أمانة، فلا يأتمنهم الناس، وليس المعنى أنه تقع منهم الخيانة بعد الائتمان حتى يقال: لماذا لم يقل: يؤتمنون ويخونون؟ فكأن الخيانة طبيعة لهم، فلخيانتهم لا يؤتمنون.

والخيانة: الغدر والخداع في موضع الائتمان، وهي من الصفات المذمومة بكل حال.

وقوله: «**ولا يؤتمنون**»؛ أي: ليسوا أهلاً للأمانة، فلا يؤتمنون على الدماء ولا على الأموال، ولا على الأعراض، ولا أي شيء.

وقوله: «**وينذرون ولا يوفون**»، هذا الوصف الثالث لهم؛ والنذر: إلزام الإنسان نفسه بالشيء، وقد يكون للآدمي، وهذا بمعنى العهد الذي يوقعه الإنسان بينه وبين غيره، وقد يكون لله تعالى، كنذر العبادة يجب الوفاء به، فهم ينذرون لله سبحانه ولا يوفون له، ويعاهدون المخلوق ولا يوفون له، وهذا من صفات النفاق.

وقوله: «**ويظهر فيهم السمن**»، هذا هو الوصف الرابع لهم؛ «**السمن**» كثرة الشحم واللحم، وهذا الحديث ظاهره مشكل؛ لأن ظهور السمن ليس باختيار الإنسان فكيف يكون صفة ذم؟!.

قال أهل العلم: المراد أن هؤلاء يعتنون بأسباب السمن من المطاعم والمشارب والترف، فيكون همهم إصلاح أبدانهم وتسمينها.

أما السمن الذي لا اختيار للإنسان فيه، فلا يذم عليه، كما لا يذم الإنسان على كونه طويلاً أو قصيراً أو أسود أو أبيض، لكن يذم على شيء يكون هو السبب فيه.

---

(١) رواه مسلم برقم (١٧١٩).

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُوْنَهُمْ، ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُوْنَهُمْ، ثُمَّ يَجِيْءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِيْنَهُ، وَيَمِيْنَهُ شَهَادَتَهُ» (١).

قوله: «**خير الناس**»، دليل على أن قرنه خير الناس، فصحابته ﷺ أفضل من الحواريين الذين هم أنصار عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأفضل من النقباء السبعين الذين اختارهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وهذه الأفضلية أفضلية من حيث العموم والجنس، لا من حيث الأفراد، فلا يعني أنه لا يوجد في تابعي التابعين من هو أفضل من التابعين، أو لا يوجد في التابعين من هو أعلم من بعض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، أما فضل الصحبة، فلا يناله أحد غير الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ولا أحد يسبقهم فيه، وأما العلم والعبادة، فقد يكون فيمن بعد الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من هو أكثر من بعضهم علماً وعبادة.

وقوله: «**ثم يجيء قوم**»؛ أي: بعد القرون الثلاثة.

وقوله: «**تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته**»؛ يحتمل ذلك وجهين:

الأول: أنه لقلة الثقة بهم لا يشهدون إلا بيمين، فتارة تسبق الشهادة وتارة تسبق اليمين.

والثاني: أنه كناية عن كون هؤلاء لا يبالون بالشهادة ولا باليمين، حتى تكون الشهادة واليمين في حقهم كأنهما متسابقتان.

والمعنيان لا يتنافيان، فيحمل عليهما الحديث جميعاً.

* * *

(١) رواه البخاري برقم(٢٦٥٢)، ومسلم برقم (٢٥٣٣).

المسألة (الحادية والأربعون):
فِيمَنْ لَمْ يَقْنَعْ بِالحَلِفِ بِالله تَعَالَى

قوله: «**لم يقنع بالحلف بالله تعالى**»؛ الاقتناع بالحلف بالله تعالى من تعظيم الله عز وجل؛ لأن الحالف أكد ما حلف عليه بالتعظيم باليمين وهو تعظيم المحلوف به، فيكون من تعظيم المحلوف به أن يصدق ذلك الحالف، وعلى هذا يكون عدم الاقتناع بالحلف بالله تعالى فيه شيء من نقص تعظيم الله سبحانه، وهذا ينافي كمال التوحيد.

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ الله فَقَدْ كَفَرَ أَو أَشْرَك»(١).

قوله: «**من حلف**»؛ الحلف معناه تأكيد الشيء بذكر معظم، والإنسان لا يحلف بشيء إلا لأنه عظيم في نفسه، فكأنه يقول بقدر عظمة هذا المَحْلُوف به أني صادق، ولهذا وجب الحلف بالله عز وجل أو بصفة من صفاته أو بأي اسم من أسمائه سبحانه وتعالى.

وحروف القسم ثلاثة: الواو والباء والتاء؛ فمثال الواو: والله لأفعلن كذا، والباء: بالله لأفعلن كذا، والتاء: تالله لأفعلن كذا، قال الله تعالى: ﴿ **وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ** ﴾ [الأنعام: ١٠٩]؛ ﴿**يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ**﴾ [التوبة: ٦٢]؛ وقال تعالى: ﴿**تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ**﴾ [الصافات: ٥٦]؛ وقال تعالى: ﴿ **فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ** ﴾ [النساء: ٦٥].

ثم قد يكون القسم بغير الله كفراً أكبر وقد يكون كفراً أصغر؛ وكذلك قد يكون

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٢/ ٣٤، ٨٦) وأبو داود برقم (٣٢٥١)، والترمذي برقم (١٥٣٥)، وصححه الألباني؛ انظر «صحيح الجامع» (٦٢٠٤).

شركـًا أكبر وقد يكون شركـًا أصغر؛ فإذا اعتقد الحالف في شيء أن هذا الشيء له من العظمـة مثل ما لله تعالى فإن هذا شـرك أكبر، وإن اعتقد أن له عظمة دون عظمة الله فهو شـرك أصـغر؛ لأنـه وسـيلة للأكبر، وكانوا في الجاهلية قد اعتادوا أن يحلفوا بـآبـائهم، فنهى النبي ﷺ عنه، وقـال ﷺ: «لا تحلفوا بآبائكم»؛ يعني: ولا بإخوانكم ولا بـأجدادكم ولا برؤسـائكم...، لكن خص الآبـاء بـالـذكر؛ لأن هـذا هو المعتـاد عندهم، وقال ﷺ: «من كان حالفـًا فليحلف بالله أو ليسكت»؛ يعني: إما ليحلف بالله أو لا يحلف؛ أما أن يحلف بغير الله فلا يجوز.

وقوله: «**من حلف بغير الله**» يشمل كل محلوف به سوى الله تعالى، سواء بالكعبة أو الرسول ﷺ أو السماء أو غير ذلك، ولا يشمل الحلف بصفات الله عز وجل؛ لأن الصفة تابعة للموصوف، وعلى هذا فيجوز أن تقول: وعزة الله لأفعلن كذا.

وقولـه: «**بغير الله**»؛ ليس المراد بغير هـذا الاسـم، بل المراد بغير المسـمى بهذا الاسم، فإذا حلف بالله أو بالرحمن أو بالسميع، فهو حلف بالله عز وجل.

وقوله: «**كفر أو أشـرك**»؛ قيل: شـك من الراوي؛ تنبيه: وقع في بعض النسـخ بلفظ أو، ووقع في بعضها بالواو؛ أي: «كفر وأشرك» للمبالغة في الزجر والتغليظ في ذلك.

وَقَالَ رَسُـوْلُ الله ﷺ:« لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ حَلَفَ بِالله فَلْيَصْدُقْ، وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِالله فَلْيَرْضَ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ فَلَيْسَ مِنَ الله» [1].

قوله: «**لا تحلفوا**»، «**لا**»؛ ناهية، و«**آباؤكم**»؛ جمع أب، ويشمل الأب والجد، وإن علا، فلا يجوز الحلف بهم؛ لأنه شرك.

وقوله: «**من حلف بالله، فليصدق**»؛ هذا أمر للحالف بأن يكون صادقـًا؛ والصدق: هو الإخبـار بمـا يطـابق الواقع، وضـده الكـذب؛ وهو: الإخبـار بمـا يخالف الواقع، فقوله: «**من حلف بالله، فليصدق**»، أي: فليكن صادقـًا في يمينه.

وهل يشترط أن يكون مطابقـًا للواقع أو يكفي الظن؟.

الجواب: يكفي الظن، فله أن يحلف على ما يغلب على ظنه، كقول الرجل للنبي

---

(١) رواه ابن ماجه برقم (٢١٠)، صححه الألباني؛ انظر «صحيح الجامع» برقم (٧٢٤٧).

ﷺ: والله ما بين لابتيها أهل بيت أفقر مني، فأقره النبي ﷺ(١).

وقوله: «**ومن حلف له بالله، فليرض**» وهذا أمر للمحلوف له بأن يرضى بيمين الحالف له.

فإذا قرنت هذين الأمرين بعضهما ببعض، فإن الأمر الثاني ينزل على إذا كان الحالف صادقًا؛ لأن الحديث جمع أمرين: أمراً موجهًا للحالف، وأمراً موجهًا للمحلوف له، فإذا كان الحالف صادقًا، وجب على المحلوف له الرضى.

فإن قيل: إن كان صادقًا فإننا نصدقه وإن لم يحلف؟.

أجيب: بأن اليمين تزيده توكيداً.

وقوله: «**ومن لم يرض، فليس من الله**»؛ أي: من لم يرض بالحلف بالله تعالى إذا حلف له، فليس من الله سبحانه، وهذا تبرؤ منه، يدل على أن عدم الرضى من كبائر الذنوب.

* * *

---

(١) رواه البخاري برقم (١٩٣٦)، ومسلم برقم (١١١١).

المسألة (الثانية والأربعون):
فِيْمَنْ يَقُول: اللهمّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ

حقيقة التوحيد أن يوحد العبد ربه جل جلاله بتمام الذل والخضوع والمحبة، وأن يتضرع إلى الله جل وعلا، ويتذلل إليه بإظهار فقره التام إليه، وأن الله عز وجل هو الغني عما سواه.

وقوله: «**مَن يقول: اللهم اغفر لي إن شئت**»؛ يفهم منه أنه مستغن عن أن يغفر له، كما يأتي العزيز أو المتكبر من الناس فيقول لآخر لا يريد أن يتذلل له: «افعل هذا إن شئت»؛ يعني إن فعلت ذلك فحسن، وإن لم تفعل فلستُ بمُلِحٍّ عليك، ولستَ بذي إكرام، فهذا القول مناف لحاجة الذي قالها إلى الآخر.

ولهذا كان فيه عدم تحقيق للتوحيد، ومنافاة لما يجب على العبد في جناب ربوبية الله جل وعلا من أن يظهر حاجته لربه تعالى، وأنه لا غنى به عن مغفرة الله سبحانه، وعن غنى الله جل جلاله، وعن عفوه وكرمه وإفضاله ونعمه طرفة عين.

قَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمُ: اللهمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللهمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، لِيَعْزِمِ المَسْأَلَةَ، فَإِنَّ الله لَا مُكْرِهَ لَهُ»[(١)].
وَفِي رِوَايَة: «وَلِيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ، فَإِنَّ الله لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْء أَعْطَاهُ»[(٢)].

قوله ﷺ: «**لا يقل أحدكم**»؛ لا: ناهية، بدليل جزم الفعل بعدها.

وقوله: «**اللهم اغفر لي، اللهم ارحمني**»؛ ففي الجملة الأولى: «**اغفر لي**» النجاة من المكروه، وفي الثانية: «**أرحمني**» الوصول إلى المطلوب؛ فيكون هذا الدعاء شاملاً لكل ما فيه حصول المطلوب وزوال المكروه.

---
(١) رواه البخاري برقم (٦٣٣٩)، ومسلم برقم (٢٦٧٩).
(٢) رواها مسلم برقم (٢٦٧٩) (٨).

وقوله: «**ليعزم المسألة**»؛ عزم المسألة أن لا يكون في تردد، بل يعزم بدون تردد ولا تعليق؛ و«**المسألة**»: السؤال؛ أي: ليعزم في سؤاله فلا يكون متردداً بقوله: إن شئت.

قال العلماء: عزم المسألة؛ الشدة في طلبها، والجزم من غير ضعف في الطلب، ولا تعليق على مشيئة ونحوها.

وقوله: «**فإن الله لا مكره له**» تعليل للنهي؛ أي: لا أحد يكرهه على ما يريد فيمنعه منه، أو ما لا يريد فيلزمه بفعله، لأن الأمر كله لله وحده.

وقوله: «**وليعظم الرغبة**»؛ أي: ليسأل ما شاء من قليل وكثير، ولا يقل: هذا كثير لا أسأل الله إياه، ولهذا قال: «**فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه**»؛ أي: يعطي سبحانه ما يشاء ما لا يعلمُه إلّا هو، بلا حصر ولا حساب، ولا تنفد خزائنُه سبحانه، فإنّه غنيّ لا يتعاظمه شيء أعطاه، ولذلك: يعطي الجنّة التي هي غاية المطالب، ويعطي الدنيا والآخرة سبحانه وتعالى، يعطي بلا حساب، ولا تنفد خزائنه، كما في الحديث القدسي: «يا عبادي، لو أنّ أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيتُ كلّ واحدٍ ما سألني ما نقص ذلك مما عندي إلّا كما ينقُص المِخْيَط إذا أُدخل البحر...»[1]، هذا شأنه سبحانه وتعالى.

* * *

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٥٧٧).

المسألة (الثالثة والأربعون):
فِي قَوْل: مَا شَاءَ الله وَشِئْتَ

قوله: «**ما شاء الله وشئت**»، من الشرك الأكبر أو الأصغر؛ لأنه إن اعتقد أن المعطوف مساوٍ لله تعالى، فهو شرك أكبر، وإن اعتقد أنه دونه لكن أشرك به في اللفظ، فهو أصغر.

وقد ذكر بعض أهل العلم: أن من جملة ضوابط الشرك الأصغر أن ما كان وسيلة للأكبر فهو أصغر.

عَنْ قُتَيْلَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أَنَّ يَهُوْدِيًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُشْرِكُوْنَ؛ تَقُوْلُونَ: مَا شَاءَ الله وَشِئْتَ، وَتَقُوْلُونَ: وَالكَعْبَةِ، فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُوْلُوا: «وَرَبِّ الكَعْبَةِ، وَأَنْ يَقُوْلُوا: مَا شَاءَ الله ثُمَّ شِئْتَ»[1].

«**قتيلة**» مصغرة؛ هي بنت صيفي الأنصارية، صحابية مهاجرة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

وقوله: «**أن يهوديًا**»؛ اليهودي: هو المنتسب إلى شريعة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وسموا بذلك من قوله تعالى: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]؛ أي: رجعنا، أو لأن جدهم اسمه يهوذا ابن يعقوب، فتكون التسمية من أجل النسب، وفي الأول تكون التسمية من أجل العمل، وقد تكون من الاثنين جميعًا.

وقوله: «**إنكم تشركون**»؛ أي: تقعون في الشرك أيها المسلمون.

وقوله: «**ما شاء الله وشئت**»؛ الشرك هنا أنه جعل المعطوف مساويًا للمعطوف عليه، وهو الله عز وجل، حيث كان العطف بالواو المفيدة للتسوية.

وقوله: «**والكعبة**»؛ الشرك هنا أنه حلف بغير الله تعالى.

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٣٧١)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» برقم (٩٨٧)، وصححه الألباني؛ انظر «سلسلة الأحاديث الصحيحة» برقم (١٣٦).

ولم ينكر النبي ﷺ ما قال اليهودي، بل أمر بتصحيح هذا الكلام؛ فأمرهم إذا حلفوا أن يقولوا: «**ورب الكعبة**»، فيكون القسم بالله تعالى.

وأمرهم أن يقولوا: «**ما شاء الله، ثم شئت**»، فيكون الترتيب بـ«**ثم**» بين مشيئة الله تعالى ومشيئة المخلوق.

والفرق بين (الواو) و (ثم) في هذه الألفاظ؛ هو أن العطف بـ (الواو) يقتضي المقارنة والتسوية، بخلاف العطف بـ (ثم) المقتضية للتبعية.

فقوله: «**ما شاء الله ثم شئت**»؛ هو اللّفظ الصحيح: بأن تأتي بـ(ثُمَّ) بدل (الواو)، لأنّ (الواو) للتشريك والمقارنة والمساواة بين الخالق والمخلوق في المشيئة، أما (ثُمَّ) فإنّها للتّرتيب حيث جعلت مشيئة المخلوق بعد مشيئة الخالق، لأنّ المخلوق لا يشاء إلاّ إذا شاء الله سبحانه وتعالى؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [التكوير: ٢٩]، فمشيئة المخلوق تابعة لمشيئة الله وليست مستقلّة، فهذا هو فرقُ ما بين اللّفظتين.

وسيأتي في الحديث التالي قوله ﷺ: «ما شاء الله وحده»؛ وكلا العبارتين حسن.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا شَاءَ الله وَشِئْتَ، فَقَالَ ﷺ: «أَجَعَلْتَنِي لله نِدًّا؟، بَلْ مَا شَاءَ الله وَحْدَهُ» (١).

قوله: «**أن رجلاً قال للنبي ﷺ**»؛ الظاهر أنه قاله للنبي ﷺ تعظيماً، وأنه جعل الأمر مفوضاً لمشيئة الله تعالى ومشيئة رسوله ﷺ.

وقوله: «**أجعلتني لله نداً؟!**»، الاستفهام للإنكار، وقد ضمن معنى التعجب، ومن جعل للخالق نداً فقد أتى شيئاً عجاباً؛ والند: هو النظير والمساوي؛ أي: أجعلتني لله مساوياً في هذا الأمر؟.

وقوله: «**بل ما شاء الله وحده**»؛ أرشده النبي ﷺ إلى ما يقطع عنه كل ذريعة عن

---

(١) رواه أحمد (١/ ٢١٤، ٢٢٤، و ٢٨٣، و ٣٤٧)، والبخاري في «الأدب المفرد» برقم (٧٨٣) وابن ماجه برقم (٢١١٧)، صححه الألباني؛ انظر «سلسلة الأحاديث الصحيحة» برقم (١٣٩).

الشرك، بإثبات أن المشيئة لله وحده.

وَعَنِ الطُّفَيْلِ أَخِي عَائِشَةَ لِأُمِّهَا قَالَ: رَأَيْتُ كَأَنِّي أَتَيْتُ عَلَى نَفَرٍ مِنَ اليَهُودِ، فَقُلْتُ: إِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ القَوْمُ، لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُوْلُونَ: عُزَيْرٌ ابْنُ الله، قَالُوا: وَإِنَّكُم لَأَنْتُمُ القَوْمُ، لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ الله وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، ثُمَّ مَرَرْتُ بِنَفَرٍ مِنَ النَّصَارَى، فَقُلْتُ: إِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ القَوْمُ، لَوْلَا أَنَّكُم تَقُولُونَ: المَسِيْحُ ابْنُ الله، قَالُوا: وَإِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ القَوْمُ، لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ الله وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَخْبَرْتُ بِهَا مَنْ أَخْبَرْتُ، ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، قَالَ ﷺ: «هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أَحَدًا؟»، قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَحَمِدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْه، ثُمَّ قَالَ ﷺ: «أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ طُفَيْلاً رَأَى رُؤْيَا، أَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ، وَإِنَّكُمْ قُلْتُمْ كَلِمَةً كَانَ يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا، فَلَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ الله وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ الله وَحْدَهُ»[(١)].

«**الطفيل أخي عائشة لأمها**»؛ هو الطفيل بن عبد الله بن سَخْبَرَة أخو عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا لأمها، صحابي جليل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وقوله: «**رأيت كأني أتيت على نفر من اليهود**»؛ أي: رؤيا في المنام؛ وهذه الرؤيا حق أقرها رسول الله ﷺ وعمل بمقتضاها.

وقوله: «**على نفر**»؛ النفر هم من الثلاثة إلى التسعة.

وقوله: «**لأنتم القوم**»؛ كلمة مدح؛ كقولك: هؤلاء هم الرجال.

وقوله: «**عزير**»؛ هو رجل صالح ادعى اليهود أنه ابن الله سبحانه وتعالى، وهذا من كذبهم، وهو كفر صريح، واليهود لهم مثالب كثيرة، لكن خصت هذه لأنها من أعظمها وأشهرها عندهم.

وقوله: «**ما شاء الله وشاء محمد**»؛ هذا شرك أصغر؛ لأن الصحابة الذين قالوا هذا

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٧٢)، وابن ماجه برقم (٢١١٨)، وصححه الألباني؛ انظر «سلسلة الأحاديث الصحيحة» برقم (١٣٨).

ولا شك أنهم لا يعتقدون أن مشيئة الرسول ﷺ مساوية لمشيئة الله تعالى فانتقدوا عليهم تسوية الرسول ﷺ بمشيئة الله عز وجل باللفظ، مع عظم ما قاله هؤلاء اليهود في حق الله جل وعلا.

وقوله: «**تقولون: المسيح ابن الله**»؛ هو عيسى ابن مريم، وسمي مسيحاً بمعنى ماسح؛ لأنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا برى بإذن الله تعالى؛ كالأكمه والأبرص.

والنصارى قالوا: هو ابن الله سبحانه وتعالى، لأنه أتى بدون أب، واحتجوا علينا بما جاء في القرآن: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١]، قالوا: هو جزء من الله تعالى؛ لأن الله سبحانه أضافه إليه، والجزء هو الابن.

وهذا كلام عارٍ عن الصحة؛ فقوله تعالى في الآية: ﴿مِن رُّوحِنَا﴾؛ الروح على الراجح عند أهل السنة: ذات لطيفة تدخل الجسم وتحل فيه كما يحل الماء في الطين اليابس، ولهذا يقبضها الملك عند الموت وتكفن ويصعد بها ويراها الإنسان عند موته، فالصحيح أنها ذات، وإن كان بعض الناس يقول: إنها صفة، ولكنه ليس كذلك، والحياة: صحيح أنها صفة لكن الروح ذات، إذاً نقول لهؤلاء النصارى: إن الله تعالى أضاف روح عيسى عليه السلام إليه كما أضاف البيت والمساجد والناقة وما أشبه ذلك على سبيل التشريف والتعظيم، ولا شك أن المضاف إلى الله تعالى يكتسب شرفاً وعظمة.

وقوله: «**فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت**»؛ المقصود بهذه العبارة الإبهام عمن أخبرهم.

وقوله: «**هل أخبرت بها أحداً؟**»، سأل النبي ﷺ هذا السؤال، لأنه لو قال: لم أخبر أحداً، فالمتوقع أن الرسول ﷺ سيقول له: لا تخبر أحداً، هذا هو الظاهر، ثم بين له الحكم ﷺ، لكن لما قال: إنه أخبر بها، صار لابد من بيانها للناس عموماً؛ لأن الشيء إذا انتشر يجب أن يعلن عنه، بخلاف إذا كان خاصاً، فهذا يخبر به من وصله الخبر.

وقوله: «**فحمد الله**»؛ الحمد: وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم.

وقوله: «**وأثنى عليه**»؛ أي: كرر ذلك الوصف المحمود.

وقوله: «**أما بعد**»؛ أي: بعد ما ذكرت، فكذا وكذا.

وقوله: «**يمنعني كذا وكذا**»؛ أي: يمنعه الحياء كما في رواية أخرى، ولكن ليس الحياء من إنكار الباطل، ولكن من أن ينهى عنها دون أن يأمره الله تعالى بذلك، هذا الذي يجب أن تحمل عليه هذه اللفظة؛ لأن الحياء الذي يمنعه ليس الحياء من الإنكار، لأن الرسول ﷺ لا يستحي من الحق، ولكن الحياء من أن ينكر شيئًا قد درج على الألسنة وألفه الناس قبل أن يؤمر بالإنكار؛ مثل الخمر بقي الناس يشربونها حتى حرمت في سورة المائدة، فالرسول ﷺ لما لم يؤمر بالنهي عنها سكت، ولما حصل التنبيه على ذلك بإنكار هؤلاء اليهود والنصارى، رأى ﷺ أنه لابد من إنكارها لدخول اللوم على المسلمين للنطق بها، أو أنه أوحي إليه في وقتها، ونطق بما أوحي إليه؛ إذ أنه ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣-٤].

وقوله: «**قولوا ما شاء الله وحده**»؛ نهاهم عن الممنوع، وبين لهم الجائز.

* * *

المسألة (الرابعة والأربعون):
فِي الإِقْسَام عَلَى الله تعالى

قوله: «**الإقسام**»؛ أي: الحلف واليمين.

وقوله: «**الإقسام على الله**»؛ أي أن تحلف على الله سبحانه أن يفعل، أو تحلف عليه أن لا يفعل؛ مثل: والله، ليفعلن كذا، أو والله لا يفعل كذا.

والقسم على الله تعالى ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: أن يقسم على ما أخبر الله عز وجل به ورسوله ﷺ من نفي وإثبات، فهذا لا بأس به، وهذا دليل على يقينه بما أخبر الله تعالى به ورسوله ﷺ؛ مثل: والله، ليشفعن الله نبيه في الخلق يوم القيامة، ومثل: والله، لا يغفر الله لمن أشرك به.

والثاني: أن يقسم على ربه لقوة رجائه وحسن الظن بربه، فهذا جائز لإقرار النبي ﷺ ذلك في قصة الربيّع بنت النضر عمة أنس بن مالك رضي الله عنهما: «حينما كسرت ثنية جارية من الأنصار، فاحتكموا إلى النبي ﷺ، فأمر النبي ﷺ بالقصاص، فعرضوا عليهم الصلح، فأبوا، فقام أنس بن النضر، فقال: أتكسر ثنية الربيع، والله يا رسول الله لا تكسر ثنية الربيع - وهو لا يريد به رد الحكم الشرعي -، فقال الرسول ﷺ: «يا أنس! كتاب الله القصاص» - يعني: السن بالسن — قال: والله، لا تكسر ثنية الربيع» - وغرضه بذلك أنه لقوة ما عنده من التصميم على أن لا تكسر ولو بذل كل غال ورخيص أقسم على ذلك؛ فلما عرفوا أنه مصمم ألقى الله تعالى في قلوب الأنصار العفو فعفوا -، فقال النبي ﷺ: «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره»[1]، فهو لقوة رجائه بالله تعالى وحسن ظنه أقسم على الله سبحانه أن لا تكسر ثنية الربيع، فألقى الله عز وجل العفو في قلوب هؤلاء الذين صمموا أمام الرسول ﷺ على القصاص، فعفوا وأخذوا الدّية.

فثناء الرسول ﷺ شهادة بأن الرجل من عباد الله تعالى، وأن الله جل جلاله أبر قسمه ولين له هذه القلوب، وكيف لا وهو الذي قال: بأنه يجد ريح الجنة دون أحد،

---

(١) رواه البخاري برقم (٢٧٠٣)، ومسلم برقم (١٦٧٥).

ولما استشهد وجد به بضع وثمانون ما بين ضربة بسيف أو طعنة برمح، ولم يعرفه إلا أخته ببنانه[1]، وهي الربيع هذه، رضي الله عن الجميع.

ويدل أيضا لهذا القسم، قوله ﷺ: «رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره»[2].

والقسم الثالث: أن يكون الحامل له هو الإعجاب بالنفس، وتحجر فضل الله عز وجل وسوء الظن به تعالى، فهذا محرم، وهو وشيك بأن يحبط الله تعالى عمل هذا المُقسم؛ لأن فيه تألي على الله عز وجل، وفيه إساءة الأدب معه، وإساءة الظن به، وكل هذا ينافي كمال التوحيد، وربما ينافي أصل التوحيد، فالتألي على من هو عظيم يعتبر تنقصاً في حقه.

وهذا القسم يدل عليه الحديث الآتي.

قَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «قَالَ رَجُلٌ: والله لَا يَغْفِرُ الله لِفُلَانٍ، فَقَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؟، إِنِي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبطتُ عَمَلَكَ»[3].

قوله: «**والله لا يغفر لفلان**»، هذا يدل على اليأس من روح الله سبحانه وتعالى، واحتقار عباد الله تعالى عند هذا القائل، وإعجابه بنفسه.

والمغفرة: هي ستر الذنب والتجاوز عنه.

وقوله: «**من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان**»؛ يتألى: يحلف؛ أي: من ذا الذي يتحجر فضلي ونعمتي أن لا أغفر لمن أساء من عبادي، والاستفهام للإنكار.

وجاء هذا الحديث في رواية أخرى مطولاً؛ وفيه أن هذا الرجل كان عابداً وله صاحب مسرف على نفسه، وكان يراه على المعصية، فيقول: أقصر، فوجده يوماً على ذنب، فقال: أقصر، فقال: خلني وربي، أبُعثت عليّ رقيباً؟، فقال: والله، لا يغفر الله لك[4].

---

(١) رواه البخاري برقم (٢٨٠٥)، ومسلم برقم (١٩٠٣).

(٢) رواه مسلم برقم (٢٦٢٢).

(٣) رواه مسلم برقم (٢٦٢١).

(٤) رواه أحمد (٢/ ٣٢٣)، وأبو داود برقم (٤٩٠١)، وصححه الألباني؛ انظر: «صحيح أبي داود».

وهذا يدل على أن المسرف عنده حسن الظن بالله تعالى ورجاء له، ولعله كان يفعل الذنب ويتوب فيما بينه وبين ربه؛ لأنه قال: خلني وربي، والإنسان إذا فعل الذنب ثم تاب توبة نصوحاً ثم غلبته عليه نفسه مرة أخرى، فإن توبته الأولى صحيحة؛ فإذا تاب ثانية فتوبته صحيحة، لأن من شروط التوبة أن يعزم أن لا يعود، وليس من شروط التوبة أن لا يعود.

وهذا الرجل الذي قد غفر الله عز وجل له، إما أن يكون قد وجدت منه أسباب المغفرة بالتوبة، أو أن ذنبه هذا كان دون الشرك فتفضل الله سبحانه عليه فغفر له، أما لو كان شركاً ومات بدون توبة، فإنه لا يغفر له؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١١٦].

وقوله: «**وأحبطت عملك**»؛ ظاهر الإضافة: أن الله جل جلاله أحبط عمله كله.

ووجه إحباط الله عز وجل عمله على سبيل العموم - حسب ما يظهر والعلم عند الله تعالى - أن هذا الرجل كان يتعبد لله جل جلاله وفي نفسه إعجاب بعمله، وإدلال بما عمل على الله تعالى كأنه يمن على الله تعالى بعمله، وحينئذ يفتقد ركناً عظيماً من أركان العبادة؛ لأن العبادة مبنية على الذل والخضوع، فلا بد أن تكون عبداً لله عز وجل بما تعبدك به وبما بلغك من كلامه، وكثير من الذين يتعبدون لله تعالى بما تعبدهم به، قد لا يتعبدون بوحيه، قد يصعب عليهم أن يرجعوا عن رأيهم، إذا تبين لهم خطؤهم من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ، فنجدهم يحرفون النصوص من أجله.

والواجب أن تكون لله عز وجل عبداً فيما بلغك من وحيه، بحيث تخضع له خضوعاً كاملاً حتى تحقق العبودية.

ويحتمل معنى: «**أحبطت عملك**»؛ أن عملك الذي كنت تفتخر به على هذا الرجل، وهذا أهون من المعنى السابق؛ لأن العمل إذا حصلت فيه إساءة بطل وحده دون غيره.

***

المسألة (الخامسة والأربعون):
لا يُرَدُّ مَنْ سَأَلَ بِاللهِ تَعَالَى

قوله: «**لا يرد من سأل بالله تعالى**»؛ أي: من سأل غيره بالله تعالى، والسؤال بالله سبحانه بالصيغة، مثل أن يقول: أسألك بالله؛ كما في حديث الثلاثة حيث قال الملك: «أسألك بالذي أعطاك الجلد الحسن واللون الحسن بعيراً».

ومن سأل بالله جل جلاله فقد سأل بعظيم، ومن استعاذ بالله تعالى فقد استعاذ بعظيم، بل استعاذ بمن له هذا الملكوت، وله تدبير الأمر - جل وعلا -، فكيف يُرد من جعل مالك كل شيء وسيلة؟!.

ولهذا كان من تعظيم الله تعالى التعظيم الواجب ألا يرد أحد سأل بالله جل وعلا، فإذا سأل سؤالا وجعل الله سبحانه هو الوسيلة، فإنه لا يجوز أن يرد تعظيما لله عز وجل.

فإذا سأل أحد بالله تعالى فإن قلب الموحد لا يكون راداً له؛ لأنه معظم لله سبحانه، مُجِلٌّ لله جل وعلا، فلا يرد أحداً جعل وسيلته إليه رب العزة - سبحانه وتعالى -.

يقول بعض أهل العلم: إن لهذه المسألة ثلاثة أحوال إذا سئل أحدنا:

الأولى: يحرم فيها رد السائل بالله تعالى؛ إذا توجه لمعين في أمر معين، كما إذا خصك بهذا التوجه، وسألك بالله سبحانه أن تعينه، وأنت قادر على أن تؤتيه مطلوبه.

والثانية: يستحب؛ إذا كان التوجه ليس لمعين، كأن يسأل أشخاصاً كثيرين.

والثالثة: يباح؛ إذا كان من سأل بالله تعالى يعرف منه الكذب، والأفضل عدم إجابته كي لا يتخذها حيلة لخداع المؤمنين.

وأما السائل للناس فيكره له هذا ولا ينبغي أن يسأل أحداً شيئاً إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك، ولهذا كان مما بايع النبي ﷺ أصحابه أن لا يسألوا الناس شيئاً، حتى إن عصا أحدهم ليسقط منه وهو على راحلته، فلا يقول لأحد: ناولنيه، بل ينزل

ويأخذه[١].

والمعنى يقتضيه؛ لأنك إذا أعززت نفسك ولم تذلها لسؤال الناس بقيت محترماً عند الناس، وصار لك منعة من أن تذل وجهك لأحد؛ لأن من أذل وجهه لأحد، فإنه ربما يحتاجه ذلك الأحد لأمر يكره أن يعطيه إياه، ولكنه سأله اضطر إلى أن يجيبه، ولهذا جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «ازهد فيما عند الناس يحبك الناس»[٢]، وقال ﷺ: «إن الإنسان لا يزال يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وما في وجهه مزعة لحم»[٣]، وهذا يدل على التحريم إلا للضرورة.

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ سَأَلَ بِالله؛ فَأَعْطُوهُ، وَمَنِ اسْتَعَاذَ بِالله؛ فَأَعِيْذُوهُ، وَمَنْ دَعَاكُم؛ فَأَجِيبُوهُ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُم مَعْرُوفاً؛ فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَم تَجِدُوا مَا تُكَافِؤُنَهُ، فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَونَ أَنَّكُم قَدْ كَافَأْتُمُوه»[٤].

قوله: «**من سأل بالله فأعطوه**» الأمر هنا للوجوب ما لم يتضمن السؤال إثماً أو ضرراً على المسؤول؛ لأن في إعطائه إجابة لحاجته وتعظيماً لله عز وجل الذي سأل به.

ولا يشترط أن يكون سؤاله بلفظ الجلالة، بل بكل اسم يختص بالله تعالى، كما قال الملك الذي جاء إلى الأبرص والقرع والأعمى: «أسألك بالذي أعطاك كذا وكذا».

وقوله: «**ومن استعاذ بالله فأعيذوه**»؛ أي: قال: أعوذ بالله منك، فإنه يجب عليك أن تعيذه، لأنه استعاذ بعظيم، ولهذا لما قالت ابنة الجون - اسْمهَا أُمَيْمَة - للرسول ﷺ: أعوذ بالله منك، قال ﷺ لها: «لقد عذت بعظيم- أو معاذ -، الحقي بأهلك»[٥].

---

(١) رواه مسلم (١٠٤٣).

(٢) رواه ابن ماجة (٤١٠٢)، وصححه الألباني؛ انظر: «السلسلة الصحيحة» برقم (٩٤٤).

(٣) رواه البخاري برقم (١٤٧٥)، ومسلم برقم (١٠٤٠).

(٤) رواه أبو داود برقم (١٦٧٢)، والنسائي برقم (٢٥٦٨)، وصححه الألباني؛ انظر: «السلسلة الصحيحة» برقم (٢٥٤).

(٥) رواه البخاري برقم (١٢٥٤).

لكن يستثنى من ذلك لو استعاذ من أمر واجب عليه، فلا تعذه؛ مثل أن تلزمه بصلاة الجماعة، فقال: أعوذ بالله منك، وكذلك لو ألزمته بالإقلاع عن أمر محرم، فاستعاذ بالله منك، فلا تعذه، لما فيه من التعاون على الإثم والعدوان، ولأن الله تعالى لا يعيذ عاصياً، بل العاصي يستحق العقوبة لا الانتصار له وإعاذته.

وكذلك من استعاذ بملجأ صحيح يقتضي الشرع أن يعيذه - وإن لم يقل: أستعيذ بالله -، فإنه يجب عليك أن تعيذه، كما قال أهل العلم: لو جنى أحد جناية ثم لجأ إلى الحرم، فإنه لا يقام عليه الحد ولا القصاص في الحرم، ولكنه يضيق عليه، فلا يبايع، ولا يشترى منه، ولا يؤجر حتى يخرج.

بخلاف من انتهك حرمة الحرم بأن فعل الجناية في نفس الحرم، فإن الحرم لا يعيذه؛ لأنه انتهك حرمة الحرم.

وقوله: «**ومن دعاكم فأجيبوه**»؛ الظاهر أن المراد بالدعوة هنا للإكرام، وليس المقصود بالدعوة هنا النداء.

وظاهر الحديث وجوب إجابة الدعوة في كل دعوة، وجمهور أهل العلم: أنها مستحبة إلا دعوة العرس، فإنها واجبة لقوله ﷺ فيها: «شر الطعام طعام الوليمة، يدعى إليها من يأباها ويمنعها من يأتيها، ومن لم يجب، فقد عصى الله ورسوله» [(١)].

وسواء قيل بالوجوب أو الاستحباب، فإنه يشترط لذلك شروط:

أن يكون الداعي ممن لا يجب هجره أو يسن.

وألا يكون هناك منكر في مكان الدعوة؛ فإن كان هناك منكر، فإن أمكنه إزالته، وجب عليه الحضور لسببين: إجابة الدعوة، وتغيير المنكر، وإن كان لا يمكن إزالته، حرم عليه الحضور؛ لأن حضوره يستلزم إثمه، وما استلزم الإثم، فهو حرام.

وأن يكون الداعي مسلماً، وإلا لم تجب الإجابة؛ لقوله ﷺ: «حق المسلم على المسلم ست...»، وذكر منها: «إذا دعاك فأجبه»[(٢)]؛ قال أهل العلم: وهذا مقيد للعموم الوارد.

وأن لا يكون كسبه حرام؛ لأن إجابته تستلزم أن تأكل طعاماً حراماً، وهذا لا يجوز.

---

(١) رواه البخاري برقم (٥١٧٧)، ومسلم برقم (١٤٣٢).

(٢) رواه البخاري برقم (١٢٤٠)، ومسلم برقم (٢١٦٢).

تنبيه: قال بعض العلماء: ما كان محرمـًا لكسبه، فإنما إثمه على الكاسب، لا على من أخذه بطريق مباح من الكاسب، بخلاف ما كان محرمـًا لعينه، كالخمر والمغصوب ونحوهما، وهذا القول وجيه قوي، بدليل أن الرسول ﷺ اشترى من يهودي طعامـًا لأهله[1]، وأكل من الشاة التي أهدتها له اليهودية بخيبر[2]، وأجاب دعوة اليهودي، ومن المعلوم أن اليهود معظمهم يأخذون الربا ويأكلون السحت، وربما يقوي هذا القول قوله ﷺ في اللحم الذي تصدق به على بريرة: «هو لها صدقة ولنا منها هدية»[3].

وأن لا تتضمن الإجابة إسقاط واجب أو ما هو أوجب منها، فإن تضمنت ذلك حرمت الإجابة.

وأن لا تتضمن ضرراً على المجيب، مثل أن تحتاج إجابة الدعوة إلى سفر أو مفارقة أهله المحتاجين إلى وجوده بينهم.

وقوله: «**من صنع إليكم معروفـًا، فكافئوه**»؛ المعروف: هو الإحسان، فمن أحسن إليك بهدية أو غيرها، فكافئه، فإذا أحسن إليك بإنجاز عملٍ لك وكان عمله زائداً عن الواجب عليه، فكافئه، وهكذا، ولكن إذا كان كبير الشأن ولم تجر العادة بمكافأته، فلا يمكن أن تكافئه، كالملك أو الرئيس...، مثلاً إذا أعطاك هدية، فمثل هذا يُدعى له، لأنك لو كافأته لرأى أن في ذلك غضـًا من حقه فتكون مسيئـًا له، والنبي ﷺ أراد أن تكافئه لإحسانه.

وللمكافأة فوائد؛ منها تشجيع ذوي المعروف على فعل المعروف.

وأن الإنسان يكسر بها الذل الذي حصل له بصنع المعروف إليه؛ لأن من صنع إليك معروفـًا فلا بد أن يكون في نفسك رقة له، فإذا رددت إليه معروفه زال عنك ذلك، ولهذا قال النبي ﷺ: «اليد العليا خير من اليد السفلى»[4]؛ واليد العليا هي يد المعطي، وهذه فائدة عظيمة لمن صنع له معروفـًا، لئلا يرى لأحد عليه مِنَّة إلا الله عز

(١) رواه البخاري برقم (٢٠٦٨، ٢٠٦٩)، ومسلم برقم (١٦٠٣).
(٢) رواه البخاري برقم (٢١٦٧)، ومسلم برقم (٢١٩٠).
(٣) رواه البخاري برقم (١٤٩٣)، ومسلم برقم (١٥٠٤).
(٤) رواه البخاري برقم (١٤٢٧)، ومسلم برقم (١٠٣٣).

وجل، لكن بعض الناس يكون كريمـًا جداً، فإذا كافأته بدل هديته أكثر مما أعطيته، فهذا لا يريد مكافأة، ولكن يُدعى له، لقوله ﷺ: «**فإن لم تجدوا ما تكافئونه، فادعوا له**» وكذلك الفقير إذا لم يجد مكافأة الغني فإنه يدعو له.

ويكون الدعاء بعد الإهداء مباشرة؛ لأنه من باب المسارعة إلى أمر الرسول ﷺ، ولأنه به سرور صانع المعروف.

وقوله: «**حتى تروا أنكم قد كافأتموه**»؛ أي: حتى تعلموا أو يغلب على ظنكم أنكم قد كافأتموه، ثم أمسكوا.

***

المسألة (السادسة والأربعون):
فِي الوَفَاءِ بِذِمَّةِ الله وَذمَّةِ نَبِيِّهِ

قوله: «**الوفاء**»؛ هو القيام بمقتضى العهد.

وقوله: «**ذمة الله وذمة نبيه**»؛ الذمة: العهد، وسمي بذلك؛ لأنه يلتزم به كما يلتزم صاحب الدين بدينه في ذمته.

والله عز وجل له عهد على عباده، أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا.

وللعباد عهد على الله عز وجل؛ وهو أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾؛ فهذا عهد الله عليهم، ثم قال تعالى: ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [المائدة: ١٢]؛ وهذا عهدهم على الله تعالى.

وللنبي ﷺ عهد على الأمة؛ وهو أن يتبعوه في شريعته ولا يبتدعوا فيها، وللأمة عليه عهد؛ وهو أن يبلغهم ولا يكتمهم شيئًا؛ وقد أخبر النبي ﷺ أنه ما من نبي إلا كان حقًا عليه أن يدل أمته على ما هو خير(١).

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١].

قوله: ﴿**وَأَوْفُوا۟**﴾؛ الإيفاء إعطاء الشيء تامًا.

وقوله: ﴿**بِعَهْدِ ٱللَّهِ**﴾؛ أي: بعهدكم الله سبحانه وتعالى.

---

(١) رواه مسلم برقم (١٨٤٤).

وقوله: ﴿إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾؛ أي: إذا صدر منكم العهد؛ فإنه لا يليق منكم أن تدعوا الوفاء.

ثم أكد ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾؛ نقض الشيء هو حل إحكامه، وشبه العهد بالعقدة؛ لأنه عقد بين المتعاهدين.

وقوله: ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾؛ توكيد الشيء بمعنى تثبيته.

وقوله: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾؛ الجملة حالية فائدتها قوة التوبيخ أنه جعل الله سبحانه وتعالى عليه كفيلاً.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾؛ ختم الله تعالى الآية بالعلم تهديداً عن نقض العهد؛ لأن الإنسان إذا علم بأن الله تعالى يعلم كل ما يفعله، فإنه لا ينقض العهد.

وعَنْ بُرَيْدَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُوْلَ الله ﷺ كَانَ إِذَا أَمَّرَ أَمِيْراً عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ بِتَقْوَى الله وَمَنْ مَعَهُ مِنِ المُسْلِمِيْنَ خَيْرَاً، فَقَالَ: «اغْزُوا بِسْمِ الله، فِي سَبِيْلِ الله، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِالله، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَمْثُلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيْدَاً، وَإِذَا لَقِيْتَ عَدُوَّكَ مِنِ المُشْرِكِيْنَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ - أَوْ خِلَالٍ - فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوْكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ فَإِنْ هُمْ أَجَابُوْكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُوْهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ المُهَاجِرِيْنَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلمُهَاجِرِيْنَ، وَعَلَيْهِم مَا عَلَى المُهَاجِرِيْنَ، فَإِنْ أَبُوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُمْ يَكُوْنونَ كَأَعْرَابِ المُسْلِمِيْنَ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ الله تَعَالَى، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الغَنِيْمَةِ وَالفَيْءِ شَيْءٌ إِلَا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ المُسْلِمِيْنَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوا فَاسْأَلْهُمُ الجِزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوْكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوا فَاسْتَعِنْ بِالله وَقَاتَلَهُمْ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوْكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ الله وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، فَلَا تَجْعَلَ لَهُمْ

ذِمَّةَ الله وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكن اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ إِنْ تَخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تَخْفِرُوا ذِمَّةَ الله وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ الله، فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ الله، وَلَكِنْ أَنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِكَ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي، أَتُصِيبُ حُكْمَ الله فِيهِمْ أَمْ لا»(١).

«**بريدة**» هو ابن الحصيب الأسلمي، أبو سهل، صحابي جليل، مات سنة ثلاث وستين، رضي الله عنه.

وقوله: «**إذا أمَّر**»؛ أي: جعله أميراً، والأمير في صدر الإسلام يتولى التنفيذ والحكم والفتوى والإمامة.

وقوله: «**أو سرية**»؛ هذه ليست للشك، بل للتنويع، فإن الجيش ما زاد على أربع مئة رجل، والسرية ما دون ذلك.

وقوله: «**أوصاه**»؛ الوصية: العهد بالشيء إلى غيره على وجه الاهتمام به.

وقوله: «**بتقوى الله**»؛ التقوى: هي امتثال أوامر الله عز وجل، واجتناب نواهيه على علم وبصيرة، وهي مأخوذة من الوقاية؛ وهي اتخاذ وقاية من عذاب الله عز وجل، وذلك لا يكون إلا بفعل الأوامر واجتناب النواهي.

وكانت الوصية بالتقوى لأمير الجيش؛ لأن الغالب أن الأمير يكون معه ترفُّع يخشى منه أن يجانب الصواب من أجله، ولأن تقواه سبب لتقوى من تحت ولايته.

وقوله: «**وبمن معه من المسلمين خيراً**»؛ أي: أوصاه أن يعمل بمن معه من المسلمين خيراً في أمور الدنيا والآخرة، فيسلك بهم الأسهل، ويطلب لهم الأخصب إذا كانوا على إبل أو خيل، ويمنع عنهم الظلم ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، وغير ذلك مما فيه خيرهم في الدنيا والآخرة.

وقوله: «**اغزوا باسم الله**»؛ أي: أن يكونوا دائماً مستعينين بالله تعالى.

وقوله: «**في سبيل الله**»؛ هو تنبيه من الرسول ﷺ على حسن النية والقصد؛ لأن الغزاة لهم أغراض، ولكن الغزو النافع الذي تحصل به إحدى الحسنيين ما كان

(١) رواه مسلم برقم (١٧٣١).

خالصـًا لله جل جلاله؛ وذلك بأن يقاتل لتكون كلمة الله سبحانه هي العليا لا لحمية أو شجاعة أو ليرى مكانه أو لطلب دنيا.

وقوله: «**قاتلوا من كفر بالله**»؛ أي: يجب علينا أن نقاتل من كفر بالله جل وعلا، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التحريم: ٩]، وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣]، فإذا قاتلنا الذين يلوننا، فأسلموا، نقاتل من وراءهم، وهكذا إلى أن نخلص إلى مشارق الأرض ومغاربها.

والكفر مداره على أمرين: الجحود، والاستكبار؛ أي: الاستكبار عن طاعته، أو الجحود لما يجب قبوله وتصديقه.

وقوله: «**اغزوا**»؛ تأكيد، وأتى بها ثانية كأنه يقول: لا تحقروا الغزو واغزوا بجد.

وقوله: «**لا تغلوا**»؛ الغلول: أن يكتم شيئًا من الغنيمة فيختص به، وهو من كبائر الذنوب، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١]؛ أي: معذبـًا به، فهو يعذب بما غل يوم القيامة ويعزر في الدنيا.

وقوله: «**ولا تغدروا**»؛ الغدر: الخيانة، وهذا إذا عاهدنا، فإنه يحرم الغدر، أما الغدر بلا عهد، فلا يجوز أيضـًا ولكن لنا أحيانـًا ذلك؛ لأن الحرب خدعة.

وقوله: «**ولا تمثلوا**» بسكون الميم وبضم الثاء، وضبط أيضـًا بفتح الميم وتشديد الثاء؛ والأول أصح؛ والتمثيل: هو التشويه بقطع بعض الأعضاء، كالأنف واللسان وغيرها، وذلك عند أسرهم، لأنه لا حاجة إليه، لأنه انتقام في غير محله.

وقوله: «**ولا تقتلوا وليداً**»؛ أي: لا تقتلوا صغيراً، لأنه لا يقاتل، وأيضـًا نُهي عن قتل النساء؛ فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «وُجِدَت امرأة مقتولة في بعض مغازي رسول الله ﷺ، فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان»[1].

وقوله: «**وإذا لقيت عدوك**»؛ أي: قابلته أو وجدته، وبدأ بذكر العداوة تهييجـًا لقتالهم، لأنك إذا علمت أنهم أعداء لك، فإن ذلك يدعوك إلى قتالهم.

والعدو ضد الولي، والولي من يتولى أمورك ويعتني بك بالنصر والدفاع وغير ذلك، والعدو يخذلك ويبتعد عنك، ويعتدي عليك ما أمكنه.

وقوله: «**من المشركين**»، يدخل فيه كل الكفار، حتى اليهود والنصارى.

---

(١) رواه البخاري برقم (٣٠١٤)، ومسلم برقم (١٧٤٤).

وقوله: «**خصال أو خلال**»، بمعني واحد، وعليه، فـ«**أو**» للشك في اللفظ، والمعنى لا يتغير.

وقوله: «**فأيتهن ما أجابوك**»؛ أي: فأيتهن ما أجابوك إليه، فاقبل منهم، وكف عنهم، فلا تقاتلهم.

وقوله: «**ثم ادعهم إلى الإسلام**»؛ أي: المتضمن للإيمان؛ لأنه إذا أفرد لفظ الإسلام شمل الإيمان، وإذا اجتمعا؛ أي: الإسلام والإيمان، افترقا، كما فرق النبي ﷺ بينهما في حديث جبريل عليه السلام.

والإيمان عند أهل السنة تدخل فيه الأعمال، قال النبي ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها؛ قول: لا إله إلا الله، وأدناها؛ إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»(١)، فإن أجابوا للإسلام، فهذا ما يريده المسلمون، فلا يحل لنا أن نقاتلهم، ولهذا قال النبي ﷺ: «**فاقبل منهم**».

وقوله: «**ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين**»؛ أي: أن يتحولوا إلى ديار المهاجرين ليتعلموا دين الله عز وجل، لأن الإنسان في بلاده الحديثة الدخول بالإسلام بعيد عن العلم.

وقوله: «**إلى دار المهاجرين**»، يحتمل أن المراد بها العين؛ أي: المدينة النبوية، ويحتمل أن المراد بها الجنس؛ أي: الدار التي تصلح أن يهاجر إليها لكونها بلد إسلام، سواء كانت المدينة أو غيرها.

وقوله: «**فإن أبوا أن يتحولوا**»؛ يعني: أن من أسلم ولم يهاجر ولم يجاهد لا يعطى من الخمس ولا من الفيء شيئًا.

وقوله: «**ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين**»؛ أي: إذا لم يتحولوا إلى دار المهاجرين، فليس لهم في الغنيمة والفيء شيء.

و«**الغنيمة**»: ما أخذ من أموال الكفار بقتال أو ما ألحق به.

و«**الفيء**»: ما يصرف لبيت المال، كخمس الغنيمة، والجزية، والخراج، وغيرها.

وقوله: «**إلا أن يجاهدوا مع المسلمين**»؛ يفيد أنهم إن جاهدوا مع المسلمين استحقوا من الغنيمة ما يستحقه غيرهم.

وقوله: «**فإن هم أبوا فاسألهم الجزية**»؛ سؤال عطاء لا سؤال استفهام؛ والجزية:

---

(١) رواه البخاري برقم (٩)، ومسلم برقم (٣٥).

مكافأة على شيء؛ وهي عبارة عن مال مدفوع من غير المسلم عوضًا عن حمايته وإقامته بديار الإسلام.

والذمي معصوم ماله ودمه وذريته مقابل الجزية، قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]؛ أي: يسلموها بأيديهم، لا يقبل أن يرسل بها خادمه أو أبنه، بل لا بد يأتي بها هو؛ وقيل: ﴿عَن يَدٍ﴾؛ عن قوة منكم، والصحيح أنها شاملة للمعنيين، وقوله: ﴿وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾؛ أي: يجب أن يتصفوا بالذل والهوان عند إعطائها، فلا يعطوها بأبهة وترفع مع خدم وموكب ونحو ذلك.

وقوله: «**وإذا حاصرت أهل حصن**»، الحصر: التضييق؛ أي: طوقتهم وضيقت عليهم بحيث لا يخرجون من حصنهم ولا يدخل عليهم أحد.

والحصن: كل ما يتحصن به من قصور أو أحواش وغيرها.

وقوله: «**فأرادوك**»؛ أي: طلبوك، وضمن الإرادة معنى الطلب.

وقوله: «**فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه**»؛ الذمة: العهد، فإذا قال أهل الحصن المحاصرون: نريد أن ننزل على عهد الله ورسوله، فإنه لا يجوز أن ينزلهم على عهد الله تعالى ورسوله، وعلل النبي ﷺ ذلك بقوله: «**فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون**».

وقوله: «**أن تخفروا**»؛ أي: تنقضوا.

وقوله: «**أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه**»؛ لأن النقض بذمة الله تعالى وذمة نبيه أعظم.

وقوله: «**حكم الله**»؛ أي: شرع الله سبحانه وتعالى.

وقوله: «**ولكن أنزلهم على حكمك**»؛ فإذا أرادوا أن ينزلوا على حكم الله جل وعلا، فإنهم لا يجابون، فإننا لا ندري أنصيب فيهم حكم الله جل جلاله أم لا؟.

ولهذ قال: «**أنزلهم على حكمك**»، ولم يقل: وحكم أصحابك؛ كما قال في الذمة؛ لأن الحكم في الجيش أو السرية للأمير، وأما الذمة والعهد، فهي من الجميع، فلا يحل لواحد من الجيش أن ينقض العهد.

وقوله: «**لا تدري**»؛ أي: لا تعلم «**أتصيب فيهم حكم الله أم لا**»، وذلك لأن الإنسان قد يخطئ حكم الله تعالى.

***

المسألة (السابعة والأربعون):
فِي اللَّوِّ

إن كل شـيء بقضـاء الله سـبحانه وبقدره، وإن ما فعله الإنسـان هو سـبب من الأسباب، والله جل جلاله ماضٍ قدره في خلقه، وأنه مهما فعل فإنه لن يحجز قدر الله تعالى.

ومن اعتقد هذا كان معظِّماً لله جل وعلا في تصـرفه، وفي ملكوته، وكان قلبه لا يخالطه تَمَني أن يكون شـيء فات على غير ما كان، وأنه لو فعل كذا لتغير ذلك السابق، بل الواجب أن يعلم أن قضاء الله تعالى نافذ، وأن قدره ماضٍ، وأن ما سبق من الفعل قد قدره الله تعالى وقدر نتائجه.

فالعبد لا يمكنه أن يرجع إلى الماضـي فيغيره، وإذا اسـتعمل لفظ «لو» أو لفظ «ليت»، وما أشبهها من الألفاظ التي تدل على الندم وعلى التحسر على ما فات، فإن ذلك يضعف القلب، ويجعله متعلقاً بالأسباب، منصرفاً عن الإيقان بتصريف الله تعالى في ملكوته.

وكمال التوحيد إنما يكون بعدم الالتفات إلى الماضي، فإن الماضي الذي حصل إما أن يكون مصيبة أصيب بها العبد، فلا يجوز له أن يقول: لو فعلت كذا لما حصل كذا، بل الواجب عليه أن يصـبر على المصـيبة، وأن يرضـى بفعل الله جل وعلا، ويستحب له الرضى بالمصيبة.

وإذا كان ما أصابه في الماضي معصية، فإن عليه أن يسارع في التوبة والإنابة، وألا يقول: لو كان كذا لم يكن كذا، بل يجب عليه أن يسارع في التوبة والإنابة، حتى يمحو أثر المعصية.

وقوله: «**اللَّوِّ**» المقصود بها اللفظ؛ و«**لو**» تستعمل على عدة أوجه:

فهي تستعمل في الاعتراض على الشرع، وهذا محرم؛ قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ

صَـٰدِقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٦٨]، في غزوة أحد حينما تخلف أثناء الطريق عبد الله بن أُبي في نحو ثلث الجيش، فلما استشهد من المسلمين سبعون رجلاً اعترض المنافقون على تشريع الرسول ﷺ، وقالوا: لو أطاعونا ورجعوا كما رجعنا ما قتلوا، وهذا محرم يصل إلى الكفر.

وتستعمل في الاعتراض على القدر، وهذا محرم أيضـًا؛ قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ ﴾ [آل عمران: ١٥٦]؛ أي: لو أنهم بقوا عندنا ما قتلوا، فهم يعترضون على قدر الله جل وعلا.

وتستعمل للندم والتحسر، وهذا محرم أيضـًا؛ لأن كل شيء يفتح الندم عليك، فإنه منهي عنه؛ لأن الندم يكسب النفس حزنـًا وانقباضـًا، والله تعالى يريد منا أن نكون في انشراح وانبساط؛ قال ﷺ: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء، فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا، فإن لو تفتح عمل الشيطان»[1].

مثال ذلك: رجل حرص أن يشتري شيئـًا يظن أن فيه ربحـًا فخسر، فقال: لو أني ما اشتريته ما حصل لي خسارة، فهذا ندم وتحسر، ويقع كثيراً، وقد نهي عنه.

وتستعمل في الاحتجاج بالقدر على المعصية؛ كقول المشركين: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم﴾ [الزخرف: ٢٠]، وهذا محرم باطل.

وتستعمل في التمني؛ وحكمه حسب التمني: إن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشر، قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة أقسم عليهن، وأحدثكم حديثـًا فاحفظوه؛ قال: ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله عزاً، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر أو كلمة نحوها، وأحدثكم حديثـًا فاحفظوه، قال: إنما الدنيا لأربعة نفر؛ عبد رزقه الله مالاً وعلمـًا فهو يتقي فيه ربه ويصل فيه رحمه ويعلم لله فيه حقـًا فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علمـًا

(١) رواه مسلم برقم (٢٦٦٤).

ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية يقول لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء، وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً فهو يخبط في ماله بغير علم لا يتقي فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم لله فيه حقاً فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً فهو يقول لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فوزرهما سواء»[(١)]؛ فأحدهم قال: «لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان»، فهذا تمنى خيراً، وقال الثاني: «لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان»، فهذا تمنى شراً؛ فقال النبي ﷺ في الأول: «فهو بنيته، فأجرهما سواء»، وقال في الثاني: «فهو بنيته فوزرهما سواء».

وتستعمل في الخبر المحض، وهذا جائز؛ مثل: لو حضرت الدرس لاستفدت، ومنه قوله ﷺ: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي ولأحللت معكم»[(٢)]، فأخبر النبي ﷺ أنه لو علم أن هذا الأمر سيكون من الصحابة رضي الله عنهم ما ساق الهدى ولأحل.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

قوله: ﴿**يَقُولُونَ**﴾؛ أي: المنافقون.

وقوله: ﴿**مَّا قُتِلْنَا**﴾؛ أي: ما قُتل بعضنا؛ لأنهم لم يقتلوا كلهم؛ ولأن المقتول لا يقول شيئاً.

وقوله: ﴿**لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا**﴾؛ أي: في أُحد؛ وهذا من

(١) رواه الترمذي برقم (٢٣٢٥) وحسنه، وابن ماجة برقم (٤٢٢٨)، وصححه الألباني؛ انظر «صحيح الجامع» برقم (٣٠٢٤).

(٢) رواه البخاري برقم (١٦٥١) واللفظ له، ومسلم بعدة ألفاظ؛ انظر: «كتب الحج / باب وجوه الإحرام».

الاعتراض على الشرع؛ لأنهم عتبوا على الرسول ﷺ حيث خرج بدون موافقتهم، ويمكن أن يكون اعتراضـاً على القدر أيضـاً؛ أي: لو كان لنا من حسن التدبير والرأي شيء ما خرجنا فنقتل.

وقوله: ﴿لَبَرَزَ﴾؛ أي: لخرج وظهر.

وقوله: ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾؛ أي: مصارعهم ومقاتلهم المقدرة لهم.

وقوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾؛ في هذا رد عليهم، فلا يمكن أن يتخلفوا عما أراد الله جل جلاله بهم.

وقوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ﴾؛ أي: يختبر الله المطّلع بضمائركم، ويظهر ﴿مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ من الإخلاص والرضى أو من النفاق والشقاق.

وقوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾؛ أي: يصفي ويطهر ﴿مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ من الإيمان والتوحيد عن الشرك والنفاق ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾؛ أي: هو سبحانه وتعالى المطّلع على سرائركم وضمائركم بالأمور المكنونة فيها.

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ۗ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨].

قوله: ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾؛ قيل: لإخوانهم في النسب لا في الدين، وقيل: في الدين ظاهراً؛ لأن المنافقين يتظاهرون بالإسلام، ولو قيل: إنه شامل للأمرين، لكان صحيحاً.

وقوله: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾؛ هذا كلامهم وهو غير صحيح، ولهذا رد الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ أي: فلا تستطيعون أيضاً أن تدرؤوا عن أنفسكم الموت.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الذين قالوا لإخوانهم، وقعدوا: لو أطاعونا ما قتلوا؛ أي: لو سمعوا مشورتنا عليهم بالقعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل؛ قال الله تعالى: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ أي: إذا كان القعود يسلم به

الشــخص من القتل والموت، فينبغي لكم أن لا تموتوا، والموت لا بد آت إليكم، ولو كنتم في بروج مشيدة، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين.

وقال جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي وأصحابه»؛ يعني أنه هو الذي قال ذلك.

وَقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «الـمُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى الله مِنَ الـمُؤْمِنِ الضَّعِيْفِ، وفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِالله وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا؛ وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ الله وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ» [(١)].

قوله: «**القوي**»؛ أي: في إيمانه وما يقتضيه إيمانه؛ يعني: ما يحل في قلبه من اليقين الصادق الذي لا يعتريه شك، وفيما يقتضيه؛ يعني: العمل الصالح من الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحزم في العبادات وما أشـبه ذلك، وليس المراد بالقوي هنا قوة البدن.

وقوله: «**خير وأحب إلى الله**»؛ خير في تأثيره وآثاره فهو ينفع ويقتدى به وأحب إلى الله باعتبار الثواب.

وقوله: «**من المؤمن الضعيف**»، وذلك في الإيمان أو فيما يقتضيه لا في قوة البدن.

وقوله: «**وفي كل خير**»؛ أي: في كل من القوي والضعيف خير، حتى لا يظن أنه لا خير في الضعيف، بل فيه خير، ولكن المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف.

وقوله: «**احرص على ما ينفعك**»؛ الحرص: بذل الجهد لنيل ما ينفع من أمر الدين أو الدنيا.

وأفعال العباد بحسب السبر والتقسيم، لا تخلو من أربع حالات:

الأولى: نافعة، وهذه مأمور بها.

والثانية: ضارة، وهذه محذر منها.

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٦٦٤).

والثالثة: فيها نفع وضرر.

والرابعة: لا نفع فيها ولا ضرر.

وهذه - أي: الثالثة والرابعة - لا يتعلق بها أمر ولا نهي، لكن الغالب أن لا تقع إلا وسيلة إلى ما فيه أمر أو نهي، فتأخذ حكم الغاية؛ لأن الوسائل لها أحكام المقاصد.

فالأمر لا يخلو من نفع أو ضرر، إما لذاته أو لغيره، فحديثنا العام قد لا يكون فيه نفع ولا ضرر، لكن قد يتكلم الإنسان ويتحدث لأجل إدخال السرور على غيره فيكون نفعاً.

واتصال قوله: «**احرص على ما ينفعك**» بما قبله ظاهر جداً؛ لأن من القوة الحرص على ما ينفع.

وقوله: «**واستعن بالله**»؛ الاستعانة: طلب العون بلسان المقال، كقولك: «اللهم أعني»، أو: «لا حول ولا قوة إلا بالله» عند شروعك بالفعل، أو بلسان الحال، وهي أن تشعر بقلبك أنك محتاج إلى ربك عز وجل أن يعينك على هذا الفعل.

أو طلب العون بهما جميعاً، والغالب أن من استعان بلسان المقال، فقد استعان بلسان الحال.

وقوله: «**ولا تعجز**»؛ المعنى: لا تفعل فعل العاجز من التكاسل وعدم الحزم والعزيمة، وليس المعنى: لا يصيبك عجز، لأن العجز عن الشيء غير التعاجز؛ فالعجز بغير اختيار الإنسان، ولا طاقة له به، فلا يتوجه عليه نهي، ولهذا قال النبي ﷺ: «صلِّ قائماً، فإن لم تستطع، فقاعداً، فإن لم تستطع، فعلى جنب» [1].

فإذا اجتمع الحرص وعدم التكاسل، اجتمع في هذا صدق النية بالحرص والعزيمة بعدم التكاسل.

لأن بعض الناس يحرص على ما ينفعه ويشرع فيه، ثم يتعاجز ويتكاسل ويدعه، وهذا خلاف ما أمر به الرسول ﷺ، فما دمت عرفت أن هذا نافع، فلا تدعه؛ لأنك إذا عجزت نفسك خسرت العمل الذي عملت، ثم عودت نفسك التكاسل والتدني من حال النشاط والقوة إلى حال العجز والكسل، وكم من إنسان بدأ العمل - لا سيما

---

(١) رواه البخاري برقم (١١١٧).

النافع - ثم أتاه الشيطان فثبطه!!، لكن إذا ظهر في أثناء العمل أنه ضار، فيجب عليه الرجوع عنه؛ لأن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل.

وقوله: «**إن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا**»، هذه هي المرتبة الرابعة مما ذكر في هذا الحديث العظيم.

فالمرتبة الأولى: الحرص على ما ينفع.

والمرتبة الثانية: الاستعانة بالله عز وجل.

والمرتبة الثالثة: المضي في الأمر والاستمرار فيه وعدم التعاجز.

وهذه المراتب كلها موجهة إليك.

والمرتبة الرابعة: إذا حصل خلاف المقصود، فهذه ليست إليك، وإنما هي بقدر الله سبحانه، ولهذا قال: «**وإن أصابك...**»، ففوض الأمر إلى الله تعالى.

فقوله: «**وإن أصابك شيء**»؛ أي: لا تحبه ولا تريده ومما يعوقك عن الوصول إلى مرامك فيما شرعت فيه من نفع.

وقوله: «**كذا**»؛ كناية عن مبهم، وهي مفعول لـ«**فعلت**».

وقوله: «**قدر الله**»؛ أي: هذا قدر الله تعالى؛ وقدر بمعنى مقدور؛ لأن قدر الله تعالى يطلق على التقدير الذي هو فعل الله سبحانه، ويطلق على المقدور الذي وقع بتقدير الله جل وعلا، وهو المراد هنا؛ لأن القائل يتحدث عن شيء وقع عليه، فقدر الله تعالى؛ أي: مقدوره، ولا مقدر إلا بتقدير؛ لأن المفعول نتيجة الفعل.

والمعنى: إن هذا الذي وقع قدر الله جل جلاله وليس إليّ، أما الذي إليّ فقد بذلت ما أراه نافعاً كما أمرت، وهذا فيه التسليم التام لقضاء الله عز وجل، وأن الإنسان إذا فعل ما أمر به على الوجه الشرعي، فإنه لا يلام على شيء، ويفوض الأمر إلى الله تعالى.

وقوله: «**وما شاء الله فعل**»؛ أي: ما شاء الله سبحانه أن يفعله فعله؛ لأن الله تعالى لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١]، فكل فعل لله تعالى معلق بالمشيئة، فإنه مقرون بالحكمة، وليس شيء من فعله معلقاً بالمشيئة المجردة؛ لأن الله جل وعلا لا يشرع ولا يفعل إلا لحكمة، وبهذا التقرير نفهم أن المشيئة يلزم منها وقوع المشاء، ولهذا

كان المسلمون يقولون: «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن».

وأما الإرادة ووقوع المراد ففيه تفصيل:

فالإرادة الشرعية: لا يلزم منها وقوع المراد، وهي التي بمعنى المحبة، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧]؛ بمعنى يحب، ولو كانت بمعنى يشاء لتاب الله جل جلاله على جميع الناس.

والإرادة الكونية: يلزم منها وقوع المراد، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وقوله: «**فإن لو تفتح عمل الشيطان**»؛ أي؛ فإن هذا اللفظ يفتح عمل الشيطان؛ وعمله: ما يلقيه في قلب الإنسان من الحسرة والندم والحزن، فإن الشيطان يحب ذلك، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٠]، حتى في المنام يريه أحلاماً مخيفة ليعكر عليه صفوه ويشوش فكره، وإذا رضي الإنسان بالله رباً، وقال: هذا قضاء الله وقدره، وأنه لا بد أن يقع، اطمأنت نفسه وانشرح صدره.

ونعلم من هذا أن من اعترض على القدر، فإنه لم يرض بالله رباً، ومن لم يرض بالله رباً، فإنه لم يحقق توحيد الربوبية.

والواجب أن نرضى بالله رباً، ولا يمكن أن نستريح إلا إذا رضينا بالله رباً تمام الرضى، ولهذا قال النبي ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له»[1].

* * *

(١) رواه مسلم برقم (٢٦٦٤).

المسألة (الثامنة والأربعون):
فِي المُصَوِّرِيْنَ

لأن في التصوير خلقاً وإبداعاً يكون به المصور مشاركاً لله تعالى في ذلك الخلق والإبداع، وهذا يفد تحريم التصوير؛ لأن المصور ذهب يخلق كخلق الله ليكون مضاهياً لله تعالى في صنعه.

والتصوير له أحوال:

الحال الأولى: أن يصور الإنسان ما له ظل كما يقولون؛ أي: ماله جسم على هيكل يعني صَنَعَ من الطين أو من الخشب أو من الأحجار شيئاً على صورة إنسان أو حيوان أو بعير أو أسد أو ما أشبهها، فهذا أجمع العلماء فيما أعلم على تحريمه.

والحال الثانية: أن يصور صورة ليس لها جسم بل بالتلوين والتخطيط، فهذا محرم لعموم الحديث، ويدل عليه حديث النُّمرقُة حين أقبل النبي ﷺ إلى بيته، فلما أراد أن يدخل رأى نمرقة فيها تصاوير، فوقف وتأثر، وعرفت عائشة رضي الله عنها الكراهة في وجهه، فقالت: ما أذنبت يا رسول الله؟، فقال ﷺ: «إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة، يقال لهم: أحيوا ما خلقتم»[(١)]، فالصور بالتلوين كالصور بالتجسيم.

والحال الثالثة: أن تلتقط الصور التقاطاً بأشعة معينة بدون تعديل أو تحسين من الملتقط، فهذا محل خلاف بين العلماء المعاصرين:

فمنهم من قال: أنه تصوير، وإذا كان كذلك، فإن حركة هذا الفاعل للآلة يعد تصويراً، إذ لولا تحريكه إياها ما انطبعت هذه الصورة على هذه الورقة، ونحن متفقون على أن هذه صورة، فحركته تعتبر تصويراً، فيكون داخلاً في العموم.

ومنهم من قال: أنها ليست بتصوير؛ لأن التصوير فعل المصور، وهذا الرجل ما صورها في الحقيقة وإنما التقطها بالآلة، والتصوير من صنع الله تعالى.

ويوضح ذلك لو أدخلت كتاباً في آلة التصوير، ثم خرج من هذه الآلة، فإن رسم الحروف من الكاتب الأول لا من المحرك، بدليل أنه قد يشغلها شخص أمي لا

---

(١) رواه البخاري برقم (٢١٠٥)، ومسلم برقم (٢١٠٧).

يعرف الكتابة إطلاقـًا، وهذا القول أقرب؛ لأن المصـور بهذه الطريقة لا يعتبر مبدعـًا ولا مخططـًا.

ولكن خروجـًا من الخلاف تستخدم هذه الطريقة بالتصوير للضرورة وما فيه خير ونفع للمسلمين.

والحال الرابعة: أن يكون التصوير لما لا روح فيه، فجمهور أهل العلم على جواز تصويره.

قَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «قَالَ الله تَعَالَى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً»[1].

قوله: «**ومن أظلم**»؛ أي: لا أحد أظلم؛ وجاء النفي بصيغة الاستفهام ليكون أبلغ في النفي؛ لأنه يكون مشربـًا معنى التحدي والتعجيز.

وقوله: «**يخلق كخلقي**»؛ الخلق في اللغة: التقدير، والخلق بالنسبة للإنسان يكون بعد تـأمل ونظر وتقدير، أما بالنسـبة للخالق، فإنه لا يحتاج إلى تأمل ونظر لكمال علمه، فالخلق بالنسبة للمصور يكون بمعنى الصنع بعد النظر والتأمل.

فيه جواز إطلاق الخلق على غير الله سبحانه وتعالى.

يعني: في الصـورة فقط، وإلا فلا أحد من الخلق يقدر أن يوجد حياة فيما يصوره، مهمـا أوتي من الفكر والإمكـانيات المادية وغيرها، فلن يسـتطيع ذلك، ولهذا قال: «**فليخلقوا ذرة**»؛ أي: ليوجـدوا فيهـا الحيـاة أو ليوجـدوهـا من العـدم، وليجعلوا فيها روحـًا تحيا بها، وليس هذا بمقدور الخلق ولو اجتمعوا له.

ثم انتقـل بهم إلى ما هو أسـهل من ذلك، وهو الحبة التي تكون بها حياة النبات، فإذا وضـعـت في الأرض، وسـقيـت بـالمـاء نبتت بـإذن الله تعـالى، ولن يسـتطيع المصورون أن يخلقوا تلك الحبة، بل ذلك ليس في مقدور الخلق كلهم.

المراد بـه التحدي والتعجيز، وهـذا من باب التحدي في الأمور الكونية، وأما من بـاب التحدي في الأمور الشـرعية، فجـاء في مثـل قول الله تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ ﴾ [الطور: ٣٤].

---

(١) رواه البخاري برقم(٧٥٥٩)، ومسلم برقم (٢١١١).

والذرة: واحدة الذر؛ وهي النمل الصغار، وذكر الله تعالى الذرة لأن فيها روحًا، وهي من أصغر الحيوانات.

وقوله: «**أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة**»؛ «**أو**» للتنويع؛ أي: انتقل من التحدي بخلق الحيوان ذي الروح إلى خلق الحبة والشعيرة التي هي الزرع وليس لها روح.

فالله عز وجل تحدى الخلق إلى يوم القيامة أن يخلقوا ذرة أو يخلقوا حبة أو شعيرة.

والشعيرة أقل قيمة من الحبة، ولكن فيها من الحياة ما في الحبة، فإذا كان المصورون، وغيرهم الذين يضاهئون الله في خلقه، عاجزين عن خلق الحبة والشعيرة، فكيف يذهبون يصورون الصور التي فيا مضاهاة لخلق الله – تعالى؟ ولعظم جرمهم، استحقوا من العذاب، ما لا يكون لسائر أهل الكبائر.

وَقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ الَّذِيْنَ يُضَاهُوْنَ بِخَلْقِ الله» (١).

قوله: «**أشد**»؛ أي: أعظم وأقوى.

وقوله: «**الناس**» للعموم؛ والمراد الذين يعذبون.

وقوله: «**عذابًا**»؛ العذاب يطلق على العقاب، ويطلق على ما يؤلم ويؤذي وإن لم يكن عقابًا، فمن الأول قوله تعالى: ﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]؛ أي: العقوبة والنكال؛ لأنه يدخل النار والعياذ بالله، ومن الثاني قول النبي ﷺ: «السفر قطعة من العذاب»(٢).

وقوله: «**يوم القيامة**»؛ هو اليوم الذي يبعث فيه الناس.

وقوله: « **يضاهون**»؛ أي: يشابهون.

وقوله: «**بخلق الله**»؛ أي: بمخلوقات الله سبحانه وتعالى.

والذين يضاهون بخلق الله سبحانه وتعالى هم المصورون، فهم يضاهون بخلق الله تعالى سواء كانت هذه المضاهاة جسمية أو وصفية، فالجسمية أن يصنع صورة

---

(١) رواه البخاري برقم (٥٩٥٤)، ومسلم برقم (٢١٠٧).

(٢) رواه البخاري برقم (١٨٠٤)، ومسلم برقم (١٩٢٧).

بجسمها، والوصفية أن يصنع صورة ملونة.

وهو يدل على أن المصورين يعذبون، وأنهم أشد الناس عذابـًا، وأن الحكمة من ذلك مضاهاتهم خلق الله عز وجل، وليست الحكمة كما يدعيه كثير من الناس أنهم يصنعونها لتعبد من دون الله تعالى، فذلك شيء آخر، فمن صنع شيئًا ليعبد من دون الله جل وعلا، فإنه حتى ولو لم يصور، كما لو أتى بخشبة وقال: اعبدوها، فقد دخل في التحريم، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢]، لأنه أعان على الإثم والعدوان.

وَقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ، يَجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُوْرَةٍ صَوَّرَهَا نَفْسًا فَتُعَذِّبُهُ فِي جَهَنَّمَ»[(١)].

من أسماء الله الحسنى: «المصور»، وهو الذي صور جميع الموجودات ورتبها، فأعطى كل شيء منها صورة خاصة، وهيئة مفردة بها، على اختلافها وكثرتها.

وفي اللغة الصورة: الشكل، والهيئة، والحقيقة.

قوله: «**كل مصور في النار**»؛ فـ«**كل**» من ألفاظ العموم، فيشمل من صوّر الإنسان أو الحيوان أو الأشجار أو البحار، لكن قوله: «**يجعل له بكل صورة صورها نفسًا**»، يدل على أن المراد صورة ذوات النفوس؛ أي: ما فيه روح.

وقوله: «**في النار**»؛ أي: كائن في النار.

وقوله: «**يجعل له كل صورة صورها**»؛ يقتضي أنه لو صور في اليوم عشر صور ولو من نسخة واحدة، فإنه يجعل له في النار عشر صور، يقال له: أنفخ فيها الروح.

وظاهره أنه يبقى في النار معذبًا حتى تنتهي هذه الصور.

وهذا يقتضي أن المراد التصوير تصوير الجسم كاملاً مع الرأس، وعلى هذا، فلو صور الجسم وحده بلا رأس، فالظاهر الجواز، ويؤيده قوله ﷺ: «الصورة الرأس، فإذا قطع الرأس، فلا صورة»[(٢)].

---

(١) رواه مسلم برقم (٢١١٠) (٩٩).

(٢) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ٢٧٠) موقوفـًا على ابن عباس رضي الله عنه، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤/ ٢٨٧) موقوفًا على أبي هريرة رضي الله عنه، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ٨٥) موقوفـًا على عكرمة مولى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وصححه الألباني؛ انظر: «السلسلة الصحيحة» برقم (١٩٢١).

وقَالَ رَسُـوْلُ الله ﷺ: «مَنْ صَـوَّرَ صُـوْرَةً فِي الدُّنْيَا كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيْها الرُّوْحَ، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ فِيها أَبَدَاً»[(١)].

قوله: «**مَن صور**»؛ مِن ألفاظ العموم، فيشمل كل مَن صَوَّر صورة ذات روح.

وقوله: «**كلف**»؛ أي: ألزم، والمكلف له هو الله عز وجل.

وقوله: «**أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ**»؛ أي: كلف بأمر لا يتمكن منه، زيادة في تعذيبه، وعذب بهذا العذاب ليذوق جزاء ما عمل، وبهذا تزداد حسرته وأسفه، حيث إنه عذب بما كان في الدنيا يراه راحة له، إما باكتساب، أو إرضاء صاحب، أو إبداع صنعة.

وتحضّر الصور كلها التي صنعها، ويؤمر بأن ينفخ فيها الأرواح، وهل يستطيع أن ينفخ الأرواح؟، ولكن هذا من باب التعجيز والعذاب، بأن يُحمّل ما لا يستطيع وما لا يطيق- والعياذ بالله – فيطولُ عذابُه.

ولولا أنّ في التصوير خطورة وفيه فتنة لما رأيتم فتنة النّاس به وكثرتُه، لأنّ الشيطان يحث ويحرِّض عليه، لأنّ فيه ضرراً على بني آدم، فهو يحثُّهم على فعله وعلى صنعتِه من أجل أن يتحمّلوا هذه الأوزار – والعياذ بالله –.

وتتلخص أنواع الوعيد التي وردت في حق المصور فيما يلي: أنه لعنه ﷺ، وأنه أشد الناس ظلماً، وأنه أشد الناس عذابًا، وأنه يجعل له بكل صورة صورها نفس يعذب بها في النار، أنه يكلّف نفخ الروح بكل صورة صوّرها ويقال له: أحي ما خلقت؟؛ يعني: أوجدوا فيه الروح التي بها الحياة، وليس ذلك بطاقة أحد غير الله جل وعلا وهذا لأنهم ذهبوا يتشبهون بالله تعالى في التصوير والخلق، فطعنوا بذلك وجاوزوا حدَّهم؛ لأن الله تعالى وحده، هو المصور الذي يصور كل حي، ويوجد فيه الروح، فصار جزاء هؤلاء: أن يعذبوا بما لا يُطاق ولا يُستطاع، نسأل الله العافية في الدنيا والآخرة.

وليس مقصود هذا التكليف طلب الامتثال، بل تعذيبه على كل حال وإظهار عجزه عما تعاطاه مبالغة في توبيخه وإظهاراً لقبح فعله، وهذا وعيد شديد يفيد أن التصوير كبيرة.

---

(١) رواه البخاري برقم (٢٢٢٥)، ومسلم برقم (٢١١٠) (١٠٠).

وتمسك بعضهم بهذا الخبر على أنه أغلظ من القتل؛ لأن وعيده ينقطع بتفسير قوله تعالى: ﴿خَـٰلِدًا فِيهَا﴾ بالأمد الطويل، وهنا لا يستقيم أن يقال يعذب زمناً طويلاً ثم يخلص لكونه مغياً - أي: لها غاية - بما لا يمكن وهو نفخ الروح فيها المستحيل حصوله، ولهذا ذهب المعتزلة إلى تخليده في النار وأهل السنة على خلافه وحملوا الخبر على من يكفر بالتصوير كمن يصور صنماً ليعبد أو يقصد مضاهاة خلق الله، وأما من لم يكفر به في حقه خرج مخرج الروع والتهويل، فهو متروك الظاهر.

وَعَنْ أَبِي الهَيَّاجِ قَالَ: قَالَ لِي عَلِيُّ بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْه رَسُوْلُ الله ﷺ؟؛ أَنْ لَا تَدَعَ صَوْرَةً إِلَا طَمَسْتَهَا، وَلَا قَبْراً مُشْرِفَاً إِلَّا سَوَيْتَهُ»[١].

«**أبو الهياج**»؛ هو حَيّان بن حصين الأسدي، من التابعين.

و«**علي بن أبي طالب**» بن عبد المطلب بن هاشم، ابن عَمِّ رسول الله ﷺ، وزوج ابنته، وصحابي جليل مشهور، وهو الخليفة الرابع للمسلمين، مات سنة أربعين وله ثلاث وستون سنة، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وقوله: «**ألا أبعثك**»؛ البعث: الإرسال بأمر مهم.

وقوله: «**على ما بعثني**»؛ يحتمل أن تكون «**على**» على ظاهرها للاستعلاء؛ لأن المبعوث يمشي على ما بعث عليه، كأنه طريق له، وهذا هو الأولى؛ لأن ما وافق ظاهر اللفظ من المعاني فهو أولى بالاعتبار، ويحتمل أن «**على**» بمعنى الباء؛ أي: بما بعثني عليه.

وقد بعث النبي ﷺ علياً إلى اليمن بعد قسمة غنائم حنين، وقدم على النبي ﷺ وهو في مكة في حجة الوداع.

وقوله: «**أن لا تدع صورة إلا طمستها**»؛ إن كانت ملونة فطمسها بوضع لون آخر يزيل معالمها، وإن كانت تمثالاً فإنه يقطع رأسه، وإن كانت محفورة فيحفر على وجهه حتى لا تتبين معالمه، فالطمس يختلف، وظاهره يشمل ما كانت تُعبد من دون الله تعالى أم لا.

---

(١) رواه مسلم برقم (٩٦٩).

وليس معنى طمس الصورة كما يفعله بعض الجهال أو المتحيِّلين أنه يجعل خطًّا في عنق الصورة فيصبح كالطوق، أو يخط خطاً على العينين لأن الطمس: أن تُزيل الرأس إمّا بقطعهِ، وإما بتلطيخِه وإخفائه تماماً.

ويُفيد هذا أنه لا يجوز اقتناء الصور، وهذا محل تفصيل، فإن اقتناء الصور على أقسام:

القسم الأول: أن يقتنيها لتعظيم المُصَوَّر، لكونه ذا سلطان أو جاه أو علم أو عبادة أو أبوة أو نحو ذلك، فهذا حرام بلا شك، ولا تدخل الملائكة بيتاً فيه هذه الصورة، لأن تعظيم ذوي السلطة باقتناء صورهم ثَلْمٌ في جانب الربوبية وتعظيم ذوي العبادة باقتناء صورهم ثَلْمٌ في جانب الألوهية.

القسم الثاني: اقتناء الصور للتمتع بالنظر إليها أو التلذذ بها، فهذا حرام أيضاً، لما فيه من الفتنة المؤدية إلى سفاسف الأخلاق.

القسم الثالث: أن يقتنيها للذكرى حناناً أو تلطفاً، كالذين يصورون صغار أولادهم لتذكرهم حال الكبر، فهذا أيضاً حرام للحوق الوعيد به في قوله ﷺ: «إن الملائكة لا تدخل بيتاً في صورة»[1].

القسم الرابع: أن يقتني الصور لا لرغبة فيها إطلاقاً، ولكنها تأتي تبعاً لغيرها، كالتي تكون في المجلات والصحف ولا يقصدها المقتني، وإنما يقصد ما في المجلات والصحف من الأخبار والبحوث العلمية ونحو ذلك، فالظاهر أن هذا لا بأس به، لأن الصور فيها غير مقصودة، لكن إن أمكن طمسها بلا حرج ولا مشقة، فهو أولى.

القسم الخامس: أن يقتني الصور على وجه تكون فيه مهانة ملقاة في الزبل، أو مفترشة، أو موطوءة، فهذا لا بأس به عند جمهور العلماء، وهل يلحق بذلك لباس ما فيه صورة؛ لأن في ذلك امتهاناً للصورة؟، الجواب: نقول لا يحلق بذلك، بل لباس ما فيه الصور محرم على الصغار والكبار، ولا يلحق بالمفروش ونحوه، لظهور الفرق بينهما، وقد صرح الفقهاء رحمهم الله بتحريم لباس ما فيه صورة، سواء كان قميصاً أو سراويل أم عمامة أم غيرها.

---

(١) رواه البخاري برقم (٣٢٢٦)، ومسلم برقم (٢١٠٦).

القسم السادس: أن يلجأ إلى اقتنائها إلجاء، كالصور التي تكون في بطاقة إثبات الشخصية والشهادات والأموال فلا إثم فيه لعدم إمكان التحرز منه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وقوله: «**ولا قبرا مشرفًا**»؛ أي: عاليًا؛ وقوله: «**إلا سويته**»؛ أي: سويته بما حوله من القبور، أو جعلته حسنًا على ما تقتضيه الشريعة.

والإشراف له وجوه؛ فقد يكون القبر مشرفًا بكبر الأعلام التي توضع عليه، أو أن يبنى عليه.

أو أن تشرف بالتلوين، وذلك بأن توضع على أعلامها ألوان مزخرفة.

أو أن يرفع تراب القبر عما حوله فيكون بيِّنًا ظاهراً.

فكل شيء مشرف؛ أي: ظاهر على غيره متميز عن غيره يجب أن يسوى بغيره، لئلا يؤدي ذلك إلى الغلو في القبور والشرك.

ومناسبة ذكر القبر المشرف مع الصور: أن كلاً منهما قد يتخذ وسيلة إلى الشرك، فإن أصل الشرك في قوم نوح عليه السلام أنهم صوروا صور رجال صالحين، فلما طال عليهم الأمد عبدوها، وكذلك القبور المشرفة قد يزداد فيها الغلو حتى تجعل أوثانًا تعبد من دون الله سبحانه وتعالى، وهذا ما وقع في بعض البلاد الإسلامية.

وقد كثر في زماننا هذا التصوير واستعماله، ونصب الصور بتعليقها والاحتفاظ بالصور التذكارية، وكثر أيضًا في هذا الزمان البناء على القبور، حتى صار ذلك أمراً مألوفًا، وذلك بسبب غربة الدين، وخفاء السنن، وظهور البدع، وسكوت كثير من العلماء، واستسلامهم للأمر الواقع، حتى أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفًا في غالب البلدان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فالواجب التنبيه والنصيحة لله ولكتابه ولنبيه ولأئمة المسلمين وعامتهم، خصوصًا وأن دعاة الضلال والمروجين للباطل كثيرون؛ فلا بد من كشف زيفهم ورد ضلالهم وتبصير المسلمين بشرهم حتى يحذروهم، وفق الله المسلمين للعمل بكتابه وسنة رسوله.

* * *

المسألة (التاسعة والأربعون):
فِي الظَّنِّ بِاللهِ غَيْرَ الحَقِّ

إن الله جل وعلا موصوف بصفات الكمال، وله سبحانه أفعال الحكمة، وأفعال العدل، وأفعال الرحمة والبر، فهو سبحانه كامل في أسمائه، كامل في صفاته، كامل في ربوبيته، ومن كماله في ربوبيته وفي أسمائه وصفاته أنه لا يفعل الشيء إلا لحكمة بالغة؛ والحكمة: هي أنه جل جلاله يضع الأمور في مواضعها التي توافق الغايات المحمودة منها.

فلهذا وجب لكماله سبحانه أن يُظن به ظن الحق، وألا يُظن به ظن السوء، وأن يُعتقد فيه ما يجب لجلاله تعالى من تمام الحكمة، وكمال العدل، وكمال الرحمة، وكمال أسمائه وصفاته - سبحانه وتعالى -.

وأما الظن بـ«**غير الحق**» فهو ظن السوء؛ فهو ظن الجاهلية؛ الذي هو منافٍ لأصل التوحيد في بعض أحواله، أو منافٍ لكمال التوحيد.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

قوله: ﴿يَظُنُّونَ﴾؛ الضمير يعود على المنافقين، والأصل في الظن: أنه الاحتمال الراجح، وقد يطلق على اليقين، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦]؛ أي: يتيقنون، وضد الراجح المرجوح، ويسمى وَهْمًا.

وقوله: ﴿ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾؛ عطف بيان لقوله: ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾، و ﴿ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾: حال الجاهلية؛ والمعنى: يظنون بالله تعالى ظن الملة الجاهلية، التي لا يعرف الظان فيها قدر الله سبحانه وعظمته، فهو ظن باطل مبني على الجهل.

والظن بالله عز وجل على نوعين:

النوع الأول: أن يظن بالله تعالى خيراً؛ وله متعلقان:

الأول: متعلق بالنسبة لما يفعله في هذا الكون، فهذا يجب علينا أن نحسن الظن بالله عز وجل فيما يفعله - سبحانه وتعالى - في هذا الكون، وأن نعتقد أن ما فعله إنما هو لحكمة بالغة قد تصل العقول إليها وقد لاتصل، وبهذا يتبين عظمة الله تعالى وحكمته في تقديره، فلا يظن أن الله جل وعلا إذا فعل شيئاً في الكون فعله لإرادة سيئة، حتى الحوادث والنكبات لم يحدثها الله سبحانه لإرادة السوء المتعلق بفعله، أما المتعلق بغيره بأن يحدث ما يريد به أن يسوء هذا الغير، فهذا واقع، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب: ١٧].

والثاني: متعلق بالنسبة لما يفعله بنا، فهذا يجب أن نظن بالله تعالى أحسن الظن، لكن بشرط أن يوجد لدينا السبب الذي يوجب الظن الحسن، وهو أن نعبد الله عز وجل على مقتضى شريعته مع الإخلاص، فإذا فعلنا ذلك، فعلينا أن نظن أن الله سبحانه وتعالى يقبل منا ولا نسيء الظن بالله تعالى بأن نعتقد أنه لن يقبل منا، وكذلك إذا تاب الإنسان من الذنب، فيحسن الظن بالله سبحانه أنه يقبل منه، ولا يسيء الظن بالله جل جلاله بأن يعتقد أنه لا يقبل منه.

وأما إن كان الإنسان مفرطاً في الواجبات فاعلاً للمحرمات، وظن بالله تعالى ظناً حسناً، فهذا هو ظن المتهاون المتهالك في الأماني الباطلة، بل هو من سوء الظن بالله سبحانه، إذ أن حكمة الله تعالى تأبى مثل هذا.

والنوع الثاني: أن يظن بالله تعالى شراً.

وهو أن يظن بالله سبحانه وتعالى سوءاً؛ مثل أن يظن في فعله سفهاً أو ظلماً أو نحو ذلك، فإنه من أعظم المحرمات وأقبح الذنوب، كما ظن هؤلاء المنافقون وغيرهم ممن يظن بالله تعالى غير الحق.

وقوله: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾؛ مرادهم بذلك أمران:

الأول: رفع اللوم عن أنفسهم.

الثاني: الاعتراض على القدر.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾؛ أي: فإذا كان كذلك، فلا وجه لاحتجاجكم على قضاء الله وقدره، فالله عز وجل يفعل ما يشاء من النصر والخذلان.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَمْرَ﴾؛ أي: الشأن كل الشأن الذي يتعلق بأفعال الله سبحانه وأفعال المخلوقين كله لله سبحانه، فهو الذي يقدر الذل والعز والخير والشر، لكن الشر في مفعولاته لا في فعله.

وقوله: ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾؛ أي: ما لا يظهرون لك، فمن شأن المنافقين عدم الصراحة والصدق، فيخفي في نفسه ما لا يبديه لغيره؛ لأنه يرى من جبنه وخوفه أنه لو أخبر بالحق لكان فيه هلاكه، فهو يخفي الكفر والفسوق والعصيان.

وقوله: ﴿مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾؛ أي: في أُحد؛ والمراد بمن قتل: من استشهد من المسلمين في أُحد؛ لأن عبد الله بن أُبي رجع بنحو ثلث الجيش في غزوة أُحد، وقال: «إن محمداً يعصيني ويطيع الصغار والشبان».

وقوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾؛ هذا رد لقولهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾، وهذا الاحتجاج لا حقيقة له؛ لأنه إذا كتب القتل على أحد، لم ينفعه تحصنه في بيته، بل لابد أن يخرج إلى مكان موته.

والكتاب قسمان:

الأول: كتابة شرعية، وهذا لا يلزم منها وقوع المكتوب، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣].

الثاني: كتابة كونية، وهذه يلزم منها وقوع المكتوب كما في هذه الآية، ومثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ

ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقوله عز وجل: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ [المجادلة: ٢١].

وقوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ ﴾؛ أي: يختبر ما في صدوركم من الإيمان بقضاء الله وقدره والإيمان بحكمته، فيختبر ما في قلب العبد بما يقدره عليه من الأمور المكروهة، حتى يتبين من استسلم لقضاء الله جل جلاله وقدره وحكمته ممن لم يكن كذلك.

وقوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾؛ أي: إذا حصل الابتلاء فقوبل بالصبر، صار في ذلك تمحيص لما في القلب؛ أي: تطهير له وإزالة لما يكون قد علق به من بعض الأمور التي لا تنبغي.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾؛ جملة خبرية فيها إثبات أن الله جل وعلا عليم بذات الصدور؛ والمراد بها القلوب، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]؛ فالله لا يخفى عليه شيء، فيعلم ما في القلب، وما ليس في قلبه، متى يكون وكيف يكون.

وقَالَ الله تَعَالَى: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

قوله: ﴿ٱلظَّآنِّينَ﴾؛ أي: المنافقون والمشركون، قال الله تعالى قبلها: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ﴾؛ أي: ظن العيب؛ وهو كقوله تعالى في الآية السابقة: ﴿ظَنَّ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ﴾.

وقوله: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾؛ أي: أن السوء محيط بهم جميعًا من كل جانب، كما تحيط الدائرة بما في جوفها، وكذلك تدور عليهم دوائر السوء، فهم وإن ظنوا أنه تعالى تخلى عن رسوله وأن أمره سيضمحل، فإن الواقع خلاف ظنهم، ودائرة السوء راجعة عليهم.

وقوله: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ الغضب من صفات الله جل جلاله الفعلية التي تتعلق بمشيئته ويترتب عليها الانتقام.

وقوله: ﴿وَلَعَنَهُمۡ﴾؛ اللعن: الطرد والإبعاد عن رحمة الله سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: هيأها لهم وجعلها سكنا لهم ومستقراً.

وقوله: ﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا﴾؛ أي: مرجعًا يصار إليه؛ وساءت النار مصيراً يصيرون إليه.

***

المسألة (الخمسون):
فِي الأمْنِ مِنْ مَكْرِ الله تَعَالَى، وَالقُنُوْطِ مِنْ رَحْمَةِ الله عَزَّ وَجَلَّ

المراد هنا بيان أن الجمع بين الخوف والرجاء واجب من واجبات الإيمان، ولا يتم التوحيد إلا بذلك، فعدم الجمع بين الخوف والرجاء منافٍ لكمال التوحيد.

فالواجب على العبد أن يجعل خوفه مع الرجاء، وأن يجعل رجاءه مع الخوف، وأن لا يأمن المكر، كما لا يقنط من رحمة الله جل وعلا.

وهو مشتمل على أمرين:

الأول: الأمن من مكر الله تعالى.

والثاني: القنوط من رحمة الله سبحانه، وكلاهما طرفا نقيض.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]

قوله تعالى: ﴿**أَفَأَمِنُوا۟**﴾، الضمير يعود على أهل القرى؛ لأن ما قبلها قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ۞ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۞ **أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ**﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٩].

وقوله: ﴿**وَهُمْ نَآئِمُونَ**﴾؛ يدل على كمال الأمن؛ لأنهم في بلادهم، وأن الخائف لا ينام، وقوله: ﴿**ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ**﴾؛ يدل على كمال الأمن والرخاء وعدم الضيق؛ لأنه لو كان عندهم ضيق في العيش لذهبوا يطلبون الرزق والعيش، وما صاروا في الضحى - في رابعة النهار - يلعبون.

والاستفهامات هنا كلها للإنكار والتعجب من حال هؤلاء، فهم نائمون وفي رغد، ومقيمون على معاصي الله سبحانه وعلى اللهو، ذاكرون لترفهم، غافلون عن

ذكر خالقهم، فهم في الليل نوم، وفي النهار لعب، فبين الله عز وجل أن هذا من مكره بهم، ولهذا قال: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾، ثم ختم الآية بقوله: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، فالذي يمن الله تعالى عليه بالنعم والرغد والترف وهو مقيم على معصيته يظن أنه رابح وهو في الحقيقة خاسر.

فإذا أنعم الله تعالى عليك من كل ناحية؛ أطعمك من جوع، وآمنك من خوف، وكساك من عري، فلا تظن أنك رابح وأنت مقيم على معصية الله تعالى، بل أنت خاسر؛ لأن هذا من مكر الله عز وجل بك؛ قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب؛ فإنما هو استدراج»[1].

وقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾؛ دليل على أن لله تعالى مكراً؛ والمكر هو التوصل إلى الإيقاع بالخصم من حيث لا يشعر.

فإن قيل: كيف يوصف الله تعالى بالمكر مع أن ظاهره أنه مذموم؟.

الجواب: أن المكر في محله محمود؛ يدل على قوة الماكر، وأنه غالب على خصمه، ولذلك لا يوصف الله سبحانه وتعالى به على الإطلاق، فلا يجوز أن تقول أن الله ماكر، وإنما تذكر هذه الصفة في مقام تكون فيه مدحاً، مثل قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال الله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠]، وأيضاً مثل قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾.

وكذلك لا يسمى الله تعالى بها، فلا يقال: إن من أسماء الله الماكر.

والخداع كالمكر يوصف به الله سبحانه حيث يكون مدحاً، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، والمكر من الصفات الفعلية؛ لأنها تتعلق بمشيئة الله سبحانه.

وتفسير المكر في قول بعض العلماء: «يستدرجهم الله بالنعم إذا عصوه، ويملي لهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر»؛ وهذا هو معنى المكر والخديعة ونحو ذلك.

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٤٥)، وصححه الألباني؛ انظر «السلسلة الصحيحة» برقم (٤١٣).

وقَالَ الله تَعَالَى: ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [الحجر: ٥٦]

قوله تعالى: ﴿**وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ**﴾؛ فإن إبراهيم عليه السلام لما بشرته الملائكة بغلام عليم، قال لهم: ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۞ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ۞ **قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ** ﴾ [الحجر: ٥٤-٥٦].

والقنوط: هو أشد اليأس؛ لأن الإنسان يقنط ويبعد الرجاء والأمل، بحيث يستبعد حصول مطلوبه أو كشف مكروبه.

وقوله تعالى: ﴿**إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ**﴾؛ الضال: فاقد الهداية، التائه الذي لا يدري ما يجب لله تعالى، مع أنه سبحانه قريب الخير؛ كما دلت على ذلك نصوص كثيرة.

فالقنوط من رحمة الله جل وعلا لا يجوز؛ لأنه سوء ظن بالله عز وجل، وذلك من وجهين:

الأول: أنه طعن في قدرته سبحانه؛ لأن من علم أن الله تعالى على كل شيء قدير لم يستبعد شيئاً على قدرة الله تعالى.

الثاني: أنه طعن في رحمته سبحانه؛ لأن من علم أن الله تعالى رحيم لا يستبعد أن يرحمه الله سبحانه، ولهذا كان القانط من رحمة الله ضالاً.

ولا ينبغي للإنسان إذا وقع في كربة أن يستبعد حصول مطلوبه أو كشف مكروبه، وكم من إنسان وقع في كربة وظن أن لا نجاة منها، فنجاه الله سبحانه.

وتبين مما سبق أن على الإنسان أن يجمع في سيره إلى الله تعالى بين الخوف فلا يأمن مكر الله عز وجل، وبين الرجاء فلا يقنط من رحمته سبحانه، فالأمن من مكر الله تعالى ثلم في جانب الخوف، والقنوط من رحمته ثلم في جانب الرجاء.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُوْلَ الله ﷺ سُئِلَ عَنِ الكَبَائِرِ؟، فَقَالَ: «الشِّرْكُ بِالله، وَاليَأْسُ مِنْ رَوْحِ الله، وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ الله»[1].

---

(١) رواه البزار؛ انظر «كشف الأستار عن زوائد البزار» (١/ ٧١)، وصححه الألباني؛ انظر «سلسلة الأحاديث الصحيحة» برقم (٢٠٥١).

قوله: «**الكبائر**» جمع كبيرة؛ والمراد بها: كبائر الذنوب، والذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر، وقد دل على ذلك قول الله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، وقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ [النجم: ٣٢]، والكبائر ليست على درجة واحدة، فبعضها أكبر من بعض.

واختلف العلماء: هل الكبائر معدودة أو محدودة؟.

فقال بعضهم: إنها معدودة؛ وصار يعددها؛ ويتتبع النصوص الواردة في ذلك.

وقال آخرون: إنها محدودة؛ وقد حَدَّها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقال: «كل ما رتب عليه عقوبة خاصة، سواء كانت في الدنيا أو الآخرة، وسواء كانت بفوات محبوب أو بحصول مكروه»، وهذا واسع جداً يشمل ذنوباً كثيرة[1].

ووجه ما قاله: أن المعاصي قسمان:

قسم نهى عنه فقط ولم يذكر عليه وعيد، فعقوبة هذا تأتي بالمعنى العام للعقوبات، وهذه المعصية مكفرة بفعل الطاعات، كقوله ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان كفارة لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر»[2]، وكذلك ما ورد في «العمرة إلى العمرة»[3]؛ و«الوضوء من تكفير الخطايا»[4]، فهذه من الصغائر.

وقسم رتب عليه عقوبة خاصة؛ كاللعن، أو الغضب، أو التبرؤ من فاعله، أو الحد في الدنيا، أو نفي الإيمان، وما أشبه ذلك، فهذه كبيرة تختلف في مراتبها.

والسائل في هذا الحديث إنما قصده معرفة الكبائر ليجتنبها.

وقوله: «**الشرك بالله**»، ظاهر الإطلاق؛ أي: أن المراد به الشرك الأصغر والأكبر، وهو الظاهر؛ لأن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر، قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقاً»، وذلك لأن سيئة الشرك أعظم من سيئة الكذب، فدل على أن الشرك من الكبائر مطلقاً.

---

(١) وقمتُ بنظم حَدّ الكبائر وما ذكره العلماء من كبائر في منظومة مختصرة، جاءت في ستين بيتاً؛ انظر «منظومات متنوعة في مسائل مختلفة» (ص٣٨).

(٢) رواه مسلم برقم (٢٣٣).

(٣) رواه البخاري برقم (١٧٧٣) رقم (١٣٤٩).

(٤) رواه البخاري برقم (١٦٠)، ومسلم برقم (٢٢٩).

والشرك بالله تعالى يتضمن الشرك بربوبيته، أو بألوهيته، أو بأسمائه وصفاته.

بل: «**الشرك بالله**»؛ هو أكبر الكبائر، لأنه انتهاك لأعظم الحقوق، وهو حق الله تعالى الذي أوجدك وأعدك وأمدك، فلا أحد أكبر عليك نعمة من الله تعالى.

وقوله: «**اليأس من روح الله**»؛ اليأس: فَقْدُ الرجاء، والروح بفتح الراء قريب من معنى الرحمة، وهو الفرج والتنفيس، واليأس من روح الله سبحانه وتعالى من كبائر الذنوب لنتائجه السيئة.

وقوله: «**الأمن من مكر الله**»، بأن يعصي الله عز وجل مع استدراجه بالنعم، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ [الأعراف: ١٨٢-١٨٣].

وظاهر الحديث الحصر لهذه الأمور، وليس كذلك؛ لأن هناك كبائر غير هذه، ولكن الرسول ﷺ يجيب كل سائل بما يناسب حاله، فلعله رأى هذا السائل عنده شيء من الأمن من مكر الله أو اليأس من روح الله، فأراد أن يبين له ذلك، وهذه مسألة ينبغي أن يفطن لها الإنسان فيما يأتي من النصوص الشرعية مما ظاهره التعارض، فيحمل كل واحد منها على الحال المناسبة ليحصل التآلف بين النصوص الشرعية.

إذن فإن السائر إلى الله عز وجل يعتريه شيئان يعوقانه عن ربه، وهما الأمن من مكر الله تعالى، والقنوط من رحمة الله سبحانه، فإذا أُصيب بالضراء أو فات عليه ما يحب، تجده إن لم يتداركه ربه عز وجل يستولي عليه القنوط، ويستبعد الفرج، ولا يسعى لأسبابه، وأما الأمن من مكر الله سبحانه، فتجد الإنسان مقيماً على المعاصي مع توافر النعم عليه، ويرى أنه على حق، فيستمر في باطله، فلا شك أن هذا استدراج.

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى شَابٍ وَهُوَ فِي المَوْتِ، فَقَالَ: «كَيْفَ تَجِدُكَ؟»، قالَ: وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أَرْجُو اللهَ وَإِنِّي أَخَافُ ذُنُوبِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا المَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ مَا يَرْجُو وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ»[١].

---

(١) رواه الترمذي برقم (٩٨٣)، وابن ماجة برقم (٤٢٦١)، وصححه الألباني؛ انظر «صحيح الترغيب والترهيب» برقم (٣٣٨٣).

قوله: «**وهو بالموت**»، أي: في سكراته.

وقوله: «**كيف تجدك**»؛ أي: كيف تجد قلبك أو نفسك في الانتقال من الدنيا إلى الآخرة راجيًا رحمة الله أو خائفًا من غضب الله عز وجل.

وقوله: «**أرجو الله**»؛ أي: أجدني أرجو رحمته، «**وإني**»؛ أي: مع هذا «**أخاف ذنوبي**»؛ قال الطيبي رَحِمَهُ اللَّهُ: علق الرجاء بالله والخوف بالذنب.

وقوله: «**لا يجتمعان**»؛ أي: الرجاء والخوف، «**في مثل هذا الموطن**»؛ أي: في هذا الوقت، وهو زمان سكرات الموت؛ ومثله: كل زمان يشرف في الإنسان على الموت حقيقة أو حكمًا؛ كزمان القصاص... ونحوه.

وقوله: «**ما يرجو**»؛ أي: من الرحمة «**وآمنه مما يخاف**»؛ أي: من العقوبة بالعفو والمغفرة.

قال السندي رَحِمَهُ اللَّهُ: الحديث يدل على أنه ينبغي وجود الأمرين - الرجاء والخوف - على الدوام حتى في ذلك الوقت - أي: وقت الإشراف على الموت - وأنه لا ينبغي أن يغلب في ذلك الوقت بحيث لا يبقي من الخوف شيء.

وقال بعض العلماء: لا يهمل عند الإشراف على الموت جانب الخوف أصلاً حيث يجزم أنه آمن.

وفيه رد على من استحب الاقتصار على الرجاء في ذلك الوقت.

فلا يقطع النظر في الرجاء عن الخوف، ولا في الخوف عن الرجاء؛ لئلا يفضي في الأول إلى المكر، وفي الثاني إلى القنوط، وكل منهما مذموم.

والمقصود من الرجاء أن من وقع منه تقصير فليحسن ظنه بالله ويرجو أن يمحو عنه ذنبه، وكذا من وقع منه طاعة يرجو قبولها.

وأما من انهمك على المعصية راجيًا عدم المؤاخذة بغير ندم ولا إقلاع فهذا في غرور، وقال أبو عثمان الجيزي رَحِمَهُ اللَّهُ: من علامة السعادة أن تطيع، وتخاف أن لا تقبل، وعلامة الشقاء أن تعصى، وترجو أن تنجو.

وجاء عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: يا رسول الله، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]؛ أهو الذي يسرق ويزني؟، قال: «لا، ولكنه الذي يصوم ويتصدق ويصلي وهو يخاف أن لا يقبل منه»(١).

وقيل: الأولى أن يكون الخوف في الصحة أكثر وفي المرض عكسه، وأما عند الإشراف على الموت؛ أن يجتمع الخوف والرجاء كما في الحديث، واستحب قوم تغليب الرجاء لما يتضمن من الافتقار إلى الله تعالى، ولأن المحذور من ترك الخوف قد تعذر فيتعين حسن الظن بالله برجاء عفوه ومغفرته، ويؤيده قوله ﷺ: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله»(٢).

* * *

(١) رواه أحمد (٦/ ٢٠٥)، والترمذي برقم (٣١٧٥)، وابن ماجة برقم (٤١٩٨)، وحسنه الألباني؛ انظر «السلسلة الصحيحة» برقم (١٦٢).

(٢) رواه مسلم برقم (٢٨٧٧).

المسألة (الحادية والخمسون):
مِنَ الإِيْمَانِ بِالله الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ الله تعالى

قوله: «**الصبر**»؛ في اللغة: الحبس،وفي الاصطلاح: حبس النفس على أشياء، وعن أشياء.

والصبر من المقامات العظيمة والعبادات الجليلة التي تكون في القلب وفي اللسان وفي الجوارح، وحقيقة العبودية لا تثبت إلا بالصبر؛ لأن العبادة أمر شرعي أو نهي شرعي أو ابتلاء بأن يصيب الله تعالى العبد بمصيبة قدرية، فيصبر عليها.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذكر الله تعالى الصبر في تسعين موضعـًا من كتابه».

وجاء عن النبي ﷺ أنه قال: «الصبر ضياء»[1]، وأيضـًا قال ﷺ: «ما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر»[2].

والصبر على ثلاثة أقسام:

الأول: الصبر على طاعة الله عز وجل؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ۞ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الإنسان: ٢٣-٢٤]، وهذا من الصبر على الأوامر؛ لأنه إنما نزل عليه القرآن ليبلغه، فيكون مأموراً بالصبر على الطاعة، وقال الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨]، وهذا صبر على طاعة الله تعالى.

الثاني: الصبر عن معصية الله تعالى؛ كصبر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ عن إجابة امرأة العزيز حيث دعته إلى نفسها في مكانة لها فيها العزة والقوة والسلطان عليه، ومع ذلك صبر و﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٢٣).

(٢) رواه البخاري برقم (١٤٦٩)، ومسلم برقم (١٠٥٣).

﴿مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]، فهذا صبر عن معصية الله تعالى.

الثالث: الصبر على أقدار الله تعالى؛ قال الله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الإنسان: ٢٤]، فيدخل في هذه الآية حكم الله القدري، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، لأن هذا صبر على تبليغ الرسالة وعلى أذى قومه.

وقوله: «**على أقدار الله تعالى**»، جمع قدر؛ وهو التقدير لشيء قبل قضائه؛ وهو علم الله تعالى بالأشياء قبل وقوعها، وكتابته لها في اللوح المحفوظ، وعموم مشيئته لما يقع، وخلقه - عز وجل - للأشياء كلها.

وهو سر الله تعالى في خلقه، لم يطَّلع على ذلك مَلَك مقرَّب، ولا نبيٌّ مُرسل.

قال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالقضاء والقدر أمران متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر؛ لأن أحدهما بمنزلة الأساس وهو القدر، والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء؛ فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه».

ومن الأمثلة التي تبين الفرق بين القضاء والقدر؛ أن القدر: منزلة تقدير الخياط للثوب، فهو قبل أن يفصله يقدره، فيزيد وينقص، فإذا فصله، فقد قضاه وفرغ منه وفاته التقدير، وعلى هذا يكون القدر سابقًا للقضاء.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ * وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ * وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٣-١٥٦]

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ تصدير الحكم بالنداء دليل على الاهتمام به؛ لأن النداء يوجب انتباه المنادَى؛ ثم النداء بوصف الإيمان دليل على أن تنفيذ هذا الحكم من مقتضيات الإيمان، وعلى أن فواته نقص في الإيمان؛ قال ابن مسعود

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إذا سمعت الله يقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ فأرعها سمعك - يعني: استمع لها - فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه.

وقوله تعالى: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾؛ أي: اجعلوا الصبر والصلاة عونًا لكم؛ ليكن الله تعالى معكم، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ وهذه بشرى عظيمة لمن صبر؛ ولكن لماذا قال تعالى: ﴿مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾، ولم يقل: مع المصلين؛ يقول أهل العلم: لوجوه ثلاثة؛ الأول: لأن الصلاة من الصبر، ولأنها صبر على طاعة الله عز وجل، والثاني: لأن الاستعانة بالصبر أشق من الصلاة، والثالث: لأنه إذا كان مع الصابرين فهو مع المصلين من باب أولى.

وفيها إثبات معية الله سبحانه وتعالى؛ ومعيته تعالى نوعان:

النوع الأول: عامة لجميع الخلق، ومقتضاها الإحاطة بهم علمًا، وقدرة، وسلطانًا، وسمعًا، وبصراً، وغير ذلك من معاني ربوبيته؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ﴾ [المجادلة: ٧].

والنوع الثاني: خاصة؛ ومقتضاها مع الإحاطة: النصر، والتأييد؛ وهي نوعان: مقيدة بوصف، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨]؛ ومقيدة بشخص، كقوله تعالى لموسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه: ٤٦]، وقوله عن نبيه محمد ﷺ: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ﴾؛ ﴿لَا﴾ ناهية؛ أي: لا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله - وهو الذي قاتل لتكون كلمة الله هي العليا - أمواتًا موتًا مطلقًا، دون الموت الذي هو مفارقة الروح للجسد؛ فهذا موجود؛ ولولا أن أرواحهم فارقت أجسادهم لما دفناهم، ولكانوا باقين يأكلون ويشربون؛ ولكن الموت المطلق لم يقع عليهم؛ بدليل قوله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ﴾؛ يعني: بل أحياء عند

ربهم، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾؛ أي: لا تشعرون ولا تحسون بحياتهم؛ لأنها حياة برزخية غيبية؛ ولولا أن الله عز وجلّ أخبرنا بها ما كنا نعلم بها.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ﴾، هذه مصائب خمس؛ والجملة هنا مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم، واللام، والنون؛ والتقدير: والله لنبلونكم؛ وابتلاء العباد بما ذكر الله تعالى من الخوف، والجوع، ونقص الأموال، والأنفس، والتمرات، وهو لمن وقع به ظاهر؛ ولغيرهم يكون الابتلاء بالاعتبار، والخوف أن يقع بهم مثل ما وقع بالذين ابتلوا.

وقوله تعالى: ﴿بِشَىْءٍ ﴾؛ التنكير هنا للتقليل؛ أي: بقليل من ذلك، والقلة بالنسبة لما حفظهم عنه مما لم يقع هم وأخبرهم سبحانه به قبل و قوعه ليوطنوا عليه نفوسهم فإن مفاجأة المكروه أشد، ويزداد يقينهم عند مشاهدتهم له حسبما أخبر به، وليعلموا أنه شيء يسير له عاقبة محمودة، وقيل: يحتمل أن يكون للتكثير.

وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْخَوْفِ ﴾؛ أي: الذُّعْر، وهو شامل للخوف العام، والخوف الخاص؛ الخوف العام: كأن تكون البلاد مهددة بعدو؛ والخوف الخاص: كأن يكون الإنسان يبتلى بنفسه بمن يخيفه ويروعه.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلْجُوعِ﴾؛ هو خلو البطن من الطعام مع شدة اشتهائه؛ وهو ضد الشِّبع؛ وله أسباب؛ منها: قلة الطعام، وقلة المال الذي يحصل به الطعام؛ والجوع لا يدرك أثره إلا من جربه؛ بل كل المصائب لا يدرك أثرها إلا من جربها؛ أما من لم يجرب فإنه لا يشعر بآثار المصائب؛ ولهذا قيل: ويضدها تتبين الأشياء.

وقوله تعالى: ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ ﴾؛ جمع مال؛ وهو كل ما يتموله الإنسان من نقود، ومتاع، وحيوان.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَنفُسِ ﴾ جمع نفس؛ والمراد: الأرواح، كالأمراض الفتاكة التي تهلك بما أمم، مثل الطاعون، وغيره.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ جمع ثمرة؛ وهي ما ينتج من أشجار النخيل، والأعناب، وغيرهما، بأن تأتي كوارث تنقص بها هذه الثمار، أو تتلف.

وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾؛ أي: أخبرهم بما يسرهم.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ﴾؛ أي: من هذه المصائب التي ذكرها.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: بقلوبهم، وألسنتهم ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾؛ اللام للملك؛ يعني إنا ملك لله يفعل بنا ما يشاء.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾؛ أي: صائرون في جميع أمورنا دنيا وأخرى، فنرجو الذي أصابنا بهذه المصيبة عند رجوعنا إليه أن يجزينا بأفضل منها؛ فهم جمعوا هنا بين الإقرار بالربوبية في قولهم: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾، وبين الإقرار والإيمان بالجزاء الذي يستلزم العمل الصالح، لأنهم يقولون: ﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾؛ فنحن نرجو ثوابه مع أنه فعل بنا ما هو ملكه وبيده، وتقديم المتعلق يفيد الحصر؛ أي: راجعون إليه لا إلى غيره.

وقد جاء في السنة زيادة عليها؛ أي: تقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، وتقول: «اللهم أجرني في مصيبتي - أي: أثبني عليها - وأخلف لي - أي: اجعل لي خلفًا – خيراً منها»[1]؛ وهذا كما جاء في قصة أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فإنها كانت تحب زوجها ابن عمها أبا سلمة محبة شديدة؛ ولما مات – وكان النبي ﷺ قد حدثها بهذا الحديث – قالت: «اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيراً منها»؛ فكانت تفكر في نفسها، وتقول: من يصير خيراً من أبي سلمة!، وهي مؤمنة في نفسها أن ما قاله النبي ﷺ حق؛ لكن لا تدري من هو؛ وما كان يجول في فكرها أن الرسول ﷺ سيكون هو الخلف؛ فأخلف الله لها خيراً من زوجها؛ فإذا قالها الإنسان مؤمنًا محتسبًا آجره الله في مصيبته، وأخلف له خيراً منها.

---

(١) رواه مسلم برقم (٩١٨).

والناس ينقسمون عند المصائب إلى قسمين: صابر، وساخط؛ وقد جاء في الحديث: «من رضي فله الرضى؛ ومن سخط فله السخط»[(١)]؛ فالصبر على المصائب واجب؛ وقد ذكر العلماء أن للإنسان عند المصيبة أربعة مقامات:

المقام الأول: الصبر؛ وهو واجب.

المقام الثاني: الرضى؛ وهو سنة على القول الراجح؛ والفرق بينه وبين الصبر وأن الصابر يتجرع مرارة الصبر، ويشق عليه ما وقع؛ ولكنه يحبس نفسه عن السخط؛ وأما الراضي: فإن المصيبة باردة على قلبه لم يتجرع مرارة الصبر عليه؛ فهو أكمل حالاً من الصابر.

المقام الثالث: الشكر؛ بأن يشكر الله تعالى على المصيبة.

فإن قيل: كيف يشكره على المصيبة؟، فالجواب: أن ذلك من وجوه: منها: أن ينسبها إلى ما هو أعظم منها؛ فينسب مصيبة الدنيا إلى مصيبة الدين؛ فتكون أهون؛ فيشكر الله عز وجل أن لم يجعل المصيبة في الأشد.

ومنها: احتساب الأجر على المصيبة، بأنه كلما عظم المصاب كثر الثواب، ولهذا ذكروا عن بعض العابدات أنها أصيبت بمصيبة ولم يظهر عليها أثر الجزع؛ فقيل لها في ذلك، فقالت: إن حلاوة أجرها أنستني مرارة صبرها.

المقام الرابع: السخط – وهو محرم – بل من كبائر الذنوب؛ فقد قال النبي ﷺ: «ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية»[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞ**﴾؛ الإشارة بـ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ**﴾ إلى ﴿**ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ**﴾

وقوله تعالى: ﴿**صَلَوَٰتٞ**﴾ اختلف العلماء في معناها؛ الصلاة في الأصل على ما عليه أكثر أهل اللغة الدعاء ومن الله تعالى الرحمة، وقيل: الثناء، وقيل: التعظيم، وقيل: المغفرة، ولكن أصح الأقوال فيها أن المراد بها الثناء عليهم في الملأ الأعلى؛

---

(١) رواه الترمذي برقم (٢٣٩٦)، وابن ماجة برقم (٤٠٣١)، وصححه الألباني؛ انظر «السلسلة الصحيحة» برقم (١٤٦).

(٢) رواه البخاري برقم (١٢٩٧)، ومسلم برقم (١٠٣).

والمعنى أن الله تعالى يثني على هؤلاء في الملأ الأعلى رفعـًا لذكرهم وإعلاء لشأنهم، وجمع ﴿صَلَوَٰتٌ﴾ للإشارة إلى أنها مشتملة على أنواع كثيرة على حسب اختلاف الصفات التي بها الثناء، وقيل: للإيذان بأن المراد صلاة بعد صلاة.

وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ عطفها على ﴿صَلَوَٰتٌ﴾؛ من باب عطف العام على الخاص؛ لأن الثناء عليهم في الملأ الأعلى من الرحمة.

وقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾؛ أي: الذين اهتدوا إلى طريق الحق؛ فإن هذا الكلام الذي يقولونه مع الصبر هو الهداية؛ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة كسابقه إلى الصابرين المنعوتين بما ذكر من النعوت، والتكرير لإظهار كمال العناية بهم.

وقَالَ الله تَعَالَى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن: ١١].

قوله: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بمشيئته وإرادته وحكمته، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد: ٢٢]، وقال الله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦-١٥٧].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾؛ المراد بالإيمان بالله تعالى هنا الإيمان بقدره.

وقوله: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾؛ أي: يرزقه الطمأنينة، وهذا يدل على أن الإيمان يتعلق بالقلب، فإذا اهتدى القلب اهتدت الجوارح، لقوله ﷺ: «إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب» [(١)].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾، تنبيه على أن ذلك إنما يصدر عن علمه المتضمن لحكمته، وذلك يوجب الصبر والرضى.

---

(١) رواه البخاري برقم (٥٢)، ومسلم برقم (١٥٩٩).

وقال علقمة بن قيس رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير الآية: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم.

وتفسير علقمة رَحِمَهُ اللَّهُ هذا من لازم الإيمان؛ لأن من آمن بالله تعالى علم أن التقدير من الله عز وجل، فيرضى ويسلم، فإذا علم أن المصيبة من الله سبحانه وتعالى اطمأن القلب وارتاح، ولهذا كان من أكبر الراحة والطمأنينة الإيمان بالقضاء والقدر.

وفي هذا دليل على أن الأعمال من مسمى الإيمان، وأن الصبر سبب لهداية القلب، وأنها من ثواب الصابرين.

وَقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى المَيِّتِ»[١].

قوله: «**اثنَتَانِ في النَّاس هُما بِهم كُفْر**»؛ أي: هما بالناس كفر حيث كانتا من أعمال الجاهلية، وهما قائمتان بالناس ولا يسلم منهما إلا من سلمه الله تعالى ورزقه علماً وإيماناً يستضيء به.

وقوله: «**كفر**»؛ هذا كفر أصغر، وهو من أعمال الجاهلية، لكن لا يخرج به من الملة، مثل قوله ﷺ في الحديث الآخر: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة على الميت»[٢]؛ يعني: كل ما جاء من النصوص به ذكر الكفر أو الشرك لأهل القبلة الموحدين، فهو عندنا يكون كفراً أصغر، وشركاً أصغر، مثل: من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك[٣]، ومثل: قوله ﷺ: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»[٤]؛ ومثل قوله ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفاراً، يضرب بعضكم رقاب بعض»[٥].

---

(١) رواه مسلم برقم (٦٧).

(٢) رواه مسلم برقم (٩٣٤).

(٣) رواه أبو داود برقم (٣٢٥١)، والترمذي برقم (١٥٣٥)، صححه الألباني؛ انظر «السلسلة الصحيحة» برقم (٢٠٤٢).

(٤) رواه البخاري برقم (٤٨)، ومسلم برقم (٦٤).

(٥) رواه البخاري برقم (١٢١)، ومسلم برقم (٦٥).

فهذه النصوص التي فيها تسمية بعض الذنوب كفراً أو شركًا، وفاعلها موحد، وهو من أهل القبلة، فإن المراد أنه فعل شركًا أصغر، أو كفراً أصغر، وهي كبيرة عظيمة، فيكون إيمانه ناقصًا وضعيفًا، ولا يخرج به من الإسلام والإيمان، وتبقى أحكام الإسلام واسم الإيمان، وجميع الأحكام ثابتة له، إلا أنه ضعيف الإيمان وناقص الإيمان.

وقوله: «**الطعن في النسب**»؛ أي: عيبه؛ يدخل فيه أن يقال: هذا ليس ابن فلان مع ثبوت نسبه.

وقوله: «**النياحة على الميت**»؛ أي: رفع الصوت بالندب وتعداد فضائل الميت، لما فيه من التسخط على القدر المنافي للصبر، كقول النائحة: واعضداه، واناصراه، ونحو ذلك.

وهذه الجملة هي الشاهد هنا.

والواجب عند نزول المصيبة: الصبر والاحتساب لا الجَزَع والتسخُّط.

والنياحة دليل على عدم الرضى بقضاء الله وقدره، ودليلٌ على عدم الصبر والاحتساب؛ وهي من أمور الجاهلية، ويكفي أنها من أمور الجاهلية، لأن أمور الجاهلية محرّمة.

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الخُدُوْدَ، وَشَقَّ الجُيُوْبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ» [1].

قوله: «**من ضرب الخدود**» العموم يراد به الخصوص؛ أي: من أجل المصيبة؛ وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: خص الخد لكونه الغالب وإلا فضرب بقية الوجه والرأس والجسم مثله.

وقوله: «**وشق الجيوب**»؛ جمع جيب؛ وهو الذي يدخل فيه الرأس من الثوب، وهذه الفعلة هي من عادة أهل الجاهلية حزنًا على الميت، وذلك عند المصيبة تسخطًا وعدم تحمل لما وقع عليه.

---

(١) رواه البخاري برقم (١٢٩٤)، ومسلم برقم (١٠٣).

وقوله: «**ودعا بدعوى الجاهلية**»؛ المقصود بالدعوى كل دعوى منشؤها الجهل؛ وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: الدعاء بدعوى الجاهلية كالدعاء إلى القبائل والعصبية، ومثله التعصب إلى المذاهب والطوائف والمشايخ، وتفضيل بعضهم على بعض، يدعو إلى ذلك ويوالي عليه ويعادي، فكل هذا من دعوى الجاهلية.

وذكر هذه الأصناف الثلاثة؛ لأنها غالباً ما تكون عند المصائب، وإلا فمثله هدم البيوت، وكسر الأواني، وتخريب الطعام، ونحوه مما يفعله بعض الناس عند المصيبة.

وليس في هذا الحديث ولا الذي قبله ما يدل على النهي عن البكاء، لما ورد أن رسول الله ﷺ لما مات ابنه إبراهيم قال: «إن العين تدمع والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»[١]، وأيضاً ما جاء عن أسامة بن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ انطلق إلى إحدى بناته ولها صبي في الموت، فرفع إليه ونفسه تقعقع كأنها شن، ففاضت عيناه، فقال سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»[٢].

وَقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «إِذَا أَرَادَ الله بِعَبْدِهِ الخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ العُقُوْبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافَى بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ»[٣].

الله سبحانه وتعالى يريد بعبده الخير والشر، ولكن الشر المراد من الله تعالى ليس مراداً لذاته، بدليل قول النبي ﷺ: «والشر ليس إليك»[٤]، فالله تعالى يريد الشر لحكمة، وحينئذ يكون خيراً باعتبار ما يتضمنه من الحكمة.

وقوله: «**عجل له العقوبة في الدنيا**»؛ العقوبة: مؤاخذة المجرم بذنبه، وسميت بذلك، لأنها تعقب الذنب، لكنها لا تقال إلا في المؤاخذة على الشر.

---

(١) رواه البخاري برقم (١٣٠٣)، ومسلم برقم (٢٣١٥).

(٢) رواه البخاري برقم (١٢٨٤)، ومسلم برقم (٩٢٣).

(٣) رواه الترمذي برقم (٢٣٩٦)، وصححه الألباني؛ انظر «السلسلة الصحيحة» برقم (١٢٢٠).

(٤) رواه مسلم برقم (٧٧١).

وكان ذلك خيراً من تأخيرها للآخرة؛ لأنه يزول وينتهي، ولهذا قال النبي ﷺ للمتلاعنين: «إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة»[1]؛ وقال الله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٧].

والعقوبة أنواع كثيرة: منها ما يتعلق بالدين، وهي أشدها؛ لأن العقوبات الحسية قد ينتبه لها الإنسان، أما هذه، فلا ينتبه لها إلا من وفقه الله تعالى، وذلك كما لو خَفَّت المعصية في نظر العاصي، فهذه عقوبة دينية تجعله يستهين بها، وكذلك التهاون بترك الواجب، وعدم الغيرة على حرمات الله تعالى، وعدم القيام بها بالأمر بالمعروف والنهي على المنكر، وكل ذلك من المصائب، ودليله قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩].

ومنها: العقوبة بالنفس؛ كالأمراض العضوية والنفسية.

ومنها: العقوبة بالأهل؛ كفقدانهم، أو أمراض تصيبهم.

ومنها: العقوبة بالمال، كنقصه أو تلفه وغير ذلك.

وقوله: «**وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه**»؛ أي: أخر عنه العقوبة «**بذنبه حتى يُوافى به يوم القيامة**»؛ أي: لا يجازيه بذنبه في الدنيا حتى يجيء في الآخرة مستوفر الذنوب وافيها، فيستوفى ما يستحقه من العقاب.

وفيه التنبيه على حسن الرجاء وحسن الظن بالله تعالى فيما يقضيه لك، كما قال الله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

والمراد به تسلية الإنسان إذا أُصيب بالمصائب لئلا يجزع، فإن ذلك يكون خيراً، وعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فيحمد الله سبحانه وتعالى أنه لم يؤخر عقوبته إلى الآخرة.

وقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ، وَإِنَّ الله تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَى، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ»[2].

---

(١) رواه مسلم برقم (١٤٩٣).

(٢) رواه الترمذي برقم (٢٣٩٦)، وابن ماجه برقم (٤٠٣١)، وحسنه الألباني؛ انظر «صحيح الجامع» برقم (٢١١٠).

قولـه: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء**»؛ أي: يتقابل عظم الجزاء مع عظم البلاء، فكلما كان البلاء أشـد وصبر الإنسـان صـار الجزاء أعظم؛ لأن الله عز وجل عدل لا يجزي المحسـن بأقل من إحسـانه، فليس الجزاء على الشـوكة يشـاكها كالجزاء على الكسـر إذا كسـر، وهذا دليل على كمال عدل الله جل وعلا، وأنه لا يظلم أحداً، وفيه تسلية المصاب.

وقال النبي ﷺ: «ما يصيب المؤمن من هم ولا غم ولا شيء إلا كفر له بها، حتى الشوكة يشاكها»(١).

كما أنه قد يزداد إيمان المرء بذلك.

وقولـه: «**وإن الله إذا أحب قومـاً ابتلاهم**»، إذا عرف العبد أن الأنبيـاء والأوليـاء يصيبهم البلاء في أنفسهم الذي هو في الحقيقة رحمة ولا يدفعه عنهم إلا الله سبحانه، وفي وقوع الإبتلاء بالأنبياء والصـالحين من الأسـرار والحكم والمصـالح وحسـن العاقبة ما لا يحصى.

وقوله: «**فمن رضـي، فله الرضى، ومن سخط، فله السخط**»؛ أي: فله الرضى من الله تعالى، وإذا رضـي الله تعالى عن شـخص أرضـى الناس عنه جميعـًا، والمراد بالرضـى: الرضـى بقضاء الله تعالى من حيث إنه قضاء الله تعالى، وهذا واجب بدليل قوله: «**ومن سـخط**» فقابل الرضـى بالسـخط، وهو عدم الصـبر على ما يكون من المصائب القدرية الكونية.

ولـم يقل هنا «فعليه السـخط»، والسـخط الكراهية للشـيء وعدم الرضـى به؛ والمعنى: من سـخط على الله تعالى فيما دبره «**فله السـخط**» من الله تعالى، وكفى بذلك عقوبة.

مع أن مقتضى السياق أن يقول: «فعليه»، كقوله تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت: ٤٦]؛ ولكن هو تنوع بالتعبير.

* * *

---

(١) رواه البخاري برقم (٥٣١٨)، ومسلم برقم (٢٥٧٢).

المسألة (الثانية والخمسون):
فِي مُنْكِرِي القَدَرِ

قوله: «**منكري القدر**»؛ أي: رافضي القدر؛ و«**القدر**» هو تقدير الله عز وجل للكائنات، وهو سر مكتوم لا يعلمه إلا الله تعالى، أو من شاء الله تعالى أن يطلعه عليه من خلقه.

قال بعض أهل العلم: القدر سر الله سبحانه في خلقه، ولا نعلمه إلا بعد وقوعه سواء كان خيراً أو شراً.

والإيمان بالقدر يتعلق بتوحيد الربوبية خصوصاً، وله تعلق بتوحيد الأسماء والصفات؛ لأنه من صفات الكمال لله عز وجل.

والناس في القدر ثلاثة طوائف:

الأولى: الجبرية؛ اثبتوا قدر الله تعالى وغلوا في إثباته، حتى سلبوا العبد اختياره وقدرته، وقالوا: ليس للعبد اختيار ولا قدرة في ما يفعله أو يتركه، فأكله وشربه ونومه ويقظته وطاعته ومعصيته كلها بغير اختيار منه ولا قدرة، واستدلوا على هذا بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، والعبد وفعله من الأشياء، وبقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، وبقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، فنفى الله عز وجل الرمي عن نبيه حين رمى وأثبته لنفسه، وبقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

والرد عليهم: أما قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ استدلالهم بها معارض بالنصوص الكثيرة من الكتاب والسنة، التي فيها إثبات إرادة العبد وإضافة عمله إليه؛ قول الله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران:

١٦٧]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١١]؛ فأثبت للعبد إرادة وقولاً وفعلاً وعملاً، وقول النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئٍ ما نوى»[(١)]، وقوله ﷺ: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به، فأتوا منه ما استطعتم»[(٢)].

ولو كان العبد مجبراً على عمله، لكانت عقوبة العاصي ظلماً ومثوبة الطائع عبثاً، والله تعالى منزه عن هذا وهذا.

وأيضاً قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾؛ حجة عليهم؛ لأنه أضاف العمل إليهم، وأما كون الله تعالى خالقه – أي: العمل –، فلأن عمل العبد حاصل بإرادته الجازمة وقدرته التامة، والإرادة والقدرة مخلوقان لله عز وجل، فكان الحاصل بهما مخلوقاً لله سبحانه وتعالى.

وما استدلوا به من قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾؛ هو حجة عليهم أيضاً؛ لأن الله تعالى أضاف الرمي إلى نبيه ﷺ، لكن الرمي في الآية يراد به إيصال المرمي إلى أعين الكفار الذين رماهم النبي ﷺ بالتراب يوم بدر فأصاب عين كل واحد منهم، وهذا من فعل الله تعالى، إذ ليس بمقدور النبي ﷺ أن يوصل التراب إلى عين كل واحد منهم.

وما استدلوا به من قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖ﴾، فقد أبطل الله تعالى حجة هؤلاء المشركين الذي احتجوا بالقدر على شركهم، حين قال في الآية نفسها: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَا﴾، وما كان الله جل جلاله ليذيقهم بأسه وهم على حق فيما احتجوا به.

والطائفة الثانية: القدرية؛ فقد أثبتوا للعبد اختياراً وقدرة في عمله، وغلوا في ذلك، حتى نفوا أن يكون لله تعالى في عمل العبد مشيئة أو خلق، ونفى غلاتهم علم الله

---

(١) رواه البخاري برقم (١) ومسلم برقم (١٩٠٧).

(٢) رواه مسلم برقم (١٣٣٧).

سبحانه به قبل وقوعه، فأكل العبد أو شربه ونومه ويقظته وطاعته ومعصيته كلها واقعة باختياره التام وقدرته التامة وليس لله تعالى في ذلك مشيئة ولا خلق، بل ولا علم قبل وقوعه عند غلاتهم.

واستدلوا بقول الله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وقوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]، ونحوها من النصوص القرآنية والنبوية الدالة على أن للعبد إرادة، وأنه هو العامل الكاسب الراكع الساجد ونحو ذلك.

والرد عليهم: أن الآيات والأحاديث التي استدلوا بها نوعان:

نوع مقيد لإرادة العبد وعمله بأنه بمشيئة الله سبحانه وتعالى، كقوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨-٢٩]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا * وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٢٩-٣٠]، وكقوله تعالى في العمل: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

والنوع الثاني: مطلق؛ كقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، وقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨-١٩].

وأن إثبات استقلال العبد بعمله من كونه مملوكًا لله تعالى يقتضي إثبات شيء في ملك الله سبحانه لا يريده الله جل جلاله، وهذا نوع إشراك به.

ومما يحكى: أن القاضي عبد الجبار الهمذاني المعتزلي دخل على الصاحب ابن

عباد وكان معتزلياً أيضاً، وكان عنده الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني، فقال عبد الجبار- على الفور -: سبحان من تنزه عن الفحشاء!، فقال أبو إسحاق - فوراً -: سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء!، فقال عبد الجبار - وفهم أنه قد عرف مراده -: أيريد ربنا أن يعصى؟!، فقال أبو إسحاق: أيعصى ربنا قهراً؟، فقال له عبد الجبار: أرأيت إن منعني الهدى وقضى علي بالردى، أحسن إلى أم أساء؟!، فقال له أبو إسحاق: إن كان منعك ما هو لك، فقد أساء، وإن كان منعك ما هو له، فيختص برحمته من يشاء، فانصرف الحاضرون وهم يقولون: والله، ليس عن هذا جواب.

وهاتان الطائفتان - الجبرية والقدرية - ضالتان طريق الحق.

والطائفة الثالثة: أهل السنة والجماعة؛ وهم الوسط، الذين جمعوا بين الأدلة وسلكوا في طريقهم خير ملة، فآمنوا بقضاء الله تعالى وقدره، وبأن للعبد اختياراً وقدرة، فكل ما كان في الكون من حركة أو سكون أو وجود أو عدم، فإنه كائن بعلم الله تعالى ومشيئته، وكل ما كان في الكون فمخلوق لله تعالى، لا خالق إلا الله ولا مدبر للخلق إلا الله عز وجل، وآمنوا بأن للعبد مشيئة وقدرة، لكن مشيئته مرتبطة بمشيئة الله تعالى، كما قال الله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۞ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، فإذا شاء العبد شيئاً وفعله، علمنا أن مشيئة الله تعالى قد سبقت تلك المشيئة.

وما رددنا به على استدلالاتهم يثبت بوضوح العقيدة الصحيحة في هذه المسألة.

واعلم أن مراتب القدر:

هي أربع؛ يجب الإيمان بها كلها:

وقد جُمعت في بيت:

عِلْمٌ كِتَابَةُ مَوْلَانَا مَشِيْئَتُهُ ... وَخَلْقُهُ وَهْوَ إِيْجَادٌ وَتَكْوِيْنُ

فالمرتبة الأولى: العلم؛ وذلك بأن تؤمن بأن الله تعالى علم كل شيء جملة وتفصيلاً، فعلم ما كان وما يكون، فكل شيء معلوم لله سبحانه، سواء كان دقيقاً أم جليلاً من أفعاله أو أفعال خلقه؛ قال الله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ

وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩].

والمرتبة الثانية: الكتابة؛ وقد دلت عليها الآية السابقة.

والمرتبة الثالثة: المشيئة؛ وهي عامة، ما من شيء في السماوات والأرض إلا وهو كائن بإرادة الله تعالى ومشيئته، فلا يكون في ملكه مالا يريد أبداً، سواء كان ذلك فيما يفعله بنفسه أو يفعله مخلوق، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢]، وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

والمرتبة الرابعة: الخلق؛ فما من شيء في السماوات ولا في الأرض إلا الله سبحانه خالقه ومالكه ومدبره وذو سلطانه، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الزمر: ٦٢]، وهذا العموم لا مخصص له، حتى فعل المخلوق مخلوق لله تعالى؛ لأن فعل المخلوق من صفاته، وهو وصفاته مخلوقان.

واعلم أن العبد يتعلق بفعله شيئان:

الأول: خلق، وهذا يتعلق بالله عز وجل.

والثاني: مباشرة، وهذا يتعلق بالعبد وينسب إليه، قال الله تعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الواقعة: ٢٤]، وقال الله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢]، ولولا نسبة الفعل إلى العبد ما كان للثناء على المؤمن المطيع وإثابته فائدة، وكذلك عقوبة العاصي وتوبيخه.

وهناك تقديرات نسبية:

منها: تقدير عمري: حين يبلغ الجنين في بطن أمه أربعة أشهر يرسل إليه الملك، فينفخ فيه الروح، ويكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد(١).

ومنها: التقدير الحولي: وهو الذي يكون في ليلة القدر، يكتب فيها ما يكون في

---

(١) رواه البخاري برقم (٣٢٠٨)، ومسلم برقم (٢٦٤٣).

السنة، قال الله تعالى: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ [الدخان: ٤].

ومنها التقدير اليومي: كما ذكره بعض أهل العلم، واستدل له بقوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن: ٢٩]، فهو كل يوم يغني فقيراً، ويفقر غنياً، ويوجد معدوماً، ويعدم موجوداً، ويبسط الرزق ويقدرُهُ، وينشئ السحاب والمطر وغير ذلك.

قَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ عُمَرَ بِيَدِهِ، لَوْ كَانَ لِأَحَدِهِمْ مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا، ثُمَّ أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالقَدَرِ، ثُمَّ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الإِيْمَانُ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[1].

«**ابن عمر**» هو عبد الله بن عمر بن الخطاب، أبو عبد الرحمن، من علماء الصحابة، وكان من أشد الناس اتباعاً للسنة، مات سنة ثلاث وسبعين، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وقوله: «**والذي نفس ابن عمر بيده**» الصيغة هنا قسم، جوابه جملة: «**لو كان لأحدهم مثل أُحد ذهباً، ثم أنفقه في سبيل الله، ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر**»، وابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ذكر حكمهم بالنسبة لقبول عملهم ولم يقل هم كفار، لكن حكمه بأن إنفاقهم في سبيل الله عز وجل لا يقبل يستلزم الحكم بكفرهم، وإنما قال ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ذلك جواباً على ما نقل إليه من أن أُناساً من البصرة يقولون: إن الله عز وجل لم يقدر فعل العبد وإن الأمر أُنف - بضم الهمزة والنون؛ أي: مستأنف لم يسبق به قدر -، وأنه لا يعلم بأفعال العبد حتى يعملها وتقع منه، فابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حكم بكفرهم اللازم من قوله: «**ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر**»، والذي لا تقبل منه النفقات هو الكافر؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ ﴾ [التوبة: ٥٤]، ثم استدل ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بقول النبي ﷺ: «**الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره**

---

(١) رواه مسلم برقم(٨).

وشره»؛ فتؤمن بالجميع، فإن كفرت بواحد من هذه الستة، فأنت كافر بالجميع؛ لأن الإيمان كلٌّ لا يتجزأ، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۞ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

ووجه استدلال ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أن النبي ﷺ جعل الإيمان مبنياً على هذه الأركان الستة، وإذا فات ركن من الأركان، سقط البنيان، فإذا أنكر الإنسان شيئاً واحداً من هذه الأركان الستة، صار كافراً، وإذا كان كافراً، فإن الله تعالى لا يقبل منه.

وقوله: «**أن تؤمن بالله**»؛ والإيمان بالله عز وجل يتضمن أربعة أمور: الإيمان بوجوده، وبربوبيته، وبألوهيته، وبأسمائه وصفاته.

فمن أنكر وجود الله جل وعلا، فليس بمؤمن، ومن أقر بوجوده وأنه رب كل شيء، لكنه أنكر أسماءه وصفاته، أو أنكر أن يكون مختصاً بها، فهو غير مؤمن بالله سبحانه وتعالى.

وقوله: «**وملائكته**»؛ والإيمان بالملائكة يتضمن أربعة أمور: الإيمان بوجودهم، الإيمان باسم من علمنا اسمه منهم، والإيمان بأفعالهم، والإيمان بصفاتهم.

فممن علمنا صفاته جبريل - عَلَيْهِ السَّلَامُ -، علمناه على خلقته التي خلق عليها له ست مئة جناح، وقد سد الأفق، كما أخبرنا بذلك الرسول ﷺ[1]، وهذا يدل على عظمته، وأنه كبير جداً، فهو فوق ما نتصور، ومع ذلك يأتي أحياناً بصورة بشر، فأتى مرة بصورة دحية الكلبي[2]، وأتى مرة بصورة رجل شديد سواد الشعر، شديد بياض الثياب، لا يرى عليه أثر سفر، ولا يعرفه من الصحابة أحد، فجلس إلى النبي ﷺ جلسة المتعلم المتأدب[3].

وقوله: «**وكتبه**»؛ أي: الكتب التي أنزلها على رسله عليهم الصلاة والسلام.

والإيمان بالكتب يتضمن ما يلي: الإيمان بأنها حق من عند الله تعالى، وتصديق أخبارها، والتزام أحكامها ما لم تنسخ، وعلى هذا، فلا يلزمنا أن نلتزم بأحكام الكتب

---

(١) رواه البخاري برقم (٣٢٣٢)، ومسلم برقم (١٧٤).

(٢) رواه مسلم برقم (١٦٧).

(٣) رواه البخاري برقم (٥٠)، ومسلم برقم (٨).

السابقة؛ لأنها كلها منسوخة بالقرآن، إلا ما أقره القرآن، وكذلك لا يلزمنا العمل بما نسخ في القرآن؛ لأن القرآن فيه أشياء منسوخة.

والإيمان بما علمناه معيناً منها، مثل التوراة، والإنجيل، والقرآن، والزبور، وصحف إبراهيم عليه السلام، وصحف موسى عليه السلام.

والإيمان بأن كل رسول أرسله الله تعالى معه كتاب، كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقال عيسى عليه السلام: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ [مريم: ٣٠]، وقال عن يحيى عليه السلام: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢].

تنبيه: الكتب التي بأيدي اليهود والنصارى اليوم قد دخلها التحريف، فلا يوثق بها؛ والمراد بما سبق الإيمان بأصل الكتب.

وقوله: «**ورسله**»؛ هم الذين أوحى الله عز وجل إليهم وأرسلهم إلى الخلق ليبلغوا شريعة الله تعالى.

والإيمان بالرسل يتضمن ما يلي: أن نؤمن بأنهم حق صادقون مصدقون، وأن نؤمن بما صح عنهم من الأخبار، وبما ثبت عنهم من الأحكام، وأن نؤمن بأعيان من علمنا أعيانهم، وما لم نعلمه، فنؤمن بهم على سبيل الإجمال، ونعلم أنه ما من أمة إلا خلا فيها نذير، وأن الله سبحانه وتعالى أرسل لكل أمة رسولاً تقوم به الحجة عليهم، كما قال الله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

والبشر إذا لم يأتهم رسول يبين لهم فهم معذورون؛ لأنهم يقولون: يا ربنا، ما أرسلت إلينا رسولاً، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤]، فلا بد من رسول يهدي به الله سبحانه الخلق.

وأما قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [المائدة: ١١٩]؛ فإنه يدل على أنه فيه فترة ليس فيها رسول، فهل قامت عليهم الحجة؟.

الجواب: إن الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام طويلة، وقد قامت

عليهم الحجة؛ لأن فيها بقايا، كما جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله نظر إلى أهل الأرض، فمقتهم عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب»[1]، وكما قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود: ١١٦].

ورسل الله هم الذين أوحى الله تعالى إليهم بالشرائع وأمرهم بتبليغها؛ أولهم نوح وآخرهم محمد صلى الله عليهم أجمعين؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣]؛ وقال ﷺ: «إن أهل المَوْقِف يقولون لنوح: أنت أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض»[2]، أما آدم عليه السلام فهو نبي وليس برسول.

والفرق بين الرسول والنبي هو أن النبي الذي يُنَبِّئُهُ الله وهو يُنْبِئ بما أنبأه الله به، فإن أُرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول، أما إذا كان يعمل بشريعة من قبله، ولم يُرسل إلى أحد يبلغه عن الله رسالة، فهو نبي وليس برسول.

والأنبياء الذين ذُكروا في القرآن العظيم هم خمس وعشرون نبياً، جمعهم الشيخ محمد الدمنهوري رحمه الله بقوله:

أَلاَ إِنّ إِيـمَانـاً بِـرُسْـلٍ تَـحَـتَّـما ... وَهُـمْ آدَمُ إِدْرِيسُ نُوحُ عَلَى الْوِلاَ
وَهُودٌ وَصَالِحُ لُوطٌ مَعْ إِبْرَاهِمْ أَتَى ... كَذَا نَجْلُهُ إِسْماعِيلُ إِسْحاقُ فُضِّلاَ
وَيَعْقُوبُ يُوسُفْ ثُمَّ يَتْلُو شُعَيْبُهُمْ ... وَهارُونُ مَعْ مُوسى وَدَاوُدُ ذُو الْعُلاَ
سُلَيْمانُ أَيُّوبٌ وَذُو الْكِفْلِ يُونُسُ ... وَإِلْيَاسُ أَيْضاً وَالْيَسَعْ ذَاكَ فاعْقِلاَ
كَذَا زَكَرِيَّا ثُمَّ يَحْيى غُلاَمُهُ ... وَعِيسى وَطهَ[3] خاتِماً قَدْ تَكَمَّلاَ

ولقد جاء في السنة عدد الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، فعن أبي ذر رضي الله عنه

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٨٦٥).

(٢) رواه البخاري برقم (٣٣٤٠)، ومسلم برقم (١٩٤).

(٣) اشتهر عند بعض الناس أن «طه» وأيضاً «يس» اسمان من أسماء النبي ﷺ، وهذا ليس صحيحاً، بل هما من أحرف الهجاء المقطعة التي افتتحت بها بعض سور القرآن الكريم، مثل «ص» و«ق» و«ن» ونحوها، إشارة إلى إعجاز القرآن وأنه من نفس الحروف التي تكلم بها العرب، ومع هذا فقد عجزوا عن الإتيان بمثله.

قال: قلت: يا رسول الله، كم المرسلون، فقال ﷺ: «ثلاث مئة وبضعة عشر جمعًا غفيراً»؛ وفي رواية أبي أمامة، قال أبو ذر، قلت: يا رسول الله، كم وفاء عدة الأنبياء؟، قال: «مئة ألف وأربعة وعشرون ألفًا؛ الرسل من ذلك ثلاث مئة وخمسة عشر جمًا غفيراً»(١).

ومن خلال هذا تعرف أنه إذا انتفت النبوة انتفت الرسالة؛ لأن النبوة أعم والرسالة أخص.

وقوله: «**واليوم الآخر**»؛ أي: اليوم النهائي الأبدي الذي لا يوم بعده، وهو يوم القيامة الكبرى.

يدخل في الإيمان باليوم الآخر، الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت من فتنة القبر وعذابه ونعيمه، والإيمان بالنفخ في الصور وقيام الناس من قبورهم لرب العالمين حفاة عراة غرلاً بُهمًا، والإيمان بالموازين والصحف والصراط والحوض والشفاعة والجنة وما فيه من النعيم وما فيها من النار والعذاب الأليم.

وقوله: «**تؤمن بالقدر خيره وشره**»؛ هنا أعاد الفعل ولم يكتف بواو العطف؛ لأن الإيمان بالقدر مهم، فكأنه مستقل برأسه.

والإيمان بالقدر: هو أن تؤمن بتقدير الله تعالى للأشياء كلها، سواء ما يتعلق بفعله أو ما يتعلق بفعل غيره، وأن الله عز وجل قدرها وكتبها عنده قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، ومعلوم أنه لا كتابة إلا بعد علم، فالعلم سابق على الكتابة، ثم أنه ليس كل معلوم الله سبحانه وتعالى مكتوبًا، لأن الذي كتب إلى يوم القيامة، وهناك أشياء بعد يوم القيامة كثيرة أكثر مما في الدنيا هي معلومة عند الله عز وجل، لكنه لم يرد في الكتاب والسنة أنه مكتوبة.

وقوله: «**خيره وشره**»؛ فالخير ما يرغب فيه كل الناس من أصحاب الفطر السليمة، كالعقل والفضل والعدل والأشياء النافعة كالمال.

---

(١) رواه أحمد (٥/ ١٧٨)، وصححه الألباني؛ انظر: «مشكاة المصابيح» برقم (٥٧٣٧).

والخير نوعان: خير مطلق: وهو المرغوب فيه على كل حال وعند كل عاقل، وهو صلاح الدنيا والآخرة.

وخير مقيد: وهو أن يكون خيراً لواحد شراً لآخر، كالمال والولد؛ ربما يكونان خيراً لزيد شراً لعمرو، وفي هذا المعنى جاء قول الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]؛ أي: مالاً، وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦].

ويطلق الخير ويراد به الأفضلية، وأن هذا أفضل من هذا، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]؛ وفي قوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٤].

والخير يقابل الشر، وربما قوبل به الضر؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

وأما الشر فهو ضد الخير تماماً، وهو كل ما يبتعد عنه العقلاء الأسوياء ويكرهونه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾ [الحج: ٧٢].

ومعلوم أن المقدورات خير وشر؛ فالطاعات خير، والمعاصي شر، والغنى خير، والفقر شر، والصحة خير، والمرض شر، وهكذا.

وإذا كان القدر من الله جل وعلا، فكيف يقال: الإيمان بالقدر خيره وشره، والشر لا ينسب إلى الله سبحانه؟.

فالجواب: أن الشر لا ينسب إلى الله تعالى؛ قال النبي ﷺ: «والشر ليس إليك»(١)، فلا ينسب إليه الشر لا فعلاً ولا تقديراً ولا حكماً بل الشر في مفعولات الله تعالى لا في فعله، ففعله كله خير وحكمة، فتقدير الله عز وجل لهذه الشرور له حكمة عظيمة.

---

(١) رواه مسلم برقم(٧٧١).

وسواء كان ذلك في الأمور الشرعية أو في الأمور الكونية، ولكن ها هنا أمر يجب معرفته، وهو أن الخيرية والشرية ليست باعتبار قضاء الله سبحانه وتعالى، فقضاء الله تعالى كله خير، حتى ما يقضيه الله سبحانه من شر هو في الواقع خير، وإنما الشر في المقضي، أما قضاء الله تعالى نفسه فهو خير، والدليل قول النبي ﷺ: «الخير بيديك، والشر ليس إليك »، ولم يقل الشر بيديك، فلا ينسب الشر إلى الله عز وجل أبداً، فضلاً عن أن يكون بيديه، فلا ينسب الشر إلى الله تعالى لا إرادة ولا قضاء، فالله سبحانه لا يريد بقضاء الشر شراً، لكن الشر يكون في المقضي، وقد يلائم الإنسان وقد لا يلائمه، وقد يكون طاعة وقد يكون معصية، فهذا في المقضي، ومع ذلك، فهو وإن كان شراً في محله، فهو خير في محل آخر، ولا يمكن أن يكون شراً محضًا، حتى المقضي وإن كان شراً ليس شراً محضًا، بل هو شر من وجه، خير من وجه، أو شر من محل، خير في محل آخر؛ مثال ذلك: الجدب والفقر شر، لكنهما خير باعتبار ما ينتج عنهما، قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، والرجوع إلى الله عز وجل من معصيته إلى طاعته لا شك أنه خير وينتج خيراً كثيراً، فألم الفقر وألم الجدب وألم المرض وألم فقد الأنفس كله ينقلب إلى لذة إذا كان يعقبه الصلاح، ولهذا قال الله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، وكم من أناس طغوا بكثرة المال وزادوا ونسوا الله سبحانه وتعالى واشتغلوا بالمال، فإذا أُصيبوا بفقر، رجعوا إلى الله تعالى، وعرفوا أنهم ضالون، فهذا الشر صار خيراً باعتبار آخر.

كذلك قطع يد السارق لا شك أنه شر عليه، لكنه خير بالنسبة له وبالنسبة لغيره، أما بالنسبة له، فلأن قطعها يسقط عنه العقوبة في الآخرة وعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وهو أيضًا خير في غير السارق، فإن فيه ردعًا لمن أراد أن يسرق، وفيه أيضًا حفظ للأموال، لأن السارق إذا عرف أنه سرق ستقطع يده، امتنع من السرقة، فصار في ذلك حفظ لأموال الناس.

وَعَنْ عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ لِابْنِهِ: «يَا بُنَيّ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ الإِيْمَانِ، حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيْبَكَ»، سَمِعْتُ رَسُوْلَ الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ الله القَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَقَالَ: رَبِّ، وَمَاذَا أَكْتُبُ؟، قَالَ: أَكْتُبْ مَقَادِيرَ كُل شَيْءٍ حَتَى تَقُومَ السَّاعَةُ»، يَا بُنَيّ سَمِعْتُ رَسُوْلَ الله ﷺ يَقُوْلُ: «مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي» [1].

وَفِي رِوَايَةٍ: «إِنَّ أَوَّل مَا خَلَقَ الله تَعَالَى القَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ» [2].

وَفِي رِوَايَةٍ: «القَدَر عَلَى هَذَا، مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا أَدْخَلَهُ الله تَعَالَى النَّار» [3].

«**عبادة بن الصامت**» بن قيس الأنصاري الخزرجي، أبو الوليد، صحابي مشهور، مات سنة أربع وثلاثين، وله اثنتان وسبعون، رضي الله عنه.

وقوله: «**أنه قال لابنه: يا بني**»؛ ابنه هو الوليد بن عبادة، كما صرح به الترمذي في رواية؛ وهذا يدل على أنه ينبغي للأب أن يسدي النصائح لأبنائه ولأهله، وأن يختار العبارات الرقيقة التي تلين القلب؛ حيث قال: «**يا بني**» وفي هذا التعبير من اللطافة وجذب القلب ما هو ظاهر.

وقوله: «**لن تجد طعم الإيمان**»؛ هذا يفيد أن للإيمان طعماً كما جاءت به السنة، وطعم الإيمان ليس كطعم الأشياء المحسوسة، ولا يدركه إلا من أسبغ الله جل جلاله عليه نعمته بهذه الحلاوة وهذا الطعم.

وقوله: «**حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك**»؛ معنى هذه العبارة، يحمل

---

(١) رواه أبو داود برقم (٤٧٠٠)، وصححه الألباني؛ انظر: «صحيح الجامع» برقم (٢٠١٨).

(٢) رواها أحمد (٥/ ٣١٧)، والترمذي برقم (٣٣١٩)، وصححها الألباني؛ انظر «ظلال الجنة في تخريج السنة» برقم(١٠٤).

(٣) رواها أحمد (٥/ ٣١٧)، وصححها الألباني؛ انظر «ظلال الجنة في تخريج السنة» برقم (١١١).

على أحد معنيين أو عليهما جميعـًا:

الأول: أن المعنى «**ما أصــابك**»؛ أي: ما قـدر الله تعالى أن يصــيبك، فعبر عن التقدير بالإصابة؛ لأن ما قدر الله جل وعلا سوف يقع، فما قدر الله سبحانه أن يصيبك لم يكن ليخطئك مهما عملت من أسباب.

الثاني: «**ما أصابك**»، فلا تفكر أن يكون مخطئـًا لك، فلا تقل: «لو أني فعلت كذا ما حصــل كذا»؛ لأن الذي أصــابك الآن لا يمكن أن يخطئك، فكل التقديرات التي تقدرها وتقول: لو أني فعلت كذا ما حصل كذا؛ هي تقديرات يائسة، لا تؤثر شيئـًا.

وأيـًا كان، فالمعنى صحيح على الوجهين، فما قدره الله عز وجل أن يصيب العبد فلا بد أن يصيبه ولا يمكن أن يخطئه، وما وقع مصيبـًا للإنسان، فإنه لن يمنعه شيء.

فإذا آمنا هذا الإيمان ذقنا طعم الإيمان، لأننا نطمئن ونعلم أن الأمر لابد أن يقع على ما وقع عليه، ولا يمكن أن يتغير أبداً.

مثال ذلك: رجل خرج بأولاده للنزهة، فحدث لأحدهم حادث، فمات، فلا يقول: لو أنني ما خرجت لما مات الولد، بل لابد أن تجري الأمور على ما جرت عليه، ولا يمكن أن تتغير، فما أصــابك لم يكن ليخطئك، فحينئذ يطمئن الإنســان ويرضــى، ويعرف أنه لا مفر، وأن كل التقديرات والتخيلات التي تقع في ذهنه كلها من الشيطان.

وقوله: «**وما أخطأك لم يكن ليصــيبك**»؛ نقول فيه مثل الأول؛ يعني: ما قدر أن يخطئك فلن يصــيبك، فلو أن أحداً ســمع ببضــاعة للبيع في بلد ما وســافر بأمواله لشــرائها، فلما وصــل وجد أنها قد بيعت، نقول له: ما أخطأك من هذا الربح الذي كنت تعد له لم يكن ليصـيبك؛ مهما كان ومهما عملت، أو نقول: لم يكن ليصـيبك؛ لأن الأمر لابد أن يجري على ما قضاه الله تعالى وقدره.

وأنت جرب نفسك تجد أنك إذا حصلت على هذا اليقين ذقت حلاوة الإيمان.

ثم استدل لما يقول، بقوله: «**ســمعت رســول الله ﷺ يقول: إن أول ما خلق الله القلم**».

وقوله: «**فقال له: اكتب**»؛ القائل هو الله عز وجل يخاطب القلم، والقلم جماد، لكن كل جماد أمام الله تعالى مدرك وعاقل ومريد.

وقوله: «**قال: ربِّ وماذا أكتب؟، قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة، فكتب المقادير**»؛ فــ«**كل**»؛ من صيغ العموم، فتعم كل شيء مما يتعلق بفعل الله عز

وجل أو بفعل المخلوقين.

وقوله: «**حتى تقوم الساعة**»؛ الساعة هي القيامة.

وقوله: «**يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات على غير هذا**»؛ أي: الإيمان بأن الله تعالى كتب مقادير كل شيء.

وقوله: «**فليس مني**»؛ تبرأ منه الرسول ﷺ لأنه كافر، والرسول ﷺ بريء من كل كافر.

وقوله: «**وفي رواية: إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب...**»، تفيد أمراً زائداً على ما سبق؛ وهو قوله: «**فجرى في تلك الساعة**»، فإنه صريح في أن القلم امتثل، والحديث الأول ليس فيه أنه كتب إلا عن طريق اللزوم بأنه سيكتب امتثالاً لأمر الله تعالى.

وقوله: «**وفي رواية: القدر على هذا، من مات على غير هذا أدخله الله تعالى النار**»؛ وهذا دليل على أن الإيمان بالقدر واجب ولا يتم الإيمان إلا به، وأما من لم يؤمن به، فإنه من أهل النار.

وَعَن ابْنِ الدَّيْلَمِي قَالَ: أَتَيْتُ أُبَيّ بنَ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقُلْتُ: فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ القَدَرِ، فَحَدِّثْنِي بِشَيْءٍ لَعَلَّ الله أَنْ يُذْهِبَهُ مِنْ قَلْبِي، فَقَالَ: «لَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا قَبِلَهُ الله مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلَوْ مِتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَكُنْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ». قَالَ: فَأَتَيْتُ عَبْدَ الله بْنَ مَسْعُوْدٍ، وَحُذَيْفَةَ بْنَ اليَمَانِ، وَزَيدَ بْنَ ثَابِتٍ، فَكُلُّهُمْ حَدَّثَنِي بِمِثْلِ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ[(١)].

«**ابن الديلمي**» هو عبد الله بن فيروز، أحد كبار التابعين، وأبوه فيروز هو الذي قتل الأسود العنسي الذي ادعى النبوة في اليمن، والديلمي نسبة إلى جبل الديلم في بلاد فارس ممن جاءوا إلى اليمن من الفُرس، وأسلم وحسن إسلامه.

و«**أبي بن كعب**» الأنصاري، صحابي جليل مشهور، مات سنة تسع عشرة، رضي الله عنه.

---

(١) رواه أحمد (٥/ ١٨٥ و ١٨٩)، وأبو داود برقم (٤٦٩٩)، وابن ماجه برقم(٧٧)، وصححه الألباني؛ «ظلال الجنة في تخريج السنة» برقم (٢٤٥).

وقوله: «**في نفسي شيء من القدر**»؛ لم يفصح عن هذا الشيء، لكن لعله لما حدثت بدعة القدر، وهي أول البدع حدوثاً صار الناس يتشككون فيه ويتكلمون فيها، فلهذا يقول ابن الديلمي: «**في نفسي شيء من القدر...**» وهكذا يلزم على الذين يبحثون عن الحقيقة، ويبحثون عن العلم النافع إذا أشكل عليهم شيء، لا يعتمدون على رأيهم وإنما يرجعون إلى أهل العلم، وها هو ابن الديلمي رجع إلى الصحابة رضي الله عنهم فيما أشكل عليه من أمر القدر.

وقوله: «**فحدثني بشيء لعل الله أن يذهبه من قلبي**»؛ أي: يذهب هذا الشيء، وهكذا يجب على الإنسان إذا أصيب بمرض أن يذهب إلى أطباء ذلك المرض، وأطباء مرض القلوب هم العلماء، ولا سيما مثل الصحابة رضي الله عنهم، كأُبيّ بن كعب رضي الله عنه، فلكل داء طبيب.

وقوله: «**لو أنفقت مثل أحد ذهباً ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر**»؛ هذا يدل على أن من لم يؤمن بالقدر فهو كافر؛ لأن الذي لا تقبل منهم النفقات هم الكفار، وسبق نحوه عن ابن عمر رضي الله عنهما.

وقوله: «**حتى تؤمن بالقدر وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك**»، قد سبق الكلام على هذه الجملة.

وقوله: «**ولو مت على غير هذا، لكنت من أهل النار**»؛ جزم أُبَيّ بن كعب رضي الله عنه بأنه إذا مات على غير هذا كان من أهل النار؛ لأن من أنكر القدر فهو كافر، والكافر يكون من أهل النار، الذين هم أهلها المخلدون فيها.

وقوله: «**فأتيت عبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت، فكلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي ﷺ**»؛ المشار إليه الإيمان بالقدر، وأن يعلم الإنسان أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وهؤلاء هم العلماء الأجلاء كلهم من أهل القرآن ومن الصحابة الكرام رضي الله عنهم ينسبون ما قالوه إلى النبي ﷺ؛ فهو إذاً حديث مرفوع للنبي ﷺ.

* * *

المسألة (الثالثة والخمسون):
لا يَقُولُ: عَبْدِي وَأَمَتِي

تحقيق التوحيد لا يكون إلا بالاحتراس من الألفاظ التي يكون فيها إساءة أدب مع ربوبية الله سبحانه، أو مع أسماء الله تعالى وصفاته؛ ولهذا جاء النهي عن أن يقول: «**عبدي وأمتي**».

فعبودية البشر لله تعالى عبودية حقيقية، وإذا قيل: هذا عبد الله فهو عبد لله جل جلاله إما قهراً أو اختياراً، فكل من في السماوات والأرض عبد لله تعالى، كما قال الله جل وعلا: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣-٩٥]، فعبودية الخلق لله سبحانه ظاهرة؛ لأنه هو الرب، وهو المتصرف، وهو خالق الخلق، وهو المدبر لشؤونهم، فالله جل وعلا هو المتفرد بذلك سبحانه.

وقوله:«**عبدي**»؛ أي: للغلام.

وقوله: «**أمتي**»؛ أي: للجارية.

ويستثنى من هذا النهي أن يضيفه القائل بلفظ عام؛ مثل قول الله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ [النور: ٣٢]، وقال النبي ﷺ: «ليس على المسلم في عبده ولا فرسه صدقة»(١).

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: أَطْعِمْ رَبَّكَ، وَضِّئْ رَبَّكَ، وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي وَمَوْلَايَ، وَلَا يَقُلْ: عَبْدِي وَأَمَتِي، وَلْيَقُلْ: فَتَايَ وَفَتَاتِي، وَغُلَامِي»(٢).

قوله: «**لا يقل أحدكم: أطعم ربك، وضئ ربك**»؛ أي: لا يقل أحدكم لعبد غيره،

---

(١) رواه البخاري برقم (١٤٦٤)، ومسلم برقم (٩٨٢).

(٢) رواه البخاري برقم(٢٥٥٢)، ومسلم برقم (٢٢٤٩).

ويحتمل أن يشمل قول السيد لعبده حيث يضع الظاهر موضع المضمر تعاظماً.

وقوله: «**وليقل: سيدي ومولاي**»، المتوقع أن يقول: وليقل سيدك ومولاك؛ لأن مقتضى الحال أن يرشد إلى ما يكون بدلاً عن اللفظ المنهي عنه بما يطابقه، وهنا ورد النهي بلفظ الخطاب، والإرشاد بلفظ التكلم، «**وليقل: سيدي ومولاي**»؛ إشارة إلى أنه إذا كان الغير قد نُهِيَ أن يقول للعبد: أطعم ربك، فالعبد من باب أولى أن ينهى عن قول: أطعمت ربي، وضأت ربي، بل يقول: «**سيدي ومولاي**».

وقوله: «**سيدي**»؛ السيادة في الأصل علو المنزلة؛ لأنها من السؤدد والشرف والجاه وما أشبه ذلك، و«**سيدي**» هنا مضافة إلى ياء المتكلم وليست على وجه الإطلاق.

فالسيد على وجه الإطلاق لا يقال إلا لله عز وجل، قال النبي ﷺ «السيد الله»[1].

وأما السيد مضافة، فإنها تكون لغير الله سبحانه، قال الله تعالى: ﴿**وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ**﴾ [يوسف: ٢٥]، وقال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة»[2].

وقوله: «**ومولاي**»؛ أي: ليقل مولاي؛ ولها في اللغة معان كثيرة، منها: الناصر، والمتولي للأمور، والسيد.

والولاية المطلقة، لا تصلح لغير الله عز وجل، كالسيادة المطلقة.

وقوله: «**ولا يقل أحدكم عبدي وأمتي**»، هذا خطاب للسيد أن لا يقول: عبدي وأمتي لمملوكه ومملوكته؛ لأننا جميعاً عباد الله تعالى، ونساؤنا إماء لله تعالى.

وقوله: «**وأمتي**»؛ الأمة: الأنثى من المملوكات، وتسمى الجارية.

وقوله: «**وليقل فتاي وفتاتي**»، مثله جاريتي وغلامي، فلا بأس به.

والعلة من النهي: أن فيه إشعاراً بالعبودية.

وكل هذا من باب حماية التوحيد والبعد عن التشريك حتى في اللفظ.

***

---

(١) رواه أحمد في «المسند»(٤/ ٢٤، ٣٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢١١)، وأبو داود برقم (٤٨٠٦)، وصححه الألباني؛ انظر «صحيح الجامع» برقم (٣٧٠٠).

(٢) رواه البخاري برقم (٣٣٤٠)، مسلم برقم (٢٢٧٨).

المسألة (الرابعة والخمسون):
لا يُقَال: السَّلَامُ عَلَى الله

قوله: «**السلام**»؛ هو الله جل جلاله؛ والسلام من أسمائه - سبحانه وتعالى -؛ فهو المتصف بالسلامة الكاملة من كل نقص وعيب، وهو المنزه والمبعد عن كل آفة أو نقص وعيب، فله الكمال المطلق في ذاته، وصفاته الذاتية، وصفاته الفعلية -جل وعلا-.

قال الله تعالى: ﴿ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۞ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الحشر: ٢٣-٢٤].

ومعناه -أيضـًا- الذي يعطي السلامة ويرزقها.

وأيضـًا التحية، كما يقال: سلم على فلان؛ أي: حياه بالسلام.

والسلامة من النقص والآفات؛ كقولنا: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته».

ولهذا كان من الأدب الواجب في جناب الربوبية وأسماء الله وصفاته أن «**لا يقال: السلام على الله**»، بل أن يقال: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، السلام على فلان وفلان، السلام عليك يا فلان ونحو ذلك، فتدعو له بأن يبارَك باسم الله «السلام»، أو أن تحل عليه السلامة.

فتحقيق التوحيد الواجب ألا تقال هذه الكلمة؛ لأن الله غني عن عباده؛ والفقراء هم الذين يحتاجون إلى السلام.

والمراد: لا تقل: السلام عليك يا رب؛ لأن مثل هذا الدعاء يوهم النقص في حقه، فتدعو الله تعالى أن يسلم نفسه من ذلك، إذ لا يدعى لشيء بالسلام من شيء إلا إذا كان قابلاً أن يتصف به، والله سبحانه منزه عن صفات النقص.

فإذا دعوت الله تعالى أن يسلم نفسه، فقد خالفت الحقيقة؛ لأن الله يدعى ولا يدعى له، فهو غني عنا، لكن يثنى عليه بصفات الكمال مثل غفور، سميع، عليم.

عَنِ ابْنِ مَسْعُوْدٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الصَّلَاةِ قُلْنَا: السَّلَامُ عَلَى اللهِ مِنْ عِبَادِهِ، السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَقُوْلُوا السَّلَامُ عَلَى اللهِ، فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ»[1].

«**ابن مسعود**» هو عبد الله بن مسعود بن غافل، أبو عبد الرحمن، من كبار علماء الصحابة، مات سنة اثنتين وثلاثين، رضي الله عنه.

وقوله: «**كنا إذا كنا مع النبي ﷺ في الصلاة**» الغالب أن المعية مع النبي ﷺ في الصلاة لا تكون إلا في الفرائض، لأنها هي التي يشرع لها صلاة الجماعة، ومشروعية صلاة الجماعة في غير الفرائض قليلة، كالاستسقاء والتراويح.

وقوله: «**قلنا السلام على الله من عباده**»؛ أي: يطلبون السلامة لله من الآفات، يسألون الله أن يسلم نفسه من الآفات، أو أن اسم السلام على الله من عباده، لأن قول الإنسان السلام عليكم خبر بمعنى الدعاء، وله معنيان:

اسم السلام عليك؛ أي: عليك بركاته باسمه.

والسلامة من الله عليك.

وقوله: «**السلام على فلان وفلان**»؛ أي: جبريل وميكائيل، وكلمة «**فلان**» يكنى بها عن الشخص، وقد جاء في لفظ آخر: «السلام على جبريل وميكائيل»[2] كانوا يقولون هكذا في السلام، فقال النبي ﷺ: «**لا تقولوا: السلام على الله، فإن الله هو السلام**»، وهذا نهي تحريم، والسلام لا يحتاج إلى سلام، هو نفسه- عز وجل - سلام سالم من كل نقص ومن كل عيب.

وفيه دليل على جواز السلام على الملائكة؛ لأن النبي ﷺ لم ينه عنه، ولأنه ﷺ لما أخبر عائشة رضي الله عنها أن جبريل عليه السلام يسلم عليها، قالت: «عليه السلام»[3].

***

---

(١) رواه البخاري برقم(٨٣٥)، ومسلم برقم (٤٠٢).

(٢) رواه البخاري برقم(٨٣١).

(٣) رواه البخاري برقم(٦٢٥٣)، ومسلم برقم (٢٤٤٧).

المسألة (الخامسة والخمسون):
فِيْمَنْ سَبَّ الدَّهْرَ فَقَدْ آذَى الله تَعَالَى

قوله: «**سب الدهر**»؛ السب في أصله: التنقص أو الشتم؛ فيكون بتنقص الدهر، أو يكون بلعنه أو بشتمه، أو بنسبة النقائص إليه، أو بنسبة الشر إليه، ونحو ذلك، وهذا كله من أنواع سبِّه، والله جل وعلا هو الذي يقلب الليل والنهار.

و«**الدهر**»؛ هو الزمان كاليوم والليلة والأسابيع والأشهر والسنين والعقود، هذا هو الدهر، وهذه الأزمنة مفعولة لا فاعلة، فهي لا تفعل شيئًا، وإنما هي مسخرة يسخرها الله سبحانه، وكل يعلم أن السنين لا تأتي بشيء، وإنما الذي يفعل هو الله تعالى في هذه الأزمنة؛ ولهذا كان سب هذه السنين سبًا لمن تصرف فيها، وهو الله جل جلاله.

وليس من مسبة الدهر وصف السنين بالشدة، ولا وصف اليوم بالسواد، ولا وصف الأشهر بالنحس، ونحو ذلك؛ لأن هذا مقيد، وهذا جاء في القرآن في نحو قوله تعالى: ﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ﴾ [فصلت: ١٦]، فوصف الله عز وجل الأيام بأنها نحسات؛ والمقصود في أيام نحسات عليهم، فوصف الأيام بالنحس؛ لأنه جرى عليهم فيها ما فيه نحس عليهم، ونحو ذلك قوله جل وعلا: ﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩]؛ فهذا ليس من سب الدهر؛ لأن المقصود بهذا الوصف، ما حصل فيها، كان من صفته كذا وكذا على هذا المتكلم، وأما سبه أن ينسب الفعل إليه، فيسب الدهر لأجل أنه فعل به ما يسوؤه، فهذا هو الذي يكون أذية لله تعالى.

ويتبين أن سب الدهر ينافي كمال التوحيد، وأن سب الدهر يعود على الله سبحانه بالإيذاء؛ لأنه سب لمن تصرف في هذا الدهر.

وقوله: «**فقد آذى الله تعالى**»، لا يلزم من الأذية الضرر؛ فالإنسان يتأذى بسماع القبيح أو مشاهدته، ولكنه لا يتضرر بذلك، ويتأذى بالرائحة الكريهة كالبصل والثوم ولا يتضرر بذلك، ولهذا أثبت الله تعالى الأذية له في القرآن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [الأحزاب: ٥٧]، وفي الحديث القدسي؛ قال النبي ﷺ: قال الله سبحانه: «يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، أقلب الليل والنهار»، ونفى عن نفسه أن يضره شيء، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾ [آل عمران: ١٧٦]، وفي الحديث القدسي؛ قال النبي ﷺ: قال الله تعالى: «يا عبادي! إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني»(١).

قَالَ الله تَعَالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾؛ المراد بذلك المشركون الموافقون للدّهرية؛ والمعنى: ما الحياة والوجود إلا هذا؛ فليس هناك آخرة، بل يموت بعض ويحيا آخرون، هذا يموت فيدفن وهذا يولد فيحيا، ويقولون: إنها أرحام تدفع وأرض تبلع ولا شيء سوى هذا.

وقوله: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾؛ أي: ليس هلاكنا بأمر الله تعالى وقدره، بل بطول السنين لمن طالت مدته، والأمراض والهموم والغموم لمن قصرت مدته؛ فالمهلك لهم هو الدهر.

وقوله: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾؛ ﴿ما﴾: نافية؛ أي: ما لهم علم لا قليل ولا كثير، بل العلم واليقين بخلاف قولهم.

وقوله: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾؛ أي: ما هم إلا يظنون؛ والظن هنا بمعنى الوهم؛ فليس ظنهم مبنيـًا على دليل يجعل الشيء مظنونـًا، بل هو مجرد وَهْم لا حقيقة له؛ فلا حجة لهم إطلاقـًا، وفي هذا دليل على أن الظن يستعمل بمعنى الوَهْم، وأيضـًا يستعمل بمعنى العلم واليقين؛ كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦].

ففيها نهي عن نسبة الحوادث إلى الدهر، ومن نسبها إلى الدهر؛ فسوف يَسبّ

(١) رواه مسلم برقم (٢٥٧٧).

الدهر إذا وقع فيه ما يكرهه.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قَالَ الله تَعَالَى: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ» (١).
وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ، فَإِنَّ الله هُوَ الدَّهْرُ» (٢).

هذا الحديث يُسمى الحديث القدسي؛ وهو كل ما يرويه النبي ﷺ عن ربه تعالى.

وقوله: «**يؤذيني ابن آدم**»؛ أي: يلحق بي الأذى؛ فالأذية لله تعالى ثابتة ويجب علينا إثباتها؛ لأن الله سبحانه أثبتها لنفسه، فلسنا أعلم من الله جل وعلا بنفسه، ولكنها ليست كأذية المخلوق؛ بدليل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وقدم النفي في هذه الآية على الإثبات؛ لأجل أن يرد الإثبات على قلب من توهم المماثلة، ويكون الإثبات حينئذ على الوجه اللائق به تعالى، وأنه لا يماثل في صفاته كما لا يماثل في ذاته.

وقوله: «**ابن آدم**»، شامل للذكور والإناث، وآدم هو أبو البشر، خلقه الله تعالى من طين، وسواه ونفخ فيه من روحه، وأسجد له الملائكة، وعلَّمَه الأسماء كلها.

وقوله: «**يسب الدهر**» الجملة تعليل للأذية أو تفسير لها؛ أي: بكونه يسب الدهر؛ أي: يشتمه ويقَبِّحه ويلومه وربما يلعنه -والعياذ بالله- يؤذي الله تعالى، والدهر: هو الزمن والوقت.

وقوله: «**وأنا الدهر**»؛ أي: مدبِّر الدهر ومصَرِّفه، لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، ولقوله ﷺ: «**أقلب الليل والنهار**»، والليل والنهار هما الدهر.

ولا يقال بأن الله تعالى هو الدهر نفسه، ومن قال ذلك؛ فقد جعل الخالق مخلوقاً.

وقوله: «**أقلب الليل والنهار**»؛ أي: ذواتهما وما يحدث فيهما؛ فالليل والنهار

---

(١) رواه البخاري برقم (٤٨٢٦)، ومسلم برقم (٢٢٤٦) (٢٠).

(٢) رواها مسلم برقم (٢٢٤٦) (٥).

يقَلَّبان من طول إلى قصر إلى تساوٍ، والحوادث تتقلب فيه في الساعة وفي اليوم وفي الأسبوع وفي الشهر وفي السنة، قال الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وهذا أمر ظاهر، وهذا التقليب له حكمة قد تظهر لنا وقد لا تظهر؛ لأن حكمة الله سبحانه أعظم من أن تحيط بها عقولنا، ومجرد ظهور سلطان الله عز وجل وتمام قدرته هو من حكمة الله سبحانه، لأجل أن يخشى الإنسان صاحب هذا السلطان والقدرة، فيتضرع ويلجأ إليه.

قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «شرح السنة»: معناه أن العرب كان من شأنها ذم الدهر؛ أي: سبه عند النوازل، لأنهم كانوا ينسبون إليه ما يصيبهم من المصائب والمكاره؛ فيقولون: أصابتهم قوارع الدهر وأبادهم الدهر، فإذا أضافوا إلى الدهر ما نالهم من الشدائد، سبوا فاعلها، فكان مرجع سبها إلى الله عز وجل، إذ هو الفاعل في الحقيقة للأمور التي يصنعونها، فنهوا عن سب الدهر.

وقوله:«**وفي رواية: لا تسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر**»؛ معنى هذه الرواية: هو ما صرح به من قوله: «**وأنا الدهر، أقلب الليل والنهار**»؛ يعني ما يجري فيه من خير وشر بإرادة الله تعالى وتدبيره، بعلم منه سبحانه وتعالى وحكمة، لا يشاركه في ذلك غيره؛ ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فالواجب عند ذلك حمده في الحالتين وحسن الظن به سبحانه وبحمده، والرجوع إليه بالتوبة والإنابة، كما قال الله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٨]، وقال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

***

المسألة (السادسة والخمسون):
فِي النَّهْيِّ عَنْ سَبِّ الرِّيْحِ

قوله: «**النهي**»؛ هو طلب ترك الفعل والكف عنه.

وقوله: «**سب الريح**»؛ هو الشتم والتنقيص.

وقوله: «**الريح**»؛ هو الهواء الذي يصرفه الله عز وجل، وجمعه رياح، وهو مخلوق من مخلوقات الله تعالى، يجريها الله جل وعلا كما يشاء، وهي كالدهر لا تملك شيئًا، ولا تدبر أمراً.

قَالَ رَسُوْلُ ﷺ: «لَا تَسُبُّوا الرِّيْحَ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ فَقُوْلُوا: اللهمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيْحِ، وَخَيْرِ مَا فِيها، وَخَيْرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ، وَنَعُوْذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ، وَشَرِّ مَا فِيْهَا، وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ» [1].

قوله: «**لا تسبوا الريح**»؛ «**لا**»: ناهية؛ والسب: الشتم، والعيب، والقدح، واللعن، وما أشبه ذلك، وإنما نهى عن سبها؛ لأن سب المخلوق سب لخالقه.

والنهي عن سب الريح هنا للتحريم.

وتصريفها من آيات الله تعالى، فأحيانًا تكون شديدة تقلع الأشجار وتهدم البيوت وتدفن الزروع ويحصل معها فيضانات عظيمة، وأحيانًا تكون هادئة، وأحيانًا تكون باردة، وأحيانًا حارة، وأحيانًا عالية، وأحيانًا نازلة، كل هذا بقضاء الله عز وجل وقدره.

ولو أن الخلق اجتمعوا كلهم على أن يصرفوا الريح عن جهتها التي جعلها الله عليها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ولو اجتمعت جميع المكائن العالمية النفاثة لتوجد هذه الريح الشديدة ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، ولكن الله سبحانه بقدرته

---

(١) رواه الترمذي برقم (٢٢٥٢)، وصححه الألباني؛ انظر «سلسلة الأحاديث الصحيحة» برقم (٢٧٥٦).

يصرفها كيف يشاء وعلى ما يريد.

ولكن إذا كانت الريح مزعجة، فقد أرشد النبي ﷺ إلى ما يقال حينئذ في قوله: «**اللهم إنا نسألك...**».

وقوله: «**من خير هذه الريح**»؛ الريح نفسها فيها خير وشر، فقد تكون عاصفة تقلع الأشجار وتهدم الديار وتفيض البحار والأنهار، وقد تكون هادئة تبرد الجو وتكسب النشاط.

وقوله: «**وخير ما فيها**»؛ أي: ما تحمله؛ لأنها قد تحمل خيراً، كتلقيح الثمار، وقد تحمل رائحة طيبة الشم، وقد تحمل شراً، كإزالة لقاح الثمار الضَّار، وأمراض تضر بالإنسان والبهائم.

وقوله: «**وخير ما أمرت به**»؛ مثل إثارة السحاب وسوقه إلى حيث شاء الله تعالى.

وقوله: «**ونعوذ بك**»؛ أي: نعتصم ونلجأ.

وقوله: «**ومن شر هذه الريح**»؛ أي: شرها بنفسها كقلع الأشجار، ودفن الزروع، وهدم البيوت.

وقوله: «**وشر ما فيها**»؛ أي: ما تحمله من الأشياء الضارة، كالأنتان، والقاذورات، والأوبئة وغيرها.

وقوله: «**وشر ما أُمرت به**»؛ كالهلاك والتدمير، وقال الله تعالى في ريح عاد: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥].

فقد تؤمر بشر لحكمة بالغة نعجز عن إدراكها.

وقوله: «**ما أمرت به**»؛ هذا الأمر حقيقي؛ أي: يأمرها الله عز وجل أن تهُبّ ويأمرها أن تتوقف، وكل شيء من المخلوقات فيه إدراك بالنسبة إلى أمر الله جل وعلا، قال الله تعالى للأرض والسماء: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، وقال الله جل جلاله للقلم: «اكتب، قال: ربي وماذا أكتب؟، قال: اكتب ما هو كائن إلى قيام الساعة»[1].

***

---

(١) رواه أبو داود: برقم (٤٧٠٠)، وصححه الألباني؛ انظر: «صحيح الجامع» برقم (٢٠١٧).

المسألة (السابعة والخمسون):
فِي التَّسَمِّي بِقَاضِي القُضَاةِ وَنَحْوِه

التوحيد يقتضي من الموحد المؤمن بالله جل وعلا أن يعظمه، وألَّا يجعل مخلوقـًا في منزلة الله سبحانه وتعالى فيما يختص به؛ لأنه قد يجعل المخلوق في منزلة الله تعالى لشبهة وصف قام به.

و إن التسمي بالأسماء التي معناها، خاص بالله جل جلاله لا يجوز التسمية بها، والتوحيد يقتضي ألا يوصف بها إلا الله سبحانه، وألا يسمى بها إلا الله جل وعلا.

وقوله: «**التسمي**»؛ يشمل ما إذا سمى نفسه، أو سماه غيره به فرضي، أما إذا سماه غيره به فلم يرض، فإنه لا يدخل في الذم؛ لعدم الرضى، فيلحق الوعيد المسمِّي، ومن رضي بذلك الاسم.

وقوله: «**قاضي القضاة**»؛ قاضي: بمعنى حاكم، والقضاة؛ أي: الحكام؛ وهذا مما يدل على النفوذ والسلطان؛ لأن القاضي جمع بين الإلزام والإفتاء، بخلاف المفتي؛ فهو لا يلزم، ولهذا قالوا: القاضي جمع بين الشهادة والإلزام والإفتاء؛ فهو يشهد أن هذا الحكم حكم الله عز وجل، وأن الحق للمحكوم له على المحكوم عليه ويفتي؛ أي: يخبر عن حكم الله تعالى وشرعه، ويلزم الخصمين بما حكم به.

وأيضـًا فإن «**قاضي القضاة**»: هو الذي يقضي بين القضاة، وهذا إنما هو لله تعالى فهو الذي يقضي بين القضاة وغيرهم، فهو قاضي القضاة على الحقيقة - سبحانه وتعالى - فَيُخبر عنه بذلك؛ لأن «**قاضي القضاة**»، ليست من أسماء البشر، فالذي يقضي بين القضاة هو الله جل جلاله.

والذين أطلقوا هذه التسمية على كبير القضاة، أو على كبير العلماء لا يعنون بها أنه يقضي بين القضاة، وإنما يعنون بها أنه وصل إلى مرتبة في القضاء، أو في العلم أعلى من درجة القاضي، فصار قاضي القضاة، كما شاع في الزمن المتأخر في الدولة العثمانية أنهم يسمون المفتي شيخ الإسلام، ووكيل المفتي: وكيل شيخ الإسلام، وهي تسمية خاصة.

وقد انتشر في بلاد المسلمين التسمية بقاضي القضاة، ونحوه، منذ القرن الرابع الهجري إلى وقتنا هذا، والواجب على العبد ألا يجعل هذه التسمية جارية على لسانه، ولا أن يرضى بها.

وقوله: «**ونحوه**»؛ أي: ما كان له نفس المعنى؛ مثل: سلطان السلاطين، أو مالك الأملاك، أو شاهان شاه باللغة الفارسية؛ يعني: ملك الأملاك، ففيه تسمية البشر بما يختص بالله تعالى، فإن ملك الأملاك هو الله جل وعلا والأملاك واسعة، والإنسان إنما يطلق عليه أنه مالك للشيء المعين، وليس مالكًا لكل شيء، فالذي يملك كل شيء هو الله وحده، والبشر يملكون بالإضافة بعض الأشياء.

وكذلك المُلْك - بالضم -، وهو: نفاذ الأمر والسيطرة، فإنه يكون في بعض الأرض، وليس في كل الأرض، فالذي يملك يقال له مالك إذا كان يملك مِلكًا، أو مَلِك إذا كان يملك مُلكًا، بمعنى نفاذ الأمر، ويضاف إلى بقعته، فيقال: ملك المغرب، وملك الأردن، ونحو ذلك.

واعلم أن من تسمى بهذا الاسم؛ فقد جعل نفسه شريكًا مع الله تعالى فيما لا يستحقه إلا الله سبحانه؛ لأنه لا أحد يستحق أن يكون قاضي القضاة أو حاكم الحكام أو ملك الأملاك إلا الله سبحانه وتعالى؛ فالله هو القاضي فوق كل قاض، وهو الذي له الحكم، ويُرجع إليه الأمر كله.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللهِ: رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الأَمْلَاكِ، لَا مَالِكَ إِلَّا اللهُ» [1].

وَفِي رِوَايَةٍ: «أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَخْبَثُهُ» [2].

قوله: «**إن أخنع اسم**»؛ أي: أوضع اسم، والمراد بالاسم المسمى، فأوضع اسم عند الله تعالى رجل تسمى ملك الأملاك؛ لأنه جعل نفسه في مرتبة عليا، فالملوك أعلى طبقات البشر من حيث السلطة؛ فجعل مرتبته فوق مرتبتهم، وهذا لا يكون إلا لله عز وجل، ولهذا عوقب بنقيض قصده؛ فصار أوضع اسم عند الله سبحانه إذا قصده أن يتعاظم حتى على الملوك، فأُهين، ولهذا كان أحبُّ اسم عند الله تعالى ما

---

(١) رواه البخاري برقم (٦٢٠٦)، ومسلم برقم (٢١٤٣) (٢).

(٢) رواها مسلم برقم (٢١٤٣) (٢٠).

دل على التذلل والخضوع؛ مثل: عبدالله وعبد الرحمن، وأبغض اسم عند الله جل جلاله ما دل على الجبروت والسلطة والتعظيم.

وقوله: «**لا مالك إلا الله**» هذا من أساليب الحصر؛ يعني: الملك إنما هو لله وحده، فالله له الخلق والملك والتدبير؛ فلا خالق إلا الله، ولا مدبر إلا الله، ولا مالك إلا الله.

والأدلة من القرآن الكريم على هذا كثيرة جداً، أذكر منها قول الله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣]؛ فالاستفهام بمعنى النفي، وقد أُشرب معنى التحدي، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الحجر: ٨٦] فيها توكيد وحصر، وهذا دليل انفراده بالخلق، وقوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وهذا دليل انفراده بالملك، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨].

وقوله: «**في رواية: أغيظ رجل على الله**»؛ أغيظ: من الغيظ وهو الغضب؛ أي: أغضب شيء عند الله عز وجل وأخبثه هو هذا الاسم، وإذا كان سبباً لغضب الله تعالى كان خبيثاً.

وقوله: «**وأخبثه**»؛ وهو يدل أيضاً على أن هذا خبيث عند الله سبحانه وتعالى، فاجتمعت في حقه هذه الأمور لتعاظمه في نفسه وتعظيم الناس له بهذه الكلمة التي هي من أعظم التعظيم، فتعظمه في نفسه وتعظيم الناس له بما ليس له بأهل، وضعه عند الله تعالى يوم القيامة، فصار أخبث الخلق وأبغضهم إلى الله تعالى وأحقرهم؛ لأن الخبيث البغيض عند الله تعالى يكون يوم القيامة أحقر الخلق وأخبثهم، لتعاظمه في نفسه على خلق الله تعالى بنعم الله جل جلاله.

* * *

المسألة (الثامنة والخمسون):
فِيْمَنْ هَزَءَ بِشَيْءٍ فِيهِ ذِكْرُ اللهِ أَوْ القُرْآنِ أَوِ الرَّسُوْلِ

التوحيد الخالص في القلب لا يخالط الاستهزاء بالله جل وعلا وبرسوله ﷺ وبالقرآن الكريم؛ لأن الاستهزاء معارضة والتوحيد موافقة، ولهذا قال بعض أهل العلم: الكفار نوعان: معرضون، كمَن قال الله فيهم: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٤]؛ أي: عن الحق – وهو القرآن –، فلا يتأملون حجة التوحيد، والنوع الثاني: معارضون؛ أي: هم المجادلون، أو الذين يعارضون بأنواع المعارضات لأجل إطفاء نور الله تعالى، ومن ذلك الاستهزاء ونحوه.

فالتوحيد استسلام وانقياد وقبول وتعظيم، والهُزْء والاستهزاء بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول معارضة؛ لأنه مناف للتعظيم؛ ولهذا كان كفراً أكبر بالله جل وعلا، إذ لا يصدر الاستهزاء بالله تعالى أو برسوله ﷺ أو بالقرآن من قلب موحد أصلاً، بل لا بد أن يكون إما منافقاً أو كافراً مشركاً.

وقوله: «**من هزء**» سخر واستهزأ وراَه لعباً ليس جَدّاً.

والظاهر هنا «**من هزء بشيء فيه ذكر الله**» مثل الأحكام الشرعية، أو هزء بالقرآن الكريم أو هزء بالرسول ﷺ، فيكون معطوفاً على قوله بشيء؛ والمراد بالرسول هنا: اسم الجنس، فيشمل جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام، وليس المراد محمداً ﷺ فقط.

ومن هزء بالله أو بآياته الكونية أو الشرعية أو برسله، فهو كافر؛ لأن منافاة الاستهزاء للإيمان منافاة عظيمة.

كيف يسخر ويستهزأ بأمر يؤمن به؟!!، فالمؤمن بالشيء لابد أن يعظمه، وأن يكون في قلبه من تعظيمه ما يليق به.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾ الخطاب للنبي ﷺ؛ أي: سألت هؤلاء الذين يخوضون ويلعبون بالاستهزاء بالله وكتابه ورسوله والصحابة.

وقوله: ﴿لَيَقُولُنَّ ﴾ أي: المسؤولون.

وقوله: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾؛ أي: ما لنا قصد، ولكننا نخوض ونلعب، واللعبُ يقصد به الهزء، وأما الخوض؛ فهو كلام عائم لا زمام له.

وقوله: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾، الاستفهام للإنكار والتعجب، فينكر عليهم أن يستهزئوا بهذه الأمور العظيمة، ويتعجب كيف يكون أحق الحق محلاً للسخرية؟!!!.

وقوله: ﴿أَبِاللَّهِ ﴾؛ أي: بذاته وصفاته.

وقوله: ﴿وَآيَاتِهِ﴾؛ جمع آية؛ وتشمل الآيات الشرعية؛ كالاستهزاء بالقرآن، بأن يقال: هذا أساطير الأولين- والعياذ بالله -، أو يستهزأ بشيء من الشرائع؛ كالصلاة والزكاة والصوم والحج، والآيات الكونية؛ كأن يسخر بما قدره الله تعالى من أمور كونية.

وقوله: ﴿وَرَسُولِهِ ﴾؛ المراد هنا محمد ﷺ.

وقوله: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا﴾؛ أي: انهاهم عن الاعتذار تيئيساً لهم بقبول اعتذارهم.

وقوله: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾؛ أي: بالاستهزاء، والظاهر أنهم لم يكونوا منافقين خالصين، بل مؤمنين، ولكن إيمانهم ضعيف، ولهذا لم يمنعهم من الاستهزاء بالله وآياته ورسوله.

والمقصود أن هذا المستهزئ كافر، وأنه لا ينفعه اعتذاره بأنه كان في هزء ولعب

بل هو كافر؛ لأن تعظيم الله جل وعلا وتوحيده يوجب عليه ألا يستهزئ.

والسياق يدل على أن الضمائر ترجع إلى المنافقين؛ قال جل وعلا قبل هذه الآية: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ۞ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ فالآية السابقة هي في المنافقين نصـًا، فالضمير إذاً في قوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾ يعود على من ذكر قبل هذه الآية، وهم المنافقون المنصوص عليهم بقوله: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ ﴾، وكذلك ما بعدها من الآيات في المنافقين في قوله -جل وعلا-: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ [التوبة: ٦٧]، والأدلة على ذلك كثيرة.

فالواجب على المسلمين جميعـًا أن يحذروا من مزالق الكلام؛ لأن كثيرين يتكلمون بكلام لا يلقون له بالاً، ربما استهزءوا، أو ربما تكلموا بكلام فيه شيء من الهزء، وفيه شيء من الضحك، وكان في أثناء هذا الكلام ذكر الله سبحانه وتعالى، أو فيه قراءة القرآن، أو فيه ذكر بعض العلم، وهذا مما لا يجوز، وقد يدخل أحدهم في قول النبي ﷺ: «وإن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في النار سبعين خريفـًا»[(١)].

فالواجب على العبد أن يعظم الله جل جلاله، وألا يتلفظ إلا بكلام عَقَلَه قبل أن يقوله؛ لأن اللسان هو مورد الهلكة، قال معاذ رضي الله عنه للنبي ﷺ: أومؤاخذون بما نقول؟ قال ﷺ: «ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على مناخرهم - أو قال: على وجوههم - إلا حصائد ألسنتهم؟»[(٢)].

وقوله: ﴿إِن نَّعْفُ﴾، ضمير الجمع للتعظيم؛ أي: الله عز وجل؛ وفيها قبول توبة المستهزئ بالله تعالى؛ فإن من هؤلاء من عُفي عنه وهُدي للإسلام وتاب الله جل جلاله عليه، لكن لابد من دليل بين على صدق توبته؛ لأن كفره من أشد الكفر أو هو أشد الكفر.

---

(١) رواه الترمذي برقم (٢٣١٤)، وصححه الألباني؛ انظر «صحيح الجامع» برقم (١٦١٨).

(٢) رواه أحمد (٥/ ٢٣١)، والترمذي برقم (٢٦١٦)، وحسنه الألباني؛ انظر «صحيح الترغيب والترهيب» برقم (٢٨٦٦).

وقوله: ﴿عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ قال بعض أهل العلم: هؤلاء حضروا وصار عندهم كراهية لهذا الشيء، لكنهم داهنوا فصاروا في حكمهم لجلوسهم إليه، قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠]، لكنهم أخف لما في قلوبهم من الكراهة، ولهذا عفا الله تعالى عنهم وهداهم إلى الإيمان وتابوا.

وقوله: ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ﴾؛ أي: لا يمكن أن نعفو عن الجميع، بل إن عفونا عن طائفة، فلا بد أن نعذب الآخرين.

وقوله: ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾،؛أي: بسبب كونهم مجرمين بالاستهزاء وعندهم جرم – والعياذ بالله –، فلا يمكن أن يوفقوا للتوبة حتى يعفي عنهم.

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ، وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ، وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وَقَتَادَةَ – دَخَلَ حَدِيْثُ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ –: أَنَّهُ قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوْكَ: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤُلَاءِ، أَرْغَبَ بُطُوْنًا، وَلَا أَكْذَبَ أَلْسُنًا، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ – يَعْنِي رَسُوْلَ الله ﷺ وَأَصْحَابَهُ القُرَّاءَ –، فَقَالَ لَهُ عَوْفُ بنُ مَالِكٍ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ، لَأُخْبِرَنَّ رَسُولَ الله ﷺ، فَذَهَبَ عَوْفٌ إِلَى رَسُوْلِ الله ﷺ لِيُخْبِرَهُ فَوَجَدَ القُرْآنَ قَدْ سَبَقَهُ، فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُوْلِ الله ﷺ وَقَدِ ارْتَحَلَ وَرَكِبَ نَاقَتَهُ، فَقَالَ: يَا رَسُوْلَ الله، إِنَّمَا كُنَّا نَخُوْضُ، وَنَتَحَدَّثُ حَدِيْثَ الرَّكْبِ، نَقْطَعُ بِهِ عَنَاءَ الطَّرِيْقِ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ مُتَعَلِّقًا بِنِسْعَةِ نَاقَةِ رَسُوْلِ الله ﷺ، وَإِنَّ الحِجَارَةَ تَنْكُبُ رِجْلَيْهِ – وَهُوَ يَقُوْلُ: إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ – فَيَقُوْلُ لَهُ رَسُوْلُ الله ﷺ: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾، مَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ وَمَا يَزِيدُهُ عَلَيْهِ[1].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٣٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٢٩)، وحسنه شيخي مقبل الوادعي؛ انظر كتابه «الصحيح المسند من أسباب النزول» (٧٧).

«**ابن عمر**»، وهو عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ورضي الله عن أبيه، صحابي مشهور.

و«**محمد بن كعب، وزيد بن أسلم، وقتادة**» الثلاثة تابعيون، فالرواية عن ابن عمر مرفوعة، وعن الثلاثة الآخرين مرسلة.

وقوله: «**دخل حديث بعضهم في بعض**»؛ أي: إن هذا الحديث مجموع من رواياتهم عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وهذا يفعله بعض أئمة الرواة كالزهري وغيره، فيحدثه جماعة بشأن قصة من القصص؛ كحديث الإفك مثلاً، فيجمعون هذا، ويجعلونه في حديث واحد، ويشيرون إلى هذا، فيقولون - مثلاً - دخل حديث بعضهم في بعض، أو يقول: حدثني بكذا وبعضهم بكذا، وما أشبه ذلك.

وقوله: «**في غزوة تبوك**»؛ تبوك في أطراف الشام، وكانت هذه الغزوة في رجب حيث طابت الثمار، وكان مع الرسول ﷺ في هذه الغزوة نحو ثلاثين ألفًا، ولما خرجوا رجع عبد الله بن أُبي بنحو نصف المعسكر، حتى قيل له: إنه لا يدري أي الجيشين أكثر: الذين رجعوا، أو الذين ذهبوا؟، مما يدل على كثرة النفاق في تلك السنة، وكانت في السنة التاسعة، وسببها أنه قيل للنبي ﷺ: إن قومًا من الروم ومن متنصرة العرب يجمعون له، فأراد أن يغزوهم ﷺ إظهاراً للقوة وإيماناً بنصر الله عز وجل.

وقوله: «**ما رأينا**» تحتمل أن تكون بصرية، وتحتمل أن تكون علمية قلبية.

وقوله: «**مثل قرائنا**» المراد بهم الرسول ﷺ وأصحابه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

وقوله: «**أرغب بطوناً**»؛ أي: أوسع، وإنما كانت الرغبة هنا بمعنى السعة؛ لأنه كلما اتسع البطن رغب الإنسان في الأكل.

وقوله: «**ولا أكذب ألسناً**»؛ الكذب: هو الإخبار بخلاف الواقع، والألسن: جمع لسان؛ والمراد: ولا أكذب قولاً.

وقوله: «**ولا أجبن عند اللقاء**»؛ الجبن: هو خور في النفس، يمنع المرء من الإقدام عمَّا ينبغي الإقدام إليه، فهو خلق نفسي ذميم، ولهذا كان النبي ﷺ يستعيذ منه[1]، لما يحصل فيه من الإحجام عما ينبغي الإقدام إليه، فلهذا كان صفة ذميمة.

وهذه الأوصاف تنطبق على المنافقين لا على المؤمنين، فالمؤمن يأكل بمعي

---

(١) رواه البخاري برقم (٢٨٢٣)، ومسلم برقم (٢٧٠٦)؛ ولفظ الحديث، وهو قول النبي ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والهرم، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات، وأعوذ بك من عذاب القبر».

واحد: ثلث لطعامه وثلث لشـرابه وثلث لنفسه[1]، والكافر يأكل بسبعة أمعاء[2]، والمؤمن أصدق الناس لساناً ولا سيما النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، والمنافقون أكذب الناس، وجعل النبي ﷺ الكذب من علامات النفاق[2]، والمنافقون من أجبن الناس؛ لأنهم أحب الناس للدنيا، إذ أصل نفاقهم من أجل الدنيا ومن أجل أن تحمى دماؤهم وأموالهم وأعراضهم.

وقوله: «**كذبت**»؛ أي: أخبرت بخلاف الواقع، وفي ذلك دليل على تكذيب الكاذب مهما كان الأمر، وأن السكوت عليه لا يجوز.

وقوله: «**ولكنك منافق**»؛ لأنه لا يطلق هذه الأوصاف على رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم رجل تسمى بالإسلام إلا منافق.

وقوله: «**فوجد القرآن قد سبقه**»؛ أي: بالوحي من الله تعالى، والله عليم بما يفعلون وبما يريدون وبما يبيتون، قال الله تعالى: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ [النساء: ١٠٨].

وقوله: «**وقد ارتحل وركب ناقته**»، الظاهر أن هذا من باب عطف التفسير؛ لأن ركوب الناقة هو الارتحال.

وقوله: «**كأني أنظر إليه**»؛ أي: كأنه الآن أمامي من شدة يقيني به.

وقوله: «**بنسعة ناقة**»؛ هي الحزام الذي يربط به الرحل.

وقوله: «**والحجارة تنكب رجليه**»؛ أي: يمشي والحجارة تضرب وكأنه - والله أعلم - يمشي بسرعة، ولكنه لا يحس في تلك الحال، لأنه يريد أن يعتذر.

وقوله: «**وما يزيده عليه**»؛ أي: لا يزيده على ما ذكر من توبيخ امتثالاً لأمر الله عز وجل، وكفى بالقول الذي أرشد الله تعالى إليه نكاية وتوبيخاً.

* * *

(١) هذان حديثان؛ أُشير إليهما بهذا السياق؛ أحدهما رواه الترمذي برقم (٢٣٨٠)، وصححه الألباني؛ انظر «السلسلة الصحيحة» برقم (٢٢٦٥)؛ ولفظه هو قوله ﷺ: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة؛ فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»، والثاني هو قوله ﷺ: «المؤمن يأكل في معي واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء»؛ رواه البخاري برقم (٥٣٩٤)، ومسلم برقم (٢٠٦٠).

(٢) البخاري برقم (٣٣)، ومسلم برقم (٥٩)، ولفظ الحديث هو قوله ﷺ: «آية المنافق ثلاث؛ إذا حَدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان».

المسألة (التاسعة والخمسون):
فِي احْتِرامِ أَسْمَاءِ الله، وَتَغْيِيْرِ الاسمِ لِأَجْلِ ذَلِكَ

إن الموحد متأدب مع الله عز وجل، ومتأدب مع أسمائه وصفاته، ومع دينه، فلا يهزء -مثلا- بشيء فيه ذكر الله تعالى، ولا يلقي الكلمة عن الله جل وعلا دون أن يتدبر ما فيها، وكذلك لا يسمي أحداً بأسماء الله تعالى، ويغير الاسم لأجل هذا؛ فأسماء الله سبحانه يجب احترامها، وتعظيمها، ومن احترامها أن يُجعل ما لا يصلح إلا لله منها لله وحده، وألا يُسمى به البشر.

وهذا راجع إلى تعظيم شعائر الله جل جلاله، قال الله سبحانه: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، وقال الله جل وعلا: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠]، قال أهل العلم: الشعائر جمع شعيرة، وهي كل ما أشعر الله بتعظيمه، يعني أعلم بتعظيمه فهو شعيرة، ومما أشعر الله تعالى بتعظيمه أسماءه الحسنى، فيجب احترامها وتعظيمها.

ولهذا يستدل أهل العلم على وجوب ألا تُمتهن أسماء الله سبحانه وتعالى.

وأسماء الله عز وجل هي: التي سمَّى بها نفسه، أو سمَّاه بها رسوله ﷺ، وفي معرفتها عدة مسائل، أذكر منها:

هل أسماء الله مترادفة أو متباينة؟.

فهي باعتبار دلالتها على الذات مترادفة؛ لأنها تدل على ذات واحدة، وهو الله عز وجل، وباعتبار دلالتها على المعنى والصفة التي تحملها متباينة، وإن كان بعضها قد يدل على ما تضمَّنه الاسم الآخر من باب دلالة اللزوم؛ فمثلاً: «الخلاق» يتضمن الدلالة على العلم المستفاد من اسم العليم، لكنه بالالتزام، وعلى القدرة المستفادة من اسم القدير، لكن بالالتزام.

وهل المراد بها الدلالة على الذات فقط، أو على الذات والصفة؟.

فإنها تدل على الذات والصفة، أما أسماؤنا نحن؛ فيراد بها الدلالة على الذات

فقط، فقد يُسمّى محمداً وهو من أشد الناس ذمـًا، وقد يسمى عبدالله وهو من أفجر عباد الله.

أما أسماء الله عز وجل، وأسماء الرسول ﷺ، وأسماء القرآن، وأسماء اليوم الآخر، وما أشبه ذلك؛ فإنها أسماء متضمنة للأوصاف.

وأسماء الله تعالى بعضها معلوم لنا وبعضها غير معلوم، بدليل قول الرسول ﷺ: «أسألك اللهم بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علّمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك؛ أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي....»[(١)]، ومعلوم أن ما استأثر الله عز وجل بعلمه لا يعلمه أحد.

وهل هي محصورة بعدد معين؟.

هي غير محصورة، قال النبي ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسمـًا، من أحصاها دخل الجنة»[(٢)].

وأن هذه التسعة والتسعين غير معينة، بل موكولة لنا لنبحث حتى نحصل على التسعة والتسعين، وهذا من حكمة إبهامها لأجل البحث حتى نصل إلى هذه الغاية، ولهذا نظائر؛ منها: أن الله تعالى أخفى ليلة القدر، وساعة الإجابة يوم الجمعة، وساعة الإجابة في الليل؛ ليجتهد الناس في الطلب[(٣)].

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٦/ ٢٤٧)، وصححه الألباني؛ انظر: «السلسلة الصحيحة» برقم (١٩٩).

(٢) رواه البخاري برقم (٢٧٣٦)، ومسلم برقم (٢٦٧٧).

(٣) ولقد اجتهدت في جمع تسع وتسعين اسمـًا من أسماء الله تعالى، ونظمتها باختصار وجاءت بثلاث وعشرين بيتـًا، وأنقلها هنا للفائدة:

يَقُولُ مَجْدِي رَاجِي عَفْوَ رَبِّهِ ... الحَمْدُ لِلهِ كَثِيراً وَبِهِ
أَمُدُّ عَوْنـًا دَائِمـًا فِي العَمَلِ ... مَعَ دَوَامِ طَاعَةٍ مَعْ أَمَلِيْ
بِفَوْزِ فِرْدَوْسٍ نَعِيْمٍ أَبَدِيْ ... ثُمَّ عَلَى النَّبِيْ صَلَاةُ الصَّمَدِ
وَبَعْدُ فَالقَصْدُ بِذَا الكَلَامِ ... نَظْمٌ لأَسْمَا خَالِقِ الأَنَامِ
أَرْجُو بِهِ إِرْضَاءَ مَالِكِ السَّمَا ... والنَّفْعَ لِلْقَارِئِ مُبْتَغِي السُّمَا
الأَوَّلُ الآخِرُ ثُمَّ الظَّاهِرُ ... وَالبَاطِنُ الوَتْرُ كَذَاكَ القَاهِرُ
البَرُّ والعَالِمُ والعَظِيْمُ ... المَلِكُ القُدُّوسُ والرَّحِيْمُ =

ومعنى إحصاء هذه التسعة والتسعين، الذي يترتب عليه دخول الجنة، ليس معنى ذلك أن تكتب في رقاع ثم تكرر حتى تحفظ فقط، ولكن معنى ذلك: الإحاطة بها لفظًا، وفهمها معنىً، والتعبد لله تعالى بمقتضاها.

وأسماء الله عز وجل ودلالتها على الذات والصفة جميعًا دلالة مطابقة، ودلالتها على الذات وحدها أو على الصفة وحدها دلالة تضمّن، ودلالتها على أمر خارج دلالة التزام؛ مثال ذلك: «الخلاق» دلّ على الذات، وهو الرب عز وجل، وعلى الصفة وهي الخلق جميعًا دلالة مطابقة، ودل على الذات وحدها أو على الصفة وحدها دلالة تضمن، ودلّ على القدرة والعلم دلالة التزام.

وأسماء الله عز وجل لا يتم الإيمان بها إلا بثلاثة أمور، إذا كان الاسم متعديًا؛ الأول: الإيمان بالاسم اسمًا لله تعالى، والثاني: الإيمان بما تضمنه من صفة،

= الحَقُّ والعَفُوُّ والحَسِيْبُ ... وَهْوَ الرَّفِيقُ الأَحَدُ القَرِيْبُ
الوَاحِدُ الغَنِيُّ وَهْوَ الحَيُّ ... المُؤْمِنُ المُبِيْنُ والوَلِيُّ
القَادِرُ المُهَيْمِنُ النَّصِيرُ ... الحَافِظُ السِّتِّيْرُ والخَبِيْرُ
الشَّاكِرُ المُصَوِّرُ الكَبِيْرُ ... الأَكْرَمُ المُقْتَدِرُ البَصِيرُ
الوَاسِعُ السَّلَامُ والمَجِيدُ ... الصَّمَدُ الوَدُودُ والحَمِيْدُ
السَّيِّدُ الهَادِي هُوَ الحَكِيْمُ ... والحَكَمُ الفَتَّاحُ والكَرِيْمُ
المُحْسِنُ الغَفُورُ والتَّوَّابُ ... وَهْوَ الشَّكُورُ الطَّيِّبُ الوَهَّابُ
الرَّبُّ والسُّبُّوحُ واللَّطِيْفُ ... اللهُ والقَيُّوْمُ والرَّؤُوفُ
الوَارِثُ الغَفَّارُ والحَلِيْمُ ... الرَّازِقُ العَلِيُّ والعَلِيْمُ
والخَالِقُ المَتِيْنُ والوَكِيْلُ ... والمَوْلَى والشَّهِيْدُ والجَمِيْلُ
البَارِئُ الجَوَادُ والمَنَّانُ ... المُعْطِي والمَلِيْكُ والرَّحْمانُ
والأَعْلَى والعَزِيْزُ والمُقِيْتُ ... هُوَ الإِلَهُ المُحْيِي والمُمِيْتُ
البَاسِطُ المُقَدِّمُ الجَبَّارُ ... القَابِضُ المُؤَخِّرُ القَهَّارُ
الكَافِي والحَفِيظُ والقَوِيُّ ... والشَّافِي والمُحِيْطُ والحَيِيُّ
وأَيْضًا السَّمِيْعُ والمُجِيْبُ ... وَهْوَ القَدِيرُ يَا أَخِي الحَبِيْبُ
جَمَعْتُهَا تِسْعًا وتِسْعِينَ هُنَا ... أَسْمَاءَ رَبِّي يَا أَخِي وَادْعُ لَنَا

والثالث: ما تضمنه من أثر وحكم؛ فالعليم مثلاً: لا يتم الإيمان به حتى نؤمن بأن العليم من أسماء الله تعالى، ونؤمن بما تضمنه من صفة العلم، ونؤمن بالحكم المترتب على ذلك؛ وهو أنه يعلم كل شيء.

وإذا كان الاسم غير متعد؛ فنؤمن بأنه من أسماء الله سبحانه وتعالى وبما يتضمنه من صفة.

وأن من أسماء الله جل جلاله ما يختص به؛ مثل الله، الرحمن، رب العالمين، وما أشبه ذلك، ومنها ما لا يختص به؛ مثل: الرحيم، السميع، العليم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، وقال تعالى عن النبي ﷺ: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]

قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ﴾؛ الخطاب هنا للرسول ﷺ، والخطاب الموجه للرسول في القرآن الكريم على ثلاثة أقسام:

الأول: أن يقوم الدليل على أنه خاص به فيختص به، كقوله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح: ١، ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ [النساء: ٧٩]؛ فإن هذا من المعلوم أنه خاص بالنبي ﷺ.

والثاني: أن يقوم الدليل على أنه عام فيعم؛ كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]؛ فوجه الخطاب أولاً للرسول ﷺ، قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ ولم يقل: «يا أيها الذين آمنوا»، ولم يقل أيضاً: «يا أيها النبي إذا طلقت»؛ فدل هذا على أن الخطاب الموجه للرسول ﷺ موجه له وللأمة.

والثالث: أن لا يدل على هذا ولا على هذا، فيكون خاصّاً به لفظاً، عامّاً له وللأمة حكماً؛ كقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، وأمثلته كثيرة جداً يوجه الله الخطاب للرسول ﷺ، والمراد الخطاب له لفظاً وللعموم حكماً.

و﴿سَبِّحِ﴾؛ يعني: نَزِّه الله عن كل ما لا يليق بجلاله وعظمته، فإن التسبيح يعني التنزيه، إذا قلت: سبحان الله، يعني أنني أُنَزِّه الله عن كل سوء، عن كل عيب، عن كل نقص، ولهذا كان من أسماء الله تعالى: «السلام، القدوس»؛ لأنه مُنَزَّه عن كل عيب.

وذهب بعضهم إلى أن المراد تنزيه اسم الله وتقديسه عن أن يسمى به شيء سواه؛ لأن المشركين كانوا يسمون لآلهتهم بأسماء يزعمون أنها مشتقة من أسماء الله عز وجل، كاللَّات زعموا أنها مؤنث من الله، وأخذوا العُزَّى من العزيز؛ فالمقصود بقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾؛ أي: نَزِّه اسم ربك وقدسه عن أن يسمى به شيء سواه تبارك وتعالى، كما كان يفعل المشركون في تسميتهم لآلهتهم ببعضها كاللَّات والعُزَّى.

وقوله: ﴿ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾؛ يعني: سبح ربك ذاكراً اسمه؛ أي: لا تُسبِّحه بالقلب فقط، بل سَبِّحه بالقلب واللسان، وذلك بذكر اسمه تعالى، ويدل لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٩٦]؛ يعني سبح تسبيحاً مقروناً باسم ربك العظيم، وذلك لأن تسبيح الله تعالى قد يكون بالقلب، وقد يكون باللسان، وقد يكون بهما جميعاً، والمقصود أن يسبح بهما جميعاً بقلبه لافظاً بلسانه.

وسيأتي في المسألة التالية زيادة توضيح حول: هل الاسم عين المسمى أم غيره؟، وهي من المسائل المحدثة المبتدعة.

وقوله: ﴿رَبِّكَ﴾؛ الرب معناه الخالق المالك المدبر لجميع الأمور، فالله تعالى هو الخالق، وهو المالك، وهو المدبر لجميع الأمور، والمشركون يقرون بذلك؛ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وأخبر الله سبحانه وتعالى أنهم إذا سئلوا: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ٣١]؛ فهم يقرون بأن الله تعالى له الملك، وله التدبير، وله الخلق، لكن يعبدون معه غيره، وهذا من الجهل، كيف تقر بأن الله وحده هو الخالق، المالك، المدبر للأمور كلها وتعبد معه غيره!!؛ إذن معنى الرب هو الخالق، المالك، المدبر لجميع الأمور، وكل إنسان يقر بذلك يلزمه أن لا يعبد إلا

الله، كما تدل عليه الآيات الكثيرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]؛ قال: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾؛ يعني: لا تعبدون غيره.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْأَعْلَى﴾ من العلو، وعلو الله عز وجل نوعان: علو صفة، وعلو ذات؛ أما علو الصفة: فإن أكمل الصفات لله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، وأما علو الذات: فهو أن الله تعالى فوق عباده مستوٍ على عرشه، ولهذا كان الإنسان إذا سجد يقول: سبحان ربي الأعلى، يتذكر بسفوله ونزله، فحينما يضع أشرف وأعلى ما في الإنسان وهو وجهه على الأرض التي تداس بالأقدام، فكان من الحكمة أن يقول: سبحان ربي الأعلى؛ يعني: أُنزِّه ربي الذي هو فوق كل شيء لأني نزلت أنا أسفل كل شيء.

فتسبيح الله الأعلى بصفاته، والأعلى بذاته، يشعر عندما نقول: سبحان ربي الأعلى، أن ربنا تعالى فوق كل شيء، وأنه أكمل شيء في الصفات.

وكان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾[(١)]، لما فيها من تنزيه الله تعالى وتقديسه وتعظيمه، ويدل على هذا، أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ رضي الله عنه: فلولا صليت بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾[(٢)]، وأن النبي ﷺ كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾[(٣)]، وأن النبي ﷺ كان يقرأ في الوتر بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، والمعوذتين[(٤)]، وكان

(١) رواه أحمد (١/ ٩٦)، وضعفه الألباني؛ انظر «سلسلة الأحاديث الضعيفة» برقم (٤٢٦٦).
(٢) رواه البخاري برقم (٧٠٥)، ومسلم برقم (٤٦٥).
(٣) رواه مسلم برقم (٨٧٨).
(٤) رواه أبو داود برقم (١٤٢٣)، والترمذي برقم (٤٦٢)، وصححه الألباني؛ انظر «صحيح أبي داود».

رسول الله ﷺ إذا قرأ: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾؛ قال: سبحان ربي الأعلى[١].

وعَنْ أَبِي شُرَيْحٍ رضي الله عنه: أَنَّهُ كَانَ يُكَنَّى أَبَا الحَكَمِ؛ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ هُوَ الحَكَمُ، وَإِلَيْهِ الحُكْمُ»، فَقَالَ: إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَـيْءٍ أَتَوْنِي، فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ، فَرَضِيَ كِلَا الفَرِيْقَيْنِ، فَقَالَ: «مَا أَحْسَنَ هَذَا، فَمَالَكَ مِنَ الوَلَدِ؟»، قُلْتُ: شُرَيْحٌ، وَمُسْلِمٌ، وَعَبْدُ اللهِ، قَالَ: «فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟»، قُلْتُ: شُرَيْح، قَالَ: «فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ» [٢].

«**أبو شريح**» هو الخزاعي، اسمه خويلد بن عمرو، وقيل: هانئ بن يزيد الكندي، وقيل: الحارث الضبابي صحابي جليل رضي الله عنه.

وقوله: «**يكنى أبا الحكم**»؛ أي: ينادى به، والكنية: ما صدّر بأب أو أم أو أخ أو عم أو خال، وتكون للمدح هي هنا، وتكون للذم كأبي جهل، وقد يكون لمصاحبة الشيء؛ مثل: أبي هريرة رضي الله عنه، وقد تكون لمجرد العلمية كأبي بكر رضي الله عنه، وأبي العباس ابن تيمية رحمه الله، لأنه ليس له ولد.

وقوله: «**إن الله هو الحَكم وإليه الحكم**»؛ «**هو الحكم**»؛ أي: المستحق أن يكون حاكماً على عباده، حاكماً بالفعل، يدل له قوله: «**وإليه الحكم**».

وقوله: «**وإليه الحكم**»؛ حكم الله عز وجل ينقسم إلى قسمين:

الأول: كوني، وهذا لا راد له؛ فلا يستطيع أحد أن يرده، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٠].

والثاني: شرعي، وينقسم الناس فيه إلى قسمين: مؤمن وكافر؛ فمن رضيه وحكم به فهو مؤمن، ومن لم يرض به، ولم يحكم به فهو كافر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠].

---

(١) رواه أبو داود برقم (٨٨٣)، وصححه الألباني؛ انظر «صحيح الجامع» برقم (٤٧٦٦).

(٢) رواه البخاري في «الأدب المفرد» برقم (٨١١)، وأبو داود برقم (٤٩٥٥)، والنسائي (٨/ ٢٢٦)، وصححه الألباني؛ انظر «الإرواء» برقم(٢٦١٥).

وأما قول الله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [التين: ٨]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠]؛ فهو يشمل الكوني والشرعي، وإن كان ظاهر الآية الثانية أن المراد الحكم الشرعي؛ لأنه في سياق الحكم الشرعي، والشرعي يكون تابعًا للمحبة والرضى والكراهة والسخط، والكوني عام في كل شيء.

وفي الحديث دليل على أن من أسمائه تعالى: «**الحكم**».

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا ﴾ متضمن للعدل، بل هو متضمن للعدل وزيادة.

وقوله: «**فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني**»، هذا بيان لسبب تسميته بأبي الحكم.

وقوله: «**ما أحسن هذا**»؛ الإشارة تعود إلى إصلاحه بين قومه، لا إلى تسميته بهذا الاسم؛ لأن النبي ﷺ غيّره.

وقوله: «**شريح ومسلم وعبد الله**»؛ الظاهر: أنه ليس له إلا الثلاثة؛ لأن الولد في اللغة العربية يشمل الذكر والأنثى، فلو كان عنده بنات لعدهن.

وقوله: «**فأنت أبو شريح**»؛ غيره النبي ﷺ؛ لأمرين:

الأول: أن الحكم هو الله جل جلاله، فإذا قيل: يا أبا الحكم! كأنه قال: يا أبا الله! وهذا لا يجوز.

الثاني: أن هذا الاسم الذي جعل كنية لهذا الرجل لوحظ فيه معنى الصفة وهي الحكم، فصار بذلك مطابقًا لاسم الله تعالى، وليس لمجرد العَلَميّة المحضة، بل للعلمية المتضمنة للمعنى، وبهذا يكون مشاركًا لله سبحانه وتعالى في ذلك، ولهذا كنّاه النبي ﷺ بما ينبغي أن يُكنَّى به.

***

المسألة (الستون):
فِي السُّؤَالِ بِأَسْمَاءِ الله تَعَالَى وَالِاسْتِعَاذَةِ بِهَا

قوله: «**السؤال**»؛ هو الطلب بذل وخضوع وافتقار.

وقوله: «**الاستعاذة**»؛ هي: العوذ والاحتماء بمن يدفع المكروه، ويرفع البلاء بعد نزوله.

والسؤال والاستعاذة هما من أفضل أنواع العبادة.

والمراد بهذه المسألة هو بيان كيفية دعاء الله تعالى وعبادته بأسمائه التي أمر أن يُدعى بها ويُعبد.

وأيضًا المراد إثبات أن الاسم هو المسمى.

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: أما القول في الاسم، أهو المسمى أم هو غيره؟؛ فإنه من الحماقات الحادثة، التي لا أثر فيها فيتبع، ولا قول من إمام فيستمع، فالخوض فيه شين، والصمت عنه زين، وحسب امرئ من العلم به والقول أن ينتهي إلى قول الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]؛ وقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وكان سبب حدوث هذه المسألة، أن الجهمية قالوا: إن الاسم غير المسمى، وأسماء الله غيره، وما كان غيره فهو مخلوق؛ لأن الله تعالى وحده هو الخالق، وما سواه مخلوق، فإذا كانت أسماؤه غيره، فهي مخلوقة، فرد عليهم السلف، واشتد نكيرهم عليهم؛ لأن أسماء الله من كلامه، وكلام الله غير مخلوق، فهو الذي سمى نفسه بهذه الأسماء.

و أما قوله -تعالى-: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ [يوسف: ٤٠].

فليس المراد: أنكم تعبدون الأوثان المسماة، فهم معترفون بذلك، بل المراد: نفي ما كانوا يعتقدونه فيها من الإلهية، والواقع أنه ليس فيها شيء مما اعتقدوه.

فإذا عبدوها معتقدين ثبوت إلاَهِيَّتها، مسمينها آلهة، لم يكونوا في حقيقة الأمر

عبدوا إلا أسـماء ابتدعوها، ما أنزل الله بها من سـلطان، وليس فيها من معنى الإلهية شيء، فعبادتهم لما تصوروه في أنفسهم من معنى الإلهية وعبروا عنه بألسنتهم.

وهذا التصـور خيالي، لا حقيقة له، فهم لم يعبدوا في الحقيقة إلا ذلك الخيال الفاسـد، الذي تصوروه، وسموه إلهـًا، فكان مجرد تسمية فقط، ليس له من معنى الإلهية شيء.

قال الله تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قال الطبري -رَحِمَهُ اللهُ-: يقول - تعالى ذكره- لنبيه: ﴿قُلِ﴾ يا محمد لمشـركي قومك المنكرين دعاء الرحمن: ﴿ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أيها القوم، ﴿أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ بأي أسـمائه -جل جلاله- تدعون ربكم فإنما تدعون واحداً، وله الأسـماء الحسـنى، وإنما قيل ذلك له ﷺ؛ لأن المشـركين - فيما ذكر- سـمعوا النبي ﷺ يدعو ربه: يا ربنا الله، ويا ربنا الرحمن، فظنوا أنه يدعو إلهين، فأنزل الله تعالى الآية.

وقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ﴾؛ فيه إثبات اسمين من أسماء الله تبارك وتعالى، وهما «الله والرحمن»؛ وقوله: ﴿ٱللَّهَ﴾ هو أعرف المعارف، وأصـل لفظ الجلالة الله؛ الإله: من أله يأله ألوهة، فهو مألوه واسـم الله، واسـم الرَّحمن لا يصـح لأحد من الناس أن يتسمَّى بهما، ولما سمى مُسَيْلِمَةُ نفسه بالرحمن، لازمه اسم الكذاب.

وأسماء الله -تبارك وتعالى- مُتَضَمِّنة الصفات، فهي مشتقة ليست جامدة؛ «فالله» متضمن للألوهية، «والرحمن» متضمِّن لصفة الرحمة.

وقوله: ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ فأسماء الله تعالى على قسمين:

الأول: أسماء خاصة به -سبحانه-؛ مثل: «الله، الرحمن، ذو الجلال والإكرام، المدبِّر، خالق الخلق...».

والثاني: أسـماء تطلق على الله -تعالى- وعلى غيره؛ مثل: «الرحيم، العزيز، الحي...».

وتدل على اختصاص الله تبارك وتعالى بالأسـماء الحسـنى، وأن أسـماءه كاملة المعاني، لا يلحقها نقص، أو عيب، وأن اتصاف المخلوق ببعض ما يتصف الرب به

من المعاني، لا يلزم منه نقص أو عيب في أسمائه وصفاته – تعالى –؛ لأنها حسنى كاملة تناسب عظمته.

وليس ما يخص الله تعالى من هذه الاسماء أو الأفعال فيه مماثلة لما يخص المخلوق، فلا يجوز تأويل أو نفي رحمة الله تعالى وغيرها من صفاته، من أجل توهم أن مجرد المشاركة في المعنى يلزم منها المماثلة، فالمخلوق أسماؤه وصفاته ليست حسنى، ولا كاملة، فهي تناسب ضعفه وعجزه.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ معنى الحسنى؛ أي: البالغة في الحسن أكمله؛ والأسماء الحسنى هي الأسماء البالغة في الحسن نهايته، فالخلق يتسمون بأسماء لكن قد لا تكون حسنة، أو قد تكون حسنة، ولكن ليست بالغة في الحسن نهايته؛ لأن الحسن في الأسماء يكون راجعاً إلى أن الصفة التي اشتمل عليها ذلك الاسم تكون حقاً موجودة فيمن تسمى بها، والإنسان وإن تسمى بإسم فيه معنى فقد لا يكون فيه من ذلك المعنى شيء، فيسمى صالحاً وقد لا يكون صالحاً، ويسمى خالداً وقد لا يكون خالداً، ويسمى محمداً وقد لا يكون كثير خصال الحمد.

وقوله تعالى: ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾؛ الدعاء هو السؤال، والدعاء قد يكون بلسان المقال؛ مثل: اللهم اغفر لي يا غفور... وهكذا، أو بلسان الحال، وذلك بالتعبد له، ولهذا قال العلماء: إن الدعاء دعاء مسألة ودعاء عبادة،؛لأن حقيقة الأمر أن المتعبد يرجو بلسان حاله رحمة الله تعالى ويخاف عقابه.

وقوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾؛ أي: اتركوهم؛ لا تسلكوا مسلكهم ولا طريقهم؛ فإنهم على ضلال وعدوان، وليس المعنى عدم مناصحتهم وبيان الحق لهم، إذ لا يترك الظالم على ظلمه، ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿وَذَرُواْ﴾ تهديداً للملحدين.

وقوله: ﴿يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾؛ الإلحاد: مأخوذ من اللحد؛ وهو الميل، لحد وألحد بمعنى مال، ومنه سمي الحفر بالقبر لحداً؛ لأنه مائل إلى جهة القبلة.

والإلحاد في أسماء الله تعالى: الميل بها عما يجب فيها؛ وهو أنواع:

الأول: أن ينكر شيئاً من الأسماء، أو مما دلت عليه من الصفات أو الأحكام، ووجه كونه إلحاداً؛ أنه مال بها عما يجب لها، إذ الواجب إثباتها وإثبات ما تتضمنه من الصفات والأحكام.

الثاني: أن يثبت لله تعالى أسماء لم يسم الله سبحانه بها نفسه؛ كقول الفلاسفة في

الله تعالى: إنه علة فاعلة في هذا الكون تفعل وهذا الكون معلول لها، وليس هناك إله، وبعضهم يسميه العقل الفعال، فالذي يدير هذا الكون هو العقل الفعال، وكذلك النصارى يسمون الله سبحانه أبـًا وهذا إلحاد.

الثالث: أن يجعلها دالة على المماثلة؛ فيقول: الله سميع بصير قدير، والإنسان سميع بصير قدير، اتفقت هذه الأسماء، فيلزم أن تتفق المسميات، ويكون الله سبحانه وتعالى مماثلاً للخلق، فيتدرج بتوافق الأسماء إلى التوافق بالصفات.

ووجه الإلحاد: أن أسماءه دالة على معان لائقة بالله جل جلاله لا يمكن أن تكون مماثلة لما تدل عليه من المعاني في المخلوق.

تنبيه: اعلم أن التعبير بنفي التمثيل أحسن من التعبير بنفي التشبيه؛ لأن الله تعالى هو الذي نفاه في القرآن، فقال الله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]؛ ولأنه ما من شيئين موجودين إلا وبينهما تشابه من بعض الوجوه، واشتراك في المعنى من بعض الوجوه؛ فمثلاً: الخالق والمخلوق اشتركا في معنى الوجود، لكن وجود هذا يخصه ووجود هذا يخصه، وكذلك العلم والسمع والبصر ونحوها اشترك فيها الخالق والمخلوق وفي أصل المعنى، ويتميز كل واحد منهما بما يختص به.

وقوله تعالى: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: عقوبة وعذابـًا على إلحادهم في أسمائه، والعمل يطلق على القول والفعل، قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، وهذا يكون في الأفعال والأقوال.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ فِرَاشَهُ فَلْيَنْفُضْهُ بِصَنِفَةِ ثَوْبِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَلْيَقُلْ بِاسْمِكَ رَبِّي، وَضَعْتُ جَنْبِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَاغْفِرْ لَهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ»[١].

(١) رواه البخاري برقم (٧٣٩٣)، ومسلم برقم (٢٧١٤).

قوله: «**إذا جاء أحدكم فراشه**»؛ أي: اللحظة التي يسلم الإنسان فيها روحه لربه، وهي لحظة لا يملك فيها حولاً ولا قوة؛ قال أهل العلم: وحكمة الذكر والدعاء عند النوم واليقظة أن تكون خاتمة أعمال الإنسان على الطاعة، وأول أفعاله على الطاعة.

وقوله: «**فلينفضه بصنفة ثوبه ثلاث مرات**»؛ صنفة الثوب: طرفه من الداخل، وفي رواية أخرى: «داخلة إزاره»، ولو فعل ذلك بغير طرف ثوبه حصل المقصود، والحكمة في ذلك؛ إزالة ما لعله يكون فيه مما يؤذيه، وأمر بأن يكون ذلك ثلاث مرات للمبالغة، وليكون ذلك وتراً، إذ الوتر معتبر في الشرع.

وقوله: «**وليقل: باسمك ربي وضعت جنبي، وبك أرفعه**»؛ لما كان النوم نوعاً من الموت، وقد يموت فيه حقيقة، لجأ إلى ربه بذكر اسمه، داعياً ومتبركاً به، وسائلاً به المغفرة والعفو عنها، إن أمسك نفسه – أي: قبضها في النوم – فلم يردها إلى بدنها؛ قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٢].

وقوله: «**وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين**»؛ أي: إن رددتها إلى بدنها، فاحفظها من الشياطين، والضلال، والمؤذيات، بحفظك وحمايتك التي تحمي بها أولياءك الذين تتولى حفظهم من كل مضر ومؤذ.

ففيه مشروعية ذكر الله تعالى عند النوم؛ ليكون موته الأصغر على اسمه، فيدخل بذلك في العمل بقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

وفيه الاستسلام لله تعالى، والافتقار إليه سبحانه، وسؤاله عز وجل ما لا غنى له عنه، وهذا كله من عبادة الله تعالى ودعائه بأسمائه، فهو تفسير لقوله -تعالى-: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وعَن حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ، قَالَ: «اللهمَّ بِاسْمِكَ أَحْيَا وَأَمُوتُ، وَإِذَا أَصْبَحَ قَالَ: «الْحَمْدُ لله الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ»[1].

(١) رواه البخاري برقم(٧٣٩٤)، ومسلم برقم (٢٧١١).

«**حذيفة**» هو ابن اليمان، صحابي جليل، مات في أول خلافة علي رضي الله عنه سنة ستٍّ وثلاثين، رضي الله عنه.

وقوله: «**إذا آوى إلى فراشه**»؛ أي: رجع إليه بعد عمل النهار، وانضم إليه، ودخل فيه.

وقوله: «**اللهم باسـمك أحيا وأموت**»؛ أي: ذاكراً اسـمك في حياتي، مطمئناً به قلبي، إذ لا راحة لي ولا اطمئنان إلا بذكر اسـمك، ولا حياة نافعة إلا بذلك، وعلى ذكر اسمك يا ربي سبحانك أموت، متوسلاً باسمك إليك أن تتولاني، وتحفظني في جميع أحوالي.

وقوله: «**وإذا أصـبح قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا، وإليه النشـور**»؛ النوم نوع من الموت، واليقظة حياة، وهو نعمة من الله جل جلاله على عباده حتى ترتاح أبدانهم وأفكارهم، وقد ينام الإنسـان فلا ترجع إليه روحه، فإذا اسـتيقظ سـالماً، قد رجع إليه نشـاطه وقوته، اسـتوجب ذلك شـكر الله تعالى والثناء عليه، فناسـب قوله بعد يقظته: «**الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا**»؛ أي: أرجع إلينا أرواحنا بفضله ومنته.

و«**النشـور**»؛ هو البعث بعد الموتة الكبرى، فمصيرنا إلى ربنا، حتى يجازينا على أعمالنا كما وعدنا.

وقَالَ رَسُـولُ ﷺ: «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ، فَقَالَ: بِاسْـمِ اللهِ، اللهمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا؛ فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرْ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ، لَمْ يَضُرُّهُ شَيْطَانٌ أَبَداً»[1].

قوله: «**أراد أن يأتي أهله**»؛ أي: يجامع زوجته.

وقوله: «**باسم الله**» أي: أفعل ذلك، ذاكراً اسم الله سبحانه، عابداً ربي بهذا الذكر، ومتبركاً به.

فباسم الله أستعيذ، وباسم الله أتحصن، وباسم الله أتحرز من كل ضرر، وباسم الله

(١) رواه البخاري برقم (٧٣٩٦)، ومسلم برقم(١٤٣٤).

أتبرك، وباسم الله أبتدئ، أو أفعل ما أقدر عليه.

وقد ورد الأمر بالتسمية في أشياء كثيرة، كما أمر بالتسمية عند الأكل وعند الشرب، وعند دخول المنزل وعند الخروج منه، وما أشبه ذلك.

وقوله: «**اللهم جنبنا الشيطان**»؛ أي: أبعدنا عنه، فلا يشاركنا، ولا يحضرنا.

وقوله: «**وجنب الشيطان ما رزقتنا**»؛ أي: أبعد الشيطان عن الرزق الذي تقدره لنا من الولد، في هذا الجماع.

والمقصود ذكر الله تعالى عند مقاربة الزوجة، والاستعاذة بالله من الشيطان أن يشاركه أو يحضره، أو يضر المولود بحال من الأحوال.

وقوله: «**لم يضره شيطان أبداً**»؛ ليس المقصود به أنه لا سبيل للشيطان عليه، وأنه يكون معصوماً؛ فإن العصمة ليست لأحد بعد رسل الله عليهم الصلاة والسلام، وإنما المراد أنه يسلم من تسلطه عليه، وكونه يصير من أوليائه، وإلّا فإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، كما جاء عن النبي ﷺ.

وقيل: المراد أن لا يطعن فيه الشيطان عند ولادته.

وعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رضي الله عنه، قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ قُلْتُ: أُرْسِلُ كِلَابِي المُعَلَّمَةَ؟، قَالَ: «إِذَا أَرْسَلْتَ كِلَابَكَ المُعَلَّمَةَ، وَذَكَرْتَ اسْمَ اللهِ، فَأَمْسَكْنَ فَكُلْ، وَإِذَا رَمَيْتَ بِالْمِعْرَاضِ، فَخَزَقَ فَكُلْ»[1].

«**عدي بن حاتم**» بن عبد الله بن سعيد بن الحَشرج، أبو طريف، صحابي مشهور، مات سنة ثمان وستين، وهو ابن مئة وعشرين سنة، وقيل غير هذا، رضي الله عنه.

وقوله: «**الكلاب المعلمة**»؛ هي التي تقبل التعليم، فإذا أمرتَ فعلتْ، وإذا نهيتَ انتهتْ، فإذا أرسلها صاحبها أمسكت الصيد له، وليس لنفسها.

وقوله: «**ذكرت اسم الله**»؛ يفهم منه أنه إذا لم يذكر اسم الله تعالى عند الإرسال أنه لا يأكل مما أمسكت الكلاب المعلمة.

وقوله: «**رميت بالمعراض فخزق فكل**»؛ المعراض هو السهم، فإذا خزق؛ أي:

---

(١) رواه البخاري برقم(٧٣٩٧)، ومسلم برقم (١٩٢٩).

أصـاب فكُلْ حلالاً، وإذا لم يخزق؛ أي: لم يجرح، ولم يصـب الصـيد بحده، بأن أصابه بعرضه، فإنه لا يأكل؛ لأن الصيد حينئذ يكون وقيذة؛ أي: ميتة.

وعَنْ عَائِشَـةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالُوا: يَا رَسُـولَ الله، إِنَّ هَا هُنَا أَقْوَامـاً حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ بِشِـرْكٍ، يَأْتُونَا بِلُحْمَانٍ، لَا نَدْرِي يَذْكُرُونَ اسْـمَ الله عَلَيْهَا أَمْ لَا؟، قَالَ: «اذْكُرُوا أَنْتُمُ اسْمَ الله وكُلُوا»[1].

«**عائشـة**» هي بنت أبي بكر الصـديق، أم المؤمنين، زوجة رسـول الله ﷺ، ماتت سنة سبع وخمسين، رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

وقوله: «**قالوا**»؛ أي: بعض الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ جميعـًا.

وقوله: «**إن ها هنا**»؛ أي: في المدينة، أو قد يكون في غيرها.

وقولـه: «**أقوامـاً حديث عهـدهم بشـرك**»؛ المراد أنهم جماعة كثيرين؛ جديد عهدهم بشـرك؛ فيه إشـارة إلى عموم البلوى المانع من مراعاة الاحتياط والتقوى المحتاج إلى الرجوع للفتوى.

وقـولـه: «**اذكروا اسـم الله وكلوا**»؛ لـيس معنـاه أن ذكـر اسـم الله تـعـالى عند الأكل يجعلها حلالاً إذا كانت قد ذبحت على غير اسـم الله تعالى، ولكن أمرهم بـذكر اسـم الله تعالى عند الأكـل؛ لأنـه الـذي يلزمهم، ومطيبـاً بـذلـك قلوبهم، ومشـيراً بذلك إلى إزالة الشـك، إذ الأصـل خلافه، وهو أن ظاهر الذابح الإسلام.

وفيه أن ذكر اسم الله سبحانه على الذبيحة شرط في حل الأكل منها، وأنه إذا كان ظاهر الذابح الإسلام، لا يلتفت إلى الاحتمال بأنه ذبحها على غير اسم الله تعالى، أو أنه لا يعرف الحكم، وما أشبه ذلك.

وهو يـدل على نوع آخر من عبادة الله تعالى بـذكر اسـمه على الـذبيحة، وعلى الأكل.

---

(١) رواه البخاري برقم(٧٣٩٨).

وعَنْ جُنْدَبٍ رضي الله عنه، أَنَّهُ شَهِدَ النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ النَّحْرِ صَلَّى ثُمَّ خَطَبَ، فَقَالَ: «مَنْ ذَبَحَ قَبْلَ أَنْ يُصَلِّيَ فَلْيَذْبَحْ مَكَانَهَا أُخْرَى، وَمَنْ لَمْ يَذْبَحْ فَلْيَذْبَحْ بِاسْمِ اللهِ»(١).

«**جندب**» هو ابن عبد الله بن سفيان البجلي، صحابي جليل، توفي سنة أربع وستين، رضي الله عنه.

وقوله: «**يوم النحر**»؛ أي: يوم عيد الأضحى.

وقوله: «**فليذبح باسم الله**» أي: ذاكراً اسم الله تعالى على الذبيحة؛ أي: أذبح بسم الله متقربـًا إليه عبادة له؛ بذكر اسمه سبحانه وتعالى وبالذبح له، كما أمر الله تعالى عباده بأن يخلصوا ذلك له وحده: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]، وقال الله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

فهذا – أيضـًا – من عبادة الله تعالى ودعائه بذكر اسمه سبحانه في النسك الذي هو من أفضل القرب إلى الله تعالى.

* * *

(١) رواه البخاري برقم (٧٤٠٠)، ومسلم برقم (١٩٦٠).

المسألة (الحادية والستون):
فِي صِفَةِ الرَّحْمَةِ لله تَعَالَى

الرحمة المضافة إلى الله تعالى تكون صفة له ذاتية،والرحمن والرحيم اسمان من الأسماء الحسنى، متضمنان صفة الرحمة على المعنى اللائق به سبحانه، ولا حاجة إلى تأويلها بأثر من آثارها كالإنعام و الإحسان والرأفة.

والرحمن أشد مبالغة من الرحيم؛ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: الرحمن دال على الصفة القائمة به؛ والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم؛ فإذا أردت فهم هذا، فتأمل قوله: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]، ولم يجئ رحمن بهم، فالرحمن اسمه ووصفه، فمن حيث هو صفة جرى تابعًا لاسم الله سبحانه، ومن حيث هو اسم، ورد في القرآن غير تابع، بل ورد الاسم العلم كقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

وقد دل على ثبوت رحمة الله تعالى: الكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل:

فأما الكتاب، فالآيات التي سبق ذكرها، وغيرها؛ وهي تأتي على وجوه متنوعة: تارة بالاسم، كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧]، وتارة بالصفة، كقوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨]، وتارة بالفعل، كقوله: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١]، وتارة باسم التفضيل، كقوله: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

وبمثل هذه الوجوه جاءت السنة، وسيأتي ذكر بعض الأحاديث.

وإجماع الأمة على إثباتها مشهور معروف.

وأما الأدلة العقلية على ثبوت الرحمة لله تعالى، فمنها ما نرى من الخيرات الكثيرة التي تحصل بأمر الله عز وجل، ومنها ما نرى من النقم الكثيرة التي تندفع بأمر الله تعالى، كله دال على إثبات الرحمة عقلاً.

فالناس في جدب وفي قحط، الأرض مجدبة، والسماء قاحطة، لا مطر، ولا نبات، فينزل الله عز وجل المطر، وتنبت الأرض، وتشبع الأنعام، ويسقي الناس، حتى العامي الذي لم يدرس، لو سألته وقلت: هذا من أي شيء؟، فسيقول: هذا من رحمة الله تعالى، ولا يشك أحد في هذا أبداً.

فرحمة الله عز وجل ثابتة بالدليل السمعي والدليل العقلي.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]

قوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: أي: إن رحمته مرصدة للمحسنين الذين يتبعون أوامره، ويتركون زواجره، كما قال الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقال: ﴿قَرِيبٌ﴾ ولم يقل قريبة؛ لأنه ضمن الرحمة معنى الثواب، أو لأنها مضافة إلى الله سبحانه وتعالى.

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

هذا قول الملائكة ذكره الله تعالى عنهم، فقال الله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾.

ومثل هذه الآية في المعنى، قول الله جل جلاله ممتدحاً ومثنياً على نفسه: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فأثنى على نفسه عز وجل بأن رحمته وسعت كل شيء من أهل السماء ومن أهل الأرض.

فقوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾؛ يدل على أن كل شيء وصله رحمة وعلم الله سبحانه؛ لأن الله تعالى قرن بينهما - أي: الرحمة والعلم -.

وهذه الرحمة هي رحمة عامة تشمل جميع المخلوقات، حتى الكفار؛ لأن الله عز وجل قرن الرحمة هذه مع العلم، فكل ما بلغه علم الله جل وعلا، وعلم الله تعالى

بالغ لكل شيء، فقد بلغته رحمته، فكما يعلم الكافر، يرحم الكافر أيضاً.

لكن رحمته للكافر رحمة جسدية بدنية دنيوية قاصرة غاية القصور بالنسبة لرحمة المؤمن، فالذي يرزق الكافر هو الله الذي يرزقه بالطعام والشراب واللباس والمسكن والمنكح وغير ذلك.

أما المؤمنون، فرحمتهم رحمة أخص من هذه وأعظم؛ لأنها رحمة إيمانية دينية دنيوية.

ولهذا تجد المؤمن أحسن حالاً من الكافر، حتى في أمور الدنيا؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: ٩٧]؛ الحياة الطيبة هذه مفقودة بالنسبة للكفار، حياتهم كحياة البهائم، إذا شبع روث، وإذا لم يشبع جلس يصرخ، هكذا هؤلاء الكفار، إن شبعوا بطروا، وإلا جلسوا يصرخون ولا يستفيدون من دنياهم، لكن المؤمن إن أصابته سراء شكر، فهو في خير في هذا وفي هذا، وقلبه منشرح مطمئن متفق مع القضاء والقدر، لا جزع عند البلاء، ولا بطر عند النعماء، بل هو متوازن مستقيم معتدل؛ فهذا فرق ما بين الرحمتين.

لكن مع الأسف إن منا أناساً يريدون أن يلحقوا بركب الكفار في الدنيا، حتى جعلوا الدنيا هي همهم، إن أعطوا رضوا، وإن لم يعطوا إذا هم يسخطون، هؤلاء مهما بلغوا في الرفاهية الدنيوية فهم في جحيم، لم يذوقوا لذة الدنيا أبداً، إنما ذاقها من آمن بالله جل جلاله وعمل صالحاً.

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

قوله: ﴿وَكَانَ﴾، بمعنى: لم يزل، وهي تدل على الاستمرارية.

وقوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلق بـ«رحيم»، والتقديم يدل على الحصر؛ فيكون معنى الآية: وكان بالمؤمنين لا غيرهم رحيماً.

ولكن كيف نجمع بين هذه الآية والتي قبلها: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾.

فالجواب: أن الرحمة التي هنا غير الرحمة التي هناك؛ فالرحمة هنا خاصة متصلة برحمة الآخرة لا ينالها الكفار، بخلاف الأولى؛ فهي عامة، هذا هو الجمع بينهما، وإلا فكل مرحوم، لكن فرق بين الرحمة الخاصة والرحمة العامة.

وقال الله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ﴾؛ بمعنى: أوجب ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾، فالله عز وجل لكرمه وفضله وجوده أوجب على نفسه الرحمة، وجعل رحمته سابقة لغضبه، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، لكن حلمه ورحمته أوجبت أن يبقى الخلق إلى أجل مسمى.

وقوله: ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ﴾؛ أي: من المؤمنين.

وقوله: ﴿سُوٓءًا﴾؛ تعم كل سوء، حتى الشرك.

وقوله: ﴿بِجَهَالَةٍ﴾؛ يعني: بسفه، وليس المراد بها عدم العلم، والسفه هو عدم الحكمة؛ لأن كل من عصى الله فقد عصاه بجهالة وسفه وعدم حكمة.

وقوله: ﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ فيغفر ذنبه ويرحمه، ولم يختم الآية بهذا، إلا سينال التائب المغفرة والرحمة، هذا من رحمته التي كتبها على نفسه، وإلا لكان مقتضى العدل أن يؤاخذه على ذنبه، ويجزيه على عمله الصالح، وزد على ذلك: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]؛ السيئات الماضية تكون حسنات؛ لأن كل حسنة عنها توبة، وكل توبة فيها أجر.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فـ﴿غَفُورٌ﴾؛ صيغة مبالغة مأخوذة من الغفر؛ وهو الستر مع الوقاية؛ لأنه مأخوذ من المغفر؛ والمغفر شيء يوضع على الرأس في القتال يقي من السهام، وهذا المغفر تحصل به فائدتان هما: ستر الرأس، والوقاية، و﴿غَفُورٌ﴾؛ هو الذي يستر ذنوب عباده ويقيهم آثامها بالعفو عنها؛ فالله عز وجل هو الغفور الرحيم، جمع عز وجل بين هذين الاسمين؛ لأن بالمغفرة سقوط عقوبة الذنوب، وبالرحمة حصول المطلوب، والإنسان مفتقر إلى هذا وهذا، ومفتقر إلى

مغفرة ينجو بها من آثامه، ومفتقر إلى رحمة يسعد بها بحصول مطلوبه.

ويدل على هذا، قوله ﷺ: «إن الله عز وجل يخلو يوم القيامة بعبده، ويقرره بذنوبه، يقول: عملت كذا، وعملت كذا، حتى يقر، فيقول الله عز وجل له: قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»[1].

وأما ﴿رَّحِيمٌ﴾؛ فهو ذو الرحمة الشاملة، وسبق الكلام في هذا.

وقال الله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًاۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

قالها يعقوب حين أرسل مع أبنائه أخا يوسف الشقيق؛ لأن يوسف عليه السلام قال: لا كيل لكم إذا رجعتم، إلا إذا أتيتم بأخيكم، فبلغوا والدهم هذه الرسالة، ومن أجل الحاجة أرسله معهم، وقال لهم عند وداعه: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًاۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾؛ يعني: لن تحفظوه، لكن الله عز وجل هو الذي يحفظه.

وقوله: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾؛ أي: حال كونه حافظاً.

وقوله: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾؛ أثبت الله عز وجل الرحمة، بل بين أنه أرحم الراحمين، لو جمعت رحمة الخلق كلهم، بل رحمات الخلق كلهم، لكانت رحمة الله تعالى أشد وأعظم.

وأرحم ما يكون من الخلق بالخلق رحمة الأم ولدها، فإن رحمة الأم ولدها لا يساويها شيء من رحمة الناس أبداً، حتى الأب لا يرحم أولاده مثل أمهم في الغالب؛ «جاءت امرأة في السبي تطلب ولدها وتبحث عنه، فلما رأته، أخذته بشفقة وضمته إلى صدرها أمام الناس وأمام الرسول ﷺ، فقال النبي ﷺ: «أترون أن هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟»، قالوا: لا والله يا رسول الله، قال: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها»[2].

ويدل على هذا أن الله عز وجل خلق مئة رحمة، وضع منها رحمة واحدة يتراحم بها الخلائق في الدنيا[3].

---

(١) رواه البخاري برقم (٢٤٤١)، ومسلم برقم (٢٧٦٨).

(٢) رواه البخاري برقم (٥٩٩٩)، ومسلم برقم (٢٧٥٤).

(٣) رواه البخاري برقم (٦٤٦٩)، ومسلم برقم (٢٧٥٢).

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَا يَرْحَمُ الله مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ»[(١)].

قوله: «**لا يرحم الله من لا يرحم الناس**» فيه دليل على أن الرحمة صفة تقوم بمن يشاء الله تعالى من عباده، الذين يريد -جل وعلا- رحمتهم، وتتخلف عن الأشقياء، الذين لا يرحمهم الله تعالى، قال النبي ﷺ: «لا تنزع الرحمة إلا من شقي»[(٢)].

فالله عز وجل متصف بالرحمة، والإجماع حاصلاً بين الأمة، بأن الله تبارك وتعالى ليس كمثله شيء في ذاته المقدسة، فيجب أن تكون صفاته تليق بعظمته، وتناسبه.

وإن من الضلال، والبعد عن كتاب الله تعالى، وهدي رسوله ﷺ، وسبيل المؤمنين حقاً، نفي صفات الله تعالى وتعطيله منها اعتلالاً بأنها تفيد التشبيه؛ لأن المخلوق يوصف بتلك الصفات، وهل هذا إلا مثل من يقول: أنا لا أقر بوجود الله تعالى؛ لأن المخلوق موجود؟، أعوذ بالله من هذا.

وعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، إِذْ جَاءَهُ رَسُولُ إِحْدَى بَنَاتِهِ، يَدْعُوهُ إِلَى ابْنِهَا فِي الْمَوْتِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «ارْجِعْ إِلَيْهَا فَأَخْبِرْهَا: أَنَّ لله مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى، فَمُرْهَا فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ»، فَأَعَادَتِ الرَّسُولَ: أَنَّهَا قَدْ أَقْسَمَتْ لَتَأْتِيَنَّهَا فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ، وَقَامَ مَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، فَدُفِعَ الصَّبِيُّ إِلَيْهِ، وَنَفْسُهُ تَقَعْقَعُ؛ كَأَنَّهَا فِي شَنٍّ، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ: يَا رَسُولَ الله مَا هَذَا؟، قَالَ ﷺ: «هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا الله فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ الله مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ»[(٣)].

«**أسامة بن زيد**» ابن حارثة، أبو محمد وأبو زيد، صحابي مشهور، مات سنة أربع

---

(١) رواه البخاري برقم (٧٣٧٦)، ومسلم برقم(٢٣١٩).

(٢) رواه البخاري في كتابه «الأدب المفرد» برقم (٣٧٤)، وأبو داود برقم (٤٩٤٢)، والترمذي برقم (١٩٢٤)، وحسنه الألباني؛ انظر: «صحيح الجامع» برقم (٧٤٦٧).

(٣) رواه البخاري برقم(٧٣٧٧)، ومسلم برقم (٩٢٣).

وخمسين، وهو ابن خمس وسبعين سنة في المدينة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله: «**إحدى بناته**»؛ هي زينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، على الراجح من كلام أهل العلم.

وقوله: «**إن لله ما أخذ، وله ما أعطى**»؛ أي: أن العالم كله ملك لله تعالى، فلم يأخذ ما هو لكم، بل أخذ ما هو له عندكم؛ فهو في معنى العارية، وأن ما وهبه لكم ليس خارجًا عن ملكه، بل هو له يفعل فيه ما يشاء، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فلا تجزعوا، فإن من قبض فقد انقضى أجله المسمى، فمحال تأخره أو تقدمه عنه، فاعلموا ذلك، واصبروا، واحتسبوا ما نزل بكم.

وقوله: «**وكل شيء عنده بأجل مسمى**»؛ من فقد محبوب، أو حصول مرغوب، وتصرف في هذا الكون، الذي هو بأسره ملك لله تعالى، يفعل فيه ما يريد.

وقوله: «**أجل مسمى**»؛ هو المقدر بوقت معين لا يتأخر عنه، ولا يتقدم.

وفيها دليل واضح على أن الله تعالى قدر كل شيء وكتبه، وعلم وقته وحاله، وأن الحوادث كلها تقع على تقدير دقيق، لا تتأخر عن ذلك لحظة ولا تتقدم.

وقوله: «**فلتصبر**»؛ فيه حسن خلق الرسول ﷺ وأمره لها بالصبر؛ والصبر: هو حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس الجوارح عما نهى عنه الشرع من شق الثياب، وخمش الوجوه ولطمها، والكلام الذي ينافي التسليم لرب العالمين، وما أشبه ذلك مما يدل على تسخط الأقدار، والاعتراض على القضاء الذي قضاه الله تعالى قبل وجود الخلق.

وقوله: «**ولتحتسب**»؛ الاحتساب: هو نية طلب الثواب من الله عز وجل على الإيمان بالقدر، والتسليم لأمر الله تعالى، والإيمان بوعد الله تعالى، فإنه وعد على الصبر الجزاء.

وقوله: «**فأعادت الرسول، أنها أقسمت لتأتينها**»؛ الحامل لها على هذا ما علمت من أن حضور النبي ﷺ فيه الخير والبركة، وأنه يتوقع أن يرفع الله تعالى ببركة دعائه وحضوره ما هي فيه من ألم وتوجع.

وقوله: «**وقامَ معه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل**»؛ سعد بن عبادة بن دُلَيْم بن حارثة الأنصاري الخزرجي، سيد الخزرج، مات سنة خمس عشرة، ومعاذ بن جبل بن عمرو الأنصاري الخزرجي، أبو عبد الرحمن، مات سنة ثماني عشرة، كليهما من أعيان الصحابة المشهورين، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وقوله: «**ونفسه تقعقع كأنها في شن**»؛ القعقعة: صوت الشيء اليابس الجاف

الخفيف إذا حرك، و«**تقعقع**»؛ هو حركة خروج الروح أو صوت نفسه عند صعوده ونزوله في صدره من شدة الألم.

وقوله: «**في شن**»؛ الشن: القربة الخلقة اليابسة.

وقوله: «**ففاضت عيناه**»؛ أي: ذرفت عينا رسول الله ﷺ بالدموع رحمة لهذا الضعيف، وتوجعًا لما نزل به من ألم شديد.

وقوله: «**فقال سعد: يا رسول الله، ما هذا؟**»؛ كان ﷺ ينهى عن البكاء على الميت، فظن سعد رضي الله عنه وغيره أن النهي يدخل فيه دمع العين، وحزن القلب، فبين لهم النبي ﷺ أن المنهي عنه هو التسخط من المقدور، ودعوى الجاهلية من العويل والنوح، وتعداد محاسن الميت، وما أشبه ذلك من لطم الوجه وشق الثياب ونحوه، مما يدل على السخط من الواقع، وعدم الصبر، وأما دمع العين وحزن القلب، فهو من الرحمة للضعفاء التي هي سبب رحمة أرحم الراحمين -جل وعلا-.

وقوله: «**هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده**»؛ أي: الذين عبدوه باتباع أمره، واجتناب نهيه، وقد تكون عامة، فإن الكافر قد يرحم الصغير، فيبكي عليه رحمة.

وقوله: «**إنما يرحم الله من عباده الرحماء**»؛ هذا هو الشاهد؛ وهو إثبات الرحمة لله تعالى رحمة تليق به -سبحانه وتعالى-، والإنسان يوصف بأن له رحمة، لكنها رحمة تليق به لا كرحمة الخالق - تبارك وتعالى -.

و«**الرحماء**» من صيغ المبالغة، ولهذا قال بعض العلماء: «المعنى: أن الله تعالى لا يرحم من عباده إلا كثير الرحمة، فالرحماء جمع رحيم، وهو من صيغ المبالغة».

وهذا الحصر وإن كان التركيب في الحديث يفيده، لكن فيما يظهر لي -والله أعلم- أنه غير مقصود؛ للأدلة على أن رحمة الله سبحانه وتعالى وسعت كل شيء، وإنما المقصود هنا رحمة خاصة بمن هذه صفتهم.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اخْتَصَمَتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ إِلَى رَبِّهِمَا، فَقَالَتِ الْجَنَّةُ: يَا رَبِّ مَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ، وَقَالَتِ النَّارُ: يَعْنِي أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: أَنْتِ عَذَابِي، أُصِيبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا، قَالَ: فَأَمَّا الْجَنَّةُ، فَإِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِنْ خَلْقِهِ أَحَداً، وَإِنَّهُ يُنْشِئُ لِلنَّارِ مَنْ يَشَاءُ، فَيُلْقَوْنَ فِيهَا، فَـ ﴿تَقُولُ

هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ ثَلَاثًا، حَتَّى يَضَعَ فِيهَا قَدَمَهُ، فَتَمْتَلِئُ، وَيُرَدُّ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَتَقُولُ: قَطْ قَطْ قَطْ»(١).

قوله: «**اختصمت**»؛ الاختصام: هو التنازع بين فريقين، يذكر كل واحد منهما حجته أمام من يحكم بينهما؛ وهذا الخصام على ظاهره، بأن يخلق الله سبحانه وتعالى فيهما فهماً وكلاماً، والله قادر على كل شيء.

والظاهر أن افتخار النار على الجنة بأنها محل انتقام الله تعالى من الطغاة والمجرمين الذين عصوا الله جل جلاله وكذبوا رسله عليهم الصلاة والسلام، وسخروا منهم، وبارزوا الله عز وجل بالجرائم والآثام.

وغالب هذا النوع من قادة الناس ورؤسائهم وأغنيائهم، وأهل السيادة والقيادة فيهم، وأهل التجبر والتكبر؛ ولهذا «**قالت النار: يعني أوثرت بالمتكبرين**».

وأما الجنة فإنها اشتكت لكون من يدخلها الضعفاء والفقراء وأهل المسكنة غالباً، ولهذا «**قالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم؟**».

وقوله: «**قالت الجنة**»، «**وقالت النار**»؛ هذا بلسان المقال؛ أي: أنه قول قالته الجنة حقيقة وقالته النار حقيقة، ويؤيده قول الله تعالى عن السماوات والأرض: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، وأن الله جل وعلا جعل لها شعوراً وتمييزاً، وعقلاً ونطقاً، والله تعالى لا يعجزه شيء.

وليس هذا خاصاً بالجنة والنار، فقد ذكر الله تعالى أن الجبال كانت تسبح مع نبي الله داود عليه السلام، وقال الله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقوله: «**فقالت الجنة: يا رب ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناسِ وَسَقَطُهُمْ**»؛ وفي رواية: «مالها لا يدخلها»؛ فيها عدول بالخطاب من المتكلم إلى الغائب، كأن الراوي كره أن يأتي به على أصله خشية أن يظن ظان أنه مضاف إليه، وهذا كثير في روايات الحديث.

---

(١) رواه البخاري برقم (٤٨٥٠) و(٧٤٤٩).

والمقصود بـ«**ضعفاء الناس**» فقراؤهم، وأهل المسكنة والتواضع، الذين لا يبغون في الأرض علواً ولا فساداً، ولا يترفعون على عباد الله تعالى، بل هم متواضعون لله تعالى خاضعون له، أذلة على المؤمنين، وإن كانوا عند ذوي السلطان حقيرين ساقطين في أعينهم، لا يؤبه لهم لديهم، فهم عند الله جل وعلا عظماء رفعاء.

وقوله: «**فقال الله تعالى للجنة: أنت رحمتي، وقال للنار: أنت عذابي أصيب بك من أشاء**»؛ هذا هو حكم الله تعالى بينهما؛ يعني: أن الله تعالى خلق الجنة ليرحم بدخولها من شاء من عباده، من يتفضل عليه ويجعله مؤهلاً لذلك، وأما النار فخلقها لمن عصاه وكفر به وبرسله، يعذبهم بها، وذلك كله ملكه يتصرف فيه كيف يشاء، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، ولكن لا يدخل النار إلا من استوجبها بعمله.

وهذه الجملة؛ وهي قوله: «**فقال الله تعالى للجنة: أنت رحمتي**»؛ هي الشاهد.

ثم قال: «**ولكل واحدة منكما ملؤها**»؛ هذا وعد من الله تعالى لهما بأن يملأهما بمن يسكنهما، وفي هذا إشعار بأنهما يرغبان ذلك، وقد جاء الطلب من النار صريحًا، كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]، أقسم الله تعالى ليملأن جهنم من الجِنَّةِ والناس أجمعين، فهما يمتلآن من بني آدم ومن الجن.

فمن آمن وعبد الله وحده، واتبع رسله، فمصيره إلى الجنة، ومن عصى وبغى وطغى، وآثر الحياة الدنيا، فإن الجحيم هي المأوى، قال الله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥]؛ أي: من ذريتك وممن تبعك من بني آدم.

وقوله: «**فأما الجنة، فإن الله لا يظلم من خلقه أحداً، وإنه ينشئ للنار من يشاء فيلقون فيها**»؛ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: أما قوله: «وأنه ينشئ للنار من يشاء، فيلقى فيها، فتقول: هل من مزيد»؛ فغلط من بعض الرواة، انقلب عليه لفظه، والروايات الصحيحة ونص القرآن يرده، فإن الله سبحانه أخبر أنه يملأ جهنم من إبليس وأتباعه، فإنه لا يعذب إلا من قامت عليه الحجة، وكذب رسله، قال الله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۞ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الملك: ٨-٩]، ولا يظلم الله أحداً من خلقه».

وقوله: «**حتى يضع فيها قدمه فتمتلئ**»؛ «القدم» من حيث اللغة: إنما سميت قدمًا؛ لأنها تتقدم الإنسان، تتقدمه في المشي، فلا يمكن المشي إلا إذا تقدمت الرِّجْل على الأخرى، ثم الثانية على الأولى وهكذا.

وهي صفة من صفات الله رب العالمين تليق بجلاله وعظمته، ولا بد من إثبات ما أثبته الله تعالى لنفسه، ولا يلوم من الإثبات التشبيه، فلا يلزم من ذلك أن يكون الخالق مثل المخلوق، فالخالق هو الذي أثبت لنفسه في كتابه أو على لسان نبيه ﷺ أن له وجهًا وله رجلاً وقدمًا وله يداً وله عينًا وله سمعًا وله بصراً سبحانه وتعالى عن مشابهة المخلوقين، فله هذه الأوصاف، ولا يعني أننا إذا أثبتنا شيئًا منها أنا نشبه سبحانه وتعالى به أحداً من خلقه.

وستأتي زيادة توضيح حول هذه الصفة، في مسألة: إثبات الرجل والقدم لله رب العالمين.

وقوله: «**ويرد بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط قط**»؛ أي: حسبي حسبي حسبي، والمعنى: أنها امتلأت واكتفت.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَيُصِيبَنَّ أَقْوَامًا سَفْعٌ مِنَ النَّارِ بِذُنُوبٍ أَصَابُوهَا، عُقُوبَةً، ثُمَّ يُدْخِلُهُم الله الْجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ، يُقَالُ لَهُم: الْجَهَنَّمِيُّونَ»[1].

قوله: «**ليصيبن أقوامًا سفع من النار**»؛ هو أثر تغير البشرة من حر النار؛ أي: يصيبهم من لهبها ما يغير ألوانهم، فيحترقون حتى يكونوا فحمًا.

وقوله: «**بذنوب أصابوها عقوبة**»؛ أي: أن إصابتهم بسفع النار جزاء على ما اقترفوه من الذنوب عقوبة لهم.

وقوله: «**ثم يدخلهم الجنة بفضل رحمته**»؛ أي: يرحمهم الله جل جلاله تفضلاً منه وجوداً عليهم من غير استحقاق للجنة، وهذا محل الشاهد من الحديث؛ ووجهه أن هؤلاء لما كان معهم شيء من الإيمان صارت رحمة الله عز وجل قريبة إليهم بالنسبة لمن هو في النار، وبقدر ما معهم من إيمان وإحسان.

وقوله: «**الجهنميون**» نسبة إلى جهنم؛ لأن أثر إحراقهم ظاهر عليهم؛ وهم العصاة

(١) رواه البخاري برقم (٧٤٥٠).

الموحدون الذين ماتوا على التوحيد، ودخلوا النار بمعاصٍ ارتكبوها، فهؤلاء تسفعهم النار، وتصيبهم بلهبها، ويمكثون فيها ما شاء الله تعالى، ثم يخرجون منها بفضل رحمة الله عز وجل، فمنهم من يخرج بشفاعة الشافعين، ومنهم من يخرج برحمة أرحم الراحمين، وجاء تفصيل هذا في حديث طويل[1]، أنهم يلقون في نهر الحياة، وأنه تكون رقابهم الخواتم، ثم بعد ذلك يسألون الله أن يزيل ذلك عنهم، ثم يمحى عنهم.

***

(١) رواه مسلم برقم (١٨٣).

المسألة (الثانية والستون):
فِيما يُذْكَرُ فِي النَّفْسِ والذَّاتِ لله تبَارَك وتَعَالَى

المراد بها ما يذكر في نفس وذات الله تعالى، من تجويز إطلاق هذا على الله تعالى، فهو المتصف بصفاته، ولا يقصد بذلك نفساً وذاتاً منفكة عن الصفات.

قَال الله تَعَالَى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وَقَال الله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦].

قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: يخوفكم الله ﴿نَفْسَهُۥ﴾؛ فيترتب العقاب على عصيانه ومخالفة أوامره وارتكاب ما نهى عنه، وقوله: ﴿نَفْسَهُۥ﴾؛ أي: ذاته.

وقوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾؛ معناه: تعلم ما أكنه وما أسره ولا أعلم ما تسره عني.

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ونفسه هي ذاته المقدسة».

وقال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ أن تسخطوها عليكم بركوبكم ما يسخطه عليكم، فتوافونه ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾، وهو عليكم ساخط، فينالكم من أليم عقابه ما لا قبل لكم به، وقال: «ويخوفكم الله من نفسه، أن تركبوا معاصيه، أو توالوا أعداءه، فإن إلى الله مرجعكم، فاتقوه واحذروا أن ينالكم عقابه، فإنه شديد العقاب».

وقال ابن جرير في قوله -تعالى-: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾، يقول: إنك يا رب لا يخفى عليك ما أضمرته نفسي مما لا أنطق به ولم أظهره بجوارحي، فكيف بما نطقت به وأظهرته بجوارحي، لو كنت قد قلت للناس: ﴿ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ كنت قد علمته، لأنك تعلم ضمائر النفوس مما لم تنطق به،

فكيف بما نطقت به؟ ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَ﴾ يقول: ولا أعلم أنا ما أخفيته عني فلم تطلعني عليه، لأني إنما أعلم من الأشياء ما علمتنيه».

ونقل في قوله -تعالى-: ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: لا أعلم ذاتك، وثانيها: لا أعلم ما في غيبك، وثالثها: لا أعلم ما عندك، وهو بمعنى قول غيره: لا أعلم معلومك، أو إرادتك، أو سرك، أو ما يكون منك.

إذن فهاتان الآيتان فيهما إثبات النفس لله عز وجل.

ويؤكد هذا، قوله - تعالى-: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقول الله تعالى: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾ [طه: ٤١]، وحديث ابن عباس رضي الله عنهما: «أن النبي ﷺ حين خرج إلى صلاة الصبح وجويرية جالسة في المسجد رجع حين تعالى النهار، قال: «لم تزالي جالسة بعدي؟»، قالت: نعم، قال: «لقد قلت بعدك أربع كلمات، لو وزنت بهن لوزنتهن - يعني: لو وزنت هذه الأربع بما قلتيه منذ فارقتك لوزنتهن- ؛ سبحان الله العظيم وبحمده، عدد خلقه، ومداد كلماته، ورضى نفسه، وزنة عرشه»[(١)]، وعن علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول في آخر وتره: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»[(٢)]، وحديث ابن مسعود رضي الله عنه، أنه ﷺ قال: «أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك»[(٣)]، وقال النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي»[(٤)].

فالتمسك بالنصوص التي قالها الله عز وجل ورسوله ﷺ، مع الإعراض عما يقوله أهل التأويل، من الأقوال التي تعود على النصوص بالإبطال، وحسب المسلم أن يسعه ما وسع السلف الصالح من الصحابة رضي الله عنهم، ومن سلك طريقهم، فالمقصود إثبات ما أثبته الله تعالى لنفسه، أو أثبته له رسوله ﷺ، مع فقه المعنى اللائق بعظمة

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٧٢٦).

(٢) رواه مسلم برقم (٤٨٦).

(٣) رواه أحمد (١/ ٣٩١)، وصححه الألباني؛ انظر «السلسلة الصحيحة» برقم (١٩٩).

(٤) رواه مسلم برقم (٢٥٧٧).

الله تعالى وفهمه، على ما دل عليه قوله -تعالى-: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ونحوها من الآيات المحكمات، والأمر في هذا واضح لمن تمسك بالكتاب والسنة.

وقال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في هذه الآيات والأحاديث، إثبات النفس لله تعالى وللنفس معان، والمراد بنفس الله تعالى ذاته، وليس بأمر مزيد عليه، فوجب أن يكون هو.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ، وَهُوَ يَكْتُبُ عَلَى نَفْسِهِ، وَهُوَ وَضْعٌ عِنْدَهُ عَلَى الْعَرْشِ، إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي»[١].

قوله: «**لما خلق الخلق**»؛ المراد تقدير ذلك وكتابته قبل وجوده وظهوره، أو المراد جنس الخلق؛ أي: وجوده مخلوقًا.

وقوله: «**كتب في كتابه**»؛ المعنى: أنه أمر القلم أن يكتب، وهذا على ظاهره بأن كتب الله تعالى بدون واسطة، ويجوز أن يكون قال: «كن» فكانت الكتابة، ولا محذور في ذلك كله، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله عز وجل لما خلق الخلق كتب بيده على نفسه إن رحمتي تغلب غضبي»[٢].

وكتابته -تعالى- ذلك؛ لتأكيد هذا الحكم، وإخبار عباده به؛ حتى يؤمنوا به ويعملوا على مقتضاه، أو لحكمةٍ الله جل جلاله أعلم بها، وليس خوفًا من النسيان، تعالى الله سبحانه.

وقوله: «**وهو يكتب على نفسه**»؛ جملة حالية يقصد بها بيان أن كتابته تعالى لم يحمله عليها أحد، وإنما وقعت بمحض إرادته، تفضلاً منه، وجوداً على خلقه كتبه على نفسه، كما قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾.

وهي الشاهد من هذا الحديث.

وقوله: «**وهو وضع عنده على العرش**»؛ وضع: بفتح الواو، وسكون الضاد؛ أي موضوع، وضبط أيضًا بفتح الضاد، على أنه فعل ماض، وبضم الضاد أيضًا، والأول

---

(١) رواه البخاري برقم (٧٤٠٤)، ومسلم برقم (٢٧٥١).

(٢) رواه الترمذي برقم (٣٥٤٣)، وابن ماجة برقم (٤٢٩٥)، وصححه الألباني؛ انظر: «السلسلة الصحيحة» برقم برقم (١٦٢٩).

أظهر وأشهر.

وقوله: «**عنده على العرش**»؛ أي: أنه تعالى وضع الكتاب عنده فوق عرشه، وفي لفظ: «عنده فوق عرشه»[(١)]؛ وذلك للاهتمام به، حيث وضعه على عرشه الذي استوى عليه.

ومعنى العندية هنا: العلم بأنه موضوع على العرش، وأما كونه «كتبه» فليس للاستعانة لئلا ينساه، فإنه منزه عن ذلك، لا يخفى عنه شيء،وإنما كتبه من أجل الملائكة الموكلين بالمكلفين.

فقال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: «عند» في اللغة للمكان، والله منزه عن الحلول في المواضع؛ لأن الحلول عرض يفنى وهو حادث والحادث لا يليق بالله، فعلى هذا قيل معناه أنه سبق علمه بإثابة من يعمل بطاعته وعقوبة من يعمل بمعصيته، ويؤيده قوله في الحديث الذي بعده: «أنا عند ظن عبدي بي» ولا مكان هناك قطعـًا.

وقال الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ عند لفظ موضوع: للقرب ويستعمل في المكان وهو الأصل، ويستعمل في الاعتقاد: تقول عندي في كذا كذا؛ أي: أعتقده، ويستعمل في المرتبة ومنه: ﴿أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وقوله: «**إن رحمتي تغلب غضبي**»؛ الرحمة والغضب كلاهما من أوصاف الله تعالى، ولكن الرحمة أوسع وأشمل، فرحمته تعالى وسعت كل شيء، كما قال عن حملة العرش، ومن حوله من الملائكة في دعوتهم للمؤمنين، أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ [غافر: ٧]، وقال الله تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وهذه هو معنى غلبها للغضب.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي؛ فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعـًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعـًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعـًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»[(٢)].

---

(١) هذا اللفظ عند البخاري برقم (٣١٩٤)، ومسلم برقم (٢٧٥١).

(٢) رواه البخاري برقم (٧٤٠٥)، ومسلم برقم (٢٦٧٥).

هذا الحديث من الأحاديث القدسية؛ وهي: ما يذكره الرسول ﷺ مضافاً إلى الله تعالى أنه قاله، ولكنه غير متعبد بتلاوته، ولا هو معجز متحدى به كالقرآن الكريم.

فقوله: «**أنا عند ظن عبدي بي**»، الظن يأتي بمعنى العلم واليقين، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦].

ويأتي واسطة بين الشك والعلم، أو بمعنى الشك، كقوله تعالى عن الكفار ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٣٩]، والقرائن تبين ذلك وتحدده.

وقد يكون المعنى هنا على ظاهره؛ أي: أنا أعامله على حسب ظنه بي، وأفعل به ما يتوقعه مني، من خير أو شر؛ والمراد: الحث على تغليب الرجاء على الخوف، وحسن الظن بالله تعالى على ما دل عليه قوله ﷺ: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله»[1].

أو يكون المراد بالظن: العلم الموقن، ويكون المعنى: أنا عند علمه بي ويقينه بأن مصيره إليّ، وحسابه عليّ، وأن ما قضيت به له أو عليه، من خير أو شر، لا مرد له، لا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت.

ولذلك ينبغي للمرء أن يجتهد في العمل، موقناً بأن الله تعالى يقبله، ويغفر له؛ لأنه وعد بذلك، وهو لا يخلف وعده.

هذا إذا أتى بالعبادة بشروطها، فإن اعتقد أن الله عز وجل لا يقبلها، وأنها لا تنفعه، فهذا هو اليأس، وهو من الكبائر، وأما ظن المغفرة مع الإصرار على الذنوب، فهو محض الجهل والغرور.

وقد تشعر الإضافة في قوله: «**عبدي**» بحسن العمل؛ أي:أنه عبد الله، وليس للشيطان أو للدنيا أو غيرهما، والله أعلم.

وقوله: «**وأنا معه إذا ذكرني**»؛ أي: معه بالإجابة، والتوفيق، وبسماع كلامه، وإثابته عليه، أو بحسب ما قصد في ذكره، ما لم يكن إثماً أو قطيعة رحم، فهذه المعية هي المعية الخاصة المذكورة في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

ومعية الله تعالى بالنسبة لعباده نوعان:

معية عامة للخلق كلهم، كما قال الله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ﴾ [المجادلة: ٧].

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٨٧٧).

وقال الله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، ومن مقتضى هذه المعية: اطلاعه -تعالى- وعلمه بكل شيء، ومراقبته، وشهوده أفعال عباده، فتفيد الخوف منه تعالى.

والنوع الثاني: المعية الخاصة، وهي المذكورة في هذا الحديث، ونحوه، كقوله -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وقوله سبحانه: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، ومن مقتضى هذه المعية: النصر والتأييد والهداية والحماية.

و معيته -تعالى- لخلقه، لا تخالف علوه، واستواءه على عرشه، فكل ذلك حق على ظاهره، وذلك أن الله جل جلاله معنا حقيقة، وهو فوق عرشه حقيقة، كما جمع بينهما في قوله -تعالى-: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]؛ فأخبر -تعالى- أنه فوق العرش يعلم كل شيء، وهو معنا أينما كنا.

وقوله: «**فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي**»؛ فقد يكون الذكر باللسان فقط أو بالقلب فقط أو بهما أو بامتثال الأمر واجتناب النهي؛ المعنى: من ذكر ربه سراً بالتنزيه والتقديس في نفسه، فإن الله تعالى يذكره سراً في نفسه ويثيبه عليه، من غير اطلاع أحد من خلقه على ذلك، ومثله قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقال الله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]؛ أي: أكبر العبادات؛ فمن ذكره وهو خائف آمنه أو مستوحش آنسه، قال الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وهذا هو محل الشاهد من الحديث، حيث أثبت النفس لله تعالى.

وقوله: «**وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم**»؛ الملأ: الجماعة؛ والمعنى: أن العبد إذا ذكر ربه ظاهراً في جماعة يسمعون ذكره لربه، فإن الله تعالى يذكره ويثني عليه في جماعة أفضل من الجماعة الذين ذكر العبد ربه فيهم؛ لأن الذين يذكر الله

عبده فيهم في الملأ الأعلى عباد مكرمون، ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦].

وهذا من أقوى أدلة القائلين بتفضيل الملائكة على صالحي بني آدم؛ والراجح فيها: أن الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين أفضل من الملائكة، وتفضيل فرد من النوع لا يلزم منه تفضيل النوع كله على الآخر، والله أعلم.

وقوله: «**وإن تقرب إليَّ بشبر تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إليَّ ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة**»؛ قرب الله تعالى من عابده وداعيه، ثبت في نصوص كثيرة، كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقوله ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»[١].

فالعبد إذا قرب إلى الله تعالى بالتوجه والمحبة، وإخلاص العمل، والصدق في ذلك، فإن الله تعالى يقرب إليه أكثر من قربه، فكلما زاد قرب العبد إلى ربه بالطاعة والإنابة والحب والإخلاص، زاد قرب الله سبحانه وتعالى إليه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فكلما تقرب العبد باختياره قدر شبر، زاده الرب قرباً إليه، حتى يكون كالمتقرب إليه بذراع، فكذلك قرب الرب من قلب العابد، وهو ما يحصل في قلب العبد من معرفة الرب، والإيمان به، وهو المثل الأعلى».

ويتبين معنى قوله: «**إذا تقرب إليَّ بشبر تقربت إليه ذراعاً**» أن العبد إذا تقرب إلى ربه بطاعته والإقبال عليه، أن الرب تعالى يزيده قرباً إليه، جزاءً من جنس عمله، وأكثر من قرب العبد الذي حصل باختياره.

فإذا قرب العبد من ربه بالإنابة إليه، قرب الرب إليه، فيدنو قلبه من ربه، وإن كان بدنه على الأرض، ومتى قرب أحد الشيئين من الآخر، صار الآخر إليه قريباً بالضرورة، وإن قدر أنه لم يصدر من الآخر تحرك بذاته، كما أن من قرب من مكة، قربت مكة إليه.

ومن الناس من غلط فظن أن قربه -تعالى- من جنس حركة بدن الإنسان إذا مال إلى جهة انصرف عن الأخرى.

---

(١) رواه مسلم برقم (٤٨٢).

والإنسان يجد عمل روحه يخالف عمل بدنه، فيجد نفسه تقرب من نفوس كثير من الناس، من غير أن ينصرف عمن هي قريبة منه، وكذلك يجد نفسه تبعد بعيداً عن بعض النفوس بعداً غير ما يقوم بالبدن.

وليس بين الرب والعبد إلا محض العبودية، فكلما كمل العبد عبودية ربه قرب إليه -تعالى-؛ لأنه - سبحانه - بر، جواد، محسن، يعطى العبد ما يناسبه، فكلما عظم فقره إليه، كان أغنى له، وكلما عظم ذله له، كان أعز له، فإن النفس- لما فيها من أهوائها المتنوعة، وتسويل الشيطان لها - تبعد عن الله تعالى حتى تصير ملعونة بعيدة عن الرحمة؛ واللعنة هي: البعد عن الله ورحمته.

ومن أعظم ذنوب العبد: علوه في الأرض، ونسيانه ربه، ولهذا لما كان السجود هو غاية سفول النفس، صار أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وكذلك الذكر المتضمن للإقبال على الله تعالى، والخضوع له.

وهذا قربه -تعالى- من عابده، وأما قربه من داعيه فكما في الآية: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، وقربه تعالى من عابده وداعيه قرب خاص، أخص من قرب الإنابة وقرب الإجابة.

فالداعي والساجد تتوجه روحه إلى الله تعالى، والروح لها عروج يناسبها فتقرب من الله تعالى بلا ريب، بحسب تخلصها من الشوائب، فيكون الله عز وجل منها قريبـًا، قربـًا يلزم منه قربها.

ويكون منه قرب آخر، كقربه عشية عرفة، وفي جوف الليل، وإلى من تقرب منه شبراً، تقرب منه ذراعـًا.

وبهذا يتبين أن قربه -تعالى- من عباده نوعان:

أولهما: قربه -تعالى- من قلوب المؤمنين، وقرب قلوبهم منه، وهذا أمر معروف لا يجهل، فإن القلوب تصعد إليه على قدر ما فيها من الإيمان والمعرفة به تعالى، وذكره، وخشيته، والتوكل عليه، وهذا متفق عليه بين الناس، لم ينكره منهم أحد.

والثاني: ما دل عليه هذا الحديث ونحوه، مثل قربه عشية عرفة، وقربه آخر الليل، كما ثبتت بذلك النصوص، وهذا القرب ينكره أكثر المتكلمين، من الجهمية، والمعتزلة، والأشعرية...، وإنكاره منكر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقربه - سبحانه - ودنوه من بعض مخلوقاته،

لا يستلزم أن تخلو ذاته من فوق العرش، بل هو فوق العرش ويقرب من خلقه كيف شاء، كما قال ذلك من قاله من السلف، وهذا كقربه إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما كلمه من الشجرة، قال الله تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ [مريم: ٥٢].

وقوله: «**وإن أتاني يمشي أتيته هرولة**»؛ الهرولة: السرعة في المشي، بين المشي والعدو، وهو تمثيل لكرم الله جل جلاله وجوده على عبده، وأنه إذا أقبل إليه، فهو - سبحانه - أسرع إقبالاً وتفضلاً على عبده، من غير مقابل يناله من العبد، بل هو الغني بذاته عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلاَّ ثَلاَثَ كَذَبَاتٍ؛ ثِنْتَيْنِ مِنْهُنَّ فِي ذَاتِ الله عَزَّ وَجَلَّ؛ قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]، وَقَوْلُهُ: ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وَقَالَ: بَيْنَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ وَسَارَةُ، إِذْ أَتَى عَلَى جَبَّارٍ مِنَ الْجَبَابِرَةِ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ هَا هُنَا رَجُلاً مَعَهُ امْرَأَةٌ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ، فَسَأَلَهُ عَنْهَا، فَقَالَ: مَنْ هَذِهِ؟ قَالَ: أُخْتِي، فَأَتَى سَارَةَ، قَالَ: يَا سَارَةُ، لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرَكِ، وَإِنَّ هَذَا سَأَلَنِي فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّكِ أُخْتِي فَلاَ تُكَذِّبِينِي، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا، فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ، ذَهَبَ يَتَنَاوَلُهَا بِيَدِهِ، فَأُخِذَ، فَقَالَ: ادْعِي الله لِي وَلاَ أَضُرُّكِ، فَدَعَتِ اللهَ، فَأُطْلِقَ، ثُمَّ تَنَاوَلَهَا الثَّانِيَةَ، فَأُخِذَ مِثْلَهَا أَوْ أَشَدَّ، فَقَالَ: ادْعِي اللهَ لِي وَلاَ أَضُرُّكِ، فَدَعَتْ: فَأُطْلِقَ، فَدَعَا بَعْضَ حَجَبَتِهِ، فَقَالَ: إِنَّكُمْ لَمْ تَأْتُونِي بِإِنْسَانٍ إِنَّمَا أَتَيْتُمُونِي بِشَيْطَانٍ، فَأَخْدَمَهَا هَاجَرَ، فَأَتَتْهُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ مَهْيَا، قَالَتْ: رَدَّ الله كَيْدَ الْكَافِرِ أَوِ الْفَاجِرِ فِي نَحْرِهِ وَأَخْدَمَ هَاجَرَ»، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: تِلْكَ أُمُّكُمْ يَا بَنِي مَاءِ السَّمَاءِ[1].

(١) رواه البخاري برقم (٣٣٥٨)، ومسلم برقم (٢٣٧١).

«**أبو هريرة**» هو عبد الرحمن بن صخر الدوسي، صحابي جليل، من أحفظ الصحابة، مات سنة تسع وخمسين، وهو ابن ثمان وسبعين سنة، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وقوله: «**لم يكذب إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا ثلاث كذبات**»؛ فكذبات بفتح الذال في الجمع؛ لأنه جمع كذبة بسكون الذال، وأما إطلاقه الكذب على الأمور الثلاثة؛ فلكونه قال قولا يعتقده السامع كذبـًا لكنه إذا حقق لم يكن كذبـًا؛ لأنه من باب المعاريض المحتملة للأمرين، فليس بكذب محض؛ فقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ يحتمل أن يكون أراد: أني سقيم؛ أي: سأسقم، واسم الفاعل يستعمل بمعنى المستقبل كثيراً، ويحتمل أنه أراد: أني سقيم بما قدر علي من الموت، أو سقيم الحجة على الخروج معكم، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾؛ قال القرطبي: هذا قاله تمهيداً للاستدلال على أن الأصنام ليست بآلهة، وقطعـًا لقومه في قولهم إنها تضر وتنفع، وهذا الاستدلال يتجوز فيه في الشرط المتصل، ولهذا أردف قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾، بقوله: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾؛ معناه: إن كانوا ينطقون فقد فعله كبيرهم هذا، فالحاصل أنه مشترط بقوله: ﴿إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ أو أنه أسند إليه ذلك لكونه السبب.

وقوله: «**هذه أختي**»؛ يعتذر عنه بأن مراده أنها أخته في الإسلام كما سيأتي واضحـًا.

قال ابن عقيل: دلالة العقل تصرف ظاهر إطلاق الكذب على إبراهيم، وذلك أن العقل قطع بأن الرسول ينبغي أن يكون موثوقـًا به ليعلم صدق ما جاء به عن الله، ولا ثقة مع تجويز الكذب عليه، فكيف مع وجود الكذب منه، إنما أطلق عليه ذلك لكونه بصورة الكذب عند السامع، وعلى تقديره فلم يصدر ذلك من إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ - يعني إطلاق الكذب على ذلك - إلا في حال شدة الخوف لعلو مقامه، وإلا فالكذب المحض في مثل تلك المقامات يجوز، وقد يجب لتحمل أخف الضررين دفعـًا لأعظمهما، وأما تسميته إياها كذبات فلا يريد أنها تذم، فإن الكذب وإن كان قبيحـًا مخلاً لكنه قد يحسن في مواضع وهذا منها.

وقوله: «**ثنتين منهن في ذات الله**»، خصهما بذلك؛ لأن قصة سارة وإن كانت أيضـًا في ذات الله لكن تضـمنت حظـًا لنفسـه ونفعـًا له بخلاف الثنتين الأخيرتين فإنهما في ذات الله محضـًا.

وقوله: «**بينا هو ذات يوم وسـارة**»؛ أي: إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة وكانت أحسن الناس.

وقوله: «**فأرسل إليه فسأله عنها، فقال: من هذه، قال: أختي، فأتى سارة، فقال: يا سـارة ليس على وجه الأرض**»، هذا ظاهر في أنه سأله عنها أولا ثم أعلمها بذلك لئلا تكذبه عنده، وفي رواية: أنه قال لها: «إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي، وأنك أختي في الإسلام، فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار فأتاه فقال: لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي أن تكون إلا لك، فأرسل إليها» الحديث، فيمكن أن يجمع بينهما بأن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أحس بأن الملك سيطلبها منه فأوصاها بما أوصاها، فلما وقع ما حسبه أعاد عليها الوصية.

واختلف في السبب الذي حمل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ على هذه الوصية مع أن ذلك الظالم يريد اغتصابها على نفسها أختا كانت أو زوجة، فقيل: كان من دين ذلك الملك أن لا يتعرض إلا لذوات الأزواج، كذا قيل، ويحتاج إلى تتمة وهو أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أراد دفع أعظم الضـررين بارتكاب أخفهما، وذلك أن اغتصـاب الملك إياها واقع لا محالة، لكن إن علم أن لها زوجا في الحياة حملته الغيرة على قتله وإعدامه أو حبسـه وإضـراره، بخلاف ما إذا علم أن لها أخا فإن الغيرة حينئذ تكون من قبل الأخ خاصة لا من قبل الملك فلا يبالي به، وقيل: أراد إن علم أنك امرأتي ألزمني بالطلاق.

وقوله: «**ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك**»؛ ظاهره يشـكل عليه كون لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ كان معه، كما قال تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، ويمكن أن يجاب بأن مراده بـ«**الأرض**» الأرض التي وقع له فيها ما وقع ولم يكن معه لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ إذ ذاك.

وقوله: «**فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذ**»؛ أي: عوقب بقبض يده.

وقوله: «**فدعت**» من الدعاء، وفي رواية: «فقالت: اللهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط علي الكافر»؛ ويجاب عن

قولها: «إن كنت» مع كونها قاطعة بأنه سبحانه وتعالى يعلم ذلك، بأنها ذكرته على سبيل الفرض هضماً لنفسها.

وقوله: «**إنك لم تأتني بإنسان، إنما أتيتني بشيطان**»؛ والمراد بالشيطان المتمرد من الجن، وكانوا قبل الإسلام يعظمون أمر الجن جداً، ويرون كل ما وقع من الخوارق من فعلهم وتصرفهم من الجن.

وقوله: «**فأخدمها هاجر**»؛ أي:وهبها لها لتخدمها؛ لأنه أعظمها أن تخدم نفسها.

وقوله: «**مَهْيَا**» وفي رواية: «**مَهْيَم**» معناها ما الخبر.

وقوله: «**رد الله كيد الكافر – أو الفاجر – في نحره**»؛ هذا مثل تقوله العرب لمن أراد أمراً باطلاً فلم يصل إليه.

وقوله: «**قال أبو هريرة رضي الله عنه: تلك أمكم يا بني ماء السماء**»؛ كأنه خاطب بذلك العرب لكثرة ملازمتهم للفلوات التي بها مواقع القطر لأجل رعي دوابهم، ففيه تمسك لمن زعم أن العرب كلهم من ولد إسماعيل عليه السلام، وقيل: أراد بماء السماء زمزم؛ لأن الله أنبعها لهاجر فعاش ولدها بها فصاروا كأنهم أولادها، وقيل: سموا بذلك لخلوص نسبهم وصفائه فأشبه ماء السماء.

والشاهد في هذا الحديث هو قوله: «**ثنتين منهن في ذات الله عز وجل**»؛ ولفظ «**ذات**» في الحديث المذكورة بمعنى من أجل أو بمعنى حق.

ومثله قول حسان رضي الله عنه:

وإن أخا الأحقاف إذ قام فيهم   يجاهد في ذات الإله ويعدل

وهي كقوله تعالى حكاية عن قول القائل: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

فالذي يظهر أن المراد جواز إطلاق لفظ ذات،وأن المراد به النفس لثبوت لفظ النفس في الكتاب العزيز.

و«**الذات**»: الممتنع استعمالها التي هي بمعنى صاحبة، أما إذا قطعت عن هذا المعنى، واستعملت بمعنى الاسمية، فلا محذور؛ لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ أي: بنفس الصدور.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «لفظ ذات تأنيث ذو، وذلك لا يستعمل إلا فيما كان مضافًا إلى غيره، فهم يقولون: فلان ذو علم، وذو قدرة، ونفس ذات علم وقدرة، وحيث جاء في القرآن أو لغة العرب، لفظ «ذو»، ولفظ «ذات» لم يجيء إلا مقرونًا بالإضافة، كقوله -تعالى-: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾، وقوله: ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ وقول خبيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]:

وَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمَــا عَلَى أَيِّ شِقٍّ كَانَ لله مَصْرَعِــي
وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَـهِ وَإِنْ يَشَـأْ يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَـالِ شِـلْوٍ مُمَزَّعِ

ونحو ذلك.

لكن لما صار النظار، يتكلمون فيه، قالوا: إنه يقال: إنها ذات علم وقدرة، ثم إنهم قطعوا هذا اللفظ عن الإضافة، وعرفوه، فقالوا: «الذات» - وهو لفظ مُوَلَّد - ليس من لفظ العرب العرباء».

وهذا يدل على أن لله ذاتًا لا تشبه الذوات، ذات مقدسة متصفة بالصفات، فله - سبحانه- الأسماء الحسنى والصفات العلى، فذاته لا تشبه الذوات، وأسماؤه لا

(١) وقصة خُبيب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، جاء فيها: أن النبي ﷺ أرسل عشرة، عيناً للمسلمين، وأَمَّرَ عليهم عاصمًا، فلحقهم المشركون فتحصنوا في جبل، فقالوا لهم: انزلوا، وأعطوهم الأمان، ثم غدروا بهم، فقتلوا عاصمًا وقتلوا جماعة، وقالوا: للبقية انزلوا ونعطيكم الأمان، فلما نزلوا -وكانوا ثلاثة- أسروا واحداً، فأبى أن يذهب معهم، فعالجوه وجروه، وقال: لي أسوة بهؤلاء فقتلوه، وأخذوا خُبيبًا ومن معه، وذهبوا بهم إلى مكة وسلموه لبني الحارث؛ لأنه قتل قتيلاً لهم يوم بدر، فأخذوا خُبيبًا وجلس عندهم، ثم أخذ مُوسى عندهم من ابنة الحارث؛ ليستحد بها ــ والاستحداد هو حلق العانة، وهذا يدل على قوة إيمان خُبَيْب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ففي هذا الوقت العصيب، وهو يعلم أنه سيقتل لم يترك سنة الاستحداد ـ، وفي القصة: قالت المرأة التي هو أسير في بيتها: ما رأيت أسيرًا خيرًا من خُبَيْب إنه ليأكل قِطفًا من العنب، وما في مكة عنب، ولما أرادوا قتله خرجوا به عن الحرم فهم يعظمون البيت وهم كفار، ولما أرادوا قتله قال: دعوني أصلي ركعتين، قالوا: صلِّ ما بدا لك، فصلى ركعتين، وأوجز فيهما، وقال: لولا أن تظنوا أن ما بي جزع من الموت لأطلتهما أو كما قال، ثم قال (بيتي الشعر). فقتله ابن الحارث، فأخبر النبي ﷺ أصحابه خبرهم، يوم أصيبوا [رواه البخاري برقم (٧٤٠٢)].

تشبه الأسماء، وصفاته لا تشبه الصفات، فدل على جواز الإخبار عن الله تعالى أن له ذاتًا، بل كل موجود له ذات، والذي ليس له ذات لا يكون له وجود إلا في الذهن، بل حتى الجمادات لها ذات.

وقال القسطلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والظاهر جواز إطلاق لفظ «ذات»، لا بالمعنى الذي أحدثه المتكلمون، ولكنه غير مردود، إذا عرف أن المراد النفس؛ لثبوت لفظ النفس في القرآن».

❊ ❊ ❊

المسألة (الثالثة والستون):
في أنَّ اللهَ تَعَالَى سَمَّى نَفْسَهُ شَيْئًا

فيه إثبات أنه يطلق على الله تعالى أنه شيء، وذلك من باب الخبر؛ أي: أن الله عز وجل أخبر عن نفسه بأنه شيء، فلا يقال: من صفاته أنه شيء، لكن يخبر عنه أنه شيء؛ فباب الخبر أوسع من باب الصفات.

قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٩]

قوله: ﴿قُلْ﴾؛ أي: قل يا محمد، و﴿أَيُّ﴾؛ كلمة استفهامية .

وقوله: ﴿شَيْءٍ﴾؛ فهو أعم العام، لوقوعه على كل ما يصلح أن يخبر عنه .

وقوله: ﴿أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾؛ ذلك أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: من يشهد لك بأنك رسول الله، فنزلت الآية ...، ولفظ ﴿شَيْءٍ﴾ هنا واقع موقع اسم الله تعالى ؛ والمعنى: الله أكبر شهادة ؛ أي: انفراده بالربوبية، وقيام البراهين على توحيده أكبر شهادة وأعظم، فهو شهيد بيني وبينكم على أني قد بلغتكم وصدقت فيما قلته من الرسالة.

وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ يعني: إن لم يقولوا هم، وإن لم يعترفوا هم بأن الله عز وجل أكبر شهيد فقل لهم أنت: ﴿ٱللَّهُ﴾ ولا جواب غيره، ولا يحتمل أبداً أن يكون هناك جواب غير هذا الجواب السديد.

وقوله: ﴿شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾؛ أي: الله تعالى هو شهيد بيني وبينكم على صدقي .

والمراد جواز أن يطلق على الله تعالى أنه شيء، وكذلك صفاته، وليس معنى ذلك أن «الشيء» من أسماء الله الحسنى، ولكن يخبر عنه -تعالى- بأنه شيء، وكذا يخبر عن صفاته بأنها شيء؛ لأن كل موجود يصح أن يقال: إنه شيء.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الشيء يساوي الموجود، لغةً، وعرفًا، وأما قولهم: فلان ليس بشيء، فهو على طريق المبالغة في الذم، فلذلك وصف بصفة العدم».

فإن الله جل وعلا أجرى كلامه على ما أجراه على نفسه، إذ كان كلامه من ذاته، ومن صفاته، فلم يتسم بالشيء، ولم يحمل الشيء اسمًا من أسمائه، ولكنه دل على نفسه أنه شيء، وأنه أكبر الأشياء، إثباتًا للوجود، ونفيًا للعدم، وتكذيبًا للزنادقة،

ومن تقدمهم ممن جحد معرفته، وأنكر ربوبيته، من سائر الأمم، فقال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩]، فدل على نفسه أنه شيء، لا كالأشياء.

وقال الله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «الاستدلال بهذه الآية للمطلوب، ينبني على أن الاستثناء متصل، فإنه يقتضي اندراج المستثنى في المستثنى منه، وهو الراجح، على أن لفظ «**شيء**» يطلق على الله تعالى وهو الراجح أيضاً».

والآية بتمامها: هي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

فقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾؛ أي: لا تليق العبادة إلا له، ولا تنبغي الإلهية إلا لعظمته، بل لا بد من إخلاص العبادة لله سبحانه وتعالى، فإنه ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

وقوله: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ**﴾؛ إخبار بأنه الدائم الباقي الحي القيوم الذي تموت الخلائق ولا يموت؛ كما قال الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۞ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]؛ فعبر بالوجه عن الذات، مع إثبات صفة الوجه لله سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾؛ أي: له الملك والتصرف، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ أي: يوم معادكم، فيجزيكم بأعمالكم إن كانت خيراً فخير، وإن شراً فشر.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإذا كان ما سوى الله تعالى باطلاً هالكاً، والله هو الباقي، الذي لا إله إلا هو، وله الحكم في الدنيا والآخرة، وإليه مرجع الخلائق كلهم، ليجازيهم بأعمالهم، تَعَيَّنَ على من له عقل، أن يعبد الله وحده لا شريك له، ويعمل لما يقربه ويدنيه من ربه ويحذر من سخطه وعقابه».

وقال الله عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

أخرج نفسه وكلامه وصفاته من الأشياء المخلوقة، بهذا الخبر، تكذيباً لمن ألحد

في كتابه، وافترى عليه، وشبهه بخلقه.

فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾؛ أي: ليس يماثله شيء من مخلوقاته، لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله؛ لأن أسماءه كلها حسنى، وصفاته صفات كمال وعظمة، فـ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾؛ لانفراده وتوحده بالكمال من كل وجه.

فنفى عن نفسه عز وجل مماثلة الحوادث بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، وفيها رد على المشبهة، وأثبت لنفسه صفات الكمال والجلال بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، وفيها رد على المعطلة، فهو سبحانه وتعالى موصوف بصفات الكمال، وليس له فيها مثيل، فالمخلوق وإن كان يوصف بأنه سميع بصير، فليس سمعه وبصره كسمع الرب وبصره، ولا يلزم من إثبات الصفة تشبيه، إذ صفات المخلوق كما يليق به، وصفات الخالق كما يليق به.

وهنا تنبيه: أن التمثيل يختلف عن التشبيه ؛ فالتمثيل أن يُجعل الشيءُ مماثلا للشيء في صفة كاملة أو في الصفات كلها ؛ يعني: يماثله تماما، وأما المشابهة فهي اشتراك في بعض الصفة أو في بعض الصفات، ولهذا فإننا نقول في الصفات: من غير تكييف ولا تمثيل، وإذا قيل: من غير تشبيه ؛ فالمراد بالتشبيه التمثيل، وهذا مستعمل عند العلماء أنهم ينفون التشبيه ويريدون به التمثيل.

وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾؛ قال العلماء: في (الكاف) وجهان:

الأول: قال طائفة من أهل العلم: إن الكاف هنا صلة وهي الزائدة لإفادة تكرير الكلام والجملة مرتين أو أكثر، واللغة العربية فيها زيادة الحرف لمزيد تأكيد الكلام؛ إذن على هذا تكون الكاف صلة يعني زائدة لتأكيد المعنى، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾؛ يعني: ليس مثله شيء ليس مثله شيء ليس مثله شيء وهو السميع البصير، فالعربي يفهم من هذه الصلة ومجيء الكاف هنا أن الجملة كررت عليه أكثر من مرة وهذا من أسرار اللسان العربي.

وهذا الوجه هو الصحيح الراجح عند العلماء المحققين.

والوجه الثاني: أن تكون الكاف بمعنى مثل، فيكون المعنى ليس مثلَ مثلِه شيء - ما فيها تأكيد، وهو السميع البصير.

ونفي مثل المثل فائدته استحالة وجود المثل وليس كما ظُن أن فيه إثبات لوجود

المثل ؛ يعني: صُــرف النظر عن المثل إلى مثل المثل إبعادا لوجود المثل، وهذا فيه نوع ضعف - مع أن كثيرا من العلماء قال به -.

وقوله: ﴿**وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ**﴾؛ المدرك إدراكًا تامًا لجميع المسموعات، و﴿**ٱلْبَصِيرُ**﴾ المدرك إدراكًا تامًا لجميع الـمُبْصَرَات أو الموجودات.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِرَجُلٍ: «أَمَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْءٌ؟»، قَالَ: نَعَمْ، سُورَةُ كَذَا، وَسُورَةُ كَذَا، لِسُوَرٍ سَمَّاهَا[1].

هذا الحديث مختصــر من قصــة الواهبة نفســها للنبي ﷺ؛ لما قال له رجل من أصحابه: إن لم يكن لك بها حاجة، فزوجنيها يا رسول الله، قال له ﷺ: «أمعك شيء تعطيها إياه؟»، قال: لا، قال: «التمس ولو خاتمًا من حديد»، فلما لم يجد، قال له: «أمعك من القرآن شيء؟»؛ أي: هل تحفظ شيئًا منه؟، قال: نعم سورة كذا، وسورة كذا، لسور سماها، فقال النبي ﷺ: «زوجتكها على ما معك من القرآن»؛ أي: يكون تعليمه لها ما معه من سور القرآن صداقًا لها.

وقوله: «**أمعك من القرآن شيء**»؛ هذا هو الشاهد، فسمى القرآن شيئًا، فيخبر عن القرآن بأنه شيء، وهو صفة من صفاته.

والمعنى أنه أطلق لفظ الشيء على القرآن، والقرآن كلام الله جل وعلا، وهو صفة من صفات الله تعالى، والصفة لها حكم الموصوف، فيصح إطلاق ذلك على الله تعالى.

وقوله: «**سورة كذا، وسورة كذا، لسور سماها**»؛ وقد جاءت تسميتها في بعض الروايات الأخرى؛ فمنها: أنها سورة البقرة أو التي تليها، أو سور من المفصل، وقيل غير ذلك.

***

---

(١) رواه البخاري برقم (٧٤١٧).

المسألة (الرابعة والستون):
فِي أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الرَّزَّاقُ

ينقسم الرزق إلى قسمين: عام وخاص.

فالعام: كل ما ينتفع به البدن، سواء كان حلالاً أو حرامـًا، وسواء كان المرزوق مسلمـًا أو كافراً؛ لأنك لو قلت: إن الرزق هو العطاء الحلال، لكان كل الذين يأكلون الحرام، لم يرزقوا، مع أن الله تعالى أعطاهم ما تصلح به أبدانهم، لكن الرزق نوعان: طيب وخبيث، ولهذا قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، ولم يقل: والرزق، أما الخبائث من الرزق، فهي حرام.

أما الرزق الخاص؛ فهو ما يقوم به الدين من العلم النافع والعمل الصالح والرزق الحلال المعين على طاعة الله تعالى، ولهذا جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾، ولم يقل: الرازق، لكثرة رزقه وكثرة من يرزقه، فالذي يرزقه الله عز وجل لا يحصى باعتبار أجناسه، فضلاً عن أنواعه، فضلاً عن آحاده؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود: ٦]، ويعطي الله جل جلاله الرزق بحسب الحال.

ولكن إذا قال قائل: إذا كان الله تعالى هو الرزاق، فهل أسعى بطلب الرزق، أو أبقى في بيتي ويأتيني الرزق؟.

فالجواب نقول: اسعَ لطلب الرزق، كما أن الله غفور، فليس معنى هذا أن لا تعمل وتتسبب للمغفرة.

أما قول الشاعر:

جُنُونٌ مِنْكَ أَنْ تَسْعَى لِرِزْقٍ ... وَيُرْزَقُ فِي غِشَاوَتِهِ الْجَنِينُ

فهذا القول باطل، وأما استشهاده بالجنين، يقال له:الجنين لا يمكن أن يوجه إليه طلب الرزق،لأنه غير قادر،بخلاف القادر؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ

لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥]، فلا بد من سعي، وأن يكون هذا السعي على وفق الشرع.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٨]

هذه الآية مرتبطة بالآيات التي قبلها في المعنى؛ وهي قول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾؛ والمعنى: أنه -تعالى- خلق العباد ليعبدوه، ولا يشركوا به شيئًا، فمن أطاعه في ذلك جازاه أتم الجزاء وأحسنه، ومن أبى وعصاه عذبه أشد العذاب.

وأخبر أنه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، فهو خالقهم ورازقهم وهو المتكفل بالخلق وحاجاتهم؛ لقطع توهم من يعتمد على قوته، أو علمه وصنعته، أو غير ذلك، في أمور الرزق،؛ ليصرف اعتمادهم إلى الله وحده.

وقوله: ﴿ٱلرَّزَّاقُ﴾؛ صيغة مبالغة من الرزق؛ وهو العطاء، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ ﴾ [النساء: ٨]؛ أي: أعطوهم، والإنسان يسأل الله تعالى في صلاته، ويقول: اللهم ارزقني.

وقوله: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾؛ أي: القوة العظيمة التي لا تضاهى، ولا تقاس بقوة خلقه مهما بلغت قوتهم، فهو-تعالى- على كل شيء قدير، لا يمتنع عليه شيء، وهي صفة يتمكن الفاعل بها من الفعل بدون ضعف، والدليل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم: ٥٤]، وليست القوة هي القدرة، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر: ٤٤]، فالقدرة يقابلها العجز، والقوة يقابلها الضعف؛ والفرق بينهما: أن القدرة يوصف بها ذو الشعور، والقوة يوصف بها ذو الشعور وغيره، وأن القوة أخص فكل قوي من ذي الشعور قادر، وليس كل قادر قويًا؛ مثال ذلك: تقول: الريح قوية، ولا تقول: قادرة، وتقول: الحديد قوي، ولا تقول: قادر، لكنْ ذو الشعور

تقول: إنه قوي، وإنه قادر، ولما قالت عاد: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾؛ قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت: ١٥].

وقوله: ﴿الْمَتِينُ ﴾؛ أي: الشديد في قوته، الشديد في عزته، الشديد في جميع صفات الجبروت؛ الذي لا يطرأ عليه عجز أو ضعف - تعالى وتقدس -، ولا يلحقه في أفعاله مشقة، وهو من حيث المعنى توكيد للقوي.

ويجوز أن نخبر عن الله عز وجل بأنه شديد، ولا نسمي الله تعالى بالشديد، بل نسميه بالمتين؛ لأن الله سمى نفسه بذلك.

وقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا أَحَدٌ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ الله يَدَّعُونَ لَهُ الْوَلَدَ ثُمَّ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ»[(١)].

قوله: «**ما أحد**»؛ أي: ليس أحد.

وقوله: «**أصبر**»؛ أفعل تفضيل من الصبر، وأصل الصبر في الكلام: الحبس، ومن أسماء الله الحسنى «الصبور»؛ ومعناه: الذي لا يعاجل العصاة بالعقوبة، وهو قريب من معنى الحليم، والحليم أبلغ في السلامة من العقوبة؛ أي: أن صفة الحلم أكثر رجاء ورحمة وأوسع لعباده، من صفة الصبور، وهذا الاسم في أسماء الله الحسنى التي جاءت في السنة ولم تأت في القرآن العظيم.

وقوله: «**على أذى سمعه من الله**»؛ لفظ الأذى في اللغة هو لما خف أمره، وضعف أثره من الشر والمكروه؛ فابن آدم يؤذي الله تعالى ويسبه، بإضافة ما يتعالى ويتقدس عنه إليه، مثل نسبة الولد إليه -تعالى- فقال: «**يدعون له الولد**»؛ وفي رواية أخرى: «يجعلون له الولد»؛ أي: ينسبون له الولد كذباً وزوراً، قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: كذبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته، وأمّا شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد، ولم يكن

---

(١) رواه البخاري برقم (٧٣٧٨)، ومسلم برقم (٢٨٠٤).

لي كفواً أحد»[1].

وأيضــًا فابن آدم يؤذي الله عز وجل بأن يجعل له الند والشـريك في العبادة، التي يجب أن تكون خالصة له وحده.

ومثل إســناده نعمه وأفعاله إلى غيره؛ كالدهر، والطبيعة، والكون والمخلوقات، وغير ذلك، ثم يسبون ما أسندوا تلك الحوادث إليه؛ وقال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يؤذيني ابن آدم، يســب الدهر، وأنا الدهر، أقلب ليله ونهاره»[2]؛ وأذية الله تعالى بنســبة الحوادث والكوارث إلى الدهر، أو الطبيعة، وتوجيه اللوم والقدح والسب إلى ذلك، مع أن ذلك صنع الله تعالى وفعله، ولذلك يرجع السب إليه، تعالى عن قولهم علواً كبيراً؛ ومعلوم أن توجيه الخطاب والملام إلى الأيام والليالي لأنها ظرف لوقوع الحوادث وما يؤلم، فوجه اللوم إلى الدهر لذلك، وإلا فغالب هؤلاء، إن لم يكن كلهم، لا يعتقدون أن الليل والنهار هو المصــرف المدبر، والموجد لما يقع فيه، فرجع اللوم في الحقيقة إلى تلك الحوادث الواقعة في الليل والنهار، فبذلك يعلم أن اللوم والسب يعود إلى مقدرها وموجدها، وهو الله تعالى خالق كل شيء.

فليحذر المســلم من مجاراة هؤلاء الذين ســلكوا طريق أهل الجهل من الكفار وغيرهم، في القدح في أفعال الله تعالى، وسخط أقداره وتدبيراته.

وهذا الأذى لا يضر الله تعالى، فلا يلزم من الأذى الضرر، فهو أذى، ولا يلزم منه الضرر، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [الأحزاب: ٥٧]؛ فلا يلزم من ذلك إيصال الضرر لله تعالى ورسوله ﷺ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فقد أخبر - سبحانه- أن العباد لا يضرونه، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾ [آل عمران: ١٧٦]، فبين أن الخلق لا يضرونه، لكن يؤذونه».

وأما صــبره -تعالى- فمتعلق بكفر عباده، وشــركهم، ومســبتهم له -تعالى

---

(١) رواه البخاري برقم (٤٩٧٤).

(٢) رواه البخاري برقم (٦١٨١)، ومسلم برقم (٢٢٤٦).

وتقدس- وسائر معاصيهم وفجورهم، فلا يَدَعُوه ذلك إلى تعجيل عذابهم، بل يصبر عليهم ويمهلهم، ويرفق بهم، ويستصلحهم بحلمه وصبره ونعمه، حتى إذا لم يبق فيهم موضع للصنيعة ولا يصلحون على الإمهال، ولم ينيبوا إليه، لا من باب الإحسان والنعم، ولا من باب البلاء والنقم، أخذهم أخذ عزيز مقتدر، بعد غاية الإعذار إليهم، وبذل النصيحة لهم، ودعائهم من كل باب.

وهذا كله من موجبات صفة حلمه، وهي صفة ذاتية له لا تزول.

وأما الصبر فإذا زال متعلقه كان كسائر الأفعال التي توجد لوجود الحكمة وتزول بزوالها، فتأمله، فإنه فرق لطيف قل من تنبه له.

وقوله: «**ثم يعافيهم ويرزقهم**»؛ أي: أنه -تعالى- يقابل إساءتهم بالإحسان، فهم يسيئون إليه -تعالى- بالعيب والسب، ودعوى ما يتعالى عنه ويتقدس، وتكذيب رسله ومخالفة أمره، وفعل ما نهاهم عنه فعله، وهو يحسن إليهم بصحة أبدانهم، وشفائهم من أسقامهم، وكلاءتهم بالليل والنهار مما يعرض لهم، ويرزقهم بتسخير ما في السماوات والأرض لهم، وهذا غاية الصبر والحلم والإحسان.

***

المسألة (الخامسة والستون):
فِي أَنَّ اللهَ تَعَالَى عَالمُ الغَيْبِ

مدح الله سبحانه وتعالى نفسه بعدة آيات في كتابه العظيم بأنه عالم الغيب، وأنه استأثر به دون خلقه، فكان ذلك دليلاً على أنه لا يعلم الغيب سواه، وإثبات صفة العلم لنفسه، وأنها من الصفات الذاتية، وبيان عموم وشمول علمه بواطن الأمور وظواهرها.

فعلمه -تعالى- وسع كل شيء في الماضي والمستقبل والحال، فعلم الله عز وجل يشمل الثلاثة الأمور: علم الماضي؛ وهو علم ما كان، وعلم المستقبل؛ وهو علم ما يكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون، كقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ [التوبة: ٤٧].

قال الله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٦].

قوله: ﴿ **عَالِمُ** ﴾؛ فالله عز وجل لم يزل عالمـًا ولا يزال عالمـًا، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، أحاط علمه جميع الأشياء باطنها وظاهرها، دقيقها وجليلها.

وقوله: ﴿**الْغَيْبِ**﴾، هو ما استتر عن العين؛ قال الله تعالى: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ [النمل: ٢٠]، واستعمل في كل غائب عن الحاسة، وعما يغيب عن علم الإنسان، قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٧٥].

وقوله: ﴿**فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا**﴾؛ الله تعالى لا يغيب عنه شيء، وهو المختص بعلم الغيب، فلا يشاركه فيه أحد، واستثنى الله تعالى من ارتضاه من رسله، فأطلعهم على ما يشاء من غيبه، عن طريق الوحي إليهم وإعلامهم به، وجعل ذلك

معجزة لهم، ودليلاً على نبوتهم وصدقهم.

وليس المنجم والكاهن، ومن ضاهاهما؛ كالضارب بالحصى، والناظر في الكتب والأكف، وما أشبه ذلك، ممن أرتضاه الله تعالى من الرسل عليهم الصلاة والسلام، حتى يطلعهم على ما يشاء من الغيوب، بل هم مفترون على الله جل جلاله، يصطادون أموال الجهلة من الناس بالتلبيس والتخمين الكاذب والادعاء الفارغ.

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

قوله: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ﴾؛ اللام للتعليل؛ لأن الله تعالى قال قبلها: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فقد خلق هذه السماوات السبع والأرضين السبع، وأعلمنا بذلك، لنعلم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وقوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ القدرة وصف يتمكن به الفاعل من الفعل بدون عجز، فالله عز وجل على كل شيء قدير، يقدر على إيجاد المعدوم، وعلى إعدام الموجود، فالسماوات والأرض كانت معدومة، فخلقها الله عز وجل وأوجدها على هذا النظام البديع.

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾؛ كل شيء، الصغير والكبير، والمتعلق بفعله أو بفعل عباده والماضي واللاحق والحاضر، كل ذلك قد أحاط الله سبحانه به علماً.

وذكر الله عز وجل العلم والقدرة بعد الخلق؛ لأن الخلق لا يتم إلا بعلم وقدرة.

وَقَالَ الله سُبْحَانَهُ: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [سبأ: ١].

قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا﴾؛ «ما» اسم موصول يفيد العموم، فكل ما ﴿يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مثل

المطر والحب يبذر في الأرض والموتى والدود والنمل وغيره، ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾؛ كالماء والزروع، وما أشبه ذلك، ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ مثل المطر والوحي والملائكة وأمر الله عز وجل، ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾؛ كالأعمال الصالحة والملائكة والأرواح والدعاء.

وقال الله جل جلاله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقال الله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان: ٣٤].

قوله: ﴿وَعِندَهُۥ﴾؛ أي: عند الله تعالى، وهو خبر مقدم ﴿مَفَاتِحُ﴾ مبتدأ مؤخر؛ ويفيد الحصر والاختصاص؛ أي: عنده لا عند غيره مفاتح الغيب، وأكد هذا الحصر بقوله: ﴿لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾، ففي الجملة حصر بأن علم هذه المفاتح عند الله سبحانه بطريقتين؛ إحداهما: بطريقة التقديم والتأخير، والثانية: بطريقة النفي والإثبات.

وقوله: ﴿ٱلْغَيْبِ﴾؛ هو ما استتر عن العين، والمراد ما كان غائبًا، والغيب أمر نسبي، لكن الغيب المطلق علمه خاص بالله تعالى.

وقوله: ﴿مَفَاتِحُ﴾؛ قيل: إنها جمع مِفْتَح، بكسر الميم وفتح التاء، أو إنها جمع مفتاح لكن حذفت منها الياء وهو قليل، ونحن نعرف أن المفتاح ما يفتح به الباب، وقيل: جمع مَفْتِح، بفتح الميم وكسر التاء وهي الخزائن؛ فـ﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ خزائنه، وقيل: ﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: مبادئه، لأن مفتح كل شيء يكون في أوله، فيكون على هذا: ﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: مبادئ الغيب، فإن هذه المذكورات مبادئ لما بعدها.

وهذه المفاتح سواء قلنا إن المفاتح: هي المبادئ، أو: هي الخزائن، أو: المفاتيح، لا يعلمها إلا الله عز وجل، فلا يعلمها ملك، ولا يعلمها رسول، حتى إن أشرف الرسل الملكي - وهو جبريل عليه السلام - سأل أشرف الرسل البشري - وهو محمد ﷺ- قال: أخبرني عن الساعة؟ قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»؛ والمعنى: كما أنه لا علم لك بها، فلا علم لي بها أيضاً.

فمن ادعى علم الساعة، فهو كاذب كافر، ومن صدقه، فهو أيضاً كافر؛ لأنه مكذب للقرآن.

وهذه المفاتح جاءت بقوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾؛ فهي خمسة أمور[1]:

الأول: ﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾؛ فعلم الساعة مبدأ مفتاح لحياة الآخرة، وسميت الساعة بهذا، لأنها ساعة عظيمة، يهدد بها جميع الناس، وهي الحاقة والواقعة، والساعة علمها عند الله لا يدري أحد متى تقوم إلا الله عز وجل.

فهو تعالى المختص بعلم الساعة؛ أي: وقت مجيئها، فإنه لا يعلم قيامها غيره سبحانه وتعالى، وأضاف الله تعالى صفة العلم إلى نفسه الكريمة إضافة حقيقية.

والمضاف إلى الله تعالى إما أن يكون أعياناً قائمة بنفسها، كبيت الله، وناقة الله، ورسول الله، وعرش الرحمن، وما أشبه ذلك، وهذا النوع من إضافة المخلوق إلى خالقه؛ لتفضيلها على غيرها من المخلوقات.

وإما إضافة معانٍ؛ كعلم الله، وقدرة الله، وحياة الله، وسمع الله وبصره، وما أشبه ذلك، وهذا النوع لا يكون إلا إضافة صفة إلى من تقوم به؛ لأنها لا تقوم بنفسها كما هو معلوم.

والثاني: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾؛ ﴿ٱلْغَيْثَ﴾؛ أي: إزالة الشدة، والمراد به المطر؛ لأنه بالمطر تزول شدة القحط والجدب، وإذا كان هو الذي ينزل الغيث، كان هو الذي يعلم وقت نزوله.

والمطر نزوله مفتاح لحياة الأرض بالنبات، وبحياة النبات يكون الخير في المرعى

---

(١) انظر ما رواه البخاري برقم (٤٧٧٧)، ومسلم برقم (٩).

وجميع ما يتعلق بمصالح العباد.

تنبيـه: لم يقـل: وينزل المطر؛ لأن المطر أحيـانـًا ينزل ولا يكون فيه نبات، فلا يكون غيثـًا، ولا تحيا به الأرض، ولهذا جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «ليسـت السَّنة بأن لا تُمطروا، ولكن السَّـنة أن تُمطروا وتمطروا ولا تُنبت الأرض شـيئـًا»[1]؛ والسَّـنة: القحط.

والثالث: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾؛ أي: أرحام الإناث؛ فهو عز وجل يعلم ما في بطون الأمهات من بني آدم وغيرهم، ومتعلق العلم عام بكل شـيء، فلا يعلم ما في الأرحام إلا مَن خَلَقَهَا عز وجل.

فإن قلت: يقال الآن: إنهم صـاروا يعلمون الذكر من الأنثى في الرحم، فهل هذا صحيح؟.

نقول: إن هذا الأمر وقع ولا يمكن إنكاره، لكنهم لا يعلمون ذلك إلا بعد تكوين الجنين وظهور ذكورته أو أنوثته، وللجنين أحوال أخرى لا يعلمونها، فلا يعلمون متى ينزل، ولا يعلمون إذا نزل إلى متى يبقى حيـًا، ولا يعلمون هل يكون شـقيـًا أو سعيداً، ولا يعلمون هل يكون غنيـًا أم فقيراً... إلى غير ذلك من أحواله المجهولة.

إذاً أكثر متعلقات العلم فيما يتعلق بالأجنة مجهول للخلق.

والرابع: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾؛ أي: علم ما في الغد؛ وهو ما بعد يومك، وهذا مفتاح الكسب في المستقبل، وإذا كان الإنسان لا يعلم ما يكسب لنفسه، فعدم علمه بما يكسبه غيره أولى.

لكن لو قال قائل: أنا أعلم ما في الغد، سـأذهب إلى المكان الفلاني، أو أقرأ، أو أزور أقاربي!؟؛ فنقول: قد يجزم بأنه سيعمل، ولكن يحول بينه وبين العمل مانع.

والخامس: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾؛ أي: ما يدري أيّ أحدٍ هل يموت في أرضـه؛ أو في أرض أخرى؟؛ في أرض إسلامية، أو أرض كافر أهلها؟، ولا يدري هل يموت في البر، أو في البحر، أو في الجو؟.

ولا يدري بأي سـاعة يموت؛ لأنه إذا كان لا يمكنه أن يدري بأيّ أرض يموت، وهو قد يتحكم في المكان، فكذلك لا يدري بأيّ زمنٍ وساعة يموت.

فهذه الخمسـة هي مفاتح الغيب التي لا يعلمها إلا الله سـبحانه وتعالى، فتبين أن

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٩٠٤).

هذه المفاتح كلها مبادئ لكل ما وراءها، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾؛ فهو العليم بسرائر عباده وضمائر قلوبهم، الخبير بأمورهم؛ الذي لا يخفى عنه شيء، قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بأنه الذي أحاط بالظاهر والباطن، وشمل علمه السر والعلن، والمستحيل والممكن والواجب، وشمل جميع ما في العالم في كل زمان وكل مكان، لا يخفى عليه شيء من الأشياء.

وقوله عز وجل: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾؛ هذا إجمال، فمن يحصي أجناس ما في البر؟، كم فيها من عالم الحيوان والحشرات والجبال والأشجار والأنهار، أمور لا يعلمها إلا الله عز وجل، والبحر كذلك فيه من العوالم ما لا يعلمه إلا خالقه عز وجل، يقولون: إن البحر يزيد على البر ثلاثة أضعاف من الأجناس، فالبحر أكثر من اليابس.

وقوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾؛ هذا تفصيل، فأي ورقة في أي شجرة صغيرة أو كبيرة، قريبة أو بعيدة تسقط، فالله تعالى يعلمها، والورقة التي تخلق يعلمها من باب أولى؛ لأن عالم ما يسقط عالم بما يخلق.

انظر إلى سعة علم الله تعالى كل شيء يكون، فهو عالم به، حتى الذي لم يحصل وسيحصل، فهو تعالى عالم به.

وقوله: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ ﴾؛ حبة صغيرة لا يدركها الطرف في ظلمات الأرض يعلمها عز وجل، و﴿ظُلُمَٰتِ ﴾؛ جمع ظلمة، ولنفرض أن حبة صغيرة غائصة في قاع البحر، في ليلة مظلمة مطيرة، فالظلمات؛ أولاً: طين البحر، وثانياً: ماء البحر، وثالثاً: المطر، ورابعاً: السحاب، وخامساً: الليل؛ فهذه خمس ظلمات من ظلمات الأرض، ومع ذلك هذه الحبة يعلمها الله سبحانه وتعالى ويبصرها عز وجل.

وقوله: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ ﴾؛ هذا عام، فما من شيء إلا وهو إما رطب وإما يابس، ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾؛ ﴿كِتَٰبٍ﴾ بمعنى مكتوب، و﴿مُّبِينٍ﴾؛ أي: مظهر وبين، والمراد بالكتاب هنا: اللوح المحفوظ.

كل هذه الأشياء معلومة عند الله سبحانه وتعالى ومكتوبة عنده في اللوح المحفوظ؛ لأن الله تعالى لما خلق القلم، «قال له: اكتب، قال القلم: ماذا أكتب؟،

قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة»[1]، فكتب في تلك اللحظة ما هو كائن إلى يوم القيامة، ثم جعل سبحانه في أيدي الملائكة كتبًا تكتب ما يعمله الإنسان؛ لأن الذي في اللوح المحفوظ قد كتب فيه ما كان يريد الإنسان أن يفعل، والكتابة التي تكتبها الملائكة هي التي يجزى عليها الإنسان؛ ولهذا يقول الله عز وجل: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمد: ٣١]، أما علمه بأن عبده فلانًا سيصبر أو لا يصبر، فهذا سابق من قبل، لكن لا يترتب عليه الثواب والعقاب.

وإن علم وقت مجيء الساعة – الذي هو النفخ في الصور- لا يعلمه إلا الله تعالى وحده، فهو خاص به تعالى لا يشاركه فيه أحد، فلا يدري أحد من الناس متى تقوم الساعة، في أي سنة، أو أي شهر، أو أي يوم؛ ليلاً أو نهاراً.

وقال الله تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦].

قوله تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾؛ جاء ضمن آيات في سورة النساء؛ وهي قول الله جل جلاله: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ۝ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ۝ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾؛ فذكر الله تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله محمد ﷺ كما أوحى إلي غيره من الأنبياء المتقدمين، فقال: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾، إلى قوله: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾؛ والزبور اسم الكتاب الذي أوحاه الله إلى داود عليه السلام، ثم قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾، أي: من قبل هذه الآية، وقوله: ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾؛ أي: خلقًا آخرين لم يذكروا في القرآن ﴿وَكَلَّمَ

---

(١) رواه الترمذي برقم (٣٣١٩)، وصححه الألباني؛ انظر: «صحيح الجامع» برقم (٢١٠٧).

ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ﴾، وهذا تشريف لموسى عليه السلام بهذه الصفة، ولهذا يقال له: الكليم، ثم قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾؛ أي: يبشرون من أطاع الله عز وجل، واتبع رضوانه بالخيرات، وينذرون من خالف أمره وكذب رسله بالعقاب والعذاب ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾؛ أي: أنه تعالى أنزل كتبه وأرسل رسله بالبشارة والنذارة، وبين ما يحبه ويرضاه مما يكرهه ويأباه، لئلا يبقى لمعتذر عذر، ثم قال تعالى: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَ ﴾؛ أي: وإن كفر به من كفر به ممن كذبك وخالفك، فالله يشهد لك بأنك رسوله الذي أنزل عليه الكتاب وهو القرآن العظيم الذي: ﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴾ [فصلت: ٤٢]، ولهذا قال: ﴿**أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦ**﴾؛ أي: فيه علمه الذي أراد أن يطلع العباد عليه من البينات والهدى والفرقان، وما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويأباه، وما فيه من العلم بالغيوب من الماضي والمستقبل، وما فيه من ذكر صفاته تعالى المقدسة التي لا يعلمها نبي مرسل ولا ملك مقرب إلا أن يعلمه الله به، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٠].

وقوله: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَ ﴾؛ أي: بصدق ما جاءك وأوحى إليك وأنزل عليك مع شهادة الله تعالى بذلك، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴾.

والشاهد منها قوله تعالى: ﴿**أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦ**﴾؛ أي: أنزل القرآن، عالماً بما يترتب على إنزاله من الخير والفلاح وغير ذلك، وعالماً بمن يؤمن به ويقبله، ويسعد بذلك، ومن يكفر به ويرده ويشقى بذلك.

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾ [فاطر: ١١].

قوله: ﴿ **وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗا** ﴾؛ أي: أن الله تعالى

يخبر العباد بأنه ابتدأ خلقهم بخلق أبيهم آدم من تراب، ثم جعل خلق ذريته من نطفة – من ماء مهين – وجعلهم أزواجًا؛ أي: ذكراً وأنثى، رحمة منه –تعالى– ولطفًا.

وقوله: ﴿**وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ**﴾؛ أي: أنه عالم بأطوار خلقهم، لا يخفى عليه شيء من مبتدئه، ووضعه، ونوعه، وعمره، وعمله، وزيادة عمره، ونقصانه، فعِلْمُه –تعالى– شامل لكل شيء، فلا تكون حياة، ولا موت، ولا حركة، ولا سكون إلا بعلمه وتصريفه ومشيئته، وأن ذلك عنده في كتاب.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ؛ لَا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ إِلَّا اللهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ، وَلَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِلَّا اللهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللهُ»(١).

قوله: «**مفاتيح الغيب خمس، لا يعلمها إلا الله**»؛ وقد سبق ذكر الآيات التي بينت مفاتيح الغيب، وفي هذا الحديث أكَّد وبَيَّن هذه الخمس؛ بأنها: ما يغيض من الأرحام – أي: ما ينقص–، وما يكون في الغد من الحوادث والأعمال وغيرها، ومجيء المطر، والمكان الذي يموت به الإنسان، ووقت مجيء الساعة.

وعبر عن هذه الأمور الخمسة بالمفاتيح، لتقريب الأمر من السامع؛ لأن كل شيء جعل بينك وبينه حجاب، فقد غيب عنك، والتوصل إلى معرفته في العادة من باب الحجاب، فإذا كان المفتاح الذي لا يمكن الوصول إلى ما في داخل الحجاب إلا بمعرفته لا يعلم، فكيف بما في داخل الحجاب؟.

وهذه الأمور ليست هي الغيب، وإنما هي منه؛ وأن علم الغيب من خصائص الله تعالى.

وأما ما جاء عن الأنبياء من الأخبار ببعض المغيبات؛ كإخبار الرسول ﷺ بما يقع بعده من الفتن؛ والفتوح على أمته؛ وببعض أشراط الساعة، وكإخبار عيسى عليه السلام بما

---

(١) رواه البخاري برقم (٧٣٧٩).

يأكله بنو إسرائيل، وما يدخرونه في بيوتهم، ونحو ذلك، فإن هذا مما استثناه الله تعالى بقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا * لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧]، وهو من معجزاتهم التي تدل على صدقهم.

وقوله: «**لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله**»؛ أي: ما يزيد في النفوس، وما ينقص منها؛ وذكر الأرحام؛ لأن للناس عليها عوائد يعرفونها؛ وتجارب أدركوها، وقد قرر عليها أحكام شرعية، ومع ذلك لا يعلم حقيقتها، ومتى تزيد ومتى تنقص إلا الله تعالى، فغيرها مما هو أخفى أولى بأن لا يعلمه الخلق.

وقوله: «**ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله**»؛ أشار فيها إلى أمور العالم العلوي -وذكر منها المطر-؛ فإن له مقدمات، وعلامات يستدل بها عليه عادة، أجراها الله تعالى، ومع ذلك لا يعلم حقيقة الحال إلا الله تعالى، فكيف بما وراء ذلك مما في السماوات وما بينهما، وما يجد هناك من المخلوقات والحوادث والأوامر التي يريدها الله تعالى ويأمر بها.

والإخبار عما يسمى «بالطقس»؛ أحوال الجو من أمطار، أو رياح أو غيوم أو صحو أو غير ذلك، فهي توقعات مبنية على مقدمات مستفادة من مراصد الأحوال الجوية التي تتأثر بالرطوبة واليبوسة ونحو ذلك، ولهذا أحيانًا ما يكون الأمر على خلاف ما قالوا.

وقوله: «**ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله**»؛ أشار إلى الحوادث الأرضية، ومنها موضع الموت من الأرض، فإن العادة في الغالب قد جرت أن الإنسان يموت في الأرض التي يستقر فيها؛ ومع ذلك لا أحد يتيقن أنه يموت في مكانه الذي يعيش فيه، ولا يدري أين موضعه الذي يوارى فيه.

فإذا كان الأمر في مثل هذا غير معلوم، فكيف بالأمور الأخرى التي لا علامات لها، ولا مقدمات يستدل بها عليها.

وقوله: «**ولا يعلم ما في غد إلا الله**»، أشار إلى أنواع الزمان، وما فيه من الحوادث والتقلبات الطارئة، وخص منه غداً؛ لأنه أقرب الأزمنة من المخاطب، فإذا خفي ما فيه، فما بعده أخفى وأبعد عن معرفته.

وقوله: «**ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله**»؛ أشار إلى أمور الدار الآخرة، وذكر

منها يوم القيامة؛ ولا يعلم وقت مجيئه إلا الله سبحانه وتعالى، فما بعده أولى بأن لا يعلم، فهذا من أبدع الكلام وأبلغه، فقد حصر فيه جميع أنواع الغيوب، وأبطل جميع دعاوى من يدعي شيئاً في علم الغيب.

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: «مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّداً ﷺ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ، وَهُوَ يَقُولُ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ يَعْلَمُ الْغَيْبَ فَقَدْ كَذَبَ، وَهُوَ يَقُولُ: «لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ»»[1].

كأن سبب هذا القول من عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ما نقل أن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لقي كعباً، فقال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إنا بنو هاشم نقول: إن محمداً رأى ربه مرتين، فكبّر كعب، وقال: إن الله قسم رؤيته وكلامه بين موسى ومحمد، فكلم موسى مرتين، ورآه محمد مرتين، قال مسروق: فدخلت على عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، فقلت: هل رأى محمد ربه؟... فذكر الحديث.

وقولها: «**من حدّثك أن محمد ﷺ رأى ربه، فقد كذب**»؛ هذا من المسائل التي اختلف فيها الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ومن بعدهم؛ فمنهم من ذهب إلى ما ذهبت إليه عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا؛ وهو أنه ﷺ لم ير ربه في المعراج بعيني رأسه، ومنهم من ذهب إلى أنه ﷺ رأى ربه بعيني رأسه.

والصحيح الأول؛ لأن رسول الله ﷺ سئل هل رأيت ربك؟، قال: «نور أنى أراه، قد استتر -سبحانه- بالحجب»[2]، وقال ﷺ: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور أو النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه....»[3]، ولأن الرؤية أعظم النعيم، ولا تكون إلا في الجنة.

وقوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾؛ نفي الإدراك، هو نفي الإحاطة، فهو لم ينف

---

(١) رواه البخاري برقم(٧٣٨٠)، ومسلم برقم(١٧٧).

(٢) رواه مسلم برقم (١٧٨).

(٣) رواه مسلم برقم (١٧٩).

الرؤية، والرؤية أخص، فنفي الأعم لا يشمل نفي الأخص، فهو -سبحانه- تراه الأبصار ولا تدركه، ولا تحيط به رؤية، فأنت ترى السماء والجبل والبستان ولا تحيط بها.

وقوله: «**ومن حدثك أنه يعلم الغيب، فقد كذب، وهو يقول: لا يعلم الغيب إلا الله**»؛ الضمير في قوله: «**إنه يعلم**» يعود على محمد ﷺ؛ أي: من زعم أن محمداً ﷺ يعلم الغيب، فقد كذب؛ لأن علم الغيب يختص بالله تعالى، كما قال الله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ وآمراً له أن يقول: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ ﴾ [الأنعام: ٥٠]، والآيات في هذا كثيرة.

وعلم الغيب من خصائص الرب سبحانه وتعالى التي بعث رسله وأنزل كتبه لبيانها، ونفى ذلك عمن سواه -تعالى-، وأما قول الله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧]، فهي كقوله -تعالى-: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]؛ فهي تبين أن الله تعالى يُطلع من يشاء من رسله على ما يشاء من المغيبات، وذلك بوحيه إليهم، مثل إخباره عما جرى من الأمم الماضية، وما أصيبوا به من العذاب وغيره، كما قال الله تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ﴾ [هود: ٤٩]، وكذلك الإخبار عن المستقبل من المعاد، والجنة والنار، التي أطلع الله عليها رسوله ﷺ فآمن بها المؤمنون، وعرفوها من كتاب الله تعالى، ومن سنة رسوله ﷺ إجمالاً.

فعلم الغيب لله وحده، ولا يقال لغيره - تبارك وتعالى - عالم الغيب، ومن أطلع على شيء منه بواسطة الوحي أو غيره، يقال أطلعه الله عز وجل عليه، كالإخبار عن حال البرزخ، والحساب، والجنة والنار، وما أشبه ذلك.

* * *

المسألة (السادسة والستون):
في أنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ هُوَ السَّلامُ

قال رسول الله ﷺ: «إن السلام اسم من أسماء الله تعالى، وضعه الله في الأرض، فأفشوا السلام بينكم»(١).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «السلام اسم الله، وهو تحية أهل الجنة».

وقال الخطابي رحمه الله: «فيه دليل على أن السلام الذي يُحَيّي به الناس بعضهم بعضًا اسم من أسماء الله تعالى».

فالسلام اسم من أسماء الله تعالى، وقد أمر الله تعالى المسلمين أن يفشوه فيما بينهم، قال ﷺ: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا؛ أولا أدلكم على شيء إذا فعلتوه تحاببتم؟، أفشوا السلام بينكم»(٢)؛ فعندما يُلقي المسلم على أخيه السلام، فإنه يذكر الله تعالى، طالبًا منه السلامة، متوسلاً إليه بذكر اسمه -تعالى- المناسب لطلبه، فكأنه يقول: أنا مسالم لك أيها الأخ محب وداع لك، وطالب حصول البركة والخير، والسلامة من كل مؤذ، ممن يملك ذلك، متوسلاً إليه في حصول ذلك باسمه السلام.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الحشر: ٢٣].

قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾؛ أي: المعبود التي لا تنبغي العبادة

(١) رواه البخاري في كتابه «الأدب المفرد» برقم (١٠٣٩)، وصححه الألباني؛ انظر «السلسلة الصحيحة» برقم (١٦٠٧).

(٢) رواه مسلم برقم (٥٤).

والألوهية إلا له.

وقوله: ﴿ٱلْمَلِكُ﴾؛ أي: المالك لجميع الأشياء المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾؛ أي: الطاهر المنزه عن كل نقص، والطاهر عن كل عيب، والقَدَس: السطل بلغة أهل الحجاز، لأنه يتطهر به، ومنه القادوس لواحد الأواني التي يستخرج بها الماء من البئر بالدلو.

وقوله: ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾؛ أي: السالم بنفسه من العيب والنقص لكماله في ذاته وصفاته وأفعاله، والمُسَلِّم لغيره؛ فـ«إن الله هو السلام وإليه السلام ومنه السلام».

وهذا هو الشاهد في هذه الآية.

وقوله: ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾؛ أي: المُصدِّق لنفسه بأنه لا إله إلا هو العزيز الحكيم، والمصدق لرسله بما يقيمه من الدلائل التي تدل على صدقهم فيما جاؤوا به وبلغوه عنه -تعالى-، ويصدقهم وعده بنصره إياهم على عدوهم، ويصدق عباده ما أخبرهم به من توفيتهم ما يستحقونه جزاء أعمالهم، ولا يضيع أجر أحد منهم ويؤمنهم من الظلم، فلا يخافون ظلماً ولا هضماً، فهو الذي يجير عباده وينجيهم من المهالك والمخاوف.

وقوله: ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾؛ أي: القائم على خلقه بأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم، والشهيد على خلقه بما يكون منهم من قول أو عمل، والرقيب على عباده يراقب قلوبهم ويحفظ قواهم وجوارحهم.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: الذي قد عز كل شيء فقهره وغلب الأشياء فلا ينال جنابه لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه، ولهذا قال تعالى: ﴿ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾؛ أي: الذي لا تليق الجبرية إلا له ولا التكبر إلا لعظمته، كما قال الله تعالى في الحديث القدسي: «العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني واحداً منهما عذبته».

وعَنْ عَبْد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كُنَّا نُصَلِّي خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَقُولُ السَّلَامُ عَلَى الله، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ الله هُوَ السَّلَامُ، وَلَكِنْ قُولُوا: التَّحِيَّاتُ لله وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ الله الصَّالِحِينَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ»[1].

قوله: «**كنا نصلي خلف النبي ﷺ؛ فنقول: السلام على الله**»، كأنهم رأوا السلام من قبيل الحمد والشكر، فجوزوا ثبوته لله تعالى، وهو تعالى السلام، والسلام منه بدأ وإليه يعود، إذ هو -تعالى- واهب السلام لعباده، الذي به يسلمون من شرور أنفسهم، وشرور أعدائهم من الجن والإنس، وهو -تعالى- السالم من كل ما فيه نقص أو شين، وهو الغني بذاته عن كل ما سواه.

وقوله: «**إن الله هو السلام**»؛ اسم الله تعالى الدال على سلامته من كل نقص وعيب، فيدعى الله -تعالى- به؛ ليسلم من ذُكر عليه هذا الاسم الشريف، من المكاره والمخاوف، وهو الشاهد هنا في إثبات اسم الله السلام.

وقوله: «**ولكن قولوا**»؛ أي: لا تقولوا ما كنتم تقولون، وأبدلهم عنها بـ«**التحيات**»، وهذا يدل على النهي، وأن قولهم لا يجوز.

وقوله: «**التحيات لله**»؛ معناه: البقاء لله سبحانه وتعالى، والسلامة من الآفات كلها التي تلحق العباد من العناء وأسباب الفناء.

وجيء بلفظ الجمع ليدل على أن الله تعالى يستحق جميع الكمالات، من العظمة والبقاء والملك، والسلامة من الآفات والنقص، وغير ذلك.

وقوله: «**لله**»؛ يفيد وجوب الإخلاص في العبادة؛ أي: أن ذلك لا يجوز أن يكون لغير الله جل جلاله منه شيء.

وقوله: «**والصلوات**»؛ أي: جميع العبادات له استحقاقاً بمقتضى العقل والشرع، وذلك مثل: الركوع، والسجود، والقيام، والدعاء، وأنواع العبادة له وحده لا شريك

---

(١) رواه البخاري برقم (٧٣٨١)، ومسلم برقم (٤٠٢).

له في ذلك.

وقوله: «**والطيبات**»؛ أي: الأعمال الطيبات له – تعالى- يتوسل بها إليه، وهو – تعالى – لا يقبل إلا طيباً، وما طاب من الكلام وحسن أن يثنى به على الله جل وعلا، دون ما لا يليق بصفاته، والوصف بالطيب يفيد خلوصها من الشرك وشوائبه، وسلامتها من البدع.

وقوله: «**السلام عليك أيها النبي**» أمرهم أن يفردوه بالسلام، ويقدموه على أنفسهم، لوجوب حقه عليهم، ووجوب محبته التي يجب أن تكون مقدمة على النفس، وما دونها.

والأحاديث متفقة على لفظ الخطاب، وذكر حرف النداء «**عليك أيها النبي**»، وقد عدل بعض الصحابة بعد وفاته ﷺ إلى لفظ خطاب الغائب، فقالوا: «السلام على النبي»[(١)].

وقال عبدالرزاق: «عن ابن جريج، عن عطاء أنه قال: إن أصحاب النبي ﷺ كانوا يسلمون والنبي ﷺ حي: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فلما مات قالوا: السلام على النبي ورحمة الله وبركاته».

وأيضاً قال عطاء: «سمعت ابن عباس، وابن الزبير، يقولان في التشهد في الصلاة: التحيات المباركات لله، الصلوات الطيبات لله، السلام على النبي ورحمة الله وبركاته».

والأولى اتباع لفظ الحديث كما عليه الجمهور من الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم من أهل العلم، وكما أنه لا فرق بين الحاضر معه في وقت حياته، وبين من كان غائباً، فكذلك بعد وفاته.

والنداء لطلب استحضار المنادي في القلب، فيخاطبه كأنه شاهد في قلبه.

وقوله: «**ورحمة الله وبركاته**»؛ فيه جواز الدعاء للنبي ﷺ بالرحمة، ويؤكد هذا ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قام رسول الله ﷺ في صلاة وقمنا معه، فقال أعرابي وهو في الصلاة: اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً، فلما سلم النبي ﷺ

(١) رواه البخاري برقم (٦٢٦٥)، وأبو عوانة في مسنده (٢/ ٢٢٩).

قال للأعرابي: لقد حجرت واسعًا - يريد رحمة الله[1] -، وأيضًا قول رسول الله ﷺ: «لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟!، قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه بفضل ورحمة»[2].

و«**بركاته**»؛ جمع بركة؛ وهي كثرة الخير والنُّمُوّ والزيادة.

وقوله: «**السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين**»؛ الصالح هو القائم بحقوق الله تعالى وحقوق العباد.

وقال الترمذي الحكيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من أراد أن يحظى بهذا السلام الذي يُسَلِّمه الخَلْق في صلاتهم، فليكن عبداً صالحًا، وإلا حُرِم هذا الفضل العظيم».

وقال بعض العلماء: «**عباد الله الصالحين**» هم جميع الملائكة وجميع الأنبياء وجميع المؤمنين.

وقوله: «**أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله**»؛ سُمِّيَ تشهداً؛ لأنه مشتمل على هذه العبارة؛ وهي الشهادة لله تعالى بالوحدانية ولنبيه محمد ﷺ بالرسالة والعبودية.

* * *

---

(١) رواه البخاري برقم (٦٠١٠).

(٢) رواه البخاري برقم (٥٦٧٣)، ومسلم برقم (٢٨١٦).

المسألة (السابعة والستون): في أنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى هُوَ المَلِكُ

قولـه: «**الملك**»؛ أي: المتصـرّف في خلقه، يفعل ما يشـاء لا معقّب لحكمه، ولا يســأل عمل يفعل، لـه الحكمة البالغة في جميع أفعالـه وأقداره: ﴿ **قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [آل عمران: ٢٦]، فيبسط الله الرزق ويوسعه لبعض الناس، ويضـيّقه ويقدره لآخرين، فيعطي ما يشـاء لمن يشـاء، ويعز من يشاء ويذل من يشـاء، المنفرد بالعز والسـلطان، الذي بيده الثواب والعقاب .

قَال الله تَعَالَى: ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾ [الناس: ٢]

قوله: ﴿ **مَلِكِ ٱلنَّاسِ** ﴾ الملك هو: المتصـرف بالأشياء حسب إرادته ومشيئته، فلا راد لأمره، ولا معقب لحكمه، فهو -سبحانه- مالكهم، والمتصرف فيهم، ومدبر شؤونهم في الدنيا والآخرة، وهو -سبحانه- يدبر شؤونهم في الدنيا بحكمه القدري، الذي لا يستطيع أحد أن ينفك عنه، ويدبرهم بحكمه الشرعي، وهو المَلِك في اليوم الآخر، الـذي يحاسـبهم بنفسـه؛ قال الله جل جلاله في أول القرآن الكريم العظيم: ﴿ **مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ** ﴾، وفي وسـطه قال جل وعلا: ﴿**ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ**﴾، و﴿**ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ**﴾، وفي آخره قال عز وجل: ﴿ **مَلِكِ ٱلنَّاسِ** ﴾.

وخص ﴿**ٱلنَّاسِ**﴾؛ لأنهم الـذين يملكون بعض الأشـياء، وفيهم ملوك، فهو – تعالى– ملك من يملك، وملك الملوك، فدخل غيرهم في المعنى، وملكه – تعالى – دائم لا يزول.

وقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَقْبِضُ الله الْأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ»[1].

قوله: «**يقبض الله الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه**»؛ فـ«**يقبض**»، و«**يطوي**» فيهما إثبات صفة القبض والطي، وأنهما من الصفات الفعلية لله تعالى التي تتعلق بمشيئته وإرادته.

والقبض هو: أخذ الشيء باليد وجمعه، والطي هو: ملاقاة الشيء بعضه على بعض، وجمعه ولفه، وهو قريب من معنى القبض.

وهي مما يجب الإيمان به؛ لأن ذلك داخل في الإيمان بالله تعالى، ويحرم تأويلها المخرج لمعانيها عن ظاهرها.

وما صرح به في هذا الحديث من القبض والطي، قد جاء صريحاً أيضاً في كتاب الله تعالى، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

وقوله: «**بيمينه**»؛ فيه إثبات اليمين لله تعالى؛ أي: اليد اليمنى، وجاء عنه ﷺ إثبات اليد الشمال لله عز وجل، وأما قوله ﷺ: «وكلتا يديه يمين»؛ أي: أن كلتا يديه يمين في الشرف والفضل، وعدم النقص والعيب.

وقوله: «**ثم يقول: أنا الملك**»؛ فيه إثبات صفة الكلام لله تعالى.

وقوله: «**ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟**»؛ أي: أنه -تعالى- ينفرد بالملك، فهو الملك حقاً الذي لا منازع له، ولا معاون، ولا ظهير، ولا شريك، وفي ذلك اليوم عندما يقبض الأرض بيده، ويطوي السماوات بيمينه، ويصبح كل شيء في قبضته، ينادي الذين كانوا ينازعونه في الدنيا ملكه، ويتعدون على سلطانه، من المتكبرين والمتجبرين من ملوك الدنيا، وقد انفرد مالك الملك الواحد القهار ذي السلطان – وهو منفرد به في كل آن، غير أنه في ذلك اليوم ينكشف جلياً – فيناديهم بما يتضمن توبيخهم وتهديدهم: أين ملوك الدنيا؟، فهل يستطيعون منعاً أو رداً؟، وهل لديهم قوة أو حيلة أو فدى؟، لقد ذهب منهم كل شيء، وبقيت التبعات والذل والحسرات.

***

---

(١) رواه البخاري برقم (٤٨١١)، ومسلم برقم (٢٧٨٦).

المسألة (الثامنة والستون):
فِي أَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ والظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ

هذه أربعة أسماء كلها متقابلة في الزمان والمكان، تفيد إحاطة الله سبحانه وتعالى بكل شيء أولاً وآخراً وكذلك في المكان ففيه الإحاطة الزمانية والإحاطة المكانية.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣].

قوله: ﴿ٱلْأَوَّلُ﴾؛ فسره النبي ﷺ بقوله: «فليس قبلك شيء»؛ وهنا فسر الإثبات بالنفي فجعل هذه الصفة الثبوتية صفة سلبية؛ لتوكيد الأولية؛ يعني أنها مطلقة.

وقوله: ﴿وَٱلْآخِرُ﴾؛ فسره النبي ﷺ بقوله: «فليس بعدك شيء»، ولا يتوهم أن هذا يدل على غاية لآخريته؛ لأن هناك أشياء أبدية، وهي من المخلوقات، كالجنة والنار، وعليه فيكون معنى ﴿وَٱلْآخِرُ﴾ أنه محيط بكل شيء، فلا نهاية لآخريته.

وقوله: ﴿وَٱلظَّاهِرُ﴾؛ من الظهور وهو العلو، كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣]؛ أي: ليعليه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف: ٩٧]؛ أي: يعلوا عليه، وقال النبي ﷺ في تفسيرها: «فليس فوقك شيء»؛ فهو عالٍ على كل شيء.

وقوله: ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾؛ فسره النبي ﷺ بقوله: «فليس دونك شيء»، وهذا كناية عن إحاطته بكل شيء، ولكن المعنى أنه مع علوه عز وجل، فهو باطن، فعلوه لا ينافي قربه عز وجل، فالباطن قريب من معنى القريب.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّماوَاتِ السَّبْعِ وَالأَرْضِ وَرَبَّ العَرْشِ العَظِيْمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الحَبِّ والنَّوَى، مُنْزِلَ التَّوْراةِ والإِنْجِيْلِ والقُرآن، أَعُوْذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِها، أَنْتَ الأَوَّلُ؛ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ؛ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ؛ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ البَاطِنُ؛ فَلَيْسَ دُوْنَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ، وَاغْنِنِي مِنَ الفَقْرِ»(١).

هذا حديث عظيم، فيه توسل النبي ﷺ إلى الله تعالى بربوبيته في قوله: «**اللهم رب السماوات السبع والأرض، ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء**»، وهذا من باب التعميم بعد التخصيص، في قوله: «**ورب كل شيء**»، وهذا التعميم بعد التخصيص؛ لئلا يتوهم واهم اختصاص الحكم بما خصص به.

وقوله: «**فالق الحب والنوى**»؛ حب الزرع، و«**النوى**»؛ نوى الغرس؛ فالأشجار التي تخرج: إما زروع أصلها الحب، وإما أشجار أصلها النوى؛ فما للأشجار يسمى نوى، وما للزروع يسمى حبًا؛ ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٥].

هذا الحب والنوى اليابس الذي لا ينمو ولا يزيد، يفلقه الرب عز وجل؛ أي: يفتحه حتى تخرج منه الأشجار والزروع، ولا يستطيع أحد أن يفعل ذلك؛ مهما بلغ الناس في القدرة؛ ما استطاعوا أن يفلقوا حبة واحدة أبداً والنوى كذلك الذي كالحجر؛ لا ينمو ولا يزيد؛ يفلقه الله عز وجل وينفرج، ثم منه الغريسة التي تنمو، ولا أحد يستطيع ذلك؛ إلا الذي فلقها سبحانه وتعالى.

ولما ذكر الآية الكونية العظيمة؛ ذكر الآيات الشرعية؛ وهي:

قوله: «**منزل التوراة والإنجيل والقرآن**»؛ هذه أعظم كتب أنزلها الله عز وجل، وبدأها على الترتيب الزمني: التوراة على موسى عليه السلام، والإنجيل على عيسى عليه السلام، والقرآن على محمد ﷺ.

وفي هذا نص صريح على أن التوراة منزلة؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ

(١) رواه مسلم برقم (٢٧١٣).

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٣-٤].

وقوله: «**أعوذ بك من شر نفسي**»؛ أعتصم بالله جل وعلا من شر نفسي، ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣].

لكن النفس نفسان:

نفس مطمئنة طيبة تأمر بالخير، ونفس شريرة أمارة بالسوء.

والنفس اللوامة؛ هل هي ثالثة، أو وصف للثنتين السابقتين؟؛ فيه خلاف، بعضهم يقول: إنها نفس ثالثة، وبعضهم يقول: هي وصف للثنتين السابقتين؛ فالمطمئنة تلومك، والأمارة بالسوء تلومك؛ فيكون قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]؛ يشمل النفسين جميعًا.

فالمطمئنة تلومك على التقصير في الواجب؛ إذا أهملت واجبًا؛ لامتك، وإذا فعلت محرمًا؛ لامتك.

والأمارة بالعكس؛ إذا فعلت الخير؛ لامتك وتلومك إذا فَوَّتَ ما تأمرك به من السوء.

إذاً صارت اللوامة على القول الراجح وصفًا للنفسين معًا.

وقوله هنا: «**أعوذ بك من شر نفسي**»؛ المراد بها النفس الأمارة بالسوء.

وقوله: «**ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها**»؛ الدابة: كل ما يدب على الأرض، حتى الذي يمشي على بطنه داخل في هذا؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ [النور: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

وقوله: «**أنت آخذ بناصيتها**»؛ أي: مقدم الرأس، وإنما نص على الناصية؛ لأنه هو المقدم، وهو الذي يمسك به لقيادة البعير وشبهه، وقيل: خص ذلك؛ لأن المخ الذي فيه التصور والتلقي يكون في مقدمة الرأس، والعلم عند الله تعالى.

وقوله: «**أنت الأول؛ فليس قبلك شيء**»؛ هذا تفسير من النبي ﷺ لقوله: «**الأول**»، والأول من أسماء الله جل جلاله.

وقد ورد أن أهل الفلسفة يسمون الله تعالى: القديم، والمعلوم أن القديم ليس من

أسـماء الله الحسـنى، وأنه لا يجوز أن يسـمى به، لكن يجوز أن يخبر به عنه، وباب الخبر أوسـع من باب التسـمية؛ لأن القديم ليس من الأسـماء الحسـنى، والقديم فيه نقص؛ لأن القدم قد يكون قدمـًا نسـبيـًا؛ قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ [يس: ٣٩]، والعرجون القديم حادث، لكنه قديم بالنسبة لما بعده.

وقوله: «**وأنت الظاهر؛ فليس فوقك شيء**»؛ الظاهر من الظهور، وهو العلو؛ كما قال الله تعالى: ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٧]؛ ﴿يَظْهَرُوهُ﴾؛ أي: يعلو عليه.

وأما من قال: أن الظاهر؛ بمعنى الظاهر بآياته؛ فهذا خطأ؛ لأنه لا أحد أعلم بتفسير كلام الله جل وعلا من رسول الله ﷺ، وقد قال: «**الظاهر؛ فليس فوقك شيء**»؛ بل هو فوق كل شيء سبحانه.

وقوله: «**وأنت الباطن؛ فليس دونك شيء**»؛ المعنى: ليس دون الله تعالى شيء، لا أحد يدبر دون الله، ولا أحد ينفرد بشيء دون الله، ولا أحد يخفى على الله؛ كل شيء فالله سبحانه وتعالى محيط به؛ ولهذا قال ﷺ: «**ليس دونك شيء**»؛ يعني: لا يحول دونك شيء، ولا يمنع دونك شيء، ولا ينفع ذا الجد منك الجد... وهكذا.

وقوله: «**اقض عني الدين**»؛ الدين: هو ما يستحق على الإنسان من مال أو حق.

وقوله: «**واغنني من الفقر**»؛ الفقر: خلو ذات اليد، ولا شك أن الفقر فيه إيلام للنفس، والدين فيه ذل؛ والمدين ذليل للدائن، والفقير معوز، ربما يجره الفقر إلى أمر محرم.

إذاً فقول الرسول ﷺ: «**أغنني من الفقر**»؛ سأل النبي ﷺ ربه أن يغنيه من الفقر؛ لأن الفقر له آفات عظيمة.

* * *

المسألة (التاسعة والستون):
فِي عِزَّةِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا

فيها إثبات العزة لله سبحانه وتعالى، وذكر أهل العلم أن العزة تنقسم إلى ثلاثة أقسام: عزة القدر، وعزة القهر، وعزة الامتناع.

فعزة القدر: هي أن الله تعالى ذو قدر عزيز؛ يعني: لا نظير له.

وعزة القهر: هي عزة الغلبة؛ يعني: أنه غالب كل شيء، قاهر كل شيء، ومنه قوله تعالى - فيما حكاه عن المتخاصمين الَّذَيْنِ بغى أحدهما على الآخر، بسؤال نعجته إلى نعاجه، حينما طلبا من داود عليه السلام أن يحكم بينهما -: ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣]؛ يعني: غلبني في الخطاب وقهرني لقوة ملكه.

وعزة الامتناع: وهي أن الله تعالى يمتنع أن يناله سوء أو نقص، فهو مأخوذ من القوة والصلابة، ومنه قولهم: أرض عزاز، يعني قوية شديدة.

هذه معاني العزة التي أثبتها الله تعالى لنفسه، وهي تدل على كمال قهره وسلطانه، وعلى كمال صفاته، وعلى تمام تنزهه عن النقص.

ومما دل على كمال عزة الله عز وجل؛ قول الله تعالى عن إبليس قوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]؛ الباء هنا للقسم، لكنه اختار القسم بالعزة دون غيرها من الصفات؛ لأن المقام مقام مغالبة، فكأنه قال: بعزتك التي تغلب بها من سواك لأغوين هؤلاء وأسيطر عليهم - يعني: بني آدم - حتى يخرجوا من الرشد إلى الغي.

ويستثنى من هذا عباد الله المخلصون، فإن إبليس لا يستطيع أن يغويهم، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٤].

قوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾؛ هو الذي له العزة التامة، والقوة الكاملة، فلا يعجزه شيء، القاهر لكل شيء فلا يمتنع من قوته شيء، المنيع الذي لا ينال ولا يغالب.

فـ «العزة» تتضمن القوة، ولله القوة جميعـًا، والعز ضد الذل، والذل أصله الضعف والعجز، فالعز يقتضـي كمال القدرة، ولهذا يوصـف به المؤمن، ولا يكون ذمـًا له، بخلاف الكبر.

قال رجل للحسـن البصـري رَحِمَهُ اللَّهُ: إنك متكبر، فقال: «لسـت بمتكبر، ولكني عزيز».

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «العزيز الذي يقهر ولا يقهر، فإن العزة التي لله تعالى هي الدائمة الباقية، وهي العزة الحقيقية الممدوحة، وقد تستعار العزة للحمية والأنفة، فيوصـف بها الكافر والفاسـق، وهي صـفة مذمومة، ومنه قوله -تعالى-: ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]، وأما قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]؛ فمعناه: من كان يريد أن يعز، فليكتسب العزة من الله تعالى، فإنها لا تنال إلا بطاعته، ومن ثم أثبتها لرسوله وللمؤمنين، فقال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾ [المنافقون: ٨]، وقد ترد العزة بمعنى الصـعوبة، كقوله -تعالى-: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وبمعنى الغلبة ومنه: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣]، وبمعنى القلة: كقولهم: شـاة عزوز، إذا قل لبنها، وبمعنى الامتناع، ومنه قولهم: أرض عزاز، بفتح أوله مخففـًا».

وقوله: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾؛ هو الذي يضـع الأشـياء مواضـعها التي يحسـن أن توضـع فيها، ولا يدخل تدبيره خلل ولا زلل.

وهذه من أسـمائه -تعالى- الحسـنى التي كثر ذكرها في القرآن، وما جاء عن رسول الله ﷺ.

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الصافات: ١٨٠].

قوله: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ﴾؛ التسـبيح هو: التنزيه لله تعالى عن إضـافة ما ليس من صفاته إليه، والتبري من ذلك، وهو تنزيهه- تعالى- عما لا يليق بعظمته.

والتسبيح مأخوذ من السبح، وهو الإبعاد والسرعة في السير، يقال: فرس سبوح، إذا كانت تسـرع في السـبح، الذي هو السـير والجري، ومنه قوله -تعالى-: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا﴾ [النازعات: ٣]؛ فسـرت بالخيل، وبالسـفن، وبالنجوم، وكلها

تسبح وتبعد في سبحها.

وقوله: ﴿رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ﴾؛ أي: ذي العزة وصاحبها، فـ﴿رَبِّ﴾ هنا بمعنى ذي وصاحب، والعزة صفته، فهو من إضافة الموصوف إلى الصفة، وأخذ اسمه تعالى «العزيز» منها.

وقوله: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ أي: تنزيهاً وتقديساً لذي العزة التي لا ترام، عن الذي يصفه به المشركون، من أن له صاحبة أو ولداً، أو شريكاً، أو ولياً من الذل، أو أن أحداً يشفع عنده بدون إذنه، أو أن أحداً يتصرف في ملكه بدون إرادته ومشيئته.

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ أي: لله القوة والغلبة والقهر؛ والعزة من صفات ذاته -تعالى- التي لا تنفك عنه، بعزته قهر بها كل شيء، وكل عزة حصلت لخلقه فهي منه، وكل من كان إليه أقرب وله أطوع كانت عزته أتم وأكمل من غيره.

وسبب نزول هذه الآية الكريمة[1]؛ قول رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول الذي ذكره الله تعالى عنه: ﴿لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]؛ يقصد بالأعز: نفسه وذويه، وبالأذل: رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم.

وقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ»[2].

قوله: «**أعوذ بعزتك**»؛ أعوذ: هو الالتجاء والاعتصام، وحقيقته: الهرب من المخوف إلى المجير العاصم، فالعائذ بالله تعالى قد هرب مما يخافه ويؤذيه أو يهلكه، إلى ربه ومالكه العزيز الذي لا يغالب، يعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويجير

---

(١) رواه البخاري برقم (٣٥١٨)، ومسلم برقم (٢٥٨٤).

(٢) رواه البخاري برقم (٧٣٨٣)، ومسلم برقم (٢٧١٧).

من احتمى به.

وعزة الله تعالى صفته؛ فالنبي ﷺ - وهو أعلم الخلق بالله وأتقاهم له - يتعوذ بصفاته تعالى؛ لأن ذلك من عبادة الله جل وعلا، بل هو من أفضلها، امتثالاً لقوله -تعالى-: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾.

وقوله: «**الذي لا إله إلا أنت**»؛ أي: أنت الإله الحق، الذي تجب عبادته على عباده، وكل تأله لغيره فهو ضلال، يوجب الشقاء الأبدي، والخلود في النار.

وقوله: «**الذي لا يموت**»؛ أي: أنت يا إلهي الحي القيوم، الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، لا مبدأ لوجودك ولا منتهى لبقائك، وأنت الغني بذاتك عن كل ما سواك، والخلق كلهم فقراء إليك، وكانوا عدماً قبل إيجادك إياهم، وهم عرضة للأمراض والآفات والتغيرات والفناء، وأنت يا رب الباقي وحدك، والخلق كلهم يموتون، فلا رب سواك يتصرف بالخلق كيف يشاء، ويغير ولا يتغير -جل وعلا-.

وقوله: «**والجن والإنس يموتون**»؛ المقصود بذكر الجن والإنس جنس الخلق؛ والمعنى: أن الخلق كلهم يموتون، ولا يبقى إلا الحي القيوم، كما قال الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧].

وسمى الجن جناً لاستتارهم عن أعين الناس، من الاجتنان، كما قال الله تعالى: ﴿يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وأما الإنس فسموا بذلك لأن بعضهم يأنس ببعض غالباً، أو أنهم يرون ويأنسون؛ أي: يحس بهم ويشاهدون.

وذكر الجن والإنس لا ينفي عن الملائكة الموت؛ لأن هذا خاص قصد به الجن والإنس، أو على ما تقدم ذكر الجنس، والمقصود عموم الخلق، وقد جاء ما يدل على هلاك عموم الخلق؛ قال الله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨].

* * *

المسألة (السبعون):
في المَحَبَّةِ والرِّضَى لله عَزَّ وجَلّ

قوله: «**المحبة**»؛ هي صفة لله جل وعلا من جملة الصفات التي يتصف الله تعالى بها، وهي صفة فعلية.

ومحبته – سبحانه وتعالى – لمن شاء من عباده هذه موافقة لأمره ونهيه، فإنه جل وعلا ﴿ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ ﴾، و﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾، و﴿ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾، و﴿يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾، و﴿يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾، و﴿يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾، وهؤلاء هم الذين امتثلوا أمره واجتنبوا نهيه، فالمشركون ليس لهم من محبة الله عز وجل نصيب.

ويقول أهل العلم: إن محبة الله جل وعلا تتفاضل؛ فيحب بعض الناس أعظم من محبته للبعض الآخر، ومحبة الله جل وعلا لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بل وللنبي محمد ﷺ أعظم من محبته لسائر خلقه، ولذلك جعل الله تعالى إبراهيم خليلاً، وكذلك جعل محمداً ﷺ خليلاً؛ والخلة أعلى المحبة.

وقوله: «**الرضى**»؛ هي صفة لله جل وعلا قائمة به يرضى متى شاء كيف شاء – تبارك وتعالى –، وهي صفة فعلية، والفرق بينها وبين المحبة؛ أن الرضا يقتضي حصول المغفرة ويختص بالأعمال، فإذا رضي الله عن عبد من عباده، فإن ذلك يقتضي مغفرة ما مضى منه، وقد يقتضي مغفرة المستقبل وهذا هو الرضى الأكبر الذي لا سخط بعده، فالرضى قسمان: فالأول: رضًا يختص بالماضي، ويقتضي مغفرته، والثاني: رضًا يعم المستقبل وهو الرضى الأكبر الذي لا سخط بعده، وهو ما حل على أهل بدر حتى قال الله لهم: «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[1]، ومثله: ما حل على أهل الشجرة الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحتها، فقال الله فيهم: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفتح:١٨]، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل النار أحد

---

(١) رواه البخاري برقم (٣٠٠٧)، ومسلم برقم (٢٤٩٤).

ممن بايع تحت الشجرة»[1].

قال الله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

قوله: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْ﴾؛ الإحسان قد يكون واجبًا، وقد يكون مستحبًا مندوبًا إليه، فما كان يتوقف عليه أداء الواجب فهو واجب، وما كان زائداً على ذلك فهو مستحب، وبناء على ذلك؛ فقوله: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْ﴾؛ فعل أمر مستعمل في الواجب والمستحب.

والإحسان يكون في عبادة الله تعالى، ويكون في معاملة الخلق، فالإحسان في عبادة الله عز وجل فسره النبي ﷺ حين سأله جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ[2]، فقال: ما الإحسان؟ قال ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه»، وهذا أكمل من الذي بعده؛ لأن الذي يعبد الله تعالى كأنه يراه عبادة طلب ورغبة، «فإن لم تكن تراه، فإنه يراك»؛ أي: فإن لم تصل إلى هذه الحال، فاعلم أنه يراك والذي يعبد الله جل وعلا على هذه المرتبة يعبده عبادة خوف وهرب، لأنه يخاف ممن يراه.

وأما الإحسان بالنسبة لمعاملة الخلق؛ فقيل في تفسيره: بذل الندى، وكف الأذى، وطلاقة الوجه؛ بذل الندى: أي: المعروف، سواء كان ماليًا أو بدنيًا أم جاهيًا، وكف الأذى: أن لا تؤذي الناس بقولك ولا بفعلك، وطلاقة الوجه: أن لا تكون عبوسًا عند الناس، لكن أحيانًا الإنسان يغضب ويعبس، فنقول: هذا لسبب، وقد يكون من الإحسان إذا كان سببًا لصلاح الحال.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ هذا تعليل للأمر، فهذا ثواب المحسن، أن الله سبحانه يحبه، ومحبة الله تعالى مرتبة عالية عظيمة، ومحبة الله عز وجل لتشترى بالدنيا كلها، وهي أعلى من أن تحب الله جل وعلا، فكون الله تعالى يحبك أعلى من أن تحبه أنت، ولهذا قال الله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

---

(١) رواه أبو داود برقم (٤٦٥٣)، والترمذي برقم (٣٨٥٩)، وصححه الألباني؛ انظر «صحيح الجامع» برقم (٧٦٨٠).

(٢) رواه البخاري برقم (٥٠)، ومسلم برقم (٩).

ولهذا قال بعض العلماء: الشأن كل الشأن في أن الله تعالى يحبك لا أنك تحب الله سبحانه.

كل يدّعي أنه يحب الله عز وجل، لكن الشأن في الذي في السماء عز وجل، هل يحبك أم لا؟، إذا أحبك الله عز وجل، أحبتك الملائكة في السماء، ثم يوضع لك القبول في الأرض، فيحبك أهل الأرض، ويقبلونك، ويقبلون ما جاء منك، وهذه من عاجل بشرى المؤمن.

وقال الله جل وعلا: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

قوله: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ﴾؛ أي: اعدلوا، وهذا واجب، فالعدل واجب في كل ما تجب فيه التسوية، يدخل في ذلك العدل في معاملة الله عز وجل؛ ينعم الله تعالى عليك بالنعم، فمن العدل أن تقوم بشكره؛ يبين الله لك الحق، فمن العدل أن تتبع هذا الحق.

ويدخل في ذلك العدل في معاملات الخلق؛ أن تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به، ولهذا قال النبي ﷺ: «من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس ما يجب أن يؤتى إليه»(١).

وهنا يجب أن ننبه على أن من الناس من يستعمل بدل العدل: المساواة!، وهذا خطأ، لا يقال: مساواة؛ لأن المساواة قد تقتضي التسوية بين شيئين الحكمة تقتضي التفريق بينهما.

لكن إذا قلنا بالعدل؛ وهو إعطاء كل أحد ما يستحقه، زال هذا المحذور، وصارت العبارة سليمة.

ولهذا، لم يأتِ في القرآن أبداً: إن الله تعالى يأمر بالتسوية! لكن جاء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النحل: ٩٠]، ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

وأخطأ على الإسلام من قال: إن دين الإسلام دين المساواة!، بل دين الإسلام دين العدل، وهو الجمع بين المتساويين، والتفريق بين المفترقين، إلا أن يريد بالمساواة: العدل، فيكون أصاب في المعنى وأخطأ في اللفظ.

---

(١) رواه مسلم برقم (١٨٤٤).

ولهذا كان أكثر ما جاء في القرآن نفي المساواة، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقال عز وجل: ﴿هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ [الرعد: ١٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ [الحديد: ١٠]، وقال جل وعلا: ﴿لَّا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٩٥].

وقوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾؛ أي: يحب العادلين المنصفين الذين ينصفون الناس، ويعطونهم الحقّ والعدل من أنفسهم، والذين إن رأوا ظلماً أزالوه وأحلوا محله العدل، قال النبيّ ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور»[1].

وقال الله عز وجل: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧].

قوله: ﴿**فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا**﴾، قال الله تعالى قبلها: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾؛ أي: مهما استقام لكم المعاهدون الذين عاهدتم عند المسجد الحرام بالوفاء بالعهد، فاستقيموا لهم في ذلك.

وهذه الجملة الشرطية تقتضي بمنطوقها، أنهم إذا استقاموا لنا، وجب أن نستقيم لهم، وأن نوفي بعهدهم، وتدل بمفهومها على أنهم إذا لم يستقيموا، لا نستقيم لهم.

والمعاهدون ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

قسم استقاموا على عهدهم وأمناهم، فيجب علينا أن نستقيم لهم، لقوله تعالى: ﴿**فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ**﴾.

وقسم خانوا ونقضوا العهد، فهؤلاء لا عهد لهم، لقوله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَا

---

(١) رواه مسلم برقم (١٨٢٧).

أَيْمَٰنَ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ١٢].

وقسم ثالث يظهرون الاستقامة لنا، لكننا نخاف من خيانتهم؛ بمعنى أنه توجد قرائن تدل على أنهم يريدون الخيانة، فهؤلاء قال الله تعالى فيهم: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٥٨]؛ أي: انبذ إليهم عهدهم، فقل: لا عهد بيننا وبينكم.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾؛ المتقون هم الذين اتخذوا وقاية من عذاب الله سبحانه بفعل أوامره واجتناب نواهيه، هذا من أحسن وأجمع ما يقال في تعريف التقوى.

وقيل: التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك ما نهى عنه الله على نور من الله تخشي عقاب الله .

وقد قيل: إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل أبي بن كعب رضي الله عنه عن التقوى ؟، فقال له: أما سلكت طريقاً ذا شوك؟ قال: بلى، قال: فما عملت ؟، قال: شمرت واجتهدت، قال: فذلك التقوى.

وقد أخذ هذا المعنى ابن المعتز رحمه الله فقال:

خَلِّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا ... وَكَبِيرَهَا ذَاكَ التُّقَى
وَاصْنَعْ كَمَاشٍ فَوْقَ أَرْ ... ضِ الشَّوْكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى
لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً ... إِنَّ الْجِبَال مِنَ الحَصَى

والله تعالى يحب المتقين.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

قال الله تعالى قبلها: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ ﴾؛ التواب: صيغة مبالغة من التوبة، وهو كثير الرجوع إلى الله عز وجل، والتوبة هي الرجوع إلى الله تعالى من معصيته إلى طاعته.

وشروطها خمسة:

الأول: الإخلاص لله تعالى بأن يكون الحامل له على التوبة مخافة الله جل وعلا

ورجاء ثوابه.

والثاني: الندم على ما فعل من الذنب، وعلامة ذلك أن يتمنى أنه لم يقع منه.

والثالث: الإقلاع عن الذنب، بتركه إن كان محرمـًا، أو تداركه إن كان واجبـًا يمكن تداركه.

والرابع: العزم على أن لا يعود إليه.

والخامس: أن تكون في وقت تقبل فيه التوبة؛ وهو ما كان قبل حضور الموت وطلوع الشمس من مغربها، فإن كانت بعد حضور الموت أو بعد طلوع الشمس من مغربها، لم تقبل.

ومعلوم أن كثرة التوبة تستلزم كثرة الذنب، ومن هنا نفهم بأن الإنسان مهما كثر ذنبه، إذا أحدث لكل ذنب توبة، فإن الله تعالى يحبه، والتائب مرة واحدة من ذنب واحد محبوب إلى الله عز وجل من باب أولى؛ لأن من كثرت ذنوبه وكثرت توبته يحبه الله عز وجل، فمن قَلَّتْ ذنوبه، كانت محبة الله سبحانه له بالتوبة من باب أولى.

وقوله: ﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾؛ الذين يتطهرون من الأحداث ومن الأنجاس في أبدانهم وما يجب تطهيره.

وهنا جمع بين طهارة الظاهر وطهارة الباطن؛ طهارة الباطن بقوله: ﴿ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾، والظاهر بقوله: ﴿ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾؛ والله عز وجل يحبهم جميعـًا.

وقال الله جل وعلا: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

تُسمى هذه الآية: آية المحنة؛ يعني الامتحان؛ لأن قومـًا ادعوا أنهم يحبون الله تعالى، فأمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يقول لهم: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾، وهذا تحدٍ لكل من ادعى محبة الله سبحانه، أن يقال له: إن كنت صادقـًا في محبة الله تعالى، فاتبع الرسول ﷺ، فمن أحدث في دين رسول الله ﷺ ما ليس منه، وقال: إنني أحب الله ورسوله بما أحدثته، قلنا له: هذا كذب؛ لو كانت محبتك صادقة لاتبعت الرسول ﷺ، ولم تتقدم بين يديه بإدخال شيء في شريعته ليس من دينه، فكل من كان أتبع لرسول الله ﷺ، كان لله أحب.

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ:

تَعْصِـي الإِلَـهَ وَأَنـتَ تُظْهِرُ حَبَّـهُ ... هَـذَا لَعَمْرِي فِي القِيَاسِ بَدِيْعُ
لَـوْ كُـنْـتَ تُظْهِـرُ حُبَّـهُ لأَطَعْتَـهُ ... إِنَّ المُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيْعُ

وقوله: ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد: لهم ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ حقيقة ﴿فَٱتَّبِعُونِى ﴾؛ فإن ما جئت به هو من عند الله تعالى، والمحب المخلص الصادق، حريص على إرضاء المحبوب، وامتثال أمره واجتناب نهيه، فإن اتبعتموني ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ ويوفقكم للخير ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وأكد هذا بقوله بعدها: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران:٣٢].

وقال الله جل جلاله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: ٥٤].

قوله: ﴿فَسَوْفَ﴾ الفاء واقعة في جواب الشرط في قوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾؛ أي: إذا ارتددتم عن دين الله تعالى فإن ذلك لا يضر الله عز وجل شيئًا، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾، وهذا كقوله جل وعلا: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم ﴾ [محمد: ٣٨].

فكل من ارتد عن دين الله تعالى، فإن الله عز وجل لا يعبأ به؛ لأنه تعالى غني عنه، بل يزيله ويأتي بخير منه، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ﴾ بدل منهم ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾، وإذا كانوا يحبون الله تعالى ويحبهم الله سبحانه فسوف يقومون بطاعته.

وتمام الآية قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾؛ أما مع المؤمنين أذلة، يخفضون أجنحتهم للمؤمنين، ويلينون لهم، وأما مع الكفار أعزة أقوياء، لا يظهرون الذل أمام الكافر أبداً.

وأيضاً من الآية قوله: ﴿يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾؛ يجاهدون في سبيل الله تعالى كل من قام ضد دين الله تعالى من كافر وفاسق وملحد ومارق يجاهدونه، وكل إنسان يقابلونه من السلاح بما يليق به، فمن قاتلهم بالحديد والنار، قاتلوه بالحديد والنار، ومن قاتلهم بالجدال والخصام الكلامي، جادلوه بمثل ذلك،

فهم يجاهدون في الله جل جلاله بكل نوع من أنواع الجهاد.

وأيضـــًا قولـه: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾؛ لا يخـافون نقد الناس عليهم، يقولون الحق ولو كان على أنفسهم.

لكنهم يستعملون الحكمة في هذا الجهاد، ويرومون الوصول إلى الغاية، فإذا رأوا أن الدعوة تسـتوجب التأخر في بعض الأمور تأخروا، وإذا رأوا أن الدعوة تقتضـي اللين في بعض الأحوال استعملوه؛ لأنهم يريدون الوصول إلى غاية معينة، والوسيلة حسب ما تقتضيه الحال.

ثم قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

وقـال الله تعـالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف: ٤].

هذه الآية بدأها الله تعالى بالثناء على المقاتلين في سـبيله، ثم دعا إلى الجهاد في آخرها، ثم ذكر بين ذلك أن الله سيظهر دينه على كل الأديان ولو كره المشركون.

فقولـه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا ﴾؛ لا يتقدم أحد على أحد ولا يتأخر، حتى في الجهاد.

وكان الرسـول ﷺ يصـفهم في الجهاد كما يَصُـفّهم في الصـلاة؛ ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ﴾ والبنيان كما قال الرسـول ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشـد بعضـه بعضـًا»(١)، يتماسك بعضه ببعض؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾، فليس كالمُفَرّق، فالمرصوص أشد تماسكـًا.

فهؤلاء الذين علق الله عز وجل المحبة لهم بأعمالهم لهم عدة صفات:

أولاً: ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾؛ فلا يركنون إلى الخلود والخمول والكسل والجمود الذي يضعف الدين والدنيا.

ثانيـًا: الإخلاص؛ لقوله: ﴿فِى سَبِيلِهِۦ﴾.

ثالثـًا: يشد بعضهم بعضـًا؛ لقوله: ﴿صَفًّا﴾.

---

(١) رواه البخاري برقم (٤٨١)، ومسلم برقم (٢٥٨٥).

رابعـًا: ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ﴾؛ والبنيان حصن منيع.

خامسـًا: لا يتخللهم ما يمزقهم؛ لقوله: ﴿مَّرْصُوصٌ﴾.

هذه خمس صفات علق الله جل ذكره المحبة لهؤلاء عليها.

وقال الله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٤].

قولـه: ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ يعني ذا المغفرة، والمغفرة سـتر الـذنب والعفو عنه فليسـت المغفرة سـتر الذنب فقط بل سـتره وعدم المؤاخذة عليه كما جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله يخلو بعبده المؤمن يوم القيامة، ويقرره بذنوبه، حتى يُقِر بها ويعترف، فيقول الله عز وجل: قد سـترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»[1]، ونُقل: أن بني إسـرائيل كانوا إذا أذنب الواحد منهم ذنبـًا وجده مكتوبـًا على باب بيته فضـيحة وعاراً، لكننا نحن – ولله الحمد – قد ستر الله علينا، فعلينا أن نتوب إلى الله ونستغفره من الـذنـب فتمحى آثـاره، ولهـذا قـال: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾؛ أي: السـاتر لـذنوب عباده المتجاوز عنها.

وقوله: ﴿ٱلْوَدُودُ﴾؛ مأخوذة من الود، والود هو خالص المحبة، فهو – جل وعلا – ودود، ومعنى ودود أنه محبوب وأنه حابّ، فهو يشـمل الوجهين جميعـًا، قال الله تبـارك وتـعـالـى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المـائـدة: ٥٤]؛ فـهـو – جـل وعـلا – وادّ يحـب الأعمـال، ويحـب الأشـخاص، ويحب الأمكنة، وهو كذلك أيضـًا محبوب يحبه أولياؤه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فكلما كان الإنسـان أتبع لرسـول الله ﷺ كـان أحـب إلى الله تعـالى، ومحبة الله عز وجل التي تتعلق بشـخص معين؛ كقولـه ﷺ في يوم خيبر: «لأعطين الرايـة غـداً رجلاً يحـب الله ورسـوله، ويحبه الله ورسـوله»، فبات الناس، ثم غدوا إلى رسـول الله ﷺ كلهم يرجوا أن يُعطاها، فقال: «أين علي بن أبي طالب»؟ قالوا: يشـتكي عينيه، فدعا به، فأتى فبصـق في عينه، فبرأ كأن لم يكن به وجع في الحال، ثم أعطاه الراية، وقال ﷺ: «انفذ على رسـلك حتى

(١) رواه البخاري برقم (٢٤٤١)، ومسلم برقم (٢٧٦٨).

تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام»[١]؛ الشاهد منه قوله: «يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله»؛ فهنا أثبت أن الله تعالى يحب يشخصاً بعينه وهو علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وأيضاً: لما بعث النبي ﷺ سرية صار يقرأ لهم إمامهم في الصلاة ويختم القراءة بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فلما رجعوا إلى النبي ﷺ أخبروه بذلك، لأن عمله هذا وهو أنه يختم القراءة بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ غير معروف عندهم، فقال ﷺ: «سلوه لأي شيء كان يصنع ذلك؟»، فسألوه؟، فقال: إنها صفة الله وأنا أحب أن أقرأها؛ فقال النبي ﷺ: «أخبروه إن الله يحبه»[٢]؛ فهنا المحبة علقت بشخص معين يحبه الله تعالى، وقد تكون محبة الله جل جلاله تتعلق بمعينين لهم أوصاف؛ مثل قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ و﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾، هذه المحبة ليست في شخص معين، لكن في شخص موصوف بصفة، كذلك يحب الله سبحانه وتعالى الأماكن؛ قال ﷺ: «أحب البقاع إلى الله مساجدها»[٣]، هذه المحبة متعلقة بالأماكن فالله تعالى يحب ويَحب، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾.

وقال الله عز وجل: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ﴾؛ الاتخاذ منبئ عن الاصطفاء.

وقوله: ﴿إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾؛ الخليل هو من كان في أعلى المحبة، فالخلة أعلى أنواع المحبة؛ لأن الخليل في اللغة هو الذي وصل حبه إلى سويداء القلب وتخلل مجاري عروقه، وليس فوق الخلة شيء من أنواع المحبة أبداً.

فالنبي ﷺ يحب أصحابه كلهم، لكن ما اتخذ واحداً منهم خليلاً أبداً، قال النبي ﷺ وهو يخطب الناس: «لو كنت متخذاً خليلاً من أمتي لاتخذت أبا بكر»[٤]؛ إذاً أبو

---

(١) رواه البخاري برقم (٣٠٠٩)، ومسلم برقم (٢٤٠٦).
(٢) رواه البخاري برقم (٧٣٧٥)، ومسلم برقم (٨١٣).
(٣) رواه مسلم برقم (٦٧١).
(٤) رواه مسلم برقم (٢٣٨٣).

بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو أحب الناس إليه، لكن لم يصل إلى درجة الخلة؛ لأن الرسول ﷺ لم يتخذ أحداً خليلاً، لكن أخوة الإسلام ومودته، وأما الخلة فهي بينه وبين ربه سبحانه وتعالى، قال النبي ﷺ: «إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً»(١).

والخلة لا نعلم أنها ثبتت لأحد من البشر إلا لاثنين، هما إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

وهذه الخلة صفة من صفات الله عز وجل؛ لأنها أعلى أنواع المحبة، وهي توقيفية، فلا يجوز أن نثبت لأحد من البشر أنه خليل إلا بدليل، حتى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، إلا هذين الرسولين الكريمين عليهما الصلاة والسلام، فهما خليلان لله عز وجل.

وقال الله عز وجل: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المائدة: ١١٩].

قوله: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾؛ أي: رضي الله عن جميعهم لما أطاعوه وأجابوا نبيه إلى ما دعاهم إليه من أمره ونهيه، ورضي عنه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان لما أجزل لهم من الثواب على طاعتهم إياه وإيمانهم به وبنبيه ﷺ وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار يدخلونها خالدين فيها لابثين فيها أبداً.

والرضى صفة ثابتة لله عز وجل، وهي في نفسه، وليست شيئاً منفصلاً عنه كما يدعيه أهل التعطيل.

وأن رضى الله تعالى متعلق بالعمل وبالعامل، قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾ [الزمر: ٧]؛ أي: يرض الشكر لكم، وقال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣]، وقال النبي ﷺ: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويكره لكم ثلاثاً»(٢).

وهي صفة حقيقية، متعلقة بمشيئته، فهي من الصفات الفعلية، يرضى عن المؤمنين، وعن المتقين، وعن المقسطين وعن الشاكرين، ولا يرضى عن القوم

---

(١) رواه مسلم برقم (٥٣٢).

(٢) رواه مسلم برقم (١٧١٥).

الكافرين، ولا يرضى عن القوم الفاسقين، ولا يرضى عن المنافقين، فهو سبحانه وتعالى يرضى عن أناس ولا يرضى عن أناس، ويرضى أعمالاً ويكره أعمالاً.

ووصف الله تعالى بالرضى ثابت بالدليل السمعي، كما سبق، وبالدليل العقلي، فإن كونه عز وجل يثيب الطائعين ويجزيهم على أعمالهم وطاعاتهم يدل على الرضى.

فإن قيل: الإستدلال بالمثوبة على رضى الله عز وجل قد ينازع فيه؛ لأن الله سبحانه قد يعطي الفاسق من النعم أكثر مما يعطي الشاكر، وهذا إيراد قوي.

ولكن الجواب عنه أن يقال: إعطاؤه الفاسق المقيم على معصيته استدراج، وليس عن رضى؛ كما قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۞ وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [الأعراف: ١٨٢-١٨٣]، وقال النبي ﷺ: «إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه، لم يفلته»، وتلا قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۞ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٤-٤٥].

وقوله: ﴿وَرَضُواْ عَنْهُ﴾؛ الرضى صفة في الإنسان غريزية، والغرائز لا يمكن لإنسان أن يفسرها بأجلى وأوضح من لفظها.

* * *

(١) سورة هود: ١٠٢، والحديث رواه البخاري برقم (٤٦٨٦).

المسألة (الحادية والسبعون):
في صِفَةِ الضَّحِكِ والفَرَحِ لله جَلَّ جَلَالُهُ

جاء في غير ما نص بألفاظ مختلفة إثبات صفة الضحك وصفة الفرح لله تبارك وتعالى، وهذا يدل على أن إثباتهما متعين ولا يجوز تأويلهما بأي صفة أخرى.

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَضْحَكُ اللهُ إِلَى رَجُلَيْنِ؛ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ؛ كِلَاهُمَا يَدْخُلُ الجَنَّة»[(١)].

الحديث يخبر فيه النبي ﷺ أن الله سبحانه وتعالى له صفة الضحك؛ فقال: «**يضحك الله إلى رجلين**»؛ ويكون هذا بساحة القتال عند ملاقاتهما، فـ«**يقتل أحدهما الآخر؛ كلاهما يدخلان الجنة**»؛ لأن أحدهما كان مسلماً، والآخر كان كافراً، فقتله الكافر، فيكون هذا المسلم شهيداً، فيدخل الجنة، ثم مَنَّ الله تعالى على هذا الكافر، فأسلم، ثم قتل شهيداً، أو مات بدون قتل؛ فإنه يدخل الجنة، فيكون هذا القاتل والمقتول كلاهما يدخل الجنة، فيضحك الله جل جلاله إليهما.

وقوله: «**يضحك الله**»؛ فيه إثبات الضحك لله عز وجل، وهو ضحك حقيقي، لكنه لا يماثل ضحك المخلوقين؛ ضحك يليق بجلاله وعظمته، ولا يمكن أن نمثله؛ لأننا لا يجوز أن نقول: إن لله عز وجل فماً أو أسناناً أو ما أشبه ذلك، لكن نثبت الضحك لله جل وعلا على وجه يليق به سبحانه وتعالى.

فإذا قال قائل: يلزم من إثبات الضحك أن يكون الله تعالى مماثلاً للمخلوق؟!.

فالجواب: لا يلزم أن يكون مماثلا للمخلوقين؛ لأن الذي قال: «**يضحك**»؛ هو الذي أنزل عليه قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

---

(١) رواه البخاري برقم (٢٨٢٦)، ومسلم برقم (١٨٩٠).

ومن جهة أخرى؛ فالنبي ﷺ لا يتكلم في مثل هذا إلا عن وحي؛ لأنه من أمور الغيب، ليس من الأمور الاجتهادية التي قد يجتهد فيها الرسول ﷺ، ثم يقره الله تعالى على ذلك أو لا يقره، ولكنه من الأمور الغيبية التي يتلقاها الرسول ﷺ عن طريق الوحي.

ولو قال قائل: المراد بالضحك الرضى؛ لأن الإنسان إذا رضي عن الشيء؛ سُرَّ به وضحك، والمراد بالرضى الثواب أو إرادة الثواب؛ كما قال ذلك أهل التعطيل؟!.

فالجواب أن نقول: هذا تحريف للكلم عن مواضعه؛ فما الذي أدراكم أن المراد بالرضى الثواب؟!.

فأنتم الآن قلتم على الله تعالى ما لا تعلمون من وجهين:

الأول: صرفتم النص عن ظاهره بلا علم.

والثاني: أثبتم له معنى خلاف الظاهر بلا علم.

ثم نقول لهم: الإرادة؛ إذا قلتم: إنها ثابتة لله عز وجل؛ فإنه تنتقض قاعدتكم؛ لأن للإنسان إرادة؛ كما قال الله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]؛ فللإنسان إرادة، بل للجدار إرادة؛ كما قال الله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧]؛ فأنتم إما أن تنفوا الإرادة عن الله عز وجل كما نفيتم ما نفيتم من الصفات، وإما أن تثبتوا لله عز وجل ما أثبته لنفسه، وإن كان للمخلوق نظيره في الاسم لا في الحقيقة.

وقال النَّبِيُّ ﷺ: «للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ إِذَا اسْتَيْقَظَ عَلَى بَعِيرِهِ، قَدْ أَضَلَّهُ بِأَرْضِ فَلَاةٍ»[(١)].

هذا الحديث له قصة؛ وهي أن رجلاً كان معه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فضلت عنه، فذهب يطلبها، فلم يجدها، فأيس من الحياة، ثم اضطجع تحت شجرة ينتظر الموت؛ فإذا بخطام ناقته متعلقا بالشجرة، ولا أحد يستطيع أن يقدر هذا الفرح؛ إلا من وقع فيه، فأمسك بخطام الناقة، وقال: اللهم أنت عبدي، وأنا ربك؛ أخطأ من شدة الفرح؛ لم يملك كيف يتصرف في

(١) رواه البخاري برقم (٦٣٠٩)، ومسلم برقم (٢٧٤٧) واللفظ له.

الكلام.

فالله عز وجل أفرح بتوبة عبده إذا تاب إليه من هذا الرجل براحلته، وليس الله عز وجل بمحتاج إلى توبتنا، بل نحن مفتقرون إليه في كل أحوالنا لكن لكرمه جل وعلا ومحبته للإحسان والفضل والجود يفرح هذا الفرح الذي لا نظير له بتوبة الإنسان إذا تاب إليه.

وقوله: «**لله أشد فرحاً**»؛ فيه إثبات صفة الفرح لله عز وجل؛ فنقول في هذا الفرح: إنه فرح حقيقي، وأشد فرح، ولكنه ليس كفرح المخلوقين.

فالفرح بالنسبة للإنسان هو نشوة وخفة يجدها الإنسان من نفسه عند حصول ما يسره، ولهذا تشعر بأنك إذا فرحت بالشيء كأنك تمشي على الهواء، لكن بالنسبة لله عز وجل لا نفسر الفرح بمثل ما نعرفه من أنفسنا؛ نقول: هو فرح يليق به عز وجل؛ مثل بقية الصفات؛ كما أننا نقول: لله ذات، ولكن لا تماثل ذواتنا؛ فله صفات لا تماثل صفاتنا؛ لأن الكلام عن الصفات فرع عن الكلام في الذات.

فنؤمن بأن الله تعالى له صفة الفرح كما أثبت ذلك أعلم الخلق به محمد ﷺ، وأنصح الخلق للخلق، وأفصح الخلق فيما ينطق به ﷺ.

ولا نقول: إن المراد بالفرح الثواب؛ لأن أهل التحريف يقولون: إن الله لا يفرح، ويقولون: إن المراد بفرحه: إثباته التائب، أو: إرادة الثواب، وكل هذا صحيحاً، بل المراد الفرح حقيقة، والله عز وجل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

وقوله: «**إذا استيقظ على بعيره**»، وفي لفظ آخر: «إذا سقط على بعيره»، وقد جاء في رواية أخرى: أن رسول الله ﷺ قال - حاكياً ما قاله الرجل عندما فقد راحلته-: «فأرجع إلى المكان الذى كنت فيه، فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلته»، وأيضاً في رواية أخرى: «فنام نومة فرفع رأسه فإذا راحلته عنده»، وهذا يقوي رواية: «إذا استيقظ»، والله أعلم .

وقوله: «قد أضله بأرض فلاة»؛ أي: فَقَدَهُ؛ والمعنى: أنه لم يجده بموضعه.

***

المسألة (الثانية والسبعون): فِي الصِّفَاتِ المَنْفِيَّة فِي تَنْزِيْهِ الله تَعَالَى ونَفْي المِثْل عَنْهُ

صفات الله عز وجل ثبوتية وسلبية؛ أي: منفية؛ لأن الكمال لا يتحقق إلا بالإثبات والنفي؛ إثبات الكمالات، ونفي النقائص.

والصفات الثبوتية كثيرة جداً ويُعرّفها أهل العلم: بأنها كل ما أثبته الله تعالى لنفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ؛ أذكر منها: العلم، والحياة، والعزة، والقدرة، والحكمة، والكبرياء، والقوة، والاستواء، والنزول، والمجيء، ... وغيرها، وهي صفات مدح وكمال، فكلما كثرت وتنوعت دلالتها ظهر من كمال الموصوف بها ما هو أكثر، ولهذا كانت الصفات الثبوتية التي أخبر الله تعالى بها عن نفسه أكثر بكثير من الصفات السلبية .

والصفات المنفية أو السلبية يُعرّفها أهل العلم: بأنها كل ما نفاه الله سبحانه وتعالى عن نفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ، وهي كلها صفات نقص في حقه؛ فنفاها الله عز وجل عن نفسه؛ أذكر منها: النوم، والموت، والجهل، والنسيان، والعجز، والتعب، والظلم ...، فيجب علينا نفيها عن الله عز وجل مع إثبات أن الله جل جلاله موصوف بكمال ضدها.

وهنا سبعة أمور مهمة؛ الأمر الأول: أن معرفة الله تعالى ليست بمعرفة الصفات السلبية، بل الأصل فيها معرفة الصفات الثبوتية، والسلبية تابعة ومقصودها تكميل الصفات الثبوتية، فإن الصفات السلبية لا تراد لذاتها، وإنما يقصد بها ما تتضمنه من إثبات الكمال، فكل ما نفاه الله تعالى عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ من صفات النقص، فإنه متضمن للمدح والثناء على الله تعالى بضد ذلك النقص من الأوصاف الحميدة والأفعال الرشيدة .

والأمر الثاني: أن صفات التنزيه يجمعها معنيان؛ المعنى الأول: نفي النقائص عن الله تعالى، وذلك من لوازم إثبات صفات الكمال، والمعنى الثاني: إثبات أن الله تعالى ليس كمثله شيء في صفات الكمال الثابتة له .

والأمر الثالث: الصفات السلبية تذكر غالباً في الأحوال التالية؛ بيان عموم كماله،

كما في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، ونفي ما ادعاه في حقه الكاذبون، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا * تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا * وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨ – ٩٢]، ودفع توهم نقص من كماله فيما يتعلق بهذا الأمر المعين، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦].

والأمر الرابع: أن الصفات السلبية إنما تكون كمالاً إذا تضمنت أموراً وجودية؛ فلا يوصف الله تعالى من الأمور السلبية إلا بما يتضمن أموراً وجودية، وإلا فالعدم المحض لا كمال فيه؛ فينبغي أن يعلم أن النفي ليس فيه مدح ولا كمال إلا إذا تضمن إثباتـًا، وإلا فمجرد النفي ليس فيه مدح ولا كمال، والعدم المحض ليس بشيء، وما ليس بشيء فهو كما قيل ليس بشيء فضلاً.

عن أن يكون مدحـًا وكمالاً، لأن النفي المحض يوصف به المعدوم والممتنع؛ والمعدوم والممتنع لا يوصف بمدح ولا كمال.

ولهذا كان عامة ما يصف الله به نفسه من النفي متضمنـًا لإثبات مدح، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾، فنفي السنة والنوم يتضمن كمال الحياة والقيام، وكذلك من نفس الآية قوله عز وجل: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥]؛ أي: لا يثقله، وذلك مستلزم لكمال قدرته وتمامها؛ بخلاف المخلوق القادر إذا كان يقدر على الشيء بنوع كلفة ومشقة، فإن هذا نقص في قدرته وعيب في قوته، وكذلك قوله: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣]؛ فإن نفي العزوب مستلزم لعلمه بكل ذرة في السموات والأرض، وكذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]؛ فإن نفي مس اللغوب -الذي هو التعب والإعياء- دل على كمال قدرته ونهاية القوة بخلاف المخلوق الذي يلحقه من التعب والكلال ما يلحقه، وكذلك قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]؛ إنما نفى الإدراك الذي هو الإحاطة كما قاله أكثر العلماء، ولم ينف مجرد الرؤية، لأن المعدوم لا

يرى، وليس في كونه لا يرى مدح، إذ لو كان كذلك لكان المعدوم ممدوحاً، وإنما المدح في كونه لا يحاط به وإن رؤي، كما أنه لا يحاط به وإن علم، فكما أنه إذا علم لا يحاط به علماً، فكذلك إذا رؤي لا يحاط به رؤية، فكان في نفي الإدراك من إثبات عظمته ما يكون مدحاً وصفة كمال، وكان ذلك دليلاً على إثبات الرؤية مع عدم الإحاطة، وهذا هو الحق الذي اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها.

ثم إن النفي المجرد مع كونه لا مدح فيه، فيه إساءة أدب مع الله سبحانه، فإنك لو قلت لسلطان: أنت لست بزبال ولا كسَّاح ولا حجام ولا حائك لأدبك على هذا الوصف وإن كنت صادقاً، وإنما تكون مادحاً إذا أجملت النفي فقلت: أنت لست مثل أحد من رعيتك، أنت أعلى منهم وأشرف وأجل، فإن أجملت في النفي أجملت في الأدب .

فأهل الكلام المذموم يأتون بالنفي المفصل والإثبات المجمل فيقولون: ليس بجسم ولا شبح ولا جثة ولا صورة ولا لحم ولا دم ولا شخص ولا جوهر ولا عرض إلى آخر تلك السلوب الكثيرة التي ترفضها الأسماع وتأنف من ذكرها النفوس والتي تتنافى مع تقدير الله تعالى حق قدره .

والأمر الخامس: أن الرسل عليهم السلام جاءوا بإثبات مفصل ونفي مجمل، والمعطلة ناقضوهم فجاءوا بنفي مفصل وإثبات مجمل؛ فإن الرسل أخبرت كما أخبر الله تعالى في كتابه الذي بعث به رسوله أنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه حكيم عزيز، غفور ودود، وأنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش، وأنه كلم موسى تكليماً، وتجلى للجبل فجعله دكاً، وأنه أنزل على عبده الكتاب، إلى غير ذلك من أسمائه وصفاته، وقال عز وجل في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾، وهؤلاء المعطلة جاءوا بنفي مفصل وإثبات مجمل، فقالوا في النفي: لا يقرب من شيء ولا يقرب منه شيء، ولا يُرى في الدنيا ولا في الآخرة، ولا له كلام يقوم به، ولا له حياة، ولا علم، ولا قدرة، ولا غير ذلك، ولا يشار إليه ولا يتعين، ولا هو مباين للعالم ولا حال فيه، ولا داخله، ولا خارجه، إلى أمثال العبارات السلبية التي لا تنطبق إلا على المعدوم، ثم قالوا في الإثبات هو وجود مطلق، أو وجود مقيد بالأمور السلبية .

وبذلك عكسوا منهج القرآن والسنة، فأكثروا من وصف الله تعالى بالأمور السلبية التي لم يرد بها النص، وأفرطوا في ذلك إفراطـًا عجيبـًا، بينما أنكر بعضهم جميع الصفات الثبوتية، والبعض الآخر لم يثبت سوى القليل منها.

والأمر السادس: للتفريق بين الصفات السلبية التي ورد بها النص والصفات السلبية التي أحدثها المعطلة نقول: إن الصفات السلبية التي ورد بها النص متضمنة لثبوت كمال الضد كما تقدم شرح ذلك، وأما الصفات السلبية التي هي من نسج المعطلة واختراعهم فلا تتضمن ثبوت كمال الضد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «كل تنزيه مدح فيه الرب ففيه إثبات، فلهذا كان قول: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ متضمنـًا تنزيه الرب وتعظيمه، ففيها تنزيهه من العيوب والنقائص، وفيها تعظيمه سبحانه وتعالى».

فالذين لا يصفون الله تعالى إلا بالصفات السلبية لم يثبتوا في الحقيقة إلهـًا محموداً، بل ولا موجوداً.

وكذلك من شاركهم في بعض ذلك، كالذين قالوا: لا يتكلم، ولا يُرى، أو ليس فوق العالم، أو لم يستو على العرش، ويقولون: ليس بداخل العالم ولا خارجه ولا مباين للعالم ولا مجانب له، إذ هذه الصفات يمكن أن يوصف بها المعدوم، وليس هي صفة مستلزمة صفة ثبوت، فقولهم: إنه لا يتكلم، أو لا ينزل، ليس في ذلك صفة مدح، بل هذه الصفات فيها تشبيه له بالمنقوصات أو المعدومات.

والأمر السابع: إن سلب النقائص والعيوب عن الله جل جلاله نوعان: النوع الأول: سلبٌ لمتصل؛ وضابطه: نفي كل ما يناقض صفة من صفات الكمال التي وصف الله تعالى بها نفسه أو وصفه بها رسوله ﷺ، كنفي الموت المنافي للحياة، والعجز المنافي للقدرة، والسنة والنوم المنافي لكمال القيومية، والظلم المنافي للعدل، والإكراه المنافي للاختيار، والذل المنافي للعزة...» الخ، والنوع الثاني: سلبٌ لمنفصل؛ وضابطه: تنزيه الله سبحانه عن أن يشاركه أحد من خلقه في شيء من خصائصه التي لا تنبغي إلا له، وذلك كنفي الشريك له في ربوبيته، فإنه منفرد بتمام الملك والقوة والتدبير، وكنفي الشريك له في أُلوهيته، فهو وحده الذي يجب أن يؤلهه الخلق ويفردوه بكل أنواع العبادة والتعظيم، وكنفي الشريك له في أسمائه الحسنى وصفاته العليا فليس لغيره من المخلوقين شركة معه سبحانه في شيء منها، وكذلك نفي الظهير الذي يظاهره أو يعاونه في خلق شيء أو تدبيره، لكمال قدرته

وسعة علمه ونفوذ مشيئته، وغيره من المخلوقين عاجز فقير لا حول له ولا قوة إلا بالله تبارك وتعالى، فالشريك والظهير منفيان عنه بإطلاق، وكذلك ينفى عنه سبحانه اتخاذ الصاحبة والولد الذي نسبه إليه النصارى عابدو الصلبان، والصابئة الذين يقولون إن الملائكة بنات الله تعالى عما يقولون علواً كبيراً، قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ﴾ [الإسراء: ١١١].

قال الله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٦٥].

قوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾؛ فذكر سبحانه وتعالى الربوبية: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾، وفرّع على ذلك وجوب عبادته؛ لأن كل من أقر بالربوبية، لزمه الإقرار بالعبودية والألوهية، وإلا صار متناقضاً.

فقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾؛ أي: تذلل له محبة وتعظيماً، والعبادة يراد بها المتعبد به، ويراد بها التعبد الذي هو فعل العبد.

وقوله: ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾؛ الصبر: حبس النفس، وكلمة «اصطبر» أبلغ من «اصبر»؛ لأنها تدل على معاناة؛ فالمعنى: اصبر وإن شق عليك ذلك، واثبت ثبات القرين لقرينه في القتال.

وقوله: ﴿لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾؛ قيل: إن اللام بمعنى «على»؛ أي: اصطبر عليها، كما قال الله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه: ١٣٢]، وقيل: بل اللام على أصلها؛ أي: اصطبر لها؛ أي: كن مقابلاً لها بالصبر، كما يقابل القرين قرينه في ميدان القتال.

وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾؛ هنا الشاهد، والاستفهام للنفي، وإذا كان الاستفهام بمعنى النفي، كان مشرباً معنى التحدي؛ يعني: إن كنت صادقاً، فأخبرنا: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾؟؛ و«السمي» هو الشبيه والنظير؛ يعني: هل تعلم له مسامياً أو نظيراً

يستحق مثل اسمه؟، الجواب: لا؛ فإذا كان كذلك، فالواجب أن تعبده وحده.

وقال الله جل ذكره: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٣-٤].

قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾؛ هذا نفي، وقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾؛ يعني: لم يخرج منه ولد فيرثه في ملكه، وقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾؛ يعني: لم يخرج من شيء فيكون هو وارثًا له، بل هو جل وعلا المستحق للملك بذاته، لم يحتج جل وعلا إلى غيره سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

وهذا النفي في صفات الله تعالى لا يكون مدحًا إلا إذا اقتضى إثباتَ الصفة، وهذه الصفة التي تثبت هي ضد الصفة المذكور نفيها، وهنا نفيت عن الله جل وعلا صفتان، صفة أنه يلد وصفة أنه يولد، وهاتان الصفتان هي في المخلوق من صفات النقص لا من صفات الكمال، لأن المخلوق يحتاج في إيجاده إلى أن يُحمَلَ به، ويحتاج هو إلى أن يلد حتى يبقى، فإذن كونه ولد وكونه يولد، هذا من صفات النقص فيه، لأنها دليل على عدم استغنائه، ودليل على حاجته، ودليل على فقره، دليل على ضعفه، وهذا منتفٍ عن الله سبحانه وتعالى .

فهذا النفي يراد به إثبات كمال ضده، وكمال ضد هذا النفي هو كمال غنى الله جل وعلا، وكمال صفاته .

وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾؛ المقصود نفي المماثلة؛ فالكفو هو: المثيل والنظير والشبيه؛ يعني: لم يكن له نداً، لم يكن له نظيراً، لم يكن له مثيلاً، لم يكن له سميًا .

وقوله: ﴿أَحَدٌۢ﴾؛ أي: فلا أحد يكافئه ولا يماثله، لا في ذاته جل وعلا، ولا في صفاته، ولا في أسمائه، فإنه لا مثيل له ولا نظير ولا مكافئ - تبارك ربنا وتقدس وتعاظم -.

ففيها نفي صفة سلبية عن الله عز وجل، وذلك لكمال صفاته، فلا أحد يكافئه، لا في علمه، ولا سمعه، ولا بصره، ولا قدرته، ولا عزته، ولا حكمته، ولا غير ذلك من

صفاته سبحانه وتعالى.

وقال الله عز وجل: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

قبل هذا الجزء من الآية؛ قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾، وكل هذا من توحيد الربوبية، ثم قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾؛ يعني: في الألوهية؛ لأن أولئك القوم المخاطبين لم يجعلوا لله أنداداً في الربوبية، إذاً فلا تجعلوا لله أنداداً في الألوهية كما أنكم تقرون أنه ليس له أنداداً في الربوبية.

وقوله: ﴿أَندَادًا﴾؛ جمع ند، وند الشيء ما كان منادًا - أي: مكافئًا - له ومشابهًا، وما زال الناس يقولون: هذا ند لهذا؛ أي: مقابل له ومكافئ له.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: يا رسول الله، أي الذنب أعظم عند الله؟ قال صلى الله عليه وسلم: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك»[(١)].

وقال الله جل جلاله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

قوله: ﴿وَمِنَ﴾؛ تبعيضية، والميزان لـ«من» التبعيضية أن يحل محلها: بعض؛ يعني: وبعض الناس.

وقوله: ﴿مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾، يتخذهم أنداداً؛ يعني: في المحبة، كما فسره بقوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾، ويجوز أن نقول: إن المراد بالأنداد ما هو أعم من المحبة؛ يعني: أنداداً يعبدونهم كما يعبدون الله تعالى، وينذرون لهم كما ينذرون لله عز وجل؛ لأنهم يحبون هذه الأنداد كحب الله عز وجل.

وهذا إشراك في المحبة، بحيث تجعل غير الله مثل الله في محبته.

---

(١) رواه البخاري برقم (٤٤٧٧)، ومسلم برقم (٨٦).

وينطبق ذلك على من أحب رسول الله كحب الله جل جلاله؛ لأنه يجب أن تحب رسول الله ﷺ محبة ليست كمحبة الله تعالى؛ لأنك إنما تحب الرسول ﷺ تبعاً لمحبة الله عز وجل، لا على أنه مناد لله تعالى، فكيف بمن يحبون الرسول ﷺ أكثر مما يحبون الله تبارك وتعالى؟!.

وهنا يجب أن نعرف الفرق بين المحبة مع الله والمحبة لله:

المحبة مع الله تعالى: أن تجعل غير الله مثله في محبته أو أكثر؛ وهذا شرك.

والمحبة في الله أو لله: هي أن تحب الشيء تبعاً لمحبة الله عز وجل.

والشاهد هو قوله: ﴿أَندَادًا﴾، ففيها نفي المثلاء والنظراء، لإثبات وحدانيته سبحانه وتعالى، وأنه المستحق وحده للعبادة.

وقال الله سبحانه: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسراء: ١١١].

قوله: ﴿وَقُلِ﴾؛ الخطاب في مثل هذا: إما خاص بالرسول ﷺ، أو عام لكل من يصح توجيه الخطاب إليه؛ فإن كان خاصاً بالرسول ﷺ، فهو خاص به بالقصد الأول، وأمته تبع له، وإن كان عاماً، فهو يشمل الرسول ﷺ وغيره بالقصد الأول.

وقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ الحمد هو الوصف بالجميل مع المحبة والتعظيم.

وقوله: ﴿لِلَّهِ﴾؛ اللام هنا للاستحقاق والاختصاص؛ للاستحقاق؛ لأن الله تعالى يحمد وهو أهل للحمد، والاختصاص؛ لأن الحمد الذي يحمد الله تعالى به ليس كالحمد الذي يحمد به غيره، بل هو أكمل وأعظم وأعم وأشمل.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾؛ لكمال صفاته وكمال غناه عن غيره؛ ولأنه لا مثيل له، فلو اتخذ ولداً، لكان الولد مثله، لو كان له ولد، لكان محتاجاً إلى الولد يساعده ويعينه، لو كان له ولد، لكان ناقصاً؛ لأنه إذا شابهه أحد من خلقه، فهو نقص.

وقوله ﴿وَلَدًا﴾؛ يشمل الذكر والأنثى ففيه رد على اليهود والنصارى والمشركين؛ فاليهود قالوا: لله ولد، وهو عزير، والنصارى قالوا: لله ولد، وهو المسيح،

والمشركون قالوا: لله ولد، وهم الملائكة.

وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾؛ هذا معطوف على قوله: ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾؛ يعني: والذي لم يكن له شريك في الملك، لا في الخلق، ولا في الملك، ولا في التدبير.

كل ما سوى الله جل جلاله، فهو مخلوق لله تعالى، مملوك له، يدبره كما يشاء، ولم يشاركه أحد في ذلك، كما قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ على سبيل التعيين، ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ على سبيل الشيوع، ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾، لم يعاونه أحد في هذه السماوات والأرض، ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢-٢٣]، وبهذا تقطعت جميع الأسباب التي يتعلق بها المشركون في آلهتهم.

فالآلهة هذه لا تملك من السماوات والأرض شيئًا معينًا، وليست شريكة لله سبحانه وتعالى، ولا معينة، ولا شفاعة إلا بإذنه، يقول الله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾.

وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾؛ لم يكن له ولي، لكنه قيد بقوله: ﴿مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾؛ و«من» هنا للتعليل؛ لأن الله تعالى له أولياء: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣]، وقال الله تعالى في الحديث القدسي: «من عادى لي وليـًا، فقد آذنته بالحرب»[1]، ولكن الولي المنفي هو الولي من الذل؛ لأن الله تعالى له العزة جميعـًا، فلا يلحقه الذل بوجه من الوجوه، لكمال عزته.

والشاهد هو كل النفي السابق؛ فقوله: ﴿ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾، فهذا نفي، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾، فهذا نفي، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ فهذا نفي، وقد ذُكِرَ في الشرح ما تضمنه هذا النفي من إثبات لصفات الله تعالى.

وقوله: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾؛ يعني: كبر الله عز وجل تكبيراً، بلسانك وجنانك؛ فاعتقد

---

(١) رواه البخاري برقم (٦٥٠٢).

في قلبك أن الله أكبر من كل شيء، وأن له الكبرياء في السماوات والأرض، وكذلك بلسانك تكبره، تقول: الله أكبر.

وكان من هدي النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم أنهم يكبرون كلما علوا نشراً؛ أي: مرتفعًا، وهذا في السفر؛ لأن الإنسان إذا علا في مكانه، قد يشعر في قلبه أنه مُسْتَعْلٍ على غيره، فيقول: الله أكبر؛ من أجل أن يخفف تلك العلياء التي شعر بها حين علاً وارتفع، وكانوا إذا هبطوا، قالوا: سبحان الله؛ لأن النزول سفول، فيقول: سبحان الله؛ أي: أنزهه عن السفول الذي أنا الآن فيه.

وقال الله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١].

قوله: ﴿يُسَبِّحُ﴾؛ أي: ينزه عن كل صفة نقص وعيب.

وقوله: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ عام يشمل كل شيء، لكن التسبيح نوعان: تسبيح بلسان المقال، وتسبيح بلسان الحال:

أما التسبيح بلسان الحال؛ فهو عام: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]؛ يعني: أن حال كل شيء في السماوات والأرض تدل على تنزيه الله سبحانه وتعالى عن العبث وعن النقص، حتى الكافر إذا تأملت حاله، وجدتها تدل على تنزه الله تعالى عن النقص والعيب.

وأما التسبيح بلسان المقال؛ يعني: أن يقول: سبحان الله، فهو عام كذلك، لكن يخرج منه الكافر، فإن الكافر لم يسبح الله تعالى بلسانه، ولهذا يقول تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣]، ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٩]؛ فهم لم يسبحوا الله تعالى؛ لأنهم أشركوا به ووصفوه بما لا يليق به.

وقوله: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ أي: أن الملك كله لله تعالى، فلا يخرج مخلوق عن ملكه، والحمد كله له، على ما له من صفات الكمال، وعلى

ما أوجده من الأشياء، وعلى ما شرعه من الأحكام، وأسداه من النعم، وقدرته شاملة، لا يخرج عنها موجود، فلا يعجزه شيء يريده.

هذه الصفات الأخيرة صفات ثبوتية، لكن ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ صفة تنزيهه عما لا يليق به سبحانه وتعالى، وهي الشاهد.

وقال الله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤].

قوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾؛ أي: لا تجعلوا لله مثلاً، فتقولون: مثل الله كمثل كذا وكذا، أو تجعلوا له شريكاً في العبادة.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: أنه سبحانه وتعالى يعلم بأنه ليس له مثل، وقد أخبركم بأنه لا مثل له، في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾، وما أشبه ذلك، فالله يعلم وأنتم لا تعلمون.

وقد يقال: إن هذه الجملة تتضمن الدليل الواضح على أن الله جل وعلا ليس له مثل، وأنها كضرب المثل في امتناع المثل؛ لأننا نحن لا نعلم والله يعلم، فإذا انتفى العلم عنا وثبت لله فأين المماثلة؟!، هل يماثل الجاهل من كان عالماً؟!.

ويدلك على نقص علمنا: أن الإنسان لا يعلم ما يفعله في اليوم التالي؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان: ٣٤]، وأن الإنسان لا يعلم روحه التي بين جنبيه؛ وقال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥].

وما زال الفلاسفة والمتفلسفة وغيرهم يبحثون عن حقيقة هذه الروح، ولم يصلوا إلى حقيقتها، مع أنها هي مادة الحياة، وهذا يدل على نقصان العلم في المخلوق، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

فهذه الآية تتضمن كمال صفات الله عز وجل، حيث إنه لا مثيل له؛ ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

قوله: ﴿قُلْ﴾، الخطاب للنبي ﷺ؛ أي: قل معلنا للناس.

وقوله: ﴿إِنَّمَا﴾؛ أداة حصر، وذلك لمقابلة تحريم من حرم ما أحل الله تعالى.

وقوله: ﴿حَرَّمَ﴾؛ أي: منع.

وقوله: ﴿الْفَوَاحِشَ﴾، جمع فاحشة؛ وهي الذنب الذي يستفحش؛ مثل: الزنى واللواط؛ قال الله عز وجل فيه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢]، قال لوط عليه السلام لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ [الأعراف: ٨٠].

وقوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾؛ قيل: إن المعنى ما ظهر فحشه وما خفي، وقيل: المعنى ما ظهر للناس وما بطن عنهم، باعتبار فعل الفاعل، لا باعتبار العمل؛ أي: ما أظهره الإنسان للإنسان وما أبطنه.

وقوله: ﴿وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾؛ أي: حرم الإثم والبغي بغير الحق؛ والإثم: المراد به ما يكون سبباً له من المعاصي؛ والبغي: العدوان على الناس، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الشورى: ٤٢].

وقوله: ﴿وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾؛ البغي هو الظلم، وفيه إشارة إلى أن كل بغي فهو بغير حق، وليس المراد أن البغي ينقسم إلى قسمين: بغي بحق، وبغي بغير حق؛ لأن البغي كله بغير حق.

وعلى هذا فيكون الوصف هنا من باب الوصف الكاشف، ويسميها العلماء صفة كاشفة؛ أي: مبينة؛ وهي التي تكون كالتعليل لموصوفها.

وقوله: ﴿وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾، هذه معطوفة على ما سبق؛ أي: وحرم ربي أن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا؛ يعني: أن تجعلوا له شريكًا لم ينزل به سلطانًا؛ أي: حجة، وسميت الحجة سلطانًا؛ لأنها سلطة للمحتج بها.

وهذا القيد: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾، نقول فيه كما قلنا في قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: أنه قيد كاشف؛ لأن كل من أشرك بالله تعالى، فليس له سلطان بشركه.

وقوله: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: وحرم أن تقولوا على الله عز وجل ما لا تعلمون، فحرام علينا أن نقول على الله تعالى ما لا نعلم، سواء كان في ذاته أو أسمائه أو صفاته أو أفعاله أو أحكامه.

* * *

المسألة (الثالثة والسبعون): فِي صِفَاتِ الغَضَبِ والسُّخْطِ وَالكَرَاهِيَةِ والبُغْضِ لله سُبْحَانَهُ وَتَعالَى

من الصفات التي ثبتت لله عز وجل صفة «**الغضب والسخط والكراهية والبغض**»، وهي من الصفات الحقيقية الثابتة لله عز وجل اللائقة بجلاله، لا تماثل صفات المخلوقين، ولا نعرف كيفيتها.

وقد أنكر بعضهم هذه الصفات الثابتة لله عز وجل، وقالوا: إن الله لا يغضب ولا يسخط ولا يكره ولا يبغض، وإن المراد هو الانتقام؛ أو إرادة الانتقام، لأن تلك الصفات صفات المخلوقين، ولا يجوز لنا أن نشبّه الخالق بالمخلوق.

والرد على هذه الدعوى من وجوه: أولاً: أن السخط والغضب غير الانتقام، والانتقام نتيجة الغضب والسخط، كما نقول: إن الثواب نتيجة الرضى، فالله سبحانه وتعالى يسخط على هؤلاء القوم ويغضب عليهم ثم ينتقم منهم.

وإذا قال قائل: إن العقل يمنع ثبوت السخط والغضب لله عز وجل.

فنقول: بل العقل يدل على السخط والغضب، فإن الانتقام من المجرمين وتعذيب الكافرين دليل على السخط والغضب.

ونقول: وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف: ٥٥] يردُّ على المنكر؛ لأنه جعل الانتقام غير الغضب وهو الأسف؛ لأن الشرط غير المشروط.

ثانيًا: قولهم بأن تلك الصفات تشابه صفات المخلوقين قول باطل من وجهين: الوجه الأول: أن الله عز وجل أثبت لنفسه تلك الصفات في كتابه، وهو أعلم بنفسه، وأثبتها أيضًا نبيه محمد ﷺ وأنتم تنفون تلك الصفات وتحرفونها، فهل أنتم أعلم من الله بنفسه، وأعلم من الرسول ﷺ ومن أهل بيته؟!!، والوجه الثاني: أن الغضب والسخط والكراهية والبغض يتفاوت بين المخلوقات في المماثلة والكيفية ولله

المثل الأعلى، فكيف نصف الخالق بصفات المخلوق!!!.

والأمر بيّن لا خفاء فيه لمن وضع الأمور في مواضعها حسب ما جاء في الكتاب والسنة الصحيحة وفق فهم سلف الأمة.

قال الله جل ذكره: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣].

قوله: ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ** ﴾؛ شرطية، و«من» الشرطية تفيد العموم.

وقوله: ﴿**مُؤْمِنًا**﴾؛ هو من آمن بالله ورسوله، فخرج به الكافر والمنافق، لكن من قتل كافراً له عهد أو ذمة أو أمان، فهو آثم، لكن لا يستحق الوعيد المذكور في الآية، وأما المنافق فهو معصوم الدم ظاهراً، ما لم يعلن بنفاقه.

وقوله: ﴿**مُّتَعَمِّدًا** ﴾؛ يدل على إخراج الصغير وغير العاقل؛ لأن هؤلاء ليس لهم قصد معتبر ولا عمد، وعلى إخراج المخطئ.

فالذي ﴿**يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا** ﴾ جزاؤه هذا الجزاء العظيم.

وقوله: ﴿**جَهَنَّمُ**﴾؛ اسم من أسماء النار.

وقوله: ﴿**خَٰلِدًا فِيهَا** ﴾؛ أي: ماكثاً فيها؛ والمراد بالخلود المكث الطويل، وليس المراد به المكث الدائم؛ لأن اللغة العربية يطلق فيها الخلود على المكث الطويل كما يقال: فلان خالد في الحبس، والحبس ليس بدائم، ويقولون: فلان خالد خلود الجبال، ومعلوم أن الجبال ينسفها ربي نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً.

وأيضاً فإن الله عز وجل لم يذكر التأبيد، لم يقل: خالداً فيها أبداً، بل قال: ﴿**خَٰلِدًا فِيهَا** ﴾؛ والمعنى: أنه ماكث مكثاً طويلاً.

وقوله: ﴿**وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ** ﴾؛ الغضب صفة ثابتة لله تعالى على الوجه اللائق به، وهي من صفاته الفعلية.

وقوله: ﴿**وَلَعَنَهُۥ**﴾؛ اللعن هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله تعالى.

فهذه أربعة أنواع من العقوبة، والخامس قوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾.
خمس عقوبات، واحدة منها كافية في الردع والزجر لمن كان له قلب.

وقال الله جل جلاله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ [محمد: ٢٨].

قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ المشار إليه ما سبق هذه الآية؛ وهو قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٢٧-٢٨]؛ يعني: فكيف تكون حالهم في تلك اللحظات إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم عند الموت؟!؛ فـ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: ضرب الوجوه والأدبار.

وقوله: ﴿بِأَنَّهُمُ﴾؛ أي: بسبب، فالباء للسببية.

وقوله: ﴿ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾؛ أي: الذي أسخط الله تعالى، فصاروا يفعلون كل ما به سخط الله عز وجل.

أما ما فيه رضى الله عز وجل، فحالهم فيه قوله: ﴿وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾؛ أي: كرهوا ما فيه رضاه، فصارت عاقبتهم تلك العاقبة الوخيمة، أنهم عند الوفاة تضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم.

ففيها إثبات صفة السخط والكراهية لله جل جلاله على الوجه اللائق به – سبحانه وتعالى – وهما من الصفات الفعلية.

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

قوله: ﴿فَلَمَّآ﴾: هنا شرطية، فعل الشرط فيها: ﴿ءَاسَفُونَا﴾، وجوابه: ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾.

وقوله: ﴿ءَاسَفُونَا﴾؛ يعني: أغضبونا وأسخطونا.

ففيها رد على من فسروا السخط والغضب بالانتقام؛ لأن أهل التعطيل من الأشعرية وغيرهم يقولون: إن المراد بالسخط والغضب، الانتقام أو إرادة الانتقام، ولا يفسرون السخط والغضب بصفة من صفات الله سبحانه يتصف بها هو نفسه.

والصواب أن السخط والغضب غير الانتقام، والانتقام نتيجة الغضب والسخط؛ كما نقول: إن الثواب نتيجة الرضى، فالله سبحانه وتعالى يسخط على هؤلاء القوم ويغضب عليهم ثم ينتقم منهم.

والعقل يدل على إثبات صفة السخط والغضب لله جل وعلا، فإن الانتقام من المجرمين وتعذيب الكافرين دليل على السخط والغضب، وليس دليلاً على الرضى، ولا على انتفاء الغضب والسخط.

وهذه الآية: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾، ترد عليهم؛ لأنه جعل الانتقام غير الغضب؛ لأن الشرط غير المشروط.

فقوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾؛ الأسف في اللغة له معنيان:

الأول: الأسف بمعنى الحزن؛ مثل قول الله تعالى عن يعقوب عليه السلام: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ [يوسف: ٨٤].

والثاني: الأسف بمعنى الغضب؛ فيقال: أسف عليه يأسف؛ بمعنى: غضب عليه.

فالمعنى الأول ممتنع بالنسبة لله عز وجل، والمعنى الثاني مثبت لله عز وجل؛ لأن الله تعالى وصف به نفسه.

وقال الله جل ذكره: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣].

قوله: ﴿كَبُرَ﴾؛ أي: عظم.

وقوله: ﴿مَقْتًا﴾؛ المقت: هو أشد البغض.

وهذه الآية تعليل للآية التي قبلها وبيان لعاقبتها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾؛ فإن هذا

من أكبر الأمور أن يقول الإنسان ما لا يفعل.

ووجه ذلك أن يقال: إذا كنت تقول الشيء ولا تفعله، فأنت بين أمرين: إما كاذب فيما تقول، وإما أنك مستكبر عما تقول، تأمر الناس به ولا تفعله، وتنهى الناس عنه وتفعله.

ففيها إثبات صفة المقت لله جل وعلا.

وقال الله عز وجل: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ﴾ [التوبة: ٤٦].

يعني بذلك المنافقين الذين لم يخرجوا مع النبي ﷺ في الغزوات؛ لأن الله تعالى كره انبعاثهم؛ لأن عملهم غير خالص له، والله تعالى أغنى الشركاء عن الشرك؛ ولأنهم إذا خرجوا، كانوا كما قال الله تعالى: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ﴾ [التوبة: ٤٧]، وإذا كانوا غير مخلصين، وكانوا مفسدين، فإن الله سبحانه وتعالى يكره الفساد ويكره الشرك؛ فـ ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ﴾؛ يعني: جعل هممهم فاترة عن الخروج للجهاد، ﴿وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾.

وفيها إثبات صفة الكراهية لله تبارك وتعالى، والحديث التالي أيضاً فيه تأكيد ما جاء في القرآن الكريم من إثبات هذه الصفة.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ كَرِهَ لَكُمْ: قِيْلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ المَالِ»[1].

قوله: «**إن الله كره**»؛ الكراهة ثابتة بالكتاب والسنة، أن الله تعالى يكره؛ وكراهة الله سبحانه وتعالى للشيء تكون للعمل، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ﴾، وكما في قوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا﴾ [الإسراء: ٣٨].

(١) رواه البخاري برقم (١٤٧٧)، ومسلم برقم (٥٩٣).

وقوله: «**قيل وقال**»؛ أي: الإكثار من الكلام، وحكاية أقوال الغير، ونقل الكلام بقصد النميمة والغيبة، أو بغير قصد؛ قال النبي ﷺ: «كفى بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما سمع»(١).

وقوله: «**وكثرة السؤال**»؛ إما أن يكون من سؤال الناس أموالهم والاستكثار منه، أو سؤال المرء عما نهي عنه من المتشابه الذي تعبدنا بظاهره، أو السؤال من رسول الله ﷺ عن أمور لم يكن لهم بها حاجة.

وقوله: «**إضاعة المال**»؛ أي: بإنفاق المال في غير حقه، كالتبذير وسوء التدبير؛ قال الله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١].

أو أن يتركه من غير حفظ له فيضيع، أو يتركه حتى يفسد.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا أَبْغَضَ عَبْدَاً، نَادَى جِبْرِيْلَ إِنِّي أُبْغِضُ فُلَانـاً، فَأَبْغِضْـهُ، فَيُبْغِضُـهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ، إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ فُلَانـاً فَأَبْغِضُوهُ، فَيُبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوْضَعُ لَهُ البَغْضَاءُ فِي الأَرْضِ»(٢).

الحديث بتمامه هو قوله ﷺ: «إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل، فقال: إني أحب فلانـاً فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء، فيقول: إن الله يحب فلانـاً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبداً دعا جبريل، فيقول: إني أبغض فلانـاً فأبغضه، فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء؛ إن الله يبغض فلانـاً فأبغضوه، فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض».

وفي معناه: قوله ﷺ: «أنتم شهداء الله في الأرض»(٣)، ويشهد لهذا قول الله جل وعلا: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى ﴾ [طه: ٣٩].

وقوله: «**أهل السماء**»؛ هم الملائكة.

---

(١) رواه أبو داود برقم (٤٩٩٤)، وصححه الألباني؛ انظر: «السلسلة الصحيحة» برقم (٢٠٢٥).

(٢) رواه مسلم برقم (٢٦٣٧) كاملاً، ورواه البخاري برقم (٣٢٠٩)؛ مقتصراً على ذكر حب الله للعباد.

(٣) رواه البخاري برقم (١٣٦٧)، ومسلم برقم (٩٤٩).

وقوله: «**الأرض**»؛ أي: يحدث له في قلوب الناس حبًا أو بغضًا؛ وهذا متعلق بالحال ليس بالمآل؛ فيرضى عن العبد ويحبه في حال الإيمان، ويغضب عليه في حال الكفر، ولو ارتد عبد فيجتمع في حقه أنه أحبه في حال الإيمان، وغضب عليه في حال الكفر والردة، وحتى المؤمن يحبه الله تعالى إذا أحسن العمل، ويبغضه إذا أساء العمل.

وقوله: «يوضع له القبول في الأرض»؛ أي: يقبله أهل الإيمان ويميزونه على غيره، فيتولونه.

وقوله: «**توضع له البغضاء في الأرض**»؛ أي: أنه يبغضه الناس، حتى لو أظهروا له مودة، فلا تلبث أن تزول وتظهر البغضاء له.

وقوله: «**وإذا أبغض عبداً دعا جبريل**»؛ فيه إثبات لصفة فعلية وهي البغض، وهي مقابل صفة المحبة.

❋ ❋ ❋

المسألة (الرابعة والسبعون):
فِي صِفَةِ شَدِيْدِ المِحَالِ والمَكْرِ والكَيْدِ وَالاسْتِهْزَاءِ وَالخِدَاعِ لله تَعَالَى

من الصفات التي ثبتت لله تعالى صفة «**شديد المحال، والمكر، والكيد، والاستهزاء، والخداع**»، وإذا آمن بها العبد على ما يليق بذات الله وجلاله وعظمته؛ علم أن لا أحد يستطيع أن يكيد لله أو يمكر به، وعلم أنه سبحانه وتعالى هو خير الماكرين، وعلم أنه لا أحد من خلقه قادر على أن يستهزئ به أو يخدعه.

وأهل السنة والجماعة يثبتون هذه الصفات لله عز وجل كما أثبتها لنفسه، ولا يخوضون في كيفيتها، ولا يشبهونها بالمخلوق؛ فالله جل جلاله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ -رادًّا على من زعم أنَّ في القرآن مجازاً-: «وكذلك ما ادعوا أنه مجاز في القرآن؛ كلفظ: (المَكْر) و(الاستهزاء)، و(السخرية)؛ المضاف إلى الله، وزعموا أنه مسمى باسم ما يقابله على طريق المجاز، وليس كذلك، بل مسميات هذه الأسماء إذا فعلت بمن لا يستحق العقوبة؛ كانت ظلماً له، وأما إذا فعلت بمن فعلها بالمجني عليه عقوبة له بمثل فعله؛ كانت عدلاً؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦]، فكاد له كما كادت إخوته لما قال له أبوه: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۞ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥-١٦]». اهـ.

وقال أيضاً رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهكذا وصف نفسه بالمَكْر والكيد، كما وصف عبده بذلك، فقال: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۞ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾، وليس المَكْر كالمَكْر ولا الكيد كالكيد».

واعلم أن باب الأسماء أقل وأضيق من باب الصفات - هذا فيما نعلم من

الأسـماء التي في الكتاب والسـنة -، فباب الصـفات أوسـع من باب الأسـماء، وهو - أي: باب الصفات - أضيق من باب الأخبار؛ ذلك أن كل اسمٍ فهو يتضمن صـفـةً ولا عكس، فهناك كثيرٌ من الصـفـات لا يصـح أن نشـتق منها لله تعالى أسـماءً وذلك كصـفـة المحال والاسـتهزاء والخداع والمكر والكيد، فلا يصـح أن نقول لله تعالى: (الشـديد، والماكر، والكائد، والمسـتهزء، والمخادع)؛ فهذه الصفات لا يصح أن نسمي الله تعالى بما اشتق منها، وأيضـًا كصفة المجيء يوم القيامة، فلا يصـح أن نقول لله تعالى: (الجائي)، وأيضـًا صـفة النزول إلى السـماء الدنيا، فلا يصح أن نقول لله تعالى: (النازل)، ولذلك قلنا إن باب الصفات أوسع من باب الأسماء؛ وهذا لأن هناك صفاتٍ يجوز إطلاقها على الله تعالى إطلاق وصفٍ لا إطلاق تسمية، وأما باب الأخبار والأفعال فإنه أكبر من باب الأسماء وأكبر من باب الصفات؛ لأن مبناه أصلاً ليس على التوقيف، وإنما مبناه على صحة الخبر وجوازه على الله تعالى، فيجوز أن نخبر عن الله تعالى بما لم يرد في الكتاب والسـنة إذا كان خبرًا صحيحًا يجوز عليه، لكن لا نعتقد أن هذا الخبر من أسمائه ولا من صفاته لعدم الدليل.

قال الله سبحانه: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٣].

والآية بتمامها: ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾.

وقوله: ﴿**وَهُوَ شَدِيدُ**﴾؛ الشدة بمعنى القوة، وهي صفة ذاتية لله عز وجل، تطلق على الله عز وجل بلفظ الإضافة كما وردت؛ ويراد بالشديد المعنى المتعلق بالصفة؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]؛ فيتضح معنى قوله عز وجل: ﴿**وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ**﴾ [إبراهيم: ٧]، وقوله تعالى: ﴿**وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ**﴾.

وقوله: ﴿**ٱلۡمِحَالِ**﴾؛ أي: شديد الأخذ بالعقوبة، وقيل: إن المحال بمعنى المكر؛ أي: شديد المكر، وكأنه على هذا التفسير مأخوذ من الحيلة، وهي أن يتخيل بخصمه

حتى يتوقع به.

وقال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «معناه: شديد الحول»، وقال مجاهد رَحِمَهُٱللَّهُ: «أي شديد القوة».

وقال الله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤].

قوله: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾؛ المكر؛ قال العلماء في تفسيره: إنه التوصل بالأسباب الخفية إلى الإيقاع بالخصم؛ يعني: أن تفعل أسباباً خفية فتوقع بخصمك وهو لا يدري، ولكنها بالنسبة لك معلومة مدبرة.

والمكر يكون في موضع مدحاً، ويكون في موضع ذمّاً؛ فإن كان في مقابلة من يمكر؛ فهو مدح؛ لأنه يقتضي أنك أنت أقوى منه، وإن كان في غير ذلك؛ فهو ذم ويسمى خيانة.

ولهذا لم يصف الله سبحانه نفسه به إلا على سبيل المقابلة والتقييد؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠]، ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ولا يوصف الله سبحانه وتعالى به على الإطلاق؛ فلا يقال: إن الله ماكر، لا على سبيل الخبر، ولا على سبيل التسمية، ولا يقال: إنه كائد، لا على سبيل الخبر، ولا على سبيل التسمية؛ ذلك لأن هذا المعنى يكون مدحاً في حال ويكون ذماً في حال؛ فلا يمكن أن نصف الله جل جلاله به على سبيل الإطلاق.

فأما قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾؛ فهذا كمال؛ ولهذا لم يقل: أمكر الماكرين، بل قال: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾؛ فلا يكون مكره إلا خيراً؛ ولهذا يصح أن نصفه بذلك؛ فنقول: هو خير الماكرين، أو نصفه بصفة المكر في سبيل المقابلة؛ أي: مقابلة من يمكر به، فنقول: إن الله تعالى ماكر بالماكرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ﴾.

وهذه الآية نزلت في عيسى ابن مريم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، مكر به اليهود ليقتلوه، ولكن كان الله

تعالى أعظم منهم مكراً، فرفعه الله عز وجل، وألقى شبهه على أحدهم، على الذي تولى كبره وأراد أن يقتله، فلما دخل عليه هذا الذي يريد القتل، وإذا عيسى عليه السلام قد رفع، فدخل الناس، فقالوا: أنت عيسى؟، قال: لست عيسى، فقالوا: أنت هو؛ لأن الله تعالى ألقى عليه شبهه، فقُتل هذا الرجل الذي كان يريد أن يقتل عيسى ابن مريم عليه السلام؛ فكان مكره عائداً عليه، ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾.

وأيضاً فيما جاء عن قوم صالح عليه السلام، فإنه كان في المدينة التي كان يدعو الناس فيها إلى الله تعالى تسعة رهط-أي: أنفار - ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾؛ يعني: لنقتلنه بالليل، ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾؛ يعني: أنهم إذا قتلوه بالليل؛ فما يشاهدونه، لكن مكروا ومكر الله، قيل: إنهم لما خرجوا ليقتلوه، فلجئوا إلى غار ينتظرون الليل، انطبق عليهم الغار، فهلكوا، وصالح وأهله لم يمسهم سوء، فيقول الله جل وعلا: ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [النمل: ٥٠-٥١].

وقال الله جل وعلا: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ [الطارق: ١٥-١٦].

قوله: ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: كفار مكة، ﴿يَكِيدُونَ﴾ للرسول ﷺ، ﴿كَيْدًا﴾ لا نظير له في التنفير منه ومن دعوته، ولكن الله تعالى يكيد كيداً أعظم وأشد.

وقوله: ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾؛ يعني: كيداً أعظم من كيدهم.

ومن كيدهم ومكرهم ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ [الأنفال: ٣٠]؛ وكان رأي القتل أفضل الآراء عندهم بمشورة من إبليس؛ لأن إبليس جاءهم بصورة شيخ نجدي، وقال لهم: انتخبوا عشرة شبان من عشر قبائل من قريش، وأعطوا كل واحد سيفاً، ثم يعمدون إلى محمد ﷺ، فيقتلونه قتلة رجل واحد، فيضيع دمه في القبائل، فلا تستطيع بنو هاشم أن تقتل واحداً من هؤلاء الشبان، وحينئذ يلجئون إلى الدية، فتسلمون منه،

فقالوا: هذا الرأي، وأجمعوا على ذلك، ولكنهم مكروا مكراً، والله تعالى يمكر خيراً منه؛ قال الله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾؛ فما حصل لهم الذي يريدون، بل إن الرسول ﷺ خرج من بيته يذر التراب على رؤوس العشرة هؤلاء، ويقرأ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩]، فكانوا ينتظرون الرسول ﷺ يخرج، فخرج من بينهم، ولم يشعروا به.

إذن، صار مكر الله عز وجل أعظم من مكرهم؛ لأنه أنجى رسوله منهم وهاجر.

وهكذا يكيد الله عز وجل لكل من انتصر لدينه، فإنه يكيد له ويؤيده، وهذا من فضل الله عز وجل على المرء، أن يقيه شر خصمه على وجه الكيد والمكر على هذا الخصم الذي أراد الإيقاع به.

ويذكر أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما بارز عمرو بن ود -والفائدة من المبارزة أنه إذا غلب أحدهما أنكسرت قلوب خصومه- فلما خرج عمرو، صرخ علي: ما خرجت لأبارز رجلين، فالتفت عمرو، فلما التفت ضربه علي رضي الله عنه على رقبته حتى أطاح برأسه؛ هذا خداع، لكنه جائز، ويحمد عليه؛ لأنه في موضعه؛ فإن هذا الرجل ما خرج ليكرم علي بن أبي طالب رضي الله عنه ويهنئه، ولكنه خرج ليقتله؛ فكاد له علي رضي الله عنه بذلك.

إذن فهذه من صفات الله الفعلية التي لا يوصف بها على سبيل الإطلاق؛ لأنها تكون مدحـًا في حال، وذمـًا في حال؛ فيوصف بها حين تكون مدحـًا، ولا يوصف بها إذا لم تكن مدحـًا.

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۞ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٤-١٥]

قوله: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۞ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾؛ الهزء: السخرية، وصفة الاستهزاء من صفات الله تعالى الفعلية الخبريَّة الثابتة بالكتاب والسنة.

ولا يصح أن نخبر عن الله تعالى بأنه مستهزئ على الإطلاق؛ لأن الاستهزاء هو السخرية، لكن في مقابلة من يستهزئ به يكون كمالاً؛ كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة: ١٤]، قال الله عز وجل: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ [البقرة: ١٥].

وأما الذين زعموا أنَّ قول الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ إنما هو على وجه الجواب، وأنه مجاز في القرآن، وأنه لم يكن من الله استهزاء ولا مكر ولا خديعة !!؛ نقول لهم: إنَّ الله عز وجل أخبرنا: أنه مكر بقوم مضوا قبلنا لم نرهم، وأخبرنا عن آخرين: أنه خسف بهم، وعن آخرين: أنه أغرقهم، فصدقنا الله تعالى فيما ذكره فيما أخبرنا به من ذلك، ولم نفرق بين شيء منه؛ فما برهانكم على تفريقكم ما فرقتم بينه بزعمكم أنه قد أغرق وخسف بمن أخبر أنه أغرقه وخسف به، ولم يمكر بمن أخبر أنه قد مكر به؟!.

فأهل السنة والجماعة يثبتون هذه المعاني لله عز وجل على سبيل الحقيقة.

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٢]

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾؛ الخداعُ صفةٌ من صفات الله عَزَّ وجَلَّ الفعليَّة الخبريَّة الثابتة بالكتاب والسنة، ولكنه لا يوصف بها على سبيل الإطلاق، إنما يوصف بها حين تكون مَدْحًا.

وعلينا إثبات هذه الصفات لله جل جلاله حقيقة على الوجه اللائق به سبحانه كسائر الصفات، وهو سبحانه يجازي العامل بمثل عمله، فمن مكر؛ مكر الله به، ومن خادع؛ خادعه، وهذا قول أهل السنة والجماعة؛ فالزمه؛ تفز بالنجاة والسلامة.

***

المسألة (الخامسة والسبعون):
في غَيْرَةِ اللهِ تَعَالَى

قوله: «**غَيْرة**»؛ الغَيْرة: بفتح الغين وإسكان الياء؛ وهي في اللغة مأخوذة من التغير الحاصل من الأنفة والحمية.

وقال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال العلماء: الغيرة بفتح الغين، وأصلها المنع، والرجل غيور على أهله؛ أي: يمنعهم من التعلق بأجنبي بنظر، أو حديث، أو غيره، والغيرة صفة كمال».

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد فسر الرسول ﷺ غيرة الله في قوله: «إن الله يغار، وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم الله»».

فـ«**غَيْرة الله**»؛ معناها: أن الله جل جلاله يغار إذا انتهكت محارمه، وليس انتهاك المحارم هو غيرة الله عز وجل؛ لأن انتهاك المحارم فعل العبد، ووقوع ذلك من المؤمن أعظم من وقوعه من غيره.

و«**غَيْرة الله تعالى**» من جنس صفاته التي يختص بها، فهي ليست مماثلة لغيرة المخلوق، بل هي صفة تليق بعظمته، مثل الغضب، والرضى، ونحو ذلك من خصائصه التي لا يشاركه الخلق فيها.

وقد تقرر أنه -تعالى- ليس كمثله شيء في ذاته، فكذلك في صفاته، وأفعاله، ولكن لابد من الاشتراك في ألفاظ الأسماء التي تضاف إلى الله جل جلاله صفات له، وبين ألفاظ الأسماء التي يوصف بها العباد؛ لأنه لا يمكن معرفة ما غاب عنا إلا بمعرفة ما شهدناه، فنعتبر بعقولنا الغائب بالشاهد.

فلولا أنا نجد من أنفسنا جوعًا، وعطشًا، وشبعًا، وريًا، وحبًا، وبغضًا، ولذةً، وألمًا، ورضًا، وسخطًا، لم نعرف حقيقة ما نخاطب به إذا وصف لنا وأخبرنا به عن غيرنا.

ولو لم نعلم ما في المشاهد من الحياة، والقدرة، والعلم، والكلام، لم نفهم ما نخاطب به من ذلك في الغائب؛ فلا بد فيما شهدناه، وما غاب عنا، من قدر مشترك، هو مسمى اللفظ.

وقد أخبرنا عن نعيم الآخرة، وعذابها مما يؤكل، ويشرب، ويفرح، ويحزن، وينعم، ويؤلم، فلولا معرفتنا بما يشبه ذلك في الدنيا، لم نفهم ما وعدنا به من ذلك، مع علمنا أن حقائق ما في الآخرة ليست كحقائق ما في الدنيا؛ كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في تفسير قوله -تعالى-: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾؛ قال: «ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء»، ولكن بين ما في الدنيا، وما في الآخرة، مشابهة واشتراك من بعض الوجوه، وبذلك نفهم المراد، فنحب النعيم، ونرغب فيه، ونكره المؤلم، وننفر عنه، فنعرف معنى العسل، واللبن، والحرير، والذهب، ونفرق بينهم؛ لما عرفناه من نظيرها في الشاهد، وإن كانت حقائقها فيما هي عليه لا يعلمها إلا الله تعالى، كما قال الله جل وعلا: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧].

قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَوْ رَأَيْتُ رَجُلاً مَعَ امْرَأَتِي لَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ غَيْرَ مُصْفَحٍ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ: «أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ، وَالله لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَالله أَغْيَرُ مِنِّي، وَمِنْ أَجْلِ غَيْرَةِ الله حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِن الله، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ الْـمُبَشِّرِينَ وَالْـمُنْذِرِينَ، وَلَا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمِدْحَةُ مِن الله، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ وَعَدَ الله الْـجَنَّةَ»[(١)].

وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا شَخْصَ أَغْيَرُ مِنَ الله»[(٢)].

«**سعد بن عبادة**»؛ الأنصاري الخزرجي، سيد الخزرج، صحابي جليل، مات بأرض الشام سنة خمسَ عشرة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أخبر ﷺ أن سعداً غيور، وأنه أغير منه، وأن الله جل وعلا أغير منه، وأنه من أجل ذلك حرم الفواحش، فهذا مقتضى الغيرة، كما يوضحه قوله: «**ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش**»؛ فبين أن تحريم الفواحش، والمنع منها، ليس هو الغيرة، وإنما هو من آثارها.

وقوله: «**لو رأيت رجلاً مع امرأتي، لضربته بالسيف غير مصفح**»؛ أي: لضربته

---

(١) رواه البخاري برقم (٧٤١٦)، ومسلم برقم (١٤٩٩).

(٢) رواها مسلم برقم (١٤٩٩).

بحد السيف لا بصفحه؛ يعني: لقتله بدون توقف، وقد أقره رسول الله ﷺ على ذلك، وأخبر أنه أغير من سعد، وأن الله تعالى أغير منه.

وقوله: «**ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش، ما ظهر منها، وما بطن**»؛ أي: من أثر غيرة الله عز وجل منع عباده من قربان الفواحش؛ وهي: ما عظم وفحش في النفوس الزاكية والعقول السليمة مثل الزنا.

وقوله: «**ما ظهر**»؛ الظاهر: يشمل ما فعل علناً، وما باشرته الجوارح وإن كان سراً.

وقوله: «**ما بطن**»؛ والباطن: يشمل ما في السر، وما انطوت عليه القلوب.

وقوله: «**ولا أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين**»؛ العذر: هو طلب العفو عن فعل سابق مع الاعتراف بالذنب والندم على وقوعه منه، ويراد به الإعذار، وهو إقامة البينات والحجج، وإيضاح طريق الخير والشر، وكلاهما يدخل فيما ذكر، والمبشرون والمنذرون هم الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وقال عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: المعنى: بعث المرسلين للإعذار والإنذار لخلقه، قبل أخذهم بالعقوبة، وهو كقوله -تعالى-: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥]».

وقوله: «**ولا أحد أحب إليه المدحة من الله، ومن أجل ذلك وعد الله الجنة**»؛ هذا لكماله المطلق، فهو -تعالى- يحب من عباده أن يثنوا عليه ويمدحوه على فضله وجوده، ومن أجل ذلك جاد عليهم بكل نعمة يتمتعون بها، ويرضى عنهم إذا حمدوه عليها.

ومهما أثنوا عليه ومدحوه لا يمكن أن يصلوا إلى ما يستحقه من المدح والثناء، ولهذا مدح نفسه، فوعد الجنة ليكثر سؤاله، والثناء عليه من عباده ومدحه، ويجهدوا في ذلك غاية ما يستطيعون؛ لأن الجنة هي منتهى الإنعام.

وقوله: «**لا شخص**» الشخص في اللغة: ما شخص، وارتفع، وظهر.

والشخص هو كل جسم له ارتفاع وظهور.

والله تعالى أظهر من كل شيء، وأعظم، وأكبر، وليس في إطلاق الشخص عليه محذور على أصل أهل السنة الذين يتقيدون بما قاله الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ.

* * *

المسألة (السادسة والسبعون):
فِي أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ السَّمِيْعُ البَصِيْرُ

فيها بيان أن هاتين الصفتين – السمع والبصر – ثابتتان لله جل جلاله بالكتاب والسنة، وإجماع أتباع الرسل، وبالعقل، والفطرة.

وقال القسطلاني رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «إرشاد الساري»: «وقد علم بالضرورة من الدين، وثبت في الكتاب والسنة، بحيث لا يمكن إنكاره ولا تأويله، أن الباري تعالى حي سميع بصير، وانعقد إجماع أهل الأديان، بل جميع العقلاء على ذلك».

والسميع له معنيان أحدهما: بمعنى المجيب، والثاني: بمعنى السامع للصوت.

أما السميع بمعنى المجيب، فمثلوا له بقوله تعالى عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٩]؛ أي: لمجيب الدعاء.

وأما السميع بمعنى إدراك الصوت، فهو على عدة أقسام:

الأول: سمع يراد به بيان عموم إدراك سمع الله عز وجل، وأنه ما من صوت إلا ويسمعه الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١]، فهذا فيه بيان إحاطة سمع الله تعالى بكل مسموع، ولهذا قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، والله إني لفي الحجرة، وإن حديثها ليخفى علي بعضه».

والثاني: سمع يراد به النصر والتأييد، كما في قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

والثالث: سمع يراد به الوعيد والتهديد؛ كقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]؛ فإن هذا يراد به تهديدهم ووعيدهم، حيث كانوا يسرون ما لا يرضى من القول.

والسمع بمعنى إدراك المسموع من الصفات الذاتية، وإن كان المسموع قد يكون حادثـًا.

والسمع بمعنى النصر والتأييد من الصفات الفعلية، لأنه مقرون بسبب.

والسمع بمعنى الإجابة من الصفات الفعلية أيضـًا.

والبصـير؛ أي: المدرك لجميع المبصـرات، ويطلق البصـير بمعنى العليم، فالله سبحانه وتعالى بصير، يرى كل شيء وإن خفي، وهو سبحانه بصير بمعنى: عليم بأفعال عباده، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحجرات: ١٨].

وفيها إثبات صفة الرؤية لله عز وجل وهي من الصفات الفعلية.

والرؤية المضافة إلى الله جل جلاله لها معنيان:

المعنى الأول: العلم، والثاني: رؤية المبصرات؛ يعني: إدراكها بالبصر.

فمن الأول: قوله تعالى عن يوم القيامة: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا * وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا﴾ [المعارج: ٦-٧]، فالرؤية هنا رؤية العلم؛ لأن اليوم ليس جسمـًا يرى، وأيضـًا هو لم يكن بعد؛ فمعنى: ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا﴾؛ أي: نعلمه قريبـًا.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء: ١٣٤].

الآية بتمامها هي قول الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾، ففيها أن مَن كان يريد بعمله عرضـًا من الدنيا ولا يريد به الله عز وجل آتاه الله من عرض الدنيا أو دفع عنه فيها ما أراد الله تعالى، وليس له في الآخرة من ثواب، ومَن أراد بعمله ثواب الآخرة آتاه الله عز وجل من الدنيا ما أحب وجزاه الجنة في الآخرة.

وقوله: ﴿كَانَ﴾ هنا تدل على الدوام والاستمرار الذي يعم جميع الأوقات، ولا تقيد بزمن.

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تفسيره»: «إن الله لم يزل ﴿سَمِيعَۢا﴾ بما تقولون وتنطقون، وهو سميع لذلك منكم إذا حكمتم بين الناس، ولما تحاورونهم به، و﴿بَصِيرٗا﴾ بما

تفعلون فيما ائتمنتم عليه من حقوق رعيتكم وأموالهم، وما تقضون به بينهم من أحكامكم، بعدل تحكمون أو جور، لا يخفى عليه شيء من ذلك، حافظ ذلك كله، حتى يجازي محسنكم بإحسانه، ومسيئكم بإساءته، أو يعفو بفضله».

وقال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١].

قوله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾؛ هم قوم من اليهود قاتلهم الله جل جلاله، فهم وصفوا الله تعالى بالعيب، قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾؛ وسبب قولهم هذا: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، قالوا للرسول ﷺ: يا محمد، إن ربك افتقر، يسأل القرض منا، وإنما قالوا هذا القول تمويهاً للضعفاء منهم ومن المؤمنين لتشكيكهم، وتكذيب النبي ﷺ.

والشاهد في هذه الآية هو قوله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ فيه إثبات صفة السمع لله عز وجل.

وقول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

قوله: ﴿أَمْ﴾؛ أي: بل أيحسبون بجهلهم وظلمهم أنا لا نسمع سرهم ونجواهم.

وقوله: ﴿سِرَّهُمْ﴾؛ السر: ما يسره الإنسان إلى صاحبه.

وقوله: ﴿وَنَجْوَىٰهُم﴾؛ النجوى: ما يناجي به صاحبه ويخاطبه، فهو أعلى من السر.

فمثلاً: إذا كان شخص إلى جانب: وساررته؛ أي: كلمته بكلام لا يسمعه غيره، نسمي هذا مسارة، وإذا كان الحديث بين القوم يسمعونه كلهم ويتجاذبونه، سمي مناجاة.

فهؤلاء يسرون ما يقولونه من المعاصي، ويتناجون بها، فيقول الله عز وجل مهدداً إياهم: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ ﴾.

وقوله: ﴿بَلَىٰ﴾؛ حرف إيجاب؛ أي: بلى نسمع، وزيادة على ذلك: ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾؛ أي: عندهم يكتبون ما يسرون وما به يتناجون، والمراد بالرسل هنا الملائكة الموكلون بكتابة أعمال بني آدم.

ففي هذه الآية إثبات أن الله تعالى يسمع سرهم ونجواهم.

وقال الله سبحانه: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه: ٤٦].

الخطاب لموسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام- يقول الله سبحانه وتعالى لهما: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾؛ أي: أسمع ما تقولان، وأسمع ما يقال لكما، وأراكما، وأرى مَن أرسلتما إليه، وأرى ما تفعلان، وأرى ما يفعل بكما؛ لأنه إما أن يساء إليهما بالقول أو بالفعل، فإن كان بالقول فهو مسموع عند الله سبحانه وتعالى، وإن كان بالفعل، فهو مرئي عند الله عز وجل.

وقال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۞ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ۞ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الشعراء: ٢١٨-٢٢٠].

الرؤية هنا رؤية البصر؛ لأن قوله: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ لا تصح أن تكون بمعنى العلم؛ لأن الله يعلم به حين يقوم وقبل أن يقوم، وأيضاً لقوله عز وجل: ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ وهو يؤيد أن المراد بالرؤية هنا رؤية البصر؛ والمعنى: أن الله تعالى يراه حين يقوم للصلاة وحده وحين يتقلب في الصلاة مع الساجدين في صلاة الجماعة.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: الله تعالى ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۞ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

وفي الآية هنا ضمير الفصل ﴿هُوَ﴾، من فوائده الحصر، والحصر هنا حقيقي؛

لأن المراد بـــ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ هنا: ذو السمع الكامل المدرك لكل مسموع، وهذا هو الخاص بالله عز وجل، والحصر بهذا الاعتبار حقيقي، أما مطلق السمع فقد يكون من الإنسان، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، فجعل الله تعالى الإنسان سميعاً بصيراً، وكذلك ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾، فإن الإنسان عليم، كما قال الله تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]، لكن العلم المطلق - أي: الكامل - خاص بالله سبحانه وتعالى، فالحصر بهذا الاعتبار حقيقي.

وفي هذه الآية الجمع بين السمع والرؤية لله تعالى.

وقال الله سبحانه: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

الذي قبل هذه الآية: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝ **وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ**﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ﴾ يا أيها الرسول، لهؤلاء المنافقين: ﴿ٱعْمَلُوا۟﴾ ما ترون من الأعمال، واستمروا على باطلكم، فلا تحسبوا أن ذلك، سيخفى؛ بل ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا بد أن يتبين عملكم ويتضح، مهما عملتم من خير أو شر، فإن الله مطلع عليكم، وسيطلع رسوله وعباده المؤمنين على أعمالكم ولو كانت باطنة ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر؛ ففي هذا التهديد والوعيد الشديد على من استمر على باطله وطغيانه وغيه وعصيانه.

وقال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذا وعيد من الله تعالى للمخالفين أوامره، بأن أعمالهم ستعرض عليه وعلى الرسول والمؤمنين، وهذا كائن لا محالة يوم القيامة، وقد يظهر

ذلك للناس في الدنيا.

والرؤية هنا شاملة للعلمية والبصرية.

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتِ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَى النَّبِيِّ ﷺ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١]»[1].

والآية بتمامها هي قول الله سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

وقوله: ﴿**قَدْ سَمِعَ**﴾ للتحقيق، وقوله: ﴿**قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا**﴾؛ المجادلة: هي التي جاءت إلى النبي ﷺ تشتكي زوجها حين ظاهر منها، والظهار: أن يقول الرجل لزوجته: أنت عليّ كظهر أمي، أو كلمة نحوها؛ وكان الظهار في الجاهلية طلاقًا بائنًا، فجاءت تشتكي إلى رسول الله ﷺ، وتبين له كيف يطلقها هذا الرجل ذلك الطلاق البائن، وهي أم أولاده، وكانت تحاور النبي ﷺ؛ أي: تراجعه الكلام، فأنزل الله تعالى فيهما قرآنًا.

وقوله: ﴿**وَتَشْتَكِي**﴾؛ الشكوى هنا: أن تخبر عن مكروهٍ أصابك، ولا يشتكي أحد إلا من عِلّة.

وقوله: ﴿**تَحَاوُرَكُمَا**﴾؛ أي: مراجعتكما وتخاطبكما فيما بينكما.

ففيها إثبات السمع لله سبحانه وتعالى، وأنه يسمع الأصوات مهما بعدت ومهما خفيت.

وقولها: «**وسع سمعه الأصوات**»؛ أي: استوعبها وأدركها، فلا يفوته منها شيء وإن خفي، فحينما ذكرت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا المرأة – وهي: خولة بنت ثعلبة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا – قصتها لرسول الله ﷺ وقال لها: «قد حرمت عليه»، جعلت تقول – بصوت منخفض

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٤٦)، وابن ماجه برقم(١٨٨)، وحسنه الألباني؛ انظر « ظلال الجنة في تخريج السنة» برقم (٦٢٥).

يخفى على عائشة مع قربها منها-: بعدما كبرت سني ظاهر مني؟!، إلى الله أشكو حال صبية إن ضممتهم إليَّ جاعوا، وإن تركتهم عنده ضاعوا، فهذه مجادلتها لرسول الله ﷺ التي ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿**قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ**﴾.

وهذا من أبلغ الأدلة على اتصاف الله تعالى بالسمع، وهو أمر معلوم بالضرورة من الدين، لا ينكره إلا من ضل عن الهدى.

وقول عائشة رضي الله عنها هذا يدل على أن الصحابة رضي الله عنهم آمنوا بالنصوص على ظاهرها الذي يتبادر إلى الفهم، وأن هذا هو الذي أراده الله تعالى منهم ومن غيرهم من المكلفين، إذ لو كان هذا الذي آمنوا به واعتقدوه خطأ لم يقروا عليه ولبين لهم الصواب، ولم يأت عن أحد منهم تأويل هذه النصوص عن ظواهرها، لا من طريق صحيح ولا ضعيف، مع توافر الدواعي على نقل ذلك، مما يبين قطعًا أن الذي أريد منهم ومن كل مؤمن هو ظاهر الخطاب، وهذا واضح لمن تأمل النصوص، وعرف حال الصحابة رضي الله عنهم.

وبهذا يتبين بطلان التأويل، وأنه سلوك غير سبيل الرسول ﷺ وصحابته، والتابعين لهم، إلى نهاية الدنيا.

وعَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَكُنَّا إِذَا عَلَوْنَا كَبَّرْنَا، فَقَالَ ﷺ: «ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا قَرِيبًا» [(١)].

«**أبو موسى**» الأشعري، هو عبد الله بن قيس، صحابي مشهور، مات سنة خمسين، رضي الله عنه.

وقوله: «**كنا مع النبي ﷺ في سفر، فكنا إذا علونا كبرنا**»؛ هذا مما كان النبي ﷺ يفعله، فكان يكبر إذا علا وارتفع، ويسبح إذا هبط في منخفض من الأرض؛ وتكبيره ﷺ عند الارتفاع، استشعار لكبرياء الله عزوجل، وعندما تقع عليه العين من عظيم

(١) رواه البخاري برقم(٧٣٨٦)، ومسلم برقم (٢٧٠٤).

خلق الله تعالى أنه أكبر من كل شيء، والتسبيح في الأماكن المنخفضة استشعار بتنزيهه -تعالى- عن صفة السفل والانخفاض.

وقوله: «**اربعوا على أنفسكم**»، بفتح الباء؛ أي: ارفقوا بأنفسكم، فلا تكلفوها برفع أصواتكم، فإنه لا حاجة إلى ذلك، فإن من تكبرونه وتسبحونه سميع بصير، يسمع الأصوات الخفية كما يسمع الجهرية، ويرى الأشياء وإن دقت، فلا يخفى عليه شيء.

وقوله: «**فإنكم لا تدعون أصم**»؛ الصمم: انسداد الأذن، وثقل السمع، بحيث لا يسمع الأصوات إلا إذا كانت مرتفعة عالية، وقيل: هو انسداد الأذن، وذهاب سمعها؛ وهذا فيه نفي الصفة السلبية لإثبات كمال سمعه سبحانه وتعالى.

وقوله: «**غائبـاً**»؛ أي: ليس بعيداً ومستور الرؤية والسمع عنكم، فيحتاج إلى المناداة ورفع الأصوات؛ كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وأيضاً فيه نفي الصفة السلبية لإثبات كمال قربه ومعيته سبحانه وتعالى.

ولهذا قال: «**تدعون سميعاً بصيراً قريباً**»؛ هذه صيغ مبالغة لله تعالى؛ لأن له - تعالى - تمام الكمال من هذه الصفات، فلا يفوت سمعه أي حركة وإن خفيت، فيسمع دبيب النملة على الصفاة الصماء في ظلمة الليل، وأخفى من ذلك، كما أنه - تعالى - لا يحجب بصره شيء من الحوائل، فهو يسمع أصوات أنفاسكم وجميع ما تتلفظون به من كلمات، ويبصر حركاتكم، وهو معكم قريب من داعيه، وهو أيضاً مع جميع خلقه باطلاعه وإحاطته، وهم في قبضته، ومع ذلك هو على عرشه عال فوق جميع مخلوقاته، ولا يخفى عليه خافية في جميع مخلوقاته مهما كانت.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَادَانِي، قَالَ: إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ»[1].

(١) رواه البخاري برقم (٧٣٨٩)، ومسلم برقم (١٧٩٥).

هذا جزء من حديث؛ وهو بتمامه: «قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟، قال ﷺ: «لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت – وأنا مهموم- على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت، فإذا فيها جبريل فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم علي، ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين، فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، ولا يشرك به شيئًا».

وقولها: «هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد»؛ أي: يوم معركة أحد، كان في سنة ثلاث من الهجرة؛ وسألت عن ما هو أشد منه، لأنه كان شديداً على رسول الله ﷺ، فقد كسرت رباعيته وشج رأسه، وخالف أكثر الرماة أمره، وَفَرّ بعض مَن كان معه، وقتل من أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أكثر من سبعين؛ فأجابها: أنه لقي من قومه أشد ما لقي منهم «يوم العقبة»، اختلف في تحديده؛ فقيل: عقبة منى، وقيل: عقبة الطائف، حيث اجتمعوا يرمونه بالحجارة حتى أدموه، وخرج مغمومًا مهمومًا على وجهه، ولم يفق إلا وهو في «قرن الثعالب»؛ وهو موضع بقرب مكة، هو ميقات أهل نجد، ويقال له: قرن المنازل.

وقوله: «**إن الله قد سمع قول قومك وما ردوا عليك**»؛ فيه إثبات السمع لله تعالى، وأنه سبحانه حاضر ليس بغائب، يعلم أحوال عباده ويبصرها، ويدبر أمورخلقه من فوق عرشه جل جلاله.

وقوله: «**وما ردوا عليك**»؛ أي: أجابوك.

وقوله: «أطبقت عليهم الأخشبين»؛ هما جبلان في مكة جبل أبي قبيس وجبل الأحمر، وقيل: هما جبلان في منى.

وقوله: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم»؛ أي: من أبنائهم وذريتهم وأنسابهم «من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئًا».

ففي هذا الحديث البيان الواضح في أن الله تعالى يسمع أقوال عباده، وأنه لا يخفى عليه -تعالى- من ذلك شيء.

***

المسألة (السابعة والسبعون):
فِي صِفَةِ الوَجْهِ لله تبَارِكَ وتَعَالَى

فيه إثبات صفة الوجه لله تعالى، وهو ثابت لله سبحانه وتعالى في آيات وأحاديث كثيرة.

هذا وقد فسر أهل التحريف وجه الله جل جلاله بثوابه فقط، فقالوا: المراد بالوجه في الآية الثواب، كل شيء يفنى، إلا ثواب الله تعالى.

ففسروا الوجه الذي هو صفة كمال، فسروه بشيء مخلوق بائن عن الله سبحانه وتعالى قابل للعدم والوجود، فالثواب حادث بعد أن لم يكن، وجائز أن يرتفع، لولا وعد الله ببقائه لكان من حيث العقل جائزاً أن يرتفع؛ أعني: الثواب.

فهل يمكن أن يوصف الثواب بهذه الصفات العظيمة: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾، لا يمكن.

وأيضاً قد ورد عن الرسول ﷺ أنه قال: «حجابه النور، لو كشفه؛ لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[1]؛ ومعنى قوله: «سبحات وجهه»، أي: بهاءه وعظمته وجلاله ونوره، وقوله: «ما انتهى إليه بصره من خلقه»؛ وبصره ينتهي إلى كل شيء، وعليه، فلو كشف هذا الحجاب - حجاب النور -عن وجهه لاحترق كل شيء؛ فهل الثواب له هذا النور الذي يحرق ما انتهى إليه بصر الله عز وجل من الخلق؟ أبداً، ولا يمكن.

وبهذا عرفنا بطلان قولهم، وأن الواجب علينا أن نفسر هذا الوجه بما أراده الله تعالى به، وهو وجه قائم به تبارك وتعالى موصوف بالجلال والإكرام.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]

---

(١) رواه مسلم برقم (١٧٩).

قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾؛ أي: فانٍ، كقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦].

وقوله: ﴿إِلَّا وَجْهَهُ﴾؛ توازي قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]؛ فالمعنى: كل شيء فان وزائل، إلا وجه الله عز وجل، فإنه باقٍ، ولهذا قال جل وعلا متمماً الآية: ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وهنا أضاف الوجه الذي هو صفة أضافه لنفسه – سبحانه وتعالى –، وفي هذا إثبات صفة الوجه لله تعالى؛ فهو الحكم الباقي الذي يرجع إليه الناس ليحكم بينهم.

وقال الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧].

قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾؛ أي: لا يفنى؛ والوجه: معناه معلوم، لكن كيفيته مجهولة، لا نعلم كيف وجه الله عز وجل، كسائر صفاته، لكننا نؤمن بأن له وجهاً موصوفاً بالجلال والإكرام، وموصوفاً بالبهاء والعظمة والنور العظيم.

وهذا الوجه وجه عظيم، لا يمكن أبداً أن يماثل أوجه المخلوقات.

ومن عقيدتنا أننا نثبت أن لله وجهاً حقيقة، ونأخذه من قوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾، أن هذا الوجه لا يماثل أوجه المخلوقين؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ونجهل كيفية هذا الوجه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

وقوله: ﴿رَبِّكَ﴾؛ اسم الرب المضاف إلى كاف الخطاب؛ العائد على محمد ﷺ؛ هي من أخص ما يكون من أنواع الربوبية؛ لأن الربوبية عامة وخاصة، والخاصة كربوبية الله تعالى لرسله، فالربوبية الأخص أفضل بلا شك.

وقوله: ﴿ذُو﴾؛ صفة لوجه، والدليل الرفع، ولو كانت صفة للرب، لقال ذي الجلال؛ كما قال تعالى في نفس السورة: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨]، فلما قال سبحانه: ﴿ذُو الْجَلَالِ﴾، علمنا أنه وصف للوجه.

وقوله: ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾؛ هي مصدر من أكرم، صالحة للمُكْرَم والمُكْرِم، فالله سبحانه وتعالى مكرم، وإكرامه تعالى القيام بطاعته، ومُكْرِم لمن يستحق الإكرام من خلقه بما أعد لهم من الثواب.

فهو لجلاله وكمال سلطانه وعظمته أَهْلٌ لأن يكرم ويثنى عليه سبحانه وتعالى وإكرام كل أحد بحسبه، فإكرام الله عز وجل أن تقدره حق قدره، وأن تعظمه حق تعظيمه، لا لاحتياجه إلى إكرامك، ولكن لِيَمُنَّ عليك بالجزاء.

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، فَقَالَ: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، قَالَ: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَذَا أَيْسَرُ»[1].

«**جابر بن عبد الله**»؛ هو وأبوه من الصحابة الكرام، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ﴾ اسم الله القادر يدل على ذات الله وصفة التقدير المطلق، وعلى الحياة والقيومية، والعلم، والعدل والقدرة والعظمة والحكمة وكل ما يلزم من صفات الذات وصفات الفعل لاتصافه بالتقدير المطلق.

وفيه أن الله تعالى يخوف عباده إن لم يطيعوه ويعبدوه وحده لا شريك له، ويتبعوا رسوله ﷺ، بأنه قادر ﴿عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾؛ فهو قادر سبحانه وتعالى على أن يرسل عليهم عذاباً من السماء، كما أرسل على قوم لوط وقوم شعيب، وغيرهم، أو نوعاً آخر مما يشاء.

وقوله: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾؛ وهو كذلك قادر بأن يبعث العذاب من تحتهم، إما بخسف أو زلازل وبراكين، أو غير ذلك مما يشاء، كما قال الله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦-١٧]، وعندما سمع الرسول ﷺ هذا

---

(١) رواه البخاري برقم(٧٤٠٦).

التهديد من الله تعالى عاذ بوجه ربه الكريم أن يكون ذلك.

وقوله: «**أعوذ بوجهك**»؛ قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في هذه الآية والحديث دلالة على أن لله وجهاً وهو صفة ذاته، وليس بجارحة ولا كالوجوه التي نشاهدها من المخلوقين، كما نقول إنه عالم ولا نقول إنه كالعلماء الذين نشاهدهم.

فقول ابن بطال: «وليس بجارحة» لا ينبغي ذكره، بل يقال: لله وجه لا يشبه وجوه المخلوقين، أما إطلاق لفظ الجارحة - سواء في النفي أو في الإثبات - كل هذا لا دليل عليه، بل هو مما أحدث، فتركه أولى.

وقوله: ﴿**أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا**﴾؛ أي: فجعلكم مختلفين متفرقين، فيجوز أن يكون الاختلاف والفرقة الذي توعد الله هذه الأمة أن يلقيه فيها وبينها في المنازعات ومطالبة حظوظ الأنفس من الولاية والخلافة وأسباب الدنيا، فيكون الفرقة بينهم فرقة الأبدان أو إتلاف الأنفس في منازعة الدنيا، ومجاذبة الملك فيها، وطلب الرفعة والعلو فيها، وجمع حطامها والإستيلاء على الأمر فيها، والتباين في الأهواء المضلة والآراء المغوية.

وقوله: «**هذا أيسر**» في رواية: «هذه أهون».

وفي رواية أخرى: أن النبي ﷺ دعا الله تعالى بثلاث دعوات، فأجيب باثنتين، ومنع من الثالثة؛ «دعا الله ألا يهلك أمته بعذاب من السماء فأجيب، وألا يهلكهم بعذاب من تحت أرجلهم فأجيب، ودعا الله ألا يهلك بعضهم ببعض فمنع»[1]؛ فدل على أن الاقتتال والتفرق حاصل في الأمة.

وبهذا يتبين أن إثبات الوجه لله عز وجل والإيمان به متعين، وأنه داخل في الإيمان بالله تعالى وهو كسائر صفات الله تعالى الثابتة، يجب معرفتها والإيمان بها بدون تأويل، أو تشبيه، بل على ما يجب لله من الإجلال والتعظيم، ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في أسمائه وصفاته، ولا في أفعاله تعالى وتقدس عن ظنون أهل الانحراف والزيغ من المؤولين والمعطلين الذين جعلوا أنفسهم هي الأصل، فقاسوا عليها ما أخبر الله عز وجل به عن نفسه، وأخبر عنه رسوله ﷺ، فحرفوا وعطلوا.

* * *

(١) رواه مسلم برقم (٢٨٩٠).

المسألة (الثامنة والسبعون):
فِي صِفَةِ العَيْنَيْنِ لله جَلَّ جَلَالُهُ

فيها إثبات أن الله تعالى موصوف بأن له عينين حقيقة، على ما يليق بجلاله وعظمته سبحانه وتعالى.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه: ٣٩].

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤].

وقد جاء ذكر العين وصفاً لله تعالى في القرآن مفردة، مضافة إلى الضمير المفرد، كما جاءت مجموعة، مضافة إلى ضمير الجمع، كما في هاتين الآيتين ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾، و﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾، ولم يأت ذكر العين وصفاً لله تعالى في القرآن مثناة، ولكن جاء ذلك في الحديث عن رسول الله ﷺ كما سيأتي، والحديث إذا صح عن الرسول ﷺ وجب الإيمان بما دل عليه والعمل به.

والأدلة فيها إثبات العينين لله تعالى اللتين ينظر بهما إلى ما يريد، ولا يحجب نظره حاجب جل جلاله.

وقال الأزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ [هود: ٣٧]، قال أصحاب النقل والأخذ بالأثر: الأعين: يريد به العين،قال: وعين الله لا تفسر بأكثر من ظاهرها، ولا يسع أحداً أن يقول: كيف هي، أو ما صفتها؟.

فقول الله تعالى: ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾؛ الخطاب لموسى عَلَيهِ ٱلسَّلَامُ.

وقوله: ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي﴾؛ اختلف المفسرون في معناها؛ فمنهم من قال: يعني: أني أحببتك، ومنهم من قال: ألقيت عليك محبة من الناس، والإلقاء من الله

عز وجل؛ أي: أن من رآك أحبك، وشاهد هذا أن امرأة فرعون لما رأته أحبته وقالت: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩].

وهذه الآية تحتمل المعنيين ولا منافاة بينهما فإنها تحمل عليهما جميعًا، فموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ محبوب من الله عز وجل، ومحبوب من الناس، إذا رآه الناس أحبوه، والواقع أن المعنيين متلازمان؛ لأن الله تعالى إذا أحب عبداً ألقى في قلوب العباد محبته.

ثم قال: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾؛ الصنع: جعل الشيء على صفة معينة، كصنع صفائح الحديد قدوراً، وصنع الأخشاب أبوابًا، وصنع شيء بحسبه، فصناعة البيت: بناء البيت، وصناعة الحديد: جعلها أواني مثلاً، وصنع الآدمي: معناه التربية البدنية والعقلية: تربيته البدنية بالغذاء، وتربيته العقلية بالآداب والأخلاق وما أشبه ذلك.

وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حصل له ذلك، فإنه رُبِّي على عين الله عز وجل؛ لما التقط آل فرعون، حماه الله عز وجل من قتلهم، مع أنهم كانوا يقتلون أبناء بني إسرائيل، فقضى الله تعالى أن هذا الذي تُقْتل الناس من أجله سيتربى في أحضان آل فرعون، فالناس يقتلون من أجله، وهو يتربى آمنًا في أحضانهم، وانظر إلى هذه القدرة العظيمة!.

ومن تربية الله جل جلاله له، أنه عرض على المراضع - النساء اللاتي يرضعنه - ولكنه ما رضع من أي واحدة: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القصص: ١٢]، فما رضع من امرأة قط، وكانت أخته قد انتدبت من قبل أمه، فرأتهم وقالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [القصص: ١٢]؛ قالوا: نعم، نحن نود هذا، فقالت: اتبعوني، فتبعوها، قال الله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [القصص: ١٣]، ولم يرضع من امرأة قط، مع أنه رضيع، لكن هذا من كمال قدرة الله تعالى وصدق وعده؛ لأن الله عز وجل قال لها: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]؛ الأم شفقتها على ابنها لا أحد يتصورها، قيل لها: اجعلي ابنك في صندوق، وألقيه في البحر، وسيأتي إليك، لولا الإيمان الذي مع هذه المرأة، ما فعلت هذا الشيء، تلقي ابنها في البحر!، لو أن ابنها سقط في تابوته في البحر لجرته، فكيف وهي التي تلقيه؟!، لكن لثقتها بالرب عز وجل ووعده ألقته في اليم.

وقوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾، بالإفراد، والمفرد المضاف يعم فيشمل كل ما ثبت

لله تعالى من عين.

وأما ما جاء بلفظ التثنية أو الجمع فنقول: إن كان أقل الجمع اثنين، فلا منافاة؛ لأننا نقول: هذا الجمع دال على اثنتين، فلا ينافيه، وإن كان أقل الجمع ثلاثة، فإن هذا الجمع لا يراد به الثلاثة، وإنما يراد به التعظيم والتناسب بين ضمير الجمع وبين المضاف إليه.

وقوله: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾؛ الخطاب هنا للنبي ﷺ.

وقوله: ﴿ وَٱصْبِرْ ﴾؛ الصبر في اللغة: بمعنى الحبس، وفي الشرع: هو الصبر لأحكام الله؛ يعني: حبس النفس لأحكام الله تعالى.

وأحكام الله عز وجل شرعية وكونية؛ فالشرعية: أوامر ونواه، فالصبر على طاعة الله عز وجل صبر على الأوامر، والصبر عن معصيته صبر عن النواهي، والكونية: أقدار الله تعالى؛ فيصبر على أقداره وقضائه.

وهذا معنى قول بعضهم الصبر ثلاثة أقسام: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة؛ وهذه الآية تتناول الأقسام الثلاثة.

فصبر على حكم الله جل جلاله، ولكنه صبر مؤمن يؤمن بأن العاقبة له؛ لأن الله عز وجل قال له: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ هذا الاعتناء والحفاوة أكرم شيء يكون به الإنسان أن تقول له: أنت بعيني، أنت بقلبي... وما أشبه ذلك؛ فأنت بعيني؛ معناه: أنا ألاحظك بعيني، وهذا تعبير معروف عند الناس، يكون تمام الحراسة والعناية والحفظ.

إذاً، قوله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾؛ يعني: فإنك محروس غاية الحراسة، محفوظ غاية الحفظ.

ففي الآية الكريمة إثبات العين لله عز وجل، وهنا جاءت بصيغة الجمع.

فالعين منا بعض من الوجه، والوجه بعض من الجسم، لكنها بالنسبة لله تعالى لا يجوز أن نقول: إنها بعض من الله جل جلاله؛ لأنه سبق أن هذا اللفظ لم يرد، وأنه يقتضي التجزئة في الخالق، وأن البعض أو الجزء هو الذي يجوز بقاء الكل بفقده، ويجوز أن يفقد، وصفات الله جل وعلا لا يجوز أن تفقد أبداً، بل هي باقية.

فإن قيل: إن من السلف من فسر قوله تعالى: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾، بقوله: بمرأى منا؛ فسره بذلك أئمة سلفيون معروفون، وأنتم تقولون: إن التحريف محرم وممتنع، فما الجواب؟.

فالجواب: أنهم فسروها باللازم، مع إثبات الأصل، وهي العين، وأهل التحريف يقولون: بمرأى منا، بدون إثبات العين، وأهل السنة والجماعة يقولون: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾؛ بمرأى منا، ومع إثبات العين.

لكن ذكر العين هنا أشد توكيداً وعناية من ذكر مجرد الرؤية، ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾.

وقوله: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾؛ فقوله: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ﴾؛ الضمير يعود على نوح عليه السلام.

وقوله: ﴿عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾؛ أي: على سفينة ذات ألواح ودسر، وهذه السفينة كان - عليه السلام - يصنعها، وكان يمر به قومه فيسخرون منه، فيقول: ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨].

صنعها بأمر الله عز وجل ورعايته وعنايته، وقال الله تعالى له: ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود: ٣٧]، فالله تعالى ينظر إليه وهو يصنع الفلك، ويلهمه كيف يصنعها.

ووصفها الله هنا في قوله: ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾، فـ﴿ذَاتِ﴾؛ بمعنى: صاحبة، والألواح: الخشب، والدسر: ما يربط به الخشب كالمسامير والحبال وما أشبه ذلك، وأكثر المفسرين على أن المراد بها المسامير التي تربط بها الأخشاب.

وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾؛ هذا الشاهد: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾؛ أي: مصحوبة بنظرنا بأعيننا، فالباء هنا للمصاحبة، تجري على الماء الذي نزل من السماء ونبع من الأرض؛ لأن نوحاً عليه السلام دعا ربه: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]، قال الله تعالى: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١١-١٢]، فكانت هذه السفينة تجري بعين الله عز وجل.

وعَنْ عَبْدِ الله بن عمر رضي الله عنهما قَالَ: ذُكِرَ الدَّجَّالُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «إِنَّ الله لَا يَخْفَى عَلَيْكُمْ؛ إِنَّ الله لَيْسَ بِأَعْوَرَ- وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى عَيْنِهِ-، وَإِنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى، كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ»[1].

(١) رواه البخاري برقم(٧٤٠٧).

«**عبد الله بن عمر**» ابن الخطاب؛ أبو عبد الرحمن، هو وأبوه صحابيان جليلان، ولد بعد المبعث بيسير، مات سنة ثلاث وسبعين، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وعن أبيه.

وقوله: «**الدجال**»؛ أي: الكذاب؛ ودجله: سحره وكذبه؛ لأنه يدجل الحق بالباطل؛ أي: يغطيه، وهو رجل من اليهود، يخرج في آخر هذه الأمة، كما جاءت الأحاديث بذلك عن النبي ﷺ.

وقوله: «**إن الله لا يخفى عليكم**»؛ المؤمن بالله عز وجل وبأوصافه التي تعرف بها إلى عباده، لا يخفى عليه رب العالمين، فهو -تعالى-: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، ليس له كفؤ ولا ند، فلا يمكن أن يشابه المخلوق الضعيف، المحتاج الناقص، وكل مخلوق له صفة الضعف والحاجة والنقصان -ولا بد-، تعالى عن مشابهة خلقه علواً كبيراً.

وقوله: «**إن الله ليس بأعور**»؛ هذه الجملة هي المقصودة من الحديث، فهي تدل على أن لله عينين حقيقة؛ لأن العور فقد أحد العينين، أو ذهاب نورها.

والعور في اللغة: هو ذهاب ضوء إحدى العينين.

وهذا دَلّ على أن لله عينين اثنتين فقط، حين وصف الدجال؛ وقال: «إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور»، وفي لفظ: «أعور العين اليمنى».

وقد قال بعض الناس: معنى «أعور»؛ أي: معيب، وليس من عور العين**!!**.

وهذا لا شك أنه تحريف وتجاهل للفظ الصحيح الذي في كتاب البخاري وغيره: «أعور العين اليمنى، كأن عينه عنبة طافية»، وهذا واضح.

ولا يقال أيضاً: «أعور» باللغة العربية، إلا لعور العين، أما إذا قيل: «عور» أو «عوار»، فربما يراد به مطلق العيب.

ووجه الدلالة أنه لو كان لله عز وجل أكثر من اثنتين، لكان البيان به أوضح من البيان بالعور؛ لأنه لو كان لله سبحانه وتعالى أكثر من عينين لقال: إن ربكم له أعين؛ لأنه إذا كان له أعين أكثر من ثنتين صار واضحاً أن الدجال ليس برب.

وأيضاً: لو كان لله عز وجل أكثر من عينين لكان ذلك من كماله، وكان ترك ذكره تفويتاً للثناء على الله تعالى؛ لأن الكثرة تدل على القوة والكمال والتمام، فلو كان لله أكثر من عينين لبينها الرسول ﷺ؛ لئلا يفوتنا اعتقاد هذا الكمال وهو الزائد على العينين الثنتين.

ولهذا صار هذا الحديث من الأدلة الواضحة على إثبات تثنية العين لله تعالى.

وقوله: «**وأشار بيده إلى عينه**»؛ هذا يزيد الأمر وضوحاً؛ فإشارته ﷺ إلى عينه لتحقيق الوصف؛ يعني أن لله عينين سالمتين من كل عيب كاملتين، بخلاف الدجال الفاقد لإحدى عينيه، وذلك من أعظم الأدلة على كذبه.

وأما إشارته ﷺ بيده إلى عينه؛ فهو لتحقيق الصفة، وليس المراد التشبيه.

وقال أبو سعيد الدارمي رَحِمَهُ اللَّهُ في الرد على من خالف سبيل الحق عثمان بن بشر المريسي: «أما ما ادعيت أن قوماً يزعمون أن لله عيناً، فإنا نقوله؛ لأن الله تعالى قاله، ورسوله.

و أما زعمك أنهم يثبتون جارحة كجارحة العين من الإنسان، على التركيب، فهذا كذب، ادعيته علينا عمداً، وأنت تعلم أن أحداً لم يقله، ولكنك تريد التشنيع، ليكون هنالك مقبولاً لدى الجهال، والكذب لا يصلح منه جد ولا هزل، فمن الذي قال: إنها جارحة مركبة؟ اذكره، فإن قائله كافر.

وكم تشنع بما تقرر من قولك: جسم مركب، وجوارح، وأجزاء، وأبعاض، تريد أن يكف المؤمنون، عن وصف الله تعالى بما وصف به نفسه في كتابه، وما وصف به رسوله.

ونحن لم نصف الله بجسم كأجسام المخلوقين، ولا بعضو، ولا بجارحة، لكنا نصفه بما يغيظك من هذه الصفات، التي أنت ودعاتك لها منكرون، فنقول: إنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، ذو الوجه الكريم، والسمع السميع، والبصر البصير».

وقوله: «**كأن عينه عنبة طافية**»؛ أي: قد ذهب ماؤها، فهي ضامرة ملتوية؛ وفي هذا بيان أن عينه – قبحه الله تعالى – قد ذهب ماؤها، فضمرت، وبقيت سادة مكانها، لم تكن غائرة، ولا ناتئة مرتفعة، وهذا هو وصف العنبة إذا ذهب ماؤها.

***

المسألة (التاسعة والسبعون):
فِي رُؤْيَةِ المُؤْمِنِيْنَ للهِ تَعَالَى فِي الآخِرَة

قال أبو الحسن الأشعري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «رسالة إلى أهل الثغر»: «وأجمعوا على أنَّ المؤمنين يرون الله عَزَّ وجَلَّ يوم القيامة بأعين وجوههم، على ما أخبر به تعالى، في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، وقد بيَّن معنى ذلك النبي ﷺ، ودفع إشكاله فيه؛ بقوله للمؤمنين: «ترون ربكم عيانـًا»، وقوله: «ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر؛ لا تُضامون في رؤيته»، فبيَّن أنَّ رؤيته تعالى بأعين الوجوه» اهـ.

ورؤية وجه الله الكريم هي أعلى نعيم أهل الجنة؛ قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]؛ و﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ هي الجنة، و(الزيادة) هي النظر إلى وجه الله الكريم، ولما جعل الله عز وجل ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وعطف عليها الزيادة، دلنا على أن الزيادة هذه نعيم مخصوص، وهو أعلى من نعيم الجنة، وإن كان هو حاصلاً في الجنة.

ومسألة الرؤية من المسائل التي قررها أهل العلم من أهل السنة وصنفوا فيها المصنفات لكثرة المخالفين فيها، والأدلة دلت بوضوح على أن الله جل وعلا يُرى بالأبصار في الآخرة.

وأما في الدنيا فإنه لا يمكن لأحد أن يرى الله تعالى، وتأمل لما سأل موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ربه الرؤية قال الله جل وعلا له: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾؛ يعني: في الدنيا؛ ﴿لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وأيضـًا النبي ﷺ ليلة أسري به لم ير الله تبارك وتعالى وإنما رأى نورا، رأى الحجاب، والله جل وعلا هو نور السماوات والأرض وحجابه النور؛ ولما سئل النبي

ﷺ هل رأيت ربك؟، قال: «رأيت نورا»(١)، وفي رواية أخرى؛ قال: «نورٌ أنى أراه»(٢)؛ يعني: ثَمَ نور كيف أراه؟!.

والنور هذا هو الحجاب الذي جاء في قوله ﷺ: «حجابه النور لو كشفه لأحرقت سَبُحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»(٣).

والبصر بصر الله جل وعلا ليس له نهاية ؛ فمعنى ذلك: أنه لو كشفه لاحترق كل شيء جل وعلا وتقدس وتعاظم ربنا.

فإذن الرؤية عند أهل السنة لا تكون في الدنيا ولا في البرزخ وإنما هي في الآخرة بقوة يجعلها الله جل وعلا في أعين المؤمنين فيرونه – سبحانه وتعالى –.

وهذه الرؤية لله تعالى رؤية من غير إحاطة ؛ لأن الله جل وعلا لا يحاط به ؛ قال سبحانه: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣]؛ وقوله: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾؛ يعني: لا تحيط به الأبصار، وكيف يحيط به البصر والأرض جميعا قبضته يوم القيامة جل وعلا، فكيف بمخلوق واحد على أرض الله تبارك وتعالى.

وأما المخالفون لأهل السنة في هذه المسألة فهم ثلاث طوائف: طائفة تزعم أن الرؤية ممكنة في الدنيا وفي الآخرة: وهؤلاء هم الصوفية ومن نحا نحوهم ؛ يقولون الله جل وعلا يُرى في الدنيا ويُرى في الآخرة، وهذا باطل ؛ لأن الرؤية حُجِبَت عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في الدنيا، وأيضاً فإن نبينا محمداً لم يرَ الله تعالى في الدنيا –على الراجح من خلاف الصحابة والعلماء–، ولو كانت الرؤية ممكنة لكان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وعلى الأخص رسولنا وسيدنا محمد ﷺ أولى بها.

وأما في رؤيا المنام فأهل السنة والجماعة يثبتون إمكان رؤية الله جل وعلا في المنام، ورؤيته في المنام جل وعلا ليست على صورته سبحانه وتعالى التي هو عليها؛ لأن هذه لا يمكن لأحد أن يراه فيها في الدنيا سواء في اليقظة أو في المنام.

---

(١) رواه مسلم برقم (١٧٨) (٢٩٢).

(٢) رواه مسلم برقم (١٧٨) (٢٩١).

(٣) رواه مسلم برقم (١٧٩).

وإنما يراه الرائي على قدْر إيمانه ؛ فإن كان إيمانه قويا رأى صورة حسنة، كما رأى النبي ﷺ ربه جل وعلا ؛ فقال ﷺ: «أتاني الليلة – في المنام – ربي تبارك وتعالى في أحسن صورة»[1] ؛ وقوله: «في أحسن صورة»؛ لأنه ﷺ أكمل المؤمنين إيمانـًا.

والطائفة الثانية: هي طائفة الخوارج والمعتزلة ومن شابههم من الذين يقولون: إن رؤية الله تعالى لا يمكن أن تكون لا في الدنيا ولا في الآخرة، قالوا من جهة الآيات هذه التي ذكرنا قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾؛ يعني: منتظرة، والنظر يأتي بمعنى الانتظار.

وما ذكروه باطل وممتنع ؛ لأنه هنا عَدَّى النظر بـ (إلى)، وذكر محل النظر الذي هو الوجه، فلا يمكن أن يكون بحال بمعنى الانتظار.

وقالوا في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾؛ فتفسير الزيادة هنا بنعيم يزيدهم الله تعالى، قالوا في قوله جل وعلا: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾؛ يعني: لا تراه الأبصار، وهذا عام يشمل الدنيا والآخرة ؛ وأيضًا ما ذكروه لا يصح ؛ لأن الإدراك بمعنى الإحاطة ؛ قال الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]؛ هو أثبت أن الجمعين رأى بعضهم بعضا بقوله: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾؛ ثم ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ فدل على أن معنى الإدراك غير الرؤية ؛ ومعنى ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾؛ أي: إنا لمحاط بنا.

وقالوا في قول الله جل وعلا لموسى حينما سأله فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾، قالوا: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ يشمل الدنيا والآخرة ؛ لأن ﴿لَن﴾ تفيد التأبيد تفيد تأبيد النفي مطلقـًا؛ يعني: ما بعدها منفي إلى الأبد ما لم يأت استثناء.

وأيضًا ما ذكروه بأن ﴿لَن﴾ تفيد التأبيد هذا غلط، والمحققون من النحاة ردوا هذا القول واعتبروه دخيلاً على النحو؛ قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «منظومته الكافية الشافية»:

وَمَنْ رَأَى النَّفْيَ بِلَنْ مُؤَبَّدَاً　　　فَقَوْلَهُ ارْدُدْ وَسِوَاهُ فَاعْضُدَا

---

(١) رواه الترمذي برقم (٣٢٣٣)، وصححه الألباني؛ انظر: «إرواء الغليل» برقم (٦٨٤).

وأيضـًا ذكر هذا ابن هشام رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «المغني».

وقـالوا: الرؤيـة لا يمكن أن تكون إلا إلى جهـة، والجهـة ممتنعـة في حق الله جـل وعلا؛ لأنه إذا كان – عز وجل – في جهة معنى ذلك أنه متحيز، وإذا كان متحيزاً معناه أنه شبيه بالأجسام، ونفوا الرؤية لأجل هذا.

وما ذكروه من حيث الجهة – أي: أن الرؤية لا تكون إلا إلى جهة – هذا صحيح، ولكن كون الجهة من صفة الأجسام هذا مبني على تشبيههم الحال بالحال، والله جل وعلا أثبت لنفسه العلو، والعلو أحد الجهات ؛ فهو – جل وعلا – في العلو والناس يرونه وهو – جل وعلا – عال عليهم بذاته – سبحانه وتعالى – ولا تحيط به الأبصار؛ لأنه – تبارك وتعالى –﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾. [الشورى: ١١].

والطائفة الثالثة: الأشـاعرة والماتريدية ؛ قالوا: نثبت الرؤية كما دلت عليها الأدلة من الكتاب والسـنة، ولكن الرؤية إما أن تكون إلى جهة أو إلى غير جهة؛ فإذا كانت إلى جهـة اقتضـى ذلك التحيز فنمنع ذلك، ونقول: الرؤية تكون إلى غير جهة ولكن بإدراك يُجعل في العين؛ يعني: أن العين لا تنظر ولكن الله تعالى يخلق إدراكـًا في العين لذلك.

وقولهم باطل أيضـًا؛ لأن الله جل وعلا جعل الرؤية للوجوه؛ والأدلة التي ذكرناها سابقـًا توضح ضعف قولهم وعدم صحته.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]

قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم القيامة، ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ حسنة جميلة من النعيم.

وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾؛ أي: تلك الوجوه النضرة، تنظر بأبصارها إلى ربها، وذلك أعلا نعيم الآخرة.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ من النضـارة؛ أي: حسـنة بهية مشـرقة مسرورة، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾؛ أي: تراه عيانـًا.

ورؤية الله تبارك وتعالى ممنوعة عن الكفار لقول الله عز وجل: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ

﴿يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]؛ فحجب أهل الكفر عن رؤيته وأثبت الرؤية لأهل الإيمان به جل وعلا، قال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ وغيره: «لما حجب أهل الكفر عن رؤيته، دل على أن أهل الإيمان يرونه».

وهذا يؤكد رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة.

وقد تواترت عن رسول الله ﷺ، وتلقاها الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ومَن اتبعهم بإحسان إلى يومنا هذا بكل قبول وارتياح وانشراح لها، وكلهم يرجو ربه ويسأله أن يكون ممن يراه في جنات عدن يوم يلقاه.

وعَنْ جَرِيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا جُلُوساً عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، قَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، فَافْعَلُوا»[(١)].

وفي رواية: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَاناً»[(٢)]

«**جرير**» هو ابن عبد الله بن جابر البجلي، صحابي مشهور، مات سنة إحدى وخمسين، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وقوله: «**كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر**»؛ هي ليلة أربع عشرة، سميت ليلة البدر؛ لأن القمر يكمل فيها ويبدر؛ وإبداره: كماله وتمامه.

وقوله: «**إنكم سترون ربكم، كما ترون هذا القمر**»، هذا بيان بليغ، وتأكيد عجيب، فأكده بـ«إن»، وبالفعل المضارع المسبوق بالسين، وبقوله: «**كما ترون هذا القمر**»، مع إشارته إليه، فليس بعد هذا البيان بيان، ولا مزيد على هذه التأكيدات، فمن حاول تأويل رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة بعد ما سمع هذا البيان من رسول الله ﷺ فهو يجادل بالباطل ليدحض به الحق.

وقوله: «**لا تضامون في رؤيته**»؛ يروى بضم التاء وتخفيف الميم؛ والمعنى: لا

---

(١) رواه البخاري برقم (٧٤٣٤)، ومسلم برقم (٦٣٣).

(٢) رواها البخاري برقم (٧٤٣٥).

ينالكم في رؤية ربكم ضيم؛ أي: ظلم وهضم.

ويروى بفتح التاء، وتشـديد الميم؛ والمعنى: أنكم ترون ربكم رؤية واضـحة، لا تحتاجون في رؤيته أن ينضـم بعضكم إلى بعض لتتساعدوا على الرؤية، كما يقع عند رؤية الأمور الخفية.

ويروى أيضـًا: «تضارون» بفتح التاء، وضـمها؛ والمعنى: لا يضر بعضهم بعضًا في رؤية الله تعالى، فيراه بعضهم، ويحجب عن رؤيته آخرون منهم، بل يراه المؤمنون رؤية واضحة، كوضوح الشمس والقمر.

والمقصـــود من هذا كله أنهم يرون ربهم رؤية واضـــحة، لا يلحقها نقص وليس فيها خفاء، ولا يحتاجون معاونة عليها.

وقوله: «**فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صـلاة قبل طلوع الشـمس، وصـلاة قبل غروبها، فافعلوا**»؛ تعقيب الخبر عن رؤيتهم لربهم بالفاء المقترنة بالحث على فعل الصلاة المذكورة، يدل على أن المحافظة على هاتين الصلاتين من أسباب حصول الرؤية.

وعلق ذلك بالاستطاعة؛ لأنها مناط التكليف، فالله تعالى لا يكلف إلا بالمستطاع.

والمقصود بالصلاة «**قبل طلوع الشمس**»: صلاة الفجر، والصلاة «**قبل غروبها**»: هي صلاة العصر.

وقوله: «**إنكم سترون ربكم عيانًا**»؛ هذا اللفظ من أبلغ النصوص في إثبات الرؤية، فقد أكد رؤية المؤمنين لربهم عدة تأكيدات، كما ســبق، غير أنه هنا في هذه الرواية قال: «**عيانًا**»؛ وهو لا يحتمل أي تأويل؛ ومعنى «**عيانًا**»: معاينة مقابلين له – تعالى – ينظرون إليه بأعينهم، وفي هذا أبلغ الرد على منكري الرؤية الحقيقية في الآخرة.

وأما رؤية الله تعالى في الدنيا فقد ســبق في بداية هذه المســألة ذكر عدم حدوثها، ولكن هنا نؤكد أن أهل الســنة والجماعة ذهبوا إلى أن الله عز وجل لا يراه أحد من الناس في الدنيا؛ لقول النبي ﷺ: «واعلموا أنه لن يرى أحداً منكم ربه عز وجل حتى يموت»[1]، وهذا يدل دلالة واضحة على أن رؤية الله عز وجل في الدنيا لا تكون، وأن

(١) رواه مسلم برقم (٢٩٣٠) (٩٦).

كل من قال: إنه رأى الله أو ادعى ذلك فإنما أتي من قبل وهم أو خيال أو ظن، والذي رآه ليس هو الله جل وعلا؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يُرى في الدنيا، وقد منع الله جل وعلا أحد أولي العزم من الرسل وهو موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من أن يراه، فكيف بمن دونه من سائر المؤمنين؟؛ قال ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾، قال الله تعالى له: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾؛ فمنعه من أن يراه.

والخلاف الذي وقع بين الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، والعلماء من بعدهم هو في رؤية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربه جل وعلا؛ فقد اختلفوا على قولين، فأنكر هذا جمهورهم، فمن الصحابة عائشة وعبد الله بن مسعود وغيرهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وأثبت رؤية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لربه تعالى يقظة جماعة من العلماء، واحتجوا لذلك بما جاء عن ابن عباس وجماعة من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولكن هذا الذي ذكروه ليس عليه ما يؤيده، بل ما في كلام الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هو إما إثبات الرؤية مطلقاً كما جاء ذلك عن ابن عباس وعن غيره رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وإما أن يكون ذلك مقيداً برؤية القلب أو الفؤاد، كما ذكرنا سابقاً عن رؤيا المنام فما كان مطلقاً فإنه يحمل على المقيد من كلامهم.

والصحيح الذي عليه جمهور أهل العلم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم ير ربه يقظة، إنما رآه في المنام، وما كان من الرؤية التي ذكرها بعض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فهي رؤية قلب وفؤاد وليست رؤية عين، والله أعلم.

* * *

المسألة (الثمانون):
في صِفَةِ الرِّجْلِ أَوِ القَدَمِ لله رَبِّ العَالَمِين

قوله: «**القدم**»؛ إنما سميت رِجْل الإنسان قدماً؛ لأنها تتقدمه في المشي، فلا يمكن المشي إلا إذا تقدمت الرِّجْل على الأخرى، ثم الثانية على الأولى وهكذا.

واختُلِف في المراد بـ«**الرجل والقدم لله رب العالمين**»، فطريق السلف في هذا وغيره مشهور، وهو أن تُمَرّ كما جاءت ولا يتعرض لتأويله، بل نعتقد استحالة ما يوهم النقص على الله جل وعلا.

وخاض كثير من أهل العلم في تأويل ذلك، فقال بعضهم: المراد إذلال جهنم؛ فإنها إذا بالغت في الطغيان وطلب المزيد أذلها الله تعالى فوضعها تحت القدم، وليس المراد حقيقة القدم، والعرب تستعمل ألفاظ الأعضاء في ضرب الأمثال ولا تريد أعيانها، كقولهم: رغم أنفه وسقط في يده، وقال بعضهم: الفرط السابق؛ أي: يضع الله فيها ما قدمه لها من أهل العذاب، وقال بعضهم: هذا من الإخبار التي أطلقت بتمثيل المجاورة، وذلك أن يوم القيامة يلقى في النار من الأمم والأمكنة التي عُصي الله فيها فلا تزال تستزيد حتى يضع الرب فيها موضعاً من الأمكنة المذكورة فتمتلئ؛ لأن العرب تطلق القدم على الموضع، قال الله تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾ [يونس: ٢]؛ يريد موضع صدق، والمراد بالقدم قدم صدق وهو محمد ﷺ، والإشارة بذلك إلى شفاعته وهو المقام المحمود، وقال بعضهم: إن «الرجل» تستعمل في طلب الشيء على سبيل الجد، كما تقول: قام في هذا الأمر على رجل، وزعم بعضهم: أن الرواية التي جاءت بلفظ: «الرجل» تحريف من بعض الرواة؛ لظنه أن المراد بالقدم الجارحة، فرواها بالمعنى فأخطأ، ثم قال: ويحتمل أن يكون المراد بـ«الرجل» - إن كانت محفوظة - الجماعة، كما تقول: رجل من جراد، فالتقدير يضع فيها جماعة، وزعم بعضهم أيضاً: بأن الرواية بلفظ الرجل غير ثابتة عند أهل النقل، وهو مردود لثبوتها في الصحيحين.

وكلها تأويلات يأباها سياق الحديث، وكل هذا فرار من أن يثبتوا لله تبارك وتعالى ما أثبته لنفسه في كتابه العظيم أو على لسان نبيه الكريم ﷺ، ولا شك أن هذا مجانب

للمنهج الذي سار عليه سلف هذه الأمة وأئمتها.

وهي من التأويل المذموم المردود، الذي يراد منه نفي ما اعتقده واتفق عليه سلف هذه الأمة وأئمتها، فلا محيد عن إثبات ما أثبته الله سبحانه لنفسه، ولا يلزم من الإثبات التشبيه، ولايلزم من ذلك أن يكون الخالق مثل المخلوق، فالخالق له وجه وله رجل وقدم ويد وعين وسمع وبصر سبحانه وتعالى عن مشابهة المخلوقين، فله هذه الأوصاف ولا يعني أننا إذا أثبتنا شيئًا من ذلك أن نشبه به أحداً من خلقه.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيْهَا، وَهِيَ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيْدٍ؛ حَتَّى يَضَعُ رَبُّ العِزَّةِ فِيْهَا رِجْلَهُ - وفي رواية: عَلَيْهَا قَدَمَهُ - فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، فَتَقُولُ: قَطٍ قَطٍ»[1].

قوله: «**لا تزال جهنم يلقى فيها**»، هذا يوم القيامة؛ يعني: يلقى فيها الناس والحجارة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤].

وقوله: «**يلقى فيها**»؛ فيه دليل على أن أهلها -والعياذ بالله- يلقون فيها إلقاء لا يدخلون مكرمين، بل يدعون إلى نار جهنم دعًا؛ ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨].

وقوله: «**وهي تقول: هل من مزيد؟**»، «**هل**» للطلب؛ يعني: زيدوا، وبعضهم قال: إن الاستفهام هنا للنفي؛ والمعنى يكون: لا مزيد على ما فيَّ، والدليل على عدم صحة هذا القول؛ قوله: «**حتى يضع رب العزة فيها رجله**»، وفي رواية: «**عليها قدمه**»؛ لأن هذا يدل على أنها تطلب زيادة، وإلا لما وضع الله تعالى عليها رجله حتى ينزوي بعضها إلى بعض؛ فكأنها تطلب بشوق إلى من يلقى فيها زيادة على ما فيها.

وقوله: «**حتى يضع رب العزة**»، عبر برب العزة؛ لأن المقام مقام عزة وغلبة وقهر.

وهنا «**رب**»؛ بمعنى: صاحب، وليست بمعنى خالق؛ لأن العزة صفة من صفات الله عز وجل، وصفات الله تعالى غير مخلوقة.

وقوله: «**فيها رجله**»، وفي رواية: «**عليها قدمه**»؛ «في» و«على»؛ معناهما واحد هنا، والظاهر أن «في» بمعنى «على»؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾

---

(١) رواه البخاري برقم (٤٨٤٨)، ومسلم برقم (٢٨٤٨).

[طه: ٧١]؛ أي: عليها.

وقوله: «**فينزوي بعضها إلى بعض**»؛ أي: ينضم بعضها إلى بعض من عظمة قدم الباري عز وجل.

وقوله: «**وتقول قط قط**»؛ أي: حسبي حسبي؛ يعني: لا أريد أحداً.

فيه إثبات أن لله تعالى رجلاً وقدماً حقيقية، لا تماثل أرجل المخلوقين، ويسمي أهل السنة هذه الصفة: الصفة الذاتية الخبرية؛ لأنها لم تُعْلَم إلا بالخبر، ولأن مسماها أبعاض لنا وأجزاء، لكن لا نقول بالنسبة لله سبحانه وتعالى: إنها أبعاض وأجزاء؛ لأن هذا ممتنع على الله عز وجل.

وخالف الأشاعرة وأهل التحريف في ذلك - كما سبق الإشارة إلى ذلك بمقدمة هذه المسألة -، فقالوا: «**يضع عليها رجله**»؛ يعني: طائفة من عباده مستحقين للدخول، والرجل تأتي بمعنى الطائفة؛ كما في حديث أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ أرسل الله جل وعلا إليه رجل جراد من ذهب[1]؛ يعني: طائفة من جراد.

وهذا تحريف باطل؛ لأن قوله: «**عليها**»: يمنع ذلك.

وأيضاً؛ لا يمكن أن يضيف الله عز وجل أهل النار إلى نفسه؛ لأن إضافة الشيء إلى الله سبحانه تكريم وتشريف.

وقالوا أيضاً أنها بمعنى: مُقَدّم؛ أي: يضع الله تعالى عليها مقدمه؛ أي: من يقدمهم إلى النار.

وهذا باطل أيضاً؛ فإن أهل النار لا يقدمهم الباري عز وجل، ولكنهم ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ [الطور: ١٣]، ويلقون فيها إلقاء.

والحاصل أنه يجب علينا أن نؤمن بأن لله تعالى قدماً، وإن شئنا؛ قلنا: رجلاً؛ على سبيل الحقيقة؛ مع عدم المماثلة، ولا نكيف الرجل؛ لأن النبي ﷺ أخبرنا بأن لله تعالى رجلاً أو قدماً، ولم يخبرنا كيف هذه الرجل أو القدم، وقد قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣].

***

(١) رواه البخاري برقم (٣٣٩١).

المسألة (الحادية والثمانون):
فِي صِفَةِ المَجِيءِ والإِتْيَانِ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى

أهل السنة والجماعة يثبتون أن الله تعالى يأتي ويجيء بنفسه هو؛ لأن الله تعالى ذكر ذلك عن نفسه، وهو سبحانه أعلم بنفسه وبغيره، وأصدق قيلاً من غيره، وأحسن حديثًا، فكلامه مشتمل على أكمل العلم والصدق والبيان والإرادة، فالله عز وجل يريد أن يبين لنا الحق، وهو أعلم وأصدق وأحسن حديثًا.

ونحن لانعلم كيفية هذا الإتيان والمجيء؛ لأن الله سبحانه وتعالى أخبرنا أنه يأتي ويجيء، ولم يخبرنا كيف يأتي ويجيء؛ ولأن الكيفية لا تعلم إلا بالمشاهدة أو مشاهدة النظير أو الخبر الصادق عنها، وكل هذا لا يوجد في صفات الله تعالى؛ ولأنه إذا جهلت الذات، جهلت الصفات؛ أي: كيفيتها، فالذات موجودة وحقيقية، ونعرفها ونعرف ما معنى الذات، وما معنى النفس، وكذلك نعرف ما معنى الإتيان والمجيء، لكن كيفية الذات أو النفس وكيفية المجيء غير معلوم لنا.

فنؤمن بأن الله تعالى يأتي ويجيء حقيقة وعلى كيفية تليق به مجهولة لنا.

وخالف البعض وحرَّف وأوَّل المجيء والإتيان بأنه عائد على الأمر والتقدير؛ فقول الله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾؛ قالوا: وجاء أمر ربك، وهذا كلام لا يصح؛ لأنه ورد في ذلك اليوم أن الله عز وجل يخاطب الناس ويكلمهم ويحكم بينهم فيا ترى من ذا الذي سيحكم بين الناس ويحدثهم ويناقشهم أهو أمر الله أم الله؟!!، إذن: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ هذا على حقيقته لا تحتمل تأويلاً، واللفظ ظاهر لا يحتاج أن نصرفه على غير وجهه؛ فالله تبارك وتعالى أثبته لنفسه في كتابه وأثبتها له رسوله ﷺ، وعلى هذا أجمع سلف الأمة، فلم يقل أحد من الصحابة ولا التابعين ولا من أئمة المسلمين بقولهم؛ فالمجيء والإتيان فعل له سبحانه وبحمده يفعله متى شاء وكيف شاء، وقال الله جل وعلا: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:١٥-١٦]؛ فذكر صفة الفعل بصيغة المبالغة للدلالة على كثرة فعله سبحانه وبحمده.

قال الله تعالى: ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ﴾ [البقرة: ٢١٠].

قوله: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾؛ ﴿هَلۡ﴾ استفهام بمعنى النفي؛ أي: ما ينظرون، وكلما وجدت ﴿إِلَّآ﴾ بعد الاستفهام، فالاستفهام يكون للنفي.

وقوله: ﴿يَنظُرُونَ﴾؛ هنا ينتظرون؛ لأنها لم تتعد بـ«إلى»، فلو تعدت بـ«إلى» لكان معناها النظر بالعين غالبـًا، أما إذا تعدت بنفسها، فهي بمعنى: ينتظرون؛ أي: ما ينتظر هؤلاء المكذبون إلا أن يأتيهم الله تعالى في ظلل من الغمام، وذلك يوم القيامة.

وقوله: ﴿يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ﴾؛ ﴿فِي﴾ هنا بمعنى «مع»، فهي للمصاحبة، وليس للظرفية قطعـًا؛ لأنها لو كانت للظرفية لكانت الظلل محيطة بالله عز وجل، ومعلوم أن الله تعالى واسع عليم، لا يحيط به شيء من مخلوقاته.

وقوله: ﴿فِي ظُلَلٖ﴾؛ أي: مع الظلل، فإن الله عز وجل عند نزوله جل وعلا للفصل بين عباده ﴿تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: ٢٥]؛ غمام أبيض، ظلل عظيمة، لمجيء الله تبارك وتعالى؛ قال العلماء: إنه السحاب الأبيض، كما قال تعالى ممتنـًا على بني إسرائيل: ﴿ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ﴾ [البقرة: ٥٧]، والسحاب الأبيض يبقي الجو مستنيراً، بخلاف الأسود والأحمر، فإنه تحصل به الظلمة، وهو أجمل منظراً.

وقوله: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ والملائكة تأتي يوم القيامة؛ لأنها تنزل في الأرض، ينزل أهل السماء الدنيا، ثم الثانية، ثم الثالثة، ثم الرابعة، وهكذا... إلى السابعة، يحيطون بالناس.

وهذا تحذير من هذا اليوم الذي يأتي على هذا الوجه، فهو مشهد عظيم من مشاهد يوم القيامة، يحذر الله سبحانه به هؤلاء المكذبين.

وقال الله جل وعلا: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾؛ أي: ما ينتظر هؤلاء إلا واحدة من هذه الأحوال:

أولاً: ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ أي: لقبض أرواحهم، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠].

ثانيًا: ﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾؛ يوم القيامة للقضاء بينهم.

ثالثًا: ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾؛ هي طلوع الشمس من مغربها، فسرها بذلك النبي ﷺ[1].

وإنما ذكر الله جل وعلا هذه الأحوال الثلاث؛ لأن الملائكة إذا نزلت لقبض أرواحهم، لا تقبل منهم التوبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [الإنسان: ١٨].

وكذلك أيضـًا إذا طلعت الشـمس من مغربها، فإن التوبة لا تقبل، وحينئذ لا يستطيعون خلاصـًا مما هم عليه.

وقال الله عز وجل: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۞ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢١-٢٢].

قوله: ﴿كَلَّآ﴾ هنا للتنبيه، مثل «ألا».

وقوله: ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾؛ هذا يوم القيامة، وأكد هذا الدك؛لعظمته، لأنها تدك الجبال والشعاب وكل شيء يدك، حتى تكون الأرض كالأديم، والأديم هو الجلد، قال الله تعالى: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۞ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٦-١٠٧]، ويحتمل أن يكون تكرار الدك تأسيسـًا لا تأكيداً؛ ويكون المعنى: دكـًا بعد دك.

وقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾، ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾؛ يعني: يوم القيامة، بعد أن

---

(١) رواه الترمذي برقم (٣٠٧١)، وصححه الألباني؛ انظر «صحيح الجامع» برقم (٥١٨١).

تدك الأرض وتسوى ويحشر الناس يأتي الله تعالى للقضاء بين عباده.

وقوله: ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾، «الـــ» هنا للعموم؛ يعني: وكل ملك؛ فالملائكة ينزلون في الأرض.

وقوله: ﴿صَفًّا صَفًّا﴾؛ أي: صفـًا من وراء صف.

فيجب إثبات صــفة الإتيان والمجيء لله جل جلاله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، وهو مجيء حقيقي يليق بالله جل وعلا.

***

المسألة (الثانية والثمانون):
فِي مَعِيَّةِ الله جَلَّ جَلَالُهُ

«**معية الله جل جلاله**» لخلقه تنقسم إلى قسمين: عامة، وخاصة.

فالخاصة تنقسم إلى قسمين: مقيدة بشخص، ومقيدة بوصف.

أما الخاصة المقيدة بوصف؛ فمثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨].

وأما الخاصة المقيدة بشخص معين؛ فمثل قوله تعالى عن نبيه ﷺ: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠]، وقال الله عز وجل لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه: ٤٦].

وهذه أخص من المقيدة بوصف.

وأما العامة؛ فهي التي تشمل كل أحد من مؤمن وكافر وبر وفاجر، ودليلها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

فالمعية العامة تستلزم الإحاطة بالخلق علماً وقدرة وسمعاً وبصراً وسلطاناً، وغير ذلك من معاني ربوبيته، والمعية الخاصة بنوعيها تستلزم مع ذلك النصر والتأييد.

وهل المعية حقيقية أو هي كناية عن علم الله عز وجل وسمعه وبصره وقدرته وسلطانه وغير ذلك من معاني ربوبيته؟.

والبعض فسرها بأنها كناية عن العلم وعن السمع والبصر والقدرة وما أشبه ذلك، فيجعلون معنى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾؛ أي: وهو عالم بكم، سميع لأقوالكم، بصير بأعمالكم، قادر عليكم، حاكم بينكم.... وهكذا، فيفسرونها بلازمها.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره أنها على حقيقتها، وأن كونه معنا حق على حقيقته، لكن ليست معيته كمعية الإنسان للإنسان التي يمكن أن يكون الإنسان مع الإنسان في مكانه؛ لأن معية الله عز وجل ثابتة له وهو في علوه؛ فهو معنا، وهو عال

على عرشه فوق كل شيء، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون معنا في الأمكنة التي نحن فيها.

ولا منافاة بين العلو والمعية؛ لأن الله تعالى ليس كمثله شيء في جميع صفاته، فهو عليّ في قُرْبه، قريب في علوه.

وضرب شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ لذلك مثلاً بالقمر، فقال: إنه يقال: ما زلنا نسير والقمر معنا، وهو موضوع في السماء، وهو من أصغر المخلوقات، فكيف لا يكون الخالق عز وجل مع الخلق - الذي الخلق بالنسبة إليه ليسوا بشيء - وهو فوق سماواته؟!.

وهل المعية من الصفات الذاتية أو من الصفات الفعلية؟.

فيه تفصيل:

أما المعية العامة، فهي ذاتية؛ لأن الله جل جلاله لم يزل ولا يزال محيطًا بالخلق علمـًا وقدرة وسلطانـًا وغير ذلك من معاني ربوبيته.

وأما المعية الخاصة؛ فهي صفة فعلية؛ لأنها تابعة لمشيئة الله جل وعلا، وكل صفة مقرونة بسبب هي من الصفات الفعلية.

قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

قوله: ﴿**هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ**﴾ استواء يليق بجلاله، فوق جميع خلقه.

وقوله: ﴿**يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ**﴾؛ أي: من حب وحيوان ومطر، وغير ذلك.

وقوله: ﴿**وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا**﴾؛ أي: من نبات وشجر وحيوان وغير ذلك.

وقوله: ﴿**وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ**﴾؛ أي: من مطر وبرد وثلج، أو من الملائكة والأقدار والأرزاق.

وقوله: ﴿**وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا**﴾ من الملائكة والأرواح، والأدعية والأعمال، وغير ذلك.

وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾؛ هذه المعية عامة؛ تستلزم العلم والاطلاع، ولهذا توعد ووعد على المجازاة بالأعمال، بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾؛ أي: هو تعالى بصير بما يصدر منكم من الأعمال، وما صدرت عنه تلك الأعمال، من بر وفجور، فمجازيكم عليها، وحافظها عليكم.

والشاهد فيها قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾؛ وهي معية تقتضي الإحاطة بالخلق علماً وقدرة وسلطاناً وسمعاً وبصراً وغير ذلك من معاني الربوبية.

وقال الله عز وجل: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

قوله: ﴿مَا يَكُونُ﴾؛ يعني: ما يوجد.

وقوله: ﴿مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾؛ أي: متناجين؛ يُسَارُّ بعضهم بعضاً.

وقوله: ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾، ذكر العدد الفردي ثلاثة وخمسة، وسكت عن العدد الزوجي، لكنه داخل في قوله: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾؛ والأدنى من ثلاثة اثنان، ﴿وَلَآ أَكْثَرَ﴾ من خمسة وستة فما فوق.

ما من اثنين فأكثر يتناجيان بأي مكان من الأرض؛ إلا والله عز وجل معهم.

وهذه المعية عامة؛ لأنها تشمل كل أحد: المؤمن، والكافر، والبر، والفاجر، ومقتضاها الإحاطة بهم علماً وقدرة وسمعاً وبصراً وسلطاناً وتدبيراً وغير ذلك.

وقوله: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: أن هذه المعية تقتضي إحصاء ما عملوه؛ فإذا كان يوم القيامة؛ نبأهم بما عملوا؛ يعني: أخبرهم به وحاسبهم عليه؛ لأن المراد بالإنباء لازمه، وهو المحاسبة، لكن إن كانوا مؤمنين؛ فإن الله تعالى يحصي أعمالهم، ثم يقول: «سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»[1].

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، كل شيء موجود أو معدوم، جائز أو

(١) رواه البخاري برقم (٢٤٤١)، ومسلم برقم (٢٧٦٨).

واجب أو ممتنع، كل شيء؛ فالله سبحانه عليم به.

وقال الله جل وعلا: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

الخطاب لأبي بكر رضي الله عنه من النبي ﷺ؛ قال الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ **لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا**﴾.

فأولاً: نصره الله عز وجل حين الإخراج؛ ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

وثانياً: وعند المكث في الغار، ﴿إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ﴾.

وثالثاً: عند الشدة حينما وقف المشركون على فم الغار، ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ﴾.

وهذا الثالث حين وقف المشركون عليهم؛ يقول أبو بكر رضي الله عنه: «يا رسول الله! لو نظر أحدهم إلى قدمه؛ لأبصرنا»[1]؛ يعني: إننا على خطر؛ كقول أصحاب موسى عليه السلام لما وصلوا إلى البحر: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾، فقال: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١-٦٢]؛ وهنا قال النبي ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: ﴿**لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا**﴾، فطمأنه وأدخل الأمن في نفسه، وعلل ذلك بقوله: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا**﴾.

وقوله: ﴿**لَا تَحْزَنْ**﴾؛ نهي يشمل الهم مما وقع وما سيقع؛ فهو صالح للماضي والمستقبل.

والحزن: تألم النفس وشدة همها.

وقوله: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا**﴾؛ هذه المعية خاصة، مقيدة بالنبي ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه.

ولهذا وقفت قريش على الغار، ولم يبصروهما!، أعمى الله أبصارهم.

وأما قول من قال: فجاءت العنكبوت فنسجت على باب الغار، والحمامة وقفت على باب الغار، فلما جاء المشركون، وإذا على الغار، حمامة وبيت عنكبوت، فقالوا: ليس فيه أحد؛ فانصرفوا، فهذا باطل لا يصح.

---

(١) رواه البخاري برقم (٣٦٥٣)، ومسلم برقم (٢٣٨١).

والحماية الإلهية والآية البالغة أن يكون الغار مفتوحاً صافياً؛ ليس فيه مانع حسي، ومع ذلك لا يرون من فيه، هذه هي الآية!!.

أما أن تأتي حمامة وعنكبوت تعشش؛ فهذا بعيد، وخلاف قول أبي بكر رضي الله عنه: «لو نظر أحدهم إلى قدمه، لأبصرنا».

وقال الله عز وجل: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

قوله: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾؛ لأن الفئة القليلة صبرت، ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾؛ صبرت كل أنواع الصبر؛ على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى ما أصابها من الجهد والتعب والمشقة في تحمل أعباء الجهاد، ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

والصبر هو حبس النفس على طاعة الله عز وجل، وحبسها عن معصية الله تعالى، وحبسها عن التسخط على أقدار الله سبحانه؛ سواء باللسان أو بالقلب أو بالجوارح.

وأفضل أنواع الصبر: الصبر على طاعة الله تعالى، ثم عن معصية الله سبحانه؛ لأن فيهما اختياراً: إن شاء الإنسان فعل المأمور، وإن شاء لم يفعل، وإن شاء ترك المحرم وإن شاء ما تركه.

ثم الصبر على أقدار الله عز وجل؛ لأن أقدار الله جل ذكره واقعة شئنا أم أبينا؛ فإن صبرنا فلنا الصبر، وإن جزعنا فلنا الجزع.

والصبر درجة عالية لا تنال إلا بشيء يصبر عليه.

ونستفيد من أن الله جل وعلا معنا؛ الإيمان بإحاطة الله عز وجل بكل شيء، وأنه مع علوه فهو مع خلقه، لا يغيب عنه شيء من أحوالهم أبداً، وأننا إذا علمنا ذلك وآمنا به؛ فإن ذلك يوجب لنا كمال مراقبته بالقيام بطاعته وترك معصيته؛ بحيث لا يفقدنا حيث أمرنا، ولا يجدنا حيث نهانا، وهذه ثمرة عظيمة لمن آمن بهذه المعية.

* * *

المسألة (الثالثة والثمانون):
فِي عُلُوِّ اللهِ تَعَالَى

«**علو الله تعالى**» ينقسم إلى ثلاثة أقسام: علو الذات، وعلو القهر، وعلو القَدْر والشرف.

وبعض العلماء يقول: ينقسم إلى قسمين: علو ذات، وعلو صفات.

والقول الأول أكثر في تفسير أهل العلم الذين دوَّنُوا شرح عقائد أهل السنة والجماعة.

فالقسم الأول: هو علو الذات: ومعناه أنَّ الله عز وجل فوق جميع الأشياء وأنه الأعلى سبحانه وتعالى، وهذا هو الذي فسّره به صلى الله عليه وسلم، لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣] ؛ فقال ﷺ: «وأنت الظاهر فليس فوقك شيء».

والقسم الثاني: هو علو القهر: ومعناه أنه سبحانه وتعالى لا يُغْلَب ولا يُقهر ؛ بل هو سبحانه وتعالى هو الذي يَقْهَرُ ويغلب من عاداه ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢]، فهو سبحانه وتعالى عالٍ علو القهر والجبروت والعظمة، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨]

القسم الثالث: هو علو القَدْر: ومعناه أن الله جل جلاله له علو المنزلة والقَدْر، فهو سبحانه له صفات الكمال ونعوت الجلال والعظمة، قال الله جل وعلا: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى:١]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقاله عز وجل: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى:٥١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء:٣٤]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الليل:٢٠] .

وإن علو الله تعالى ثابت بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وبالعقل، والفطرة؛

فقد فطر الله تعالى العباد على الإيمان بذلك، وآمن الصحابة رضي الله عنهم به، واتبعهم عليه كل من سلك طريق الرسل عليهم السلام.

قال أهل العلم: إنَّ في القرآن والسنة ألف دليل لإثبات علو الله عز وجل بذاته على خلقه.

وهذا يعني أنَّ أمر العلو ومسألة العلو من المسائل المتواترة العظيمة التي دلالتها صريحة؛ بل دلالتها نصية قطعية.

والأدلة التي دَلَّتْ على علو الله عز وجل على خلقه بذاته وصفاته كثيرة جداً؛ نذكر بعضاً منها: أنَّ الله عز وجل صرَّحَ ونصَّ على أنه فوق عباده وعالٍ على جميع خلقه ؛ قال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[الأنعام:١٨]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[النحل:٥٠] .

وأنه تبارك وتعالى ذَكَرَ أنَّ الملائكة تعرج إليه فقال سبحانه: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج:٤]، عروج الملائكة يعني صعودها، وارتقاءها إلى أعلى وإلى فوق، وهذا يدل على علو وفوقية الله عز وجل .

وأنه عز وجل ذَكَرَ أنَّ العمل الصالح يصعد إلى الرب عز وجل، والأعمال الصالحة تُرْفَعُ إليه، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠]، فقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ﴾؛ يعني: لا إلى غيره؛ لأنه سبحانه هو المتفرد بعلو الذات على خلقه جميعاً.

وسيأتي ذكر بعض الأدلة من الكتاب والسنة وتوضيحها .

وأما الدليل العقلي على علو الله عز وجل على خلقه أنّ الله عز وجل موجود سبحانه وتعالى بالاتّفاق .

فنقول لجميع هذه الفئات أنّ الوجود قَدْرٌ مشترك، فالله عز وجل موجود، وخلق الله تعالى أيضاً موجودون، وهذان الوجودان إما أن يتمايزا، وإما أن يتداخلا؛ فإن تداخلا - يعني: صار أحدهما داخل الآخر -، وإما أن يكون الخَلْق محيطون والله عز وجل في داخل خلقه، وإما أن يكون الخَلْق في داخل الله عز وجل، فخَلْق الله عز وجل والكائنات منها أشياء مستقبحة ومستقذرة مثل النجاسات والقاذورات ...،

وبعض المخلوقات السيئة ونحو ذلك، وهذه لا أحد - من جميع من يبحث هذه المسائل- يقول بجواز أن تكون في داخل الله عز وجل، فإذاً يتعَيَّن أن يكون الله عز وجل عالياً على خلقه لأنَّ الاختلاط يقتضي هذا المعنى العقلي الفاسد، وكون الله عز وجل في داخل خلقه هذا فيه نَقص لله عز وجل .

وأما الدليل الفطري لعلو الله عز وجل هو أنّ كل أحد يحس من فطرته - سواء عَلِمَ الدين أو لم يعلم الدين، عُلِّم أو لم يُعلَّم - أنَّ قلبه عند الحاجة وعند اقتطاع الأسباب يتجه إلى العلو، وهذا شيء فطري مغروس في الإنسان.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤].

قوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾؛ أي: تصعد الملائكة، والروح وهو جبريل عليه السلام، ﴿إِلَيْهِ﴾؛ يعني: إلى الله تعالى، في قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ عائدة على اسم الله تعالى.

وقبل قوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قال الله تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾، والمعارج: المصاعد؛ قال قتادة رحمه الله: ذي المعارج: ذي الفواضل، والنعم، وقيل: معارج الملائكة، وهي مصاعدها التي تصعد وتعرج فيها.

وَقَالَ اللهُ جَلَّ ذِكْره: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]

قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى الله عز وجل.

وقوله: ﴿يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾؛ الكلم هنا اسم جمع، مفرده كلمة، وجمع كلمة كلمات، فيشمل كل كلمة يتقرب بها إلى الله تعالى، كقراءة القرآن والذكر والعلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكل كلمة تقرب إلى الله عز وجل، فهي كلمة طيبة، تصعد إلى الله عز وجل، وتصل إليه، والعمل الصالح يرفعه الله سبحانه إليه أيضاً.

فالكلمات تصعد إلى الله جل وعلا، والعمل الصالح يرفعه الله تعالى، وهذا يدل على أن الله سبحانه عال بذاته؛ لأن الأشياء تصعد إليه وترفع.

قال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾: ذكر الله تعالى، و﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ﴾: أداء فرائضه، فمن ذكر الله في أداء فرائضه، حمل عليه ذكر الله، فصعد به إلى الله، ومن ذكر الله ولم يؤد فرائضه، رد كلامه على عمله، فكان أولى به».

وقال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يقبل الله قولاً إلا بعمل؛ من قال وأحسن العمل، قبل الله منه».

وقال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: «إلى الله يصعد ذكر العبد إياه وثناؤه، وأداء فرائضه، والانتهاء إلى ما أمر به».

وقال الله تعالى: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: ٥٥].

الخطاب لعيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي خلقه الله عز وجل من أم بلا أب، ولهذا ينسب إلى أمه.

وقوله: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾؛ ذكر العلماء فيها ثلاثة أقوال:

الأول: بمعنى قابضك، ومنه قولهم: توفى حقه؛أي: قبضه.

والثاني: مُنيمك؛ لأن النوم وفاة؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [الأنعام: ٦٠].

والثالث: أنه وفاة موت؛ أي: مُمِيتك، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

والقول بأن ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾، بمعنى مُـمِيتك بعيد؛ لأن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يمت، وسينزل في آخر الزمان؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩]؛ أي: قبل موت عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على أحد القولين، وذلك إذا نزل في آخر الزمان، وقيل: يعني ما من أحد من أهل الكتاب إلا إذا حضرته الوفاة؛ آمن بعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، حتى وإن كان يهودياً، وهذا القول ضعيف.

بقي النظر بين وفاة القبض ووفاة النوم؛ فنقول: إنه يمكن أن يجمع بينهما، فيكون قابضـًا له حال نومه؛ أي: أن الله تعالى ألقى عليه النوم؛ ثم رفعه، ولا منافاة بين الأمرين.

وقوله: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾؛ هو الشاهد هنا؛ فإن ﴿إِلَيَّ﴾ تفيد الغاية، وقوله: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾؛ يدل على أن المرفوع إليه كان عاليـًا، وهذا يدل على علو الله عز وجل.

وقال الله جل جلاله: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨]

قبل هذه الآية التي فيها إبطال قولهم كان منهم ادعاء بقتله؛ ﴿إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا * بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

وذلك أنّ الله تعالى ألقى شبه عيسى عليه السلام على الذي دلّ اليهود عليه، وقيل: إنهم حبسوا عيسى عليه السلام في بيت وجعلوا عليه رقيبـًا، فألقى الله تعالى شبه عيسى عليه السلام على الرقيب فقتلوه، وقيل غير ذلك، وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾؛ أي: في قتله، ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنۡهُ﴾؛ أي: في قتله؛ فاختلافهم فيه، هو أن اليهود قالت: نحن قتلناه، وقالت طائفة من النصارى: نحن قتلناه، وقالت طائفة منهم: ما قتله هؤلاء ولا هؤلاء بل رفعه الله إلى السماء، ونحن ننظر إليه، وقيل: كان الله تعالى ألقى شبه عيسى عليه السلام على وجه الرقيب، ولم يلقه على جسده، فاختلفوا فيه فقال بعضهم: قتلنا عيسى، فإن الوجه وجه عيسى عليه السلام، وقال بعضهم: لم نقتله لأن جسده ليس جسد عيسى عليه السلام، فاختلفوا، وقال السدي رحمه الله: اختلافهم من حيث أنّهم قالوا: إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا ؟، وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى؟، قال الله تعالى: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ﴾، من حقيقة أنه قتل أو لم يقتل، ﴿إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾، لكنهم يتبعون الظنّ في قتله، قال الله جلّ جلاله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا﴾؛ أي: ما قتلوا عيسى يقينا ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ﴾، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ منيعـًا بالنقمة من اليهود، ﴿حَكِيمًا﴾ حكم باللعنة والغضب عليهم .

والشاهد قوله: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ﴾، فإنه صريح بأن الله تعالى عال بذاته، إذ الرفع إلى الشيء يستلزم علوه.

وقال الله عز وجل: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗا﴾ [غافر: ٣٦-٣٧].

قوله: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ﴾؛ هو وزير فرعون، والآمر بالبناء هو فرعون.

وقوله: ﴿صَرۡحٗا﴾؛ أي: بناء عاليـًا.

وقوله: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ أي: لعلي أبلغ الطرق التي توصل إلى السماء.

وقوله: ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾؛ أي: أنظر إليه، وأصل إليه مباشرة؛ لأن موسى عليه السلام قال له: إن الله تعالى في السماء، فَمَوَّه فرعون على قومه بطلب بناء هذا الصرح العالي ليرقى عليه، ثم يقول: لم أجد أحداً، ويحتمل أنه قاله على سبيل التهكم، يقول: إن موسى عليه السلام قال: إن إلهه في السماء، اجعلونا نرقى لنراه!! تهكمـًا، وأيـًا كان، فقد قال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗا﴾، للتمويه على قومه، وإلا فهو يعلم أنه صادق، وقد قال له موسى عليه السلام: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، والله عز وجل يقول في آية أخرى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗا﴾ [النمل: ١٤].

الشاهد من هذا: أن أمر فرعون ببناء صرح يطلع به على إله موسى يدل على أن موسى عليه السلام قال لفرعون وآله: إن الله في السماء، فيكون علو الله تعالى ذاتيـًا، قد جاءت به الشرائع السابقة.

وقال الله جل وعلا: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦-١٧].

قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾؛ الذي في السماء هو الله عز وجل، لكنه كنَّى عن نفسه بهذا؛ لأن المقام مقام إظهار عظمته، وأنه فوقكم، قادر عليكم، مسيطر عليكم، مهيمن عليكم؛ لأن العالي له سلطة على من تحته.

وقوله: ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾؛ أي: تضطرب.

وقوله: ﴿أَمْ أَمِنتُم﴾؛ أي: بل أأمنتم.

وقوله: ﴿أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾؛ الحاصب عذاب من فوق يحصبون به، كما فُعِل بالذين من قبلهم، كقوم لوط وأصحاب الفيل، والخسف يكون من تحت؛ فالله عز وجل هددنا من فوق ومن تحت؛ قال الله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠]، أربعة أنواع من العذاب، وهنا ذكر الله نوعين منها: الحاصب والخسف.

والشاهد من هذه الآية هو قوله: ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾؛ والذي في السماء هو الله عز وجل، وهو دليل على علو الله تعالى بذاته.

لكن هاهنا إشكال، وهو أن «في» للظرفية، فإذا كان الله في السماء، و«في» للظرفية، فإن الظرف محيط بالمظروف!، أرأيت لو قلت: الماء في الكأس، فالكأس محيط بالماء وأوسع من الماء!، فإذا كان الله جل جلاله يقول: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾؛ فهذا ظاهره أن السماء محيطة بالله عز وجل، وهذا الظاهر باطل، وإذا كان الظاهر باطلاً، فإننا نعلم علم اليقين أنه غير مراد لله سبحانه وتعالى؛ لأنه لا يمكن أن يكون ظاهر الكتاب والسنة باطلاً.

فما الجواب على هذا الذي ظاهره الإشكال؟.

قال العلماء: الجواب أن نسلك أحد طريقين:

فإما أن نجعل السماء بمعنى العلو، وهذا وارد في اللغة، بل في القرآن، قال الله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧]، والمراد بالسماء العلو؛ لأن الماء ينزل من السحاب لا من السماء التي هي السقف المحفوظ،

والسحاب في العلو بين السماء والأرض، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤]؛ فيكون معنى ﴿مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: من في العلو؛ فهو في العلو، ليس يحاذيه شيء، ولا يكون فوقه شيء.

وإما أن تكون «في» بمعنى «على»، وهي واردة في اللغة العربية، بل وفي القرآن الكريم، قال فرعون لقومه السحرة الذين آمنوا: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]؛ أي: على جذوع النخل.

فيكون معنى ﴿مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: من على السماء.

فإن قلت: كيف تجمع بين هذه الآية، وبين قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٣].

فالجواب: أن نقول: أما الآية الأولى؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾، فالظرف هنا لألوهيته؛ يعني: أن ألوهيته ثابتة في السماء وفي الأرض، كما تقول: فلان أمير في المدينة ومكة، فهو نفسه في واحدة منهما، وفيهما جميعاً بإمارته وسلطته، فالله تعالى ألوهيته في السماء وفي الأرض، وأما هو - عز وجل - ففي السماء؛ كما قال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾.

أما الآية الثانية: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ فنقول فيها كما قلنا في التي قبلها: وهو الله جل جلاله؛ أي: وهو الإله الذي ألوهيته في السماوات وفي الأرض، أما هو نفسه، ففي السماء؛ فيكون المعنى: هو المألوه في السماوات، والمألوه في الأرض، فألوهيته في السماوات وفي الأرض.

وقيل المعنى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ثم تقف، ثم تقرأ: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾؛ أي: أنه نفسه في السماوات، ويعلم سركم وجهركم في الأرض، فليس كونه في السماء مع علوه بمانع من علمه بسركم وجهركم في الأرض.

وهذا المعنى فيه شيء من الضعف؛ لأنه يقتضي تفكيك الآية وعدم ارتباط بعضها ببعض، والصواب الأول: أن نقول: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ يعني

أن ألوهيته ثابتة في السماوات وفي الأرض، فتطابق الآية الأخرى.

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِيْنُ مَنْ فِي السَّمَاءِ»(١).

قوله: «**ألا تأمنوني**»؛ أي: ألا تعتبروني أمينـًا.

وقوله: «**وأنا أمين من في السماء**»؛ والذي في السماء هو الله عز وجل، وهو أمينه ﷺ على وحيه، وهو سيد الأمناء ﷺ.

وهذا الحديث له سبب؛ وهو أن النبي ﷺ قَسَّم ذُهَيْبَة بعث بها علي رضي الله عنه إلى اليمن بين أربعة نفر، فقال له رجل: نحن أحق بهذا من هؤلاء؟!!، فقال النبي ﷺ: «**ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء،** يأتيني خبر السماء صباحـًا ومساءً».

وقوله: «**ألا**»؛ للعرض، كأنه يقول: ائمنوني؛ فإني أمين «**من في السماء**»، ويحتمل أن تكون الهمزة لاستفهام الإنكار، و«لا» نافية.

والشاهد قوله: «**من في السماء**»، ونقول فيها ما قلناه فيما سبق في الآيات.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلجَارِيَةِ: «أَيْنَ الله؟»، قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «مَنْ أَنَا؟»، قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ الله، قَالَ: «اعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»(٢).

هذا جزء من حديث طويل، أذكره هنا بتمامه: قال معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه: بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم فقلت يرحمك الله فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: وا ثُكْلَ أُمِّيَاه، ما شأنكم تنظرون إلي؟، فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمتونني، لكني سكت، فلما صلى رسول الله ﷺ فبأبي هو وأمي ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني قال: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن»، أو كما قال رسول الله ﷺ. قلت: يا رسول الله، إني حديث عهد بجاهلية وقد جاء الله بالإسلام وإن منا رجالا يأتون

(١) رواه البخاري برقم (٤٣٥١)، ومسلم برقم (١٠٦٤).

(٢) رواه مسلم برقم (٥٣٧).

الكهان؟، قال: «فلا تأتهم»، قال: ومنا رجال يتطيرون؟، قال: «ذاك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدنهم – وفي رواية: فلا يصدنكم –»، قلت ومنا رجال يخطون؟، قال: «كان نبي من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك». قال: وكانت لي جارية ترعى غنما لي قبل أحد والجوانية، فاطَّلَعْتُ ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب بشاة من غنمها، وأنا رجل من بني آدم آسف كما يأسفون، لكني صككتها صكة، فأتيت رسول الله ﷺ فعظم ذلك عليَّ، قلت: يا رسول الله، أفلا أعتقها؟، قال: «ائتني بها»، فأتيته بها، **فقال لها: «أين الله؟»، قالت: في السماء، قال: «من أنا؟»، قالت: أنت رسول الله، قال: «أعتقها فإنها مؤمنة»**.

فقوله: «فرماني القوم بأبصارهم»؛ أي: نظروا إليَّ – زجراً – بالبصر من غير كلام، وقوله: «وا ثكل أمياه»؛ أي: فقدان المرأة ولدها، وامرأة ثكلى وثاكل وثكلته أمه وأثكله الله تعالى أمه؛ أي: وا فقد أمي إياي، فإني هلكت فـ«وا» كلمة تختص في النداء بالندبة، وقوله: «فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخادهم»؛ أي:ليسكتوه؛ وهذا محمول على أنه كان قبل أن يشرع التسبيح لمن نابه شيء في صلاته، وقوله: «رأيتهم يصمتونني»؛ أي: يسكتونني، وقوله: «كهرني»؛ قال أهل العلم: القهر والكهر والنهر متقاربة؛ أي: ما قهرني ولا نهرني، وقوله: «بجاهلية»؛ الجاهلية هي ما قبل ورود الشرع، سموا جاهلية لكثرة جهالاتهم وفحشهم، وقوله: «إن منا رجالاً يأتون الكهان؟، قال: فلا تأتهم»؛ قال العلماء: إنما نهي عن إتيان الكهان؛ لأنهم يتكلمون في مغيبات قد يصادف بعضها الإصابة، فيخاف الفتنة على الإنسان، ولأنهم يلبسون على الناس كثيراً من أمر الشرائع، وقد تظاهرت الاحاديث الصحيحة بالنهي عن إتيان الكهان وتصديقهم فيما يقولون –كما سبق ذكرها–، وهو حرام بإجماع المسلمين وقوله: «ومنا رجال يتطيرون؟، قال: ذاك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدنهم»؛ معناه: أن الطيرة شيء تجدونه في نفوسكم ضرورة ولا عتب عليكم في ذلك، لكن لا تمتنعوا بسببه من التصرف في أموركم، وقوله: «ومنا رجال يخطون؟، قال:كان نبي من الأنبياء عليه السلام يخط فمن وافق خطه فذاك»؛ اختلف العلماء في معناه؛ فالصحيح أن معناه: من وافق خطه فهو مباح له، ولكن لا طريق لنا إلى العلم اليقيني بالموافقة، فلا يباح؛ والمقصود أنه حرام لأنه لا يباح إلا بيقين الموافقة، وليس لنا يقين بها، وإنما قال النبي ﷺ: «فيمن وافق خطه فذاك»، ولم يقل هو حرام، بغير تعليق على الموافقة، لئلا يتوهم متوهم أن هذا النهي يدخل فيه ذاك النبي الذي كان

يخط، فحافظ النبي ﷺ على حرمة ذاك النبي مع بيان الحكم في حقنا؛ فالمعنى أن ذلك النبي لا منع في حقه، وكذا لو علمتم موافقته، ولكن لا علم لكم بها، وقال الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ: هذا يحتمل النهي عن هذا الخط اذا كان علما لنبوة ذاك النبي، وقد انقطعت، فنهينا عن تعاطي ذلك، وقال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: المختار أن معناه: أن من وافق خطه فذاك الذي يجدون اصابته فيما يقول لا أنه أباح ذلك لفاعله، قال: ويحتمل أن هذا نسخ في شرعنا، فحصل من مجموع كلام العلماء فيه الاتفاق على النهي عنه الآن، وقوله: «يخط» إشارة إلى علم الرمل، وقوله: «قِبل أُحد والجوانية»؛ الجوانية بقرب أحد موضع في شمال المدينة، وقوله: «آسف كما يأسفون»؛ أي: أغضب كما يغضبون، والأسف الحزن والغضب، وقوله:«صككتها صكة»؛ أي: لطمتها وضربتها بيدي مبسوطة غير مقبوضة .

وقوله: «**أين الله؟**»؛ أين: يستفهم بها عن المكان، وهذا يدل على أن السؤال بـ«**أين الله**» سائغ وجائز؛ لأن السائل به هو رسول الله ﷺ.

واستفهام النبي ﷺ بـ«**أين**» يدل على أن لله مكاناً.

ولكن يجب أن نعلم أن الله تعالى لا تحيط به الأمكنة؛ لأنه أكبر من كل شيء، وأن ما فوق الكون عدم، ما ثم إلا الله سبحانه وتعالى؛ فهو فوق كل شيء.

وقوله: «**قالت: في السماء**»؛ أي: على السماء، أو في العلو؛ على حسب الاحتمالين السابقين، وعند قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾.

وقوله: «**مَن أنا؟، قالت: أنت رسول الله**»؛ فيه دليل على أن الكافر لا يصير مؤمناً إلا بالإقرار بالله تعالى وبرسالة محمد ﷺ؛ أي: بالشهادتين.

وقوله: «**أعتقها؛ فإنها مؤمنة**»؛ فالنبي ﷺ وصف الجارية بأنها مؤمنة، مع أنها أجابت جوابين فقط؛ الأول: أن الله عز وجل في السماء، والثاني: أن محمداً رسول الله، وهذا مما يقطع بأنه يكفي في تبين مَن نجهل حاله مجرد تظاهره بالإسلام، ليكون دليلاً على أنه من المسلمين.

وهذه العقيدة التي قالتها - هذه الجارية - هي عقيدة الفطرة التي فطر الله الناس عليها، والناس الذين لم يتعلموا علم الكلام ولم يبتلوا به لم يخرجوا عن الفطرة، فعقيدة الفطرة هي عقيدة هذه الجارية التي قالت: «**إن الله في السماء**»، ولهذا جاء عن عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ أنه سأله رجل عن شيء من الأهواء، فقال له: «الزم عقيدة الصبي والأعرابي، والْهُ عما سوى ذلك»؛ يعني: ابتعد عما سوى ذلك؛ لأن الصبي

والأعرابي على الفطرة، والذي يكون على الفطرة تكون عقيدته هي العقيدة الصحيحة، وأما الذين اعتقدوا شيئًا مخالفًا لهذه العقيدة؛ فإنما جاءهم البلاء بخروجهم عن الفطرة؛ عن هذه العقيدة الحقة الصحيحة السليمة التي دل عليها كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ.

وبعض المتكلمين الذين ابتلوا بعلم الكلام منهم مَن آل أمره إلى الندم والحيرة بعد توغله في علم الكلام وتمكنه منه، وقد جاء عن الرازي -وهو ممن تمكن من علم الكلام- أنه قال: الفائز من كان على عقيدة العجائز؛ يعني: العوام، وجاء عن أبي المعالي الجويني أنه قال: أموت على عقيدة عجائز نيسابور.

وفي هذا الزمان يحاولون نشر مذهب الأشاعرة، على أنه هو مذهب أهل السنة والجماعة؛ وهذه العقيدة التي هي من علم الكلام ابتلي بها بعض الناس فأخرجتهم عن الفطرة التي هي عقيدة العجائز والعوام، وللأسف الشديد أنَّا نجد من يقول في هذا الزمان كذبًا وزوراً: إن أكثر المسلمين هم أشاعرة - ولا أعلم من أين أتى بهذا الكذب؛ أكشف عمَّا في قلوب الناس - وهذا كلام ليس بصحيح بل كذب وتدليس؛ لأن عامة الناس - وهم الأكثرية الكاثرة - على الفطرة، ولم يخرجوا عن الفطرة، وإنما خرج عن الفطرة الذين تعلموا هذه العقيدة والعقائد الأخرى المخالفة للفطرة.

وقوله: «**أعتقها**»؛ العتق هو تحرير الرقبة وتخليصها من الرِّق، والخطاب موجه إلى سيدها؛ وهو معاوية بن الحكم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْعَصْرِ وَصَلَاةِ الْفَجْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ، فَيَقُولُ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟، فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»[1].

قوله: «**يتعاقبون**»؛ التعاقب: إتيان طائفة عقب طائفة، ثم تعود الأولى بعد إتيان الثانية، وإنما يكون التعاقب بين طائفتين، أو رجلين، ومنه: تعقيب الجيوش، بأن يرسل طائفة من الجيش إلى مدة، ثم يرسل مكانهم طائفة أخرى، ويرجع الأولون.

---

(١) رواه البخاري برقم (٧٤٢٩)، ومسلم برقم (٦٣٢).

والضمير في قوله: «**فيكم**» يعود إلى المخاطبين، وهم الأمة المستجيبة للرسول ﷺ.

وقوله: «**ويجتمعون في صلاة العصر، وصلاة الفجر**»؛ أي: يجتمع في صلاة العصر الهابطون ليبيتوا مع العباد، والذين كانوا معهم في النهار، فالفريقان يحضران صلاة العصر وصلاة الفجر، فيصعد الذين صحبوا العباد بالنهار، عقب صلاة العصر، ويبقى الذين يبيتون معهم ليلاً، ثم بعد اجتماع الفريقين أيضاً في صلاة الفجر، يصعد الذين باتوا مع العباد، ويبقى الذين نزلوا في صلاة الفجر من السماء، والله تعالى يسأل كل فريق عن العباد، «**كيف تركتم عبادي**»؛ أي: على أي حال تركتموهم؟ وهو - جل وعلا - أعلم من الملائكة المصاحبين لهم بهم، ولكن يسأل -تعالى- الملائكة عنهم؛ لإظهار كرامتهم، فضلاً منه وإحساناً إليهم.

وقوله: «**ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم وهو أعلم بكم، فيقول: كيف تركتم عبادي؟، فيقولون: تركناهم يصلون، وأتيناهم، وهم يصلون**»؛ تقدم معنى العروج، وأنه: الصعود والارتفاع، والذهاب إلى العلو، وهذا هو محل الشاهد من الحديث؛ لأن السؤال حصل بعد صعودهم، حيث يصلون إلى المكان المحدد لهم، والله تعالى فوقهم، وهو -تعالى- يخاطبهم بذلك، بدون واسطة، كما هو ظاهر النص، ولو كان ذلك بوحي لم يكن هناك فرق بين كونهم في السماء، أو في الأرض.

وقوله: «**وهو أعلم بكم**»؛ دل على أن المقصود من السؤال: إظهار كرامة المؤمنين من بني آدم، بطاعتهم لربهم، وعبادتهم إياه، والتنويه بفضلهم عند الملائكة الذين في السماء، والملائكة المسؤولون فهموا من الله تعالى ما أرادوه، ولهذا قالوا في الجواب: «**تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون**».

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلَا يَصْعَدُ إِلَى اللهِ إِلَّا الطَّيِّبُ، فَإِنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهَا، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فُلُوَّهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ»[1].

قوله: «**الصدقة**» ما يخرجه الإنسان من ماله على وجه القربة، كالزكاة، لكن

---

(١) رواه البخاري برقم (٧٤٣٠)، ومسلم برقم (١٠١٤).

الصدقة –في الأصل– تقال للمتطوع به، والزكاة للواجب، وقد يسمى الواجب صدقة إذا تحرى صاحبها الصدق في فعلها.

وسميت صدقة من الصدق؛ لأنها تدل على صدق إيمان المتصدق غالبًا.

وقوله: «**بعَدل تمرة**»؛ العدل المثل، وما عادل الشيء وكافأه من غير جنسه؛ والمعنى: من تصدق بقدر تمرة أو بقيمتها.

وقوله: «**من كسب طيب**»؛ أي: تصدق بمال حلال، وإن كان قليلاً.

وقوله: «**ولا يصعد إلى الله إلا الطيب**»؛ الذي يقبله الله تعالى يصعد إليه، فيبارك به لصاحبه، وينميه.

وهذه الجملة من الحديث هي المقصود منه هنا، حيث دل على علو الله تعالى وأنه فوق، وما قَبِله الله جل جلاله من الأعمال، فإنه يصعد إليه، وقد تقدم أن الملائكة تصعد إلى الله تعالى وتعرج إليه، والصعود والعروج سواء في المعنى.

وقوله: «**فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها، كما يربي أحدكم فلوه**»؛ أي: أن الله تعالى يقبلها من صاحبها، فيأخذها بيده اليمنى، وكلتا يديه يمين، فينميها لصاحبها، ويبارك فيها، ويعتني بها عناية بالغة، كما يعتني أحدنا بأغلى ما لديه من المال، وأنفسه.

وقوله: «**فلوه**»؛ هو ولد الفرس، الذي يعد لمدافعة الأعداء وقتالهم، وحماية الأعراض، والنفوس، والأموال.

وقوله: «**حتى تكون مثل الجبل**»؛ أي: حتى يصير ما هو بقدر التمرة – لشدة عناية الله تعالى به – مثل الجبل العظيم.

وَعنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ يَشْكُو، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «اتَّقِ اللهَ، وَأَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ»، قَالَ أَنَسٌ: لَوْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَاتِمًا شَيْئًا لَكَتَمَ هَذِهِ، قَالَ: فَكَانَتْ زَيْنَبُ تَفْخَرُ عَلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ تَقُولُ: زَوَّجَكُنَّ أَهَالِيكُنَّ، وَزَوَّجَنِي اللهُ تَعَالَى مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ[1].

ذكر الحافظ في «الإصابة» نقلاً عن الكلبي بسنده، قال: «زارت سعدى أم زيد

---

(١) رواه البخاري برقم (٧٤٢٠).

قومها وزيد معها، فأغارت خيل لبني القين بن جسر، على أبيات بني معن، فاحتملوا زيداً وهو غلام يفعة، فأتوا به سوق عكاظ، فعرضوه للبيع، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد، بأربع مئة درهم، فلما تزوجها رسول الله ﷺ وهبته له، ثم جاء والده حارثة، وعمه كعب، يريدان فداءه، فطلبا ذلك من رسول الله ﷺ فقال لهما رسول الله: «ادعوه فخيروه، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء، وإن اختارني، فوالله ما أنا بالذي أختار على من أختارني»، فاختار زيد رسول الله ﷺ، فقال له والده وعمه: ويحك يا زيد، أتختار العبودية على الحرية؟، فقال: إني رأيت من هذا الرجل شيئًا ما أنا بالذي أختار عليه أحداً.

لما رأى رسول الله ﷺ ذلك خرج به إلى المحجر، وقال: اشهدوا أن زيداً ابني، عند ذلك طابت نفس والده وعمه.

وزوجه رسول الله ﷺ زينب بنت جحش، وهي ابنة عمته أميمة بنت عبد المطلب، ثم لم يتلاءما، فطلقها زيد، فزوجها الله تعالى نبيه ﷺ؛ لحكمة ذكرها الله تعالى في القرآن.

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: «إن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد،حتى نزل القرآن: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾».

وكان زيد هو الأمير في غزوة مؤتة، واستشهد فيها رضي الله عنه.

وقوله: «**جاء زيد بن حارثة يشكو**»؛ أي: جاء إلى رسول الله ﷺ يشكو زوجه زينب ويستشيره في طلاقها.

وقد بين الله تعالى المقصود من زواج رسوله ﷺ بزينب بقوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾؛ المعنى: لما فرغ زيد منها وطابت نفسه عنها وطلقها، أمرناك بتزوجها؛ لئلا يبقى في قلوب المؤمنين حرج في تزوج زوجات أدعيائهم، الذين تبنوهم، فصاروا يدعون إليهم، فيقال: ابن فلان، وليس ابنًا له، إذا فارقوهن.

وهذا إمعان في إبطال هذا التبني، الذي كان معروفًا في الجاهلية، حيث أمر الله تعالى إمام المسلمين وقدوتهم بذلك.

وقال ابن حجر العسقلاني رحمه الله: «الحاصل: أن الذي كان يخفيه هو إخبار الله

إياه أنها ستصير زوجته، والذي كان يحمله على إخفاء ذلك خشية قول الناس: تزوج امرأة ابنه، وأراد الله إبطال ما كان الجاهلية عليه، من أحكام التبني، بأمر لا أبلغ في الإبطال منه، وهو تزوج امرأة الذي يدعي ابناً له، ووقوع ذلك من إمام المسلمين؛ ليكون أدعى لقبولهم.

وقوله: «**قال أنس: لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً لكتم هذه**»؛ أي: لو قدر على سبيل الفرض الممتنع شرعاً كتم شيء من الوحي، لكان في هذه الآية، ولكنه غير واقع بل ممتنع شرعاً.

وقوله: «**فكانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ**»؛ الفخر: هو ذكر المحاسن وعدها، مباهاة بها غيره، فزينب رضي الله عنها تفخر بأن زواجها برسول الله ﷺ كان بأمر الله عز وجل له بذلك، وأنه من أعظم فضائلها، وأنه لا يساويها في ذلك من أزواجه أحد.

وقوله: «**تقول: زوجكن أهاليكن، وزوجني الله تعالى من فوق سبع سماوات**»؛ هذا القدر من الحديث هو محل الشاهد، وهو ثبوت علو الله تعالى وتقرره لدى المؤمنين، فهو أمر مُسَلَّم به بين عموم المسلمين، بل بين عموم الخلق إلا مَن غيرت فطرته، لهو من الصفات المعلومة بالسمع والعقل والفطرة، عند كل من لم تنحرف فطرته.

ومعنى قولها: «**وزوجني الله**»؛ أي: أمر رسوله ﷺ بأن يتزوجها بقوله -تعالى-: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾.

وقوله: «**من فوق سبع سماوات**»؛ أي: إن زواجي صدر من الله تعالى حيث أمر رسوله به، وتولى عقد نكاحها عليه.

ولما كان مستقراً في نفوس المخاطبين أن الله تعالى هو العلي الأعلى، وأنه فوق كل شيء، كان المفهوم العلو لله تعالى، وأنه فوق كل شيء.

***

المسألة (الرابعة والثمانون):
فِي العَرْشِ واسْتِوَاءِ اللهِ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِ

قوله: «**العرش**»؛ أي: الذي استوى ربنا سبحانه وتعالى عليه؛ وهو مخلوق من مخلوقاته العظام، وصفه الله جل وعلا بصفات في كتابه كقوله عز وجل: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩]، وقوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون:١١٦]، وأيضاً وصفه تعالى بأنه يُحمَل؛ فقال جل وعلا: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٧]، ووصفه تعالى أيضاً بأن حوله الملائكة يسبحون بحمد الله؛ قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧]، وأيضاً جاء وصف العرش بأن له قوائم؛ قال النبي ﷺ: «يصعق الناس فأكون أول من يفيق فإذا موسى آخذ أو قال باطش بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جُوزِيَ بصعقة الطور»[1]، ونحو ذلك من الآيات و الأحاديث التي فيها وصف العرش.

والعرش في لغة العرب هو: سرير المَلِك؛ يعني: المكان الذي يجلس عليه الملك إذا أراد مقابلة من يدخل عليه، وهذا جاء في قصة بلقيس، حيث قال الله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل:٢٣]، وأيضاً: في قصة يوسف عليه السلام؛ قال جل وعلا: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠]، وسمي العرش عرشاً لعلوه على غيره، لأنه معروش مرفوع، وقد قال تعالى: ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل:٦٨]؛ أي: ومما يرفعونه مما يبنون؛ ولهذا قال أهل العلم: عرش الرحمن؛ فوقُ الجنة – يعني: سقف الجنة –، وعال على السماوات وعلى الكرسي، فهو أعلى المخلوقات، فليس ثم شيء من المخلوقات أعلى من عرش الرحمن،

---

(١) رواه البخاري برقم (٦٥١٨) و(٧٤٢٧)، ومسلم برقم (٢٣٧٤)، وسيأتي قريباً.

وفوق العرش الله رب العالمين تبارك وتعالى.

وقوله: «استواء الله سبحانه عليه»؛ أي: على عرشه؛ ومعنى الاستواء: العلو، والارتفاع، والاستقرار، والصعود، هذه هي التفاسير المنقولة عن سلف الأمة، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾؛ أي: علا وارتفع على العرش، فالله تعالى لم يزل عاليـًا ومرتفعـًا على خلقه أجمعين.

فمعتقد أهل السنة أنهم يثبتون الاستواء من غير تكييف؛ كما قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ - حين سئل عن استواء الله تعالى-: «الاستواء معلوم، والكيف غير معقول - أو مجهول -، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»، ثم قال للسائل: «ولا أراك إلا مبتدعـًا فاخرج»؛ وقوله: «والكيف غير معقول أو مجهول»؛ أي: كيفية الاستواء مجهولة.

فإذن إثبات الاستواء على العرش إثبات معنى لا إثبات كيفية، فما توهم متوهم في كيفية الاستواء فحقيقة الاستواء بخلافه؛ إذ استواء الله تعالى على عرشه ليس كاستواء الملوك على عروشها، وليس كاستواء الناس على ما يجلسون عليه؛ فالله تبارك وتعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

وقد قال أبو داود الطيالسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أدركت سفيان وشعبة وحماد بن زيد وحماد بن سلمة والليث وشريك لا يحدون ولا يمثلون ولا يشبهون فإذا سئلوا نطقوا بالأثر»؛ أي: يثبتون الصفات على ما جاء في الأثر -يعني: الكتاب والسنة-، أما تحديدها وتكييفها فيبتعدون عنه، وتمثيلها وتشبيهها يبتعدون عنه.

فهذه العقيدة تورث إجلال الله وتعظيمه؛ فابن آدم في الأرض كالهباء صغيراً بالنسبة للأرض، وأن الأرض بالنسبة للسماوات أيضا متناهية في الصغر، والسماوات السبع بمن فيها وما فيها بالنسبة للكرسي متناهية في الصغر، والكرسي بالنسبة للعرش كذلك، والعرش يحيط به رب العالمين والله جل وعلا بكل شيء محيط ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ [فصلت: ٥٤]؛ فهذا يورث التعظيم والإجلال وينقطع العبد عن الإدراك إلا بما جاءت به النصوص، ويورثه ذلك معرفة فقره وضعفه، فيعبده وحده ويجله ويتوب إليه.

أما المبتدعة المحرفون للنصوص؛ ففسروا النصوص التي فيها الاستواء بمعنى الاستيلاء، مستدلين بقول الشاعر:

قَدِ اسْتَوَى بِشْرٌ عَلَى العِرَاقِ مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ أَوْ دَمٍ مِهْرَاقِ

فقالوا: «قد استوى بشر على العرق»؛ أي: استولى بشر على العراق، واشتهر أن قائل هذا البيت هو الأخطل، ولما بحث أهل العلم في ديوان الأخطل فلم يجدوا هذا البيت في ديوانه، وقال جمعٌ من أهل التحقيق: بأنه مولد مصنوع، ولم يثبت عمن يحتج بقوله من العرب الأقحاح أنه فسر الاستواء بالاستيلاء، ولا يوجد في لغة العرب تفسير الاستواء بالاستيلاء، ولا يوجد في لغة العرب تفسير الاستواء بغير الألفاظ الأربعة التي ثبتت عن سلف هذه الأمة.

وقالوا: الاستواء على العرش، إذا قيل فيه: استوى بمعنى علا وارتفع اقتضى التشبيه والتجسيم؛ لأنه لا يعقل منه معنى، إلا أن يكون جلوس عليه واستقرار عليه، ومعنى ذلك: أن يحوي المجلوسُ عليه الجالس.

وهذا باطل لا يصح، وهو ادعاء وقعوا فيه؛ لأنهم شبهوا الله جل وعلا بخلقه.

وهذا لأنهم توهموا أن اتصاف الله جل وعلا بصفاته هو من جنس ومثل اتصاف الخلق بالصفات، فظنوا أن استواء الله تعالى على عرشه هو من جنس استواء الملك على عرشه أو استواء المخلوق على كرسيه، وهذا تمثيل وتشبيه، فتوهموا أنهم على طريق التنزيه، فوقعوا في التشبيه والتعطيل، فمثلوا الله سبحانه بعقولهم، ثم نفوا الصفة؛ فوقعوا في محذورين:

الأول: توهم التجسيم والتمثيل.

والثاني: النفي والتأويل والتحريف.

وأيضًا قالوا: العرش هو المُلْك؛ وقالوا: إن العرب تقول: ثُل عرش بني فلان، ثُل عرش سبأ، إذا ذهب ملكهم، فثُل العرش؛ يعني: ذهب المُلك.

فنقول: أولاً: العرش وصفه الله جل وعلا في القرآن بأنه يوم القيامة يحمله ثمانية ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ فهل المُلك يحمل؟، فالمُلك أمر معنوي، ليس هو المملكة إنما هو المُلك، فهل المُلك يحمل؟!!.

وثانيًا: قال النبي ﷺ: «فإذا موسى باطش بقائمة أو قال آخذ بقائمة من قوائم

العرش»، فهل للمُلك قوائم؟.

وما ذكرنا يدل على أن الله جل وعلا متصف بأنه مستوٍ على عرشه جل وعلا وتعاظم وتقدس وتبارك ربنا، وهو سبحانه وتعالى بائن ومنفصل عن جميع خلقه، وأن عرشه ومن يحمل العرش محتاجون إليه سبحانه وتعالى، فقراء إليه وهو عز وجل غني عنهم.

قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧].

هي جزء من الآية؛ والآية بتمامها هي قول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ **وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ** لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾.

فقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾؛ اليوم من طلوع الشمس إلى غروبها، أو من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس، والثاني هو تعريف شرعي عند الأكثر؛ ويستعمل (اليوم) أيضًا بمعنى: مطلق الزمان؛ وبه فسروا قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣]؛ يعني: في هذا الوقت أكملت لكم دينكم، وكما في قول النبي ﷺ: «بين يدي الساعة أيام الهرج يزول فيها العلم ويظهر فيها الجهل»[1]، وأيام الهرج تعني: وقت وأزمنة القتل والفتن، وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يخبر تعالى أنه خلق العالم سماواته وأرضه وما بين ذلك في ستة أيام كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن، والستة الأيام: الأحد، والإثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة، وفيه اجتمع الخلق كلهم، وفيه خلق آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

واختلفوا في هذه الأيام؛ هل هي من أيام الله المقصودة بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج:٤٧]؛ أم أنها كأيام الدنيا المعروفة، قال مجاهد وغيره: أولها الأحد وآخرها الجمعة، فأما يوم السبت فلم يقع

---

(١) رواه البخاري برقم (٦٠٧٧).

فيه خلق؛ لأنه اليوم السابع، ومنه سمي السبت ومعناه: القطع، أما ما روي عن أبي هريرة ﵁ قال: «أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبال فيها يوم الأحد، وخلق الشجر فيها يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم ﵇ بعد العصر يوم الجمعة، آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل»[1]، وفيه استيعاب الأيام السبعة، والله تعالى قد قال: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾؛ ولذلك تكلم البخاري وغير واحد من الحفاظ في هذا الحديث، وجعلوه من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار وليس مرفوعـًا إلى النبي ﷺ.

فقوله: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾؛ ذلك أن في خلق الأشياء بهذا التدرج حثـًا على التأني في الأمور، مع أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يخلقها كلها بقوله: كن فتكون، لكن في ذلك حث على التأني في الأمور، وذكر الله عز وجل الأيام لتفخيم خلق السماوات والأرض، وإلا فإن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يخلق كل هذا الوجود بكلمة (كن) فيكون في الحال، بلا أي تراخ زمني على الإطلاق .

وقوله: ﴿عَرْشُهُۥ﴾، وأيضـًا ﴿ٱلْعَرْشِ﴾ اسم للسرير المرتفع العظيم، الذي

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٣٢٧)، ومسلم برقم (٢٧٨٩)؛ وقال الحافظ ابن كثير ﵀ في «تفسيره» - بعد أن أورد الحديث من طريق مسلم -: «هذا الحديث من غرائب «صحيح مسلم»، وقد تكلم عليه ابن المديني والبخاري، وغير واحد من الحفاظ، وجعلوه من كلام كعب، وأن أبا هريرة إنما سمعه من كلام كعب الأحبار، وإنما اشتبه على بعض الرواة، فجعله مرفوعـًا»، وقال أيضـًا: «وفيه استيعاب الأيام السبعة، والله تعالى قد قال: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، ولهذا تكلم البخاري وغير واحد من الحفاظ في هذا الحديث، وجعلوه من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار، ليس مرفوعـًا».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «الفتاوى»: «وأما الحديث الذى رواه مسلم في قوله: «خلق الله التربة يوم السبت» فهو حديث معلول قدح فيه أئمة الحديث كالبخاري وغيره، وقال البخاري: الصحيح أنه موقوف على كعب الأحبار، وقد ذكر تعليله البيهقي أيضـًا، وبينوا أنه غلط ليس مما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ، وهو مما أنكر الحذاق على مسلم إخراجَه إياه .

وقال المناوي في «فيض القدير»: «قال بعضهم: هذا الحديث في متنه غرابة شديدة، فمن ذلك: أنه ليس فيه ذكر خلق السماوات، وفيه ذكر خلق الأرض وما فيها في سبعة أيام، وهذا خلاف القرآن، لأن الأربعة خلقت في أربعة أيام، ثم خلقت السماوات في يومين».

يجلس عليه الملك، ويطلق على السقف؛ وعرش الرب – جل وعلا – له المعنيان: فهو محل استوائه تعالى وعلوه سبحانه، وهو عزوجل بائن منفصل عنه، وهو – أي: العرش – سقف المخلوقات.

وقوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾؛ أي: قبل أن يخلق السماوات والأرض، وما فيهن.

وقال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وكان عرشه على الماء قبل أن يخلق شيئًا.

وقال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ينبئكم ربكم – تبارك وتعالى- كيف كان بدء خلقه، قبل أن يخلق السماوات والأرض.

فبين أن خلق العرش والماء قبل خلق الأرض والسماء، وقال عمران بن حصين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: كنت عند النبي ﷺ إذ جاءه قوم من بني تميم فقال: «أقبلوا البشرى يابني تميم» قالوا: بشرتنا فأعطنا -مرتين-، فدخل ناس من أهل اليمن فقال: «أقبلوا البشرى يا أهل اليمن، إذ لم يقبلها بنو تميم»، قالوا: قبلنا، جئنا لنتفقه في الدين، ولنسألك عن هذا الأمر ما كان ؟، قال: «كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السموات والأرض، وكتب في الذكر كل شيء»، ثم أتاني رجل فقال: يا عمران، أدرك ناقتك فقد ذهبت، فانطلقت أطلبها فإذا هي يقطع دونها السراب، وايم الله لوددت أنها قد ذهبت ولم أقم[1].

وقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؛ أي: خلق ذلك ليبتلي عباده بالاعتبار والاستدلال على كمال قدرته وعلى البعث، ومعنى ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؛ أتم عقلا، وقيل: أيكم أكثر شكراً، وقيل: أيكم أتقى لله، وقيل: أيكم أعمل بطاعة الله عز وجل .

وَقَالَ اللهُ سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩]

هي جزء من آية، وردت في موضعين؛ الأول: قول الله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾، والثاني: قوله

(١) رواه البخاري برقم (٧٤١٨)، وسيأتي قريبًا.

تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [النمل: ٢٥].

والمعنى: هو أن الله تعالى المالك للعرش، الذي هو أكبر المخلوقات وأعظمها، وهو المتصرف فيه، وهو عرشه الذي استوى عليه، فاختاره لذلك.

فالإضافة تقتضي اختصاصاً للعرش من بين المخلوقات، فهو -تعالى- رب كل مخلوق، فإضافة العرش إليه – تعالى – ووصفه بأنه عظيم، يدل على خصوصية للعرش، ليست لغيره من سائر المخلوقات، كما يدل على أنه – سبحانه وتعالى – مالك لكل ما دون العرش بطريق الأولى، والمتصرف فيه كيف يشاء.

وقد سبق في مقدمة هذه المسألة أن ذكرنا أقوال أهل التفسير، وأنها متفقة على أن العرش هو السرير، وأنه جسم مجسم خلقه الله تعالى وأمر ملائكته بحمله، وتعبدهم بتعظيمه، والطواف به، كما خلق في الأرض بيتاً، وأمر بني آدم بالطواف به، واستقباله في الصلاة.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: إن سيدكم ومصلح أموركم أيها الناس هو المعبود الذي له العبادة.

وقوله: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾؛ أي: أوجدهما من العدم على وجه الإحكام والإتقان.

وقوله: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾؛ مدة هذه الأيام مختلف فيها بين العلماء، إمّا أن تكون هذه الأيام كأيامنا التي نعرف؛ وإما أن تكون كأيام الآخرة؛ منها أربعة أيام للأرض، ويومان للسماء، كما فَصَّل الله عز وجل بقوله: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ۞ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ۞ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ

﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩-١٢].

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾؛ ﴿ثُمَّ﴾؛ للترتيب؛ ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾؛ بمعنى: علا، وأهل السنة والجماعة يؤمنون بأن الله تعالى مستوٍ على عرشه استواء يليق بجلاله ولا يماثل استواء المخلوقين.

وقد ورد عن السلف في تفسير الاستواء أربعة معانٍ: الأول: علا، والثاني: ارتفع، والثالث: صعد، والرابع: استقر؛ ودليلهم في ذلك: أنها في جميع مواردها في اللغة العربية لم تأت إلا لهذا المعنى إذا كانت متعدية بـ«على»: قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ [المؤمنون: ٢٨]، وقال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ١٢-١٣].

وعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: إِنِّي عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، إِذْ جَاءَهُ قَوْمٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، فَقَالَ: «اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا بَنِي تَمِيمٍ»، قَالُوا: بَشَّرْتَنَا، فَأَعْطِنَا، فَدَخَلَ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ، فَقَالَ: «اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا أَهْلَ الْيَمَنِ، إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ»، قَالُوا: قَبِلْنَا، جِئْنَاكَ لِنَتَفَقَّهَ فِي الدِّينِ، وَلِنَسْأَلَكَ عَنْ أَوَّلِ هَذَا الْأَمْرِ، مَا كَانَ؟، قَالَ: «كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ»، ثُمَّ أَتَانِي رَجُلٌ فَقَالَ: يَا عِمْرَانُ، أَدْرِكْ نَاقَتَكَ، فَقَدْ ذَهَبَتْ، فَانْطَلَقْتُ أَطْلُبُهَا، فَإِذَا السَّرَابُ يَنْقَطِعُ دُونَهَا، وَايْمُ اللهِ لَوَدِدْتُ أَنَّهَا قَدْ ذَهَبَتْ وَلَمْ أَقُمْ[1].

«**عمران بن حصين**»؛ الخزاعي، أبو نُجَيْد، صحابي جليل، مات سنة اثنتين وخمسين بالبصرة، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وقوله: «**اقبلوا البشرى يا بني تميم**»؛ البشرى: اسم من البشير، وهي الإخبار بما

---

(١) رواه البخاري برقم (٧٤١٨).

يسر ويفرح غالبـًا، وسميت بذلك؛ لأنه يظهر أثرها على بشرة الوجه؛ والمراد بهذه البشـرى هنا: الخير العظيم الذي يترتب على الإسـلام، والنجاة من العذاب العظيم الذي يترتب على عدم الدخول في الإسلام، وذلك في الدنيا والآخرة.

وتميم: اسـم رجل، وهو تميم بن مُرٍّ، والقوم الذين خاطبهم النبي ﷺ ينسـبون إليه، والتميم في اللغة: الشريد.

وقوله: «**قالوا: بشرتنا فأعطنا**»؛ يظهر أنهم ما فهموا مقصد الرسول ﷺ بما أراده بالبشـرى، أو أن رغبتهم في العاجلة، فعلقوا بها آمالهم، فقدموا ذلك على التفقه في الدين، والإقبال على تفهم ما قاله الرسول ﷺ، ولهذا كره رسول الله ﷺ قولهم.

وقوله: «**فدخل ناس من أهل اليمن، فقال: اقبلوا البشرى يا أهل اليمن، إذ لم يقبلها بنو تميم**»؛ أي: اقبلوا مني ما يقتضـي أن تبشـروا بالجنة، إذا أخذتم به، ويؤخذ من هذا: أنه ينبغي – بل يتعين – قبول ما جاء عن الله تعالى ورسوله ﷺ، بدون توقف أو استفسار، أو طلب للعلة والسبب؛ لأن قول بني تميم: «**بشرتنا فأعطنا**» لا يدل بظاهره على أنهم لم يقبلوها، ومع ذلك جعل عدم فهمهم للمقصـود وطلبهم لأمر عاجل، عدم قبول للبشرى.

وقوله: «**جئناك لنتفقه في الدين**»؛ الفقه هو الفهم؛ أي: فهم المراد؛ وأننا قد آمنا بك، وبما جئت به، وأتينا إليك لتفهمنا ديننا الذي جئت به، وتعلمنا ما نعتقده، ونعمل به، وهذا من توفيق الله تعالى لعبده؛ أن يهتم بالتفقه في دينه، حتى يعبد ربه على علم وبصيرة.

وقوله: «**ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان**»؛ الإشارة في قوله: «**هذا**» تعود إلى شيء مشاهد، حاضر، موجود، وهو هذا الخلق المرئي من السماوات والأرض، وما بينهما، وما فيهما؛ والمعنى: جئنا نسـأل عن مبدأ خلق هذه المخلوقات المشـاهدة، وهذا هو الظاهر.

وقوله: «**كان الله، ولم يكن شيء قبله**»؛ أي: أن الله تعالى هو الأول قبل كل شيء، الذي لا يتصـور لأوليته مبدأ، حتى يمكن أن يتصـور قبله شـيء، بل هو الأول بلا بداية، كما أنه الآخر بلا نهاية، فما من غاية يقدرها العقل إلا وأزليته -تعالى- قبلها، بلا غاية محدودة، والأزل معناه ليس له بداية أبداً.

وقوله: «**وكان عرشه على الماء**»؛ أي: وقت خلق السماوات والأرض كان عرشه على الماء، والمراد هنا الإخبار بكون العرش على الماء، عند ابتداء خلق السماوات والأرض.

قال ابن خزيمة رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «التوحيد»: معنى قوله: «**وكان عرشه على الماء**» كقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧]؛ يعني: أن «كان» هنا لا تدل على أن ذلك أمر قد مضى وانقضى، بل تدل على ثبوته، فهو كان ولا يزال على ما كان، وليس معنى ذلك أن شيئًا من مفعولاته قديم معه، بل هو خالق كل شيء، وكل شيء سواه مخلوق له، وكل مخلوق محدث كائن بعد أن لم يكن، مع أنه -تعالى- لم يزل بصفاته خالقًا فعالاً لما يريد.

ومن المعلوم أن الخلق صفة كمال، كما قال الله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ [النحل: ١٧]، فلا يجوز أن ينفك عن هذه الصفة، ولكن كل مخلوق محدث مسبوق بالعدم، وليس مع الله تعالى شيء قديم، ولا شك أن هذا أبلغ في الكمال، من أن يكون معطلاً غير قادر على الفعل.

وأما جعل المفعول المعين مقارنًا له -تعالى- أزلاً وأبداً، فهو باطل عقلاً وشرعًا، ولا يقوله إلا جاهل أو معطل.

والأدلة على بدء خلق الأفلاك، وخلق الزمان — الذي هو مقدار حركة الفلك — كثيرة، أخبرت بها الرسل، كما أخبرت أنها خُلقت من مادة موجودة قبلها، وفي زمان قبل هذا الزمان، فإن الله تعالى أخبر أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، سواءً قيل: إن تلك الأيام بمقدار هذه الأيام المعروفة بطلوع الشمس وغروبها، أو أنها أكبر منها، وأن كل يوم قدره ألف سنة.

فقوله: «**وكان عرشه على الماء**» هي محل الشاهد، وهو دليل على عظم العرش، وأن له شأنًا غير شأن السماوات والأرض، وأن وجوده قبل وجودهما.

وقوله: «**ثم خلق السماوات والأرض**»؛ «**ثم**» تفيد الترتيب مع التراخي؛ أي: ترتيب خلق السماوات والأرض على وجود العرش والماء.

ولا شك أن العرش والماء مخلوقان، ولم يذكر الله جل وعلا لنا وقت خلق

العرش والماء، كما لم يذكر لنا أن له مخلوقات قبلهما، ولكن النصوص من الوحي، والفطرة والعقل السليم، تدل على أن الله تعالى لم يزل يفعل ما يشاء ويتكلم بما يشاء، وهذا من الكمال الواجب له، والذي يليق به -تعالى-.

وقوله: «**وكتب في الذكر كل شيء**»؛ الكتابة هنا أضيفت إلى الله تعالى ولا يتعين منه أنه -تعالى- باشر الكتابة بنفسه، بل يجوز أن يأمر بذلك ما يشاء.

وقد جاء عن رسول الله ﷺ موضحًا ذلك، كما في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، قال: رب، وما أكتب؟، قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»[1]؛ والمقصود بالذكر هنا: محل الكتابة، وهو اللوح المحفوظ.

والمراد أنه -تعالى- كتب كل ما أراد إيجاده من تلك الساعة التي جرت فيها الكتابة إلى قيام الساعة.

وقوله: «**ثم أتاني رجل، فقال: يا عمران، أدرك ناقتك فقد ذهبت، فانطلقت أطلبها، فإذا السراب ينقطع دونها**»؛ السَّراب هو الذي يُرَى في شدة الحر كالماء، فإذا جئته لم تلق شيئًا؛ أي: أنها تُسرع إسراعًا، فهو ينقطع بينه وبينها لبعدها، فيراها مرة، وأخرى يكاد يخفيها السراب.

وقوله: «**وايم الله**»؛ قيل معناه: يمين الله، فهو قسم مشهور عند العرب.

وقوله: «**لوددت أنها ذهبت، ولم أقم**»؛ أي: أنه يقول: إن رغبتي والأحب إليَّ أني بقيت في مجلسي عند رسول الله ﷺ أتعلم منه الإيمان والعلم، ولم أقم في طلب راحلتي، بل أتركها مُؤْثراً ما أسمعه من رسول الله ﷺ من غذاء القلب والروح، على راحلتي.

وهذا شأن صحابة رسول الله ﷺ رضي الله عنهم في حرصهم على التعلم منه، والبحث عن الهدى والخير، ولهذا حفظوا كل ما قاله الرسول ﷺ وما فعله، حتى نقلوا لنا تحرك شعر لحيته وهو يصلي، وغير ذلك، فجزاهم الله خيراً.

---

(١) رواه أبو داود برقم (٤٧٠٢)، وصححه الألباني؛ انظر: «صحيح الجامع» برقم (٢٠١٨).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ آمَنَ بِالله وَرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ، كَانَ حَقًّا عَلَى الله أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، هَاجَرَ فِي سَبِيلِ الله أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا»، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، أَفَلَا نُنَبِّئُ النَّاسَ بِذَلِكَ؟، قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِئَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا الله لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ الله فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»(1).

قوله: «**من آمن بالله ورسوله**»؛ هذا هو الأساس الذي يبنى عليه العمل، فلا بد من الإيمان بالله ورسوله أولاً قبل العمل، فكل عمل مشروط لصحته أن يكون العامل مؤمنًا، قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [النساء: ١٢٤]، وقال -تعالى-: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ [الأنبياء: ٩٤].

و الإيمان بالله تعالى يدخل فيه الإيمان بأنه المالك لكل شيء، المتصرف كيف يشاء، وأنه الإله الحق، الذي يجب أن يعبد وحده، لا شريك له في ذلك، لا ملك ولا نبي، ولا أحد من الخلق مهما علت منزلته وحسنت عبادته.

ويدخل فيه الإيمان بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا، أن يثبت له ما أثبته لنفسه، وأثبت له رسله عليهم الصلاة والسلام، من غير تحريف ولا تمثيل، ولا تكييف ولا تعطيل، بل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾.

وقوله: «**وأقام الصلاة**»؛ إقامة الصلاة: الإتيان بها على وفق أمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ، كاملة في أفضل أوقاتها.

وقوله: «**وصام رمضان**»؛ الصيام في اللغة: هو الإمساك، وفي الشرع: إمساك مخصوص، عن أشياء مخصوصة، من طلوع الفجر، إلى غروب الشمس، تعبداً لله

---

(1) رواه البخاري برقم (٧٤٢٣).

تعالى.

ولم يذكر الزكاة والحج؛ لأن الزكاة لا تجب إلا على من له مال، والحج لا يجب إلا مرة على التراخي لمن استطاع؛ والحديث لم يأتِ لبيان الأركان، فاقتصر على ذكر البعض؛ لأنه هو المتكرر غالبًا.

وقوله: «**كان حقًا على الله أن يدخله الجنة**»؛ هو حق أحقه الله تعالى على نفسه، فهو أوجبه على نفسه، فلا بد من وقوعه كما أخبر -تعالى-.

وقوله: «**هاجر في سبيل الله**»؛ الهجرة هي الترك والمفارقة، والمقصود بها هنا: الانتقال من بلد الشرك والكفر إلى بلد الإسلام، وهي واجبة على المسلم إذا خاف الفتنة في دينه، أو منع من ممارسة شعائر دينه، وإعلانه ظاهراً.

وتكون الهجرة بالنية والقصد، وتكون باللسان وبالبدن.

وقوله: «**سبيل الله**»؛ أي: طاعته، واتباع أمره، واجتناب نهيه، واتباع رسوله ﷺ.

وقوله: «**أو جلس في أرضه التي ولد فيها**»؛ المعنى: أنه بقي في بلده يعبد ربه، ولا يشرك به شيئًا، ولم يهاجر إلى المدينة النبوية، وذلك أن الهجرة كانت فرضًا على كل قادر، فلما فتحت مكة، ودخل الناس في دين الله عز وجل أفواجًا، وأصبحت جزيرة العرب كلها دار إسلام، إلا القليل، نسخت الهجرة لأجل ذلك، ولكن حكمها باقٍ إلى يوم القيامة.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيه تأنيس لمن حُرِم الجهاد، وأنه ليس محرومًا من الأجر، بل له من الإيمان والتزام الفرائض ما يوصله إلى الجنة، وإن قصر عن درجة المجاهدين».

وقوله: «**فقالوا: يا رسول الله، أفلا ننبئ الناس بذلك؟**»؛ رأوا أن هذا فيه بشارة للمسلمين، وتسهيل عظيم عليهم، في عدم لزوم الهجرة، فإن ترك الوطن والأهل والأقارب والمألوفات، كل ذلك يشق على النفس، ولا يقوى عليه كل أحد.

وقوله: «**إن في الجنة مئة درجة**»؛ الظاهر أن المراد: لا تبشروا الناس بما ذكر من دخول الجنة، لمن آمنوا وعملوا الأعمال المفروضة عليهم، فيقفوا عندها، ولا يتجاوزوها إلى ما هو أفضل منها من الدرجات التي تحصل بالجهاد، وهذه هي الفائدة في قوله: «**أعدها الله للمجاهدين**»؛ وهذه الدرجات للمجاهدين في سبيل الله

تعالى خاصة، ولا ينفي هذا وجود درجات أخر لغير المجاهدين في الجنة، كما جاء في قوله ﷺ: «اقرأ وارتق، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأها»[(١)]، وعدد آيات القرآن ست وثلاثون ومئتان وستة آلاف، على اختلاف في ذلك.

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «الجِهاد: أصله لغة: المشقة، وشرعًا: بذل الجهد في قتال الكفار، ويطلق أيضًا على مجاهدة النفس والشيطان والفساق؛ فأما مجاهدة النفس، على تعلم أمور الدين، ثم على العمل بها، ثم تعليمها، وأما مجاهدة الشيطان، فعلى دفع ما يأتي به من الشبهات، وما يزينه من الشهوات، وأما مجاهدة الكفار، فتقع باليد، والمال، واللسان، والقلب، وأما مجاهدة الفساق: فباليد، ثم اللسان، ثم القلب».

وقوله: «**كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض**»؛ المقصود بالدرجة: المنزلة المعدة لمن يستحقها من أهل الإيمان والعمل، ودرجات الجنة كثيرة، ولا شك أن كل درجة تختلف عن التي دونها بما فيها من أنواع النعيم والحسن.

وهذا التفاوت العظيم في الدرجات، لتفاوت أعمال العاملين في الإيمان والمقاصد والخشية والإخلاص والمحبة والإنابة والجد وكثرة العمل وغير ذلك.

وقوله: «**فإذا سألتم الله، فسلوه الفردوس**»؛ أصل الفردوس: البستان، والفراديس: البساتين؛ والفردوس: اسم يطلق على جميع الجنة، ويطلق على أفضلها وأعلاها، كأنه أحق بهذا الاسم من غيره من الجنات؛ قال الله تعالى: ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ** * ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ [الكهف: ١٠٧].

وقوله: «**فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة**»؛ الظاهر أن المراد: أن الفردوس، هو وسط الجنة، وهو أعلاها، على ظاهر النص؛ يعني: أن الجنان الأخرى عن جوانبه، ومن تحته، وهو أعلاها، ويدل على ذلك قوله: «**وفوقه عرش الرحمن**»، فليس فوق

---

(١) رواه أبو داود برقم (١٤٦٤)، والترمذي برقم (٢٩١٤)، وصححه الألباني؛ انظر: «السلسلة الصحيحة» برقم (٢٢٤٠).

الفردوس إلا عرش الرحمن جل وعلا، كما يدل عليه أيضـاً قوله: «**ومنه تفجر أنهار الجنة** »؛ لأن الأنهار عادة تنبع من الأعلى، والله أعلم.

وقوله: «**وفوقه عرش الرحمن**» هذه الجملة هي الشـاهد؛ لأنها تدل على أن أعلى مخلوق هو العرش، وليس فوق العرش مخلوق، ولكن الرحمن جل وعلا فوقه.

وعَن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ عِنْدَ الْكَرْبِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا الله الْعَلِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَـهَ إِلَّا الله رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا إِلَـهَ إِلَّا الله رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ»[1].

قوله: «**كان يقول عند الكرب**»؛ الكرب هو: الغم الذي يأخذ النفس، و«**كان**» هنا تدل على كثرة وقوع ذلك منه ﷺ؛ لأن لفظة «**كان**» تدل على الاستمرار غالباً.

وقوله: «**لا إله إلا الله**»؛ الإله هو المعبود الذي تأله القلوب، وتذل له، وتحبه، وتعظمه، وتخافه، وترجوه، فالإله هو الذي يقصـد بالخوف والرجاء، مع الذل والتعظيم، وكلما زاد الخوف والرجاء، والذل والتعظيم، صارت العبادة أكمل.

فقوله: «**لا إله إلا الله**»؛ أي: لا أتوجه بقلبي عابداً، وخاضـعاً، متذللاً، خائفاً، راجياً، إلا إلى الله وحده، فهو إلهي ومعبودي، الذي يملك نفعي وضري، وبإخلاص التأله له كمال حياتي وسعادتي، وفي عدم ذلك الشقاء والهلاك.

وقوله: «**العليم الحليم**»؛ أي: هو – تعالى – العليم بكل شـيء، فيعلم حالي وما نزل به، ويعلم أسـبابه، وما يترتب عليه، لا يخفى عليه خافية، فعلمه محيط بكل شـيء، وهو -تعالى- حليم لا يعجل بالعقوبة لمن يسـتحقها، بل يعفو ويتجاوز، وحلمه عن علم وحكمة، فله -تعالى- الكمال المطلق.

وقوله: «**لا إله إلا الله رب العرش العظيم**»، كرر التوسل بألوهيته تعالى، والتبري من كل ما سواه من مألوه، وهذا أعظم الوسائل إلى الله تعالى، وهو إخلاص العبادة والتوجه إلى الله سبحانه بصدق ورغبة ورهبة.

---

(١) رواه البخاري برقم (٧٤٢٦).

ولهذا صار إخلاص التأله والدعاء لله وحده، مفزع جميع العقلاء.

وقوله: «**لا إله إلا الله رب السماوات والأرض، ورب العرش الكريم**»؛ هذا تكرير للتوسل إلى الله تعالى بألوهيته وربوبيته، فبدأ بما يدل على إخلاص التأله له -تعالى-، ثم توسل باسميه الكريمين: العليم والحليم، ثم بأنه رب العرش العظيم، ثم بأنه «**رب السماوات والأرض، ورب العرش الكريم**».

فاشتمل هذا الدعاء العظيم على التوجه إلى الله تعالى بأنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الإلهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات.

والربوبية نوعان: عامة، وخاصة؛ فهو -تعالى- رب كل شيء ومليكه، المتصرف فيه كيف يشاء، وهو القائم على كل مخلوق بما يصلحه ويربيه، ﴿أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، وقد جمع النوعين في هذا الحديث، فتوسل بأنه رب العرش العظيم الكريم، وبأنه رب السماوات والأرض؛ والرب هو: المالك المتصرف، القائم على كل مربوب بما يحتاجه من تربية في شؤون حياته كلها.

والشاهد من الحديث، هو قوله: «**رب العرش العظيم**»، وقوله: «**رب العرش الكريم**»؛ وكلاهما وصف للعرش؛ وصف بأنه عظيم، وبأنه كريم، والعظمة تدل على الكبر والسعة، والكرم يدل على الحسن والجمال، والسعة أيضاً.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «النَّاسُ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ»[(١)].

قوله: «**يصعقون**»؛ الصعق: غشي يلحق من سمع صوتاً شديداً أو يرى شيئاً هائلاً مفزعاً، وقيل: كل عذاب مهلك، قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]؛ والصور هو قرن ينفخ فيه نفختان، إحداهما لفناء من كان حياً على الأرض، والثانية لنشر كل ميت.

---

(١) رواه البخاري برقم (٦٥١٨) و(٧٤٢٧)، ومسلم برقم (٢٣٧٤).

وقد اختلف في هذا الصعق المذكور في هذا الحديث: أهو نفخة الصور للبعث، أو غيرها؟.

فقيل: إنها نفخة البعث؛ لأن النفخة الأولى، لا يحس بها الأموات، وإنما هي لموت من كان حيًا، وإنهاء الدنيا وابتداء الآخرة.

وقوله: «**فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش**»؛ أي: أنه ﷺ يجد موسى عليه السلام بعد ما بُعث، ممسكًا بأحد قوائم العرش؛ والمراد بالعرش: عرش رب العالمين.

ففي هذا فضل لموسى عليه السلام، حيث بعث قبل نبينا ﷺ، وهذه القبلية إما مجرد فضيلة خصه الله جل جلاله بها كما خص بالتكليم، وإما جزاء بالصعقة التي أصابته يوم سأل ربه الرؤية عندما تجلى الله تعالى للجبل، والله أعلم.

ومما تقدم يعلم أن الله تعالى خص العرش من بين مخلوقاته، بأنه استوى عليه، وأنه فوق جميع المخلوقات، وأنه له حملة، وأنه -تعالى- تعبد من شاء من ملائكته بأن يحفوا به، ويطوفوا به، وأن حملته ومن حوله من الملائكة يسبحون الله تعالى ويستغفرون للمؤمنين، وأنه أول المخلوقات المعلومة لنا، وأنه سقف أعلى الجنان، وهي الفردوس، وأن له قوائم.

وكثيراً ما يمدح الله تعالى نفسه بأنه ذو العرش، كما قال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا * سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا * تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٢-٤٣]، وقال -تعالى-: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ [غافر: ١٥]، وقال - جل وعلا-: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ * ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٤-١٥]، وقال-تعالى-: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩]، إلى غير ذلك.

* * *

المسألة (الخامسة والثمانون): في نُزُولِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ في الثُّلُثِ الأخِيرِ مِنَ اللَّيْلِ

فيها إثبات نزول الله عز وجل إلى السماء الدنيا، ونزوله عز وجل نزول يليق بجلاله وعظمته ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، فليس كنزول المخلوق من أنه ينتقل من مكان إلى مكان؛ فيكون المكان الأول إذا كان أرفع قد أظله بعد نزوله إلى المكان الذي هو أخفض منه، هذا في حق المخلوق ولا يلزم ذلك في حق الله تبارك وتعالى بل هو سبحانه وتعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾؛ فنثبت النزول إثبات معنى لا إثبات كيفية، وإثبات من غير تمثيل ومن غير تجسيم، ونزول الله جل وعلا كما يليق بجلاله وعظمته.

وحديث: «يَنْزِلُ ربُّنا إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر ...»؛ وهو حديث هذه المسألة وسيأتي توضيحه، هو من أقوى الأدلة على إثبات نزول الله تعالى إلى السماء الدنيا.

قال أبو سعيد الدارمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الرد على الجهمية» - بعد أن ذكر ما يثبت النُّزول من أحاديث رسول الله ﷺ -: «فهذه الأحاديث قد جاءت كلها وأكثر منها في نزول الرب تبارك وتعالى في هذه المواطن، وعلى تصديقها والإيمان بها أدركنا أهل الفقه والبصر من مشايخنا، لا ينكرها منهم أحد، ولا يمتنع من روايتها».

وقال محمد بن خزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «كتاب التوحيد»: «باب: ذكر أخبار ثابتة السند صحيحة القوام، رواها علماء الحجاز والعراق عن النبي ﷺ في نزول الرب جل وعلا إلى السماء الدنيا كل ليلة: نشهد شهادة مقر بلسانه، مصدق بقلبه، مستيقن بما في هذه الأخبار من ذكر نُزول الرب، من غير أن نصف الكيفية؛ لأنَّ نبينا المصطفى لم يصف لنا كيفية نزول خالقنا إلى سماء الدنيا، وأعلمنا أنه يَنْزِل، والله جل وعلا لم يترك ولا نبيه ﷺ بيانَ ما بالمسلمين الحاجة إليه من أمر دينهم؛ فنحن قائلون مصدقون بما في هذه الأخبار من ذكر النُّزول، غير متكلفين القول بصفته أو بصفة الكيفية ؛ إذ النبي ﷺ لم يصف لنا كيفية النُّزول، وفي هذه الأخبار ما بان وثبت وصح أنَّ الله جل وعلا فوق سماء الدنيا الذي أخبرنا نبينا ﷺ أنه يَنْزِل إليه، إذ محال في لغة العرب أن يقول: نزل من أسفل إلى أعلى، ومفهوم في الخطاب أنَّ النُّزول من أعلى إلى أسفل» اهـ.

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير سورة الإخلاص «دقائق التفسير»: «فالرب سبحانه إذا وصفه رسوله بأنه يَنْزِل إلى سماء الدنيا كل ليلة، وأنه يدنو عشية عرفة إلى الحجاج، وأنه كلَّم موسى بالوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة، وأنه استوى إلى السماء وهي دخانٌ، فقال لها وللأرض: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾؛ لم يلزم من ذلك أن تكون هذه الأفعال من جنس ما نشاهده من نزول هذه الأعيان المشهودة، حتى يُقال: ذلك يستلزم تفريغ مكان وشغل آخر».

ونزول الله جل جلاله نفسه حقيقة، ولا نحتاج أن نقول: بذاته؛ ما دام الفعل أضيف إليه؛ فهو له، لكن بعض العلماء قالوا: ينزل بذاته؛ لأنهم لجئوا إلى ذلك، واضطروا إليه؛ لأن هناك من حرفوا الحديث الذي سيأتي؛ وقالوا: الذي ينزل أمر الله سبحانه وتعالى، وقال آخرون: بل الذي ينزل رحمة الله عز وجل، وقال آخرون: بل الذي ينزل ملك من ملائكة الله جل وعلا.

وهذا كله باطل؛ فإن نزول أمر الله تعالى دائماً وأبداً، ولا يختص نزوله في الثلث الأخير من الليل؛ قال الله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة: ٥]، وقال عز وجل: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣].

وأما قولهم: تنزل رحمة الله عز وجل إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، قال الله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]؛ كل النعم من الله تعالى، وهي من آثار رحمته، وهي تترى كل وقت فلا يصح قولهم.

ثم نقول لمن قال: إنه ملك من ملائكته: هل من المعقول أن الملك من ملائكة الله جل وعلا يقول: «من يدعوني فأستجيب له، مَن يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له»؟!!.

فتبين بهذا أن هذه الأقوال تحريف باطل.

وهم ليسوا أعلم بالله جل جلاله من رسول الله ﷺ، وليسوا أنصح لعباد الله سبحانه من رسول الله ﷺ، وليسوا أفصح في قولهم من رسول الله ﷺ.

وأيضاً يقولون: كيف تقولون: إن الله ينزل؟، فإذا نزل؛ فأين العلو؟، وإذا نزل؛ فأين الاستواء على العرش؟، وإذا نزل؛ فالنزول حركة وانتقال، وإذا نزل؛ فالنزول حادث، والحوادث لا تقوم إلا بحادث!!.

فنقول: هذا جدال بالباطل، وليس بمانع من القول بحقيقة النزول، هل أنتم أعلم بما يستحقه الله عز وجل من أصحاب الرسول ﷺ؟.

فأصحاب الرسول ﷺ ما قالوا هذه الاحتمالات أبداً؛ قالوا: سمعنا وآمنا وقبلنا

وصدقنا، حينما سمعوا من رسول الله ﷺ هذا الحديث وغيره من الأحاديث.

نحن نقول: أما العلو؛ فنقول: ينزل، ولكنه عال عز وجل على خلقه؛ لأنه ليس معنى النزول أن السماء تقله، وأن السماوات الأخرى تظله؛ إذ إنه لا يحيط به شيء من مخلوقاته؛ فهو ينزل حقيقة مع علوه حقيقة، وليس كمثله شيء.

وأما الاستواء على العرش فهو فعل، ليس من صفات الذات، وليس لنا حق أن نتكلم هل يخلو منه العرش أو لا يخلو، بل نسكت كما سكت عن ذلك الصحابة رضي الله عنهم.

وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في «الرسالة العرشية» يقول: إنه لا يخلو منه العرش؛ لأن أدلة استوائه على العرش محكمة، والحديث هذا محكم، والله عز وجل لا تقاس صفاته بصفات الخلق؛ فيجب علينا أن نبقي نصوص الاستواء على إحكامها، ونص النزول على إحكامه، ونقول: هو مستوٍ على عرشه، نازل إلى السماء الدنيا، والله أعلم بكيفية ذلك، وعقولنا أقصر وأدنى وأحقر من أن تحيط بالله عز وجل.

وأورد المتأخرون الذين عرفوا أن الأرض كروية وأن الشمس تدور على الأرض إشكالاً؛ قالوا: كيف ينزل في ثلث الليل؟، وثلث الليل إذا انتقل عن الأردن أو السعودية؛ ذهب إلى أفريقيا أو أوربا وما قاربها؟ أفيكون نازلاً دائماً؟.

فنقول: آمن أولاً بأن الله سبحانه وتعالى ينزل في هذا الوقت المعين، وإذا آمنت؛ ليس عليك شيء وراء ذلك، لا تقل كيف؟ وكيف؟، بل قل: إذا كان ثلث الليل في الأردن أو السعودية؛ فالله جل وعلا نازل، وإذا كان في أفريقيا ثلث الليل؛ يكون نزول الله جل جلاله أيضاً، وإذا طلع الفجر؛ انتهى وقت النزول في كل مكان بحسبه.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَة، حِيْنَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيل الآخر، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيْبَ لَهُ؟، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟، مَنْ يَسْتَغْفِرنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟»[1].

هذا الحديث قال بعض أهل العلم: إنه من الأحاديث المتواترة، واتفقوا على أنه من الأحاديث المشهورة المستفيضة عند أهل العلم بالسنة.

وقوله: «**ينزل ربنا إلى السماء الدنيا**»؛ نزوله تعالى حقيقي؛ فعلينا أن نؤمن به ونصدق، ونقول: «**ينزل ربنا إلى السماء الدنيا**»، وهي أقرب السماوات إلى الأرض،

---

(١) رواه البخاري برقم (١٠٩٤)، ومسلم برقم (٧٥٨).

والسماوات سبع، وإنما ينزل عز وجل في هذا الوقت من الليل للقرب من عباده جل وعلا؛ كما يقرب منهم عشية عرفة؛ حيث يباهي بالواقفين الملائكة.

وقوله: «**كل ليلة**»؛ يشمل جميع ليالي العام.

وقوله: «**حين يبقى ثلث الليل الآخر**»؛ الليل يبتدئ من غروب الشمس اتفاقًا، لكن حصل الخلاف في انتهائه، هل يكون بطلوع الفجر أو بطلوع الشمس؛ والظاهر أن الليل الشرعي ينتهي بطلوع الفجر، والليل الفلكي ينتهي بطلوع الشمس.

وقوله «**فيقول: من يدعوني**»؛ «**من**» استفهام للتشويق؛ كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠].

وقوله: «**يدعوني**»؛ أي: يقول: يا رب.

وقوله: «**من يسألني**»؛ يقول: أسألك الجنة، أو نحو ذلك.

وقوله: «**من يستغفرني**»؛ فيقول: اللهم اغفر لي، أو: أستغفرك اللهم.

وقوله: «**فأغفر له**»؛ المغفرة ستر الذنب والتجاوز عنه.

والصحابة رضي الله عنهم لما سمعوا هذا الحديث من رسول الله ﷺ ما سألوا ولا سؤال مما فيه اعتراض، إنما يخصهم منه الإفادة من هذه الفرصة، والتعرض لنفحات الله تعالى في هذا الوقت، ولم يقولوا: أنَّا نجد الثلث الأخير من الساعة كذا إلى كذا في الصباح عند قوم، وهو في المساء عند آخرين، الشمس طالعة في المشرق من أول النهار الثاني، والشمس أيضًا طالعة من آخر النهار الأول عند المغرب، الصحابة رضي الله عنهم لم يقولوا هذا ولا سألوا هذه الأسئلة ولا غيرها؛ لأن هذا الأمر لا يعنيهم، يعنيهم أن هذا الوقت من أوقات إجاب الدعاء فليتعرض المسلم للنفحات الإلهية في هذا الوقت، وليتقرب إلى الله تعالى بالطاعات والدعاء.

* * *

المسألة (السادسة والثمانون):
فِي تَخْلِيقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْخَلَائِقِ

تخليق السماوات والأرض هو فعل الله عز وجل الذي وجدت به، فالله تعالى هو الخالق، والخلق والتخليق فعله الواقع منه على المخلوق، فالمخلوقات وجدت بفعل الله جل جلاله.

وأفعال الله تعالى نوعان: لازم، ومتعدٍّ؛ فاللازم: نحو نزوله، ومجيئه، والمتعدي: نحو خلقه ورزقه، ولابد لهذا النوع من مفعول يتعدى إليه، وهو المخلوق، والمرزوق، بخلاف الأول.

عَن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: بِتُّ فِي بَيْتِ مَيْمُونَةَ لَيْلَةً، وَالنَّبِيُّ ﷺ عِنْدَهَا، لِأَنْظُرَ كَيْفَ صَلَاةُ رَسُولِ الله ﷺ بِاللَّيْلِ، فَتَحَدَّثَ رَسُولُ الله ﷺ مَعَ أَهْلِهِ سَاعَةً، ثُمَّ رَقَدَ، فَلَمَّا كَانَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ أَوْ بَعْضُهُ، قَعَدَ فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَرَأَ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، ثُمَّ قَامَ فَتَوَضَّأَ، وَاسْتَنَّ، ثُمَّ صَلَّى إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً، ثُمَّ أَذَّنَ بِلَالٌ بِالصَّلَاةِ، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجَ فَصَلَّى لِلنَّاسِ الصُّبْحَ[1].

قوله: «**بت في بيت ميمونة**»؛ ميمونة: هي أم المؤمنين بنت الحارث الهلالية، وهي خالة ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

تزوجها رسول الله ﷺ في عمرة القضاء، سنة سبع، بسرف، وهو حلال غير محرم، وتوفيت – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – بسرف، سنة إحدى وخمسين، وقيل غير ذلك، وصلى

---

(١) رواه البخاري برقم (٧٤٥٢)، واللفظ له، وقد كرر روايته له في أكثر من موضع – تصل إلى عشرين موضعًا –، ورواه مسلم برقم (٧٦٣).

عليها ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ودفنت هناك.

وقوله: «**فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة**»؛ كان ﷺ خير الناس لأهله،فكان يفعل ما يأنسون به من المحادثة، والتعليم لكل خير، من أمور الدنيا والآخرة.

وقوله: «**فلما كان ثلث الليل الأخير**»؛ يجوز أن يكون التقدير: فلما كان النبي ﷺ في ثلث الليل الأخير، ويجوز أن تكون «**كان**» تامة، والتقدير: فلما جاء ثلث الليل، وهذا هو الأظهر.

وقوله: «**أو بعضه**»؛ أي: بعض الليل، والبعض يصدق على كل فترة منه.

وقوله: «**قعد، فنظر إلى السماء، فقرأ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾**» إلى آخره؛ المعنى: أنه ﷺ حين استيقظ نظر إلى السماء معتبراً بخلقها، ولهذا قرأ الآيات المذكورات، وجاء في روايات أنه قرأ العشر آيات من آخر سورة آل عمران؛ وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ * ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ * رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ * رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ * فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ * لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ * مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ * لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ * وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟

وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٩٠-٢٠٠].

والشاهد هنا هو قوله -تعالى-: ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ** ﴾؛ فخلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار، من خلق الله عز وجل، فالله تعالى خلقها، فهي مخلوقة مكونة، فالتخليق فعل الرب، وهي مخلوقة مكونة منفصلة.

وفيها حث للعباد على التفكر والتبصر بآياتها؛ أي: ﴿ **خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ** ﴾، وتدبر خلقها؛ لأن فيها من الآيات العجيبة ما يبهر الناظرين، ويقنع المتفكرين، ويجذب أفئدة الصادقين، وينبه العقول النيرة على جميع المطالب الإلهية، فأما تفصيل ما اشتملت عليه، فلا يمكن لمخلوق أن يحصره، ويحيط ببعضه.

وفي الجملة فما فيها من العظمة والسعة، وانتظام السير والحركة، يدل على عظمة خالقها، وعظمة سلطانه وشمول قدرته، وما فيها من الإحكام والإتقان، وبديع الصنع، ولطائف الفعل، ويدل على حكمة الله ووضعه الأشياء مواضعها، وسعة علمه، وما فيها من المنافع للخلق، ويدل على سعة رحمة الله، وعموم فضله، وشمول بره، ووجوب شكره، فيتعلق القلب بخالقها ومبدعها، ويبذل الجهد في مرضاته، فلا يشرك به سواه، ممن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

قال ابن عباس إن أهل مكة سألوا النبي ﷺ أن يأتيهم بآية فنزلت هذه الآية؛ والمعنى: تفكروا واعتبروا أيها الناس فيما خلقته وأنشأته من السموات والأرض لمعاشكم وأرزاقكم وفيما عقبت من ذلك بين الليل والنهار، واختلافهما في الطول والقصر، فجعلتهما يختلفان ويعتقبان عليكم لكي تتصرفوا فيهما لمعاشكم تطلبون أرزاقكم في النهار وتسكنون في الليل لراحة أجسادكم، فاعتبروا وتفكروا يا أولي الألباب يعني يا ذوي العقول الصافية. يعني الذين يفتحون بصائرهم للنظر والاستدلال. والاعتبار لا ينظرون إليهما نظر البهائم غافلين عما فيهما من عجائب مخلوقاته وغرائب مبتدعاته.

وقوله: ﴿لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ خص الله تعالى بالآيات «أولي الألباب»؛ وهم أهل العقول؛ لأنهم هم المنتفعون بها، الناظرون إليها بعقولهم لا بأبصارهم فقط.

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عاملنا القلوبَ بالتفكر فأورثها التذكر، فرجعنا بالتذكر على التفكر، وحركنا القلوب بهما، فإذا القلوب لها أسماع وأبصار».

وقال عبيد بن عمير لعائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: يا أُمه، أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ قال: فسكتت، ثم قالت: لما كان ليلة من الليالي، قال: «يا عائشة ذريني أتعبد الليلة لربي»، قلت: والله إني لأحب قربك وأحب ما سرك، قالت: فقام فتطهر ثم قام يصلي، قالت: فلم يزل يبكي حتى بل حجره، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل لحيته، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل الأرض، فجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله، لم تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر؟، قال: «أفلا أكون عبدا شكورا؛ لقد نزلت علي الليلة آية، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾» الآية كلها[1]، بل أمر الله تعالى بذلك في كثير من الآيات؛ كقوله -عز وجل-: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١]، وكقوله -تعالى-: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ﴾ [الأعراف:١٨٤]، وكقوله - عز وجل -: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ [سبإ:٤٦]، وغيرها من الآيات.

ولكن لا بد أن ننتبه: أن أول واجب يجب على المكلف هو شهادة أن لا إله إلا الله، لا النظر والتفكر، ولا القصد إلى النظر، ولا الشك، كما هي أقوال أهل الكلام المذموم، بل أئمة السلف كلهم متفقون على أن أول ما يؤمر به العبد الشهادتان، ومتفقون على أن من فعل ذلك قبل البلوغ لم يؤمر بتجديد ذلك عقب بلوغه، بل يؤمر بالطهارة والصلاة إذا بلغ أو ميز عند من يرى ذلك، ولم يوجب أحد منهم على

---

(١) رواه ابن حبان في «صحيحه» برقم (٦٢٠)، وصححه الألباني؛ انظر «السلسلة الصحيحة» برقم (٦٨).

وليه أن يخاطبه حينئذ بتجديد الشهادتين، وإن كان الإقرار بالشهادتين واجبًا باتفاق المسلمين، ووجوبه يسبق وجوب الصلاة، لكن هو أدى هذا الواجب قبل ذلك.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لو لم يكن في الكلام إلا مسألتان، هما من مبادئه، لكان حقيقًا بالذم؛ إحداهما: قول بعضهم: إن أول واجب: الشك إذ هو اللازم لوجوب النظر، أو القصد إلى النظر، والثانية: قول جماعة منهم: من لم يعرف الله بالطرق التي رتبها أهل الكلام، لم يصح إيمانه».

والذي يدل أن أول وجب على المكلف هو الشهادتان، ما جاء في وصية النبي ﷺ لمعاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لما أرسله إلى اليمن قائلًا له: «إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله»[1].

إذن فهو أول واجب على المكلف، واعلم أنه أيضًا آخر واجب؛ قال ﷺ: «مَنْ كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»[2].

وقوله: «**ثم قام فتوضأ واستن**»؛ أي: استاك بالسواك دالكًا به أسنانه، وكان ﷺ يفعل ذلك، ويحث عليه، وأخبر أنه مطهرة للفم، ومرضاة للرب تعالى.

وقوله: «**ثم صلى إحدى عشرة ركعة**»؛ هذه سنته ﷺ التي استمر عليها، في الغالب، كما أخبرت بذلك زوجه عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنه ما كان يزيد على إحدى عشرة ركعة في رمضان وغيره.

وقوله: «**ثم أذن بلال بالصلاة، فصلى ركعتين**»؛ هاتان الركعتان، غير ما سبق ذكره من أنه صلى إحدى عشرة ركعة، بل هما سنة الفجر؛ لأنه صلاهما بعد الأذان، وكان ﷺ يصليهما في بيته، ويحافظ عليهما حضراً وسفراً.

وقوله: «**وصلى للناس الصبح**»؛ أي: صلى بهم إمامًا، كما هو ظاهر.

***

---

(١) رواه البخاري برقم (١٤٥٨)، ومسلم برقم (١٩).

(٢) رواه أبو داود برقم (٣١١٦)، وصححه الألباني؛ انظر «صحيح الجامع» برقم (٦٤٧٩).

المسألة (السابعة والثمانون):
في أنَّ الله تَعَالَى هُوَ الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ

المراد هنا بيان أن الله تعالى متصف بأنه الخالق، البارئ، المصور في الأزل والأبد، فهو الخالق قبل وجود المخلوق، وهو البارئ قبل وجود المُبْرَى، وهو المُصَوِّر قبل وجود المُصَوَّر، فهو -تعالى- لم يزل بصفاته ولا يزال.

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تفسيره»: «يقول تعالى ذكره: هو المعبود الخالق، الذي لا معبود تصلح له العبادة غيره، ولا خالق سواه، البارئ الذي برأ الخلق فأوجدهم بقدرته، المصور خلقه كيف شاء، وكيف يشاء».

وقد يُظن أن هذه الأسماء مترادفة، وأن الكل يرجع إلى الخلق والاختراع، والصواب أن كل ما يخرج من العدم إلى الوجود فيفتقر إلى تقدير أولاً، وإلى الإيجاد على وفق التقدير ثانياً، وإلى التصوير بعد الإيجاد ثالثاً، والله سبحانه وتعالى خالق من حيث أنه مقدّر، وبارئ من حيث أنه مخترع مُوجِد، ومُصور من حيث أنه مرتب صور المخترعات أحسن ترتيب.

فإن «**الخَالِقُ**» من الخلق، وأصله التقدير المستقيم، ويطلق على الإبداع، وهو إيجاد الشيء على غير مثال، كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وعلى التكوين، كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾.

و«**ٱلْبَارِئُ**» من البرء، وأصله خلوص الشيء عن غيره، إما على سبيل الخلوص منه، كبرء الرجل من مرضه، والمديون من دينه.

أو على سبيل الإنشاء، كبَرء الله النسمة، يقال: بَرأ الله الخلق إذا فطرهم، والبرء: خلق على صفة، فكل مبروء مخلوق، وليس كل مخلوق مبروءاً، لأن البرء من تبرئة الشيء من الشيء، فهو المعنى الذي به انفصلت الصورة بعضها من بعض، فصورة زيد مفارقة لصورة عمرو، وصورة حمار مفارقة لصورة فرس، فتبارك الله خالقاً بارئاً.

وذهب بعض العلماء إلى أن (الصانع) من أسماء الله تعالى؛ وأيضاً نجد كثيراً من أهل الكلام يستخدمون (الصانع) في حديثهم عن الله تعالى، وهذا ليس صحيحاً؛ لأن الصانع لم يأت في الكتاب والسنة اسماً لله تعالى، ولكن الله سبحانه وتعالى

يصنع وله الصنع ووصف به سبحانه وتعالى نفسه، فقال: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٨٨]، وقال النبي ﷺ: «إن الله يصنع -وفي رواية: صنع- كل صانع وصنعته»[1]، وهو سبحانه يصنع ما يشاء وصانعٌ ما شاء، ولكن لم يُسَمَّ الله عز وجل باسم الصانع؛ فلا يجوز أن نشتق منها الصانع؛ لأنه لا بد أن تكون: جاءت في الكتاب والسنة، وأن تكون يدعى بها، واسم صانع لا يدعى به الرب عز وجل، فلا نقول: يا صانع اصنع لي كذا؛ لأنه لا يتوسل إلى الله تعالى به.

قال ابن القيّم: «الفعل أوسع من الاسم، ولهذا أطلق الله على نفسه أفعالاً لم يتسم منها باسم الفاعل؛ كأراد، وشاء، وأحدث، ولم يسم بالمريد، والشائي، والمحدث، كما لم يسم نفسه بالصّانع، والفاعل، والمتقن...، وقد أخطأ أقبح خطأ من اشتقّ له من كلّ فعل اسمًا، وبلغ بأسمائه زيادة على الألف».

وقوله: «ٱلْمُصَوِّرُ»؛ أي: مصور كل صورة، لا على مثال احتذاه، وهو الذي صوَّر جميع الموجودات ورتبها، فأعطى كل شيء منها صورة خاصة وهيئة مفردة يتميز بها على اختلافها وكثرتها.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾ [الحشر: ٢٤]

قوله: ﴿ٱلْخَٰلِقُ﴾؛ أصل الخلق في الكلام: التقدير، يقال: خلقت الشيء خلقًا، إذا قدرته، فالخلق في اسم الله تعالى هو: ابتداء تقدير النشء، فالله تعالى خالقها، ومنشئها، وهو متممها، ومدبرها، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وقوله: ﴿ٱلْبَارِئُ﴾؛ يقال: برأ الله الخلق إذا فطرهم؛ والبرء: خلق على صفة، فكل مبروء مخلوق، وليس كل مخلوق مبروءاً؛ لأن البرء من تبرئة الشيء من الشيء، كما يقال: برأت من المرض، ومن الدين.

فإذا فصل بعض الخلق من بعض، سمي فاعله بارئـًا.

وقوله: ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾؛ أي: مصور كل صورة، لا على مثال احتذاه ولا رسم ارتسمه، تعالى عن ذلك علواً كبيراً؛ أي: أنه لم يتقدمه أحد فعل ذلك، لا تقديراً، ولا

---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» برقم (١١٧)، وصححه الألباني؛ انظر «السلسلة الصحيحة» برقم (١٦٣٧).

إظهاراً وإيجاداً.

وقال الطيبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قيل: الألفاظ الثلاثة مترادفة، وهو وهم؛ فإن ﴿ٱلْخَٰلِقُ﴾ من الخلق، وأصله التقدير المستقيم، ويطلق على الإبداع؛ وهو إيجاد الشيء على غير مثال، كقوله -تعالى-: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ وعلى التكوين، كقوله -تعالى-: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾، و﴿ٱلْبَارِئُ﴾ من البرء، وأصله خلوص الشيء عن غيره، إما على سبيل الخلوص منه، كبرء الرجل من مرضه، والمديون من دينه، أو على سبيل الإنشاء، كبرء الله النسمة، و ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ مبدع صور المخترعات، ومرتبها على حسب مقتضى الحكمة.

فالله تعالى خالق كل شيء، بمعنى أنه موجده من أصل، ومن غير أصل، وبارئه بحسب ما تقتضيه الحكمة، من غير تفاوت ولا اختلاف، ومصوره في صورة يترتب عليها خواصه ويتم بها كماله.

فالتقدير يقع أولاً، ثم الإحداث على الوجه المقدر يقع ثانياً، ثم التصوير بالتسوية يقع ثالثاً».

وبهذا يتبين الفرق بين هذه الأسماء الثلاثة؛ فالخالق: مبدع الأشياء على غير مثال سابق، والبارئ: موجد الأشياء، ومظهرها إلى الوجود، من أصل ومن غير أصل، والمصور: الذي خص كل مخلوق بما يميزه عن الآخر، وما تحصل به مصلحته، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

وعَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي غَزْوَةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ، أَنَّهُمْ أَصَابُوا سَبَايَا، فَأَرَادُوا أَنْ يَسْتَمْتِعُوا بِهِنَّ، وَلَا يَحْمِلْنَ، فَسَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الْعَزْلِ؟ فَقَالَ: «مَا عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تَفْعَلُوا، فَإِنَّ اللهَ قَدْ كَتَبَ مَنْ هُوَ خَالِقٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»(١).

وقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَيْسَتْ نَفْسٌ مَخْلُوقَةٌ إِلَّا اللهُ خَالِقُهَا»(٢).

---

(١) رواه البخاري برقم (٧٤٠٩).

(٢) رواه مسلم برقم (١٤٣٨) (١٣٢).

«**أبو سعيد الخدري**» هو سعد بن مالك بن سنان بن عُبيد الأنصاري، له ولأبيه صحبه، مات بالمدينة سنة ثلاث وستين، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وعن أبيه.

وقوله: «**غزوة بني المصطلق**»؛ كانت هذه الغزوة في شعبان سنة ست، وسببها أنه بلغ النبي ﷺ أن سيد بني المصطلق وهو الحارث بن أبي ضرار يجمع الجموع لحربه، فخرج له النبي ﷺ في جمع كثير، فكان النصر له ﷺ والهزيمة للمشركين.

وقوله: «**أنهم أصابوا سبايا**»؛ أي: أسرى من النساء؛ وهم ما يعرف بملك اليمين؛ وهم الأرقاء الذين ضرب عليهم الرق في الحرب الإسلامية المشروعة؛ كمثل السبايا اللواتي أصابوهن في غزوة بني المصطلق.

وقوله: «**فأرادوا أن يستمتعوا بهن**»؛ أي: ينكحوهن؛ والتمتع بملك اليمين، ربما يفهم بعض الناس من ظاهره أنه إطلاق لشهوة الرجال وزيادة فى التمتع، ولكنه في حقيقته وسيلة من وسائل تحرير الرقيق - الذي كان موجوداً قبل الإسلام -؛ لأن الأمة إذا حملت من سيدها لا يستطيع أن يبيعها أو يهبها، وإذا مات لا تُورث كما يورث المتاع، بل تصير حرة، وابنها يكون حراً لا رقيقاً.

والعبيد والإماء كانوا يباعون ويشترون قبل الإسلام، والرق كان في كل العالم، يعني أنه كان في كل بلدة وقرية وكانت ظاهرة إجتماعية لا يكاد بيت يخلو من عبد أو أمة أو أكثر، والإسلام لما جاء أقر هذا الأمر ووضع له أحكاماً، ورغَّب المسلمين بالإعتاق، وقد وَرَدَ في القُرآن الكريم والسنة النبوية كثير من الآيات والأحاديث التي تُرغِّب في إِعتاق الرِّقاب وَتَحُثُّ عليه.

وقوله: «**العزل**»؛ هو إنزال ماء الرجل خارج فرج المرأة، خوفاً أن تحمل؛ قال الحافظ رَحِمَهُ اللهُ: «هو النزع بعد الإيلاج لينزل خارج الفرج».

وقوله: «**ما عليكم أن لا تفعلوا**»؛ أي: لا يضركم عدم العزل؛ لأن ما قدره الله تعالى من الخلق، فلا بد من وجوده، عزل الإنسان أو لم يعزل، يوضحه ما جاء في رواية أخرى أنه قال ﷺ: «لا عليكم أن لا تفعلوا، ما كتب اللهُ خَلْقَ نَسَمَةٍ هي كائنة إلى يوم القيامة إلا ستكون»[1]، وفي قصة الرجل الذي سأل عن العزل عن جاريته،

---

(١) رواه مسلم برقم (١٤٣٩) (١٣٢).

فقال رسول الله ﷺ: «إن ذلك لن يمنع شيئًا أراده الله»[(١)].

قال الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**لا عليكم أن لا تفعلوا**»؛ أي: لا حرج عليكم أن لا تفعلوا العزل، ففيه نفي الحرج عن عدم الفعل، فأفهم ثبوت الحرج في فعل العزل.

ولو أراد نفي الحرج عن العزل لقال: «لا عليكم أن تفعلوا».

قال محمد بن حاتم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في قوله: «**لا عليكم**» أقرب إلى النهي، وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والله لكأن هذا زجر.

وقوله: «**فإن الله قد كتب من هو خالق إلى يوم القيامة**»، وأيضًا: ما جاء في الرواية الأخرى؛ قوله: «**ليست نفس مخلوقة إلا الله خالقها**»؛ هذا يبين عدم فائدة العزل؛ لأن كل نفس قدر الله تعالى خلقها، لا بد أن يخلقها، عزلتم أم لا، وما لم يشأ خلقها لا يقع ولو لم يعزلوا، فإن كان الله سبحانه وتعالى أراد أن يخلق في تلك المقارنة وذلك الوقت، فلا بد من وجود ذلك ولو حرصتم كل الحرص على عدم الإنزال في الرحم، فلا غالب على أمره، وهو الخالق وحده.

وهذا هو وجه الاستدلال في الحديث، فإن الله تعالى هو الخالق البارئ المصور وحده هو الذي يقدر خلق هذا المخلوق شاء الناس ذلك أو لم يشاؤوا، وأنه هو بارئ النسمة من الذكر والأنثى، أو مما يشاء، والخلق كلهم لا يستطيعون فعل شيء من ذلك.

وهو -تعالى- المصور لهذا الإنسان من نطفة متساوية الأجزاء، لو اجتمع عليها أمهر الأطباء، بكل ما أوتوا من علوم وآلات وإمكانيات، لم يستطيعوا أن يصوروا منها شيئًا حيًا، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وهذا الحديث يدل على كراهة العزل وأن تركه هو أولى، ولكن جاءت أدلة تدل على جواز العزل؛ فعن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «كنا نعزل والقرآن ينزل»، وفي رواية: «كنا نعزل على عهد رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك نبي الله ﷺ فلم ينهنا»[(٢)]، وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إن لي وليدة -أي: جارية- وأنا أعزل عنها، وأنا أريد ما يريد الرجل وإن اليهود زعموا: أن الموؤدة الصغرى العزل؟!، فقال رسول الله ﷺ: «كذبت يهود، كذبت يهود، لو أراد الله أن يخلقه لم

(١) رواه مسلم برقم (١٤٣٩).

(٢) رواه البخاري برقم (٥٢٠٧)، ومسلم برقم (١٤٤٠).

تستطع أن تصرفه»[1]، وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أن رجلا أتى رسول الله ﷺ فقال: إن لي جارية هي خادمنا وسانيتنا - أي: التي تسقي لنا النخل - وأنا أطوف عليها وأنا أكره أن تحمل - أي: أجامعها وأكره حملها مني بولد -؟، فقال: «اعزل عنها إن شئت، فإنه سيأتيها ما قدر لها»[2]، فلبث الرجل، ثم أتاه، فقال: إن الجارية قد حبلت فقال ﷺ: «قد أخبرتك أنه سيأتيها ما قدر لها»؛ والجمع بين الأدلة كلها أولى؛ فهي تدل على أن الأمر فيه سعة وأن العزل جائز وتركه أولى وليس فيه كراهة.

فإن قيل: قد يتحكم الإنسان بالحمل إما بالعقاقير أو بوسائل أخرى.

فجوابه: أن ذلك من تقدير الله تعالى، ولا يمكن أن يكون شيء خارجًا عن مشيئته وتقديره، وإذا أراد أن يخلق مخلوقًا فلا بد من وجوده، وإن استعملت الوسائل المانعة لذلك.

* * *

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٥١)، وأبو داود برقم (٢١٧١)، وصححه الألباني، انظر «صحيح سنن أبي داود».

(٢) رواه مسلم برقم (١٤٣٩).

المسألة (الثامنة والثمانون):
فِي يَدَيِّ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنَّهُ يَقْبِضُ وَيَمْسِكُ

هذه المسألة فيها بيان ما أثبته الله تعالى لنفسه، من صفة اليدين وصفة القبض والإمساك، وما أثبته له رسوله ﷺ، على ظاهر ما جاءت به النصوص من هذه الصفات.

فإذا قال قائل: أنتم تثبتون أن لله تعالى يداً حقيقية، ونحن لا نعلم من الأيدي إلا أيادي المخلوقين، فيلزم من كلامكم تشبيه الخالق بالمخلوق!!؟.

فالجواب أن نقول: لا يلزم من إثبات اليد لله جل جلاله أن نمثل الخالق بالمخلوقين؛لأن إثبات اليد جاء في القرآن والسنة وإجماع السلف، ونفي مماثلة الخالق للمخلوقين يدل عليه الشرع والعقل والحس:

فأما الشرع، فقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وأما العقل، فلا يمكن أن يماثل الخالق المخلوق في صفاته؛ لأن هذا يعد عيباً في الخالق؛ والله تعالى منزه عن كل العيوب.

وأما الحس، فكل إنسان يشاهد أيدي المخلوقات متفاوتة ومتباينة من كبير وصغير، وضخم ودقيق.. إلخ، فيلزم من تباين أيدي المخلوقين وتفاوتهم مباينة يد الله سبحانه وتعالى لأيدي المخلوقين وعدم مماثلته لهم سبحانه وتعالى من باب أولى.

قال الله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥].

الآية بتمامها هي قول الله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ **لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ**﴾.

فقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾؛ الخطاب لإبليس.

وقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾؛ استفهام للتوبيخ، يعني: أي شيء منعك أن تسجد.

وقوله: ﴿**لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ**﴾؛ ولم يقل: لمن خلقت؛ لأن المراد هنا آدم، باعتبار وصفه الذي لم يشركه أحد فيه، وهو خلق الله إياه بيده، لا باعتبار شخصه؛ ولهذا لما أراد إبليس النيل من آدم والحط من قدره، قال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾

[الإسراء: ٦١]، ونحن إذا عبرنا بـ «ما» عما يعقل، فإنه يلاحظ فيه معنى الصفة لا معنى العين والشخص، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣]، لم يقل: «مَن»؛ لأنه ليس المراد عين هذه المرأة، ولكن المراد الصفة؛ وهنا قال: ﴿لِمَا خَلَقْتُ﴾؛ أي: هذا الموصوف العظيم الذي أكرمته بأنني خلقته بيدي، ولم يقصد: لمن خلقت؛ أي: لهذا الآدمي بعينه.

ففي هذه الآية توبيخ إبليس في تركه السجود لما خلقه الله بيده، وهو آدم عليه السلام.

وفيها إثبات صفة الخلق: ﴿لِمَا خَلَقْتُ﴾، وفيها إثبات اليدين لله سبحانه وتعالى؛ اليدين اللتين بهما يفعل، كالخلق هنا، اليدين اللتين بهما يقبض: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ٦٧]، وبهما يأخذ، فإن الله تعالى يأخذ الصدقة فيربيها كما يربي الإنسان فلوه[1].

وقوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾؛ فيها أيضاً تشريف لآدم عليه السلام، حيث خلقه الله تعالى بيده.

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

قوله: ﴿ٱلْيَهُودُ﴾؛ هم أتباع موسى عليه السلام؛ سموا يهوداً، لأنهم قالوا: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وبناء على هذا يكون الاسم عربياً؛ لأن هاد يهود – أي: إذا رجع – عربي؛ وقيل: إن أصله يهوذا، اسم أحد أولاد يعقوب، واليهود من نسبوا إليه، لكن عند التعريب صارت الذال دالاً، فقيل: يهود؛ وأياً كان، لا يهمنا أن أصله هذا أو هذا؛ ولكننا نعلم أن اليهود هم طائفة من بني إسرائيل، اتبعوا موسى عليه السلام، وهؤلاء اليهود من أشد الناس عتواً ونفوراً؛ لأن عتو فرعون وتسلطه عليهم جعل ذلك ينطبع في نفوسهم، وصار فيهم العتو على الناس، بل وعلى الخالق عز وجل، فهم يصفون الله تعالى بأوصاف العيوب، قبحهم الله؛ ويقولون: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾؛

---

(١) رواه البخاري برقم (١٤١٠)، ومسلم برقم (١٠١٤).

أي: محبوسة عن الإنفاق، كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ [الإسراء: ١٢٩]؛ أي: محبوسة عن الإنفاق، فقالوا: لولا أنها مغلولة، لكان الناس كلهم أغنياء، فكونه يجود على زيد ولا يجود على عمرو، هذا هو الغل وعدم الإنفاق!!.

وقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٨١]؛ لأن الله قال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ ﴾ [البقرة: ٢٤٥]؛ فقالوا للرسول ﷺ: يا محمد، إن ربك افتقر، صار يستقرض منا، قاتلهم الله!!.

وقالت اليهود أيضـًا: إن الله عاجز؛ لأنه حين خلق السماوات والأرض استراح يوم السبت، وجعل العطلة محل عيد، فصار عيدهم يوم السبت، قاتلهم الله!!.

ويقول الله عز وجل: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾، ﴿يَدُ﴾ أفردوها؛ لأن اليد الواحد أقل عطاء من اليدين الثنتين؛ ولهذا جاء الجواب بالتثنية والبسط، فقال الله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾.

ولما وصفوا الله سبحانه وتعالى بهذا العيب، عاقبهم الله جل جلاله بما قالوا، فقال: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: منعت عن الإنفاق؛ ولهذا كان اليهود أشد الناس جمعـًا للمال ومنعـًا للعطاء، فهم أبخل عباد الله، وأشدهم شحـًا في طلب المال، ولا يمكن أن ينفقوا فلسـًا إلا وهم يظنون أنهم سيكسبون بدله الكثير، ونرى نحن الآن لهم جمعيات كبيرة وعظيمة، لكن هم يريدون من وراء هذه الجمعيات والتبرعات أكثر وأكثر، يريدون أن يسيطروا على العالم.

فإذاً، لا يقل أحد: كيف نجمع بين قوله تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾، وبين الواقع اليوم بالنسبة لليهود؟!؛ لأن هؤلاء القوم يبذلون ليربحوا أكثر.

وقوله: ﴿وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ﴾؛ أي: طردوا وأبعدوا عن رحمة الله عز وجل؛ لأن البلاء موكل بالمنطق، فهم لما وصفوا الله بالإمساك، طردوا وأبعدوا عن رحمته، قيل لهم: إذا كان الله عز وجل كما قلتم لا ينفق، فليمنعكم رحمته حتى لا يعطيكم من جوده، فعوقبوا بأمرين: بتحويل الوصف الذي عابوا به الله سبحانه إليهم بقوله: ﴿غُلَّتْ

﴿أَيْدِيهِمْ﴾، وبإلزامهم بمقتضى قولهم بإبعادهم عن رحمة الله عز وجل؛ حتى لا يجدوا جود الله سبحانه وكرمه وفضله.

وقوله: ﴿بِمَا قَالُواْ﴾؛ الباء هنا للسببية، وعلامة الباء التي للسببية: أن يصح أن يليها كلمة «سبب»، و«ما» هنا يصح أن تكون مصدرية، ويصح أن تكون موصولة، فإن كانت موصولة، فالعائد محذوف، وتقديره: بالذي قالوه، وإن كانت مصدرية، فالفعل يحول إلى مصدر؛ أي: بقولهم؛ ثم أبطل الله سبحانه وتعالى دعواهم، فقال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾.

وقوله: ﴿بَلْ﴾؛ هنا للإضراب الإبطالي، وانظر كيف اختلف التعبير: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾، لأن المقام مقام تمدح بالكرم، والعطاء باليدين أكمل من العطاء باليد الواحدة.

وقوله: ﴿مَبْسُوطَتَانِ﴾، ضد قولهم: ﴿مَغْلُولَةٌ﴾، فيدا الله تعالى مبسوطتان واسعتا العطاء؛ كما قال النبي ﷺ: «يد الله ملأى سَحَّاء -أي: كثيرة العطاء- الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق مذ خلق السماوات والأرض، فإنه لم يَغِضْ ما فيه يمينه»[1]؛ ومَن يحصي ما أنفق الله تعالى منذ خلق السماوات والأرض؟!، لا يحصيه أحد، ومع ذلك لم يَغِضْ ما في يمينه - أي: لم ينقص ما في يده -.

وهذا كقوله تعالى في الحديث القدسي: «يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا غمس في البحر»[2]؛ ولننظر إلى المخيط غُمِسَ في البحر، فإذا نزعته لا ينقص البحر شيئًا أبداً، ومثل هذه الصيغة يؤتى بها للمبالغة في عدم النقص؛ لأن عدم نقص البحر في مثل هذه الصورة أمر معلوم، فمستحيل أن البحر ينقص بهذا، فمستحيل أيضًا أن الله عز وجل ينقص ملكه إذا قام كل إنسان من الإنس والجن، فسألوا الله تعالى، فأعطى كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك من ملكه شيئًا.

---

(١) رواه البخاري برقم (٤٦٨٤)، ومسلم برقم (٩٩٣)؛ وسيأتي توضيحه.

(٢) رواه البخاري في «الأدب المفرد» برقم (٤٩٠)، ومسلم برقم (٢٥٧٧).

وقوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ﴾؛ نقول هذا المفرد لا يمنع التعدد إذا ثبت؛ لأن المفرد المضاف يفيد العموم، أما المثنى والجمع، فنقول: إن الله عز وجل ليس له إلا يدان اثنتان، كما ثبت ذلك في الكتاب والسنة؛ ففي الكتاب، قال الله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٥٧]، والمقام مقام تشريف، ولو كان الله جل جلاله خلقه بأكثر من يدين لذكره؛ لأنه كلما ازدادت الصفة التي بها خلق الله هذا الشيء، ازداد تعظيم هذا الشيء.

وأيضـًا: قال الله جل وعلا: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾، في الرد على من قالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾؛ بالإفراد، والمقام مقام يقتضي كثرة النعم، وكلما كثرت وسيلة العطاء كثر العطاء، فلو كان لله تعالى أكثر من اثنتين لذكرهما الله سبحانه وتعالى؛ لأن العطاء باليد الواحدة عطاء،فباليدين أكثر وأكمل من الواحدة، وبالثلاث -لو قدر- كان أكثر، فلو كان لله تعالى أكثر من اثنتين لذكرهما.

أما السنة فإن الرسول ﷺ قال: « كلتا يديه يمين»[1]؛ ولم يذكر أكثر من اثنتين.

وأجمع السلف على أن لله سبحانه وتعالى يدين اثنتين فقط بدون زيادة.

فعندنا النص من القرآن والسنة والإجماع على أن لله تعالى يدين اثنتين، فكيف نجمع بين هذا وبين لفظ الجمع: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ [يس: ٧١]؛ الجمع على أحد الوجهين:

فإما أن يكون من باب أقل الجمع اثنان، وعليه، فـ﴿أَيْدِينَآ﴾ لا تدل على أكثر من اثنتين؛ يعني: لا يلزم أن تدل على أكثر من اثنين، وحينئذ تطابق التثنية: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾، ولا إشكال فيه.

وإما أن يكون المراد بهذا الجمع التعظيم، تعظيم هذه اليد، وليس المراد أن لله تعالى أكثر من اثنتين.

ثم إن المراد باليد هنا نفس الذات التي لها يد، وقد قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]؛ أي: بما كسبوا، سواء كان من كسب اليد أو الرجل أو اللسان أو غيرها من أجزاء البدن، لكن يعبر بمثل هذا التعبير عن الفاعل نفسه.

---

(١) رواه مسلم برقم (١٨٢٧).

ولهذا فإن الأنعام التي هي الإبل لم يخلقها الله تعالى بيده، وفرق بين قوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾، وبين قوله: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾، فـ: ﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾، كأنه قال: مما عملنا؛ لأن المراد باليد ذات الله جل جلاله التي لها يد، والمراد بـ ﴿بِيَدَيَّۖ﴾؛ اليدان دون الذات.

وبهذا يزول الإشكال في صفة اليد التي وردت بالإفراد والتثنية والجمع.

وأما قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾ [الذاريات: ٤٧]؛ فالأيد هنا بمعنى القوة، فهي مصدر آد يئيد؛ بمعنى: قوي، وليس المراد بالأيد صفة الله جل وعلا، ولهذا ما أضافها الله تعالى إلى نفسه، ولم يقل: بأيدينا!، بل قال: ﴿بِأَيۡيْدٖ﴾؛ أي: بقوة.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [فاطر: ٤١].

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَا﴾؛ قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أخبر تعالى عن قدرته العظيمة، التي بها تقوم السماء والأرض عن أمره، وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما، فلا تضطربا عن أماكنهما، كما قال الله تعالى: ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ﴾ [الحج: ٦٥]، وقال الله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ﴾ [الروم: ٢٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾؛ أي: لا يقدر على إبقائهما بلا زوال واضطراب إلا هو – تعالى –، ومع موجب زوالهما واضطرابهما من جرائم بني آدم أمسكهما، فحلم الله الواسع، ومغفرته العظيمة، تدعوه – تعالى – إلى إمساكهما، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾، فيحلم ويغفر، ويستر، ويصفح عن العظيم مما يبارزه به عباده من الجرائم، كما ذكر تعالى عن بعض المجرمين ما يقتضي تفطر السماوات، وتشقق الأرض، وانهداد الجبال الراسيات منه، ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ۞ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ۞ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ

ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴾ [مريم: ٨٨-٩١].

والمراد هنا إثبات جنس الفعل لله تعالى؛ لقوله في الآية: ﴿**يُمْسِكُ**﴾؛ يعني: أن الله تعالى هو الممسك للسماوات والأرض بقدرته، وإذا أراد أن يطوي السماوات والأرض لترك إمساكهما فزالتا، فهو تعالى يفعل باختياره ما شاء، وفعله غير خلقه.

وسيأتي فيما يلي من الأحاديث مزيد من توضيح إمساك الله جل جلاله للسماوات والأرض.

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَدُ الله مَلْأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ، وَقَالَ: عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَبِيَدِهِ الْأُخْرَى الْمِيزَانُ، يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ»(١).

قوله: «**يد الله ملأى**»؛ أي: أنها شديدة الامتلاء بالخير.

وقوله: «**لا يغيضها**»؛ أي: لا ينقصها، يقال: غاض الماء يغيض، إذا نقص.

وقوله: «**سحاء**»؛ أي: دائمة العطاء.

وقوله: «**الليل والنهار**»؛ أي: يد الله سبحانه وتعالى دائمة العطاء في الليل والنهار.

وقوله: «**أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض؟**»؛ استدلال وإيضاح لكثرة نفقته سبحانه وتعالى، وتنبيه لمن له بصيرة إلى ذلك.

وقوله: «**فإنه لم يغض ما في يده**»؛ أي: هذا الإنفاق الهائل المستمر الدائم بدون توقف، لم ينقص ما في يده تعالى؛ لأن بيده الخير كله لا مانع لما أعطى، ولا معطي لمن منعه، وإذا أراد شيئًا قال له: كن، فيكون.

وقوله: «**وعرشه على الماء**»؛ قال الحافظ ابن حجر العسقلاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «مناسبة ذكر العرش هنا: أن السامع يتطلع من قوله: «**منذ خلق السماوات والأرض**» ماذا كان قبل ذلك؟، فذكر أن عرشه قبل خلق السماوات والأرض، كان على الماء».

وقوله: «**وبيده الأخرى الميزان، يخفض ويرفع**»؛ «**الميزان**»: ثبت أن الميزان الذي عند الله تعالى له كفتان ؛ وتوزن عليه الأعمال والعامل وصحائف الأعمال، وهو

---

(١) رواه البخاري برقم (٧٤١١)، ومسلم برقم (٩٩٣).

ميزان حسـي يتضـمن معنى العدل، وعلينا الإيمان بكل ما جاءنا من الغيب، كما في كتاب ربنا وأخبرنا رسولنا الصادق ﷺ، من غير زيادة ولا نقصان.

وقال أهل العلم: الذي يوزن في الميزان ثلاثة أشياء: الأول: يوزن العمل، فالعمل الصالح يُوضَع في كفة، والعمل السيئ يوضع في كفة، قال الله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة:٧-٨]، قال رسول الله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان»[١]، وقال ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، حبيبتان إلى الرحمن، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»[٢]، والثاني: يوزن الإنسان نفسه ؛كما جاء عن النبي ﷺ أنه قال - لما ضَحِكُوا من دقة ساقي عبد الله بن مسعود رضي الله عنه -: «أتضحكون من دقة ساقيه، والذي نفسي بيده لهما في الميزان يوم القيامة أثقل من أُحُد»[٣]، والثالث: يوزن صحائف العمل، الصحائف التي تُكْتَبُ فيها الأعمال توزن؛ جاء في حديث البطاقة: أنه يؤتى برجل، ويخرج له تسعة وتسعون سجلا، كل سجل مد البصر سيئات، ثم يؤخذ له بطاقة فيها الشهادتان، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله، فتوضع السجلات في كفة، وتوضع البطاقة في كِفة، فطاشت السجلات من كثرة البطاقة، فنجي وسلم، وغفر الله له[٤].

وهذا من عِظَمِ عدل الله عز وجل و عِظَمِ إرادته أن يقطع عن العبد العذر، وأن يكون حجة العبد عليه من نفسه وعمله وصحائف عمله.

وقوله: «**يخفض ويرفع**»؛ فهذا من العدل الذي به يرفع من يكون أهلاً لأن يرفع، فيتفضل عليه برفعه بالإيمان وقبول الحق، بأن يحبب إليه الإيمان ويزينه في قلبه، ويكره إليه الكفر والفسوق والعصيان، ويجعله من الراشدين، وهذا أعظم الرفع، ويخفض من ليس أهلاً لذلك، بأن يمنع فضله عنه، ويكله إلى نفسه فيضل، ويتولاه

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٢٣).

(٢) رواه البخاري برقم (٦٤٠٦)، ومسلم برقم (٢٦٩٤).

(٣) رواه أحمد (١/ ٤٢٠)، وصححه الألباني؛ انظر «السلسلة الصحيحة» برقم (٢٧٥٠).

(٤) رواه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٤٦)، وصححه الألباني؛ انظر «السلسلة الصحيحة» برقم (١٣٥).

عدوه فيصبح خاسراً، وهذا أعظم الخفض؛ لأنه يصير إلى أسفل سافلين، في جهنم – نعوذ الله منها – وأمور الدنيا تبع لذلك.

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ الله يَقْبِضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَرْضَ، وَتَكُونُ السَّمَاوَاتُ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ»[(١)].

قوله: «**يقبض**»؛ فالقبض لغة: إمساك الشيء بجميع كف اليد، فقبض اليد على الشيء: جمعها بعد تناوله، فقبض الشيء هو: جمعه في الكف؛ فقوله: «**إن الله يقبض يوم القيامة الأرض**»؛ أي: يجمعها بيده، فتكون في قبضته، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ٦٧].

وقوله: «**وتكون السماوات بيمينه، ثم يقول: أنا الملك**»؛ أي: أنه -تعالى- يطوي السماوات بيده اليمنى، والأرض مقبوضة بيده الأخرى، ثم يقول – يعظم نفسه-: «**أنا الملك**»؛ أي: الذي يتصرف في كل شيء كيف يشاء، ولا يشاركه في ذلك أحد.

وهذا الحديث مطابق لقوله -تعالى-: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وَعَنْ عَبْدِ الله بن مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ يَهُودِيًّا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ الله يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْجِبَالَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْخَلَائِقَ عَلَى إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، فَضَحِكَ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾[(٢)].

قوله: «**حبر**» الحبر هو العالم الكثير العلم، والحبر يشابه البحر في اشتقاق

---

(١) رواه البخاري برقم (٧٤١٢)، ومسلم برقم (٢٧٨٨).

(٢) رواه البخاري برقم (٧٤١٥)، و مسلم برقم (٢٧٨٦).

الحروف، ولهذا كان العالم أحياناً يسمى بالحبر وأحياناً بالبحر.

وقوله: «**إنا نجد**»؛ أي: في التوراة.

وقوله: «**أصبع**»؛ واحدة الأصابع، وفيه إثبات الأصابع لله عز وجل؛ لإقراره ﷺ هذا الحبر على ما قال.

والإصبع إصبع حقيقي يليق بالله عز وجل كاليد، وليس المراد بقوله: «**على إصبع**» سهولة التصرف في السماوات والأرض، كما يقوله أهل التحريف، بل هذا خطأ مخالف لظاهر اللفظ والتقسيم، ولأنه ﷺ أثبت ذلك بإقراره، ولقوله ﷺ: «إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن»[(١)]؛ ولا يلزم من قوله: «بين أصبعين» المماسة، ألا ترى قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤]، والسحاب لا يمس الأرض ولا السماء وهو بينهما.

ونحن نثبت الأصابع لله عز وجل ونقر به ونقبله، وأن لا نقتصر على مجرد إمراره بدون معنى، بل نُقِرَّها ونقول: المراد به أصبع حقيقي يجعل الله جل جلاله عليه هذه الأشياء الكبيرة، ولكن لا يجوز أبداً أن نتخيل بأفهامنا أو أن نقول بألسنتنا: إنها مثل أصابعنا، بل نقول الله سبحانه أعلم بكيفية هذه الأصابع، فكما أننا لا نعلم ذاته المقدسة، فكذلك لا نعلم كيفية صفاته، بل نَكِل علمها إليه سبحانه وتعالى.

وقوله: «**الملك**»؛ أي: ذو السلطان، وليس مجرد المتصرف، بل هو المتصرف فيما يملك على وجه السلطة والعلو؛ فملك الله تعالى متضمن لكمال السلطان والتدبير والملك.

وقوله: «**فضحك رسول الله ﷺ**» تصديقاً لقول الحبر؛ فهذا يدل على أنه ﷺ أقره واستشهد لقوله بآية من كتاب الله تعالى، فضحكه وإستشهاده إقرار لقول الحبر، وسبب الضحك هو سروره، حيث جاء في القرآن ما يصدق ما وجده هذا الحبر في كتبه.

وقوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ ...﴾، ﴿وَمَا قَدَرُواْ﴾؛ أي: ما عظموا الله عز وجل حق تعظيمه، حيث أشركوا به ما كان من مخلوقاته،

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٦٥٤).

﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ هذا فيه بيان لعظمة الله عز وجل، إذ أن الأرض كلها ببحارها وأنهارها وأشجارها وكل ما فيها، الأرض كلها جميعاً قبضته يوم القيامة، والسماوات على عظمها وسعتها مطويات بيمينه، قال الله عز وجل: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾؛ هذا تنزيه له عن كل نقص وعيب، ومما ينزه عنه هذه الأنداد، ولهذا قال: ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾؛ أي: ترفع.

وقوله: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ أي: عن كل شرك يشركون به، سواء جعلوا الخالق كالمخلوق أو العكس.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واطراد لفظ اليد في موارد استعمالها، وتنوع ذلك، يوجب أن تكون اليد حقيقة، كقوله -تعالى-: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾، ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾، ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾.

فلو كان المراد: القدرة، أو النعمة، لم يستعمل منه لفظ «يمين»، كما في الحديث: «المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين»، فلا يصح أن تكون يد القدرة، والنعمة، وقوله: «يقبض الله السماوات بيده، والأرض باليد الأخرى، ثم يهزهن، ثم يقول: أنا الملك»؛ فالهز والقبض، وذكر اليدين، يمنع ذلك.

ولما ذكر ذلك رسول الله ﷺ جعل يقبض يديه ويبسطهما، تحقيقاً للصفة، لا تشبيهاً لها، كما أنه ﷺ لما قرأ قوله -تعالى-: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾، وضع إصبعه على عينه والأخرى على أذنه؛ تحقيقاً لصفة السمع والبصر».

فاقتران الطي والقبض، والإمساك باليد، جعل تأويلها بالقدرة والنعمة تحريفاً باطلاً.

قال الإمام ابن خزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نحن نقول: الله جل وعلا له يدان، كما أعلمنا الباري في محكم تنزيله، وعلى لسان نبيه المصطفي ﷺ، ونقول: كلتا يدي ربنا

يمين، على ما أخبر النبي ﷺ، ونقول: إن الله عز وجل يقبض الأرض بإحدى يديه، ويطوي السماء بيده الأخرى».

فمن أثبت لله تعالى يدين، وأثبت لهما أصابع، على ما جاء في النصوص الصحيحة، لا يكون مشبهاً، بل يكون متبعاً لكتاب الله وسنة رسوله، مطيعاً لله ورسوله في ذلك؛ لأنه أثبت لله ما أثبته لنفسه، وأثبته له رسوله ﷺ.

والله تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في أوصافه؛ لأن الوصف تابع للموصوف.

وقال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإصبع المذكورة في الحديث صفة من صفات الله عز وجل؛ وكذلك كل ما جاء به الكتاب أو السنة من هذا القبيل في صفات الله تعالى؛ كالنفس، والوجه، والعين، واليد والرجل، والإتيان، والمجيء، والنزول إلى السماء الدنيا، والاستواء على العرش، والضحك، والفرح».

***

المسألة (التاسعة والثمانون):
فِي أَنَّ اللهَ جَلَّ جَلَالُهُ هُوَ القَادِرُ

هذا الخطاب وأمثاله كثير في كتاب الله تعالى عام شامل، يجب أن يفهم على عمومه، كما يجب أن يفهم مراد الله تعالى فيه، وفي غيره من خطاباته سبحانه وتعالى، وقد اتفق المسلمون وسائر أهل الملل على أن الله تعالى على كل شيء قدير.

والقدرة تتعلق بكل ما تتعلق به المشيئة، فإن ما شاء الله كان، ولا يكون شيء إلا بقدرته جل وعلا؛ ولهذا قال الله عز وجل: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٢٠] وغيرها من الآيات.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ﴾ [الأنعام: ٦٥].

الآية بتمامها هي قوله تعالى: ﴿**قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ** عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾.

فقوله: ﴿قُلْ﴾؛ أي: يا محمد، ﴿هُوَ ٱلْقَادِرُ﴾؛ أي: هو الله تعالى قادر على إرسال العذاب إليكم من كل جهة.

وقوله: ﴿مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ﴾؛ أي: يخلطكم، ﴿شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾؛ أي: في الفتنة، وقتل بعضكم بعضًا، ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾؛ أي: ننوعها، ونأتي بها على أوجه كثيرة وكلها دالة على الحق ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾؛ أي: يفهمون ما خُلقوا من أجله، ويفقهون الحقائق الشرعية والمطالب الإلهية.

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله السَّلَمِيِّ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُعَلِّمُ أَصْحَابَهُ الِاسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا، كَمَا يُعَلِّمُهُمُ السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ، يَقُولُ: «إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ، فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللهمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، اللهمَّ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ هَذَا الْأَمْرَ، ثُمَّ يُسَمِّيهِ بِعَيْنِهِ، خَيْرًا لِي فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ، قَالَ: أَوْ فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي، فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، اللهمَّ وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي، أَوْ قَالَ: فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ، فَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدُرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ»[1].

«**جابر بن عبد الله السلمي**»؛ صحابي جليل، وأبوه صحابي، مات في المدينة بعد سنة السبعين، وهو ابن أربع وتسعين، رضي الله عنه وعن أبيه.

وقوله: «**يعلم أصحابه الاستخارة**»؛ أي: صلاتها ودعاءها، وهذا من تمام شفقته على أمته، وحرصه على حصول الخير لهم، ودفع كل شر عنهم، وبمثل هذا يعلم أنه ﷺ ما كان ليترك باب ما يعتقدونه في ربهم، من الإيمان بأسمائه وصفاته، وما يجب له، وما يمتنع عليه، ما كان ليترك ذلك بدون إيضاح وبيان، لا يحصل معه أي التباس أو اشتباه، وهذا واضح جلي من دعوة الرسول ﷺ، ومن حاله، ومن حالة أصحابه رضي الله عنهم.

وقوله: «**الاستخارة**»؛ أي: طلب الخير من أحد الأمرين، الفعل لما هَمَّ به أو الترك، وهي مشروعة في عامة الأمور، كما يدل عليه هذا الحديث، لا يخرج من عموم ذلك إلا الواجب، والمحرم.

---

(١) رواه البخاري برقم(٧٣٩٠).

وقوله: «**كما يعلمنا السورة من القرآن**»؛ بيان لشدة الاهتمام بها والاعتناء، وهذا من محاسن الإسلام الظاهرة لكل عاقل، وقد كان العرب قبل ذلك إذا هَمَّ أحدهم بالأمر ذهب يستقسم بالأزلام، أو ذهب يزجر الطير ليستدل بطيرانه أو نعابه على ما سيحصل له في المستقبل، أو ذهب إلى الكهنة وإخوان الشياطين، وهذا كله رجم بالغيب، وشرك بالله تعالى، فعوضه الإسلام عن ذلك بالفزْع إلى من بيده أَزِمَّة الأمور كلها، ومن يملك الخير والشر، فيقدمون بين يدي ذلك ركعتين، لتكونا وسيلة بين يدي الطلب، ثم يتوجهون إلى ربهم بهذا الدعاء، الذي فيه التوسل إليه –سبحانه وتعالى– بأسمائه وصفاته، وتوحيد الطلب والنية والقصد.

وقوله: «**ليركع**»؛ أمر بالركوع، ويحمل على الندب؛ للأدلة الدالة على عدم الوجوب.

وقوله: «**من غير الفريضة**»؛ يدل على عدم حصول سنة الاستخارة بالدعاء عقب صلاة الفرض، بل أن تكون بعد ركعتين من غير الفريضة، ثم يدعو بهذا الدعاء.

وقوله: «**اللهم إني أستخيرك**»؛ أي: أطلب منك بيان وتيسير ما هو خير لي.

وقوله: «**بعلمك**»؛ أي: أسألك وأتوسل إليك بصفتك، صفة العلم، أن ترشدني إلى الخير فيما أريد، فإنك عالم به لا يخفى عليك شيء، وهذا صريح في إثبات صفة العلم لله تعالى ودعائه به، والأدلة عليه لا حصر لها.

وقوله: «**وأستقدرك**»؛ أي: أسألك أن تجعلني قادراً على فعل ما أريد، وتهيء أسباب ذلك لي.

وقوله: «**بقدرتك**»؛ هذا سؤال لله تعالى بصفته التي هي القدرة؛ أي: أنت القادر الذي لا يعجزه شيء، فأسألك بهذه القدرة العظيمة أن تنيلني ما أريد، وهذا هو محل الشاهد، كما هو ظاهر.

ثم عاد إلى التوسل بهاتين الصفتين، بقوله: «**فإنك تقدر ولا أقدر**»؛ يعني: لك القدرة الكاملة الشاملة، فأسألك بها، كما أني أعترف بفقري إليك وعجزي، فليس لي قدرة على شيء حتى تجعلني قادراً عليه، وتيسر لي أسبابه، وأنت تعلم عواقب الأمور، وما تؤول إليه، بل لا يخفى عليك شيء في الماضي، والحاضر، والمستقبل، فعلمك شامل لكل شيء، ولا علم لي بشيء من ذلك إلا ما علمتني.

وقوله: «**وأنت علام الغيوب**»؛ أي: ذلك خاص بك، لا يعلمه سواك.

وقوله: «**ثم يسميه بعينه**»؛ ظاهر في أنه يتلفظ به معينًا له باسمه؛ ليكون بذلك أقوى على اجتماع العزم على طلبه.

وقوله: «**في عاجل أمري وآجله**»؛ أي: في دنياي وآخرتي.

وقوله: «**أو في ديني، ومعاشي، وعاقبة أمري**»؛ شك من الراوي: هل قال الأول أو الثاني؟ والمعنى واحد.

وقوله: «**فاقدره لي، ويسره لي**»؛ أي: اقض به لي، واجعلني قادراً على الحصول عليه، وسهل لي أسبابه بحيث أناله بلا مشقة وكلفة.

وقوله: «**ثم بارك لي فيه**»؛ أي: اجعل فيه بركة تنميه وتزيده، وفيما يترتب عليه.

وقوله: «**اللهم إن كنت تعلم أنه شر لي، في ديني، ومعاشي، وعاقبة أمري- أو قال: عاجل أمري وآجله- فاصرفني عنه**»؛ أي: هيئ الأسباب التي تصرف قلبي وتثني عزمي عن فعله.

وقوله: «**واقدر لي الخير حيث كان**»؛ أي: قدر لي فعل ما فيه خير لديني ودنياي، في أي مكان، وفي أي وقت.

وقوله: «**ثم رضني به**»؛ أي: اجعلني رضيًا به، قانعًا، مستغنيًا عن خلقك، مستعينًا به على طاعتك، وشاكراً لك منقاداً لأمرك.

والمراد هو إثبات صفة القدرة لله تعالى وأن قدرته -تعالى- عامة لكل مقدور.

فالله تعالى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا مانع له، ولا يقدر غيره أن يمنعه مراده، فهو قادر على كل مقدور.

وحقيقة الأمر هو ما أخبر الله عز وجل به في غير موضع من كتابه أنه على كل شيء قدير، وهذا هو ما يعتقده أهل السنة المثبتون للقدر.

* * *

المسألة (التسعون):
في مُقَلِّبِ الْقُلُوبِ

المراد وصف الله تعالى بأنه المنفرد بالتصرف في خلقه حتى قلوب العباد التي تنطوي على آرائهم، ونياتهم، أن الله تعالى هو المتصرف بها، فإن شاء جعلها مريدة للخير، وإن شاء جعلها مريدة للشر.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾ [الأنعام: ١١٠].

قوله: ﴿**وَنُقَلِّبُ**﴾؛ التقليب: التصرف والتغيير، وتقليب الله القلوب والبصائر؛ صرفها من رأي إلى رأي ومن حال إلى حال.

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «المراد بتقليب القلوب: تقليب أعراضها، وأحوالها، لا تقليب ذات القلب».

أخبر الله سبحانه وتعالى أنه يعاقب من لا يقبل الحق، أو يرده أول ما يبلغه بتقليب القلب، وتركه يَعْمَه في ضلاله وغيه، كما في هذه الآية، وكما في قوله -تعالى-: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وفي هذا بيان أن الله تعالى إذا منع فضله الإنسان، بالهداية، أنه يكون منحرفاً ضالاً.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لما جحد المشركون ما أنزل الله، لم تثبت قلوبهم على شيء، ورُدّت عن كل أمر».

وَعَنْ عَبْدِ الله بن عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «أَكْثَرُ مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَحْلِفُ: لَا وَمُقَلِّبِ الْقُلُوبِ»[١].

قوله: «**أكثر ما كان النبي ﷺ يحلف**»؛ الحلف هو اليمين والقسم؛ وهو تأكيد

(١) رواه البخاري برقم (٧٣٩١).

الشيء بذكر مُعَظَّم بصيغة مخصوصة بأحد حروف القسم؛ وهي: الواو، والتاء، والباء.

وقوله: «**لا**»؛ لنفي الكلام السابق لقوله ﷺ، الذي استدعى أن يحلف على نفيه.

وقوله: «**ومقلب القلوب**»؛ هو وصف لله تعالى، مُقْسَم به، والمراد بتقلب القلوب، تقليب أحوالها لا تقليب ذواتها.

وفيه جواز الحلف بأفعال الله عز وجل.

وفيه دليل على أن الذي يتولى أعمال القلب، من الإرادات والدواعي وسائر الأعراض، هو الله تعالى فيصرفها كيف يشاء، وهذا من تمام ملكه، فلا ينازعه أحد في التدبير والتصرف، ولا يقع في الوجود إلا ما أراده.

وبهذا يعلم مدى حاجة العبد إلى ربه جل جلاله، وأنه لا غنى له عنه طرفة عين، فلا بد له من هدايته وتوفيقه، وإلا ضل وتاه.

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ، مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ كَيْفَ يَشَاء»، ثُمَّ قَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ القُلُوبِ، صَرِّف قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ»[1].

قال الحليمي رَحِمَهُ اللهُ: «هذا تعليم منه لأمته أن يكونوا ملازمين لمقام الخوف مشفقين من سلب التوفيق غير آمنين من تضييع الطاعات وتتبع الشهوات».

وقوله: «**إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين**»؛ أي: هو سبحانه قادر على تقليب القلوب باقتدار تام.

وقوله: «**من أصابع الرحمن**»؛ نسب تقلب القلوب إليه تعالى إشعاراً بأنه تولى بنفسه أمر قلوبهم، ولم يكله لأحد من ملائكته، وخص «**الرحمن**» تعالى بالذكر، إيذاناً بأن ذلك لم يكن إلا لمحض رحمته وفضل نعمته، كي لا يطلع أحد غيره على سرائرهم ولا يكتب عليهم ما في ضمائرهم.

وقد سبق الكلام قريباً عن صفة أصابع الرحمن، وأنه لا يلزم بينها وبين قلوب

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٦٥٤).

العباد المماسة.

وقوله: «**كقلب واحد يصرفه كيف يشاء**»؛ أي: يتصرف في جميع قلوبهم كتصرفه في قلب واحد، لا يشغله قلب عن قلب؛ ففيه إشارة إلى تمام قدرته على تصريفها ولا يشغله شأن عن شأن.

قال الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ليس المراد أن تصرفه في القلب الواحد أسهل عليه من التصرف في القلوب كلها؛ فإن ذلك عنده تعالى سواء؛ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢]، لكن ذلك راجع إلى العباد وإلى ما شاهدوه وعرفوه فيما بينهم كقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]؛ أي: أهون فيما يجب عندكم وينقاس على أصولكم وتقتضيه عقولكم وإلا فالإبتداء والإنشاء عنده سواء.

وقوله: «**اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك**»؛ أي: متصرف في قلوب عباده وغيرها كيف شاء، لا يمتنع عليه منها شيء ولا يفوته ما أراده.

قال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنما كان ذلك أكثر دعائه لاطلاعه على عظيم صنع الله في عجائب القلب وتقلبه، فإنه هدف يصاب على الدوام من كل جانب، فإذا أصابه شيء وتأثر أصابه من جانب آخر ما يضاده فيغير وصفه، وعجيب صنع الله في تقلبه لا يهتدي إليه إلا المراقبون بقلوبهم والمراعون لأحوالهم مع الله تعالى».

قال ابن عربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تقليب الله القلوب هو ما خلق فيها من الهم بالحسن والهم بالسوء، فلما كان الإنسان يحس بترادف الخواطر المتعارضة عليه في قلبه الذي هو عبارة عن تقليب الحق، وهذا لا يقتدر الإنسان على دفعه، كان ذلك أكثر دعائه يشير إلى سرعة التقليب من الإيمان إلى الكفر وما تحتهما؛ قال الله عز وجل: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ [الشمس: ٨]، وهذا قاله للتشريع والتعليم».

***

المسألة (الحادية والتسعون):
فِي مَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَى وَإِرادَتِهِ

قوله: «**مشيئة الله تعالى وإرادته**»؛ الراجح أن المشيئة والإرادة لا فرق بينهما، وهذا مما يتعلق بربوبيته – تعالى –، وهو رب كل شيء وخالقه ومالكه، يدخل في ذلك جميع الأعيان القائمة بأنفسها، وصفاتها القائمة بها؛ مثل أفعال العباد، فإنه – تعالى – خالق العبد وفعله.

وهو سبحانه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فلا يكون في الوجود شيء إلا بمشيئته وقدرته، ولا يمتنع عليه شيء يريده، بل هو القادر على كل شيء.

كما أنه سبحانه يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، وقد ذكر الله تعالى مشيئته عامة في القرآن، في ما يقرب من أربع مِئَةِ موضع.

وفيما يأتي من أدلة إثبات أن الله سبحانه وتعالى علق وجود كل شيء وعدمه بمشيئته وإرادته.

فكل ما وجد من عين أو حركة، أو موت أو حياة، أو مصيبة، أو عز أو ذل، أو غير ذلك، فهو بمشيئته، وكل ما لم يوجد، ولم يقع، فهو لعدم مشيئته لوجوده، وهذا معنى كونه على كل شيء قدير، وهو حقيقة ربوبيته لكل شيء، ومعنى كونه القيوم بتدبير عباده، فلا خلق، ولا رزق، ولا عطاء، ولا منع، ولا قبض، ولا بسط، ولا ضلال، ولا هدى، ولا سعادة، ولا شقاء، إلا بمشيئته وتكوينه، إذ لا مالك غيره ولا رب سواه.

فمشيئته تعالى تتعلق بخلقه، وأمره الكوني والشرعي بما يحب وما يكره، كل شيء داخل تحت مشيئته، فقد شاء وجود إبليس والشياطين، والكفار والفساق، وهو يكره ذلك ويبغضه.

وكذلك ما يحبه ويرضاه كوجود الرسل والصِّدِّيقين، والشهداء والصالحين والطاعات، وأمثال ذلك من امتثال أمره الديني الشرعي، فهو أيضاً بمشيئته.

وأما الإرادة – أو المشيئة – فقد بين الله تعالى أنها نوعان:

أحدهما: الإرادة الكونية القدرية – وهي مرادفة للمشيئة – وهذه الإرادة تستلزم وقوع المراد ولا بد، ولا يلزم أن يكون مرادها محبوباً لله تعالى مرضياً له، بل قد يكون مكروهاً مسخوطاً له، ككفر الكافرين، ومعاصي العاصين، ووجود المفسدين، وقد يكون مرادها محبوباً مرضياً لله تعالى، كوجود إيمان المؤمنين، وطاعات الطائعين، ووجود رسل الله سبحانه وعباده المخلصين، والصديقين والشهداء والصالحين.

وهذه الإرادة هي المذكورة في مثل قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾، ونحو ذلك من الآيات الدالة على عموم إرادته لما يشاء، وأنه لا راد لمراده تعالى، فالإرادة الكونية القدرية، لا بد أن يقع مرادها.

والنوع الثاني: الإرادة الدينية الأمرية الشرعية؛ وهي المذكورة في مثل قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾، وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ﴾، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا * يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾، وأمثال ذلك من الآيات، فهذه الإرادة يحب الله عز وجل مرادها، ويأمر به ويرضاه، ولا يلزم أن يقع المراد بها إلا أن يتعلق به الإرادة الكونية.

فهذا ما دلت عليه نصوص كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ ومذهب أهل السُّنَّة، وبه تتفق الدلائل، وتنحل الإشكالات.

وتفصيل ذلك؛ أن يقال: الأشياء كلها لا تخرج عن أربعة أقسام:

أحدها: ما تعلقت به الإرادتان؛ الكونية، والدينية، وهو ما يقع في الوجود من الأعمال الصالحة الموافقة لأمر الله تعالى وشرعه، فإن الله جل وعلا أرادها دينـًا وشرعـًا، فأمر بها، أرادها كونـًا، وقدراً، فوجدت، ولولا إرادته إياها كونـًا لم توجد؛ لأنه لا يوجد ما لا يريد وجوده، ولا يمتنع عليه ما يريد وجوده.

والثاني: ما تعلقت به الإرادة الدينية فقط؛ وهو ما أمر الله عز وجل به من الأعمال الصالحة، فعصى أمره فيها الكفار والفساق، فلم يفعلوها، فتلك الأعمال تعلقت بها الإرادة الدينية فقط؛ لأنه أمر بها، وطلب فعلها، ولم يردها كونـًا وقدراً، ولهذا تخلف وجودها، وإن كان يحب وجودها، ويرضاه، ولكن لا يلزم وجود ما يحب ويرضى.

ولا يقال: هذا يخالف كونه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن؛ لأنه تعالى يريد قدراً وكونـًا ما لا يحب ويرضى، كوجود إبليس، وجنوده المفسدين في الأرض بالمعاصي والكفر والفسوق، وذلك لحِكَمٍ عظيمة يعلمها تعالى، ويُطلع على ما يشاء منها من يشاء من عباده.

والثالث: ما تعلقت به الإرادة الكونية فقط، وهو ما قدره وشاءه من الحوادث التي لم يأمر بها، كالمعاصي، فإنه لم يأمر بها، ولم يرضها ولم يحبها، إذ هو – تعالى – لا يأمر بالفحشاء والمنكر، ولا يرضى لعباده الكفر، ولولا إرادته الكونية، وقدرته، وخلقه لذلك، لما كان شيء منها، فإنه – تعالى – ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

والرابع: ما لم تتعلق به الإرادتان، فهذا ما لم يكن، ولن يكون، من الأفعال والأعيان.

وبهذا البيان والتفصيل تزول الإشكالات التي يوردها أصحاب الشكوك والأهواء، الذين لم يستنيروا بنور كتاب الله تعالى وسنة رسوله المطهرة.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [الكهف: ٣٩].

قوله: ﴿ وَلَوْلَآ ﴾؛ بمعنى: هَلّا، فهي للتحضيض، والمراد بها هنا التوبيخ؛ بمعنى أنه يوبخه على ترك هذا القول.

وقوله: ﴿إِذْ دَخَلْتَ ﴾؛ حين دخلت.

وقوله: ﴿جَنَّتَكَ ﴾؛ الجنة، بفتح الجيم هي البستان الكثير الأشجار، سميت بذلك لأن من فيها مستتر بأشجارها وغصونها، فهو مستجن فيها.

ولفظ: ﴿جَنَّتَكَ ﴾؛ مفرد، والمعلوم من الآيات أن له جنتين، قيل: إن المفرد إذا أضيف يعم فيشمل الجنتين، أو أن هذا القائل أراد أن يقلل من قيمة الجنتين، لأن المقام مقام وعظ وعدم إعجاب بما رزقه الله تعالى، كأنه يقول: هاتان الجنتان جنة واحدة، تقليلاً لشأنهما، والأول أقرب، والله أعلم.

وقوله: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾؛ المراد: كان ينبغي لك أن تقول حين دخلت جنتك: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾، لتتبرأ من حولك وقوتك ولا تعجب بجنتك.

وقوله: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾؛ ﴿لَا ﴾: نافية للجنس، و﴿قُوَّةَ ﴾: نكرة في سياق النفي، فتعم، والقوة صفة يتمكن بها الفاعل من فعل ما يريد بدون ضعف.

فإن قيل: ما الجمع بين عموم نفي القوة إلا بالله، وبين قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ﴾ [الروم: ٥٤]، وقال الله عز وجل عن عاد: ﴿وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت: ١٥]، ولم يقل: لا قوة فيهم، فأثبت للإنسان قوة؟.

فالجواب: أن الجمع بأحد الوجهين:

الأول: أن القوة التي في المخلوق كانت من الله عز وجل، فلولا أن الله تعالى أعطاه القوة، لم يكن قويـاً، فالقوة التي عند الإنسان مخلوقة لله، فلا قوة في الحقيقة إلا بالله تعالى.

والثاني: أن المراد بقوله: ﴿لَا قُوَّةَ﴾؛ أي: لا قوة كاملة إلا بالله عز وجل.

وعلى كل حال، فهذا الرجل الصالح أرشد صاحبه أن يتبرأ من حوله وقوته، ويقول: هذا بمشيئة الله تعالى وبقوة الله سبحانه.

ومشيئة الله تعالى: هي إرادته الكونية، وهي نافذة فيما يحبه وما لا يحبه، ونافذة على جميع العباد بدون تفصيل، ولا بد من وجود ما شاءه بكل حال، فكل ما شاء الله تعالى وقع ولا بد، سواء كان فيما يحبه ويرضاه أم لا.

وقال الله سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ﴾؛ الضمير يعود على المؤمنين والكافرين، لقوله تعالى قبلها: ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ﴾.

وفي هذا رد واضح على القدرية الذين ينكرون تعلق فعل العبد بمشيئة الله جل جلاله؛ لأن الله سبحانه قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ﴾؛ يعني: ولكنه شاء أن يقتتلوا فاقتتلوا، ثم قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾؛ أي: يفعل الذي يريده، والإرادة هنا إرادة كونية.

وقوله: ﴿يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾؛ الفعل باعتبار ما يفعله - سبحانه وتعالى - بنفسه فعل مباشر، وباعتبار ما يقدره على العباد فعل غير مباشر؛ لأنه من المعلوم أن الإنسان إذا صام وصلى وزكى وحج وجاهد، فالفاعل الإنسان بلا شك، ومعلوم أن فعله هذا بإرادة الله جل وعلا.

ولا يصح أن ينسب فعل العبد إلى الله تعالى على سبيل المباشرة؛ لأن المباشر للفعل الإنسان، ولكن يصح أن ينسب إلى الله عز وجل على سبيل التقدير والخلق.

أما ما يفعله الله سبحانه بنفسه، كاستوائه على عرشه، وكلامه، ونزوله إلى السماء الدنيا، وما أشبه ذلك، فهذا ينسب إلى الله تعالى فعلاً مباشرة.

وقال الله عز وجل: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١].

وقوله: ﴿**أُحِلَّتۡ لَكُم**﴾؛ المُحِلّ هو الله عز وجل، وكذلك النبي ﷺ يحل ويحرم، لكن بإذن من الله عز وجل، قال النبي ﷺ: «أحلت لنا ميتتان ودمان»[1]، وكان ﷺ يقول: «إن الله يحرم عليكم»، كذا يخبر أنه حرم، وربما يحرم تحريماً يضيفه إلى نفسه، لكنه بإذن الله تعالى.

وقوله: ﴿**بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ**﴾؛ البهيمة هي كل حيّ لا يميز، و﴿**ٱلۡأَنۡعَٰمِ**﴾ جمع نعم وهي الإبل والبقر والغنم.

وقوله: ﴿**إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ**﴾؛ ﴿**إِلَّا**﴾ الذي ﴿**يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ**﴾ في هذه السورة، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾؛ فالاستثناء هنا فيه منقطع وفيه متصل، فبالنسبة للميتة من ﴿**بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ**﴾ متصل، وبالنسبة لـ﴿وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ﴾ منقطع، لأنه ليس من ﴿**بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ**﴾.

وقوله: ﴿**غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌ**﴾؛ ﴿**غَيۡرَ**﴾ حال من الكاف في ﴿**لَكُم**﴾، يعني: حال كونكم لا تحلون الصيد ﴿**وَأَنتُمۡ حُرُمٌ**﴾، وهذا الاستثناء منقطع أيضاً، لأن الصيد ليس من ﴿**بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ**﴾.

وقوله: ﴿**غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ**﴾؛ يعني: قاتليه في الإحرام؛ لأن الذي يفعل الشيء يصير كالمحل له، و﴿**ٱلصَّيۡدِ**﴾: هو الحيوان البري المتوحش المأكول، هذا هو ﴿**ٱلصَّيۡدِ**﴾ الذي حرم في الإحرام.

وقوله: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ**﴾؛ هذه الإرادة شرعية؛ لأن المقام مقام تشريع، ويجوز أن تكون إرادة شرعية كونية، ونحمل الحكم على الحكم الكوني والشرعي،

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٩٧)، وابن ماجة برقم (٣٣١٤)، وصححه الألباني؛ انظر: «السلسلة الصحيحة» برقم (١١١٨).

فما أراده كونـًا، حكم به وأوقعه، وما أراده شرعـًا، حكم به وشرعه لعباده.

وقال الله جل جلاله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

قوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾؛ المراد بالإرادة هنا الإرادة الكونية؛ والمراد بالهداية هداية التوفيق، فتجده منشـرح الصـدر في شـرائع الإسـلام وشعائره، يفعلها بفرح وسرور وانطلاق.

فإذا عرفت من نفسك هذا، فاعلم أن الله عز وجل أراد بك خيراً وأراد لك هداية، أما من ضاق به ذرعـًا – والعياذ بالله تعالى – فإن هذا علامة على أن الله جل وعلا لم يرد له هداية، ولا انشراح صدره.

وقوله: ﴿لِلْإِسْلَٰمِ ﴾؛ هذا عام لأصـل الإسـلام وفروعه وواجباته، وكلما كان الإنسان بالإسلام وشرائعه أشرح صدراً، كان أدل على إرادة الله تعالى به الهداية.

وقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾؛ أي: شـديد الضـيق، ثم مَثَّل ذلـك بقولـه: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾؛ يعني: كـأنـه حين يعرض عليـه الإسـلام يتكلف الصـعود إلى السـماء، ولهذا جاءت الآية: ﴿يَصَّعَّدُ﴾، بالتشـديد، ولـم يقل: يصعد، كأنه يتكلف الصعود بمشقة شديدة، وهذا الذي يتكلف الصعود لا شك أنه يتعب ويسأم.

فيها إثبات إرادة الله عز وجل؛ والإرادة المذكورة هنا إرادة كونية لا غير، لأنه قال: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ ﴾، ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ ﴾، وهـذا التقسـيم لا يكون إلا في الأمور الكونية، أما الشرعية، فالله يريد من كل أحد أن يستسلم لشرع الله سبحانه.

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤].

هذا النهي كغيره، وإن كان لسبب خاص وموجهاً للرسول ﷺ، وذلك أن أهل مكة سألوه عن الروح وعن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين؟؛ فقال: أخبركم غداً، ولم يقل: إن شاء الله، فلبث الوحي أياماً، ثم نزلت هذه الآية(١)، فكان الخطاب عاماً للمكلفين، فنهى الله عز وجل أن يقول العبد في الأمور المستقبلة، ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ﴾، من دون أن يقرنه بمشيئة الله تعالى، وذلك لما فيه من المحذور؛ وهو: الكلام على الغيب المستقبل، الذي لا يدري، هل يفعله أم لا؟، وهل يكون أم لا؟، وفيه رد الفعل إلى مشيئة العبد استقلالاً وذلك محذور محظور؛ لأن المشيئة كلها لله جل جلاله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، ولما في ذكر مشيئة الله سبحانه، من تيسير الأمر وتسهيله، وحصول البركة فيه، والاستعانة من العبد لربه.

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

هذه الآية نزلت في عم النبي ﷺ أبي طالب، كما جاء عن سعيد بن المسيب، عن أبيه، قال: لما حضرت الوفاة أبا طالب، جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال ﷺ: «أي عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله»، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: أترغب عن ملة عبد المطلب؟، فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيدانه بتلك المقالة، حتى قال أبو طالب — آخر ما كلمهم -: على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، قال رسول الله ﷺ: «والله لأستغفرن لك ما لم أُنْه عنك»، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾، وأنزل الله سبحانه في أبي طالب، وقال لرسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾(٢).

---

(١) أورد هذا السبب في نزول الآية كثير من المفسرين، ولكنه لا يصح ولا يثبت.

(٢) رواه البخاري برقم (١٣٦٠)، ومسلم برقم (٢٤).

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقول تعالى لرسوله ﷺ: إنك يا محمد، لا تهدي من أحببت؛ أي: ليس إليك ذلك، إنما عليك البلاغ، والله يهدي من يشاء، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾.

وهذه الآية أخص من ذلك كله، فإنه قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾؛ أي: هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية».

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

الآية بتمامها هي قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ** وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

فقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ﴾؛ يعني: من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في ليلة القدر منه،ويكون هادياً بآيات واضحات ﴿مِّنَ الْهُدَىٰ﴾؛ أي: مما يهدي إلى الحق من الأحكام، ﴿وَالْفُرْقَانِ﴾؛ أي: الذي يفرق به بين الحق والباطل، وقوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ﴾؛ يعني: من حضر ﴿الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾، لذا أباح لكم الفطر في المرض والسفر، ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾؛ أي: عدة صوم رمضان. ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ﴾؛ يعني: عند إكمال هذه العدة. عَلَى مَا هَدَاكُمْ أي: ما أرشدكم لمعالم دينه، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: تشكرون الله على ذلك.

والمراد هنا أن الله تعالى يريد أن ييسر عليكم الطرق الموصلة إلى رضوانه أعظم تيسير، ويسهلها أشد تسهيل، ولهذا كان جميع ما أمر الله عز وجل به عباده في غاية السهولة في أصله.

وإذا حصلت بعض العوارض الموجبة لثقله، سهَّله تسهيلاً آخر، إما بإسقاطه، أو تخفيفه بأنواع التخفيفات.

وهذا الجزء من الآية لا يمكن تفصيلها؛ لأن تفاصيلها، هو جميع الشرعيات، ويدخل فيها جميع الرخص والتخفيفات.

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِذَا دَعَوْتُمُ الله فَاعْزِمُوا فِي الدُّعَاءِ، وَلَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: إِنْ شِئْتَ فَأَعْطِنِي، فَإِنَّ الله لَا مُسْتَكْرِهَ لَهُ»[(١)].

قوله: «**إذا دعوتم الله فاعزموا بالدعاء، ولا يقولن أحدكم: إن شئت فأعطني**»؛ الدعاء عبادة للمدعو بالرغبة والرهبة، والذل والاستكانة والافتقار، ولهذا صار صرفه لغير الله سبحانه وتعالى شركًا أكبر، لا يغفره الله عز وجل إلا بالتوبة منه.

والله جل وعلا هو رب الخلق وإلههم، خلقهم وتَعَبَدَهم، وجعل مصيرهم إليه، وهو يملك كل شيء، حتى أفعالهم الاختيارية لا يمكن أن تقع إلا بمشيئته.

ويملك هداية قلوبهم وإزاغتها، وهو الذي يحبب الإيمان إلى من يشاء، ويُكَرِّهه إلى من يشاء، ويُكَرِّه الكفر والفسوق والعصيان إلى من يشاء، ويحببه إلى من يشاء، وبهذا يعلم شدة حاجة الإنسان إلى دعاء الله تعالى بصدق وإلحاح، وعزم قوي، ورغبة شديدة؛ لأنه فقير فقراً ذاتياً لا ينفك عنه لحظة واحدة إلى ربه، ولا خلاص له من العذاب السرمدي إلا إذا منّ تعالى الله عليه وتفضل بهدايته، لذلك وجب أن لا يعلق الدعاء على مشيئته – تعالى –، فهذه علة النهي، والعلة الثانية ما ذكره ﷺ بقوله: «**فإنه لا مستكره له**»؛ فإن تعليق الدعاء بالمشيئة يشعر بأن الله تعالى يعطي ما لا يريد، كما يحصل لابن آدم، وهذا لا يجوز اعتقاده في الله جل جلاله.

وقوله: «**فاعزموا**»؛ عزم المسألة: هو الشدة في طلبها، والجزم من غير ضعف في

---

(١) رواه البخاري برقم (٧٤٦٤)، ومسلم برقم (٢٦١٨).

الطلب، ولا تعليق على مشيئته ونحوها.

وقال العلماء: سبب كراهته: أنه لا يتحقق استعمال المشيئة إلا في حق من يتوجه عليه الإكراه، والله تعالى منزه عن ذلك، وقيل: لأن في هذا صورة الاستغناء عن المطلوب والمطلوب منه.

وعن عَلِيّ بْن أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه قال: إنَّ رَسُولَ الله ﷺ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ بِنْتَ رَسُولِ الله ﷺ لَيْلَةً، فَقَالَ لَهُمْ: «أَلَا تُصَلُّونَ؟»، قَالَ عَلِيٌّ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله إِنَّمَا أَنْفُسُنَا بِيَدِ الله، فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا، فَانْصَرَفَ رَسُولُ الله ﷺ حِينَ قُلْتُ ذَلِكَ، وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا، ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُدْبِرٌ، يَضْرِبُ فَخِذَهُ، وَيَقُولُ: «﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]»[1].

«**علي بن أبي طالب**»؛ ابن عبد المطلب بن هاشم، ابن عم رسول الله ﷺ، وزوج ابنته، من الصحابة السابقين الأولين، وهو من العشرة المبشرين بالجنة، مات في رمضان سنة أربعين، وله ثلاث وستون على الراجح، رضي الله عنه.

و«**فاطمة بنت رسول الله**»، محمد ﷺ، أم الحسن، تزوجها علي بن أبي طالب رضي الله عنه في السنة الثانية من الهجرة، وماتت بعد وفاة النبي ﷺ بستة أشهر، وقد جاوزت العشرين بقليل، رضي الله عنها.

وقوله: «**طرقه**»؛ أي: أتاه ليلاً، وكل آت ليلاً فهو طارق، ولهذا قال: «**طرقه وفاطمة بنت رسول الله**»؛ وهي زوجه؛ لأنهما كانا نائمين.

وقوله: «**فقال لهم: ألا تصلون؟**»؛ الخطاب لعلي وفاطمة رضي الله عنهما، وقد جمع الضمير العائد إليهما في قوله لهم: «**ألا تصلون؟**»، وهو سائغ في اللغة، وهذا اللفظ يدل على أن الأمر غير واجب، وإنما هو التماس يدل على الاستحباب.

وقوله: «**فقلت: يا رسول الله إنما نفوسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا**»؛ هذا هو

(١) رواه البخاري برقم (٧٤٦٥)، ومسلم برقم (٧٧٥).

محل الشاهد من الحديث، وأراد بيان أنه لا يجوز معارضة الأمر الشرعي بالقدر، كما قال المشركون في قوله: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨].

ولهذا انصرف عنه النبي ﷺ كارهاً لمقالته، وتلا قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾.

وضربه فخذه يدل على كراهته لذلك أيضاً، وتعجبه من علي رضي الله عنه كيف يعارض قوله له: «**ألا تصلون؟**» بتلك المقالة.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾؛ أي: مجادلة ومخاصمة ومعارضة للحق بالباطل؛ ويدل على أن الإنسان كثير الجدل.

ومعلوم أن كل شيء بمشيئة الله تعالى، فلو أن كل من أُمِرَ بأَمر قال: «إذا شاء الله فعلته، وإذا شاء الله لم أفعله»، لتعطلت الأوامر كلها، وساد هوى النفوس.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «فيه أن الإنسان طبع على الدفاع عن نفسه بالقول والفعل، وأنه ينبغي له أن يجاهد نفسه لقبوله النصيحة ولو كان في غير واجب».

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ خَامَةِ الزَّرْعِ، يَفِيءُ وَرَقُهُ مِنْ حَيْثُ أَتَتْهَا الرِّيحُ تُكَفِّئُهَا، فَإِذَا سَكَنَتِ اعْتَدَلَتْ، وَكَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ يُكَفَّأُ بِالْبَلَاءِ، وَمَثَلُ الْكَافِرِ كَمَثَلِ الْأَرْزَةِ صَمَّاءَ مُعْتَدِلَةً، حَتَّى يَقْصِمَهَا الله إِذَا شَاءَ»[1].

قوله: «**خامة**»؛ هي أول ما ينبت على ساق واحد، فالزرع في أول أمره يكون على ساق واحد، ويكون ليناً طيعاً للريح ينثني معها حيث أتت، ولا تؤثر على صحته واعتداله، فإذا سكنت رجع على ساقه قائماً كأن لم يصبه شيء، بل ربما ازداد قوة ونضارة، فإن المؤمن تأتيه المصائب من نواح شتى، ففي كل مرة يقال: هذه تهلكه، ثم تنجلي، ويعود إلى صحة إيمانه قوياً سليماً، كأن لم يصب بأذى.

(١) رواه البخاري برقم (٧٤٦٦)، ومسلم برقم (٢٨٠٩).

وقوله: «**يفيء**»؛ أي: يميل مع الريح ثم يرجع إلى اعتداله.

وقوله: «**تكفئها**»؛ أي: تميل بشدة.

وقوله: «**ومثل الكافر، كمثل الأرزة صماء معتدلة**»؛ الأرزة هي شجرة الصنوبر، وهو شجر قوي معتدل، ولا بد له من نهاية، فإذا شاء الله جل جلاله قصمه أهلكه، فإذا انثنى انكسر، فلا يعود إلى اعتداله كخامة الزرع.

أما المؤمن: فمن رحمة الله تعالى به أن قدر عليه المصائب في الدنيا، حتى يكتسب بذلك الثواب، أو يكفر عنه به من ذنوبه، ليسلم له جزاء عمله في الآخرة.

والشاهد قوله: «**حتى يقصمها الله إذا شاء**»؛ فكل شيء ينتهي إلى مشيئة الله تعالى فلا يحدث حدث صغير أو كبير إلا إذا شاء الله سبحانه، كما أن مشيئة الله عز وجل عامة لكل شيء، وهو معنى أنه على كل شيء قدير.

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ، وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى الْمِنْبَرِ: «إِنَّمَا بَقَاؤُكُمْ فِيمَا سَلَفَ قَبْلَكُمْ مِن الْأُمَمِ، كَمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، أُعْطِيَ أَهْلُ التَّوْرَاةِ التَّوْرَاةَ، فَعَمِلُوا بِهَا حَتَّى انْتَصَفَ النَّهَارُ، ثُمَّ عَجَزُوا، فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، ثُمَّ أُعْطِيَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ الْإِنْجِيلَ، فَعَمِلُوا بِهِ حَتَّى صَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ عَجَزُوا، فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، ثُمَّ أُعْطِيتُمُ الْقُرْآنَ، فَعَمِلْتُمْ بِهِ حَتَّى غُرُوبِ الشَّمْسِ، فَأُعْطِيتُمْ قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ، قَالَ أَهْلُ التَّوْرَاةِ: رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَقَلُّ عَمَلاً وَأَكْثَرُ أَجْرًا، قَالَ: هَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ أَجْرِكُمْ مِنْ شَيْءٍ؟، قَالُوا: لَا، فَقَالَ: فَذَلِكَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ»[1].

قوله: «**إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم، كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس**»؛ أي: أن نسبة مدة هذه الأمة إلى مدة من تقدم من الأمم، كنسبة ما بعد العصر إلى غروب الشمس، إلى بقية النهار، و«**في**» في قوله: «**فيما سلف قبلكم**» بمعنى «إلى».

---

(١) رواه البخاري برقم (٧٤٦٧).

وقوله: «**أعطي أهل التوراة، التوراة**»، شرح وبيان لما تقدم من تقدير مدة بقاء هذه الأمة بالنسبة لبقاء الأمم قبلها.

وقوله: «**قيراطـًا قيراطـًا**»؛ كرره ليدل على تقسيم القراريط على العمال؛ لأن العرب إذا أرادت تقسيم الشيء على متعدد كررته،فيقولون: أقسم هذا المال على بني فلان درهمًا درهمًا؛ أي: لكل واحد درهم.

والقيراط: النصيب المقدر؛ وهو في الأصل: نصف دانق، والدانق: سدس درهم، وقد يقصد بالقيراط، الشيء الكثير، كما في قوله ﷺ: «من شهد الجنازة حتى يصلى عليها فله قيراط، ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان»، وقيل: وما القيراطان؟، قال: «مثل الجبلين العظيمين»[1].

وقوله: «**ثم أعطيتم القرآن فعملتم به حتى غروب الشمس**»؛ مثل انتهاء الدنيا باليوم الكامل، فجعل لليهود من أول النهار إلى صلاة الظهر، وللنصارى من صلاة الظهر إلى العصر، ولهذه الأمة من صلاة العصر إلى غروب الشمس، وهو نهاية الدنيا، فكان نصيب هذه الأمة من الزمن أقل، ونصيبهم من الأجر أكثر وأوفر، وعندما اعترض أصحاب العمل الأكثر على ذلك قال لهم: «**هل ظلمتكم من عملكم شيئًا؟، قالوا: لا، فقال: فذلك فضلي أوتيه من أشاء**»؛ وهذا هو المقصود من الحديث، أن مشيئة الله سبحانه وتعالى نافذة،لا يحكمها عرف أو نظر أو غير ذلك، بل ما شاء فِعْلَهُ فَعَلَهُ، وما لم يشأ لا يقع.

وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ﷺ قَالَ: بَايَعْتُ رَسُولَ الله ﷺ فِي رَهْطٍ، فَقَالَ: «أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِالله شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى الله، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَأُخِذَ بِهِ فِي الدُّنْيَا، فَهُوَ لَهُ كَفَّارَةٌ وَطَهُورٌ، وَمَنْ سَتَرَهُ الله فَذَلِكَ إِلَى الله إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ»[2].

---

(١) رواه البخاري برقم (١٣٢٥) ومسلم برقم (٩٤٥).

(٢) رواه البخاري برقم (٧٤٦٨)، ومسلم برقم (١٧٠٩).

«**عبادة بن الصامت**»؛ ابن قيس الأنصاري الخزرجي، أبو الوليد، صحابي جليل، مات بالرملة، سنة أربع وثلاثين، وله اثنتان وسبعون، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله: «**بايعت**»، المبايعة؛ هي: عبارة عن المعاهدة على فعل شيء أو تركه، سميت بذلك تشبيهاً بالمعاوضة المالية، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

وقوله: «**لا تشركوا بالله شيئاً**»؛ بدأ بما هو أعظم المحرمات، وهو الشرك بالله جل وعلا بأن يجعل ما هو لله تعالى من العبادة لغيره، أو شيئاً منها، ولكونه أعظم المحرمات حرمت الجنة على المشرك، كما قال الله تعالى: ﴿مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]، ومنع صاحبه المغفرة إلا إذا تاب منه، لهذا وجب على العبد أن يهتم بمعرفته حتى لا يقع فيه وهو لا يشعر، كما هو حال كثير من الناس.

وقوله: «**شيئاً**»؛ نكرة في سياق النهي، فيعم جميع أنواع الشرك، كبيره وصغيره، فعلاً كان أو قولاً.

وقوله: «**ولا تسرقوا**»؛ السرقة: هي أخذ مال غيره المحرز، على وجه الخفية والخيانة فيه، وهي من الجرائم الكبيرة، فقد نفي الإيمان عن السارق.

وقوله: «**ولا تزنوا**»؛ الزنا: هي أيضاً جريمة شنيعة موجبة لسخط الله تعالى ومقته، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

وقوله: «**ولا تقتلوا أولادكم**»؛ خص قتل الأولاد؛ لأنه أشنع قتل، وأعظمه ذنباً، ولأن بعض العرب كان يستسيغه، خوفاً من العار، أو الفقر؛ ولأن الأولاد ليس لهم من يدافع عنهم إذا كان والدهم هو الذي يقتلهم.

والمقصود جميع أنواع القتل بغير حق، فإنه من أكبر الكبائر، وفاعله متوعد بالخلود في النار، ولعنه الله وغضب عليه، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

وقوله: «**ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم**»؛ البهتان: الكذب الذي يبهت سامعه؛ لأنه خلاف الواقع.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وخص الأيدي والأرجل بالافتراء؛ لأن معظم الأفعال تقع بهما، إذ هي العوامل والحوامل للمباشرة والسعي، ولذلك يسمون الصنائع: الأيادي».

وقوله: «**ولا تعصوني في معروف**»؛ المعروف: ما عرف حسنه، وما جاء به الرسول ﷺ وأمر به فهو معروف وحسن، والشرع لا يأتي مخالفاً للعقل والفطرة، والرسول ﷺ لا يأمر إلا بالمعروف.

وقوله: «**فمن وَفَّى منكم**»؛ أي: ثبت على العهد الذي أخذ عليه، ووفى به، دون وقوع في مخالفة.

وقوله: «**فأجره على الله**»؛ أطلق الأجر ولم يعينه لتفخيمه، وجاء في رواية: تعيينه بالجنة، وهي الغاية التي يتسابق إليها العاملون.

وقوله: «**ومن أصاب من ذلك شيئاً فأخذ به في الدنيا، فهو كفارة له وطهور**»؛ يعني: إذا وقع في معصية مما ذكر أنه لا يفعله، ثم أقيم عليه الحد في الدنيا، فإن إقامة الحد عليه تكون كفارة له، وطهوراً يطهره.

وقوله: «**ومن ستره الله، فذلك إلى الله، إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له**»؛ هذا هو محل الشاهد من الحديث، وهو أن الله عز وجل يفعل ما يشاء، لا يحكمه شيء، ولا يمنعه عما يريد شيء، وهو حكيم عليم، فمن أصاب معصية مما ذكر أو غيره فاستتر، ولم يؤخذ بها في الدنيا ثم مات بدون توبة، فإن أمره إلى الله تعالى إن شاء أن يعذبه عذبه، وإن شاء أن يعفو عنه عفا عنه.

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فيه تحريم هذه المذكورات، وما في معناها، وفيه الدلالة لمذهب أهل الحق أن المعاصي غير الكفر، ولا يقطع لصاحبها بالنار، إذا مات ولم يتب منها، بل هو بمشيئة الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذبه، خلافاً للخوارج والمعتزلة، فإن الخوارج يُكَفِّرون بالمعاصي، والمعتزلة يقولون: لا يكفر، ولكن يخلد في النار، وفيه أن إقامة الحد تكفر».

* * *

المسألة (الثانية والتسعون):
فِي أنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الخَالِقُ للعِبَادِ وَأَفْعَالِهِمْ

فيها بيان أن الله تعالى هو الخالق لكل شيء، وحده لا شريك له، فيدخل فيه: أعمال العباد وأفعالهم، وقوله تعالى نصٌّ فيه: ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾، فالآية دالة على أن أفعال العباد مخلوقة؛ لأن آلهتهم التي يعبدونها صارت على شكل معين، وهيئة خاصة بعملهم وصنعهم، وسيأتي توضيحها.

وقد ضل من أخرج أفعال العباد عن مخلوقات الله تعالى، كما ضل من قابلهم؛ وقال: إن العباد مجبورون على أعمالهم، فلا اختيار لهم ولا قدرة.

والحق وسط بين هاتين الضلالتين؛ وهو أن الله تعالى خلق العباد، وخلق لهم قدرة واختياراً، بهما يفعلون ما يريدون فعله، ويتركون ما يريدون تركه.

ولا بد من التفريق بين خلق الله تعالى ومخلوقه؛ فخلق الله سبحانه صفته التي يخلق بها الخلق، وأما مخلوقه فهو أثر الصفة، وهو مفعوله، وخلق الله تعالى لمخلوقاته، ليس هو نفس مخلوقاته، بل خلقه فعله المتصف به، ومخلوقاته مفعولاته التي يفعلها ويوجدها إذا شاء، وأفعال العباد مخلوقه له – تعالى – كسائر المخلوقات، ومن جملة مفعولاته، وليست هي نفس فعل الرب، بل هي نفس فعل العبد، فالكذب والظلم، ونحوهما من القبائح، يتصف بها من كانت فعلاً له، قائمة به، ولا يتصف بها من كانت مخلوقة له؛ لأنه – تعالى – جعلها صفة لغيره، كما أنه – تعالى – لا يتصف بما خلقه في غيره، من الطعوم والألوان والروائح والأشكال، وغير ذلك.

فإذا خلق الإنسان أبيض، أو أسود، لم يكن ذلك اللون وصفًا له، وكذلك إذا خلق هذا الشيء مُرّاً أو حلواً، أو على صورة قبيحة مذمومة، لم يكن – تعالى – متصفًا بذلك، بل المتصف بها من قامت به وفعلها.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦].

قبل هذه الآية؛ قال الله عز وجل: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ۞ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۞ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ۞ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۞ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ۞ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ۞ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ۞ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۞ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ۞ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ۞ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ۞ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۞ **وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾؛ أي: نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإبراهيم من شيعة نوح؛ أي: من أهل دينه وملته وسنته، وكان بين نوح وإبراهيم نبيان هما هود وصالح، ونقل أنه كان بين نوح وإبراهيم ألفان وست مئة وأربعون سنة، ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾؛ أي: مخلص من الشرك والشك، ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾؛ هذا استفهام توبيخ، ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾؛ يعني: أتأفكون إفكا وهو أسوأ الكذب، وتعبدون آلهة سوى الله، ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: فما ظنكم به أن يجازيكم وقد عبدتم معه غيره؟،وما الذي ظننتم به حتى جعلتم له شركاء؟، أظننتم أنه محتاج إلى الشركاء والأعوان؟، أم ظننتم أنه يخفى عليه أحوال عباده؟، وقوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ﴾؛ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كان قومه يتعاطون علم النجوم فعاملهم من حيث كانوا يتعاطون، لئلا ينكروا عليه، وذلك أنه أراد أن يكايدهم في أصنامهم ليلزمهم الحجة في أنها غير معبودة، وكان لهم من الغد عيد ومجمع، وكانوا يدخلون على أصنامهم ويقربون لهم القرابين، ويضعون بين أيديهم الطعام قبل خروجهم إلى عيدهم، زعموا لتبرك عليه، فإذا انصرفوا من عيدهم أكلوه، فقالوا لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ألا تخرج غدا معنا إلى عيدنا، فنظر إلى النجوم ﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾، قال ابن عباس: مطعون، وكانوا يفرون من الطاعون فراراً عظيماً، قال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: مريض، ﴿فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾؛ أي: إلى عيدهم فدخل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ على الأصنام فكسرها؛ قال الله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾؛ أي: مال إليها ميلة في خفية، ولا يقال: (راغ) حتى يكون صاحبه مخفياً لذهابه ومجيئه، فَقَالَ استهزاء بها: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾؛

يعني: الطعام الذي كان يضعه قومه عند الأصنام، أيضاً قال للأصنام مستهزئاً: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ۞ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ﴾؛ أي: مال عليهم ﴿ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾؛ أي: كان يضربهم بيده اليمنى؛ لأنها أقوى على العمل من الشمال، وقيل: باليمين؛ أي: بالقوة، وقيل: أراد به القسم أي القسم الذي سبق منه؛ وهو قوله: ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم ﴾ [الأنبياء: ٥٧]، وقوله: ﴿ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ ﴾؛ يعني: إلى إبراهيم ﴿يَزِفُّونَ﴾؛ أي: يسرعون، وذلك أنهم أخبروا بصنيع إبراهيم بآلهتهم، فأسرعوا إليه ليأخذوه، ﴿ قَالَ﴾ لهم إبراهيم عليه السلام: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾؛ يعني: ما تنحتون بأيديكم من الأصنام، ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾، فالآية دالة على أن أفعال العباد مخلوقة؛ لأن آلهتهم التي يعبدونها صارت على شكل معين، وهيئة خاصة بعملهم وصنعهم.

وفيها تنبيه لعبَّاد الأصنام، على فساد ما صاروا إليه من عبادتها، مع نحتهم إياها بأيديهم، فكيف تعبدون أصناماً تعملونها بأيديكم!، والله خالقكم وما تعملونه، فأوجدكم بعد أن لم تكونوا شيئاً، وخلق لكم ما تصلح به حياتكم، وخلق ما تنحتونه، فهو الخالق لكل شيء .

وقوله: ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾؛ الـ﴿مَا﴾ هنا فيها وجهان؛ الوجه الأول: أنها مصدرية؛ بمعنى: أنّها تُقَدَّرْ مع ما بَعْدَهَا بمصدر؛ فيكون المعنى: (والله خلقكم وعملكم)، والوجه الثاني: أنَّ ﴿مَا﴾ هنا موصولة؛ بمعنى: الذي فيكون المعنى: (والله خلقكم والذي تعملونه)؛ وهي على كلٍ من الوجهين دالة على المراد في عموم خلق الله عز وجل للعبد وخلق أفعاله .

فالعبد يفعل الفعل حقيقة والذي خلق فعله هو الله تعالى؛ لأن الله جل وعلا يفعل ما يشاء ويخلق ما يشاء وهو تعالى خالق كل شيء .

إذن فالعبد يفعل الفعل وفعله له حقيقة؛ لأنه اختار هذا الفعل وقَدِرَ عليه، فوجه إرادته وقدرته إليه، فالفعل ينسب إليه حقيقة لكن ليس ثم خالق إلا الله جل وعلا فالله هو الذي خلق فعل العبد، والعبد مختار ولا يشاء شيئاً فيقع إلا وقد شاءه الله سبحانه وتعالى، فليس لأحد في ملكوت الله تعالى إجبار ولا اختيار بل ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وما شاءه العبد إذا شاءه الله كان، وإذا لم يشأه الله لم يكن، كما قال الله

عز وجل: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ فإذن أهل السنة يثبتون فعل العبد وأنه يفعل حقيقة، لكن الله جل وعلا هو الخالق لكل شيء.

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

يخبر الله تعالى عباده، أن كل شيء خلقه وحده لا شريك له، فلا خالق غيره، وأنه خلقه بقدر قدره وقضاه، فلا يتعداه ولا يقتصر دونه، فيدخل في هذا العموم أفعال العباد، فهي داخلة في خلقه وتقديره.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾، كقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾، وكقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى * ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾؛ أي: قدر قدراً، وهدى الخلائق إليه، ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقه، وهو علمه الأشياء قبل كونها، وكتابته لها قبل برئها».

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾؛ أراد به في مقدار ستة أيام؛ لأن اليوم من لَدُنْ طلوع الشمس إلى غروبها، ولم يكن يومئذ يوم ولا شمس ولا سماء؛ قيل: ستة أيام كأيام الآخرة، وكل يوم كألف سنة، وقيل: كأيام الدنيا.

قال سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان الله عز وجل قادراً على خلق السماوات والأرض في لمحة ولحظة، فخلقهن في ستة أيام تعليماً لخلقه التثبت والتأني في الأمور».

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾؛ الاستواء على العرش صفة لله تعالى، وقد سئل الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن كيفية استواء الله على عرشه؟؛ فقال: «الاستواء غير مجهول،

والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»، وقد سبق الحديث عن هذه المسألة.

وقوله: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾؛ أي: يذهب ظلام هذا بضياء هذا، وضياء هذا بظلام هذا، وكل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً؛ أي: سريعًا، لا يتأخر عنه، بل إذا ذهب هذا جاء هذا.

فالليل بأثر النهار، والنهار يطرد الليل دائمًا، حتى يأذن الله تعالى بانقضاء هذا العالم، وهناك يبدأ اختلال توازنه، بطلوع الشمس من مغربها.

وقوله: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾؛ أي: أنها مخلوقة لله سبحانه، مقهورة مسخرة، لا تخالف أمر خالقها، الذي سخرها لكم، فاعبدوه، فإنه هو المستحق للعبادة دون سواه، وهو الذي له الخلق والأمر وحده.

وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ﴿تَبَارَكَ﴾؛ معناه: تعاظم، و﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: جميع الخلق، فكل ما سواه تعالى عالم، وهو ربهم الذي يتصرف فيهم كيف يشاء.

وقوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾؛ قال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالخلق؛ هو المخلوقات، والأمر؛ هو الكلام».

وقال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «خلق أفعال العباد»: «والقرآن كلام الله غير مخلوق؛ لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾؛ فبين أن الخلائق، والطلب الحثيث، والمسخرات بأمره، ثم شرح فقال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال ابن عيينة: قد بيَّن الله الخلق من الأمر، بقوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾، فالخلق بأمره، كقوله: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤]، كقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وكقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥]، ولم يقل بخلقه».

والأدلة كثيرة، في التفرقة بين الخلق والأمر، والمخلوقات وجدت بالأمر، كما أشار إلى ذلك الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بما استدل به من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ

أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾، فبين أن تكوين الأشـياء وإيجادها، بقوله: ﴿كُن﴾، وأنه يوجد عقب قوله: ﴿كُن﴾.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾؛ فالسماء والأرض مخلوقات بأمره، الذي هو قوله لها: «كوني»، كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾.

وكل شـيء غير الله عز وجل مخلوق بقوله – تعالى –، ومن ذلك أفعال العباد، فمن أخرج أفعال العباد من خلق الله تعالى، فقد ضل وأشرك في ربوبية الله تعالى.

والمقصـود من الآية هنا: التفرقة بين الخلق والأمر، فإن الخلق هو أثر الأمر الكائن به الخلق، فإن الله تعالى إذا أراد شـيئًا قال له: كن، فيكون، فالقول وصـفه – تعالى –، والخلق الذي هو المخلوق مفعوله المكون المخلوق الموجد بالقول، ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ فعطف الأمر على الخلق؛ لأنه غيره، وهو – تعالى – مختص بذلك وحده، فلا أحد يشاركه فيهما، وكلاهما عام شامل، فلا يخرج عن خلقه تعالى مخلوق، ومن ذلك أفعال العباد، وأمره – تعالى – يتناول الأمر القدري، والأمر الديني الشرعي.

وَقَالَ الله عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾؛ أي: لا تعلم أي نفس من النفوس كانت، ما أخفاه الله تعالى لعباده الصالحين، قال النبي ﷺ: «قال الله عز وجل: أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[١].

وقوله: ﴿جَزَآءً﴾؛ العمل الذي جوزوا عليه الجنة، يشمل الطاعات كلها، واجتناب المناهي كلها، فدخل فيه الإيمان، وشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله،

---

(١) رواه البخاري برقم (٣٢٤٤)، ومسلم برقم (٢٨٢٤).

والصلاة، وأداء الزكاة، والصوم، والحج، والجهاد، وغير ذلك من الأعمال الصالحة.

وقوله: ﴿بِمَا﴾؛ فـ«ما» يجوز أن تكون موصولة؛ أي: بالذي كنتم تعملونه، ويجوز أن تكون مصدرية؛ أي: بعملكم، والباء سببية؛ أي: دخول الجنة بسبب الأعمال الصالحة.

وقوله: ﴿كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ تدل على أن العمل الذي دخل المؤمنون بسببه الجنة، فعل لهم يتعلق باختيارهم، ولهذا جوزوا عليه، والعباد وأعمالهم خلق الله تعالى.

وعن أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه، قال: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟؛ قَالَ: «إِيمَانٌ بِالله، وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ»[1].

«**أبو ذر**»؛ الغفاري، جندب بن جنادة، صحابي مشهور، مات سنة اثنتين وثلاثين، رضي الله عنه.

وقوله: «**أي الأعمال أفضل؟ قال: إيمان بالله**»؛ فيه أن النبي ﷺ سمى الإيمان عملاً.

والإيمان: هو عمل القلب وتصديقه، وقول اللسان، والعمل بالبدن التابع لذلك، من الصلاة، والحج، والصوم، والجهاد في سبيل الله عز وجل، وامتثال أوامر الله تعالى، والانتهاء عما نهى عنه، فهذا كله هو الإيمان بالله جل وعلا، وهو عمل الجوارح الباطنة والظاهرة.

وقوله: «**وجهاد في سبيله**»؛ لا يدل عطف الجهاد على الإيمان، أن الجهاد ليس منه، بل الأعمال الصالحة، المعطوفة على الإيمان داخلة فيه، وعطفها عليه، إما من عطف الخاص على العام، أو لأن الأعمال لازمة للإيمان، فإذا لم يأت بها العبد، دل ذلك على أنه ليس عنده إيمان؛ لأن انتفاء اللازم يقتضي انتفاء الملزوم.

---

(١) رواه البخاري برقم(٢٥١٨)، ومسلم برقم (٨٤).

ولذلك صارت الأعمال في عرف الشرع داخلة في اسم الإيمان.

وأيضًا فعطف الأعمال على الإيمان لرفع توهم أن مجرد الإيمان بدون الأعمال اللازمة له، يوجب الثواب الموعود به في الآخرة، وهو الجنة بلا عذاب، فعطفت عليه تخصيصًا وتنصيصًا؛ ليعلم ذلك، هذا هو قول أهل السنة، وهو الذي دلت عليه نصوص كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ.

بقي أن يقال: إذا كان الإيمان من عمل العباد، وأعمال العباد مخلوقة، فهل الإيمان مخلوق؟.

فالجواب: أنه لا بد من التفصيل والبيان في ذلك؛ لأن هذا السؤال فيه إجمال وإيهام، فإن أريد بالإيمان، أعمال العباد، وتصديقاتهم، فأعمال العباد كلها مخلوقة.

وإن أريد بالإيمان، شيء من صفات الله وكلامه، وشرعه الذي هو أمره ونهيه، ووعده ووعيده، وقدره الذي هو علمه ومشيئته وكلامه، فهو غير مخلوق.

وأما الأفعال المأمور بها والمنهي عنها، والمقدرات من الآجال والأرزاق والأعمال، فهي مخلوقة محدثة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا قال: الإيمان مخلوق، أو غير مخلوق؟، قيل له: ما تريد بالإيمان؟ أتريد به شيئًا من صفات الله وكلامه، كقوله: لا إله إلا الله، وإيمانه الذي دل عليه اسمه «المؤمن»؟، فهو غير مخلوق، أو تريد شيئًا من أفعال العباد، وصفاتهم؟، فالعباد كلهم مخلوقون، وجميع أفعالهم، وصفاتهم مخلوقة، ولا يكون للعبد المحدث المخلوق، صفة قديمة غير مخلوقة، ولا يقول هذا من يتصور ما يقول، فإذا حصل التفصيل ظهر الهدى، وبان السبيل».

* * *

المسألة (الثالثة والتسعون):
في أَنَّ اللهَ تَعَالَى يُحْدِثُ مَا يُرِيْدُ إِحْدَاثَهُ

«**إن الله تعالى يحدث ما يريد إحداثه**»، في أي وقت أراد، وإن إحداثه ذلك من أفعاله التي هي أوصاف له، فيحدث الأمر من أمره – تعالى – والكلام من كلامه سبحانه، ويطلق عليه أنه حدث ومحدث؛ لأنه وجد بعد ما قبله، ويسمي كلامه حديثًا، ويطلق عليه أنه حادث ومحدث؛ بمعنى الجديد الذي تكلم به بعد كتبه السابقة له، وإن حدثه لا يشبه حدث المخلوقين.

فمن ذلك كلامه، ومخاطبته لمن يريد أن يخاطبه من خلقه، وأمره لمن يأمره ونهيه، وإجابته لمن يدعوه، وإحياؤه لمن يريد حياته، وإماتته لمن يريد أن يميته، وإذلال من يريد ذله، وإعزاز من يشاء، وهدايته من يشاء، وإضلال من يشاء، وتصرفه في خلقه وملكه كيف يشاء.

قال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

قوله: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: من الملائكة والإنس والجن.

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يستغني عنه أهل السماء والأرض».

وقوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، قال سويد بن جبلة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن ربكم كل يوم في شأن، فيعتق رقابًا، ويعطي رغابًا، ويقحم عقابًا».

وقال مقاتل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نزلت في اليهود حين قالوا: إن الله لا يقضي يوم السبت شيئًا».

وقال المفسرون: مِن شأنه أن يحيي ويميت، ويرزق ويعز قومًا، ويذل قومًا، ويشفي مريضًا، ويفك مكروبًا، ويجيب داعيًا، ويعطي سائلاً، ويغفر ذنبًا، إلى ما

لا يحصى من أفعاله وأحداثه في خلقه ما يشاء.

وقال الله عز وجل: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٢].

وقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾؛ أي: إذا جاءهم ذكر من الله عز وجل جديد، قريب العهد بالله تعالى، فيه تذكيرهم وأمرهم بالأخذ لما فيه سعادتهم، وفيه عظتهم عن التشاغل بالدنيا ونسيان الآخرة، استمعوه سماعَ غافلٍ لاهٍ لاعبٍ.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «أخبر تعالى أنهم لا يصغون إلى الوحي الذي أنزل الله على رسوله ﷺ؛ فقال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾؛ أي: جديد إنزاله».

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [الشعراء:٥]؛ فالمُحْدَثْ ليس بمعناه المخلوق تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ولكن بمعنى الحَدِيْث الجَدِيْد، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في وصف ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من سره أن يقرأ القرآن غضا طريا كما أنزل؛ فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»[(١)].

وقوله: ﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾؛ أي: استمعوه لاعبين لا يعتبرون ولا يتعظون، ثم قال تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: ساهية غافلة معرضة عن ذكر الله عز وجل.

وقال الله جل وعلا: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١].

الآية بتمامها هي قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ **لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ**

---

(١) رواه أحمد (١/ ٧، ٤٤٥، ٤٥٤)، وابن ماجة برقم (١٣٨)، وصححه الألباني؛ انظر «السلسلة الصحيحة» برقم (٢٣٠١).

يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾.

لما ذكر الله جل وعلا حكمه في المطلقة، وأمره بأن تطلق لعدتها، وأمر بإحصائها، ونهى عن إخراجها من بيت زوجها، ما دامت في العدة، وأنها لا تخرج منه إلا أن تأتي بفاحشة مبينة، وأخبر – تعالى – أن هذا من حدوده التي حدها، ونهى عن تعديها، وأن من تعداها فقد ظلم نفسه، بعد ذلك قال الله تعالى: **﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾**؛ يعني: يحدث للزوجين حالاً غير ما كانا عليه وقت الطلاق، بأن تتبدل الكراهية رغبة، والبغض حبًا، وأن يراجع الرجل نفسه فيندم على ما حصل منه، والزوجة كذلك.

والمقصود من هذه الآية والتي قبلها: أن الله تعالى يتكلم بعد أن لم يكن تكلم بذلك الكلام بعينه، ويأمر وينهى بعد أن لم يكن أمر بذلك المأمور وذلك المنهي عنه بعينه، لمن وجه إليه الأمر والنهي، وهذا هو معنى الحدث الذي أراد بيانه، وهو: الفعل المتجدد الذي يتعلق بمشيئته تعالى، سواء كان كلامًا، أو أمراً، أو نهيًا، أو إحياء لميت، أو إماتة لحي، أو هداية ضال، أو ضلال غاو، أو تغيراً لحكم شرعه قبل ذلك، أو أذن به، أو تغيير ما في نفوس بعض خلقه، أو غير ذلك مما يشاؤه ويريده – جل وعلا –.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ الله يُحْدِثُ مِنْ أَمْرِهِ مَا يَشَاءُ، وَإِنَّ مِمَّا أَحْدَثَ أَنْ لَا تَكَلَّمُوا فِي الصَّلَاةِ»[1].

هذا طرف من حديث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: كنا نسلم في الصلاة، ونأمر بحاجتنا، فقدمت على رسول الله ﷺ وهو يصلي، فسلمت عليه، فلم يرد عليَّ السلام، فأخذني ما قدم وما حدث، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة، قال: «إن الله عز وجل يحدث من أمره ما يشاء، وإن الله تعالى قد أحدث أن لا تكلموا في الصلاة، فرد عليَّ السلام».

---

(١) رواه أبو داود برقم (٩٢٤)، والنسائي(٣/ ١٩)، وصححه الألباني؛ انظر «صحيح الجامع» برقم (١٨٩٢).

ومعنى قوله: «فأخذني ما قدم وحدث»؛ أي: همومه وأفكاره القديمة والحديثة، وقال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «معناه: الحزن والكآبة قديمها وحديثها، يريد أنه قد عاوده قديم الأحزان واتصل بحديثها»، والمراد أنه غلب عليه التفكير في أحواله القديمة والحديث، أيها كان سبباً لترك رد السلام عليه.

وقوله: «فلما قضى»؛ أي: أدى الصلاة، وانتهى منها.

وقوله: «**إن الله يحدث**»؛ أي: يظهر.

وقوله: «**من أمره ما يشاء**»؛ أي: شأنه وأوامره.

وقوله: «**قد أحدث**»؛ أي: جدد من الأحكام بأن نسخ حِلّ الكلام في الصلاة بقوله: «**أن لا تكلموا في الصلاة**».

وقوله: «فرد عليّ السلام»؛ أي: بعد فراغه من الصلاة.

والشاهد هو قوله ﷺ: «**إن الله يحدث من أمره ما يشاء، وإن مما أحدث...**»؛ وهو موافق لقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾.

* * *

المسألة (الرابعة والتسعون):
فِي أَنَّ كَلَامَ اللهِ عَزَّ وَجَلّ سَابِقٌ لِخَلْقِهِ؛ بِقَوْلِهِ: كُنْ فَيَكُوْنُ

المراد بـ«**أن كلام الله عز وجل سابقٌ لخلقه**»؛ أي: بالقضاء المتقدم على خلقه، أن الذي جرى به القلم، وسبق به القضاء.

وهو يدل على إثبات الكلام لله عز وجل، وأن كلام الله صفة من صفاته، وأن كلام الله سابق لخلقه.

وكلام الله تعالى اللفظ والمعنى جميعاً، وكلام الله بحرف وصوت يسمع، خلافاً للمعتزلة والأشاعرة، فالمعتزلة يقولون: كلام الله اللفظ والمعنى لكنه مخلوق، والأشاعرة يقولون: كلام الله المعنى فقط، فهو معنى في نفس الله لا يسمع، وأما الحروف والكلمات فهي مخلوقة.

وفيه الرد على من قال: إن القرآن مخلوق، والرد على من أنكر كلام الله عز وجل.

وقال أهل العلم: كلام الله تعالى نوعان؛ الأول:كوني قدري لا يتخلف مراده، والثاني: ديني شرعي قد يتخلف مراده.

ومثال النوع الأول؛ وهو الكلام الكوني الذي لا يتخلف فيه مراد الله عز وجل؛ قوله -تعالى-: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾؛ فلا يخالفه أحد، بل لا بد من وقوعه وحصوله، ومثال النوع الثاني؛ وهو الكلام الديني الشرعي الذي قد يتخلف فيه مراد الله عز وجل؛ قوله -تعالى-: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ فمن الناس من أقام الصلاة، ومنهم من لم يقم الصلاة، وأيضاً قوله -تعالى-: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾؛ فمن الناس من امتثل هذا النهي، ومنهم من لم يمتثل.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ * إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٢]

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقول جل ذكره: ولقد سبق منا القول لرسلنا إنهم لهم المنصورون؛ أي: مضى بهذا منا القضاء، والحكم في أم الكتاب، وهو أنهم لهم النصرة والغلبة، بالحجج».

وقوله: ﴿سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾؛ السبق هو التقدم على الشيء،والكلمة المضافة إلى الله تعالى هي كلمته الكونية القدرية.

والقدر يتضمن علم الله جل وعلا بالشيء، وكتابته لذلك، ومشيئته له، ثم إيجاده له وفق تقديره، وهذا لابد أن يكون بكلامه – سبحانه وتعالى –.

والمراد هو أن كلمة الله تعالى سبقت وجود الرسل والمرسل إليهم، فهي قبل الخلق الذي هو المخلوق، وهي غيره؛ لأنها صفة الله تعالى، وأما نصر الرسل وإسعادهم فهو جزاء عملهم وطاعتهم، فهو من إثابته لهم وفضله عليهم، فهو مخلوق بكلمته – تعالى –.

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «أخبر الله تعالى عن قدرته على ما يشاء، وأنه لا يعجزه شيء، وإنما إذا أمر به مرة واحدة كان من غير تأكيد فيما يأمر به، فإنه تعالى لا يُمانع ولا يُخالف».

فهو يقول للشيء: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، فلا يكون شيء أعظم مما يكون به الخلق، والقرآن كلام الله تعالى.

وقال ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ: «من الدليل على أن القرآن غير مخلوق: أن الله تعالى ذكر القرآن في كتابه العزيز في أربعة وخمسين موضعًا، ما فيها موضع صرح فيه بلفظ الخلق، ولا أشار إليه، وذكر الإنسان على الثلث من ذلك، في ثمانية عشر موضعًا، كلها نصت على خلقه، وقد افترق ذكرهما على هذا النحو في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١-٤]».

والمراد هو أن القول غير الشيء الذي أراد الله إيجاده، فالقول صفة لله تعالى، وبه يوجد الأشـياء التي يريد وجودها، فإذا قال لها: «كوني » كانت بلا مهلة ولا امتناع، والقول والأمر سواء.

قال أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ: دل على أن القرآن غير مخلوق حديث عبادة «أول ما خلق الله القلم، فقال: اكتب» الحديث، وإنما نطق القلم بكلامه؛ لقوله: ﴿**إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ**﴾، فكلام الله سـابق على أول خلقه، فهو غير مخلوق.

فالله تعالى أخبر بأنه إذا قال للشـيء كن وهو معدوم كان، فسـماه شـيئًا مع كونه معدومـًا؛ لأنه يوجد إذا قال الله له: ﴿كُن﴾، وهذا معنى أن أمره تعالى بين الكاف والنون، فخلقه للمعدومات التي قدر أنها توجد بقول: ﴿كُن﴾، وهكذا حقق المحققون أن المعدوم شيء في علم الله تبارك وتعالى، وليس شيئًا في الوجود فيما يرى ولا فيما يشاهد .

وقوله: ﴿**إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ**﴾؛ أن الله سبحانه أخبر أنه يخلق بالكلام، وأن كلامه سـابق لخلقه، وكذلك فإن الله فرق بين الخلق والأمر ؛ فقال عز وجل: ﴿**أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ**﴾؛ والعطف يقتضـي المغايرة؛ ولهذا قال بعض العلماء: إن الله تعالى فرق بين الخلق والأمر، فمن جمع بينهما، فقد كفر؛ ولأنه لو كان كلام الله تعالى مخلوقًا للزم أن يكون مخلوقًا بأمر آخر، والآخر إلى آخر، إلى ما لا نهاية، وهذا باطل.

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَمَّا قَضَى الله الْخَلْقَ، كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ، إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»[1].

قوله: «**قضـى**»؛ أي: لما فرغ من تقدير الخلق، ويأتي القضـاء بمعنى الأمر والحكم، قال الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسـراء: ٢٣]، ويأتي بمعنى: قدر وأمضـى،كما في قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ

(١) رواه البخاري برقم (٧٤٥٣)، ومسلم برقم (٢٧٥١).

لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الإسراء: ٤]، ويأتي بمعنى: فرغ من الشيء وأتقنه، نحو قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت: ١٢].

وقوله: «**كتب**»؛ أي: أمر القلم أن يكتب في كتابه، وهو في اللوح المحفوظ؛ والمكتوب هو: «**إن رحمتي سبقت غضبي**».

وقوله: «**إن رحمتي سبقت غضبي**»؛ المراد بيان سعة الرحمة وكثرتها وشمولها الخلق، حتى كأنها السابق والغالب.

والمراد هنا أن الكتاب الذي كتبه قبل خلق الخلق فيه سبق رحمته لعباده المرسلين؛ أي: أن كلمته التي سبقت بنصره عباده المرسلين قبل وجودهم.

وبهذا يتبين أن قوله غير خلقه، ونصرته لعباده المرسلين من رحمته التي سبقت غضبه.

وأما قوله: «**عنده فوق عرشه**»؛ يدل على استوائه على عرشه،وعلوه على خلقه سبحانه وتعالى، وقد سبق الحديث عن هذه المسألة.

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا - أَوْ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً -، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَهُ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَهُ، ثُمَّ يُبْعَثُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ، فَيُؤْذَنُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيَكْتُبُ رِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَعَمَلَهُ وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، حَتَّى لَا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُ النَّارَ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا»[1].

كثير من علماء الأمة يعدون هذا الحديث أصلاً كبيراً من أصول الإسلام؛ لأن فيه بيان وجوب الإيمان بالقدر، وهو أحد أركان الإيمان بالله جل وعلا ورسوله ﷺ.

وقد وصف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه - وهو راوي هذا الحديث - النبي ﷺ

(١) رواه البخاري برقم (٧٤٥٤)، ومسلم برقم (٢٦٤٣).

بـ«الصادق المصدوق»، قبل روايته هذا الحديث.

و«الصادق المصدوق» هو صف للنبي ﷺ مستمر؛ أي: أنه صادق فيما يخبر به، وما يفعله، فلا يخبر إلا بالحق المطابق للواقع، والصدق يطلق أيضًا على الفعل، يقال: صدق القتال، وهو صادق فيه، والرسول ﷺ صادق في أقواله وأفعاله، و«المصدوق» فيما يأتيه من الأخبار؛ لأنه وحي من الله تعالى.

وقوله: «**إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يومًا أو أربعين ليلة**»؛ يعني: أنه في هذه المدة يكون نطفة داخل بويضة المرأة، فيستمر هذه المدة، وتغلب عليه هذه الصفة في الأربعين الأولى؛ يعني: وصف النطفة، وفي الثانية: وصف العلقة، وفي الثالثة: وصف المضغة، وإن كانت خلقته قد تمت وتم تصويره.

وقوله: «**ثم يكون علقة مثله**»؛ يعني: بعد مضى أربعين على النطفة في الرحم، تصير علقة، وهي قطعة دم جامد، فتنقلب النطفة بعد دخولها بويضة المرأة، ومرور أربعين يومًا إلى علقة، بدون تخطيط ولا روح.

وقوله: «**ثم يكون مضغة مثله**»؛ يعني: بعد تمام الأربعين الثانية تصير العلقة مضغة؛ والمضغة: هي قطعة لحم على قدر ما يمضغ الإنسان في فمه، وفي هذا الدور يبدأ تخطيط خلقه.

فالحديث يدل على أن خلق الإنسان يتقلب في مِئَة وعشرين يومًا في ثلاثة أطوار، في كل أربعين يومًا منها يكون في طور، فهو في الأربعين الأولى نطفة، وفي الثانية علقة، وفي الثالثة مضغة، وبعد ذلك يأتيه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بكتابة رزقه وأجله، وشقاوته أو سعادته.

وقوله: «**ثم يبعث إليه الملك**»؛ جاء عن حذيفة بن أسيد رضي الله عنه أنه قال: قال النبي ﷺ: «يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين، أو خمسة وأربعين ليلة، فيقول: يا رب، أشقي أو سعيد؟، فيكتبان، فيقول: أي رب أذكر أو أنثى؟، فيكتبان، ويكتب عمله، وأثره، وأجله، ورزقه، ثم تطوى الصحف، فلا يزاد فيها ولا ينقص»[(١)].

وفيه أيضًا عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٦٤٤) (٢).

ليلة بعث الله إليها ملكًا، فصورها، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال: يا رب أذكر أم أنثى؟، فيقضي ربك ما يشاء، ويكتب الملك، ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده، فلا يزيد على ما أمر، ولا ينقص »[(١)].

وظاهر حديث حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يدل على أن تصوير الجنين، وخلق سمعه وبصره وجلده ولحمه وعظامه يكون في الأربعين الثانية، فيلزم أن يكون في الأربعين الثانية لحمًا وعظامًا، وهذا خلاف ظاهر حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وظاهره أنه يصورها، ويخلق هذه الأجزاء كلها، وقد يكون خلق ذلك بتصويره وتقسيمه قبل وجود اللحم والعظام، فلا يكون بين الحديثين اختلاف.

وقد ذكر علماء الطب ما يوافق الحديث، قالوا: إن المني إذا وقع في الرحم حصل له زبدة ورغوة ستة أيام، أو سبعة أيام، وفي هذه الأيام تصور النطفة من غير استمداد من الرحم[(٢)]، ثم بعد ذلك تستمد منه.

وابتداء الخطوط والنقط بعد هذا بثلاثة أيام، وقد يتقدم ويتأخر يومًا، ثم بعد ستة أيام، وهو الخامس عشر من وقت العلوق، ينفذ الدم إلى الجميع، فيصير علقة، ثم تتميز الأعضاء تميزاً ظاهراً، ويتنحى بعضها عن مماسة بعض، وتمتد رطوبة النخاع، ثم بعد تسعة أيام ينفصل الرأس عن المنكبين، والأطراف عن الأصابع، ويتميز تميزاً يستبين في بعض، ويخفى في بعض.

قالوا: وأقل مدة يتصور فيها الذكر ثلاثون يومًا، والزمان المعتدل في تصوير الجنين خمسة وثلاثون يومًا، وقد يتصور في خمسة وأربعين يومًا، ولم يوجد في الإسقاط ذكر تم قبل ثلاثون يومًا، ولا أنثى قبل أربعين يومًا.

فهذا يوافق ما دل عليه حديث حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في التخليق في الأربعين الثانية، ومصيره لحمًا فيها أيضًا.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «إذا اشتمل الرحم على المني، ولم يقذف به إلى الخارج، استدار على نفسه وصار كالكرة، وأخذ بالشدة إلى تمام ستة أيام، فإذا اشتد نقط فيه

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٦٤٥) (٣).

(٢) تبين في الطب الحديث أن نطفة الرجل تحمل حيوانات منوية كثيرة جداً، وإذا صادف واحد من هذه الحيوانات بويضة المرأة يكون انعقاد التلقيح.

نقطة في الوسط، وهو موضع القلب، ونقطة في أعلاه، وهي نقطة الدماغ، وفي اليمين، وهي نقطة الكبد، ثم تتباعد تلك النقط، ويظهر بينها خطوط حمر، إلى تمام ثلاثة أيام أخر، ثم تنفذ الدموية في الجميع بعد ستة أيام أخر، فيصير المجموع سبعة وعشرين يوماً، ثم ينفصل الرأس عن المنكبين، والأطراف عن الضلوع، والبطن عن الجنبين،وذلك في تسعة أيام، فتصير ستة وثلاثين يوماً، ثم يتم هذا التمييز بحيث يظهر للحس ظهوراً بيناً في تمام أربعة أيام، فيصير المجموع أربعين يوماً تجمع خلقه.

وهذا مطابق لقوله ﷺ: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً»، واكتفى ﷺ بهذا الإجمال عن التفصيل، وهذا يقتضي أن الله جل جلاله قد جمع خلقه فيها جمعاً خفياً».

وهذا الذي ذكره ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ يكاد يكون متفقاً مع ما يقرره الأطباء حديثاً، وقد أصبحت الأجنة مشاهدة بواسطة آلات التصوير والمناظير، فصارت عند علماء الأجنة من الأطباء من الأمور الظاهرة، وعندهم التخليق يبدأ مبكراً من أيام الأربعين الأولى، وأحاديث رسول الله ﷺ لا تخالف الواقع، وإنما يأتي الغلط من عدم فهم مراده ﷺ.

وقد ذكر خلق الإنسان في مواضع عديدة من القرآن، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤]، وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤]، وحديث عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يتفق مع هذه الآية الكريمة.

ولدلالة خلق الإنسان على خالقه، وعظيم قدرته، وعلى إعادته بعد موته، وعلى وجوب عبادة الله وحده، أكثر الله تعالى من ذكره في كتابه، وأمر عباده بالاعتبار به.

والملك الذي يرسل إلى النطفة في الرحم خلقه الله عز وجل لذلك، وجعل ذلك وظيفته، وقد جعل الله تعالى لملائكته أعمالاً يختص بها كل فريق منهم.

وقوله: «**ثم يبعث إليه الملك فيؤذن بأربع كلمات، فيكتب رزقه، وأجله، وعمله،**

وشقي أم سعيد، ثم ينفخ فيه الروح»، وفي رواية لمسلم: «ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات »؛ قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويجمع بأن هذه الرواية صريحة في تأخير النفخ؛ للتعبير بقوله: «**ثم**»، والأخرى محتملة، فترد إلى الصريحة، ولأن قوله في رواية مسلم: «ويؤمر بأربع كلمات»، معطوفة بالواو، وهي لا تقتضي الترتيب، فيكون عطف جملة على جملة، والتقدير: يجمع خلقه في هذه الأطوار، ويؤمر الملك بالكتابة، وجاء قوله: «**ينفخ فيه الروح**» متوسطًا بين الجُمل؛ وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إما أن يكون هذا من تصرف الرواة برواياتهم بالمعنى الذي يفهمونه، وإما أن يكون المراد ترتيب الأخبار فقط، لا ترتيب ما أخبر به».

وعلى كلٍّ فحديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يدل على تأخير نفخ الروح في الجنين وكتابة الملك ما أمر به إلى ما بعد أربعة أشهر، حتى تتم الأربعون الثالثة.

فأما نفخ الروح فقد روي صريحًا عن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، أنه إنما ينفخ فيه الروح بعد أربعة أشهر، كما دل عليه ظاهر حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وقال عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اختلفت ألفاظ هذا الحديث في مواضع، ولم تختلف أن نفخ الروح فيه بعد مئة وعشرين يومًا، وذلك تمام أربعة أشهر ودخوله في الخامس، وعليه يعول فيما يحتاج إليه من الأحكام».

والحديث يدل صراحة أن الملك هو الذي ينفخ في الجنين الروح، التي تحصل بها الحياة، وتسري في الجسد، وهي سر من الله تعالى، لا يعلم حقيقتها إلا هو تعالى، كما قال الله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء: ٨٥].

وقوله: «**بأربع كلمات**»؛ قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المراد بالكلمات: القضايا المقدرة، وكل قضية تسمى كلمة ».

وهذا هو الذي عناه العلماء بقولهم في هذا الحديث: وجوب الإيمان بالقدر، فكل ما سيجري على هذه النطفة التي ذكر تكوينها في أول بدايتها، مكتوب مفروغ منه، قبل وجودها، فما تأكله مكتوب مسجل، لا يزيد ولا ينقص، وما تعمله كذلك، وبقاؤها حية في هذه الدنيا كذلك، ونهايتها ومصيرها مسجل معلوم لله تعالى؛ فالسعادة والشقاوة قد سبق بهما الكتاب، غير أن ذلك مقدر بحسب الأعمال التي يعملها هذا المخلوق، ومرتب عليها، بمعنى أن الله جل وعلا علم ذلك فكتبه، وكل

ميسر لما خلق له.

وهذا أصل عظيم من أصول الإسلام، لا يمكن أن يستقيم لأحد دينه إلا بالإيمان به.

فقد سبقت كلمة الله سبحانه وتعالى لعباده السعداء بالسعادة قبل وجودهم، وذلك فضل من الله تعالى ورحمة تفضل عليهم بذلك.

وظاهر حديث عبد الله بن مسعود ﵁ هذا أن الكتابة تكون بعد الأربعين الأخيرة، وحديث حذيفة بن أسيد ﵁ ظاهر في أن الكتابة تكون بعد الأربعين الأولى.

قال ابن رجب ﵀: «جمع بعضهم بينهما بأن الكتابة تكون مرتين، ثم قال: وقد يقال: إن إحداهما في السماء، والأخرى في بطن أمه، والأظهر أنها مرة واحدة، ولعل ذلك يختلف باختلاف الأجنة، فبعضهم يكتب له ذلك بعد الأربعين الأولى، وبعضهم بعد الأربعين الثالثة».

وقال ابن القيم ﵀: «ما في حديث ابن مسعود ﵁ تقدير ثان بعد التقدير الذي ذكره في حديث حذيفة، فأول تقدير عند انتقال النطفة إلى أول أطوار التخليق التي هي أول مراتب الإنسان.

والتقدير الثاني: تقدير عند كمال خلقه، ونفخ الروح، فذلك تقدير عند أول خلقه وتصويره، وهذا تقدير عند تمام خلقه وتصويره».

وهو دليل على كمال علم الله تعالى وكمال قدرته، وإحاطته بكل شيء، فهو تعالى يعلم الأشياء قبل وجودها، وكتب كل ما هو كائن، فكل الحوادث تقع وفق علمه وكتابته.

فإذا وضعت النطفة التي يتكون منها الإنسان في رحم المرأة، وأراد - تعالى - تكوينها مخلوقاً أمر بكتابة ما يعمله هذا المخلوق، وما يكون له من رزق، وما سيلاقيه في حياته، وما يؤول إليه وينتهي، من سعادة أو شقاوة.

وهذه الكتابة غير كتابة المقادير السابقة لخلق الخلائق، المذكورة في مثل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ [الحديد: ٢٢].

وقوله ﷺ فيما رواه مسلم، عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال ﷺ: «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة»[1]، ونحو ذلك من النصوص، وليس في كتابة الله تعالى وتقديره كل شيء قبل وجوده منافاة لمشيئة الإنسان واختياره، كما يتوهمه بعض الناس.

لأن الله تعالى كتب علمه بما يعمله هذا المخلوق، وما يترتب على عمله، ولم يجبره على فعل المعاصي، بل نهاه عنها وزجره وحذره من فعلها، وتوعده على ذلك، وخلّى بينه وبين نفسه ليختار ما يريد من غير إكراه وإلزام.

والمقصود أن هذا يدل على سبق الرحمة من الله جل جلاله لأهل السعادة قبل وجودهم، حيث قدر ذلك وكتبه، تفضلاً منه وإحساناً، ثم هيأهم للعمل لذلك ويسره لهم، فيدخل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٧١].

ثم هذا يدل على أن الجزاء مرتب على العمل، فلا يدخل أحد الجنة إلا إذا عمل بعمل أهل الجنة، ولا يدخل أحد النار إلا إذا عمل بعمل أهل النار.

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيه أن السعادة والشقاوة قد سبق الكتاب بهما، وأن ذلك مقدر بحسب الأعمال، وأن كلاً ميسر لما خلق له من الأعمال التي هي سبب السعادة أو الشقاوة».

وقوله: «**فإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينها وبينه إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار، فيدخل النار، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينها وبينه إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل عمل أهل الجنة فيدخلها**»؛ فيه أن الإنسان قد يعمل بعمل أهل الجنة، وهو في الحقيقة من أهل النار، فلا بد أن يعمل بعمل أهل النار قبيل موته، فيختم له بذلك وبالعكس؛ لأن الكتاب سبق بذلك، والحقيقة أن الذي سبق هو علم الله عز وجل بأنه سوف يكون كذلك، وقد كتب الله تعالى ذلك.

وكان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ومن بعدهم من السلف الصالح يخافون على أنفسهم

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٦٥٣).

النفاق، ويشتد قلقهم وجزعهم منه.

فالمؤمن يخاف على نفسه النفاق الأصغر، ويخاف أن يغلب ذلك عليه عند الخاتمة فيخرجه إلى النفاق الأكبر.

وقد كان النبي ﷺ يُكثر أن يقول في دعائه: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك»، فقيل له: يا نبي الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟، فقال: «نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن عز وجل يقلبها كيف يشاء»[١].

وقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي قَوْمٌ ظَاهِرِينَ عَلَى النَّاسِ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللهِ»[٢].

قوله: «**لا يزال من أمتي قوم ظاهرين**»؛ أي: يستمرون في الظهور «**على الناس**»؛ يعني: أنهم يكونون على الحق منصورين ظاهرين على عدوهم.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: غالبون من خالفهم، أو المراد بالظهور: أنهم غير مستترين، بل مشهورون، والأول أولى؛ لما في رواية مسلم قوله ﷺ: «لن يبرح هذا الدين قائماً تقاتل عليه عصابة من المسلمين، حتى تقوم الساعة»، وفيه أيضاً من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال ﷺ: «لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله عز وجل قاهرين لعدوهم، لا يضرهم من خالفهم، حتى تأتيهم الساعة»[٣]؛ والمراد بالساعة: الريح التي تقبض روح كل مؤمن، وذلك قبيل الساعة، فلا يبقى إلا شرار الناس يتهارجون تهارج الحمر وعليهم تقوم الساعة، وهذا معنى الذي في رواية مسلم: «لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس»[٤].

وهذه الطائفة هم أتباع سنة رسول الله ﷺ.

وقوله: «**حتى يأتيهم أمر الله**»؛ أي: أمره الكوني القدري الذي قضاه، وكتبه قبل

---

(١) رواه الترمذي برقم (٢١٤٠)، وحسنه الألباني؛ انظر: «السلسلة الصحيحة» برقم (٢٠٩١).

(٢) رواه البخاري برقم (٧٤٥٩)، ومسلم برقم (١٩٢١).

(٣) رواها مسلم برقم (١٩٢٢، ١٩٢٤).

(٤) رواها مسلم برقم (٢٩٤٩).

خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، فأوحاه الله جل جلاله إلى رسوله ﷺ ليعلم أمته به فيؤمنوا به، ويصدقوه، فإذا وصل وقته قال الله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ كما أراد.

والمراد أن «**أمر الله**» سبحانه وتعالى من صفاته، فهو غير المخلوق، وغير المأمور، وهو مرادف للقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ﴾.

وعَن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: وَقَفَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى مُسَيْلِمَةَ فِي أَصْحابِهِ، فَقَالَ: «لَوْ سَأَلْتَنِي هَذِهِ الْقِطْعَةَ مَا أَعْطَيْتُكَهَا، وَلَنْ تَعْدُوَ أَمْرَ الله فِيكَ، وَلَئِنْ أَدْبَرْتَ لَيَعْقِرَنَّكَ الله»(١).

هذا الحديث له قصة: «أن مسيلمة الكذاب قدم المدينة على عهد رسول الله ﷺ فجعل يقول: إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته، وقدمها في بشر كثير من قومه، فأقبل إليه رسول الله ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شماس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي يد النبي ﷺ قطعة جريد، حتى وقف على مسيلمة في أصحابه، فقال: «لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها، ولن تعدو أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليعقرنك الله، وإني لأراك الذي أريت فيه ما أُريت، وهذا ثابت يجيبك عني»، ثم انصرف عنه.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فسألت عن قول رسول الله ﷺ: «وإني لأراك الذي أُريت فيه ما أُريت»؟؛ فأخبرني أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: «بينا أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب، فأهمني شأنهما، فأُوحِيَ إليَّ في المنام أن أنفخهما، فنفختهما فطارا، فأولتهما كذابين يخرجان بعدي، أحدهما العنسي، والآخر مسيلمة»(٢).

ولما علم النبي ﷺ أن قصده الرئاسة والعلو، وأنه ليس أهلاً لما يطمع فيه، وأن ذلك يخالف ما جاء به ﷺ، فلم يأت لتأسيس حكم يورث من بعده، وإنما جاء بالنبوة.

---

(١) رواه البخاري برقم (٧٤٦١).

(٢) رواه مسلم برقم (١٩٢٣).

ولهذا قال له: «**لو سألتني هذه القطعة**» من الجريد التي لا تساوي شيئًا «**ما أعطيتكها**»؛ لأنها خير منك، ولأنك ليس لك من الأمر شيء ولا تستحق، وما أنت بأهل لذلك.

وقوله: «**ولن تعدو أمر الله فيك**»؛ أي: الأمر الذي يكون بقوله: «كن»؛ فيكون حكمه وقضاءه، من شقاوتك التي حكم بها عليك قبل وجودك، وهذه الجملة هي الشاهد من الحديث.

وقوله: «**لئن أدبرت ليعقرنك الله**»؛ أي: لئن أعرضت عن الحق الذي جاء به رسول الله ﷺ فإنك لا تعجز الله عز وجل، فسوف يأخذك أخذ عزيز مقتدر، وقد فعل، فقتل شر قتلة، وكان ذلك في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، على يد وحشي قاتل حمزة رضي الله عنه؛ وكان وحشي يقول: قتلت خير الناس في الجاهلية - أي: حمزة -، وشر الناس في الإسلام - أي: مسيلمة الكذاب -، فقطع دابر القوم الذين لا يؤمنون، والحمد لله رب العالمين.

***

المسألة (الخامسة والتسعون):
فِي أَنَّ الله جَلَّ جَلَالُهُ يَقُولُ الحَقَّ

فيها إثبات أن كلام الله تعالى ليس بمخلوق؛ فقول الله تعالى حق، وهو صفة له، وما وجد بقوله فهو غير القول، بل هو المفعول المخلوق، فقوله -تعالى- الذي خلق به الأشياء، لا يجوز أن يكون مماثلاً لها، فلا بد من التفريق بين قوله الذي هو صفته، وبين مفعولاته التي وجدت بقوله.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٧٣]

تمام الآية؛ هي قول الله تعالى: ﴿**وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ** وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

الله سبحانه هو الذي خلق السموات والأرض بالحق، واذكر -أيها الرسول- يوم القيامة إذ يقول الله: ﴿كُن﴾، فيكون عن أمره كلمح البصر أو هو أقرب، قوله هو الحق الكامل، وله الملك سبحانه وحده، يوم ينفخ المَلَك في «القرن» النفخة الثانية التي تكون بها عودة الأرواح إلى الأجسام. وهو سبحانه الذي يعلم ما غاب عن حواسكم -أيها الناس- وما تشاهدونه، وهو الحكيم الذي يضع الأمور في مواضعها، الخبير بأمور خلقه. والله تعالى هو الذي يختص بهذه الأمور وغيرها بدءًا ونهاية، نشأة ومصيرًا، وهو وحده الذي يجب على العباد الانقياد لشرعه، والتسليم لحكمه، والتطلع لرضوانه ومغفرته.

وقال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واختلف أهل التأويل في قوله: ﴿**بِٱلْحَقِّ**﴾؛ فقال بعضهم: معنى ذلك: وهو الذي خلق السماوات والأرض حقـًا وصوابـًا، لا باطلاً وخطأً، كما

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ﴾، وأدخلت الباء والألف، كما في قولك: فلان يقول بالحق؛ يعني: أنه يقول الحق؛ أي: يصيب في قوله، فالحق صفة للقول، فخلق السماوات والأرض حكمة من حكم الله تعالى، والله موصوف بالحكمة في خلقهما، وخلق ما سواهما من سائر الخلق، وقال آخرون: معنى ذلك: خلق السماوات والأرض بكلامه، وقوله لهما: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾، فالحق في هذا الموضع معنى به كلامه؛ واستشهد لذلك بقوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ﴾، فالحق هو قوله وكلامه، فالله تعالى خلق الأشياء بكلامه وقوله، فما خلق به الأشياء فهو غيرها، فكلام الله تعالى الذي خلق الخلق غير مخلوق».

وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ يعني: يعلم ما غاب عن العباد وما يشاهدونه لا يغيب عن علمه شيء، ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو مِنَ اللَّيْلِ: «اللهمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، قَوْلُكَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللهمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَأَسْرَرْتُ وَأَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهِي، لَا إِلَهَ لِي غَيْرُكَ».
وفي رواية: وَقَالَ: «أَنْتَ الْحَقُّ، وَقَوْلُكَ الْحَقُّ»[(١)].

قوله: «**كان النبي ﷺ يدعو من الليل**»؛ يدل على أنه سمع ذلك من النبي ﷺ مراراً، لما يفهم من لفظ «**كان**».

وقوله: «**اللهم لك الحمد**»؛ الحمد هو الوصف بالجميل على قصد التعظيم مع

(١) رواه البخاري برقم (٧٣٨٥)، ومسلم برقم(٧٦٩).

المحبة؛ وهو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية، و«ال» فيه للاستغراق والاستقصاء؛ أي: جميع الحمد واجب ومستحق لله تعالى، فهو المحمود على صفاته وأسمائه، وعلى نعمه وأياديه، وعلى خلقه وأفعاله، وعلى أمره وحكمه، وهو المحمود أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.

وأما الشكر: فلا يكون إلا على الصفات المتعدية، ويكون بالقلب واللسان والجوارح.

وقوله: «**أنت رب السماوات والأرض**»؛ أي: أنت مالكهما ومن فيهما، والمتصرف بهما بمشيئتك، وأنت موجدهما من العدم، فالملك لك، وليس لأحد معك اشتراك أو تدبير، تباركت وتعاليت.

وقوله: «**لك الحمد أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن**»؛ أي: أنت الذي أقمتهما من العدم، والقائم عليهما بما يصلحهما ويقيمهما، فأنت الخالق الرازق، المالك المدبر، المحيي المميت، الغني عن كل شيء، وكل من سواك فقير إليك، ومصيره إليك، كما أنك أنت الذي أوجدته، فلك الحمد.

وقوله: «**قيم**»؛ أي: القائم بأمور الخلق، ومدبرهم، ومدبر العالم في جميع أحواله.

وقوله: «**لك الحمد أنت نور السماوات والأرض**»؛ أي: منورهما، وبك يهتدي من فيهما.

وقد نص الله تعالى في كتابه أنه نور السماوات والأرض؛ قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]، وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩].

وفسر بكونه منور السماوات والأرض، وبأنه هادي أهل السماوات والأرض، وهذا لا يمنع أنه -تعالى- في نفسه هو نور السماوات والأرض.

وقوله: «**وقولك الحق**»؛ أي: أنت قلته حقاً، فهو صفتك، وما قاله الله تعالى فهو صدق وحق، لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، لا في خبره، ولا في حكمه وتشريعه، ولا في وعده ووعيده.

وهذه الجملة هي محل الشاهد من الحديث؛ حيث وصف قوله -تعالى- بأنه الحق.

ومعلوم أن الإيمان الذي جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام عن الله تعالى وجاء به خاتمهم ﷺ مصدقًا لما بين يديه من الكتاب، هو أن كلام الله جل جلاله صفة له غير مخلوق، وأن القرآن، والتوارة، والإنجيل، وغيرها من كتب الله سبحانه، هي كلامه.

وكلام الله عز وجل لا يكون مخلوقًا منفصلاً عنه، كما لا يكون كلام المتكلم منفصلاً عنه.

وقوله: «**ووعدك الحق**»؛ أي: لا بد من وقوعه على ما وعدت، فلا خلف فيه ولا تبديل.

وقوله: «**ولقاؤك حق**»؛ أي: لابد للميعاد من ملاقاتك، فتجازيهم على أعمالهم، واللقاء يتضمن الرؤية والمعاينة.

وقوله: «**والجنة حق، والنار حق**»؛ أي: ثابتتان، موجودتان، كما أخبر الله تعالى بذلك أنهما معدتان لأهلهما، فهما دار البقاء، وإليهما مصير العباد.

وقوله: «**والساعة حق**»؛ أي: مجيء يوم القيامة حق لا مرية فيه، فهو ثابت لا بد منه، وهي نهاية الدنيا، ومبدأ الآخرة.

و«**الساعة**»؛ يعبر بها عن البعث؛ أي: الساعة التي يبعث الله تعالى فيها الموتى من قبورهم أحياء، فيجمعهم بعد تفرق أجزائهم وتشتتها، بل واستحالتها ترابًا وهباء، وغير ذلك.

فيجمعهم، ويحييهم، كما كانوا في الدنيا، ويجازيهم بعد حسابهم وحشرهم.

وقوله: «**اللهم لك أسلمت**»؛ أي: أذعنت لأمرك، وانقدت له، وخضعت لحكمك.

وقوله: «**وبك آمنت**»؛ أي: صدقت، وعملت بمقتضى ذلك، بعد تحققي بالإيمان بك.

وقوله: «**وعليك توكلت**»؛ أي: اعتمدت عليك، ووكلت أموري إليك، راضيًا بما قضيته لي، بعد أن فعلت الأسباب التي جعلتها إليّ، دينية كانت، أو دنيوية.

فالتوكل: هو الاعتماد على الله تعالى والثقة به، وفعل الأسباب التي رتبت عليها الأشياء، والتي يستطيع العبد فعلها، وهو من أفضل العبادة، بل جاء ما يدل على أنه

شرط في حصول الإيمان، كما قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

وقوله: «**وإليك أنبت**»؛ أي: رجعت إليك طائعـًا منقاداً مذعنـًا، خاضعـًا لك في جميع أموري.

وقوله: «**وإليك حاكمت**»؛ أي: كل من أبى قبول الحق، أو جحده، حاكمته إليك، وجعلتك الحكم بيني وبينه، مجانبـًا بذلك حكم كل طاغوت، من قانون وضعي، أو كاهن أو غيره، مما يتحاكم إليه البشر، من الأوضاع الباطلة شرعـًا.

ففي هذا الحديث قدم الثناء على الله تعالى بأن له الحمد، وبما ذكر من صفاته، ثم توسل إليه -تعالى-، بإيمانه بأن قوله حق، ووعده حق...، إلى آخر ما ذكر، وأنه مذعن لأمره، منقاد لطاعته، وأنه معتمد عليه، وبه يخاصم وإليه يحاكم، ثم بعد ذلك سأل حاجته، وهي أن يغفر له ما قدم من خطأ، أو تقصير، وما أخر، وما أسر، وما أعلن.

ثم ختم ذلك بأنه لا مفزع ولا ملجأ له غير ربه -تعالى-، فهو إلهه الذي يعبده بما ذكر، ويخاف عقابه، ويؤمل فضله ونواله.

فقال: «**أنت إلهي لا إله لي غيرك**»؛ فلا أتوجه إلى سواك، إذ كل مألوه غيرك باطل، ودعوته ضلال ووبال، وهذا هو التوحيد الذي جاءت به رسل الله جل وعلا، وفرضه -سبحانه وتعالى- على عباده.

وقوله: «**فاغفر لي ما قدمت، وما أخرت، وأسررت، وأعلنت**»؛ فأصل الغفر: الستر مع الوقاية، ومنه المغفر؛ لأنه يستر الرأس ويقيه من السلاح.

وقوله: «**ما قدمت**» أي: قبل وقتي هذا.

وقوله: «**وما أخرت**» أي: بعد وقتي هذا.

والمراد: اغفر لي ما عملت من الذنوب، وما سأعمله، وما ظهر منها لأحد من خلقك، وما خفي عنهم، ولم يعلمه غيرك.

وفيه دليل على وقوع الذنوب من الأنبياء، إذ لو لم يكن له ذنب كيف يسأل المغفرة؟.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اتفق المسلمون على أن الرسل معصومون

فيما يبلغون عن الله تعالى، وبهذا يحصل المقصود من البعثة، ولو لم تقع منهم الذنوب لفاتهم ما في التوبة من محبة الله وفرحه، ورفع درجة التائب، وكون التائب بعد التوبة أفضل منه قبلها.

وقد قال الله تعالى في أفضل الرسل: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾ [محمد: ١٩]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح: ٢].

وتوبة الأنبياء واستغفارهم أدلته كثيرة في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

واعتراف جليل القدر بما هو عليه من الحاجة إلى التوبة والاستغفار دليل على صدقه، ورفعته، وتواضعه، وعبوديته لله تعالى، والغنى عن الحاجة من خصائص الربوبية، وقد قال ﷺ: «اللهم اغفر خطئي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي هزلي وجدي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي»[1].

وقوله في الرواية الأخرى: «**أنت الحق، وقولك الحق**»؛ فيها البيان بأن اسم الحق يقع على ذات الله تعالى اسماً، ويقع على صفاته، كما في قوله: «**وقولك الحق**».

***

(١) رواه البخاري برقم (٦٣٩٩)، ومسلم برقم (٢٧١٩).

المسألة (السادسة والتسعون):
فِي أَنَّ القُرْآنَ كَلَامُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ

فيها إثبات أن القرآن كلام الله عز وجل، وأنه صفة من صفاته، وأنه قائم بذاته، وأن كلام الله منزل، وأن القرآن من علم الله تعالى ليس مخلوقاً .

وقوله: «**أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ**»؛ المنقول عن السلف اتفاقهم على أن القرآن كلام الله غير مخلوق تلقاه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ عن الله عز و جل، وبلغه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى محمد ﷺ، وبلغه محمد ﷺ إلى أمته .

ومن أسماء الله الحسنى العليم، وهو يدل على ذات الله تعالى وعلى العلم كوصف ذات، وقد بين الله عز وجل أن العليم هو المتصف بالعلم، وفيما يلي قول الله عز وجل: «**أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ**» يدل على هذا .

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَ﴾ [النساء: ١٦٦]

قوله: ﴿**أَنزَلَهُۥ**﴾؛ الضمير هنا يعود إلى القرآن، كما هو واضح من الآية، وهي قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ **أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَ**ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللهُ: «يعني بذلك – جل ثناؤه – إن يكفر بالذي أوحينا إليك يا محمد اليهود الذين سألوك أن تُنزِّل عليهم كتاباً من السماء، وقالوا لك: ما أنزل الله على بشر من شيء، فكذبوك، وليس الأمر كما قالوا، لكن الله يشهد بتنزيله إليك من الكتاب والوحي، أنزل ذلك إليك، بعلم منه بأنك خِيرَته من خلقه، وصَفيَّه من عباده، ويشهد لك بذلك الملائكة، فلا يَحزُنك تكذيب من كذبك، وخلاف من خالفك، وحسبك بالله شاهداً على صدقك، فإنه لا يضرك مع ذلك تكذيب من كذبك».

وقوله: ﴿بِعِلْمِهِۦ﴾؛ دليل قاطع على إثبات علم الله تعالى، فهو سبحانه وتعالى يعلم إنزال القرآن ونزوله.

والمراد أن يبين أن القرآن من علم الله تعالى وصفة له، فليس مخلوقـًا.

وقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾؛ أي: يشـهدون بصـدق ما جاءك وأوحي إليك، وأنزل عليك، مع شـهادة الله تعالى بذلك، وكفى بالله شـهيداً على ما شـهد به لك؛ حيث أقام الدليل، وأوضح السبيل، فشهادته أصدق وأوقع ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَا فُلَانُ إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَقُلِ: اللهمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنَّكَ إِنْ مُتَّ فِي لَيْلَتِكَ مُتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَإِنْ أَصْبَحْتَ أَصَبْتَ أَجْرًا»[1].

قوله: «**يا فلان**»؛ جاء في الروايات الأخرى: أن المُخاطَب هو البراء بن عازب رضي الله عنه، وهو راوي الحديث.

وقوله: «**إذا أويت إلى فراشك**»؛ أوى إلى مكان: إذا أقام فيه، ورجع إليه؛ والمعنى: إذا جئت إلى فراشك تريد النوم.

وقوله: «**اللهم أسلمت نفسي إليك**»؛ أي: استسلمت لك، ونفسي منقادة مذعنة لك، راضية بك ربـًا، وبدينك شرعـًا، وبنبيك رسولاً، ومنقادة لحكمك وقضائك، لا إله إلا أنت.

وقوله: «**ووجهت وجهي إليك**»؛ أي: جعلت قصـدي ومرادي إليك، راجيـًا ثوابك، خائفـًا من عقابك.

وقوله: «**وفوضت أمري إليك**»؛ أي: توكلت عليك مسـتكفيـًا بك، فأمري كلّه

---

(١) رواه البخاري برقم (٧٤٨٨)، ومسلم برقم (٢٧١٠).

إليك تتصرف فيَّ كيف تشاء، ورغبتي في جودك وفضلك.

وقوله: «**وألجأت ظهري إليك**»؛ أي: أنت عمادي، وعليك استنادي، فأعتمد عليك بأن تكفيني كل ما أهمني، وتحميني من كل ما يؤذيني.

وقوله: «**رغبة ورهبة إليك**»؛ أي: أفعل ذلك راغباً في فضلك وإحسانك، وراهباً من عقابك وعذابك بسبب ذنوبي.

وقوله: «**لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك**»؛ أي: لا مهرب ينجي من هرب منك، ولا نجاة لمن أردته بعذابك، إلا بالرجوع إليك، والاستسلام لك، والإنابة إليك.

وقوله: «**آمنت بكتابك الذي أنزلت**»؛ أي: أتوسل إليك بأني أصدِّق وأوقن بأن الكتب التي أنزلتها على رسلك هي قولك حقاً، وفيها الهدى والنور، الذي هو شرعك، ولمن اتبعها السعادة، ومن أعظمها القرآن الذي أنزلته على عبدك ورسولك محمد خاتم الرسل ﷺ، فأنا أؤمن بذلك، وأرغب إليك، بأن تستجيب دعائي لذلك.

وهذا القدر من الحديث هو محل الشاهد، فإن كتاب الله تعالى هو كلامه وفيه عِلْمه، كما قال الزَّجَّاج: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦ﴾؛ أي: أنزل القرآن الذي فيه علمه.

فمن زعم أن القرآن مخلوق، لزمه أن يكون عِلْم الله سبحانه مخلوقاً، وهذا كفر، كما قال الأئمة أحمد وغيره.

وقوله: «**ونبيك الذي أرسلت**»؛ أي: أتوسل إليك بإيماني واتباعي لنبيك محمد ﷺ الذي أرسلته إلينا ليبلغنا كلامك، وأمرك ونهيك، كما أؤمن بكل نبي لك أوحيت إليه وأرسلته إلى عبادك.

وقوله: «**فإنك إن مت في ليلتك مت على الفطرة**»؛ يعني: إن كانت نومتك تلك فيها قبض روحك، وفراقها لبدنك، فإنك تموت على السُّنَّة التي جاء بها نبيك، ومن مات عليها فهو السعيد.

وقوله: «**وإن أصبحت أصبت أجراً**»؛ أي: إن رُدَّت روحك بعد النوم إلى جسمك وأصبحت حياً، نلت بهذا الدعاء أجراً عند الله جل وعلا.

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ الْأَحْزَابِ: «اللهمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، سَرِيعَ الْحِسَابِ، اهْزِمِ الْأَحْزَابَ، وَزَلْزِلْ بِهِمْ» (١).

قوله: «**يوم الأحزاب**»؛ يدل على أن هذا الدعاء كان في غزوة الأحزاب، وهو يدل على أنه يدعو بذلك عند لقاء العدو.

وغزوة الأحزاب كانت في السنة الخامسة من الهجرة، على الراجح.

وقوله: «**اللهم منزل الكتاب**»؛ هذا توسل إلى الله تعالى بفضله على عباده من إنزاله الكتاب الذي فيه حياة القلوب، والاعتصام من الضلال، وفيه وعده الكريم لعباده بالنصر والتأييد.

وهو المقصود من الحديث؛ فإنه تعالى أنزله منه، فهو قوله ووصفه، ولو كان مخلوقًا كما يقوله الضالون، ما احتاج إلى إنزال بل يخلقه في أي مكان، فهو تعالى ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾، ونحن نشهد بذلك، ونرجو من منزل الكتاب، وسريع الحساب وهازم الأحزاب ومزلزهم، أن يثبتنا على هذه الشهادة ويثيبنا عليها خير ثواب.

وقوله: «**سريع الحساب**»؛ قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: إنما وصف – جل ثناؤه – نفسه بسرعة الحساب؛ لأنه – جل ذكره – يحصي ما يحصي من أعمال عباده بغير عقد أصابع ولا فكر ولا روية، فعل العجزة الضعفة من الخلق، ولكنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يعزب عنه مثقال ذرة فيهما.

ثم هو تعالى مجاز عباده على كل ذلك، فلذلك امتدح نفسه – جل ذكره – بسرعة الحساب.

وأنه أسرع من حسب عددكم، وأعمالكم وآجالكم، وغير ذلك من أموركم أيها الناس، وأحصاها، وعرف مقاديرها ومبالغها؛ لأنه لا يحسب بعقد يد، ولكنه يعلم ذلك ولا يخفى عليه منه خافية، ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].

(١) رواه البخاري برقم (٧٤٨٩)، ومسلم برقم (١٧٤٢).

وهو – جل ذكره – سريع محاسبة عباده يوم القيامة، حيث لا يشغله محاسبة واحد عن الآخر.

وقوله: «**اهزم الأحزاب وزلزل بهم**»؛ الهزيمة هي: القهر والإذلال، والزلزلة: الاضطراب وعدم الثبات، فهو يدعو عليهم بأن يقهرهم، ويذلهم بأيدي المسلمين، وأن ينزل عليهم الرعب والخوف الذي يزلزل قلوبهم وأجسامهم.

* * *

المسألة (السابعة والتسعون):
فِي أَنَّ كَلَامَ اللهِ تَعَالَى لَا نِهَايَةَ لَهُ وَلَا نَفَادَ

الله سبحانه وتعالى لم يزل ولا يزال متصفـًا بالكلام أزلاً وأبداً، وتكلمه وتكليمه بمشيئته وإرادته، فيتكلم إذا شاء متى شاء وكيف شاء بكلام يسمعه من يشاء، وكلامه صفته لا انتهاء له ولا نفاد، جلَّ كلامه عن الإحصاء والحصر والنفاد والنفاء، وكل ما ورد في الكتب من الله تعالى باللغات المختلفة العربية والعبرية والسريانية،كلها عبارات تدل على معنى كتاب الله تعالى، ولو جاء أضعاف أضعافه لم تستغرق معاني كلامه، فمعاني كلام الله تعالى لا تستغرقها عبارات المعبرين، فلا يمكن ضبطها بالحصر والتحديد، فكلماته تامة لا يحيط بها أحد، ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها، كما قال النبي ﷺ: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[(١)].

والمقصود أن كلمات الله سبحانه وتعالى باقية لا تنفد أبداً، تامة لا تنقص أبداً، وذلك لأن كلامه صفته وليس من صفاته شيء ينفد، ولذا أخبرنا الله تعالى: أن جميع أشجار الأرض لو كانت أقلامـًا والبحار وأضعافها مداداً يكتب بها كلماته لنفدت كلها وكلماته لا تنفد، وذلك لأن الأشجار والبحار مخلوقة والمخلوقات من لازمها النفاد والفناء، وكلمات الله عز وجل صفته وليس من صفاته شيء يفنى، بل هو الباقي بأسمائه و صفاته أزلاً و أبداً ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]

---

(١) رواه مسلم برقم (٤٨٦).

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تفسيره»: «يقول – عز ذكره – لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾؛ للقلم الذي يكتب به كلمات ربي، لنفد ماء البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً، يقول: ولو مددنا البحر بمثل ما فيه من الماء مدداً، من قولك: جئتك مدداً لك».

وقوله: ﴿مِدَادًا﴾؛ يعني: حبراً يكتب به لنفدت البحار وتكسرت الأقلام، ولم يلحق الفناء كلمات الله عز وجل، كما لا يلحق الفناء علم الله تعالى؛ لأن مَن فَنِي كلامه لحقته الآفات، وجرى عليه السكوت، فلما لم يجر ذلك على ربنا عز و جل صح أنه لم يزل متكلماً ولا يزال متكلماً، وقد نفى النفاد عن كلامه كما نفى الهلاك عن وجهه.

وليس المراد بقوله: ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾؛ آخر فقط، بل ﴿بِمِثْلِهِۦ﴾، ثم ﴿بِمِثْلِهِۦ﴾ ثم ﴿بِمِثْلِهِۦ﴾ ثم هلم جراً؛ لأنه لا حصر لآيات الله و كلماته.

وقوله: ﴿مَدَدًا﴾؛ أي: زيادة فيه.

فليس لكلماته سبحانه وتعالى نهاية وليس لها بداية، والمخلوق له بداية ونهاية.

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لو جعل شجر الأرض أقلاماً، وجعل البحر مداداً، وقال الله تعالى: إن من أمري كذا، ومن أمري كذا، لنفد ماء البحر وتكسرت الأقلام».

فهذه الآية من الأدلة الواضحة في إثبات صفة الكلام لله تعالى.

فكلام الله جل وعلا كثير متنوع، منه ما يتعلق بالخلق، ومنه ما يتعلق بالشرع؛ فكلامه الشرعي: هو الذي أوحاه إلى رسله، وكلامه الكوني الخلقي هو الذي يوجد به ما يوجد ويحدث به ما يحدث من أمره سبحانه وبحمده؛ وبه يدبر أمر مملكته جل وعلا.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ [لقمان: ٢٧].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول تعالى ذكره: لو أن شجر الأرض كلها،

بريت أقلاماً والبحر يمده، والهاء في قوله: ﴿يَمُدُّهُۥ﴾ عائدة على البحر، وقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ في هذا الكلام محذوف استغنى بدلالة الظاهر عليه عنه، وهو يكتب كلامه بتلك الأقلام، وبذلك المداد، لتكسرت تلك الأقلام، ولنفد ذلك المداد، ولم تنفد كلمات الله».

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاماً، وجعل البحر مداداً، ومده سبعة أبحر معه، فكتب بها كلمات الله، لتكسرت الأقلام، ونفد ماء البحر، ولو جاء أمثالها مدداً، وإنما ذكرت السبعة على وجه المبالغة، ولم يرد الحصر، ولا أن هناك سبعة أبحر تحيط بالأرض».

ففيها أكبر دليل على أن كلام الله عز وجل غير مخلوق، وأنه من صفاته، إذ المخلوق لا بد أن يكون له نهاية ونفاد، فإنه مسبوق بالعدم ولا بد أن يلحقه العدم.

أما كلام الله تعالى فلا نهاية له ولا نفاد، وقد قرب تعالى إلى أفهام المخاطبين بما ضرب من المثل بما ذكر من كون البحار كلها ويزاد معها مثلها مرات كثيرة، وكون جميع ما وجد على وجه الأرض من عود أقلاماً يكتب بها كلامه تعالى لنفد البحر، وأمسحت الأقلام، وكلمات الله تعالى كما هي لم تنقص.

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تَكَفَّلَ اللهُ لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ، لَا يُخْرِجُهُ مِنْ بَيْتِهِ إِلَّا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ وَتَصْدِيقُ كَلِمَتِهِ، أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يَرُدَّهُ إِلَى مَسْكَنِهِ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ»[1].

هذا فيه فضل عظيم للمجاهدين، الذين جاهدوا في سبيل الله تعالى لإعلاء كلمة الله عز وجل، وأن الله تعالى تكفل وضمن لهم أحد أمرين: إما الجنة إن استشهدوا، وإما إرجاعهم إلى أهلهم مع ما نالوا من أجر أو غنيمة.

فالمجاهد ضمن الله جل وعلا له الجنة إن مات، والغنيمة إن بقي؛ لكن هذا مقيد بالشرط؛ وهو قوله: «**لا يخرجه إلا الجهاد في سبيله وتصديق كلمته**»؛ والمعنى: أنه جاهد لإعلاء كلمة الله عز وجل لا لمقصد آخر، فلم يقاتل رياء ولا حمية ولا

(١) رواه البخاري برقم (٧٤٦٣)، ومسلم برقم (١٨٧٦) (١٠٤).

شجاعة، كما جاء في الحديث: سئل النبي ﷺ، عن الرجل يقاتل حمية، والرجل يقاتل شجاعة، والرجل يقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟، فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله»(١).

وقوله: «**تكفل**»؛ معناه: ضمن له حصول ما ذكره، فلا يمكن فواته؛ لأن الله تعالى إذا ضمن شيئًا فلا بد من حصوله لمن ضمنه له.

وفي رواية: بدل «**تكفل**»: «انتدب الله لمن خرج»(٢)؛ ومعناه: سارع بثوابه وحسن جزائه، وقد جاء في رواية مسلم: «تضمن الله لمن خرج في سبيله»(٣)، والمعنى واحد.

وهذا من باب التأكيد، وإلا فوعد الله لابد من وقوعه، فإن الله جل جلاله لا يخلف وعده،والتكفل: وعد وزيادة تأكيد لوقوعه بالضمان.

وقوله: «**لمن جاهد في سبيله**» الجهاد، والمجاهدة: استفراغ الوسع في مدافعة العدو، فهو بذل للجهد بالنفس والمال.

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الجهاد ثلاثة أضرب: مجاهدة العدو الظاهر، ومجاهدة الشيطان، ومجاهدة النفس، وتدخل ثلاثتها في قوله - تعالى -: ﴿**وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ**﴾ [الحج: ٧٨]، ﴿**وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ**﴾ [التوبة: ٤١]، و﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ** ﴾ [الأنفال: ٧٢]. والمجاهدة تكون باليد، واللسان».

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الجهاد شرعًا: بذل الجهد في قتال الكفار، ويطلق أيضًا على مجاهدة النفس، والشيطان، والفساق؛ فأما مجاهدة النفس؛ فعلى تعلم أمور الدين، ثم على العمل بها، ثم على تعليمها؛ وأما مجاهدة الشيطان؛ فعلى دفع ما يأتي به من الشبهات، وما يزينه من الشهوات؛ وأما مجاهدة الكفار؛ فيقع باليد، والمال، واللسان، والقلب؛ وأما مجاهدة الفساق؛ فباليد، ثم اللسان، ثم القلب».

وقوله: «**سبيل الله**»؛ طريقه الذي شرعه لعباده المؤمنين، وهو دينه وشرعه.

---

(١) رواه البخاري برقم (٧٤٥٨).

(٢) رواها البخاري برقم (٣٦).

(٣) رواها مسلم برقم (١٨٧٦) (١٠٣).

وقوله: «**لا يخرجه إلا الجهاد في سبيله، وتصديق كلمته**»؛ أي: ليس له أي دافع غير ذلك، بل الجهاد في سبيل الله تعالى، والإيمان بوعده للمجاهدين في سبيله هو الحامل له على الخروج، وهذا هو الإخلاص لله تعالى في الجهاد، والإخلاص هو الذي يجعل العمل القليل كثيراً عظيمـاً، مع أنه شرط في قبول العمل.

والتصديق بكلمات الله تعالى يشمل الإيمان بكلماته الأمرية الشرعية والعمل بها، والإيمان بكلماته الكونية القدرية، وهي التي سبقت بتقدير الأشياء كلها قبل وجودها.

وهذه الجملة هي المقصودة من الحديث هنا.

والمراد كلمات الله عز وجل الشرعية الدينية، وهو ما أخبر به في كتابه مما يحصل للمجاهدين من الأجر والمغفرة والرحمة، فالذي أخرج المجاهد هو الإخلاص لله تعالى، وتصديق كلماته، فصدق الله بكلماته التي أخبر بها للمجاهدين، وأنهم ينالون الأجر العظيم والمغفرة والرحمة.

وكلمات الله الدينية قد يتحقق بها مراد الله عز وجل، وقد يتخلف، أما كلمات الله الكونية، فهي ما قضى به وقدره -سبحانه وتعالى-؛ أي: ما تكلم به قضاء وقدراً، كقوله -تعالى-: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، فلا بد أن يحصل فيها مراد الله جل وعلا.

فكلماته سبحانه إذ هي غير الجهاد في سبيله، وغير التصديق، سواء قيل: هي كلمته الدينية الشرعية، أو الكونية القدرية، فكلماته من صفاته، وهي غير خلقه.

وقوله: «**أن يدخله الجنة، أو يرده إلى مسكنه بما نال من أجر أو غنيمة**»؛ هذا هو الذي كفله الله عز وجل لمن يخرج مجاهداً في سبيله.

وسبيل الله تعالى هو الجهاد لإعلاء كلمته التي هي: لا إله إلا الله، محمد رسول الله؛ أي: عبادة الله وحده، ومتابعة رسوله ﷺ، وأن لا يحكم إلا بشرعه، ولا يتعبد إلا بما جاء به رسوله ﷺ.

فهذا هو غاية المجاهد في سبيل الله عز وجل، فمن خرج مجاهداً لهذا الغرض، فإن قتل أو مات في مخرجه ذلك فهو في الجنة، وإن فاته ذلك فلا بد أن يصل إلى مسكنه الذي خرج منه بما نال من الأجر والغنيمة، فهو متحصل على إحدى

الحسنيين على كل تقدير، وهذا هو الربح.

وقوله: «**من أجر، أو غنيمة**»؛ المعلوم أنه قد يحصل للمجاهد الأمرين الأجر والغنيمة، لكن إن لم يغنم يكون الأجر كاملا، وإذا غنم ينقص الأجر؛ كما جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من غازية تغزو في سبيل الله، فيصيبون الغنيمة، إلا تعجلوا ثلثي أجرهم من الآخرة، ويبقى لهم الثلث، وإن لم يصيبوا غنيمة تم لهم أجرهم»[1]؛ فإذا غنموا تعجلوا شيئًا من أجرهم، وإذا لم يغنموا، تم أجرهم؛ وهذا فيه تعزية للسرية، التي لم تغنم، وأن أجرها تام.

* * *

---

(١) رواه مسلم برقم (١٩٠٦).

المسألة (الثامنة والتسعون):
فِي أنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُوْلُ القَوْلَ وَيُنَادِي وَيَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ مَسْمُوعٍ

فيها إثبات أن الله عز وجل يقول القول وينادي ويتكلم بصوت مسموع، يسمعه من شاء من عباده، كما جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان»(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «السلف والأئمة يقولون: إن الله يتكلم بمشيئته وقدرته، وكلامه تعالى قديم النوع؛ بمعنى أنه لم يزل متكلماً إذا شاء، فإن الكلام صفة الكمال، ومن يتكلم أكمل ممن لا يتكلم، ومن يتكلم بمشيئته وقدرته أكمل ممن لا يتكلم بمشيئته، ومن لا يزال متكلماً بمشيئته وقدرته أكمل ممن يكون الكلام ممكناً له بعد أن يكون ممتنعاً».

وقال أيضاً رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والصواب أن الله تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء، وأنه يتكلم بمشيئته وقدرته، وأن كلماته لا نهاية لها، وأنه نادى موسى بصوت سمعه موسى، وإنما ناداه حتى أتى، لم يناده قبل ذلك، وأن صوت الرب جل جلاله لا يماثل أصوات العباد، كما أن علمه لا يماثل علمهم».

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]

قوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾؛ أخبر تعالى أنه المالك لكل شيء، وأنه لا يقع لأي فرد من خلقه ضر أو نفع إلا بإرادته وتدبيره، فهو المالك للشفاعة وغيرها، فلا تقع الشفاعة لديه إلا بإذنه، ولا تنفع إلا لمن رضي عمله

(١) رواه البخاري برقم (٦٥٣٩)، ومسلم برقم (١٠١٦).

وقوله، فهو -تعالى- لا يأذن في الشفاعة إلا فيمن رضي عمله، وهو لا يرضى إلا بعبادته الخالصة.

وهذه الآية لها تعلق بما قبلها؛ وهي قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ * وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ ﴾...

وقد بين تعالى أنه الإله الواحد الأحد الذي لا نظير له،ولا شريك له، بل هو المستقل بالأمر وحده من غير مشارك ولا منازع ولا معارض.

وقوله: ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾؛ أي: كشف الفزع عن قلوبهم؛ والمراد أن الملائكة الذين سمعوا كلام الله تعالى يفزعون له خوفًا، ولم يفهموا كلامه من شدة فزعهم، فإذا ذهب فزعهم، أقبل بعضهم على بعض يتساءلون: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾؟؛ فيجيب المسؤولون، بأنه تعالى: قال الحق، فيقولون كلهم: قال الحق، وهو العلي الكبير.

فهي تدل على أن لله سبحانه كلامًا يتكلم به ويقوله بصوته، وأنه يُسمع منه كما هو ظاهر الآية: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ﴾، وأن قوله صفة له سبحانه وتعالى.

قال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيحه» بعد ذكره لهذه الآية: «ولم يقل ماذا خلق ربكم»؛ يشير بذلك إلى الرد على القائلين بخلق القرآن وغيره من كلام الله تعالى فالآية صريحة في إبطال قولهم.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِذَا قَضَى اللهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ»[1].

قوله: «**إذا قضى**»؛ المراد بالقضاء هنا: الأمر بالشيء والحكم، بأن يتكلم آمراً ملائكته.

وقوله: «**ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله**»؛ صريح بأن الملائكة تسمع قوله، ولا يعقل قول يدركه السمع إلا ما كان بصوت وحروف.

---

(١) رواه البخاري برقم (٧٤٨١).

والمراد أن كلام الله جل وعلا يُسمع منه؛ لأنه يتكلم حقيقة، والكلام الحقيقي الذي يُسمع لا بد أن يكون بصوت وحروف، وهذا الذي فهمه صحابة رسول الله ﷺ منه، وهو الذي أراد منهم فهمه، وكذا فهمه أتباعه إلى اليوم.

وقوله: «**خضعاناً**»؛ أي: أن الملائكة تخضع لله جل جلاله عند سماع كلامه وتستكين، فتضرب بأجنحتها من الخضوع.

وقوله: «**سلسلة على صفوان**»؛ الصفوان هي الحجارة الكبيرة الصلبة.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَقُولُ اللهُ: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، فَيُنَادَى بِصَوْتٍ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ»[1].

قوله: «**لبيك**»؛ أي: أنا مقيم على طاعتك، وإجابتك إجابة بعد إجابة.

وقوله: «**سعديك**»؛ هذه كلمة يؤتى بها معطوفة على لبيك، فلا تأتي لوحدها، وكلمة سعديك تضاف إلى الله عز وجل، ويخاطب بها الله سبحانه وتعالى؛ ومعناها: مساعدة منك بعد مساعدة لي، أو إسعاد منك بعد إسعاد لي.

وقوله: «**فينادي بصوت إن الله يأمرك**»، رواية الجمهور لـ«**فينادي**» بكسر الدال، وفي رواية أخرى: بفتحها على البناء للمجهول؛ وقوله: «**إن الله يأمرك**»؛ تدل ظاهراً على أن المنادي ملك يأمره الله تعالى بأن ينادي بذلك، وهذا لا ينفي أن الله تعالى أمر - بصوت مسموع - ملكاً أن يقول لآدم؛ لأنه قال في البداية: «**يقول الله**»، وأما رواية الجمهور؛ فيكون المعنى: أن الله سبحانه يقول بصوت مسموع من غير واسطة ملك: «**إن الله يأمرك...**» إلخ، ونظير هذا في القرآن والسنة كثير.

والنداء صفة كمال، وقد ثبت بالنصوص الكثيرة اتصاف الله تعالى بالكلام، والقول، والنداء منه.

وقوله: «**أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار**»؛ البعث بمعنى المبعوث، وأصلها في السرايا التي يبعثها الأمير إلى جهة من الجهات للحرب وغيرها، ومعناها هنا: ميز أهل النار من غيرهم، وإنما خص بذلك آدم لكونه أباً للجميع.

وفي رواية: «فيقول: أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار، قال: من كل ألف

---

(١) رواه البخاري برقم (٧٤٨٣).

تسع مئة وتسعة وتسعين، فعنده يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد»، قالوا: يا رسول الله، وأينا ذلك الواحد، قال: «أبشروا فإن منكم رجل، ومن يأجوج ومأجوج ألف»، ثم قال: «والذي نفسي بيده، إني أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة»، فكبَّرنا، فقال: «أرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة»، فكبَّرنا، فقال: «أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة»، فكبَّرنا، فقال: «ما أنتم في الناس إلا كالشعرة السوداء في جلد ثور أبيض، أو كشعرة بيضاء في جلد ثور أسود»[1].

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدَاً نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ الله قَدْ أَحَبَّ فُلَانَاً فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي جِبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ: إِنَّ الله قَدْ أَحَبَّ فُلَانَاً فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَيُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ»[2].

قوله: «**إذا أحب الله عبداً نادى جبريل: إن الله يحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل**»؛ صريح في أن الله تعالى يحب من يشاء من عباده من أهل الطاعة له والتقوى، كما هو صريح أيضاً في أنه - تعالى - يتكلم وينادي متى يشاء لمن يشاء.

والنداء هنا لجبريل عليه السلام خاصة، والنداء لا يكون إلا بصوت مرتفع.

وأن مثل هذه النصوص من أبلغ الأدلة على إثبات صفة الكلام لله تعالى.

ومحل الشاهد، هو: أن جبريل عليه السلام بمجرد إخبار الله تعالى له بأنه تعالى يحب العبد يحبه، وأنه هو سفير الله تعالى إلى الملائكة، كما أنه سفيره إلى الرسل من البشر، ولهذا قال: «**ثم ينادي جبريل في السماء**».

والمراد بالسماء هنا: الجنس؛ أي: السماوات، ونداؤه فيهم يقول: «**إن الله قد أحب فلاناً، فأحبوه**».

وقوله: «**فيحبه أهل السماء**»؛ أي: أن ملائكة السماوات بمجرد إخبار جبريل عليه السلام وأمره يحبونه؛ لأنهم يحبون الله تعالى ويحبون ما يحبه، ومن ثمرات محبتهم

(١) رواه البخاري برقم (٦٥٢٨)، ومسلم برقم (٢٢١).

(٢) رواه البخاري برقم (٧٤٨٥)، ومسلم برقم (٢٦٣٧).

اســتغفارهم لهذا العبد، وموالاتهم له، وهذا في الحقيقة هو الشــرف والرفعة، وبه تحصل السعادة بمشيئة الله تعالى.

وقوله: «**فيوضــع لـه القبول في أهل الأرض**»؛ أي: تقبله قلوبهم وتحبه؛ لأن الله تعالى يحبه، ومن أحبه الله تعالى حببه إلى عباده في السماوات والأرض، فشهدوا له بالخير ورجوا له الفلاح؛ لما وقع في قلوبهم له.

وَقَالَ رَسُـولُ الله ﷺ: «إِنَّ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولاً الْجَنَّةَ، وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجَاً مِنَ النَّارِ، رَجُلٌ يَخْرُجُ حَبْوَاً، فَيَقُولُ لَهُ رَبُّهُ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: رَبِّ الْجَنَّةُ مَلأَى، فَيَقُولُ لَهُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَكُلُّ ذَلِكَ يُعِيدُ عَلَيْهِ الْجَنَّةُ مَلأَى، فَيَقُولُ: إِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا عَشْرَ مِرَارٍ»(١).

قولـه: «**إن آخر أهـل الجنة دخولًا**»؛ هـذا على إطلاقـه؛ يعني: أنه لا يدخلها بعده أحـد حيـث لـم يبق في النـار من يخرج منهـا، وهـذا أقـل المؤمنين إيمـانــًا وأكثرهـم معـاصــي، ويجوز أن يكون واحـداً بعينـه، وهو الظـاهر، ويجوز أن يكون نوعــًا، أو جنســًا من هذا النوع، وقد صـح أنه يكون بعد إخراج من يخرج من النار يبقى رجل مقبل بوجهه إلى النار، فيدعوا ربه: رب اصـرف وجهي عن النار، ويقســم لله أنه لا يسـأله غير ذلك، ثم إذا صـرف وجهه عن النار، يسـأل ربه: يا رب، قربني إلى الجنة، ويقسـم لربه ألا يسـأله غير ذلك، فإذا رأى ما في الجنة سـأل ربه أن يدخله الجنة، فإذا أدخلـه الجنة، قال له: تمنّ، فإذا انقطعت أمنيته، قال الله له: لك ذلك وعشــرة أمثاله معه(٢).

فقـد يقـال: إن ذاك هو المراد هنـا، وقـد يكونان اثنين أو نوعين، فالله أعلم؛ ولكن الظاهر أنه رجل واحد، لا جنس ولا نوع، فالأحاديث تدل على ذلك، مثل الخطاب الذي يجري بينه وبين رب العالمين، وكل سياق الحديث بألفاظه تدل على ذلك.

وقوله: «**آخر أهل النار خروجـًا من النار**»؛ يعني: بأهل النار من الموحدين الذين يدخلون النار بذنوبهم، أما أهل النار الذين ماتوا على الكفر فهم لا يخرجون منها أبد

(١) رواه البخاري برقم (٧٥١١)، ومسلم برقم (١٨٦).

(٢) رواه البخاري برقم (٦٥٧٣)، ومسلم برقم (١٨٢).

الآباد، كما قال الله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦]، والآيات في ذلك كثيرة.

وقوله: «**يخرج حبواً**»؛ يعني: على ركبتيه ويديه، فلا يستطيع الاعتماد على رجليه، والمشي عليهما؛ يسمى حبواً.

وقوله: «**فيقول له ربه: ادخل الجنة، فيقول: رب، الجنة ملأى، فيقول له ذلك ثلاث مرات، وفي كل ذلك يعيد عليه: الجنة ملأى، فيقول: إن لك مثل الدنيا عشر مرار**»؛ هذا هو محل الشاهد من الحديث؛ لما فيه من كلام الله تعالى ومخاطبته لهذا الرجل، الذي هو آخر من يدخل الجنة.

وواضح من هذا أن الله تعالى يكلمه بدون واسطة، وأن ذلك يتكرر، ثم يقول له في النهاية: «**إن لك مثل الدنيا عشر مرار**»، ولهذا بهت الرجل من ذلك.

وَعَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ، أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ فِي النَّجْوَى؟، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَدْنُو أَحَدُكُمْ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَضَعَ كَنَفَهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولُ: أَعَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا؟، فَيَقُولُ: نَعَمْ، وَيَقُولُ: عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا؟، فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَرِّرُهُ، ثُمَّ يَقُولُ: إِنِّي سَتَرْتُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»[1].

«**صفوان بن مُحْرِز**»؛ المازني أو الباهلي، ثقة عابد، من التابعين، مات سنة أربع وسبعين، رَحِمَهُ اللهُ.

وقوله: «**أن رجلاً سأل ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا**»؛ لم أقف على اسم السائل، لكن يرجح بعض المحققين أنه يمكن أن يكون سعيد بن جبير - وهو من التابعين - رَحِمَهُ اللهُ.

و«**ابن عمر**»؛ هو عبد الله بن عمر بن الخطاب، أبو عبد الرحمن، صحابي مشهور، مات سنة ثلاث وسبعين، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وعن أبيه.

---

(١) رواه البخاري برقم (٧٥١٤)، ومسلم برقم (٢٧٦٨).

وقوله: «**في النجوى**»؛ النجوى: هي المحادثة بين اثنين أو أكثر سراً، بحيث لا يسمع حديثهم من قرب منهم، والمقصود هنا: كلام الرب تعالى مع عبده سراً.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «المراد من النجوى في الحديث: المناجاة التي تقع من الرب سبحانه وتعالى يوم القيامة مع المؤمنين».

وقوله: «**يدنو أحدكم من ربه**»؛ هذا ظاهر في أن العبد يدنو من ربه، وهو نص في أن الله تعالى هو الذي يُدني عبده من نفسه.

وقوله: «**حتى يضع كنفه عليه**»؛ الكنف هو الستر؛ والمعنى: أنه – تعالى – يستر عبده عن رؤية الخلق له؛ لئلا يفتضح أمامهم، فيُخْزَى، لأنه حين السؤال والتقرير بذنوبه تتغير حاله، ويظهر على وجهه الخوف الشديد، ويتبين فيه الكرب والشدة.

وقوله: «**فيقول: عملت كذا وكذا؟، فيقول: نعم، ويقول: عملت كذا وكذا؟، فيقول: نعم، فيقرره**»؛ هذا هو المقصود من إيراد الحديث هنا؛ لأن فيه مخاطبة الله تعالى لعبده وتقريره بذنوبه، ثم يقول له: «**أنا سترت عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم**»؛ وهو واضح جداً في أن الله سبحانه يكلم عباده يوم القيامة، ويخاطبهم مخاطبة فيها محاسبتهم وتقريرهم بنعمه عليهم، وبذنوبهم، ويخاطبهم في غير ذلك.

وقوله: «**ثم يقول: إني سترت عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم**»؛ هذا أيضاً صريح في أنه تعالى يكلم عباده بذلك ممتناً عليهم بأنه قد ستر عليهم في الدنيا حيث كانوا يبارزون الله عز وجل بالذنوب، فيستر عليهم مع عصيانهم له، ثم غفرها لهم في الآخرة.

فهذا هو الكرم العظيم، والحلم الواسع، والفضل الجزيل.

وقوله: «**وأنا أغفرها لك**»؛ المغفرة: هي محو الذنب ووقاية تبعته.

وعلى كلٍّ فالدلالة من هذا الحديث ظاهرة جداً، وصريحة في كونه تعالى يتكلم ويقول إذا شاء بما شاء، ويكلم من يشاء من عباده ويقول له بصوت مسموع، إما إكراماً له، أو امتناناً عليه، أو غير ذلك.

فمن نفى ذلك عن الله تعالى فقد قال خلاف قول الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم ممن فهم مراد الله ورسوله ﷺ.

***

المسألة (التاسعة والتسعون):
في ذِكْرِ النَّبِيِّ ﷺ وَرِوَايَتِهِ عَنْ رَبِّهِ

قوله: «**ذكر النبي ﷺ**»؛ المراد ذكر النبي ﷺ ربه عز وجل.

وقوله: «**عن ربه** »؛ متعلق بالذكر والرواية معـًا.

والمراد أن الرسول ﷺ يروي عن ربه ما قاله – تعالى – وأنزل عليه، فالرسول ﷺ يذكر بلفظه الذي هو فعله كلام ربه تعالى، وكلام الله تعالى غير فعل الرسول ولفظه، فاللفظ للرسول ﷺ والملفوظ به هو كلام الله جل وعلا.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ، قَالَ: «إِذَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِذَا تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِذَا أَتَانِي مَشْيًا أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ظاهر الخطاب أن أحد التقديرين من جنس الآخر، وكلاهما مذكور بلفظ المساحة، فلا يخلو إما أن يكون ظاهر اللفظ في تقرب العبد إلى ربه هو تقرب بالمساحة المذكورة، أو لا يكون، فإن كان ذلك هو ظاهر ذلك اللفظ، فإما أن يكون ممكنـًا، أو لا يكون، فإن كان ممكنـًا، فالآخر أيضـًا ممكن، ولا يكون في ذلك مخالفة للظاهر.

فإن لم يكن ممكنـًا فمن أظهر الأشياء للإنسان علمه بنفسه وسعيه، فيكون قد ظهر للمخاطب معنى قربه بنفسه، وقد علم أن قرب ربه إليه من جنس ذلك، فيكون الآخر أيضـًا ظاهراً في الخطاب، فلا يكون ظاهر الخطاب هو المعنى الممتنع، بل ظاهره هو المعنى الحق.

ومن المعلوم أنه ليس ظاهر الخطاب أن العبد يتقرب إلى الله تعالى بحركة بدنه

(١) رواه البخاري برقم (٧٥٣٦).

شبراً، وذراعـًا، ومشيـًا، وهرولة».

وبهـذا يظهر معنى الحـديـث، وأنـه ليس المراد منه: التقرب إلى الله تعالى بحركة البدن بهذه المقادير، والهيئة، وإنما المقصود التقرب إلى الله تعالى بالإنابة والرجوع وإقبال القلب، وفعل الطاعات التي تقرب العبد إلى ربه، وقد قال الرسول ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»[1].

وقرب الله تعالى ودنوه من بعض مخلوقاته لا يستلزم خلوه من فوق عرشـه، بل يقرب إلى من يشـاء من عباده وهو فوق عرشـه، لا يكون شـيء من خلقه فوقه أبداً، ولما قرب كليمه موسى عليه السلام إليه نجيـًا كان – جل وعلا – فوق عرشه، وكذلك غير موسى عليه السلام إذا قربه إليه، فإنه يقرب إليه وهو فوق عرشه - تعالى وتقدس -.

والشـاهد من الحديث قولـه: «**يرويه عن ربه - عز وجل - قال: إذا تقرب**»، فالرسـول ﷺ يروي عن ربه جل وعلا هذا الكلام، الذي تكلم الله سـبحانه به فرواه عنه، سـواء كـان ذلك بواسـطة جبريـل عليه السلام – وهو الظاهر – أو بغير واسـطة، والصحابة رضي الله عنهم سمعوا هذا الكلام بلفظ الرسول ﷺ، وصدقوه بأنه كلام الله تعالى ورواه رسوله ﷺ عنه.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ: «لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: إِنَّهُ خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى وَنَسَبَهُ إِلَى أَبِيهِ»[2].

قولـه: «**يونس بن متى**» عليه السلام؛ هو نبي كريم من أنبيـاء الله تعـالى الـذين جـاءوا بالهدى والنور؛ لإخراج الناس من الظلمات.

قـال العلمـاء: إنمـا قـال ﷺ ذلك تواضـعـًا، إن كان قاله بعد أن علم أنه أفضـل الخلق، وإن كان قاله قبل علمه بذلك فلا إشكال.

وقيل: خص يونس عليه السلام بهذا القول؛ لما يخشـى عليه من سـمع قصـته أن يقع في نفسه تنقص له، فبالغ ﷺ في ذكر فضله؛ لسد هذه الذريعة.

---

(١) رواه مسلم برقم (٤٨٢).

(٢) رواه البخاري برقم(٧٥٣٩)، ومسلم برقم (٢٣٧٧).

وقد روى قصته ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وغيره: أن الله بعث يونس إلى أهل نينوى – وهي من أرض الموصل – فكذبوه، فوعدهم بنزول العذاب في وقت معين، وخرج عنهم مغاضباً لهم، فلما رأوا آثار ذلك خضعوا لله، وتضرعوا، وآمنوا فرحمهم الله، وكشف عنهم العذاب، وذهب يونس،وركب سفينة فلجّت به، فاقترعوا فيمن يطرحونه فوقعت القرعة عليه ثلاثاً، فطرحوه، فالتقمه الحوت، ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾؛ فاستجاب الله تعالى له، وأمر الحوت بطرحه على ساحل البحر، وأنبت الله عز وجل عليه شجرة من يقطين تظله.

و﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾؛ هي ظلمات البحر، وظلمة بطن الحوت، وظلمة الليل.

وجاء في رواية: «ما ينبغي لعبد أن يقول: إني خير من يونس».

وفي أخرى: «لا يقولن أحدكم: إني خير من يونس».

وهذا يدل على أن المقصود: النهي عن المفاضلة بين أنبياء الله عز وجل؛ لئلا يكون ذلك طريقاً إلى تنقص أحد منهم.

والمراد من الحديث قوله: «**فيما يرويه عن ربه**»؛ بهذا لفظ الرسول ﷺ: يروي هذا الكلام عن ربه؛ يعني: أن الله تعالى تكلم به، فرواه لنا عنه رسوله ﷺ، بلفظه الذي هو فعله، وهو مخلوق، وما رواه فهو كلام الله سبحانه غير مخلوق.

وقوله:« **ونسبه إلى أبيه**»؛ يعني: أن «**متى**» هو أبوه، وليس ذلك اسم أمه، وأراد به الرد على من زعم أن «**متى**» اسم أمه.

***

المسألة (المئة):

في قَوْلِ الله تَعَالَى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ [القيامة: ١٦]، وفعل النبي ﷺ حين ينزل عليه الوحي

يقصد بهذا التمييز بين فعل العبد، وفعل الرب سبحانه وتعالى وصفاته؛ فتحريك النبي ﷺ لسانه بالوحي هو فعله، ولكن المحرك به اللسان هو كلام الله وصفته؛ ولهذا قال: «**وفعل النبي ﷺ حين ينزل عليه الوحي**».

وقال البخاري رَحِمَهُ اللهُ في كتابه «خلق أفعال العباد»: سمعت عبد الله بن سعيد يقول: سمعت يحيى بن سعيد يقول: ما زلت أسمع من أصحابنا يقولون: إن أفعال العباد مخلوقة؛ يعني: حركاتهم، وأصواتهم، واكتسابهم، وكتابتهم مخلوقة، فأما القرآن المتلو المبين المثبت في المصاحف، المسطور، المكتوب، الموعى في القلوب، فهو كلام الله عز وجل، ليس بمخلوق، قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١-٢٢]، فذكر أنه يحفظ ويسطر.

وقال أيضًا: فأما المداد، والرق، ونحوه، فإنه مخلوق، كما أنك تكتب «الله»، فالله في ذاته هو الخالق، وخطك واكتسابك من فعلك خلق؛ لأن كل شيء دون الله بصنعه، وهو خلق، وقال الله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

وقد جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾، قال: كان النبي ﷺ يُعَالِج من التنزيل شدةً، وكان يحرك شفتيه فقال لي ابن عباسٍ: فأنا أحركهما لك كما كان رسول الله ﷺ يحركهما، فقال سعيدٌ: أنا أحركهما كما كان ابن عباسٍ يحركهما، فحرك شفتيه، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ قال: جمعه في صدرك، ثم تقرؤه: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ قال: فاستمع له وأنصت، ثم إن علينا أن تقرأه، قال: فكان رسول الله ﷺ إذا أتاه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ استمع فإذا انطلق جبريل، قرأه النبي ﷺ كما أقرأه[1].

---

(١) رواه البخاري برقم (٧٥٢٤).، ومسلم برقم (٤٤٨).

فقوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾؛ أي: لا تحرك بالقرآن لسانك، فدل على أن المحرك به غير الحركة والتحرك، فذلك فعل العبد، بخلاف المحرك به فإنه القرآن.

وقول ابن عباس رضي الله عنهما: «يُعَالِج من التنزيل شدة»؛ أي: أنه كان يتحمل همًا، ويعاني كربًا وخوفًا من أن يذهب عنه ما يلقيه جبريل عليه السلام إليه، فلذلك كان يحرك لسانه وشفتيه بترديد ما يقوله جبريل عليه السلام، لعله يثبت معه، وقد وصف ابن عباس رضي الله عنهما لسعيد بن جبير رحمه الله بالتمثيل، مما يدل على أن ابن عباس رضي الله عنهما قد شاهد رسول الله ﷺ في تلك الحالة.

فلما نهاه ربه تعالى عن ذلك الفعل، وأخبره أنه سوف يثبته في صدره، وإنما عليه أن يستمع إلى جبريل عليه السلام، وأن الله تعالى يتولى جمعه في صدره ﷺ وحفظه، ترك ما كان يفعله.

وهذا من الحفظ للقرآن الذي أخبر تعالى أنه يحفظه، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

فكان النبي ﷺ يستمع إلى جبريل عليه السلام، فإذا انتهى قرأه النبي ﷺ كما قرأه جبريل عليه السلام.

وبعدها جاء قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾؛ أي: إذا قرأه عليك جبريل عليه السلام الذي أمره الله سبحانه بذلك، فاتبع قراءته، فإسناد الفعل إلى ضمير المتكلم المعظم، الذي هو الله تعالى؛ لأنه - جل وعلا - هو الآمر، وهو المتكلم به، وجبريل عليه السلام رسوله إلى محمد ﷺ، والرسول يبلغ رسالة من أرسله.

قال الله عزوجل: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤].

قوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾؛ أراد النبي ﷺ، فإنه كان إذا نزل عليه جبريل عليه السلام بالقرآن يبادر فيقرأ معه، قبل أن يفرغ جبريل عليه السلام مما يريد من التلاوة، ومخافة الانفلات والنسيان، فنهاه الله تعالى عن ذلك.

فالمراد لا تعجل بقراءتك ﴿مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾؛ أي: من قبل أن يفرغ جبريل عليه السلام من الإبلاغ، وهي نظير قول الله جل وعلا: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ

لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ﴾.

ففيها أيضـــًا إثبات أن تلاوة النبي ﷺ وتعجيله بحفظه، هو فعله وهو مخلوق، وأما ذات القرآن المرسل به جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فهو كلام الله تعالى ليس مخلوقـًا.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قَالَ الله تَعَالَى: أَنَا مَعَ عَبْدِي حَيْثُمَا ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ»(١).

قوله: «**قال الله تعالى**»؛ هذا يدل على أنه حديث قدسي.

وقوله: «**أنا مع عبدي**»؛ الله سـبحانه وتعالى فوق عرشــه، وهو مع عبده معية خاصة، تقتضي الحفظ والتوفيق والتأييد.

وقوله: «**وتحركت بي شفتاه**»؛ أي: تحركت باسم الله تعالى شفتاه.

والمراد منه قوله: «**وتحركت بي شــفتاه**»، وكذا قوله: «**حيثما ذكرني**»؛ أنه فعل العبد وعمله الذي يجازيه الله عز وجل عليه، والشــفتان واللســان تتحرك بذكر الله تعالى واسمه وصفته، لا بذاته تعالى.

وقال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «القراءة هي التلاوة، والتلاوة غير المتلو، وقد بينه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «اقرءوا إن شئتم: يقول العبد: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾، فيقول الله: حمدني عبدي، يقول العبد: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ فيقول الله: مجدني عبدي، يقول العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾، فيقول الله: هذه بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل»(٢).

فبين أن ســؤال العبد غير ما يعطيه الله تعالى للعبد، وأن قول العبد غير كلام الله سبحانه، هذا من العبد الدعاء والتضرع، ومن الله جل وعلا الأمر والإجابة.

فالقراءة لا تكون إلا من الناس، وقد تكلم الله جل جلاله بالقرآن من قبل، وكلامه قبل خلقه».

* * *

(١) رواه أحمد (٢/ ٥٤٠)، وصححه الألباني؛ انظر «صحيح الجامع» برقم (١٩٠٦).

(٢) رواه مسلم برقم (٣٩٥).

المسألة (الأولى بعد المئة):
في حِمَايَةِ النَّبِيِّ ﷺ حِمَى التَّوْحِيْدِ، وَسَدِّهِ طُرقَ الشِّرْكِ

النبي ﷺ حَمَى وحرس جناب التوحيد، وسد كل طريق توصل إلى الشرك؛ فإن في سنة النبي ﷺ من الدلائل على قاعدة سد الذرائع الكثير من الأحاديث.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

قوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾؛ يمتن الله تعالى على عباده المؤمنين بما بعث فيهم النبي الأمي الذي من أنفسهم، يعرفون حاله، ويتمكنون من الأخذ عنه، ولا يأنفون عن الانقياد له، وهو ﷺ في غاية النصح لهم، والسعي في مصالحهم.

وقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾؛ أي: يشق عليه الأمر الذي يشق عليكم ويعنتكم.

وقوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾؛ فيحب لكم الخير، ويسعى جهده في إيصاله إليكم، ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان، ويكره لكم الشرك والشر، ويسعى جهده في تنفيركم عنه.

وقوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: شديد الرأفة والرحمة بهم، أرحم بهم من والديهم؛ ولهذا كان حقه مقدمًا على سائر حقوق الخلق، وواجب على الأمة الإيمان به، وتعظيمه، وتعزيره، وتوقيره، واتباعه بكل ما جاء به، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

وَعَنْ عَبْدِ الله بْنِ الشِّخِّيْرِ ﷺ، قَالَ: انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا، فَقَالَ: «السَّيِّدُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى»، قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلاً، وَأَعْظَمُنَا طَوْلاً؛ فَقَالَ: «قُوْلُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ»[1].

«**عبد الله بن الشخير**»؛ ابن عوف العامري، أبو مطرف، صحابي جليل، ﷺ.

وقوله: «**انطلقت في وفد بني عامر**»؛ الظاهر أن هذا الوفد قدم على النبي ﷺ في العام التاسع؛ لأن الوفود كثرت في ذلك العام، ولذلك يسمى العام التاسع عام الوفود.

وقوله: «**أنت سيدنا**»؛ السيد: ذو السؤدد والشرف، والسؤدد معناه: العظمة والفخر.

وقوله: «**السيد الله**»؛ لم يقل ﷺ: سيدكم كما هو المتوقع، حيث إنه رد على قولهم «**سيدنا**»؛ والظاهر كان منه هذا لوجهين:

الأول: إرادة العموم المستفاد من «أل»؛ لأن «أل» للعموم؛ والمعنى: أن الذي له السيادة المطلقة هو الله عز وجل، ولكن السيد المضاف يكون سيداً باعتبار المضاف إليه؛ مثل: سيد فلان، سيد البشر، وما أشبه ذلك.

والثاني: لئلا يتوهم أنه من جنس المضاف إليه؛ لأن السيد كل شيء من جنسه.

والسيد من أسماء الله تعالى؛ وهي من معاني الصمد، كما فسر ابن عباس ﷺ الصمد: بأنه الكامل في علمه وحلمه وسؤدده وما أشبه ذلك.

ولم ينههم ﷺ عن قولهم: «**أنت سيدنا**»، بل أذن لهم بذلك، فقال: «**قولوا بقولكم**» أو بعض قولكم، لكن نهاهم أن يستجريهم الشيطان، فيترقوا من السيادة الخاصة إلى السيادة العامة المطلقة؛ لأن «**سيدنا**» سيادة خاصة مضافة، و«**السيد**» سيادة عامة مطلقة غير مضافة.

وقوله: «**تبارك وتعالى**»؛ أي: تعاظم و كثرت خيراته، ولهذا يقولون: إن هذا لا

---

(١) رواه أحمد(٤/ ٢٤-٢٥)، وأبو داود برقم (٤٨٠٦)، وصححه الألباني؛ انظر «صحيح الجامع» برقم (٣٧٠٠).

يوصف به إلا الله عز وجل، فلا يقال: تبارك فلان؛ لأن هذا الوصف خاص بالله جل وعلا.

وقوله: «**وأفضلنا**»؛ أي: فضلك أفضل من فضلنا.

وقوله: «**وأعظمنا طَوْلاً**»؛ أي: أعظمنا شرفًا وغنى؛ والطَوْل: الغنى، قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ [النساء: ٢٥]؛ ويكون بمعنى العظمة، قال الله تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ [غافر: ٣]؛ أي: ذي العظمة والغنى.

وقوله: «**قولوا بقولكم أو بعض قولكم**»؛ الأمر للإباحة والأذن بقولهم: «**أنت سيدنا**»، أو أنت أفضلنا، وما أشبه ذلك، وأما قوله: «**أو بعض قولكم**»؛ يحتمل أن يكون شكًا من الراوي، أو أن يكون من لفظ الحديث؛ أي: اقتصروا على بعضه.

وقوله: «**ولا يستجرينكم الشيطان**»؛ استجراه بمعنى: جذبه وجعله يجري معه؛ أي: لا يستميلنكم الشيطان ويجذبنكم إلى أن تقولوا قولاً منكراً؛ فأرشدهم ﷺ إلى ما ينبغي أن يُفعل، ونهاهم عن الأمر الذي لا ينبغي أن يُفعل، حماية للتوحيد من النقص أو النقض.

فمراد النبي ﷺ حماية التوحيد وسد كل طريق يوصل إلى الشرك، والحماية من المنكر تعظم كلما كان المنكر أعظم وأكبر، أو كان الداعي إليه في النفوس أشد.

ولهذا تجد أن باب الشرك حماه النبي ﷺ حماية بالغة حتى سد كل طريق يمكن أن يكون ذريعة إليه، لأنه أعظم الذنوب.

فالشرك قد يكون من الأمور التي لا تدعوا إليه النفوس كثيراً لكنه أعظم الظلم، فالشيطان يحرص أن يوصل ابن آدم إلى الشرك بكل وسيلة، فحماه النبي ﷺ حماية تامة محكمة، حتى لا يدخل الإنسان فيه من حيث لا يشعر.

ويقول البعض أن هذا الحديث في ظاهره تعارض مع قوله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم»[١]، وقوله: «قوموا إلى سيدكم»[٢]، وقوله في الرقيق: «وليقل

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٢٧٨).

(٢) رواه البخاري برقم (٣٠٤٣)، ومسلم برقم (١٧٦٨).

سيدي ومولاي»[١].

والذي يظهر أن لا تعارض؛ لأن النبي ﷺ أذن لهم أن يقولوا بقولهم، لكن نهاهم أن يستجريهم الشيطان بالغلو مثل «السيد» لأن السيد المطلق هو الله تعالى، وعلى هذا فيجوز أن يقال: سيدنا وسيد بني فلان ونحوه، ولكن بشرط أن يكون الموجه إليه السيادة أهلاً لذلك، أما إذا لم يكن أهلاً، كما لو كان فاسقاً أو زنديقاً، فلا يقال له ذلك، حتى ولو فرض أنه أعلى منه مرتبة أو جاهاً، وقد جاء عن النبي ﷺ قوله: «لا تقولوا للمنافق سيد، فإنه إن يكن سيداً فقد أسخطتم ربكم عز وجل»[٢]، فإذا كان أهلاً لذلك، وليس هناك محذور فلا بأس به، وأما إن خشي المحذور أو كان غير أهل، فلا يجوز.

والمحذور: هو الخشية من الغلو فيه.

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، أَنَّ نَاسَاً قَالُوا: يَا رَسُوْلَ الله: يَا خَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا، وَسَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِدِنَا، فَقَالَ ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدٌ، عَبْدُ الله وَرَسُوْلُهُ، مَا أَحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي الله عَزَّ وَجَلَّ»[٣].

«**أنس**»؛ ابن مالك بن النَّضْر الأنصاري الخَزْرجي، خادمُ رسول الله ﷺ، خدمه عشر سنين، صحابي مشهور، مات سنة اثنتين وتسعين، وقد تجاوز المئة رضي الله عنه.

وقوله: «**قالوا: يا رسول الله**»؛ هذا النداء موافق لقوله تعالى: ﴿ **لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا** ﴾ [النور: ٦٣]؛ أي: لا تنادوه كما ينادي بعضكم بعضاً، فتقولوا: يا محمد ! ولكن قولوا: يا رسول الله!، أو يا نبي الله!.

وفي الآية معنى آخر؛ أي: إذا دعاكم الرسول، فلا تجعلوا دعاءه إياكم كدعاء

---

(١) رواه البخاري برقم (٢٥٥٢)، ومسلم برقم (٢٢٤٩).

(٢) رواه أبو داود برقم (٤٩٧٧)، وصححه الألباني؛ انظر: «الصحيحة» برقم (٣٧١).

(٣) رواه أحمد (٣/ ١٥٣ و ٢٤١)، وصححه الألباني؛ انظر: «الصحيحة» برقم (١٥٧٢).

بعضكم بعضـاً إن شئتم أجبتم وإن شئتم أبيتم، فهو كقوله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقوله: «**يا خيرنا**»؛ هذا صحيح، فهو خيرنا نسباً، ومقاماً، وحالاً.

وقوله: «**وابن خيرنا**»؛ أي: في النسب لا في المقام والحال، وكذلك يقال في قوله: «**وابن سيدنا**».

وقوله: «**قولوا بقولكم**»؛ سبق توضيحه.

وقوله: «**لا يستهوينكم الشيطان**»؛ أي: لا يستميلنكم الشيطان فتهووه وتتبعوا طرقه حتى تبلغوا الغلو، ونظيره قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ ﴾ [الأنعام: ٧١].

وقوله: «**أنا محمد عبد الله ورسوله**»؛ محمد اسمه العلم، وعبد الله ورسوله وصفان له؛ وهذان الوصفان أحسن وأبلغ وصف يتصف به الرسول ﷺ، ولذلك وصفه الله تعالى بالعبودية في أعظم المقامات، فوصفه بها في مقام إنزال القرآن عليه، قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ [الفرقان: ١]، ووصفه بها في مقام الإسراء، قال الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾ [الإسراء: ١]، ووصفه بها في مقام المعراج قال الله تعالى: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ [النجم: ١٠]، ووصفه في مقام الدفاع عنه والتحدي، قال الله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣].

والعبودية لله عز وجل من أجل أوصاف الإنسان؛ لأن الإنسان إما أن يعبد الله سبحانه أو الشيطان، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۞ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [يس: ٦٠-٦٢].

ووصف نفسه بالرسول؛ أي: المرسل من عنده إلى جميع الناس، كما قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقوله: «**ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي**»؛ «**ما**» نافية؛ أي: ما أحب رفعتكم إياي

فوق منزلتي، لا في الألفاظ، ولا في الألقاب، ولا في الأحوال.

وقوله: «**التي أنزلني الله**»؛ يستفاد منه أن الله تعالى هو الذي يجعل الفضل في عباده، وينزلهم منازلهم.

فإذن التوحيد يجب أن يحمى من كل وجه حتى في الألفاظ، ليكون خالصا من كل شائبة.

* * *

المسألة (الثانية بعد المئة):
فِي أنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَ الرَّسُول ﷺ بِتَبْلِيْغِ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ

جاء عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: من حدثك أن النبي ﷺ كتم شيئًا من الوحي فلا تصدقه، إن الله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾(1).

وقولها: «فلا تصدقه»؛ يعني: أن من زعم ذلك فهو كاذب، ولا يكفي أنه لا يصدق، بل لا يصح إسلامه، ويجب تعريفه أن الرسول ﷺ بلغ رسالة ربه؛ فإن اعترف بذلك وآمن به وإلا فهو مرتد.

والمقصود أن الرسول ﷺ بلغ جميع ما يلزم الأمة في دينها، وما يصلحها وينفعها، ولم يترك شيئًا مما ينبغي العمل به أو علمه واعتقاده إلا وأخبر به وبلغه كما أمر.

فكل ما لم يخبر به أو يأمر به أمته فليس من رسالته، وهو بدعة منكرة.

فيجب الوقوف مع ما جاء به من الكتاب والسنة، ولا بد أنه ﷺ امتثل ما أمره الله جل وعلا به من إبلاغ الرسالة قولاً وعملاً، فبلغها على الوجه الأتم الأكمل.

وقال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: «أمر الله نبيه بإبلاغ أهل الكتاب والمشركين ما أنزل الله عليه فيهم، من معايبهم، وما أمرهم به، ونهاهم عنه، وأن لا يشعر نفسه حذراً منهم أن يصيبوه بمكروه إذا قام فيهم بأمر الله، وأن لا يتقي إلا الله، فإنه كافيه كل أحد، ودافع عنه كل مكروه.

وأعلمه أنه إن قصر عن إبلاغ شيء مما أنزله إليه فيهم فهو من عظيم ما ارتكب من الذنب، بمنزلة ما لو لم يبلغ من الرسالة شيئًا».

وقال الزهري رَحِمَهُ اللَّهُ: «من الله عز وجل الرسالة، وعلى الرسول ﷺ البلاغ، وعلينا

---

(1) رواه البخاري برقم (٧٥٣١)، ومسلم برقم (١٧٧).

التسليم».

وفي هذه المسألة بيان أن أفعال العباد تنسب إليهم؛ لأن التبليغ فعل المبلغ بنفسه، والمراد بالتبليغ: أن يبلغ كلام الغير، فالمبلغ شخص يبلغ كلام الغير عن الغير؛ فالرسول ﷺ مبلغ عن الله عز وجل، وليس مبتدئًا للكلام، ولا منشئًا له، بل الذي أنشأ الكلام هو الله عز وجل، فالله تعالى تكلم بالقرآن، والرسول صلى الله عليه وسلم بلغه، وتبليغ القرآن فعل الرسول صلى الله عليه وسلم منسوب إليه من جملة أفعاله التي هي مخلوقه لله تعالى، والكلام لله عز وجل، ولهذا فإن الإنسان إذا قرأ كلام الغير، فيكون مبلغًا ولا يكون مبتدئًا له؛ فدل على أن رسول الله ﷺ مبلغ عن الله جل جلاله، والله تعالى هو المتكلم بالقرآن، فالقرآن كلام الله غير مخلوق، وأما فعل الرسول ﷺ وتبليغه فهي أفعال له منسوبة إليه.

إذن فالكلام إنما يضاف إلى من قاله لا إلى من بلغه، فهو كلام الله تعالى، والرسول الذي بلغه؛ سواءٌ أكان الرسول جبريل أم محمداً إنما منه التبليغ، وقد ذكر الله ذلك في عدة آيات، كقوله تعالى: ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾ [الشورى:٤٨]، وقوله تعالى: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ﴾ [المائدة:٩٩]، وقوله تعالى: ﴿بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧]، وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ ﴾ [الأحزاب:٣٩]، فالتبليغ معناه إيصال ما بعث به إلى المرسل إليهم كما هو دون نقص أو تغيير.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾؛ نودي ﷺ بعنوان الرسالة تشريفًا له، وهذه من خصائصه ﷺ دون سائر الأنبياء والمرسلين. فإن الأنبياء عامتهم قد ناداهم الله تعالى بأسمائهم، فقال (يا نوح) (يا آدم) (يا عيسى ابن مريم) (يا موسى) (يا داود)، وأما محمد ﷺ فلم يناد باسمه قط في القرآن الكريم، وإنما نودي بصفاته، كما في قوله

تعالى هنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٥]، وهكذا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل:١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر:١]، ولم يأت في القرآن قط (يا محمد)

فـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ هو نداء له ﷺ بعنوان الرسالة تشريفاً له، وإيذاناً بأنها من موجبات الإتيان بما أمر به من التبليغ؛ يعني: ما دمت رسولاً فيجب عليك أن تبلغ الرسالة التي كلفت بأن تبلغها.

وقوله تَعَالَى: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾؛ هذا أمر من الله جل جلاله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم بأعظم الأوامر وأجلها؛ وهو التبليغ لما أنزل الله تعالى إليه، ويدخل في هذا كل أمر تلقته الأمة عنه ﷺ من العقائد والأعمال والأقوال، والأحكام الشرعية والمطالب الإلهية ومن أعظم ذلك معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته، ومعرفة توحيده سبحانه وتعالى .

وإن من الخذلان أن ينصرف العبد عما بلغه الرسول ﷺ، ويعتقد أن الحق والهدى في كلام أهل الجدل والفلسفة، الذين يعتمدون على آرائهم وعقولهم، فيما يجب لله تعالى، وما يمتنع عليه .

وقوله: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ﴾؛ أي: لم تبلغ ما أنزل إليك من ربك، ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾؛ أي: فما امتثلت أمره .

والمعنى: بلغ جميع ما أنزل إليك من ربك، فإن كتمت شيئاً منه فما بلغت رسالته، وهذا تأديب للنبي ﷺ، وتأديب لحملة العلم من أمته ألا يكتموا شيئاً من أمر شريعته، وقد علم الله تعالى من أمر نبيه ﷺ أنه لا يكتم شيئاً من وحيه، وقد بلغ ﷺ أكمل تبليغ، ودعا وأنذر، وبشر ويسر، وعلم الجهال الأميين حتى صاروا من العلماء الربانيين، وبلّغ بقوله وفعله وكتبه ورسله؛ فلم يبق خير إلا دل أمته عليه، ولا شر إلا حذرها عنه، وشهد له بالتبليغ أفاضل الأمة من الصحابة رضي الله عنهم، فمن بعدهم من أئمة الدين ورجال المسلمين، وهذا مما ولا يشك به مسلم؛ فقد امتثل الرسول ﷺ أمر ربه عز وجل، وبلغ البلاغ المبين، حتى ترك أمته على المحجة البيضاء، ليلها

كنهارها، لا لبس فيها ولا غموض.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ هذه حماية وعصمة من الله تعالى لرسوله ﷺ من الناس، وأنه ينبغي أن يكون حرصك على التعليم والتبليغ، ولا يثنيك عنه خوف من المخلوقين، فإن نواصيهم بيد الله عز وجل، وقد تكفل بعصمتك، فأنت إنما عليك البلاغ المبين، فمن اهتدى فلنفسه.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أما الكافرون الذين لا قصد لهم إلا اتباع أهوائهم، فإن الله تعالى لا يهديهم ولا يوفقهم للخير ولا يرشدهم، بسبب كفرهم.

وَقَالَ الله تَعَالَى ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ الجن: ٢٨].

قال الله تعالى قبل هذه الآية: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا * لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾.

فدَلَّتْ هذه الآيات أنَّ علم الغيب مختصٌ بالله عز وجل، والمقصود به علم الغيب المُسْتَقْبَل؛ يعني: ما سيكون في الأرض أو في السماء هذا لا يعلمه على اليقين والحقيقة إلا الله عز وجل، وإنما الناس يَخْرُصونَ في ذلك، فواجبٌ اعتقاد أنَّ الله عز وجل يعلم الغيب وحده جل جلاله وتقدست أسماؤه، ومن ادَّعَى شيئًا من علم الغيب فإنما هو من الشياطين أو من إخوان الشياطين، كما قال - عز وجل -: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ [الأنعام: ١٢٨]، فذكر أَنَّ الجني يستمتع بالإنسي بعبادته له وتقرُّبِهِ له، وأنَّ الإنس يستمتع بالجني بما يخبره من المُغَيَّبَات وما يكون.

والله عز وجل قد يُعْطِي بعض علم الغيب لرسولٍ من الرسل؛ قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا * لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ

رَبِّهِمْ﴾، فالذي اِسْتُثْنِي هو الرسول؛ والرسول نوعان: رسول من الملائكة، أو رسول من البشر.

وهؤلاء يُسْتَثْنَونَ فيما أراد الله عز وجل أن يُعْلِمَهُم إياه من أمور الغيب، لحكمته - عز وجل - ولكمال علمه وقدرته.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿**فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا**﴾؛ أي: تحفظه الملائكة من بين يديه ومن خلفه.

وقوله: ﴿**لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا**﴾؛ وإيراد علمه تعالى في قوله: ﴿**لِّيَعْلَمَ**﴾ للعناية بأمر الإبلاغ، والإشعار بترتب الجزاء عليه، والمبالغة في الحث عليه، والتحذير من التفريط فيه.

والمراد بهذا: أن إبلاغ الرسالة من الرسول فعل له، وأن الكلام الذي جاء به يبلغه صفة لله سبحانه وتعالى، أعلمه له.

وقوله: ﴿**وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ**﴾؛ أي: بما عند الرسل عليهم السلام، جيء بها لتحقيق استغنائه تعالى في العلم بالإبلاغ عما ذكر عن طريق الرصد.

وقوله: ﴿**وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا**﴾؛ أي: فرداً فرداً؛ لسعة علمه، وهذا تقرير تام لإحاطته بما عند الرسل من وحيه وكلامه ووعده ووعيده.

وَقَالَ أَنَسٌ رضي الله عنه بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خَالَهُ حَرَامـًا إِلَى قَوْمِهِ، وَقَالَ: «أَتُؤْمِنُونِي أُبَلِّغُ رِسَالَةَ رَسُولِ الله ﷺ فَجَعَلَ يُحَدِّثُهُمْ»[1].

«**أنس**»؛ ابن مالك بن النضر الأنصاري، خادم رسول الله ﷺ.

وقوله: «**بعث النبي ﷺ خاله حرامـًا إلى قومه**»؛ هو حرام بن مِلحان الأنصاري، وهو خال أنس رضي الله عنهما جميعـًا.

وهذا طرف من الحديث وهو بتمامه؛ قال: «بعث النبي ﷺ أقوامـًا من بني سليم إلى بني عامر، في سبعين، فلما قدموا قال لهم خالي: أتقدمكم، فإن أمَّنُوني حتى

(١) رواه البخاري برقم (٤٠٩١)، ومسلم برقم (٦٧٧) واللفظ للبخاري.

أبلغهم عن رسـول الله ﷺ وإلا كنتم مني قريبـًا، فتقدم فأمَّنُوه، فبينما يحدثهم عن النبي ﷺ إذ أَوْمَؤُوا إلى رجل منهم فطعنه فأنفذه، فقال: الله أكبر، فزت ورب الكعبة، ثم مالوا على بقية أصحابه فقتلوهم إلا رجلاً أعرج صعد الجبل، فأخبر جبريل عليه السلام النبي ﷺ أنهم قد لقوا ربهم، فرضي عنهم، وأرضاهم، فكنا نقرأ: بلغوا قومنا أن قد لقينا ربنا فرضي عنا، وأرضانا، ثم نسخ بعد، فدعا عليهم أربعين صباحـًا، على رَعْلٍ، وذَكْوَان، وبني لِحْيان، وبني عُصَيَّة، الذين عصوا الله ورسوله».

وقولـه: «فجعل يحدثهم»؛ أي: يخبرهم؛ فحديثه إياهم عن رسـول الله ﷺ هو إبلاغهم الرسالة، وهو ما فيه أمره ونهيه مما هو شرع لله الذي كلف العباد به.

والله تعالى كلف رسله إبلاغ قومهم، وعلى ذلك يجزيهم ما يستحقون من الأجر، والجزاء يكون على عمل العامل؛ فقال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٣٩]، وقال نوح عليه السلام لقومه: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٦١-٦٢]، وقال هود عليه السلام لقومه: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ [الأعراف: ٦٨]، وقال صالح عليه السلام لقومه: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٩]، وقال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٩٣]، وقال -تعالى-: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النحل: ٨٢]، وقال -تعالى-: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ [المائدة: ٩٩]، وقال -تعالى-: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥].

والبلاغ يكون بإبلاغ ما أنزل الله سبحانه وتعالى، وقد أمر النبي ﷺ أمته بأن يبلغوا

عنه؛ فقال: «بلغوا عني ولو آية»[١]، فوجب على كل مسلم - علم علماً من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ - أن يبلغه، ولأن العلماء هم أكثر من يحمل رسالة الأنبياء لتبليغها ونشرها، كانوا هم ورثة الأنبياء، والأنبياء عليهم السلام لا يورث عنهم المال، ولم يرسلوا لجمع المال، وترك المال لأقاربهم الوارثين، بل المال لا يورث عنهم، قال النبي ﷺ: «إنا معاشر الأنبياء لا نورث؛ ما تركناه صدقة»[٢]؛ فميراثهم هو العلم النافع، والعلماء هم الذين يرثونهم ويتلقون ذلك الميراث، ويحافظون عليه، ويعنون به، وينشرونه ويبذلونه ويعملون بما فيه، ويدعون الناس إلى العمل بما فيه، هذا هو شأن العلماء؛ قال رسول الله ﷺ: «إن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[٣].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

* * *

(١) رواه البخاري برقم (٣٤٦١).

(٢) رواه مسلم برقم (١٧٥٧).

(٣) رواه أبو داود برقم (٣٦٤٣)، وصححه الألباني؛ انظر «صحيح الجامع» برقم (٦٢٩٧).

فهرس المسائل